سيار الجميل

تفكيك هيكل

مكاشفات نقدية في اشكاليات محمد حسنين هيكل



الأهلية

تفكيك هيكل

مكاشفات نقدية في إشكاليات

محمد حسنين هيكل

الأهليّة للنشر والتوزيع

المملكة الأردنيّة الهاشميّة ، عمّان
وسط البلد ، خلف مطعم القدس
هاتف ٤٦٣٨٦٨٨ ، فاكس ٤٦٥٧٤٤٥
ص. ب : ٧٧٧٢ عمّان / الأردن

بالاشتراك مع
AZZAMAN
International Group for Media & Communications
London, 33 Hanger Lane - W5 3Hi - U.K.

تفكيك هيكل
مكاشفات نقديّة في إشكاليّات محمّد حسنين هيكل
د. سيّار الجميل / العراق

الطبعة العربيّة الأولى ، ٢٠٠٠
حقوق الطبع محفوظة

تصميم الغلاف : زهير أبو شايب / الأردن

لوحة الغلاف :
نظمي حامد / العراق
الصفّ الضوئي : الوسام للخدمات المطبعيّة ، عمّان ، هاتف ٤٦٥٧٨٦٩

سيّار الجميل

تفكيك هيكل

مكاشفات نقدية في إشكاليات محمد حسنين هيكل

الأهلية

AZZAMAN
International Group for Media & Communications
London, 33 Hanger Lane - W5 3Hi - U.K.

الاهـــداء

الى كل عربي يسعى لمعرفة الحقيقة الغائبة

سـيّار

المحتويـــات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـوع	الصفحة

الموضـوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـوع	الصفحة

الموضــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
لابد من مشروع حضاري عربي ينبثق من الاعتراف بالخطأ :	٣٧٧
هيكل وبطرس غالي	٣٧٨
رفع العتب بعد حين : ملاحظة تراجع هيكل عن كتاباته !	٣٧٩
قتل القتيل والمشي في جنازته	٣٨٠
عبد الناصر : نحن لا نستطيع أن نأخذ الأحفاد بماضي الأجداد	٣٨٠
تساؤلات نقدية صارخة	٣٨١
لماذا المنة والفضل بعد عشرات السنين ؟	٣٨٣
حول المفاوضات العربية - الإسرائيلية	٣٨٤
خامساً : وقفة نقدية من نوع آخر : التاريخ يسافر الى المستقبل	**٣٨٧ - ٤٠٠**
هيكل : بعيدا عن الصورة الأخرى	٣٨٩
هيكل بين توفيق الحكيم ونجيب محفوظ	٣٩٠
جدليات هيكل والتهم الموجهة اليه	٣٩١
اتهامات من نوع آخر ومن كل جانب	٣٩٢
معلومات جديدة ضد هيكل	٣٩٢
مواصفات مهمة مختزلة عن هيكل	٣٩٤
هيكل : مقاربة من أجل الحقيقة	٣٩٥
استنتاجات لابد أن تذكر	٣٩٧
الفصل الخامس : العراق : الأرض الطيبة	
هيكل : التفسير والتحقير	**٤٠١ - ٤٩٤**
أولا : هيكل وثورة العراق ١٩٥٨ م	**٤٠٣**
سنوات الغليان	٤٠٣
انفجار العاصفة : ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ العراقية !	٤٠٣
تشكيك هيكل بالثورة العراقية عام ١٩٥٨	٤٠٤

الموضوع	الصفحة

الموضــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الفصل السادس : الخليج العربي والكنز العجيب

الموضوع	الصفحة
محاسبة الكل لا الجزء	٥٠٩
متى لم يكن الوهم سيد الموقف عند العرب ؟	٥١٠
الاختراق أكبر مما يمكن تصوّره !	٥١٢
خصائص نخب القوة : ماذا يريد هيكل ان يقول ؟	٤١٣
استراتيجية دوايت ايزنهاور	٥١٤
اسئلة وأجوبة	٥١٥
تصويبات تاريخية ثانية	٥١٧
من كان وراء كتاب «حرب الخليج » ؟	٥١٨
منهج كتاب « حرب الخليج »	٥٢٠
محاولة من اجل البحث عن الحقيقة	٥٢٢
تناقضات صارخة	٥٢٣
مصادر معلومات هيكل	٥٢٥
أمنية رائعة لن تتحقق	٥٢٧
انفجار ردود الفعل السياسية لا الفوضى العربية !	٥٢٨
أقاويل ودعايات ليست في محلها	٥٢٩
الجيش العراقي : القدرات والاستلابات	٥٣١
نموذج من الادعاءات	٥٣٢
طلاسم مطلوب فك ألغازها	٥٣٤
الخلط بين الدولي والعالمي	٥٣٥
من أجل فهم للنظام العالمي الجديد	٥٣٦
النظام العالمي البريطاني !	٥٣٧
هل كان للصراع في التاريخ عنصر واحد ؟	٥٣٨
جامعة الدول العربية	٥٣٩

الموضوع	الصفحة

الموضـوع	الصفحة

كلمـــة الناشـــرين

الكتابة موقف أخلاقي ، يتوافر على شجاعة وانصاف وعدل ، ولا أهمية للكتابة حين تكون قفزا على هذه الخواص ، لأنها ستغدو عندئذ ضربا من الاثارة والاحكام المبيتة وتقديم النتائج قبل الشروع بالبحث . . وهو ما يخالف أبسط قواعد الكلمة الموثّقة بالزمان والمكان والوقائع والشهود غير ان من الصعب اماطة اللثام عن حقائق مستورة لكتابات اجترحت لنفسها خطوطا ملتوية ودروبا متخفية وأساليب اقتناصية واجاد كتابها لعبة الاخفاء والمناورة ، لاسيما اذا كان الكاتب خبيرا ماهرا وذكيا ، يجيد رسم المفردة والفكرة باسلوب يجمع بين السلاسة والاثارة القصصية واحداث معاصرة مازال الوجدان العربي يلهج بها منذ عقود زمنية عدة .

ذلك الكاتب هو الاستاذ محمد حسنين هيكل الذي اكتسب شهرة صحافية عربية واسعة ، ونالت كتبه رواجا كبيرا . غير ان الذين قرأوا هيكل قراءة المحلل ، المدقق في آرائه ومروياته وأحكامه ، على كثرتهم في مصر والعالم العربي ، مازالوا قلة حين يكون الامر مواجهة لا فكاك منها لخطايا لا أخطاء ارتكبها كاتب كبير ومرّر من خلالها افكارا شوهاء وأحكاما متعسّفة على دول وزعامات ووقائع عربية من دون استناد الى توثيق تاريخي وعلمي ومنهجي صحيح في صياغة شبيهة بما يفعله بعض الصحافة المغرضة حين تطلع باخبار غير موثقة وتنسبها الى مصادر دبلوماسية مطلعة ، وغالبا ما تكون أخبارا غير صحيحة أو نصف صحيحة . .

وفي كلتا الحالتين لا يجوز اعتمادها لأنها لا تمتلك اشتراطات النص الموثق بشاهد معروف وانسان حي يستطيع اعلان عكس ما نشرته الصحيفة اذا رأى ان ما قيل مجانب للحقيقة . ولكن هيكل وقع في عشرات صحافية ، ما كان ينبغي أن يقع فيها كاتب يريد أن يدخل التاريخ عبر مؤلفاته . واذا انكشفت روايات ملفقة كثيرة لدى كاتب له أسمه وتاريخه ، فان القارىء لا يستطيع الا مراجعة تاريخ ذلك الكاتب كله معيدا قراءة ما سبق ان قرأه بروح جديدة تشكك في كل المقولات والاحكام والنتائج التي مرت عليه في زمن ما . من حق كاتب كبير مثل الاستاذ هيكل أن يهاجم سياسيين عربا لمواقف معينة يرى فيها

خلاف ما رأوه ، وتلك وجهة نظره ، ولكن لا يجوز له مطلقا أن يعيّر السياسي بلونه وشكله وطوله وقصره ، كما عيّر هيكل الرئيس المصري الراحل محمد أنور السادات بأمه ووصفها بالزنجية .

ان انطلاق الكاتب من مفردة عنصرية في تناول زعيم عربي دليل على أن الكتابة لديه قائمة على أساس الكراهية بوصفها مادة ومعينا ومنهجا . وحين يكتشف القارىء بعد اطلاعه على وثائق من مصادر أصيلة ، أن هيكل كان يتهالك للقاء الزعماء العرب ويبذل من أجل ذلك أكثر مما يبذله كاتب في أول الطريق ، فانها ستكون مؤشرا لفحص روايات هيكل التي تورد في مواضع شتى . . ان زعامات عربية كثيرة كانت تسعى للقائه بحثا عن مشورة أو رأي أو خبرة أو تعارف ا وقد كشف أحد مرافقي الملك الاردني الراحل ان ما قاله هيكل في مقاله عن الملك بعد رحيله ليس له وجود اصلا في كون هيكل التقى الملك حسين قبل وفاته بأشهر وأنه وحده أول من عرف بسر مرض الملك من الملك نفسه .

وماذا يمكن وصف الاستاذ هيكل في سلسلة مقالاته الاخيرة في مجلة مصرية حين نبش القبور للنيل من أموات لم يستطع حين كانوا أحياء منذ وقت قصير أن يقول فيهم ما يقوله اليوم ، بل قوّلهم ما لم يقولوه باثبات شهود مازالوا أحياء . ان الامر يدخل في باب الانتقاص من شجاعة الكاتب ، ويخرج النص المكتوب عن انتمائه الى معنى ان الكتابة موقف رجولي واخلاقي وسمة من سمات كاتبها . . وان الكراهية ليست مادة صالحة لتدوين التاريخ .

هكذا ، يأتي مشروع « تفكيك » هيكل على يد صاحبه المؤرخ العربي المعروف سيّار الجميل . . ليجيب على اسئلة لا تعد ولا تحصى من خلال مكاشفاته النقدية في اشكاليات محمد حسنين هيكل . .

سيّار الجميل مفكر عربي محايد وواحد من أبرز أساتذة التاريخ الحديث والمعاصر في الوطن العربي ، أمضى ثلاثة عقود في معالجة الوقائع ومماحكة الادلة والمرويات والاحداث والشهود . . ينطلق من فكرة الدفاع عن العقل العربي الذي يمكن أن تقع عليه ظلال كثيرة من استغفال كاتب حاذق ماهر عرف كيف يخترع الحدث وضجته واعلامه هو الاستاذ هيكل الفنان في صياغة الالفاظ وتشبيكها مع الوقائع ، حتى وان لم تكن قد وقعت الا في خياله أو احتمالات تحليلاته .

الاستاذ الدكتور سيّار الجميل واحد من المفكرين العرب القلة الذين يمتلكون مشاريع لاعادة قراءة التاريخ وتصنيف وقائعه والتثبت من مروياته وأحداثه وقدم نظريته في كتابه قبل أشهر قليلة بعنوان (**المجايلة التاريخية : فلسفة التكوين التاريخي**) وسبقه بكتب عدة قرأ فيها سفر تكوين العرب الحديث ومحطات النهضة العربية الحديثة وكبواتها .

وحيادية الدكتور سيّار لا تجيء من موضوعيته ومنهجه العلمي الصارم فحسب ، وانما لاستقلاليته السياسية اذ لا يحسب على أي تيار سياسي ، فلم يسبق له الانتماء لأي حزب ولا يعتبر نفسه جزءا من منهج سياسي لقطر عربي بعينه . . يحاضر في التاريخ الحديث والفكر المعاصر في جامعات عربية ودولية شتى ، ما بين تركيا والمانيا وتونس وبريطانيا والاردن والعراق ولبنان . . وطنه هو البحث وهويته الولع بالتاريخ المعاصر .

قد يبدو المؤلف لاذعا في مواقع ورحوما في اخرى ، ولكن من يعرف البروفيسور سيّار الجميل يدرك أنه حين يكتب يكون شبيها بالكيمياوي الذي يدخل مختبره ، ويعالج الذرات والعناصر والمركبات ليخرج باستنتاجات حية لا تكذب الرائي عينه ، ويقاوم أية تأثيرات خارجية عليه .

هذا الكتاب لا ينتقص من الاستاذ محمد حسنين هيكل ، الكاتب الجذاب في موضوعه وكلماته . في الوقت الذي لا تنبني تحليلاته على قاعدة الكراهية مادة للكتابة التي بنى عليها الاستاذ هيكل من قبل وقائع من شمع ما لبثت ان ذابت حين لسعتها شمس الحقيقة .

ما أكثر الكتاب الذين دفعوا ثمنا غاليا لقول كلمة حق في سلطان جائر ، من دون ان تثنيهم رهبة الحكام واجهزتهم وحواشيهم ومن دون أن يسقطوا ضحايا الرشاوى ضئيلة . وما أحوج العرب اليوم الى الكاتب الشجاع في واقع تكدست فوقه ركامات من أزمان خوف . فما أهمية أن ينتظر الكاتب عقودا حتى يرحل الحاكم ليقول رأيه فيه ؟

الشجاعة ليست كلمة تقال في ميت ، ودون ذلك فالكتابة عداوة مبيتة وافراز لعقد الاحتقان طويلا ، قبل أن تطلق . حتى عندما يكون الكاتب كبيرا ، ، وأكثر من سواه شهرة ومكانة . .

ـ ناشرو الكتاب ـ

المقدمـــة

(١)

منذ زمن طويل وأنا بوّدي أن أكـتب نقـداتي على مـا نشـره الكاتب المصـري المعـروف الاستـاذ محـمـد حسنين هيكل ، فـقـد كنت أتابع كتـاباته الغـزيرة منذ زمن طويل . . وكنت أعجب مرة ولا أعجب مرات بما يكتبه ، خصوصا وان اغلب ما كتبه يدخل في إطار التاريخ المعاصر الذي أتابع شؤونه كجزء من تخصصي في تكوين العرب الحديث والمعاصر . . كما كنت أتابع عـدة ردود فـعل يذكـيـهـا عـدد من الكتـاب والمفكرين العـرب ازاء مـا ينشـره من الكتابات باللغة العربية والتي يعدها البعض مثيرة في مضامينها التي لصاحبها القدرة في ان يفجّر فيها موضوعات تستقطب اهتمام المثقف العربي ، كما وللرجل المهارة الصحافية الحاذقة في تصوير الاحداث وصياغة الاقوال والتركيز على زعماء وابطال وشخصيات مثيرة للجدل والاهمية . .

ولقد كان لمحمد حسنين هيكل دوره السياسي الفعال على عهد الرئيس الراحل جمال عبـد النـاصـر على امـتـداد عـقـدين زمنيين في الخـمـسـينيـات والسـتـينيـات . . ، ثم دوره في السنوات الخـمـس الاولى من عـهـد الرئيس الراحل أنور السـادات . . امـتـدادا الى عـقـد الثمـانينيـات بعـد أن أقصي عن مناصبـه من قبل السـادات . . ثم بدا في خـلال العـقـدين الاخيرين من القرن العشرين صاحب مؤسسة غير معروفة ، وبدا كالاثرياء الكبار مستفيدا من السـمعة السـياسـية القديمة ومن اتساع ثروته الخاصة لكي يعيش ـ كما وصفه أحدهم ـ مثل اللوردات الانكليز ، ليس له من عمل الا كتابة الكتب وتلبية الدعوات الخاصة ولعب الغولف وتدخين السيكار . .

والمهم من كل هذا وذاك تعّرضه لزعماء ودول وحكومات عربية . . وكان ولم يزل يكتب وينشـر عن دوره وعـلاقـاته ومـقـابلاته مع الاخـرين . . ولقـد لاحظ عـدد من المراقبين والقـراء والمثقـفين العـرب أنه زاد من حجـم ادانته لاغلب الزعمـاء العـرب متهـمـا اياهم بشـتى التـهم

الشخصية والسياسية والتاريخية والاسرية التي تقع جميعها في باب الاثارة لا في باب أي محاولة معرفية لخدمة مصالح الامة العربية ، وخصوصا بعد رحيل اولئك الزعماء عن الحياة . وثمة استفسار عن سر سكوت الحكومات العربية ازاء كتابات هيكل واداناته الخطيرة والتي لن تجد اليوم سوقا دعائيا كالتي عاشها العرب قبل عقود من الزمن ؟؟

نحن اذن أمام شخصية خلافية جدالية غير نمطية غريبة الاطوار جمعت على امتداد نصف قرن من حياتنا في القرن العشرين ، مختلف البدائل والتناقضات والثنائيات . . وساهمت في عدة من الاحداث والوقائع وصنع القرارات وانتاج الروابط والعلاقات ، فضلا عن المزيد والفائض من المنتج الكتابي في الذي صدر عنها في خطب وكتب ومقالات . . تعد بالعشرات لا يمكن لأحد ان ينتجها سوى رجل يتمتع بجلد ومهارة . . ويقف فوق مؤسسة خاصة به ! وبرغم جملة من ملاحظاتي النقدية على أساليبه في التوثيق والكتابة التاريخية وتدوين الاحداث المعاصرة ، فان مهمتي هنا سوف لا تتناول ذلك بشكل أساسي ، بل **سأركز على بعض « أفكار » محمد حسنين هيكل الخطيرة ومناقشتها على مهل** . . كما سأركز على بعض الجوانب الاساسية من كتاباته الاخيرة التي أعتقد ان هيكل قد أدخل نفسه مع الاسف في دهاليز لا يمكنه الخروج منها أبدا . .

تعد كتب محمد حسنين هيكل الاكثر مبيعا نظرا لعدد طبعاتها وانتشارها ونظرا لما كان قد اكتسبه الرجل من سمعة في الاوساط العربية ، ونظرا لما تميّز به اسلوبه الصحفي من السلاسة والبساطة . . فضلا عن المواضيع الخطيرة التي يتطّرق لمعالجتها ، واقتناصه الفرص الملائمة لطرح تلك « المواضيع » التي يغلب عليها الطابع السياسي بطبيعة الحال ، ويحاول هيكل ان يبتعد ما أستطاع عن المسائل الاجتماعية والاقتصادية والثقافية . . اذ تبقى اعماله تدور حول ما دار في مقابلاته وعلاقاته التي أجراها مع عدد من الشخصيات السياسية العربية المعروفة . . كما أنه عالج تفصيلات حروب العرب مع اسرائيل على امتداد خمسين سنة ، مستندا في ذلك على مستندات ومقابلات ووثائق سياسية وعسكرية .

(٢)

ثمة جوانب لابد لي من توضيحها في هذه المقدمة كي لا يساء فهم مقاصدي من قبل البعض في تأليف هذا « الكتاب » ، ونشري أياه عام ٢٠٠٠ ، أقول :

لا ادري ، ربما سيعتب عليّ بعض أصدقائي من الاخوة الكتاب والمفكرين الناصريين ، لأنني فتحت مثل هكذا « جبهة » متواضعة ولكنها ساخنة ضد الاستاذ محمد حسنين هيكل . . . ومن المؤكد ان مجلة « **وجهات نظر** » سيثيرها هكذا « نقد » لبعض الأعمال التي نشرتها لهيكل . . . . . ولا ادري ان كان الاخ جميل مطر المشرف العام على « **وجهات نظر** » والذي ربما خالفته فيما نشره أيضاً عن الملك حسين بن طلال في عدد من « **وجهات نظر** » ولكن الخلاف لا يفسد للود قضية ـ كما يقولون ـ ، فضلا عن ان مشكلتي ليس معه أو مع بقية أصدقائي من القوميين ، (والناصريين في مقدمتهم) ، فإننا من المؤمنين بوحدة الأمة وأهدافها المصيرية ، ولكن ثمة اختلافات في كيفية معالجة السبل والوسائل لتحقيق تلك «الأهداف» . . . كما أود أن يتفهم الاخوة القراء بأن مشكلتي ليس مع الرجل ، بل مع النص الذي كتبه هذا الرجل ! وازعم ان هذا النقد سيثري المعرفة العربية ، وسيساهم في اغناء الفكر القومي العربي .

انني لست ضد الاستاذ محمد حسنين هيكل كشخصية سياسية وقومية عربية معروفة ، كما أنني لست ضد أي اتجاه سياسي أو أي تيار فكري يحمله الرجل على عاتقه . . **بل كنت ناقدا للنص الذي كتبه هيكل ، وخصوصا النصوص التي تضمّها كتبه المعروفة** ومقالاته الاخيرة والتي تقع في عداد التاريخ والفكر . . بعيدا عن المقالات السياسية التي كان يكتبها في الصحف والتي استفدت من بعضها من اجل اكمال صورة او رأي او ملاحظة . . ولقد أغنتني كتبه العديدة التي نشرها في العشرين سنة الاخيرة عن بقية كل ما نشره سابقا ، بسبب قيمة ما نشره خلالها مقارنة بما نشره قديما .

انني لست ضد أي اتجاه سياسي أو أي تيار فكري عربي كالذي تعارف عليه العرب في القرن العشرين . . اذ أن جميعها غدت في عداد رحاب التاريخ ، ولابد للعرب من بقايا اجيال القرن العشرين ان يؤسسوا قطيعة عنها من اجل فهمها واستيعابها ، ويقلبوا الصفحة التاريخية من اجل التعامل مع المتغيرات الجديدة . . مع بقاء نزوعاتهم الاصيلة وثوابتهم القويمة ومبادئهم الراسخة بعيدا عن التقديس وعبادة البطل والايهام بالاحلام والشعارات والهتافات والتعويل على الارادة الزائفة . . فالواقع العربي لابد له من

ممارسات وتوظيفات وتحديثات من نوع جديد .

وعليه لابد من القول انني لما تعاملت مع كتب الاستاذ محمد حسنين هيكل ونصوصه . . لم تقف أمامي أية سدود أو حدود او اية خطوط حمراء ، الا غاية واحدة تعد هي الاسمى متمثلة بالمعرفة العربية وحماية العقل العربي والعمل من أجل تطويره . . اذ أنني أسعى من أجل أن يكون للعرب شأن حضاري في المستقبل . ومازلت أعتقد أن اخفاق العرب سياسيا ونهضويا في القرن العشرين . . وما ضمّه تفكيرهم على امتداد عقوده من أيديولوجيات مختلفة ـ مع احترامي لها جميعا ـ ، الا أن ذلك « التفكير » قادهم الى مهالك وكوارث بعد أن شهدوا مجموعة هائلة من صناعة قرارات سريعة وانقلابات عسكرية طارئة ، وخروقات للدساتير والقوانين الاساسية ، وتسلط زعامات دكتاتورية وحكومات شمولية . . وكلها جاءت بأسم شعارات الاصلاح والثورة والتقدم والتحرر . . وبأسم تحرير فلسطين السليبة وتحقيق الاهداف السامية .

وأزعم – أيضاً – ان هذا « الكتاب » هو دعوة صريحة لمشروع نقدي عربي ، يأتي من قبل مؤرخ عربي متواضع من أجل تأسيس قطيعة معرفية عربية مع كل تواريخ القرن العشرين ، وفي مقدمة ذلك : ايديولوجياته التي شهدها وضاع في خضمها أبناء القرن العشرين . . فضلا عن الشروع ببناء رؤية عربية جديدة للحياة والتاريخ والمستقبل تعتمد العقل والمعرفة والمعلومات والنقد والتوثيق والدقة من أجل تحديث تفكيرهم وحياتهم وأساليبهم بينهم وبين أنفسهم أو بينهم وبين العالم في القرن الحادي والعشرين ، وهذا ما أتمناه أن يحصل على أيدي ابناء الاجيال الثلاثة العربية القادمة التي حصرتها بين ٢٠٠٩ ـ ٢٠٩٩ م . ولدي قناعة راسخة أن القطيعة ستحدث طال الزمن أم قصر . . من أجل تصفية الحسابات بواسطة المعرفة النقدية لكل مواريث القرن العشرين . . كما ان قناعتي راسخة بأن ما تبّقى من اجيال القرن العشرين سترحل عما قريب ، ولم تبق الا مواريثها المتناقضة شاهدة على تواريخها المضطربة . وربما غدت الاجيال الثلاثة القادمة أقل حظا في تناقضاتها من الاجيال الثلاثة السابقة . .

وربما سيجد ابناء المستقبل ان حياة اجدادهم وتفكيرهم في القرن العشرين كانا أفضل من حياتهم وتفكيرهم هم . . عند ذاك ، سيكون ابناء الأجيال الثلاثة في القرن العشرين لهم

مسؤولية مضاعفة عما جرى في البنية التاريخية العربية ليس على مدى قرن من الزمن بل على مدى قرنين كاملين أو أكثر من الزمن الصعب ! ولقد أفصحت عن هذه الرؤى والنقدات والاجتهادات في كتاب جديد صدر لي مؤخرا عند فاتحة القرن الحادي والعشرين* . . وقد ضمنته أيضا جملة من المقترحات التي اعتقد بأنها عملية ونافعة من أجل تأسيس **استراتيجية تفكير عربي جديد ترنو الى تشكيل قطيعة معرفية ونقدية واستقلالية تاريخية في رعاية المصالح العربية العليا والدفاع عنها تحسّبا من متغيرات المستقبل الصعبة .**

(٣)

وانتقل الى مسألة أخرى بودي توضيحها في مقدمة هذا الكتاب ، ذلك أنني لم أنزع أبدا للدفاع الا عن الحقيقة التاريخية العربية الغائبة أو المغيبة او التي يريد البعض تجاهلها وتناسيها او تشويهها لاغراض مبيتة سياسية او سلطوية او ايديولوجية . . ولقد توضّحت لي من خلال خبرتي المتواضعة وتجربتي العلمية في قراءاتي الفكرية ودراساتي المتخصصة في الشؤون العربية العربية الحديثة والمعاصرة وفي جامعات عربية في كلٍّ من المشرق والمغرب العربيين . . ان التواريخ الاجتماعية والاقتصادية والثقافية كثيرا ما تشوّه على ايدي كتبة التواريخ السياسية ، وخصوصا اولئك الذين يقبلون أن يكونوا أبواقا لدول معروفة أو زعماء معروفين أو سلطويات بليدة أو أيديولوجيات معينة !

وعليه ، أود القول أني لم أقدم على تأليف هذا الكتاب لاغراض رؤى سياسية معينة او الاستفادة من عناصر مادية او غيرها ، او لتلميع سير زعماء عرب راحلين ، او لتكريس وجهات نظر أيديولوجية مقننة . . اذ أعتقد بأن الزمن قد تغّير اليوم ازاء متغيرات العالم ، **ولابد للعرب أن ينقلوا تفكيرهم الى أرض الواقع بعد أن بقي عشرات السنوات معلقا بين الارض والسماء ، أو بين الواقع والمثال ، أو بين الحقائق والاوهام .**

وأقول انني لم أكتب هذا الكتاب للدفاع عن زعيم عربي معين بذاته ، بل للدفاع عن

---

* راجع : سيّار الجميل ، العولمة والمستقبل : استراتيجية تفكير ! (العرب والمسلمون في القرن الحادي والعشرين) ، ط ١ (بيروت / عمّان : الاهلية للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٠) .

الانسان العربي وعن العقل العربي وعن حقائق التاريخ كما تعلمنا بها الوثائق والمستندات والمصادر الموثوقة للمعلومات . . ، اذ أن المسألة لم تعد ضمن دائرة التعاطف مع هذا أو التهجّم على ذاك . . ذلك لأن الزعماء العرب في القرن العشرين بقدر ما اختلفت سياساتهم واضطربت مواقفهم ، وتناقضت خطاباتهم . . الا أنهم غدوا عند نهايات القرن العشرين لا يسمعون فقط من يطّبل لهم ويزّمر أو من يشّهر بهم ويسّب ويشتم . . وتكاد تختفي صيغة الهوس الجماعي (يعيش ويسقط) كما كان عليه الحال قبل خمسين سنة . . وان اغلبهم رحل واصبح في ذمة التاريخ . .

وان بدايات القرن الحادي والعشرين سوف تستقبل زعماء عرب من نوع جديد ، سوف لن يبقوا على محددات السلف الراحل . وعليه ، فليس من الانصاف العلمي أن يخندق الكتاب والرواة من المؤرخين والمؤلفين والصحفيين أنفسهم سياسيا ضمن سياقات ماضي القرن العشرين ! كما أن عليهم الابتعاد عن نقل الكراهية والبغضاء والاحقاد ، واساليب السباب والشتائم وآثار الحروب الباردة والساخنة العربية ـ العربية من عهود القرن العشرين الى مستقبل القرن الحادي والعشرين ، ذلك أن المعرفة التاريخية النقدية تدعوهم أن يكونوا حياديين في تناول الموضوعات العربية وكل ما يختص به شأن القرن العشرين ، واخضاعها للنقد والدراسة والتفكيك بعيدا عن الميول الايديولوجية والاهواء السياسية .

هكذا أجد نفسي أمام الزعماء العرب في القرن العشرين ، وهم يختلفون أمام الناس في عهودهم سياسيا ، ولكنهم يتساوون امام الدارسين والباحثين تاريخيا . . ، وسيقول التاريخ كلمته فيهم وفي عهودهم ومواقفهم وسياساتهم ، بعيدا عن النزوعات السياسية والايديولوجية والاهواء التي تتحكم في عقول الكتاب والمؤلفين والمؤرخين العرب من ابناء القرن العشرين ، ولعل الساحة العربية لا تخلو من علماء ومختصين ومؤرخين ونقاد عرب حياديين ومنصفين برغم اتجاهاتهم الفكرية والايديولوجية المتباينة عالجوا شأن الزعامات والسلطويات العربية في القرن العشرين ، ومن أبرزهم : خلدون النقيب (الكويت) وغسان سلامه (لبنان) ومجيد خدوري (العراق) وهشام شرابي (فلسطين) وسعد الدين ابراهيم (مصر) وعبد الباقي الهرماسي (تونس) وبرهان غليون (سوريا) وعلي محافظه

(الاردن) وعبد الله العروي (المغرب) وغيرهم . .

ولقد عبر خلدون النقيب عن هذا التوجه وكان محترسا جدا في التعامل العلمي في عمله مع شأن الزعامات والسلطويات العربية ، اذ يقول عن تجربته : « . . وكثيرا ما يختلط هذا النقد بأشكال النقد ذات الطابع الصحافي المثير . وعلى الرغم من التخوف من وقوع هذا الخلط ، فانني أحاول أن اتجنب الامور المتصلة بنظام الحكم ذات الطابع الحساس ، والتي هي أشبه بالمحرمات غير القابلة للنقاش ، ولم أتردد أو أتهاون في النقد اذا كان ضروريا ـ في تقديري ـ لفهم النظام السياسي والظواهر الاجتماعية المتصلة به » ** وليس هناك من فوارق الا بحجم ما قدم هذا الزعيم العربي أو ذاك في حياته ، فليس من الامانة أن نفتح الملفات الشخصية بعد موت أو غياب ورحيل أي زعيم عربي مباشرة ، الا بعد أن تكتمل حياة جيل كامل والمقدرة بثلاثين سنة على الاقل ، وبعد أن يفرج عن كل الوثائق والمستندات الخاصة بعهده . . ولكي يكون قد دخل التاريخ الحقيقي .

(٤)

يقسم هذا « العمل » النقدي الذي وددت فيه معالجة منهج الاستاذ محمد حسنين هيكل وتفكيره ومعلوماته ونصوصه ورواياته من خلال محاور اشكالياته ، مرّكزا على أعماله التي نشرها في الربع الاخير من القرن العشرين والتي أثارت جملة من ردود الفعل في بلدان عربية مختلفة . .

اقول ، يقسم هذا العمل الى مقدمة ومدخل منهجي وستة فصول نقدية . . اذ طرحت رؤيتي في مكاشفاتي النقدية للعمل في مدخل منهجي عنوانه : المدونات التاريخية بين القراءات السياسية والصحافية ، ومحددا فيه منهج عملي من خلال مرتكزات واشتراطات اساسية في كتابة تواريخنا العربية المعاصرة وعنايتنا بالشؤون العربية . وتعالج فصول الكتاب : الظاهر والباطن من حقيقة محمد حسنين هيكل ! مقاربة نقدية في المفاهيم ، ونقد المواقف والذات : الصحفي / السياسي ، وهناك العلاقات والقيم في الفصل الاول ،

** راجع : خلدون النقيب ، المجتمع والدولة في الخليج والجزيرة العربية (من منظور مختلف) ، ط ٢ (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٩) ، ص ١٤ .

ثم انتقلت الى الاردن ــ معبر الانبياء ونقد كتابات هيكل للاردن وطنا وشعبا وملكا ، جغرافية وتاريخا . . في الفصل الثاني . وقد وقفت ناقدا لمواقف هيكل من المغرب الاقصى ــ أرض العراقة المعاصرة في تاريخه ومواريثه وجغرافيته وملكه في الفصل الثالث ، وكانت لدينا عدة نتائج بصدد الموضوعات التي أثارها هيكل ضد كل من الملكين العربيين الحسن والحسين اللذين حكما في النصف الثاني من القرن العشرين . ولقد توقفت في الفصل الرابع من الكتاب عند نقاط جد حساسة من مواقف هيكل ازاء مصر ــ أرض الكنانة ، ومتابعة أو ملاحقة الرجل في مواقفه بين الامس واليوم من مصر وسياساتها في المنطقة ، وخصوصا بين الذي كانت عليه ازاء القضايا العربية على عهد جمال عبد الناصر ، انتقالا الى أنور السادات ، وما آلت اليه عند نهايات القرن العشرين على عهد الرئيس حسني مبارك .

أما في الفصل الخامس ، فقد عالجت فيه كتابات هيكل ازاء العراق ــ الارض الطيبة من بلاد ما بين النهرين الكلاسيكية . . وفي هذا الفصل ، تحليلات لمعلومات ووثائق جديدة ، توضح مدى قوة الاختراق الامريكي لمنطقة الشرق الاوسط بعد افول ادوار بريطانيا العجوز فيها ، فضلا عن توضيح دور كل من الزعيمين العراقيين : نوري السعيد وعبد الكريم قاسم في أخطر مرحلة مرت بها المنطقة . أما الفصل السادس ، فقد عالجت فيه مواقف هيكل من حرب الخليج والمفاوضات السرية مع نقدنا لكيفية كتاباته التي نشرت في عقد التسعينيات من القرن العشرين .

ولقد استخلصنا في نهاية المطاف عند الخاتمة ، عدة دروس علمنا اياها هذا النقد الذي دعوناه بـ « تفكيك هيكل » . . اذ اختتمت العمل ببعض الاستنتاجات التي أراها مهمة وضرورية في حياة تفكيرنا العربي المعاصر . . والحاجة الماسة الى المكاشفة والتفكيك واعادة النظر عربيا في دراسة ونقد ما أنتجه عدد بارز من المسؤولين واصحاب القرار والساسة والكتّاب والمفكرين العرب على امتداد خمسين سنة من القرن العشرين . . والكشف عن اشكاليات منتجاتهم وأدبياتهم في الخطاب والفعل التاريخيين . . من أجل مصلحة الاجيال القادمة التي ستكون بحاجة ماسة للمعرفة العربية وطبيعتها التي سادت في القرن العشرين . .

ولعل أبرز ما يمكن اثارته عند فاتحة القرن الحادي والعشرين ، محاولة اخضاع منهج وبعض أفكار وآراء الكاتب الصحفي المصري المعروف محمد حسنين هيكل للنقد واثارة الاشكاليات حول بعض اعماله . . وما هذا « العمل » الا حلقة في سلسلة متواصلة من النقدات التي تّعرض لها الرجل ، وسوف لا يعنيني أي شيء من توجهه السياسي او طبيعة علاقاته وارتباطاته مهما كان نوعها ، وقد أتهم الرجل بتهم شتى حول ارتباطاته وعلاقاته !! كل ذلك لا يعنيني في شييء ،فانا لا أهاجمه كونه أحد رموز الناصرية ، بل اناقشه نقديا في نصوصه ومواقفه ومدى علاقتها جميعاً اقتراباً او ابتعاداً عن روح القومية العربية والتفكير العلمي والمنهج التاريخي ، وان الذي يهمني فعلا : اشكاليات منهجه وتوثيقاته وبعض أساليبه في الكتابة والتفكير . . كواحد من أبرز الذين اشتهروا عربيا بتدوين احداث ووقائع عربية في القرن العشرين . .

وساحاول معالجة بعض ما وجدته بحاجة الى مكاشفات نقدية لم يتطرق اليها غيري من الكتاب والمفكرين العرب ، وأزعم أنني كتبتها باسلوب المختص ومنهجه لنرى كم هي الحاجة ملحة وأساسية لمعرفة التاريخ الذي يكتبه الصحفيون العرب وفي مقدمتهم الاستاذ محمد حسنين هيكل الذي يؤخذ عليه تعاليه وعدم مقابلة حجج نقاده بحججه او ردوده عليهم بنفسه ، كما وسيتوضح جليا أن هيكل لا يعتمد على منتجات النخبة العربية من المفكرين والمختصين والمؤرخين العرب وأدبياتهم العلمية قدر اعتماده وتعويله الاساسي على ما يكتبه بعض الكتاب الغربيين عن شؤوننا العربية ، وأغلبهم من أصحاب المواقف المعادية للعرب والامة العربية بتعاطفهم مع الصهيونية العالمية ، اذ يضفي هيكل عليهم السمات الاسطورية وآيات التبجيل والتفخيم ، ويدّعي بأن بعضهم من أصدقائه ومحبيه . . مما جعله من أبعد الناس عن التوّصل الى الحقيقة الغائبة ، بل سنجد بأن التشوهات والاخطاء قد ازدادت في اعماله جميعا .

(٥)

لقد أعتمدت في هذه القراءة النقدية وإثارتي عدة اشكاليات في تفكير محمد حسنين هيكل ومنهجه على جميع ما أصدره من كتب على امتداد حياته . . وعلى عدد كبير من

مقالاته التي نشرها في أكثر من مكان . . مركّزا اهتمامي بشكل خاص في الفصلين الثاني والثالث من هذا الكتاب على المقالات المطّولة التي نشرها مؤخرا في مجلة « **وجهات نظر** » ، ناهيكم عن تلك الكتابات وردود الفعل من المقالات والادبيات والكتيبات التي نشرت عنه منذ أكثر من خمس وعشرين سنة ، كما وقفت على أكثر من كتاب واطروحة علمية اختصت عن حياته ومواقفه وأعماله . . فضلا عن متابعتي لافكاره التي أسداها شفاها لعدد لا بأس به من محاوريه الذين تنوّعت أسئلتهم ومناقشاتهم معه . .

فضلا عن قيامي بفحص المزيد من الوثائق والمستندات التي استخدمها في تآليفه العديدة ، واخضاعها للنقد والتدقيق . . ولما كنت في هذا « العمل » ناقدا ومفككا ومدققا ومفكرا وليس باحثا وكاتبا ومؤرخا . . فان هذا « العمل » سيكرس ضمن منتجات الفكر النقدي العربي ولن يصنّف ضمن أعمال التاريخ أو السياسة ، وبرغم كل ذلك فلقد كنت أوثق كل « نص » استخدمه في نقد اشكاليات هيكل ، ولكن ضمن المتن في ما يخص نقد نصوص محمد حسنين هيكل ، مذكّرا ببعض الهوامش في أسفل بعض الصفحات ان اقتضت الحاجة لتوثيق او ذكر بعض المصادر والمراجع المفيدة ، واستغنيت عن الملاحظات في نهاية كل فصل . وقد أستفدت كثيرا من جميع تلك المصادر والمراجع التي ساعدتني في النقد وفي تكوين رؤية واضحة عن تفكير الاستاذ محمد حسنين هيكل وكتاباته في مؤلفاته الاساسية ، وهو الرجل الذي لم يزل أسمه رائجا عربياً في مجال الكتابات السياسية العربية ، وخصوصا في كتاباته المبسّطة التي تتصّف باسلوبها الصحافي ، ومواضيعها المثيرة .

وأخيراً ، أتقدم بالتقدير الكبير للاستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت رئيس جامعة آل البيت في الأردن على تشجيعه وعنايته وتساؤلاته وشغفه لقراءة كتاباتي . . وأتقدم بالشكر لكل اولئك الزملاء والأصدقاء والطلبة النجباء الذين أعانوني بتوفير كتب محمد حسنين هيكل ونتاج من كتب عنه . . فضلا عن تقديري لكل من ساعدني في الاطلاع على مقالات الرجل القديمة والجديدة من القاهرة ولندن وبيروت وعمّان . . والى اولئك الاساتذة من الزملاء الاعزاء خالص الشكر والامتنان على ما قدموه لي من المعلومات والمستندات والمصّورات والمقالات والاستشارات والذكريات . . ومنهم : الاساتذة الزملاء

في قسمي التاريخ بجامعة آل البيت وجامعة اليرموك في الاردن فضلا عن التحقق من بعض الروايات والمرويات . . والى الصحف والمجلات العربية التي أثارها هذا « النقد » ، وفي مقدمتها جريدة «الزمان» الغراء التي تصدر في لندن ، والى رئيس تحريرها الاستاذ سعد البزاز وقيامها بنشر (٣٢) حلقة من هذا الكتاب على صفحاتها . . وعدا أولئك الذين ذكرت أسماءهم في متن الكتاب ، . . أقدم امتناني الى الاخ الدكتور فاتح عبد السلام لقراءة النص ومراجعته اللغوية ومقترحاته الصائبة . . ولا يمكنني أن أنسى مساعي كل من : الدكتور جمال الجلبي والدكتور عبد الحكيم الحسبان وجهود ثلاثة من طلبتي الاعزاء في الدراسات العليا بجامعة اليرموك بالاردن : مي طبيشات وحلمي درادكة ونضال الصمادي . . والى الفنانين ناظم حامد الذي رسم صور الغلاف وزهير الشايب الذي صمم الغلاف . . والى من سعى بجهده وسكرتاريته في الاتصالات وتصوير المقالات من الصحف والمجلات : ندى قدومي وفاتن خليل وحيدر الحيدري . .

كما اتقدم بالشكر والامتنان لكل من ساعدني في طباعة النص ومتابعة التصويبات والبروفات في كل من مركز الوسام للخدمات المطبعية ودار العلوم ومركز النجار للطباعة بالاردن . . كما أشير بالشكر والعرفان الى عدد من موظفي المكتبات المتعددة التي تعاملت معها وخصوصاً المكتبة الهاشمية بجامعة آل البيت الاردنية ، والى الاخوة الناشرين في كل من لندن وعمّان وبيروت لاسراعهم في نشر الكتاب ، وأخص بالذكر الاستاذ أحمد أبو طوق . . كما أود أن أذكر أتعاب زوجتي العزيزة معي شاكرا لها صبرها وتصويباتها ونقداتها الشديدة لي ، وخالص الشكر الى كل الساسة والمسؤولين والمثقفين والزملاء الاساتذة الجامعيين من القراء العرب في كل ارجاء الوطن العربي وفي المنافي الذين ينتظرون هذا الكتاب بين أيديهم ، شاكرا لهم اهتماماتهم واتصالاتهم . وسأكون شاكرا لكل من يضفي على هذا «العمل» المتواضع رأيه وتصويبه وملاحظاته ونقداته من أجل خدمة امتنا العربية وبناء تفكير الأجيال العربية القادمة في المستقبل .

د . سيّار الجميل
استاذ الفكر المعاصر والتاريخ الحديث
جامعة آل البيت / الأردن
٢٠٠٠/١/٢١

مدخـــل منهجـــي

« فعلم التاريخ جليل المقدار، عظيم الاخطار، أنواره على مر الدهور لا تطفى، وفوايده الكثيرة على ذوي الابصار لا تخفى.. ولو لم يكن في معرفة التاريخ الا التحلّي بما يزين، والتخلي مما يشين، لكان في ذلك للطالب كفاية، وللمسترشد هداية » .

– المؤرخ ابن الحمصي –

« لقد هيأت عناصر المنهج النقدي، أدوات رائعة للملاحظة : لا توقف امام المظاهر، ولا اهمال للجزئيات، بل معاينة اللامرئي تحت المرئي، وعدم نسيان اي شيء قبل الاستنتاج » .

– كاترين كليمون –

المدونات التاريخية العربية

بين القراءات السياسية والصحافية المعاصرة

تقديم لابد منه : ملاحظات تمهيدية

بادئ ذي بدء علينا وضع بعض الخطوط المنهجية في صياغة تسجيلاتنا وتدويناتنا التاريخية وهذا جزء من المبادئ العملية والنقدية في عملية كتابة التاريخ سواء كان ذلك قبل ألف سنة من اليوم أم عند نهايات القرن العشرين ، **ونحن ندرك ان العرب بعقليتهم التاريخية قد تميزوا بأساليب البحث والدرس والاستقصاء والابتكار على امتداد تاريخ** طويل من كتاباتهم وقد ألمح وحدد واقّر اكثر من مؤرخٍ وناقدٍ أسلوب كتابة التاريخ ونزعة الأخلاق والأمانة والتجرد عن الهوى وعن الذات في تسجيل المادة التاريخية وتوثيقها مهما كانت طبيعتها سواء كانت مادة سياسية ام ادارية ام عسكرية ام اقتصادية . . . . الخ وطالما كانت هناك ثمة مطالبات واشتراطات على ان يأخذ الكتّاب مهما كانت طبيعة تخصصاتهم ، ومهما كانت حقول معرفتهم ، ومهما تنوعت اساليب ثقافاتهم ان يأخذوا بالقيم المقررة والمعهودة في عرض المادة التاريخية كما يطالب بذلك المتخصصون في علم التاريخ وتطبيقاتهم التوثيقية من خلال الأرشيف .

ثمة اشتراطات أخرى لابد من أن تتوفر عند كل من كتب في التاريخ المعاصر المعتمد على الوثائق الأرشيفية . . ومؤهلات أساسية تكشف عن تفكير نقديٍ وعن تحرٍ علمي يسعى الباحث والمؤرخ الحقيقي دوماً إلى كشف الحقيقة مهما كان ثمنها باهظا . . ولكن من طرف آخر ، طالما كان (مؤرخ السلطة ومثقفها) مندمجاً مع أغراضها وقد تربّى على أساليبها ، وتأدلج على طواياها . . إذ غدا أحد منتجاتها وحلقة في دوائرها ، فإن ثمة علامات استفهام ستوضع أمام عمله ذلك لان هنالك علاقة بينه وبين مؤسسته تسحبه إليها بعيداً عن وجه الحقيقة ، بل وتوظفه لاختلاق الاحداث وتصوير الوقائع ورسم المواقف وايجاد التبريرات والحكايات والروايات . . وجميعها لآ أصل لها من الصحة ولا حقيقة لها . . ان مؤرخا يفتتن بالتعامل مع صناع الاحداث ويروي عنهم بطولاتهم او يسهم بالتشهير بهم عن عمد وسبق

اصرار ، فلا يمكن أبدا الاعتماد على ما ينتجه ويكتبه أبدا . . ورحم الله المؤرخ اللبناني المعروف أسد رستم كما أكد على مثل هذا الجانب المنهجي الذي ما أن يفتقده المرء ، فانه سيفتقد لا محالة سمعته على امتداد الزمن !*

هذه المقدمة التي اليت أن اطرحها في مدخلات هذا « العمل » هي ملاحظات تمهيدية حول مشكلة المنهج عند بعض الكتاب العرب المعاصرين الذين طفقوا يكتبون وينشرون كتبهم المتنوعة التي تتضمن مواد تاريخية خطيرة في طبيعة أوضاعنا السياسية العربية المعاصرة وتوزيع الاتهامات والاحكام وسلق الروايات وحبك القصص وتحريف الاقوال وتزوير النصوص عن بعض رجالات العرب المعاصرين . . وهذه المشكلة التي يمكن ان تثار حولها جملة من الاسئلة والاشكاليات النقدية علينا ان نعرف ان قدراً كبيراً من تلك الاسئلة والاشكاليات تنبعث حول مسألة ما يكتب وينشر عند العرب وخصوصاً في بيئات معينة عندما يسعى بعض الكتاب المعروفين من غير المختصين ان يدونوا ما شاء لهم التدوين ويكتبوا ما شاء لقلمهم أن يكتب بعيدا عن أي وازع من التقييم او التدقيق او الاعتبارات القيمية ، ودون الاخذ بالقيم المنهجية ومبادئ التدوين وأساليب التوثيق وتطبيقها على احسن ما يرام . .

ذلك ان غايتهم هنا ليس للكشف عن الحقائق التاريخية بقدر ما هي تمّثل سعياً وراء الحصول على مصالح معينة أو مقاربة لسلطات محددة أو إشباعا لرغبات ذاتية وهذا ما نجده واضح المعالم ليس في عصرنا الحالي حسب انما على امتداد تاريخ الكتابة العربية وتدويننا التاريخي . ولعل من أسوأ منتجات التاريخ والتدوين التاريخي أعمال أولئك الذين يرتبطون ارتباطاً عاطفياً ومصلحياً وذاتياً وشخصياً بالسلطات وذوي السلطان ويحسبون أنفسهم من توابع الهيئة الحاكمة ، فمهما حاولوا الابتعاد عن روابطهم العاطفية والشخصية والسلطوية ما برحوا لا يؤدون الأمانة الحقيقية في كتابة التاريخ .

متطلبات المنهج التاريخي:

ومن الوهم البعيد النظر إلى علاقة الكتاب والمؤرخين بعضهم بالبعض على انها علاقة تربط منهجاً بمنهج أو على انها علاقة تقرب بين المفكرين أجمعين أو على أنها علاقة تأثر

* راجع ما كتبه : أسد رستم ، مصطلح التاريخ ، بيروت ، ١٩٣٩ .

وتأثير يمكن أن يستعين بها طرفٍ من طرف آخر : فكرة أو مجموعة في الأفكار المنهجية . . لكن من السهل على من يدون المعلومات التاريخية بإيجابياتها وسلبياتها ان يستعير من مخيلته أو من صاحب السلطة عليه موضوعات شتى يستطيع ان يدونها ضمن أفق ذاتي مختلف تمام الاختلاف عن الأفق المنهجي الذي لا يقبل التدوينات المستعارة باسمه . وعليه ، يمكننا ان نستخلص بأن ليس كل من كتب معلومات شتى بأسم معلومات خطيرة أو تاريخ خطير . . هي معلومات صادقة او تاريخ أمين مائة في المئة . ان خطورتها تكمن بمضامينها التي لا يمكن الاخذ بها أو التعويل عليها ، فلا يجب ان يحسب صاحبها بأن أسمه سيردده ابناء المستقبل من الاجيال القادمة ، لأن عمله سيسقط مع توالي السنين ، نظرا للنواقص والهنات وجوانب الخلل ومواطن الضعف التي ستكشفها الايام .

ولا بد من القول أيضا بأن الزمن سيثبت عدم صلاحيتها ، وسيدرك المختصون خطورتها في المستقبل ، وخصوصا في تأثيرها على سيتناولها من القراء والكتاب والدارسين والباحثين والمهتمين وطلبة العلم . . . وخصوصاً ـ ايضا ـ انها قد انتجت لابناء مرحلة تاريخية معينة تزداد فيها نسب المتعاطفين والمؤدلجين والمغرمين والساسة والمتابعين للاخبار السياسية المثيرة . . وخصوصا ـ أيضا ـ إذا ما كانت في قالب قصصي أو في ضمن افق حواري وقد اصطبغت بالصبغة الادبية وادخلها صاحبها ضمن أُطر تخيلية وتصويرية وحوارية . . هنا ستغدو مشكلة النصوص مشكلة متداولة عند الناس كونهم سيثبتونها حقائق لا شائبة فيها ودون ان يكتشفوا بان هناك الكثير مما لابدّ له ان يكون حتى تغدو جملة من الادعاءات والاستعارات والتشبيهات والتلفيقات والإضافات بعيدة عن الحقيقة وانها مجرد أوهام وأكاذيب لا أساس لها من الصحة التاريخية ! ان الذي سيلتقط هذا كله هو الناقد المدقق والمقارن والمختص وهو الذي يمتلك القدرة على كشف الشوائب ، وله القدرة الذكية على ان يبعدها عن الحقائق ، ويفضح أمر صاحبها الذي ربما عاش زمنا طويلا يستعرض عضلاته بأسمها ، ويبني أمجاده على عناوينها البراقة !

اشتراطات الكتابة الوثائقية:

السؤال الان : ماذا يمكننا ان نفعل ازاء تلك المدونات التي تختلط فيها الحقائق بالاباطيل ؟

وقبل ان نتوغل في جملة من الاعمال التي انتجها صاحبنا هذا أو ذاك ، نتساءل أيضا : ماذا يمكننا ان نفعل ازاء جملة من المدونات التي تشير بعض محتوياتها وخصوصاً ما يتعلق بالعلاقة مع أصحاب القرار والسلطة واصحاب النفوذ والحكم سيما إذا علمنا ان صاحبنا المدون الكاتب المؤرخ انما يدون قضاياه وأسراره كواحد من أبناء تلك النخبة الحاكمة أو التي يعتقد صادقاً أم متوهماً انه أحد أبناء الهيئة العليا في المجتمع !

مفهوم المنهج:

ما هو مفهوم المنهج في التدوين التاريخي وخصوصاً تلك الكتابات التي تحكي شؤون يعاصرها ابناء الجيل الواحد ؟ وما دلالة اهتمام ليس الناس عموماً إنما المثقفين المهتمين والدارسين وطلبة العلم جميعاً؛هم ودون استثناء بمشروعية اكتساب مفهوم المنهج وخصوصاً تطبيقه في القراءات ووصولهم إلى الحد الادنى من كشف الحقائق وتحديد الافكار وتأطير الرؤى ؟

للإجابة على ذلك كله لابد لنا ان نفكر كثيراً فيما نقرأه والوقوف وقفات مطولة نفكر فيما نقرأ ونحيط أنفسنا علما بالنص (أو : النصوص) وان لا نستوعب النص ونعجب به ونؤمن بما جاء فيه بشكل مطلق . . قبل ان نحاوره ونسائله ونشكك في مضمونه ! ومن هنا يتطلب من المثقف العربي الذي يهوى التمتع بأسرار عصره وخفايا زعمائه . . كما تتطلب ثقافتنا التي تعيش على ما يدور في مجالسها وندواتها ومجتمعاتها . . تلك العقلية النقدية التي تتربى على المنهج النقدي والذي يقوم على مجموعة من المفاهيم الذهنية وسلسلة من القواعد والتطبيقات الاجرائية والتي يمكن ان يتعامل معها أي مثقف عربي متوازن العقلية وواقعي التفكير : تعاملاً حوارياً وفكرياً واقامة جدلية من نسق حي بين النص والعقل ، وبين المروي والواقع ، وبين الموثّق وغير الموثّق ، وبين المسند وبين القال والقيل . . الخ بحيث يستطيع هذا القارئ ان يكتشف جملة من الأشياء والأمور التي كانت غائبة عنه بمعزل ان كان يميل لهذا الكاتب أو لا يميل اليه . . وبمعزل ان يكون القارئ معجب بما كتبه المؤرخ ام لا . . وبعيداً ان كان هذا المثقف يرى في إسهاب هذا الكاتب من عدمه ، فهناك من الكتاب والمؤرخين

والمفكرين من يبقى قرابة عشر سنوات أو أكثر يشتغل بدقة وتركيز واتعاب من اجل انتاج عمل معين له رصانته وقوته .

باختصار ، لابد من القول **أن مفهوم النقد العقلي هو عملية إخضاع الموضوع لمقتضياته في القراءات ، والبحث عن حقيقته بعيداً عن الذات** . وبهذا المعنى لابد ان يكون للأجيال العربية القادمة في القرن الواحد والعشرين استبطان فكري ومفهوم منهجي يشيران إلى رؤية عقلانية نقدية معينة إلى ما يكتب عربياً وما يصاغ وما يدون وما يسجّل وما يشير ليس في الماضي فحسب وانما ضمن سلسلة من المدونات التي عمرها اليوم اكثر من ألف سنة . .

طبيعة المكاشفة النقدية :

ولابدّ من القول ، ان نقاط الكشف ستكون واضحة للعيان بازدياد المعلومات وبتطور الأساليب والأجهزة التي لم تكن موجودة لدى الأجيال السابقة . أي ان الأساليب والأدوات ستغني المنهج النقدي العربي في رصد الأوهام والأكاذيب والتلفيقات والادعاءات . . واخراجها أو محاولة اخراجها في سياقات التاريخ . وما دامت هذه العقلية النقدية والرؤية المنهجية قد زرعتا في التفكير العربي ، فانهما ستتطوران يوماً بعد يوم . . وستجني الاجيال القادمة من خلال تطبيقاتها لذلك ، المزيد من النتائج التي ستكشف عن جملة مهمة من التناقضات وجملة كبيرة من المدونات غير الصادقة فضلاً عما ستكشفه لنا المعرفة الإنسانية التي تتوغل في سايكلوجيات الإنسان ، وفي معرفة سوسيولوجيات بيئاته ، والقدرة على تصنيف الامور تصنيفاً موضوعياً ، فضلاً عما ستضيفه المناهج النقدية في تفكيك البنى واعادة تركيبها ومعرفة الصياغات والحكم عليها وكشف الذات وتشخيص اثارها ، وكلها ستجد طريقها بشكلٍ أو بآخر إلى محاكمة النصوص وتقييم المدونات وربط العلاقات من جديد ورد كل ذي شان بشأنه فضلاً عن توضيح الاخطاء الخ . .

تلك هي طبيعة المنهج . . وتلك هي دلالاته المتعددة والمتنوعة ويبقى الأمر منحصراً في مدى قدرة القراء والمهتمين على تطبيقه وتكثيف الرؤيا في لحظة تاريخية معينة ونحن نعلم

بأن الرؤيا لا تنفصل عن الرأي وان الرؤية هي جماع حرية الرأي العقلية ، وان التفكير يفترض الحرية والحرية تفترض العقل إذ من غير الممكن لغير العقلاء ان يكونوا احراراً يمارسوا الحرية الحقيقية كما ان الحر وحده والعاقل لما يمتلكه من قدرة على تبرير الاختيارات التي قبلها إزاء الاختيارات الأخرى التي استبعدها إضافة إلى ان من يمتلك منهجاً نقدياً سيقبل ان يتصل بمناهج أخرى يستحدث فيها تفكيره ويخصب فيها رؤيته وينمي تصوراته فيصل إلى ان يكون صاحب رؤية منهجية .

المرتكزات الاساسية:

صحيح ان فلسفة ديكارت هي أول محاولة جادة للتفكير النقدي في العصر الحديث لابد ان نستفيد منها في صياغة منهج محكم تستند افتراضاته الأساسية إلى بناء روح نقدي عربي فعال ، ولابد لنا عند قراءة المدونات من امتلاك ثلاثة أمور وركائز أساسية نستطيع من خلالها امتلاك الرؤية والمنهج والمفهوم :

١ - تأسيس منهج واضح للمعلومات المحددة التي يشترط في كتابتها اشتراطات عديدة لا تقتصر فقط على التوثيق المعروف وانما تتناول وتتعلق بقدرة اولئك المدوّنين على كبح جماح رغباتهم وعواطفهم وعلاقاتهم عندما يكتبون الحقائق . أي بمعنى دقتهم وتركيزهم وامانتهم في كتابة المعلومات مهما اختلفت مع وجهات نظرهم بحيث يتعذر على القراء والمختصين وضع علامات استفهام على تلك المدونات .

٢ - تسجيل الحقائق والمعلومات في لحظتها التاريخية أي مراعاة التوقيت الزمني ومراعاة البيئة الجغرافية وتوضيح ذوي العلاقة دون توزيع الاتهامات أو فضح الناس أو إلقاء التهم أو إطلاق الأحكام جزافاً على زعماء ومسؤولين ورجال ونسوة ملكات ومؤسسات ليس هناك روابط حقيقية بينها جميعاً لان ذلك سيولد ريبه عند القارئ وسيجعله يضع جملة من علامات الاستفهام حول النصوص كونها تمثل نزعة سالبة أو هدامة إذا ما كانت خالية من التوثيقات .

٣ - من جانب آخر ، إذا ما لم يحاول صاحب المدونات ان يثبت بشهادات وقرائن وامثلة

وتوثيقات على ما يهتم البعض به لانه ليس سلطة نهائية ولانه سيتوضح أو سيبدو امام الاخرين ان ثمة اشياء في نفسه يريد التعبير عنها أو زرع صور مشوهه ونقلها إلى الاجيال القادمة .

٤ - لا يمكن اقحام الذات في الموضوع مهما كانت درجة أو مكانة صاحب المدونات اللهم الا في حالة كتابة المذكرات الشخصية . أما عندما يكتب المؤرخ والمدون والكاتب والصحافي والسياسي وغيرهم ، أي مدونة ستكون ملكاً للأجيال القادمة . فعليه قدر الإمكان أن يبعد نفسه وذاته إلا بالقدر الذي يجده مناسباً كمساهمة منه في صنع قرار أو مساهمة منه في إصدار قانون أو تغيير مسيرة أو تأسيس مؤسسة الخ .

٥ - وحتى هذه لابد ان تستبعد من النصوص لكي توضع في الهوامش بمعنى ان صاحب المدونات عليه ان يبعد ذاته عن الموضوع وخصوصاً عندما يعالج موضوعات رئيسية مهمة استراتيجية على قدر كبير من الأهمية والتي تشترك في صنعها هيئات ورجال ومؤسسات فلا يمكن له ان يكون كشخص يتحرك داخل النصوص ويسبغ على نفسه هالة من الإعجاب والاهتمام والمكانة السياسية والقيمة الاجتماعية حتى يقال انه كان يحرك التاريخ هنا ويوقفه هناك !!*

استنتاجات منهجية :

ثمة استنتاجات لابد من الخروج منها بعد معالجتنا هذا المدخل المنهجي في دراسة المدونات المعاصرة ونقدها وتفكيكها :

المشكلة والاشكالية :

١ - ثمة خطر كان ولم يزل يهدد ثقافتنا العربية إلا وهو الوهم الذي يتوهمه عدد كبير من الناس والمثقفين الباحثين والكتاب باضفاء صفة المصداقية الدائمة على العناوين

---

* للتوسع ، انظر :

سيّار الجميل ، الرؤية المختلفة : قراءة نقدية في منهج محمد عابد الجابري (أجوبة الخطاب عن اسئلة التاريخ) ، ط ١ (بيروت/عمّان : الاهلية للنشر والتوزيع ، ١٩٩٩) ، ص ٢١ - ٣١ .

والنصوص والأسماء والكتب نظراً لفقدان مفهوم المنهج وفقدان الرؤيا النقدية وهذا ما كانت قد عالجته ثقافات اخرى استطاعت ان تتجاوز ذلك منذ زمن طويل وعليه لابد للأجيال العربية القادمة في القرن الواحد والعشرين ان تمتلك من الاشتراطات العقلية من اجل زراعة الوعي الجديد .

٢ - لابد ان تترسخ عندنا منذ الصغر سواء في أساليبنا التربوية او التعليمية او الأكاديمية او الثقافية التوعية العليا من القراءات النقدية التي يكمن فيها التشخيص والتي تثير في الذهن جملة من الأسئلة . وهذه هي القراءة التي فلسفها لوسيان كلوك مان حول اثارة الاشكاليات في مشكلة اساسية قائمة فالمشكلة **Problem كبيرة موجودة بالثقافة . ولكن القارئ والباحث والدارس وطالب العلم هو الذي يثير الإشكالية Estema** ، وكم نحن بحاجة لاثارة جملة من الإشكاليات النقدية طموحاً في الوصول إلى بناء كليات نوعية جديدة على أنقاض الأساليب المتداعية التي تربينا عليها في جملة هائلة من المدونات التاريخية .

المعرفة وتنامي الوعي:

٣ - بالرغم من وجود مفكرين عرب يمتلكون النزعة النقدية بدءاً بظهور طه حسين عند مطلع القرن العشرين وانتهاءً بنخبة عربية جادة في نهاية القرن العشرين . . لكن العدد قليل جدا لان الأمر لا ينحصر بأناس يعدون على عدد الأصابع يقومون بزراعة المفاهيم المنهجية والرؤيا النقدية . طموحنا ان يكون قد تبلور ذلك عند اغلب المثقفين والمثقفات العرب عند اغلب الذين يدرسون في الجامعات واغلب من يمتلكون الوعي .

٤ - في فضاء المدون التاريخي ذاته لابد من وجود محددات سواء في كتابة المدونات أو في نشرها أو في النقد عليها أو في تحمل مسؤولية صاحبها أمام الاخرين من ابناء عصره ومسؤوليته عنها امام التاريخ لابد ان يكون هناك اتصال وتفاعل مع فضاءات اخرى يمكنها ان تثير جملة المدونات اهتمامات ودراسات ونقدات ومناقشات حتى يتبين الخطا من الصواب وحتى يبقى ما هو جدير بالصحة للاجيال القادمة وان تسحب الاخطاء

من النصوص بشكل جذري .

٥ – لابد من اشاعة روح المعرفة فالثقافة العربية مظلومة بابنائها وبخطى اجيالها ذلك ان الاخطاء فيها تبقى متداولة وان الافكار فيها تبقى سارية المفعول وخصوصاً ان كل جيل يتلقف عن سابقه جملة من المفاهيم التي يؤمن بها دون ان يتحرى مدى الصحة فيها من الخطأ . . ولابد ان نتوقف عند مقولات مؤثرة كالتي ذكرها الراحل الكبير طه حسين عندما قال : « ان كثيراً من الناس سيلقون هذا النمو من التفكير بشيء غير قليل من الإنكار له والازورار عنه » . ويستطرد قائلاً : « ان الذين يخوضون في أحاديث الشرق والغرب عندنا يجهلون الشرق والغرب عندنا جميعاً لانهم يعرفون ظواهر الأشياء ولا يتعمقون داخلها ، واذا كان هناك شيء يجب ان نحمي منه الشباب فهو هذا العلم الكاذب الذي يكتفي بظواهر الأشياء » .*

* انظر : طه حسين ، مستقبل الثقافة في مصر (بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨٢) ، ص ٦١ ، ٧٩ .

الفصل الأول

تكوين هيكل : الظاهر والباطن المنهج والتفكير

« تفكيك الفكر أصعب بكثير من تفكيك المؤسسات »

- جاك دريدا -

« اننا لا نتوقف لقراءة ما حولنا قراءة سليمة .. ولا نتوقف لفرز ما مرّ علينا من تجارب .. لنأخذ منها ما يناسبنا .. ونلقى في سلة التاريخ ما لم يعد مناسبا .. أو بلغة السوق .. ما فقد صلاحيته لذلك .. نحن نندفع في طريق لا نعرفه .. » .

- محمد حسنين هيكل -

أولا : التكــوين والمؤثــرات

صورة بانورامية : مراحل سيرة

ولد محمد حسنين هيكل بالقاهرة في حي باب الشعرية عام ١٩٢٣ ، أي أنه أمضى قرابة ثلاثين سنة من تكوينه التربوي والتعليمي والثقافي والفكري على العهد الملكي على عهدي الملك فؤاد الاول وولده الملك فاروق الاول . . وأنه أمضى قرابة خمسين سنة من حياته العملية الصحافية والسياسية والتأليفية على العهد الجمهوري وامتداد حياة أربعة زعماء مصريين ، هم : محمد نجيب وجمال عبد الناصر وأنور السادات وحسني مبارك .

وعليه ، يمكننا أن نقسم حياته الى عدة أقسام ، هي على التوالي :

١ – ١٩٢٣ ـ ١٩٤٢ مرحلة الدراسة في المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية التوجيهية .

٢ – ١٩٤٢ ـ ١٩٥٢ مرحلة العمل الاولى في الصحافة الانكليزية والعربية : صحيفة الايجبشيان جازيت ، مجلة آخر ساعة ، صحيفة أخبار اليوم (اذا كان هيكل قد دخل الحياة العملية وعمره ١٩ سنة ، فمتى درس التجارة في الجامعة الأمريكية بالقاهرة ؟) .

٣ – ١٩٥٢ ـ ١٩٧٠ مرحلة عهد جمال عبد الناصر .

٤ – ١٩٧٠ ـ ١٩٨١ مرحلة توافق ومعارضة حكم أنور السادات .

٥ – ١٩٨١ ـ ١٩٩٠ مرحلة الاغتراب .

٦ – ١٩٩٠ ـ ١٩٩٩ المرحلة الأخيرة .

طفولة وديعة :

يبدو واضحا للمؤرخ أن طفولة محمد حسنين هيكل في عقد العشرينيات لم تكن قاسية في حواري باب الشعرية بقلب القاهرة النابض بالحياة والذي كان ينبعث منه صوت خلاق كان قد ولد فيه هو الاخر : صوت الفنان محمد عبد الوهاب . . والبيئة كما رسمها لنا

هذا المبدع الاخير في أحد لقاءاته التلفزيونية الممتعة ، هي بيئة ثنائية التركيب ، أصيلة الاهل ، دينية الهوى . . اذ تبدأ من مسجد الشعراني ، وتنتهي عند ازقة وحواري سيدنا الحسين والسيدة زينب . . في خضم سنوات العشرينات ، تنمو أظفار محمد حسنين هيكل في عائلة متوسطة الحال تمتد اصولها الى الصعيد ، وبالذات الى بلدة ديروط الشريف عندما يذكر هو بنفسه قائلاً : « أتيناها قبيلة من بلاد العرب عبرت ، وتركت فروعها في كل مكان حتى أستقرت في صعيد مصر ، ثم هاجر جدي لأبي الى الشمال وجاء والدي بتجارته الى القاهرة » . ويولد له اولاده فيها ، ومنهم محمد الذي ولد يوم ٢٣ سبتمبر / أيلول ١٩٢٣م فينمو ويترعرع في ظل أبيه الذي كان يّود ان يكون ولده هذا في خدمة العلم ، اذ نذره للازهر ، وقد انتظم اولا في التعليم الاولّي . .

صّبوة من نوع خاص:

وكان لمحمد أخوة له أكبر منه سنا يعملون بالتجارة مع أبيهم ، ولكنهم ليسوا من الاشقاء فامهم ريفية . . اذ يبدو ان أمه كانت حضرية تتمنى لولدها مستقبلا غير مستقبل أخوته وغير مستقبل كان يخطط له أبوه أن يكون . . وقد أنتهزت أول فرصة سافر خلالها أبوه في رحلة دامت قرابة أسبوعين ، حتى سارعت بالاتصال بأخيها متفقة معه على أن تلحق ولدها محمد بالمدرسة الاميرية ، بعد ان أخذته معها الى محل بالقاهرة أسمه « بلاتشي » واشترت منه بدلتين صغيرتين له . . ولم تمض ايام قليلة ، حتى وجد محمد نفسه وهو يجلس تلميذا نجيبا في السنة الاولى بمدرسة خليل أغا . .

ويعلق محمد حسنين هيكل قائلاً : بأن « أمي عملت انقلابا جذريا في حياتي » ، خصوصا وان مدرسة خليل اغا كانت تابعة للخاصة الملكية ، وفيها التقى هيكل رفيق صبوته وكرسي تلمذته : احسان عبد القدوس الذي كان يسبقه بثلاث سنوات اذ كان احسان في السنة الرابعة . . ولم يزل هيكل يتذكر طابور الصباح في المدرسة حيث تقام المراسم التقليدية : الاناشيد والتمارين والتفتيش الصعب على كوي المراويل السوداء التي كانوا يلبسونها فوق ملابسهم المدرسية ، وترتيب الكتيبات والكراريس في الحقائب ، وقوة لمعان صبغ الاحذية السوداء ، ونظافة الايادي والاظافر . .

هكذا بدت حياة الصبي هيكل عند مطلع عقد الثلاثينيات كي تبدأ اولى تجاربه التربوية في الحياة ابان تلك المرحلة التي قضاها بنجاح مستقطبا اهتمام معلميه بحركته السريعة ودقة عمله ، ولما يكمل متطلبات السنة التوجيهية تكون الحرب العالمية الثانية قد اندلع أوارها على مدى قرابة ثلاث سنوات من حياته عام ١٩٤٢ ! واذا علمنا ان وعي هيكل الاولي قد شب ونما في عقد الثلاثينيات بكل ما كان يزخر بمصر من النضال في الشوارع والمدارس والمقاهي والحارات . . علمنا ان صبوة هيكل قد نمت في ظل احداث وواقع عناصر وعرض شعارات . . كلها تذكي بالاحساس الوطني ، وتدعو الى الاستقلال وبناء الاهداف النبيلة باساليب سياسية وشعارات ساخنة . .

تجربة شاب أنيق :

وجاءت تتلوها المرحلة الاخرى الاكثر زخارة وأهمية بالنسبة لتكوين هذا « الرجل » ، أي في عقد الاربعينيات بكل خصبه بمصر خصوصا وان هيكل الشاب الانيق اختار الطريق العملي في بناء مستقبله من خلال الصحافة . . ولا ندري لماذا اختار هذا الشاب مجال عمله صحيفة « **الايجيبشيان جازيت** » كي يقضي فيها سنتين من حياته ١٩٤٢ ـ ١٩٤٤ أي في عز معارك الحرب العالمية الثانية قرب الجبهة المصرية اذ دارت معركة العلمين بين قوات الحلفاء وقوات المحور عام ١٩٤٢ مسفرة عن انتصار الحلفاء . . في مناخ مليء بدخان الحرب ، كان الشاب محمد حسنين هيكل يروح ويغدو بين ادارة الجريدة الانكليزية وتحريرها وهو يلتقط الاخبار من هنا وهناك ، ويقيم العلاقات مع هذا وذاك . . ولعل أكبر نفع اكتسبه هيكل من هذه الجريدة ليس اللغة الانكليزية حسب ، بل تعلمه الجلد في العمل ، والقدرة على الانتشار بعمق في كل الاتجاهات الفكرية واختراق كل المعسكرات السياسية ، فضلا عن حقنه بعامل القوة الشخصية النافذة التي لها التأثير البالغ في النفوس والمدى الواسع من اختراق نسيج العلاقات مع الاخرين !

كما ان هيكل كان محظوظا منذ بواكير شبابه بوقوعه في أيدي أثنين من أمهر الرجالات البراغماتيين ، اولهما يدعى سكوت واطسون وهو استاذ في الجامعة الامريكية بالقاهرة ومحرر صحفي في الايجبشيان جازيت ، وثانيهما هارولد ايرل رئيس تحرير هذه الصحيفة . .

ومعروف هو اتجاهها وطبيعة اهدافها ولمن تكتب وتنشر الاخبار ! وكان هناك في هذه الجريدة محرر مسؤول عن الشؤون المحلية اسمه فيليب حنين صحب هيكل بمعيته ليقّدمه الى السيدة روز اليوسف في مطعم « الباريزيانا » وكانت زبونة فيه ظهيرة كل يوم لتناول غدائها . . ثم زادت لقاءات هيكل مع هذه السيدة ذات الشخصية القوية النافذة ، فكانت قد ألقت كلمات تشجيع لا توصف في قلب هيكل وعقله كما كانت تفعل مع اغلب الصحفيين الشبان الذين يلتئمون حول مائدتها الكريمة . . ونشر هيكل في مجلة روز اليوسف عدة مقالات غلب عليها الطابع الادبي والرومانسي . .*

الخطوات الاولى: على أبواب السلطة في العهد الملكي

كان محمد حسنين هيكل قد أنضم للعمل على مدار سنتين ١٩٤٤ ـ ١٩٤٦ في مجلة «آخر ساعة» التي كانت اللسان المعبر عن حزب الوفد المصري ، والتي كان يرأس تحريرها الصحفي المصري المعروف محمد التابعي الذي كان قد أعجب بمقدرة هذا الشاب المتسم بالحركة والفعالية ، فسحبه الى جانبه كي يتشبّع تفكير الشاب هيكل بالنزعة الوطنية المصرية . وقام هيكل باعمال سكرتارية يلخص تقارير المراسلين وينقل ما يرويه المراسلون الاجانب كما ويلعب دوره في التوسط بين التابعي والمحررين ، ثم اشتغل مراسلاً ، يكتب مقالاته الخاصة وتقاريره الصحفية الخبرية . . وفي تلك الاثناء ، بدأ هذا الشابّ يتعامل سياسيا مع أكثر من طرف بحكم تجربته المهنية ، كما قفز هيكل كي يجد نفسه عند أبواب السلطة فيدخل دوائرها السياسية ويخترق كواليسها . . وبقي على علاقة وثيقة باستاذه محمد التابعي منتقلا من صحافة الخبر الى صحافة الرأي . .

بعد أن وجد الشاب الصحفي هيكل ان الفرصة قد تهيأت له اثر سقوط الوفد عام

---

* من أجل توثيق ترجمة محمد حسنين هيكل ، أشير الى :
عادل حموده يحاور محمد حسنين هيكل . . ، ط٢ (القاهرة : دار الشروق ، ١٩٩٥) نقلا عن حوار مطول اجرته مع هيكل : سناء البيسي .
وانظر : سائد درويش ، محمد حسنين هيكل : رجل كل العصور . . . ط١ (عمّان : دانه للعلاقات العامة ، ١٩٩٢) .
وغيرهما من الكتابات والحوارات .

١٩٤٤ ، قفز الى صحيفة جديدة أسمها «أخبار اليوم» التي كان مدعومة من الملك فاروق والسلطة الحاكمة ، ولا يمكن تحديد الاسباب الحقيقية والاعتبارات السياسية وراء ذلك . . وقد بقي هيكل يعمل في الصحيفة الملكية «أخبار اليوم» منذ عام ١٩٤٦ حتى ما بعد قيام ثورة تموز/ يوليو ١٩٥٢ ، اذ استمر بها حتى عام ١٩٥٧ . وعندما دخل اليها بعد اضطرار محمد التابعي بيع «آخر ساعة» لاصحاب «أخبار اليوم» ، كان يقوم على رأس هذه الاخيرة كل من الاخوين : مصطفى وعلي أمين ، وقد كلفا هيكل بسكرتارية تحرير الصحيفة القديمة فضلاً عن القيام بمهمة مساعد رئيس تحرير صحيفة «أخبار اليوم» . . فقبل المهمة ، ولكن العلاقة بينه من طرف وبينهما من طرف آخر لم تكن بواضحة أبدا ، على الرغم من فوزه بجائزة الملك فاروق الصحفية ، وهي جائزة لا يبدو انها تمنح اعتباطا لأي صحفي ، الا انه كان رؤساؤه والبلاط والسلطة بكاملها راضية عنه وعن جهوده التي كوفيء بها وهي تشكل قيمة كبيرة حينذاك في الاوساط الصحفية .

من جانب آخر ، يبدو أن هذا الصحفي الشاب قد نجح في كسب ربط ولائه بالسلطة اولا وبكل من مصطفى وعلي أمين ثانيا حتى يرسل الى الخارج ليصف الاحداث الخارجية ، وكان طموحه الشخصي وسعيه لذلك ، جعل مصطفى أمين يعتقد بأن لدى هيكل عقدة نقص تربوية واجتماعية . . وعليه ، فقد اصبح مراسلا لمنطقة الشرق الاوسط ، وغطى عدة أحداث ساخنة للفترة ١٩٤٦ ـ ١٩٥١ ، وجعله يبني له علاقات متنوعة مع الخارج ، وقد اصدر عام ١٩٥١ كتيبا عن ايران مصدق اسماه : **ايران فوق بركان** ، وخلال السنوات الخمس المذكورة ، حصّل محمد حسنين هيكل ثلاث مرات على جائزة الملك فاروق . . التي غدا لها أكثر من معنى خصوصا وان أسمه ذاع قبل ثورة يوليو/ تموز ١٩٥٢ ، وكانت له اتصالاته السياسية في الداخل والخارج . . وقد طلبه الى مكتبه لأكثر من مرة رئيس الوزراء المصري محمود باشا النقراشي . . ولا أعتقد أن النقراشي باشا أو نجيب الهلالي كانا يستدعيان الشاب هيكل ليستشيراه في تشكيل الوزارة مثلا ـ كما يّدعي هيكل ذلك في ما كتبه في كتابه « **بين الصحافة والسياسة** » ، ولكن ربما استدعياه لتكليفات سياسية وصحافية . . كصحفي شاب يعمل في اطار النظام الملكي الحاكم . . ليس الا ؟

ومن تاريخه الصحفي ايضا انه في شهر مايو / مايس ١٩٤٦م التحق بدار اخبار اليوم

ليبقى سنتين كاملتين كي يعمل في شهر مايو / مايس ١٩٤٨م كاول مراسل حربي خلال حرب فلسطين والتي سيتعرف فيها على بعض الضباط وكان منهم : البكباشي جمال عبد الناصر . . وقد لمع أسم هيكل لمعانا باهرا من خلال سلسلة المقالات والتحقيقات الصحفية التي كتبها اثناء الحرب . . فضلا عن صور واحداث الانقلابات العسكرية التي كان يتفنن في نقل أخبارها الدراماتيكية ، وخاصة تلك التي حدثت في سوريا والعراق وتركيا وايران . ولقد انضم الى نقابة الصحفيين المصريين في شهر يناير ١٩٤٨ . وعين بتاريخ ١٣ يونيو / حزيران ١٩٥٢ ، رئيسا لتحرير مجلة « آخر ساعة » الاسبوعية .*

الخطوات الثانية: القفز الى جانب جمال عبد الناصر

لقد غرست كل من المرحلتين الاولى والثانية ، أي الشبابية الاولى من حياته سماتها فيه ، ورسمت خطوطها العريضة شخصيته وأسلوبه في الحياة ، اذ كانت ولم تزل تلك الخطوط تلازمه حتى يومنا هذا من الناحية العملية والفكرية وليست من الناحية السياسية والايديولوجية التي اعتقد ان الرجل قد وظف الاولى - وهي الاثمن عنده - في خدمة الثانية التي بدأت ولادتها بعد ثورة ٢٣ يوليو / تموز ١٩٥٢ ، وكان توظيفا بارعا سواء على مستوى العمل الصحفي ام على مستوى المنصب الوزاري الذي لم يدم طويلا . . وما عدا ذلك ، فان **كل حياة الرجل ارتبطت باسم كاريزما زعاماتية خطيرة ممثلة بالرئيس جمال عبد الناصر ، ولم ترتبط بالوطن الام مصر او بالوطن (الخارجي) العربي!** وهذا ما يتوضّح جليا في جملة الكتابات التي نشرها على امتداد حياته الخصبة . . بدليل انه كان ولم يزل يشعر هذا الشعور في اعماقه ، مما دعاه الى ان يطلق على واحد من كتبه اسم « **لمصر . . . لا لعبد الناصر** » وكأنه يريد القول ان ارتباطه بمصر أقوى من ارتباطه بعبد الناصر !

ان محمد حسنين هيكل صحفي ناجح اولا واخيراً ، وقد فاق غيره بامكاناته الباهرة واسلوبه المبسط . . ويبدو انه من المعجبين جدا بانكبابه على العمل ليل نهار ، فضلا عن طبيعته في متابعة الامور والطريقة التي تميّزه في جمع المعلومات اولا وصياغتها ثانيا . .

---

* من المفيد جدا ، مراجعة : جمال الشلبي ، **محمد حسنين هيكل استمرارية أم تحوّل ؟** ، ط١ ترجمة : حياة الحويك عطية ، (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٩٩) ، ص ٢٥ - ٣٣ (معتمدا على حواراته مع هيكل) .

وتأسيس العلاقات ثالثا . . كما ولابد ان نذكر ان كل هذا لا يمنع من ان تكون للرجل مزايا من نوع اخر ، فهو من النوع الذي يريد أن يكون دوما في قلب السلطة ، أي سلطة ، وهو الذي يطمح دوما ان يكون مقاربا لعلية القوم ، ولا يتعامل الا من مثل مستواهم . . كما أنه من النوع الذي يعتقد بأن كلمته هي الاخيرة دوما ، ويظن بأنها ستحسم كل شيىء ! وهو من النوع الذي يريد من الاخرين اعتباره مرجعية لهم ، خصوصا عندما يبهرهم بما يقصّه عليهم من المعلومات النادرة التي تعلم الاخرين عن دوره المؤثر والمهم في الاحداث ! وربما كان للرجل دوره ام لم يكن له أي دور . . فان هيكل من القدرة والذكاء على اختيار الوقت المناسب والمناسبة المعينة كي يفجّر خلالهما معلوماته المثيرة ! *

المناصب الصحفية

بعد مرور خمس سنوات على ثورة يوليو/ تموز ١٩٥٢ ، عين محمد حسنين هيكل في ٣١ يوليو/ تموز ١٩٥٧ ، رئيسا لتحرير جريدة « الاهرام » ، وفي العاشر من شهر اغسطس / آب بدأ بكتابة اول مقال له تحت عنوان « بصراحة » والذي استمر يلازمه سنوات طوال . ولقد توثقت خلال تلك الفترة علاقته بالرئيس جمال عبد الناصر الذي كان قد وصل الى قمة مجده ايام الوحدة السورية – المصرية واعلان كيان الجمهورية العربية المتحدة . وفي نهاية عام ١٩٦٠ وبالتحديد يوم ١٥ كانون الاول/ ديسمبر منه ، حصل هيكل على وسام الاستحقاق من الدرجة الاولى بمناسبة الاحتفال بعيد العلم ، وسلمه له الرئيس عبد الناصر . . وبعد مرور قرابة ثمانية أشهر ، أي في يوم ٨ اغسطس/ آب ١٩٦١ ، عين هيكل رئيسا لمجلس ادارة «الاهرام» الى جانب منصبه كرئيس تحرير لها . . وفي ١٧ اكتوبر/ تشرين الاول ١٩٦٥ ، عين هيكل رئيسا لمجلسي ادارة مؤسستي الاهرام واخبار اليوم ، حيث تم دمجهما تحت اسم مؤسسة الصحافة العربية .**

---

* راجع آراء هيكل نفسه في : فؤاد مطر ، بصراحة عن عبد الناصر : عشرون ساعة حوار مع هيكل (بغداد : دار الشؤون الثقافية ، ١٩٨٩) .

** من افضل المراجع حول هذه «الموضوعات» الخاصة ، انظر :

Munor Nasser, *Press, Politics and Power: Egypts Heikal and Al-Ahram* (Iowa: The State University Press, 1979).

طلعت همام ، هيكل الرجل اللغز : القصة الكاملة لعلاقة عبد الناصر وهيكل ، ط١ (الكرك : دار نصار للنشر والتوزيع ، ١٩٨٤) .

المناصب الصحفية والادوار السياسية:

أما أدواره ومناصبه السياسية، فانها تبدأ بعد هزيمة ١٩٦٧، اذ اختير يوم ٢٤ يوليو / تموز ١٩٦٨ عضوا في لجنة المائة التي أعدت أعمال المؤتمر القومي للاتحاد الاشتراكي العربي في دورته الاولى. وفي ٢١ سبتمبر / ايلول ١٩٦٨، انتخب عضوا باللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي العربي. وفي يوم ٢٦ ابريل / نيسان ١٩٧٠ (أي قبل وفاة عبد الناصر باشهر قليلة) نّصب هيكل وزيرا للارشاد القومي بجانب احتفاظه بعمله رئيسا لتحرير « الاهرام » ومجلس ادارتها. وبقي في كرسي الوزارة بعد رحيل عبد الناصر فترة قصيرة، ثم قدم استقالته يوم ١٨ اكتوبر/ تشرين الاول ١٩٧٠ الى الرئيس انور السادات الذي قبل استقالته، اذ بقي متفرغا لعمله في مؤسسة الاهرام.

بعد حرب اكتوبر (تشرين الاول)/ رمضان ١٩٧٣، توترت العلاقة بينه وبين الرئيس أنور السادات، وخصوصا اثر نشره مقالات ضد الخطة الامريكية لاعادة ترتيب اوراق المنطقة، فصدر قرار جمهوري في الاول من فبراير / شباط ١٩٧٤ بتعيين هيكل مستشارا صحفيا لرئيس الجمهورية وندب محله عبد القادر حاتم رئيسا لمؤسسة الاهرام، وقبل خروجه منها، كتب اخر سلسلة مقالاته «بصراحة» وقال بعد ان خرج من الاهرام: «لقد تركت هذا المبنى.. ولن أعود اليه». ومع مرور الايام ازدادت العداوة والبغضاء بينه وبين الرئيس السادات. وفي شهر مايو / ايار ١٩٧٨ منع هيكل من السفر الى خارج البلاد، وتم استدعاؤه امام المدعي الاشتراكي بتهمة التشهير بسمعة مصر، وتهديد سلامة الجبهة الداخلية.. وفي ٥ سبتمبر/ ايلول ١٩٨١، صدر قرار جمهوري بالتحفظ عليه ونقله الى السجن ضمن حملة شملت ١٥٣٦ شخصا ضمن اتهامات سياسية شتى.. وبقي في السجن حتى حادثة المنصة واغتيال الرئيس السادات.. ففي ٢٥ نوفمبر ١٩٨١، اصدر المدعي الاشتراكي قرارا بالافراج عنه ضمن ٢١ شخصا من المعتقلين السياسيين واستقبلهم الرئيس الجديد حسني مبارك فور الافراج عنهم.. وانكب هيكل على مدى سنتين بعد اطلاق سراحه لينشر بعد ذلك كتاب « خريف الغضب » الذي اثيرت حوله زوبعة كبرى وضجة بالغة شملت مصر والبلدان العربية.*

---

* من اجل تفصيلات موسّعة، يراجع: حنفي المحلاوي، السادات بين هيكل وموسى صبري، ط١ (القاهرة: مكتبة دار العربية للكتاب، ١٩٩٤).

السمات الخاصة :

يقول ج . لاكتوار في وصف محمد حسنين هيكل : «ضخم ورشيق ، حاد الطبع وقويّ ، له سمات وجه فلاح ، اختار ان يقوم بالعمل الاداري بدل ان يصبح فرعوناً في متحف . أسمر اللون كأي صعيدي (مثل صديقة الرئيس جمال) ، سريع الجملة وحادّها ، ذو نظرة تتقّد غالباً ، وذو ابتسامة ماكرة ، وربمت يكون الشخصية الاكثر اثارة في مصر المعاصرة . . . ناطق رسمي متحمّس وصديق وفيّ – بطريقة ذاتية اكثر منها موضوعية – للرئيس ناصر . . .»*

لقد وصف الرجل بأنه يمتلك قوة في التأثير ، وهو يوحي للاخرين بأن خزينا من الحكمة يكمن في رأسه . .كما أنه يحب الاستمرار في أي حركة يتخذها ، اذ يؤمن بقولة فيلسوف قديم ، هي : « قل كلمتك وامض » . . كما أنه يؤمن بأن مستقبله هو نفسه وراءه ، أي أنه أسرع من طبيعة الاشياء ومن شخصه بالذات وقد نجح في صنع تاريخه . عاداته ليست غريبة على من يمتلك شخصيته وصحته وطاقته ، فهو ينام قبل منتصف الليل ، ويستيقظ مبكرا قبل طلوع الشمس ، كي يمارس رياضة خفيفة . . أو ينزل كي يمارس لعبة الكولف .

يمتاز بكونه رجل منظم جدا بطبيعته وكما تربى على ذلك منذ الصغر . . يبدأ عمله منذ الساعة الثامنة صباحا ، اذ لا تراه الا منكبا على اوراقه في مكتبه المطل على نهر النيل ، ويستغرق عمله حتى الثالثة بعد الظهر . . وقد وصف أحدهم أصراره على العمل المتصّل يوميا بدأب نجيب محفوظ الذي لم يزل يصر على الابداع المنظم هو الآخر ! ومحمد حسنين هيكل لم تزل اتصالاته الواسعة بشخصيات بيدهم مفاتيح العالم – كما يقال – . . وله مكتبته العامرة التي يصل عدد ما فيها من الكتب (٢٥) الفا ، فضلا عما يمتاز به من سرعة الكتابة والقراءة . . ولا يختلف اثنان في اناقته ، كما انه اكتسب بعض عادات وتصرفات جديدة عليه عند شيخوخته لم تكن عنده في شبابه .

---

* Jean Lacouture, "Les hommes: Mohammed Hassanein Heykal", *Maghreb - Machrek*, Paris, Mai - Juin, 1974, P. 62.

وكما ورد على لسان أحد المعجبين به ، أنه قال :

« ان هيكل الآن يبدو مثل لورد بريطاني . . فهو لا يستقبل زواره إلا بملابس كاملة . . ويدخن أنواعا من السيجار يفهم فيها . . ويلعب الجولف في الصباح . . ويحرص على حضور مهرجان موتسارت كل صيف في سالزبورج . . . لكنه في أعماقه لا ينسى سيدنا الحسين ويحفظ الشعر العربي . . ويهوى أم كلثوم . . ويتذكر أقرب الأصدقاء إليه : كامل الشناوي وتوفيق الحكيم . انه لورد تمتد جذوره الى سيدنا الحسين »

ويستطرد قائلاً : « والوجه الخاص لمحمد حسنين هيكل يكشف عن أنه يحفظ ١٠ آلاف بيت من الشعر العربي . . ويهوى سيد درويش وأم كلثوم ومحمد عبد الوهاب والتواشيح والموسيقى الكلاسيكية التي تملأ مكتبه ـ مع دخان السيجار ـ وهو يكتب أو يحاور ضيوفه . . وهو يحترم المرأة . . »* . ربما اقتنعنا بكل ذلك عدا حفظه لـ ١٠ آلاف بيت من الشعر ، الا يعتقد الراوي أنه قد بالغ كثيرا في ذلك ، فلقد استمعنا لمحمد حسنين هيكل في عدة مقابلات اذاعية وتلفزيونية ومحاضرات سياسية لم يذكر خلالها بيتا واحدا من الشعر !

مؤلفات هيكل :

لقد نشر محمد حسنين هيكل عددا كبيرا من الكتب التي تراوحت قيمتها واهميتها بين المثيرة للجدل الى المذكرات الشخصية الى الانطباعات العادية الى التوثيقات العسكرية الى الحوارات الزعاماتية الى الكتابات التاريخية والسياسية الى التحليلات الصحفية . . الخ وقد وصل عدد كتبه الى قرابة ثلاثين كتابا . . وهو ذكي جدا في اختيار بعض عناوين كتبه ، وقد يخطئ بعض الاحيان باختيار بعضها الاخر !! وان السمة البارزة لتلك التآليف تتمثل بحجومها الكبيرة مما يدل دلالة واضحة ان صاحبها يمتلك نفسا طويلا . . ولقد بدأ هيكل عملية التأليف منذ صدر شبابه ونشر كتاباه : « **ما الذي جرى في سوريا** » و « **ايران فوق بركان** » قبل ثورة يوليو / تموز ١٩٥٢م التي لم يتجاوز عمره عند حدوثها التاسعة

---

* ما كتبه عادل حموده (نقلا عن سناء البيسي) وهو يحاور محمد حسنين هيكل ، المرجع السابق ، ص ٦ - ٢٠ .

والعشرين . . وقد تضمّن الكتاب الاول اخبار ومعلومات ونقولات عن سوريا ، وهذا ما تضمنه الكتاب الثاني الذي كتبه على نفس النهج متحدثا فيه عن ثورة مصّدق في ايران .

كما نشر هيكل كتابا اخر عن ايران بعد نجاح الثورة الاسلامية فيها تحت عنوان : « مدافع آية الله : قصة أيران والثورة . . اما عبد الناصر ، فقد نشر عنه هيكل أكثر من أربعة كتب ، منها : بصراحة : الساعات الـ ٣٤ الاخيرة في حياة الزعيم الراحل جمال عبد الناصر ، وكتاب : عبد الناصر والعالم وكتاب : لمصر . . . لا لعبد الناصر ، وكتاب : بصراحة عن عبد الناصر : حوار مع محمد حسنين هيكل . . اما عن السادات ، فقد كتب : حديث المبادرة وكتاب : خريف الغضب وغيرها . . اما في تاريخ الحروب العربية ، فقد اصدر هيكل كتاب : قصة السويس : آخر المعارك في عصر العمالقة ، وكتاب : ملفات السويس : حرب الثلاثين سنة ، وكتاب الانفجار ١٩٦٧ (الجزء الثاني) ، وكتاب حرب الخليج . . أوهام النصر والقوة . . ، وكتاب العروش والجيوش : كذلك انفجر الصراع في فلسطين : قراءة في يوميات الحرب وكتاب : المفاوضات السرية بين العرب واسرائيل : عواصف الحرب وعواصف السلام وغيرها . أما عن أدواره الصحفية ومواقفه السياسية وذكرياته فقد نشر فيها كتابه : بين الصحافة والسياسة وكتاب زيارة جديدة للتاريخ وأحاديث في العاصفة ، وكتاب : وقائع تحقيق سياسي امام المدعي الاشتراكي . وكتب في التاريخ السياسي كتابه الكبير : سنوات الغليان (الجزء الاول) . وكتب عن السلام والتسوية : كتاب : حديث المبادرة وكتاب السلام المستحيل والديمقراطية الغائبة ، وكتاب آفاق الثمانينيات ، وكتاب الحل والحرب . . وثمة كتب وكتيبات اخرى متنوعة المضامين والاهتمامات ، منها عن : أعمال المؤتمر الصهيوني السابع والعشرين ١٩٦٨ (بجزئين) ، وكتاب : أحاديث في آسيا وكتاب : أزمة العرب ومستقبلهم وغيرها .

ان ما يميز هذه « المؤلفات » جمعاء ، طبيعة موضوعاتها ، وغرابة معلوماتها ، وقوة تحليلاتها . . ووضوح اسلوبها . . كلها كانت من الاسباب الحقيقية لانتشارها الواسع ، واعادة طبعاتها لعدة مرات . وعداها ، فان هناك عشرات بل مئات المقالات التي نشرها في واجهات الصحف المصرية . ومن الملفت للنظر طبيعة العناوين التي يختارها لكتبه والتي ينطوي اغلبها

على معان تتسم بها المضامين الواسعة لها ! ويمتاز هيكل بنفسه الطويل ، فاغلب كتبه من الحجم الكبير والمؤلفة من مئات الصفحات . . وقد نجح الرجل ان ينشر بعض كتبه بالانكليزية والفرنسية بعد ترجمتها .

المؤلفات المثيرة : فقدان للمصداقية

جاء في واحد من أقوال محمد حسنين هيكل قوله : « أنا أرحب بالحساب لمواقفي وكتاباتي » . . لكنه في مكان آخر يقول : « لن أرد على أحد من الذين يتصورون انهم سينالون مني » . . وهناك العشرات من الذين اهتموا بمؤلفاته وأعماله وكتبوا عنها ، وخصوصا من الذين وقفوا معه او بالضد من منهجه وافكاره وكتابته ، والاسماء كثيرة ، أذكر منها : حافظ محمود وفؤاد زكريا وعبد العظيم رمضان وعبد الرحمن شاكر وحسين كروم ومنير ناصر وغالي شكري وعزيز السيد جاسم وجان لاكتور ولويس عوض وموسى صبري وسمير رجب وطلعت همام وحنفي المحلاوي وسائد درويش وعبد الله محارب وجمال الشلبي وسمير الحباشنة وغيرهم من عشرات الكـتّاب والصحفيين والمراقبين والمتابعين وخصوصا أولئك الذين اشتركوا في نقد كتابه « **خريف الغضب** » . . الذي أثار ضجة كبرى في الاوساط المصرية بشكل خاص والاوساط العربية ، وقد تناوله كل واحد منهم من زاوية معينة . . وهناك العديد من الذين حاوروه حوارات مطولة أذكر منهم : فؤاد مطر وسناء البيسي ومفيد فوزي وصلاح منتصر ومصطفى بكري وصلاح عيسى ومحمود الميرغني وعادل حموده وجيزيل خوري وفيليب جلاب وغيرهم ولكن قلما تناوله ناقد في افكاره وتفكيره او كتاباته ومعلوماته .

ولعل أبرز نقد وجه لمؤلفات محمد حسنين هيكل واشترك معظم منتقديه فيه : فقدان مصداقية كتبه ، لأنه يتكلم بأسم الارشيف والوثائق ، لكنه لم يوثّق أية مادة كتبها توثيقا منهجيا وعلميا . . يمكن للقارىء أن يطمئن اطمئنانا مؤكدا على ان الذي أتى به هيكل صادقا وأمينا . كما وأتهمّه البعض من النقاد بتحريف النصوص المنقولة من المصادر التي اعتمد عليها في كتبه ، فضلا عن ايراده جملة من الاخبار والروايات والوقائع والاراء التي يدّعي أنها وردت على ألسنة بعض الزعماء والمسؤولين العرب (بشكل خاص) من الذين

التقى بهم في أوقات مختلفة دون توثيق . . ناهيكم عما أتبعه من الاطنابات والمبالغات وسرد التفاصيل المملة للحوادث والروايات التي يقصد بها التشويه المتعمد ، او تلك التي يريد بها التعمية والتغطية المعينة . .

وهناك ايضا جانب اخر طالما انتقده عليه منتقدوه يتمثل بعمليته الذكية بخلط الاوراق والقضايا بعضها بالبعض الاخر ، وادخال القارىء في متاهة فكرية ضائعة المعالم ، وتركه هناك . . كما سجّل عليه أكثر من معترض ومعقّب وناقد انه رجل يتسم بالتعالي والتكبر على اقرانه وعلى الاخرين . . وأنه لا ينظر الى العرب بطريقة سوية ، اذ يصف طرف منهم بالتقدم والذكاء ، وطرف آخر بالتخلف والجهالة ، وطرف ثالث بالانانية والاحقاد . . الخ .

ثانيا: ارتسامات نقدية في الرؤية والمكاشفة

نموذج متميز من الإطناب العربي:

ثمة نقاط أساسية لا يمكن التخلي عن معالجتها عربيا تحت حجج واهية كالتي يذكيها بعض الذين يريدون ختم كل شيىء على أحسن ما يرام ، وعلى أحسن ما يتمناه المرء ، وعلى أفضل ما سجله أعظم الصحافيين العرب في القرن العشرين . ولقد تعود العرب مع الأسف على امتداد القرن العشرين من خلال ما سمعوه من خطب وخطابات وروي ومرويات وقص واقصوصات . . نشرتها المجالس والاجتماعات والمؤتمرات والإذاعات والمظاهرات . . فضلا عما قرأوه من قصص وروايات وكتابات ومقالات وكتب وكتيبات نشرتها صحف ومجلات ودور نشر ومراكز طباعة وجامعات . . كلها كانت تنطق بأسم السلطات والادارات الحاكمة التي لا تبغي من ورائها نفعا من اجل بناء أية مصالح عليا وعريضة للامة والمجتمع بكافة فئاته وفصائله . . بل كان همها الوحيد ارضاء نزعتها المعلنة للناس بالتمجيد وشهوتها الدائمة للبطولة والقوة التي ليس لها أي أساس من الصحة على امتداد القرن العشرين .

لقد تعود العرب ـ مع الاسف ـ على امتداد القرن العشرين ، وبشكل خاص في النصف الثاني منه على الاطناب في كل شيىء والمبالغة في الوصف مما قادهم ذلك الى صناعة الوهم ، أو تخيله واعتباره حقائق لا يأتيها الباطل أبدا . . ولنا أن نتصور الفوارق التي تفصل تفكيرنا نحن العرب المعاصرين عن طرفين أساسيين في معادلة أمورنا وقياس تفكيرنا بهما :

أولهما : رجالاتنا الاوائل من أنبياء وخلفاء وزعماء ووزراء ونقباء ومدراء وساسة وعلماء وفقهاء ونقاد وأدباء وشعراء . . الخ كيف كانت عباراتهم واحاديثهم وخطبهم وأدبياتهم ورسائلهم وقصائدهم وكتاباتهم . . غاية في التركيز والاختصار والجودة في المضمون والتعبير قبل عصر السكونية العثمانية ، وهو العصر الذي سبق عصرنا النهضوي العربي المستحدث . .

وثانيهما : ما يميز رجالات عالمنا المتقدم اليوم ، والسمات الدقيقة التي تتميز بها كتابات وأعمال وخطابات ومحررات ونصوص وأدبيات الغربيين والشرقيين على السواء في القرن العشرين ، وجميعها تراعي التركيز والدقة والتجزيئية والبساطة والوضوح والاختزال . . بعيدا عن الحشو والإنشاء والإطناب والكلام الفارغ والسرد الميت وصف العبارات . . الخ .

تأثير مصر في الساحة العربية :

إن جانبا اشكاليا حريا بالاثارة عربيا اليوم وقد اجتزنا عتبة القرن الحادي والعشرين ، وهو جانب مهم وخطير كان ولم يزل يثير ضمائر بعض رجالات النخبة من الحريصين على العربية ، لكنه مطلب أراه أساسي وجوهري لابد أن يراعيه تفكير أي أنسان عربي يعيش في وجود العرب وعلى أرضهم . . ذلك هو اطلاق العنان للعاميات ان تفعل فعلها في كل مرفق من مرافق الحياة سواء على مستوى اجهزة الدولة أم مؤسساتها ، أم على مستوى نخب المجتمع وفئاته وطبقاته ! لقد سخرت اجهزة الدعاية والاعلام في النصف الثاني من القرن العشرين بشكل مطلق امام من اطلق أدبياته بالعامية . .

تشبعت المجتمعات العربية بالاساليب العامية على حساب الاساليب العليا التي كانت تتطلب المزيد من الدفع باتجاه النضج لتحديث اللغة والمصطلحات والمفاهيم ومن ثم التوحد باتجاه صناعة (أو : خلق) لغة عربية موحدة لها جمالياتها ووضوحها واتساع رقعتها وبساطة قواعدها . . وكان مطلوبا من مصر بالذات باعتبارها أكبر دولة عربية امتلكت اجهزة للدعاية والاعلان والفنون والسينما والمحطات الاذاعية والخطابات الجماهيرية والصحف القديمة . . ان تشرع في الخمسين سنة الاخيرة بتأدية مهامها أحسن تأدية وأوسع نطاق . .

وعليه ، وبرغم جمالية اللغة المحكية المصرية ، فان تأثير هذه « اللغة » كان كبيرا في كل جنبات المجتمعات العربية . . فكيف سيكون الامر عندما سيكون لمصر برنامجها القومي المبني على أسس عقلانية ازاء تطوير جوانب الامة العربية . لقد أضرت بها كثيرا السياسات القومية غير المبرمجة والقائمة على فراغ كبير على امتداد خمسين سنة . . وانا مدرك تمام الادراك بأن واحدا من اشهر كتاب وصحافيي مصر أسمه : محمد حسنين

هيكل يدرك تمام الادراك ما أعنيه ، ولكنه لم يكن ينطلق وما زال من رؤية قومية فكرية حضارية للامة العربية في مشروعها الوحدوي الاستراتيجي ، بل كان وما زال ينطلق من رؤية مصرية سياسية للامة العربية في مشروعها المألوف الوحدوي الاستراتيجي !

الرؤية القطرية الضيقة:

ان أحد أبرز الاسباب الحقيقية التي كانت ولم تزل مختبأة وراء اجهاض أي عملية قومية مصيرية عدت جزءا من ظاهرة القرن العشرين عند العرب ، انما تتمثل اساسا بالانطلاق بها متلبسة قميص منطلقها القطري ، وكان العرب على امتداد عقود من سنين القرن العشرين مشدودين الى مصر باعتبارها قاعدة نهضوية وجغرافية ومركزية وقومية لهم سبقت غيرها من الاخوات العربيات صناعة ادوارها النهضوية منذ مطلع القرن التاسع عشر ، فلم يعترضوا أبدا على أن تكون مصر منطلقا لهم نحو التوحد ، اذ كان العرب قد ساهموا على امتداد أكثر من قرن كامل برفد مصر بعدد كبير من النخب الفعالة والمبدعة انبثوا في نسيجها ، وعملوا من خلال قياداتهم النشيطة والفعالة في خلق ابداعات ثقافية وحضارية وسياسية وفكرية وفنية لا يمكن أن تضاهى . . وبرغم ان مصر كانت تتلقف ليس العشرات ، بل المئات من اولئك الرجالات وحتى النسوة بكل رحابة وتقدير . . الا ان المعادلة التاريخية تبرز عند نهايات القرن العشرين واضحة جلية كي تفصح عن حقائق لابد من الاعتراف بها ، وساتوقف عند حقيقتين أثنتين :

أولهما : على الرغم من الدعوات القطرية والاقليمية والذاتية التي عاشتها مصر قبل مائة سنة ومن أشهرها : مصر للمصريين ومصر الفرعونية ومصر بعيدا عن العرب والعروبة . . الا ان واقعها عصر ذاك كان منسجما بين التاريخ والجغرافية ، اذ كانت مصر مشرعة الابواب امام العرب قاطبة من المشرق والمغرب العربيين دون أي وازع سياسي لتطوير النسيج النهضوي العربي الذي استفاد منه أبناء العروبة قاطبة !

ثانيهما : على الرغم من الاندفاع المفاجيء وغير المعقول باتجاه القومية العربية في مصر منذ عام ١٩٥٦ ، الا ان ذلك كله كان مؤطرا ومحدودا في نطاق سياسي وايديولوجي واضح

لم يبتعد عن الخطوط المرسومة له أبدا نهضويا وحضاريا . . صحيح ان مصر غدت مركزا حقيقيا وثقيلا في الامة العربية ، الا أن دورها النهضوي والثقافي في النصف الاول من القرن العشرين كان أفضل بكثير من دورها السياسي والايديولوجي في النصف الثاني منه ! وكم سيسعد العرب حقا لو وجدوا ذلك التكامل والتماثل بين الدورين . . اذ توالت الكوارث والاخطاء مذ اقحمت مصر نفسها ايديولوجيا وسياسيا في شؤون البلدان العربية ، وقد حدث ما حدث تحت ذرائع ومسميات شتى !

وبعيدا عن الاهداف النبيلة التي اجتمع العرب عليها من المحيط الى الخليج والكامنة في الدعوة الى وحدتهم ، والعمل على استقلالهم والنضال من أجل تحرير فلسطين . . وكلها أهداف دعا الجميع اليها منذ عقود طويلة من السنين ، الا ان تحت مسمياتها ، وفي ظل شعاراتها عاش العرب جملة من الهستيريا الفكرية والهوس الجماعي والانقلابات العسكرية والحروب الاهلية والانشقاقات الحزبية والصراعات الايديولوجية والاقتتالات الدموية . . التي لم يعرف العرب مثلها على امتداد عصر نهضتهم وزمنهم الحديث !

اسئلة النقد والاشكاليات الموضوعية:

حان الان وقت السؤال كي نوجه اسئلتنا العديدة لمحمد حسنين هيكل الذي عرفنا باختصار المراحل الست التي عاشها في حياته التي تملأ بطبيعة الحال نطاق النصف الثاني من القرن العشرين ، ولنكن امناء مع أنفسنا اولا ومع الاخرين ثانيا في اثارة ما يمكن ان نثيره بعيدا عن التيه في غابة من الانشائيات والكلام الفضفاض الذي لا ينتهي الى شيىء من الاشياء ! كما أود القول بأن مجرد الدخول في القاء الاسئلة معنى ذلك التجرد عن الخديعة والتسلح بما يوصل هذا الانسان العربي الى طور الحقيقة وهو الذي انتظر طويلا في محراب ايديولوجي مقدس يعيد قراءة المرويات التي تقف كتابات محمد حسنين هيكل في مقدمتها . . آخذا اياها على محمل الجد وكأنها كتابات مقدسة لا سمح الله . . وبعيدا ايضا عن الايغال في الفجاجة التي ينطلق من كعبتها اليوم العشرات من الكتاب والمفكرين العرب والتي تمثلها دوغمائية القطر العربي ، فهو يقذف بسايكس بيكو باقذع النعوت والسباب في حين تمثل خارطة سايكس بيكو له رمز كل وجوده ! ولا أدري من ذا الذي

زرع هذا « الثنائية » الغريبة في الذهنية العربية القومية ، تراه قوميا قحا ولكنه لا يتنازل عن هويته القطرية لصالح قطر عربي اخر هو شقيقه ولحمته وسداه !

دعونا نبدأ من هنا : كتب محمد حسنين هيكل بشكل لاذع مرة واسلوب تهكمي مرة وكشف مستور تارة واعلان فضائح تارة اخرى . . عن بلدان عربية ومجاورة اسلامية وعادة ما يتناول رؤوسها واحدهم بعد الاخر . . وقد أعطاه العرب الحق في أن يكتب ما يشاء له أن يكتب ما دام وهو واقف كما يتصورون في محراب القومية العربية ، كما وانه لم يزل جالس تحت مظلة جمال عبد الناصر كما يعتقدون . . اقول : كتب محمد حسنين هيكل عن السياسات العربية وفي شؤونها ، وجعل من نفسه خبيرا ومطلعا على خباياها ، وانتقد سيروراتها واستراتيجياتها وادوارها . . لماذا لم يعط الحق لنفسه مرة واحدة في نقد السياسة المصرية بنفس الطريقة التي يتبعها في نقد سياسات العرب ؟

« خريف الغضب » نموذجا:

لقد كان قد خصص كتابه : « خريف الغضب » في نقد سياسات أنور السادات ، ولكن حتى الاخير لم يسعد حقا بقراءة « خريف الغضب » وما جاء فيه من اتهامات ومعدمات وقصص وعلاقات . . أصدرها محمد حسنين هيكل بعد مصرع السادات . . وأقولها صراحة ان امتعاضا أصابني وأنا أقرأ «خريف الغضب» خصوصاً عندما تناول هيكل الحياة الشخصية للرجل الذي تعامل معه بعد غياب عبد الناصر وكان يكيل له المديح على غرار ما كان يكيله لعبد الناصر ، ولكن خلاف الرجلين سياسيا جعلهما على مفترق طريق . . ولكن مهما بلغت حدة ذلك المفترق ، لا يحق للانسان ان يأكل لحم أخيه ميتا . . تلك « النقطة الفاصلة » التي جعلتني افكر بكامل هواجسي وانا أقرأ ما سجلته صفحات « خريف الغضب » من مطاعن شخصية بلغت حد الاهتراء .

والمشكلة ان ما ينشر عربيا في مثل هكذا أمور لا يترك جله او بعضه ، وانما يؤخذ جله وتضاف إليه اضعاف ما بدأ به . . خصوصا ان الساحة العربية كانت تنتظر شيئا عن زعيم أكبر دولة عربية وصم بالخيانة العظمى نظرا للخطوات التي خطاها باتجاه اسرائيل سواء في زيارته التاريخية للقدس او في معاهدة كامب ديفيد التي وقعها معها !

وحسنا فعل فؤاد زكريا عندما خصص كتابا كاملا في نقد كتاب محمد حسنين هيكل «خريف الغضب» أسماه « كم عمر الغضب ؟ »* والذي وصف مهمته بمحاولة مستحيلة ، باقتطاعه عهدا كاملا من سياقه الكامل ، ويعزله عن سوابقه . « وأية نظرة مدققة الى تاريخ العقود الثلاثة الاخيرة في مصر تقنعنا باستحالة فصل قطعة من هذا التاريخ عن مقدماتها الضرورية » (فؤاد زكريا ، ص ١٣) . ومن الامور الاخرى التي تعرض لها فؤاد زكريا عن هيكل ، قوله بأن الخطأ الرئيسي الثاني الذي اتسم به موقف هيكل ، والذي يعد من دون مبالغة عرضا من اعراض مرض اوسع نطاقا ، فهو أنه استثنى نفسه تماما من اللوم وصب اتهاماته على الغير ، وكأنه كان طوال الوقت مشاهدا محايدا ، أو ناصحا أمينا لا يستمع اليه أحد . . ويستطرد فؤاد زكريا قائلا : « ولقد بحثت طوال الصفحات التي قاربت الستمائة في كتاب هيكل ، عن سطر واحد من النقد الذاتي فلم أجد . . . » (فؤاد زكريا ص ١٥) .

مهاجمة الزعماء بعد موتهم: لماذا؟

ان كل اعتراضاتي ربما كتمتها على مضض . . ولكن ثمة متابعة للاسلوب نفسه الذي يمارسه الرجل على امتداد الخط ، ولكن بعيدا عن مصر ، ولا أعتقد ان محمد حسنين هيكل قد نال من السادات لاسباب مبدئية قومية كانت ام دينية ام اخلاقية . . بل يتوضح جليا للعيان ان اسبابا شخصية كانت قد بلورت موقف الرجل من السادات !! وعليه ، فأنني أقول بأن لا نتوقع مطلقا ان هيكل سيكون له موقفه من الرئيس محمد حسني مبارك بعد رحيله ! فلقد تعود الناس ان وراء وفاة أي زعيم عربي كان له تأثيره ولمعانه وتوهجه وسحره تهجمات هيكلية يقوم على صياغتها ببراعة ويكتبها بتوليفة مصرية معروفة ويقدمها معتقدا انه يقدم وجبة شهية لابناء الامة العربية ، متصورا أنه مازال يعيش هوس عقد الخمسينيات وطنين عقد الستينيات وجعجعتهما الدعائية ، ومتخيلا أنه يسجل مرويات تاريخية سيعتمد عليها مؤرخو المستقبل .

يبدو هيكل متوهما حين يكون قد كشف عن اسرار لم يكن يعرفها غيره ! ومعتقدا –

* فؤاد زكريا ، كم عمر الغضب : هيكل وازمة العقل العربي ، ط١ (الكويت : شركة كاظمة للنشر والتوزيع ، ١٩٨٣) .

وهذا هو سر عقدته - أنه بذلك قد شارك في صناعة التاريخ لا في كتابته فحسب ! وان الزعماء العرب لا دراية لهم من دون ان يوجّههم محمد حسنين هيكل ! وانه مستودع أسرارهم وحركاتهم وسكناتهم ! وهو يعرف مخادع نومهم وتفصيلات برامجهم ومناهج بروتوكولاتهم ! لقد توّضح لنا الان عند نهايات عمر محمد حسنين هيكل ورؤية نتاجاته ، ما كتبه من الاسرار والمعلومات والافكار والاخبار والاراء التي قالها وحكاها له زعماء عديدون لم ينشرها في حياتهم ، انما ابقاها ـ ان كانت صحيحة كما يدّعي - كي ينشرها بعد وفاتهم واحدا بعد الاخر ، ومنهم : جمال عبد الناصر ومحمد رضا بهلوي شاه ايران وانور السادات والملك الحسين بن طلال والملك الحسن الثاني وغيرهم من الزعماء والمسؤولين العرب وغير العرب . . وهو الان ، ينتظر الان أجل أحد من الزعماء العرب في دولة عربية كبيرة أو أكثر من دولة كي يبدأ بنشر تفصيلات وأسرار سياساته ، وطبيعة علاقاته . . ثم يكرس الصفحات الطوال لتدبيج لقاءاته به ، وما حكاه اليه ، وما سأله عنه . . الى آخره من البضاعة المعهودة . . ناهيكم عن دور هيكل في رسم طريق تلك الدولة فضلا عن دوره في الكشف عن اسرار زعيمها وعلاقاته وارتباطاته وزياراته ! وعليه ، لماذا تمكث المعلومة الخطيرة حسب ما يراه هيكل ، طويلا في أرشيفه الخاص ولا يفكر بنشرها الا حين يكون شهودها غائبين .

اختلاف جيلين متعاقبين : صراع تفكيرين أثنين

ان مجموعة الاسئلة التي تثيرها بعض أعمال محمد حسنين هيكل ستثير التفكير العربي المعاصر عند فاتحة القرن الحادي والعشرين ، وخصوصا عند الجيل الجديد الذي لابد أن يعترف الجيل العتيق باختلافه عنه اختلافا واسعا وكبيرا . . وهذا « الاختلاف » هو سر عملية الصراع أو الجدل - سمها ما شئت - **بين تفكير جيلين عربيين أثنين ، جيل عتيق ما زال يعيش الدعاية الصحفية السياسية الايديولوجية والشعاراتية . . وجيل جديد بدأ يعي خطورة ما عاشه الاباء والاجداد بعيدا عن الواقع والممكنات مقدرا ما ناله العقلاء العرب على امتداد الزمن . .**

وعليه ، فان سؤالا آخر ينتظر الاجابة ليس من هيكل نفسه ، بل من نتائج التوغل في دراسة طبيعة علاقات هذا « الرجل » مع الاخرين . . والقائل : لماذا يركّز هذا « الرجل » دوما

على ان يضع نفسه باستمرار في مركزية الاشياء محاولا ان يضع الاخرين من حوله مهما بلغت قيمة ذلك الاخر ؟

هذا سؤال خطير بطبيعة الحال ، فهو ينتظر اجابات حقيقية تستطيع الكشف فعليا عن سايكلوجية الرجل . . وتأثيرها من خلال ما تسقطه بكتاباتها على الاخرين . . ومن هم الاخرون ؟ انه دوما يختارهم او بالاحرى يلتقطهم من ذوي الكاريزمات التاريخية الباهرة . . وسرعان ما يضعهم جميعا في نقاط خلاف سياسية معه ، بعد ان يجعلهم مهتمين به أشد الاهتمام وان لا عمل لديهم الا السعي لملاقاته والتحدث اليه ساعات وساعات . . وانه يستجيب لذلك من خلال المهام الموكولة اليه ، يدخل معهم في جدل مصورا أياهم كونه في مستواهم . . فيعطي لنفسه الحق في ان يجيبهم بحدة !! كما ويحرص على ان يشعر القراء انه يعرفهم منذ زمن طويل وان ثمة ذكريات يحملها حتى عن مشتريات خاصة بهم من احد اسواق القاهرة !

الخلل الواضح في كتابات هيكل :

ان اخطر مهمة تواجه الجيل العربي الجديد والاجيال القادمة هي مهمة عملية نقد ليس ما ينشره هيكل من كتابات يسميها « كتابات سياسية » ، بل اخضاع مفاهيم وكتابات وخطابات على غرار ما ينشره هيكل عربيا ، **وخصوصا تلك التي تفوق حجم صاحبها ، وغير المدعمة بالتوثيقات والبيانات الرسمية والوثائق** . . اذ يمكن ان يتقبل المؤرخ ما يأتي به صاحب مذكرات سياسية او عسكرية او ادارية . . من اخبار تحتمل الصواب نظرا لمحاولة صاحبها اخفاء ذاته وابراز دوره الحقيقي في مكانه الطبيعي ، واعطاء كل ذي حق حقه ، وتوزيع الاحكام بكل هدوء وتؤدة وحكمة . . وتوضيح مجال الخطأ والصواب . . والاعتراف بما كان له من تقصير في اداء مهام ، او إكمال واجـــب او إنجاز مهمة . .

لقد أعجبتني الحلقات الحوارية التلفزيونية التي يتحدث فيها السيد محمد حسين الشافعي نائب الرئيس المصري الأسبق عن ذكرياته وما تضمنه كلامه من المعلومات والأفكار والتقييمات الموزونة والاعتراف بالخطأ . . واعتقد ان هذا الرجل عاصر عبد الناصر على امتداد سنوات عهده . . كما كانت له علاقاته وارتباطاته ومناصبه وادواره ، لكنه لم

يصنع من نفسه أسطورة تاريخية لا تضاهى !

وهذا ينقلنا الى تحديد طبيعة العلاقة بين هيكل والحقيقة . . وهو موضوع خطير اعتقد ان الأجيال القادمة سوف لن تتوقف عنده طويلا ، كونه سيحسم من خلال فهم أدبيات هيكل جميعها ، خصوصا تلك التي جاءت متأخرة عن موعدها ، وكأنها كتبت لأغراض معينة ! وقد نشرت لتنال من زعماء عرب معينين . . وسوف لن تثير معلوماتها من ضجيج ابدا لو كانت قد نشرت اصحابها أحياء على قيد الحياة ! وقد علمنا علم الجرح والتعديل نحن معشر المؤرخين بأن الروايات تفقد قيمتها اذا كانت لا تمتلك أي سند يدعمها ، او اذا شك الناقد في اخلاقية الراوي واسلوب تعامله مع المعلومات وطبيعة احكامه واسلوب نصوصه . .

واعتقد ان محمد حسنين هيكل قد خسر الكثير من المعاني الرمزية التي كان يمتلكها ، والتي كانت مزروعة في ذاكرة النخب العربية ، كما واهتزت حتى قناعات البعض من أولئك القوميين بمختلف اتجاهاتهم وتياراتهم . . اذ كيف يمكن لكل من المثقف العادي او السياسي المحترف - بعيدا عن المؤرخ الناقد المختص الذي يفهم لوحده طبيعة اللعبة في كتابات هيكل - ان يثق بما كتبه هيكل على امتداد حياته من كتابات فيها معلومات وتواريخ وتقييمات واحكام ! واذا كنت ساستبعد من ذلك مقالاته الصحفية التي كان ينشرها في الصحف والمجلات منذ شبابه البكر كونها معبّرة عن ارهاصاته ، فانني اعتقد اعتقادا راسخا ان آخرين سيعتبرونها ملوثة هي الاخرى !

العلاقة بين هيكل وعبد الناصر: علامة استفهام كبيرة

والاخطر من كل هذا وذاك ، ان علامة استفهام كبرى ستتشكل ازاء العلاقة التاريخية التي ربطت هيكل بالزعيم الكبير جمال عبد الناصر ؟ خصوصا ما جاء على لسان هيكل عن عبد الناصر في كتاباته الكثيرة عنه . . وما مدى صحة ما ذكره هيكل عن الرجل خصوصا بعد وفاته ؟ وما مدى صحة ما نسب اليه من أقوال ؟ وما مدى صحة ما عبّر عنه جمال عبد الناصر من انفعالات ومشاعر وأفكار على لسان هيكل ؟ وغير ذلك سواء ما يخص سياسة الرجل ام علاقاته وارتباطاته ومواقفه ونحن نعلم ان أقصى ما استطاع ان

يحّصل عليه هيكل من قبل جمال عبد الناصر هو منصب وزير . . في حين كان للزعيم عبد الناصر طاقم كبير سياسي وقيادي عسكري ومدني اعتمد عليه اعتمادا كبيرا في رسم سياسته واتخاذ قراراته ، ويؤلفه مجلس قيادة الثورة ومجلس الرئاسة . .

وكان عبد الناصر قد ادخل عناصر قيادية مدنية الى مجلس الرئاسة بالذات دون أن يدخل محمد حسنين هيكل ، واذا كان هيكل يصور للاخرين انه من أصفياء عبد الناصر ، فان الاخير ما كان هيكل بالنسبة اليه الا أحد أتباعه معتمدا على استشاراته الصحفية وكثيرا ما انتقد عبد الناصر من قبل زملائه اعضاء القيادة بسبب الشلة المحيطة به دوما والتي كان يعتمد عليها في حصوله على المعلومات ! المشكلة في هذا « الموضوع » ان اخبار العلاقة بين الاثنين قد اطال التركيز عليها طرف واحد هو محمد حسنين هيكل . . . وفي كل كتاب من اغلب كتبه ، كان هيكل يتعمد اقحام علاقته بعبد الناصر ، وكأنه مريده ايام ثورة تموز/ يوليو ، ولكنه يصّور لقرائه بأنه المسيطر الحقيقي على عبد الناصر وقراره ! ولكن الحقيقة مخالفة تماما لما ادعاه هيكل .

هيكل والأرشيف والخيانة:

بقدر ما كان الارشيف بالنسبة لهيكل مصدر قوة ، في حمله اسرار الجميع بالوثائق ، ولكن فؤاد زكريا يلتقط محمد حسنين هيكل من أقوى مفاصله الموجعة عندما اتهمه بأنه غير قادر لوحده أبدا ان يجمع كل المعلومات الوثائقية ، ويرتبها بمنتهى الدقة . . ويعلق فؤاد زكريا قائلا : « ولكنني كلما أمعنت الفكر في هذه الظاهرة بدا لي انها أعقد وأوسع نطاقا من امكانات أي فرد ، بل من امكانات أي جهاز في دولة متخلفة ، وخيل اليّ اننا نجد انفسنا هنا على مستوى يكاد يصل لاجهزة المخابرات في الدول الكبرى » (فؤاد زكريا ، ص ١٨) ان فؤاد زكريا يشكك في قدرة هيكل في السيطرة على الارشيف الوثائقي . . ولكن مع ذلك كله ، فقد كان بارعا منتهى البراعة في استخدامه الارشيف ضد الرئيس أنور السادات انتقاما منه كونه تعّرض للاعتقال على يديه .

ولكن ؟

بقدر ما كان الارشيف سلاحا قويا بيد هيكل وكان بالنسبة اليه مصدر قوة ، فقد كان

مكمن ضعف ، ففي الارشيف قضايا كثيرة لهيكل لو استخدمت استخداما عاديا ، فستصيب مقتلا منه . . ذلك ان جملة كبيرة من الوثائق تتضمن معلومات خطيرة عنه ، وان هناك مادة ارشيفية هائلة يمكنها ان تستخدم ضد هيكل بسهولة تامة . . وان الاشخاص الذين اتهمهم هيكل نفسه كونهم من الحاقدين عليه والحاسدين له ، ويعتقد الباحثون الاكاديميون بأن كلاما قاله كل من : محمد نجيب ومايلز كوبلاند وخروتشوف . . لم يصدر كونهم حقدوا عليه أو حسدوه ! فلقد اتهمه الرئيس محمد نجيب بالخيانة لحساب دولة أجنبية (كتابه : كلمتي للتاريخ) . . كما أتهمه مايلز كوبلاند بالعمالة المخلصة . . كما أتهمه خروتشوف بالتهمة نفسها ، وذكّره بالمبالغ والشيكات التي تسلمها من وكالة المخابرات المركزية في اجتماع كان يعقد في موسكو امام جمال عبد الناصر ، مما اضطر هيكل الى ان يقفل راجعا الى مصر في اليوم الثاني من الرحلة !

وعليه ، فان الارشيف والوثائق كثيرا ما تقلق هيكل ، خصوصا وانه الخبير بشؤون الارشيف . . « وما هذا الا مثل واحد يكشف عن الوجه الاخر لسلاح الارشيف ، عندما يسدد الى عنق صاحبه » (فؤاد زكريا ، ص ٢٠) .

كان محمد حسنين هيكل قد كتب كتابا خاصا عن قضية مصطفى أمين بلغ عدد صفحاته ٤٥٣ صفحة عنوانه « **بين الصحافة والسياسة** » مدعيا فيه من خلال الارشيف خيانة مصطفى امين وتجسسه على مصر لصالح الولايات المتحدة الامريكية ، ولم يعلق مصطفى أمين على ذلك الا بكلمة تقول : « ان محمد حسنين هيكل خان الصداقة وأدخلني السجن » . هذا هو الرأي السائد حول عدم سيطرة هيكل على الارشيف . . ولكنني أرى بأن الرجل ربما يحدثنا عن أرشيف واوراق خاصة ووثائق سرية . . وهو ادعاء لا أساس له من الصحة ، فثمة أشياء يمكن للمختص أن يقرأها لهيكل ويخرج بنتيجة خطيرة ، تقول : **بأن محمد حسنين هيكل يتكلم بأسم الارشيف والوثائق ، وهو لا يدري من أمرها شيئا ،** وتكفي تقوّلاته التي لا أساس لها من الصحة ، أنه أطلع على وثائق حلف بغداد السرية التي أدعى أن عبد الكريم قاسم أرسلها الى جمال عبد الناصر بعد ثورة ١٤ تموز/ يوليو ١٩٥٨ بالعراق . . وأنه أطلع عليها ، وهناك من يتحداه من المختصين العراقيين إذا كان كلامه صحيحا وأنه فعلا قد أطلّع على تلك الوثائق السرية !!

ازدواجية هيكل:

سؤال آخر يفرضه علينا مجموع القراءات في عدد من كتبه وكتاباته الصحفية ، وهو لا يتوانى في الإفصاح عن كونها صحفية إذ ان الرجل يعتز بمهنته اعتزازاً كبيراً . فهل يمكننا ان نحدد على وجه الضبط تفكير الرجل . . . ؟؟ وبماذا يؤمن من أفكار ، وخصوصاً بعد ان أمضى تجارب عديدة على امتداد مراحل حياته المهنية الخصبة ؟ وبماذا خرج هيكل بحصيلة عملية (ليست فكرية) يمكنه ان يبّشر بها العرب عند نهايات القرن العشرين استعداداً لدخول قرن جديد ؟

يبدو هيكل في حالة مزدوجة بين الرضى التام عن الأوضاع في مصر ، وبين الرضى المقنع بالنقد ! وهذا التفكير المزدوج هو السمة الغالبة على الرجل عندما يكون في حالته الطبيعية ، ولكنه ربما يبطن أشياء أخرى له القدرة البالغة على وضعها في القالب المناسب وتسويقها بطريقة هجومية وكاسحة عندما تأتي اليه اللحظة المناسبة . . . انه اليوم لا يشكل أبدا بالنسبة لمصر ظاهرة خصم عنيد ، كما كان حاله دوما حتى في عهد أنور السادات الذي أعتقله في نهايات أيامه لاسباب شخصية وليس لاسباب سياسية البتة ! وهو يفهم جيداً طبيعة اللعبة . . ويفكّر البعض متسائلا : لماذا لم يقف محمد حسنين هيكل معارضا نظام الحكم الحالي في مصر ؟ أقول : بأن الرجل لم يكن في أي يوم من الايام معارضا ، وحتى دراما اعتقاله ، فقد كانت لاسباب شخصية ، اذ كان وقوفه الى جانب أنور السادات كما كان وقوفه الى جانب عبد الناصر !

والحقيقة انه لم يألف أبدا ولا يريد مطلقا ان يفتح عليه جبهة داخلية ، إذ يبقى في حالة ود وصفاء وانسجام مع النظام السياسي المصري ، كونه يعرف ان اللعب بكذا أوراق ليست في صالحه أبدا ، ولكنه متى ما وجد الفرصة ملائمة ، فهل باستطاعته ان ينازل السياسة المصرية الحالية أو حتى مهاجمة الرئيس حسني مبارك بعد رحيله ؟ إنني اشك في ذلك ، لأنه لم يتعود ان يهاجم مصر ابداً ولا زعماء مصر مطلقا ، وما هجومه الكاسح على الرئيس أنور السادات وعلى زوجته جيهان في «خريف الغضب» إلا لأسباب شخصية - كما ذكرت - .

اذن اين يجد ضالته؟ انه يجدها دوماً في العرب والسياسات العربية وعند عدد من أقوى الزعماء العرب . إذ انه يفصل هنا في رؤيته ومعالجته بين ما هو عربي وبين ما هو مصري ، وهنا يقلل أمام الآخرين والتاريخ من عقيدته (القومية) ، ان كان الرجل حقاً يؤمن بمبادئ القومية العربية ، اذ أننا سنجده من أبعد الناس عن نزعة العروبة وعن المشروع القومي العربي ، اذ أنه - كما سيتضح عندنا لاحقا - يؤمن أيمانا حقيقيا بـ « المشروع القومي المصري » ! .

السؤال الآن : هل يؤمن محمد حسنين هيكل بمبادئ القومية العربية ؟ بصراحة تامة اقول : إنني لم أحس أبدا بان الرجل يؤمن بهذه المبادئ وانه لم يترب عليها أبدا ، كما تشير إلى ذلك سيرة حياته وتكوين أفكاره فضلاً عن الاتجاهات التي حكمت صفحات كتبه العديدة . صحيح انه يلوك شعارات القومية العربية كالتي أتت بها الأحزاب الثورية العربية ، والناصرية في مقدمتها ، إلا انه يعد أحد ابرز رموز مصر الصحافية التي عملت على كبح جماح أي دور عربي قومي أصيل . ومحمد حسنين هيكل لا يرى في القومية العربية وريادتها إلا في مصر ولا شيء غير مصر ! كما أن علاقته بالقومية العربية محددة من خلال علاقته لا بسياسة عبد الناصر ولا بفكر عبد الناصر ولا بقومية عبد الناصر بل من خلال علاقته الشخصية بعبد الناصر بل ويتجاوز هيكل خطوطه المعروفة ، ويدّعي في كتاباته انه الذي وقف وراء هندسة عبد الناصر القومية .

هيكل ونقد الدولة :

من محاسن الصدف ، أنني توقفت على حوار جرى بين محمد حسنين هيكل وعادل حموده (في كتاب موسوم : عادل حمودة . . يحاور محمد حسنين هيكل حول لعبة السلطة في مصر) افصح هيكل عن جملة من القضايا والأفكار التي تخص مصر وهي قضايا سنراها بعيدة عن معالجات هيكل التي عودنا عليها ، فهو مغرم بالقضايا الاستراتيجية والتي يمكن ان تثيرها السياسة العليا . لقد بدا هيكل هنا مهادناً مصر في سياستها العليا ، ومنتقدا اياها في سياساتها الدنيا وهذا ما يثير الاستغراب حقاً ! .

ويرى ان الدولة بحاجة إلى وقفة مع النفس وان الرئيس حسني مبارك عندما جاء إلى

الحكم بعد حادثة المنصة ، قام بتهدئة الأعصاب ، لكنه لم يقف ليعيد النظر والتفكير - حسب رأي هيكل - ويستطرد قائلاً :

« أسوا ما في مصر انها لا تعترف بالتغيير - أو التجديد - الكامل عندنا تراث فرعوني يوضع فوقه تراث مملوكي ثم تراث شركسي جاء به محمد علي وضع عليه جمال عبد الناصر ثم انور السادات هكذا بلا فرز ويبدو ان هذا طبع مصري فنحن في بيوتنا نحتفظ بأشياء لا لزوم لها مع ان هذه الأشياء تلقى علينا أحمالا وأعباء لا لزوم لها » .*

ثم يعلن بعد هذا النص قائلاً : « لا بد من اعتبارين أساسيين ، الأول : ان نفرز باستمرار تجاربنا ونستعبد منها ما لم يعد ملائماً . والثاني ان تكون قراءتنا لكل ما يستجد وما يضاف قراءة سليمة ونحن لا نفرز الماضي ولا نقرا الحاضر قراءة سليمة » .

ولا بد ان نسأل هيكل :

ماذا تريد حقاً من الرئيس حسني مبارك ان يفعل ؟ واذا وقف واعاد النظر والتفكير وفرز ما هو فرعوني عما هو مملوكي عما هو شركسي عما هو ناصري وساداتي ! فهل ان ذلك سيساعده حقاً في التغيير والتجديد وانت من المعجبين بالتغيير والتجديد ! .

السؤال حدّي والجواب عليه قطعي : هل أنت يا محمد حسنين هيكل مع خطوات التسوية وتأسيس السلام بين العرب وإسرائيل؟ إذا كان جوابك بالإيجاب ، فقد ضربت أفكارك إلى حد الان عرض الحائط . أما إذا كان جوابك بالسلب فلماذا تسكت إذن عن نتائج المعاهدة المصرية - الإسرائيلية ؟ واذا كان زعماء مصر ضالعين في هكذا خطة ، فلماذا يتركهم محمد حسنين هيكل في خطتهم يسيرون ، ويصب جام غضبه على زعماء عرب معروفين ويتهمهم بشتى النعوت ! عمرك كله تنتقد الغير وسياسات الغير العرب ، ولاتنتقد مصر وسياسات مصر أبدا . . - كما قالها لي أحد قرائه مؤخرا - !

انك يا هيكل - كما هو واضح - متفق مع سياسة الرئيس حسني مبارك التي هي امتداد طبيعي للنهج الذي رسمه انور السادات نفسه ، وكثيراً ما صرح الرئيس مبارك بذلك ،

* **عادل حموده يحاور محمد حسنين هيكل** ، المرجع السابق ، ص ٣٩ .

وان هيكل يدرك تمام الإدراك بان الرئيس حسني مبارك لا يستطيع التراجع عن التطبيقات التي أجراها على امتداد قرابة عشرين سنة من حكمه . واعتقد ان الرجل قد فرز عنده ما هو فرعوني عما هو مملوكي عما هو شركسي عما هو ناصري ولم يبق عنده إلا النهج الساداتي الذي لم تزل مصر سارية عليه ، سواء في طبيعة علاقاتها الخارجية ام في سيرورة اوضاعها الداخلية . وهنا يسأله القارىء المتوغل في شعاب صفحات كتبه كاملة : لماذا يكرّس محمد حسنين هيكل نفسه ووقته وجهده وقلمه للكتابة عن الساسة والزعماء العرب . . متعاملا معهم بأسلوب مختلف عن النهج الذي يتبعه مع ساسة مصر وزعمائها ؟؟ ولكن ؟

انتقادات خفيفة: مطلوب مشروع حضاري

ثمة انتقادات خفيفة غير موجعة يبثها محمد حسنين هيكل ازاء سياسات الرئيس محمد حسني مبارك :

« مبارك كان مفروض في اعتقادي يعمل « بريدج » . . جسر تعبر عليه الأمة من مرحلة لمرحلة أخرى . . من عصر إلى عصر اخر . . هذا الجسر معطل . . معطل ليه ؟

بسبب الأخطاء القديمة التي لم نفرزها وبسبب عدم القراءة السليمة للواقع هذان السببان خلقا مصالح لها قوى ضاغطة . . تصر على ما هو قائم وتقاوم التغيير . .

. . الرئيس مبارك موجود وانا عندي ملاحظات عليه وملاحظات لصالحه . . المطلوب الان مشروع حضاري . . دولة حضارية . . القتل بدون تمييز غير حضاري . . عدم فرز الماضي غير الحضاري . . عدم قراءة المستقبل قراءة مستنيرة عمل غير حضاري . .

القضية اننا في حالة تخلف ونواجه عنفاً متخلفاً (عادل حموده ص ٤٢) .

هذا كله كلام هيكل . . دققوا في مطالباته العريضة من حسني مبارك : مشروع حضاري وفرز تاريخي وقراءة المستقبل ودولة حضارية . . مقارنة بما يطالب بها غيره من المسائل الجزئية في السياسة الداخلية والخارجية !؟ وراقبوا هيكل وهو معجب بـ « الفرز » وعمليات « الفرز » !!

مثقفون يقفزون خلف المراحل :

إن المثقفين عند هيكل دوماً ما يقفزون خلف المراحل ، ومن ثم نخسر باستمرار . . .

ومظاهر الخلل كثيرة ، وهو لا يعرف مصادر الثروة من أين؟ ولا يعرف ما هي شرعية السلطة؟ ومظاهر الخلل التي لا حصر لها ، اذ يقول : انظر حولك . . . لذلك أنا أتحدث عن مشروع حضاري غائب !

يسألونه ما هو ؟

يجيب : إنه مشروع استنارة . . . . تحديث . . . . . تعبير متّسع . . . . أحمد عرابي عبر عن مشروعه الحضاري بالاستقلال . . . لطفي السيد عبر عن مشروعه الحضاري بكلمتين : البرلمان والجامعة . . . أي الديمقراطية والتعليم . . ثورة يوليو كان مشروعها الحضاري التنمية الاجتماعية . . . قولو لنا الآن من أنتم ؟

دولة رجال أعمال . . . دولة حريات . . . دولة عدالة اجتماعية . . قولوا لنا ما في تفكيركم ؟ لا بد أن يكون مشروعنا الحضاري واضحاً كالشمس . . . ولا يمكن أن يكون بعيداً عن التحديث . . . . ولا بعيدا عن القيم العقلية . . . . أن نخرج الفرد من حالة القدرية والاتكالية . . . من حالة الإحساس بالقهر . . . . الخ (حمودة ص ٣٤)

دعونا نرد على هيكل:

لقد فات على محمد حسنين هيكل كل ما طرحه ؟ ألم يكن الرجل مغالطاً لنفسه وواقعه وبلاده وتفكيره . . . وإذا جاء اليوم لكي يدين المثقفين كونهم يتقافزون خلف المراحل ، فهذا نتاج ما صنعته هزيمة ١٩٦٧ ، إذا تربّى جيل عربي كامل مهزوماً في ثقافته وتكوينه وخياراته ، وإذا كانت مظاهر الخلل كثيرة . . . فهي كثيرة دوماً على امتداد عهود عديدة ، ذلك لأن مثل هكذا « مظاهر » لا يحتكرها عهد دون آخر ، فأخطاء سياسات تربوية وتعليمية واقتصادية . . الخ وهي أخطاء معينة لنظام حكم معين تفرز نتائجها على عهد نظام حكم آخر عندما يتربى جيل كامل على أخطاء وخطايا ومثالب وسلبيات . . .

والمشروع الحضاري لأي نظام سياسي هو دوماً في مقدمة شعاراته وأيديولوجيته سواء من خلال المتاجرة به أم من خلال العمل بمضامينه . واعتقد أن مصر لم يفتقد فيها يوماً أي مشروع (أو : عدة مشاريع) تعلن عنها دوماً . . . . . وإنني واثق من أن هيكل يدرك

تمام الإدراك منجزات حكومة كمال الجنزوري الاقتصادية ، كما ويدرك تماما طبيعة السياسة التي يتبعها حسني مبارك والتي تسير متبعة نفس الخطى التي بدأها أنور السادات وإعلانياته الشهيرة في الانفتاح والديمقراطية والسلام مع إسرائيل . . . فلماذا إذن يستفهم هيكل عن حالة موجودة . . . وسواء اتفقنا أم اختلفنا في أحسن تطبيقاتها فإن معالجة ذلك موضوع آخر !

إن هيكل يدرك تماماً ويعرف بأن مصر اليوم هي دولة تعيش متغيرات اقتصادية واضحة بعد توقيعها معاهدة صلح مع إسرائيل ، وفيها مشاكلها الداخلية ، لكن أن يستفهم : قولوا لنا الآن من أنتم ؟ و هو يدرك أيضاً بأن مصر سوف لن تكون بهذه السرعة الخارقة دولة رجل أعمال أو دولة حريات أو دولة عدالة اجتماعية !

ويطالب من جانب آخر : قولوا لنا ما في تفكيركم ! ؟ واعتقد أن الساسة المصريين اليوم هم من أوضح الناس في الإعلان عما يكمن في تفكيرهم . . . لكن على هيكل أن يدرك بأن المشروع الحضاري لأي أمة من الأمم هو مشروع أجيال ، لا يمكن أن يتغير من عهد لآخر ، أو أنه يتبدل من شخص لآخر ؟ . . . فكل الذين ذكرهم هيكل لم يحققوا مشروعات حضارية ، ولكنهم بدأوا مفاهيم وافكار وتطبيق خطط عمل كانت تعمل جميعها من أجل أن يتكامل المشروع النهضوي المعاصر الذي لم يتم دوره الحقيقي حتى يومنا هذا ، كي يُشرع في بناء مشروع حضاري ومستقبلي . . .

منجزات اربعة اجيال :

من جانب آخر ، على هيكل أن يتنازل قليلاً من غلوائه ، ويبسط رؤيته لمتغيرات مصر على امتداد القرن العشرين أثر معركة أحمد عرابي في نهايات القرن التاسع عشر ، كي نقف على :

١ - منجزات الجيل الأول في الاستنارة الفكرية والبنية الثقافية ، وهو الجيل الذي اختتم حياته عام ١٩١٩ ممثلاً راياته في ثورة القاهرة الوطنية عام ١٩١٩ . .

٢ - وجاءت من بعدها منجزات الجيل الثاني في الحركة الوطنية والدستورية والبنية السياسية ، وهو جيل اختتم حياته عام ١٩٤٩ ممثلاً راياته في ثورة يوليو/تموز عام ١٩٥٢م .

٣ - ثم أعقبتها منجزات الجيل الثالث في القومية العربية والوحدة الاشتراكية والتنمية الاجتماعية والانفتاح والتعددية ممثلاً نفسه على عهدي جمال عبد الناصر وأنور السادات ، وهو جيل اختتم حياته عام ١٩٧٩ ممثلاً راياته في ١٩٦٧ - ١٩٧٧ أي بين هزيمة حزيران / يونيو امام اسرائيل ، وبين التوقيع على اتفاقية كامب ديفيد مع اسرائيل .

٤ - واليوم ثمة منجزات تتراءى لجيل رابع يمثل : التسوية والسلام والشركات والرأسمال والهجرة والتعددية . . . وسيقفل هذا الجيل حياته عام ٢٠٠٩ ممثلاً نفسه على عهد حسني مبارك الذي يقترب عهده من عشرين سنة من أصل مدى زمني يدوم ثلاثين سنة ، أي عمر الجيل الاخير . . . .

هذه هي سمات مصر التي يعرفها الجميع على عهد حسني مبارك . . ويرى محمد حسنين هيكل بأن المشروع الذي تعيشه مصر اليوم بعيد عن التحديث ، وبعيد عن القيم العقلية . ولا أدري هل ستكون مصر قريبة من التحديث ومن القيم العقلية لو تسلّم هو نفسه حكمها ؟ هل سيكون باستطاعته أن يحدث معجزة في إخراج الفرد من حالة القدرية أو من حالة الإحساس بالقهر ؟؟ . . أعتقد أن الرجل قد غالى كثيراً في آرائه وذهب في شطط واضح في تفكيره فما هكذا تقاس الأمور !

مهام جلد الذات:

وماذا أيضاً ؟

ثمة نص ثقيل الدم يمثل بالنسبة لي جلد للذات المصرية جلداً مبرحاً ولا أدري ما الذي دفع هيكل للانتقال من عملية سرد الأحداث والإيغال في هكذا أطروحات بعيدة كل البعد عن التفكير . . . . دعونا نسمعه يقول :

- « إنها التشوّهات التي أصابت المجتمع المصري خلال ربع القرن الأخير . . . . . ثم يقولون : الهزيمة ؟ . . هزيمة إيه ؟ . . . لقد حاربت وانهزمت وانتصرت . . . وغيري ماذا فعل؟ لم يفعل أي شيء . . . ونحن الذين أعطينا الآخرين في العالم العربي فرصة للتنديدات بعوراتنا بعد أن كشفنا نحن عن هذه العورات دون داع . . إن كشف العورات ضرورة

لتصحيح المسار ، ولكن بدون أن نبيعها للآخرين . . . لقد ذبحنا أنفسنا أمامهم من أجل المال . . . وفي النهاية ساد منطق أنا خايف منه على البلد . . . . منطق العبودية .

هذه ليست أخلاق مجتمع متحضر . . . ولا مجتمع فيه قيم . . ثم تسألني عن المشروع الحضاري . . . المشروع الحضاري : الدفاع عن المواطن . . كيف يمكن للعالم في الخارج أن يخدمك إذا لم تكن محترماً - كمواطن - في الداخل ؟ كيف ؟ . . . . » (حمودة ص ٤٤) .

هنا نختلف مع الرجل الذي يطالب مصر دولة ومجتمعاً بأن لا تعيد فقد مواقفها وتحليل حساباتها . . . فكل بلد لابد أن يعيد قراءة نفسه من جديد ، وإلاّ فسيبقى الخطأ موجوداً بل ومكرراً منسوخاً سنة بعد أخرى لا بل يعيد إنتاجه بشكل آخر عندما تتوالد عنه جملة من الأخطاء . وما الذي أعطاه المصريون للآخرين في الوطن العربي كي تكون فرصة لهؤلاء الآخرين من أجل أن يندّدوا بعورات المصريين بعد أن كشف المصريون عوراتهم دون داع! **أسألكم بالله أيها العرب أجمعين ويا ابناء مصر الاصلاء : أهذا كلام معقول يمكن أن يصدر عن رجل يعد نفسه(قومياً)؟! أو هذا كلام موزون يمكن أن يقوله رجل له تجاربه وخبراته وكتبه ومؤلفاته ؟**

ما هذا الطرح البليد الذي يحكيه الرجل ؟ أليس من حق أي أمّة أن تمارس عملية النقد والنقد الذاتي لأخطائها؟ وعمر مصر الحديثة كله وهي تتدخل في شؤون الآخرين ، وهذا حق لها كونها جزءاً من أرض العروبة . . . فلماذا لا تريد أن يتدخل الآخرون في شؤون مصر ؟! ومن ذا الذي تدّخل في شؤون المصريين على امتداد القرن العشرين ؟

ولم يكن اولئك الآخرون من خارج إطار الأمة . . . بل ولم يكونوا يوماً من أعدائها ! **ونحن نسأله : لماذا تدخلت أنت نفسك في كتبك ومقالاتك في كل شؤون العرب : في شأن العراق وسوريا والخليج العربي والسعودية واليمن والمغرب والأردن والجزائر وتونس . . . الخ .** ولماذا تريد أن تكتم أفواه العرب عندما ينتقدوا سياسات مصر! ومن هم أولئك العرب ؟ رجالات فكر وساسة وأساتذة جامعات وخبراء وكبار صحفيين ومراقبين ورجال أعمال وثمة دبلوماسيين محنكين . . . كلهم لهم أيضاً تجاربهم وخبراتهم ومواقفهم وأفكارهم .

لماذا أصبحت مصر الآن مجتمعاً غير متحضر ؟ ولماذا غدت اليوم دولة بلا قيم! ؟ على حسب ظنونك يا هيكل . . أهكذا تعالج الأمور ياصاحبي؟ يبدو أنك غائب عما يجري في العالم كله . . . . وليس في دولة كمصر التي تطور اقتصادها في عقد التسعينات من القرن العشرين عما كانت تعاني منه على امتداد عقود طويلة من الزمن . . . بل مقارنة بما جرى في دول كانت ثرية جداً . . . وغدت اليوم فقيرة مسحوقة! لم تكشف عوراتها للآخرين فحسب ، بل أصبحت أشلاء يتقاسم النفوذ فيها هذا الطرف أو ذاك ! ؟ وحاشا للمصريين ان يكشفوا عوراتهم للاخرين . . ففي قلب كل عربي اعتزاز لا يضاهى بمصر والمصريين . . ولكن ؟

ولكن العرب لا يقبلوا أبدا أن يكونوا في المواقع الخلفية ، ولم يقبلوا أن يبقيهم الاخرون عند نهاية السلم بحجة انهم أقوام متخلفون عن الركب وجهلة وغير متحضرين . . ولم يقبلوا أبدا ان تضيع فرص تقدمهم وتطورهم وذيوع خلقهم وأبداعهم ويقطع مجال رزقهم . . ويحاربوا بأساليب هم لا يعرفونها ، ولم يتربوا عليها ! ومحمد حسنين هيكل وغيره يدركوا متغيرات العصر وأساليبه التي تكشف اليوم كل شيء . . فلم تعد العروبة منحصرة في قاعات المؤدلجين المغلقة . . ولم تعد المركزية السياسية والثقافية يحتكرها طرف دون آخر . . ولم يعد الابداع يستحوذ عليه قطر واحد من الاقطار . . ولم تعد هيمنة صحف وأدبيات معينة تفرض نفسها في الميدان . . كما ان المحطات الفضائية هي اليوم بمثابة ماكينات غسيل لما عاشه ابناء النصف الثاني من القرن العشرين ، وسيلتقط الاذكياء الجملة الابداعية العربية ضمن سياق متكامل ، وسيسقط (بفتح السين وضم الياء) المجتمع العربي الغث والادران محاولا ان يبني نفسه على أيدي الاجيال الثلاثة القادمة في القرن الحادي والعشرين بانفاس جديدة وآمال جديدة وادوات جديدة ضمن متغيرات جديدة . . والابتعاد عما ساد في حياتنا العربية في القرن العشرين .

أما عبارتك التي تنتقد فيها العرب : « وغيري ماذا فعل » ! فأجيبك عليها بأن غيرك كان بمقدوره أن يفعل الكثير الكثير لولا الاحجار والعثرات والهياكل العظمية التي وضعت في طريقه على امتداد نصف قرن . . وعمليات التشويش الفكري والسياسي والدعائي . كان

بمقدوره ان يطّور فكره ونفسه وبنيوياته وان يحرر أرضه ويعمل على استقلاله التاريخي ويكون بالفعل قدوة للاخرين كونه يمتلك المؤهلات والقدرات والثروات والابداعات والعمق الحضاري . . ولكن أخفق في مهامه نتيجة الهيمنة المركزية التي سيطرت على العواطف وعلى التفكير وعلى المناهج وعلى الخطط وعلى الدعاية تحت مسميات شتى . . يكفيك علما بأن الاخرين قد سقط من مثقفيهم الوطنيين والقوميين الاحرار عدد لا يستهان به مؤثرين الانتحار اثر الهزائم المريرة التي عشناها جميعا . . انتحروا في العراق ولبنان والاردن وسوريا لأنهم تربوا على مبادىء أصيلة غرستها في وجداناتهم أساليب رومانسية وخطب عاطفية . . كانت تسكرهم على الدوام بالقوة وصناعة الامجاد والتطور وما هم بسكارى . . ولما أفاقوا على الصدمات المريعة والهزائم المخجلة ، آثروا ان يكونوا في عالم آخر !

التناقضات العربية.. من الذي أذكاها؟

لقد أعجبني والحقيقة تقال ما طرحه هيكل من آراء ومعالجات بصدد عدم إدخال مصر نفسها في شؤون القرن الإفريقي والسودان مبرراً ذلك بجملة من العلل الرصينة ، ومقترحاً على مصر أن تبقى تحتفظ أمام السودان بهيبتها المعنوية لأنها غير قادرة على أن تقاتل في أحراش السودان . . . كما اقترح على مصر أن تبعد نفسها عن مظاهر التورط في القرن الإفريقي . . . وانتقد سياسات تدخلها في الشأن الأفغاني وفي الصومال وإيران !

ولكن دعونا نتوقف عند نقده ظاهرة التناقضات العربية ، وكأنها حالة جديدة . . . يقول : « أصبح مكتسحاً . . وبقوة . . . موشي ديان كان يحلم بأن ينشغل كل بلد عربي بتناقض آخر بعيد عن إسرائيل . . شوف . . . مصر الآن مشغولة بالسودان ، سوريا مشغولة بالعراق ، العراق مشغولة بالكويت ، والكويت مشغولة بالأردن ، والأردن مشغولة بقطر ، وقطر مشغولة بالسعودية ، والسعودية مشغولة باليمن . . . . . الخ ثم هبت صيحة جديدة . . .إيران هي العدو . . . وكل ذلك لصالح إسرائيل ، ولصالح أمنها . . . ونحن غافلون . . . لا نقرأ ما حولنا . . . ولا نفهمه . . . لا نحاول أن نقول من نكون ؟ وماذا نريد ؟ وكيف نتعامل مع من حولنا ؟

إذا كانت هناك سياسات قديمة ، فاتت مدة صلاحيتها ، لماذا لا نختبرها ؟ لماذا لا نعيد

النظر فيها! . . . والمذهل أنك لو طرحت مثل هذه الأسئلة يقولون إننا نتفلسف » . (حمودة ص ٦٢) .

ومن أجل ان تكون مناقشتنا واضحة وجدلية غير سوفسطائية او بيزنطية ،فأنا لا أقول بأن محمد حسنين هيكل يتفلسف لأن بينه وبين الفلسفة بوناً كبيراً لا يستطيع خوض غمارها ، فليس الرجل بمتخصص بعلم من العلوم ، ولا ببحاثة متميز في أي حقل من حقول المعرفة ! فلا يوصف هنا الا بكاتب يغالط نفسه عن عمد وسبق اصرار وترصد أيضا . انه لو كان رجلا أميناً فقط على حافظته التاريخية وذاكرته السياسية لوجد بأن صورة التناقضات العربية والتي يعبّر عنها بـ « الانقسامات » السياسية هي نتاج حالتين تاريخيتين اكتنفتا تاريخ العرب المعاصر في القرن العشرين ولم تكن بحد ذاتها من صنع هذا « الجيل » الذي وجد نفسه يعيش نتائج الانقسامات المريعة والتناقضات المريرة والثنائيات البليدة دون أن يجد الحلول المناسبة للقضاء عليها :

١ - الحالة الأولى : متمثلة بـ التجزئة التاريخية والاستعمارية التي ولدت عليها كيانات العرب المعاصرة منذ بدايات القرن العشرين . . . وكان العرب قد توصلوا بعد الحصول على بعض استقلالاتهم الوطنية حلاً كان من الممكن أن يكون عملياً على غرار ما فعلته شعوب وأمم أخرى تخلفت من خلال تجاربها في صياغة أي نوع من التجمع والتضامن والتكافل . . . ولكن العرب وعلى الرغم من نجاحهم في تأسيس مشروع جامعة الدول العربية بعد الحرب العالمية الثانية ، إلاّ أنهم وقعوا تحت طائلة مؤامرات داخلية وخارجية نالت منهم ، وغدوا ضحية حالة جديدة نالت من اللحمة السياسية والإجماع القومي .

٢ - الحالة الثانية : متمثلة بـ الحرب الباردة العربية التي استعرت منذ خمسينيات القرن العشرين ، مع انحيازات العرب لكل من المعسكرين الغربي والشرقي ، ناهيكم عن الأسباب الداخلية التي حمل مشعلها بعض الدول العربية بالإثارة والدعاية والخطب الرنانة والتدخلات في الشؤون الداخلية وتمويل الانقلابات العسكرية والاغتيالات السياسية وإثارة النعرات الداخلية واستخدام الإذاعات في السباب والردح السياسي

والشتائم من قبل الزعماء . . . كلها أسباب يدرك العرب من الذي كان يذكيها ، ومن الذي كان ينفخ فيها . . وقد كان لها نتائجها الضالة على مصير العرب وأوضاعهم التي وجدوا أنفسهم عليها عند نهايات القرن العشرين .

الإسلام السياسي :

قال هيكل : « الدين مرجعية . . وإنما هذه المرجعية لا تحتاج لها إلا عندما تتأزم الأمور . . . فترجع وتقول : إنك تريد تفسيراً . . إن المرجعية هنا مثل القانون لا تحتاج إلى استحضار نصوصه والاستشهاد بها حرفاً إلا إذا وقعت في مشكلة . . مع أنه في كل الأحوال سائد وموجود ومستقر » .

ويستطرد أيضاً : « أنا استغرب من إثارة قضية الأصالة والمعاصرة . . ليس هناك شيء اسمه أصالة ، ولا آخر اسمه المعاصرة . . فإذن أنا إنسان حي . . . فإن الموروث فاعل ، والمكتسب أيضاً فاعل ، وكلاهما يتسق في داخلي . . . . (حمودة ص ٧٨) .

نعم : هذه أفكار متقدمة جداً وذكية جداً ، خصوصاً عندما نفى الرجل أصالة الأشياء أو معاصرتها - كما أشاع ذلك التوفيقيون القوميون في أدبياتهم وفي مقدمتهم بعض الكتّاب (التقدميين) ، وكان قد سبقهم الى هذا « القياس » أكثر من تيار إصلاحي أو سلفي ، أو تابعهم أكثر من تيار قومي او تقدمي - ذلك فعلاً لأن كل من الموروث والمكتسب هو فاعل وتجدهما يتسقان معاً بشكل رائع .

ويبدو هيكل هنا وقد تجاوز الفكرة التوفيقية التي اذاعها الاصلاحيون والقوميون والسلفيون . . كي يقف ازاء الاصوليين الذين لا يقبلوا بأي صيغ توفيقية او تلفيقية ، بل يريدونها انعزالية قديمة . . هنا يقف هيكل موقفا مضادا منهم ، كي يقول بحيوية الانسان التي تنبعث من حالة اتساق داخلي بين الموروث والمكتسب !

ونتواصل مع أفكاره المتقدمة في تحليله سر عودة الإسلام السياسي ، إذ يصف حالتنا اليوم في أزمة ، والناس تريد تفسيراً للأزمة ، خصوصا وأنها طالتهم في بيوتهم وشوارعهم ومدارسهم وأسواقهم ومقاهيهم . . . وكل مناطق حياتهم . إن الناس في حيرة وشك . . .

« وأسهل طريقة لها من أجل إنقاذ نفسها من الضياع عودتها إلى النصوص » . . . وقبل أن نمضي مع هيكل في الوقوف معاً على أسباب هذا الضياع . . . .

لا بدّ أن نتوقف قليلاً معه ، لكي نقول بأن ليس من السهولة بمكان أن نَصِف عودة الناس إلى « النصوص » بسبب وجود أزمة ما أو من نوع ما ! فالأمر أكبر مشكلة وأكثر تعقيداً : إذ نجد أن ليس كل من هو في أزمة من نوع ما يعود إلى « النصوص » ، إذ أن هناك نخب وهيئات وفئات وشرائح اجتماعية معينة إنما كانت عودتها إلى « النصوص » لأسباب خاصة ، سياسية ونفسية واجتماعية واقتصادية . . . . أو نتيجة تأثير **تحول المناخ الفكري العام الذي صنعته جملة من المتغيرات في المجتمعات الإسلامية خصوصاً بعد عام** ١٩٧٩ ، أثر انتصار تجربة إيران في ثورتها الإسلامية التي قادها الإمام آية الله الخميني .

ومنذ ذلك التاريخ ترسخت في الذاكرة الجماعية على امتداد العالم الإسلامي خاصة ، وجاليات المسلمين في الغرب عموما . . نزعة ما أسمي بـ « الصحوة الإسلامية » . . . كظاهرة تعبّر آلياتها عن الإسلام السياسي الذي لم يزل يتفاعل بقوة منذ عام ١٩٧٩ . . . علماً بأنه كان قد وجد نفسه متأسساً بنفسه على قاعدة مرجعية تاريخية له في أكثر من بيئة مركزية في العالم الإسلامي ومنها البيئة العربية منذ نهايات القرن التاسع عشر ، وخصوصاً في تجربة السيد جمال الدين الأفغاني الذي يعتبر المؤسس الحقيقي للإسلام السياسي .

الضياع : تناقض الهوية المتنقلة عبر المرجعيات

ونواصل نقاشنا مع هيكل الذي يقول : « إن أول أسباب الضياع أنك أنهيت هوية مجتمعك . . . . أو زرعت التناقض في هذه الهوية . . لم تستطع أن توفق بين الوجوه المختلفة للهوية . . وضعت الإسلام في تعارض مع العروبة . . مع أنه لا تعارض . . . فمصالح ماليزيا الإسلامية ليست أقرب إلينا من مصالح أي دولة عربية . . . إن هناك داخل الكيان الإسلامي الكبير جزيرة عربية ، ليست منعزلة وإنما لها خصوصية . . . خصوصية الجغرافيا والتاريخ والاتصال والعمل المشترك . . . فإذا خلفت شكاً في هذا ، وجدت الضياع أمامك» . (حمودة ص ٧٩) .

ونرجع لنسأله : من هو المسؤول عن أسباب الضياع ؟ إنك لم تقل كما كان يجري

الحديث وإطلاق الاتهامات قبل ثلاثين سنة بأن المسؤول هو : الاستعمار والرجعية والصهيونية . . . إنك عدت لكي تقول بأن العربي هو نفسه الذي أنهى هوية مجتمعه ، وزرع التناقض في هذه الهوية . ولكن من هو ذا ؟ لماذا لم يحدّده لنا هيكل ؟ من الذي كان قد قال بالمرجعيات المتعددة ؟ من الذي قال بالدوائر واتساعها بين الناس ؟ انطلاقاً من الدائرة المحلية إلى الدائرة القومية إلى الدائرة الإسلامية إلى الدائرة العالمية . .؟؟ من الذي ضيع أكثر من جيل بين الدوائر ، ولم يكتف بزراعة التناقضات في المجتمع ، وإنما نفخ في إحداها على حساب الأخرى ، بحيث تجد مجتمعاتنا اليوم منقسمة بانتفاخاتها المتعددة ؟؟

ومن ذا الذي قال لك يا هيكل بأن العرب قادرون على أن يوفقوا بين الوجوه المختلفة للهوية ؟ لقد نقلتهم الأيديولوجيات الجديدة من حالة إنهاء صيغ التعايشات مع غيرهم والاخر التي كانوا عليها عصوراً طويلة في التاريخ إلى حالة انطلاق قوى التعارضات التي فجرت فيهم عند نهايات القرن العشرين كل رواسب الماضي العقيم ، وخلق لديهم عدة جيوب منعزلة ليست لديها أي توافقات مع طبيعة الحياة العامة والمدنية التي يألفها العصر الحديث !

وأسألك يا هيكل من باب تحصيل حاصل وانا أؤمن بالعروبة كما تربيت عليها دون أي مزايدات سياسية أو لقاحات ايديولوجية : من ذا الذي وضع الإسلام في تعارض مع العروبة ؟ ومن ذا الذي كان بمقدوره أن يعالج مسائل وشؤون العالم الإسلامي الكبير؟ ألم تكن العروبة أولاً ؟ ألم تستخدم العروبة من قبل بعض أبنائها كأداة فاشية بائسة ضد كل من يعترض على سطوتها ؟ ألم يطلق العرب كل الأوصاف والنعوت السامية والنبيلة عليهم إزاء أمم الأرض قاطبة ؟ ولماذا قام بعض العرب بتشويه تلك الهالة الرائعة للعروبة نفسها ، عندما استخدموها مطية لهم في شعاراتهم وتسويق سلطوياتهم . . وجعلوها قميص عثمان لاغراضهم وأهوائهم ضد الاخرين . لقد كانت العروبة عند أولئك الآخرين ممن تعايشنا معهم عصوراً تاريخية طويلة ، مبدءاً سامياً لشعب عريق . . ولغة قوية مقدسة أنزلت من خلالها كلمات الله . . . ولكن من الذي جعلها فعلاً في حالة تعارض ليس مع الإسلام حسب ، بل في حالة تنافر مع شعوب العالم الإسلامي قاطبة ؟؟

ونأتي اليوم لنقول بأن لنا خصوصية جزيرة عربية في داخل كيان إسلامي كبير !

أتمنى عليك يا صاحبي أن تضع النقاط على الحروف . . . فإن لم تفعل ، فإن من سيأتي بعدك سيواجهك باتهامات أخطر وأخطر بكثير مما يمكن تصوّره ، خصوصا وقد كنت أحد ابرز الكتاب القوميين ، ومثقفاً سلطوياً عالي المستوى !

نقد مشروعات التنمية:

ونتابع مع هيكل أفكاره الجديدة التي يبدو أنه قد تخلى بها عن أفكاره القديمة التي كان يذيعها على الملأ صباح مساء في خمسينات القرن العشرين وستينياته ، قائلاً :

« . . . أيضاً نحن أخطأنا في شأن مشروعات التنمية . . التنمية في العالم الثالث - وحتى في العالم الأول - الدولة التي تقوم فيها بدور رئيسي . . . وهو ما تنصلّنا منه . . ومن ثم اقتربنا أكثر من الضياع . ومنذ سنوات طويلة ونحن نواجه التيارات الجديدة - الوطنية والتقدمية - التي ظهرت في الخمسينات والستينات بالدين . . . قلنا إنها معادية للإسلام . أنا لا أقول ذلك اليوم للعودة إلى الأمس . . . أبداً فكل جيل من واجبه أن يراجع ما كان ، وأن يعيد امتحان المقولات الأساسية المتعلّقة بوجوده ، وأن يعيد تفسيرها . . . لكن لا أعرف سابقة في التاريخ لعدول بالكامل عما كان وإدانة بالكامل له . . كما جرى لنا وكنا في ذلك - للأسف الشديد - أداة مفعول به أكثر منا فاعلاً . . وقد حدث اختراق لنا . . . والاختراق هو الظاهرة الطبيعية للمحاولات المستمرة لفرض السيطرة الأجنبية علينا . . . أنا أوافق أن نقف أمام الأمس ونناقشه . . . . ونحدد أخطاءه . . . ولكن محاولة نفيه كما حدث لا أوافق عليه . . . وهذا سر الأزمة التي وصلت إلى حد العنف . . . وقبل أن نخرج وندين كل ما نراه حولنا من مظاهر عنف لابد أن نتساءل عما جنته يدانا . . . » (حمودة ص ٧٩) .

من يقرأ هذا الكلام ، هل يعتقد أنه لمحمد حسنين هيكل عند نهايات القرن العشرين؟ **أن ثمة خطايا لا أخطاء حسب قد ارتكبت بشأن مشروعات التنمية وليس في مصر وحدها ، بل في عدة بلدان عربية أساسية كالعراق والجزائر وسوريا وغيرها ، وأن ثمة خططاً ومشاريع كبرى وعملاقة كانت قد بدأت ، ولكنها اختنقت وتوقف العمل بها لا لأسباب جوهرية وعملية ، بل لأسباب سياسية وأيديولوجية تافهة!***

---

* من المفيد جداً مراجعة تحليلات رصينة نشرها : جورج قرم ، التنمية المفقودة : دراسات في الازمة الحضارية والتنموية العربية (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٨١) .

كم كانت سياسات التدرج عملية وبراغماتية في وظائفها وستنجح في أداء مهامها من أجل تقديم الخدمات للمجتمع الذي سيأخذ طريقه للتطور خطوة خطوة . . بدل السياسات العقيمة التي لبست أثوابا شتى ، والتي جاءت لتقلب الامور عاليها سافلها ، ولتحرق الأخضر واليابس على رؤوس أبناء المجتمع قاطبة ، ولنأخذ بما أذاعته هستيريا ودعت اليه : بسياسات (القفزات النوعية) و (حرق المراحل) . . . الخ

وكم كان من الخطأ الفادح أن يعتمد كل بلد على نفسه في صناعة مستقبله ، دون أي استعانة بخبرات وتجارب عن الآخرين . . ودون أي وازع من تطوير العلاقات بين البلدان العربية نفسها للمساعدة في تطوير الإمكانات ، بدل الدخول في هستيريا الحروب الباردة العربية ؟ وكم كان من الخطأ أن تربط عمليات التطوير والتنمية عند العرب في القرن العشرين بالمشكلات السياسية والامنية والايديولوجية ، وطبيعة العلاقات السياسية والصداقات الجديدة .

تغيير السياسات:

فليس من الصواب أبدا تغيير سياسات التصنيع والزراعة والري والتعليم والبعثات في بعض البلدان العربية من الاعتماد على الدول الغربية المتقدمة والانتقال للاعتماد على بعض دول العالم الاشتراكي ولاسباب سياسية وايديولوجية . . أي ربط التكوينات النهضوية والتكنولوجية والاعمارية والتنموية بالعلاقات السياسية وحركات التحرر . . وذلك باقامة علاقات ودية مع دول الكتلة الاشتراكية ، والتخلي عن الخبرات الغربية وكفاءاتها . . من أجل الاعتماد على خبرات العالم الاشتراكي التي لا يمكن أن تضاهي أو تجاري خبرات الغربيين التكنولوجية ، كما أثبتت بذلك تجارب فاشلة في العديد من الدول العربية كالعراق والجزائر ومصر وسوريا بشكل خاص .

وماذا أيضا ؟

إن هيكل يتكلم الآن على أتم ما يكون من صحيح القول فلقد استخدمت الحكومات العربية الإسلام جداراً وستاراً لها ، فكل الحركات الوطنية والتقدمية والقومية والتيارات السياسية والأيديولوجية التي كانت تخالفها الرأي والحكم كانت ترميها بتهمة العداء

للإسلام . . والأكثر من ذلك أنها استخدمت الوسائل والأدوات الدينية أسلحة دفاعية لها سواء في الإعلام أم المؤسسات الدينية أم التربوية والتعليمية وغيرها مما خلق ذلك كله من حيث لا تدري نسقاً معيناً من التفكير عند جيل كامل تخرج على أيدي تلك الأدوات والوسائل . . .وعندما كبر هذا « الجيل » ودخل ميدان الحياة في أيامنا هذه لم يقف ضد الدولة حسب ، بل يقف اليوم ضدها وضد المجتمع معاً !

وبطبيعة الحال ، فإن هيكل لا يمكن أن يدعو للعودة إلى الأمس ، أبداً ، لكنه يطالب كل جيل أن يكون من واجبه مراجعة ما كان ، وأن يعيد امتحان المقولات الأساسية المتعلقة بوجوده ، وأن يعيد تفسيرها يوماً بعد آخر .

ولكن نسأله ونحن أبناء جيل عربي أتى بعده : هل أتاح جيله هو نفسه الفرصة لنفسه أن يراجع ما كان لدى أبناء الجيل الذي سبقه ؟ هل أعاد أبناء جيل الايديولوجية القومية العربية مثلاً امتحان المقولات الأساسية التي كان قد طرحها جيل الآباء من أبناء نزعة الدولة الليبرالية الوطنية ؟ ولماذا كانت الثورة ؟ ولماذا محقت الأساليب القديمة تحت ذرائعية تصنيفات الدولة عناوين : العهد المباد والرجعية والعملاء ، ورجال القديم . . وكل الصفات السالبة ؟! علما بأن أغلب رجالات العهد القديم كانوا من الاصلاحيين والمستنيرين والليبراليين الذين كانوا في طريقهم الطبيعي للزوال بشكل تدريجي بعد ان أدوا رسالتهم وكفوا أمانتهم . . وكانوا مستعدين لتسليم الراية لجيل مدني جديد متعلم من الرجال الاكفاء القادرين على اجراء التغييرات الحقيقية في التحرر الوطني والبناء القومي ، دون الدخول في مرحلة ساخنة من الانقلابات العسكرية بأسم الثورات الشعبية أو الجماهيرية وإغراق المنطقة بالمشكلات والصراعات السياسية الداخلية . اذ يعلمنا التاريخ المقارن لعهود القرن العشرين ان ليس النصف الثاني منه احسن حظاً من النصف الاول فيه بأيّ حال من الاحوال .

ثالثا: مقاربات نقدية في التفسير

قراءة التاريخ:

بين هيكل وبين فهم التاريخ وكتابته بون كبير فالرجل ليس بمؤرخ أبدا، وبرغم تمتّعه بحس تاريخي معين، إلا أنه لم يدرك إلا نهايات التاريخ، وتأتي بعض توظيفاته لجوانب من التاريخ عقيمة لعدم أهمية ذلك في ما يريد التوصّل إليه.. وهو بين هذا وذاك ينتقد من لم يتوقف كي يقرأ الحاضر قراءة سليمة، كما لم يتوقف لإجراء فرز للتجارب، وينتقي ما يناسبه ويلقي بعيدا ما لا يناسبه في سلة التاريخ! وطالما يردد هيكل مسألة الفرز والضغط باتجاهها.. انه يريد من الجميع أن يقوموا بعملية الفرز.. وهي «العملية» التي أعتمدها محمد حسنين هيكل نفسه في كتاباته، أنه يفرز دوما وينتقي! ولكن ان كان هذا «المبدأ» ينفع في مجال الصحافة في أن ينتقي الصحفي، ويفرز ما يريده عما لا يريده، فانه لا ينفع البتة في مجال كتابة التاريخ!

أما المبدأ الآخر الذي آمن به هيكل ،الذي أضّر به في مجال كتابة تاريخنا العربي المعاصر.. فهو الذي ضمّنه قوله: «لابدّ أن تقرأ الوقائع ونرى من هم الأبطال؟ وما هي نوعية العلاقات والصلات؟ لأننا سوف نجد صورة كاملة عمّا تردّت إليه أحوال العالم العربي في العمل السياسي والعلاقات الخارجية، وعن الأزمة التي تقابلها أمريكا وهي تحاول قيادة العالم في أواخر الحرب الباردة وفي أوائل عصر ما بعد الحرب الباردة» (حمودة ص ١٠٤).

لا بد من القول أن هيكل لا يميّز إلى حد يومنا هذا استخدام المصطلحات التاريخية، فهو لا يفرّق بين مصطلحات، مثل: فترة / حقبة / عهد / عصر.. الخ، وهو دوما ما يستخدم - على عادة غيره من الكتّاب والمؤلفين العرب - مصطلح «عصر» تاريخي كي يطلقه بديلا عن مصطلح «عهد» سياسي، علما بأن مصطلح «العصر» يعني مضمونه: مجموعة عهود سياسية، ويقدّر عمره بـ (٣٠٠ سنة)، فكما وجدناه هنا يطلق على فترة ما بعد الحرب الباردة مصطلح «عصر»، فقد كان قد استخدم المصطلح خطأ أيضا في أكثر من مكان من كتبه ومقالاته.. ويمكننا أن نلحظ ذلك عند أطلق المصطلح في عنوانه

الثاني من كتابه « خريف الغضب » وصفه بـ : « قصة بداية ونهاية عصر أنور السادات » . . وكان الأجدر به أن يقول : « عهد أنور السادات ، إذ لم يمتلك أسم السادات تاريخ العصر بطوله!

النقطة الأولى في النص الأخير ، تنبؤنا بوضوح عن الأشياء التي يرّكز عليها محمد حسنين هيكل :

١ . قراءة الوقائع التي يكتفي بسردها فقط دون التوغل في مظانها ، لأن عملية تحليلية من هذا النوع ستبعده حتما عمّا يكمن في رأسه أصلا ، وما يريد التوصل اليه أساسا .

٢ . وقوفه عند الأبطال السياسيين فقط ، فهو لا يهتم بحركة التاريخ الجماعي / المجتمعي سواء النخبوي أو الفئوي أو الجماهيري . . ولم يراقب الصلة بين السياسي والاجتماعي أبدا ، اذ يكرس همّه فقط على البطولة والأسماء البراقة في سنوات المرحلة .

٣ . ولكن أهم ما يشغله في البحث عن الزعماء / الأبطال كقوى تاريخية هي عنده تحرك التاريخ وتشغله وتمتلكه : نوعية العلاقات والصلات . . وعليه ، فان همّه الوحيد من قراءة الأحداث والأبطال ، هو : كيفية شغل ذهنية القارئ بما كان لدى هذا « البطل » او ذاك من علاقات أو روابط . .

٤ . وعليه ، يمكننا القول بأن الرجل الذي سيطرت عليه هذه « الأفكار » قد نجح في تأليف عدة كتب وتحرير عشرات ومئات المقالات ، لا يخرج نطاقها في التركيز على « البطل » وصلاته وعلاقاته ، والتفنن في رسم صور عجيبة عن هذا البطل أو ذاك .

٥ . كما وبدا لنا هيكل على امتداد حياته الصحافية الخصبة فنان في اختيار الزعماء / الأبطال سواء في الحديث عن مقابلاته معهم ، أو حواراته إياهم ، وتوزيعه أحكامه عليهم من الزاوية المحددة النظر التي وجدهم هو نفسه من خلالها عليهم !

مشكلة هيكل الخطيرة :

صرخة السياسة بديل كلمة التاريخ

يقول هيكل وهو يّفرق لنا بين السياسة والتاريخ النص الآتي :

« . . وعشرون سنة ، دورة من دورات الزمان لها ايقاع خاص ومتميز ، يستطيع أن يكون

هادئا ورصينا ، خاليا من اللهفة والعجلة ، بعيدا عن نطاق الضغط والإلحاح طلبا للتأثير النفسي والدعائي ، وهو على هذا النحو يكون أقرب الى كلمة التاريخ منه الى صرخة السياسة » . وهذا طبيعي ، بل أن هذا هو الفارق بين السياسة والتاريخ ، فأي حدث من الأحداث يظل « سياسة » طالما هو لا يزال تحت سيطرة صنّاع القرار والمؤثرين فيه على القمم أو بقربها . ولكن حين يخرج من هذه السيطرة يصبح « تاريخا » ويتحوّل الى شيء تصعب السيطرة عليه ، لأنه يدخل حصيلة مضافة الى خزائن التجارب الحية لشعوب وأمم وأوطان » (قصة السويس ، ص ٧) .

ان مجرد رؤية نقدية فاحصة لمثل هذا « النص » وإجراء محاولة تطبيقية له على كتابات صاحبه هيكل ، سيجد المؤرخ الناقد أن ثمة مباعدة قسرية بين الذي يعّرف به الرجل اشكاليته وبين تطبيقه اياها . . تلك « الإشكالية » التي يبدو أنه يدركها تمام الادراك ، ويعيها بكامل الوعي . . ولكن هذا الذي يقوله هنا ، لا يمكن أن نجد له أي سند أو أية تطبيقات بأمثلة حية أو نماذج صحيحة في أي كتاب من كتبه التي نجح في توليف مادتها بطريقة ذكية وبأسلوب بسيط وبطروحات مثيرة . . فلم نتلمسه أبدا مؤرخا حقيقيا للأحداث والوقائع والشخوص والمواقف والأوضاع . . ونحن نعرف بأن التاريخ في الحقيقة : **معرفة تقوم على أسس منهجية دقيقة وركائز نقدية صارمة في التوثيق والتحليل والتعليل والاستبطان والمعلولات والتضمينات والمقارنات والنتائج والاستنتاجات** . . ولا يمكن للمؤرخ أن تتداخل عنده - وخصوصا عندما يكتب في التاريخ المعاصر ويسجل مدونات للأجيال القادمة ـ الأهواء السياسية والنزوعات الأيديولوجية . .

لقد بقي هيكل بمثابة كاتب صحفي - كما يحلو أن يسّمي نفسه - ، لكن هذا الصحفي الذي اختار أن يكون سياسيا مرة ومؤرخا مرة أخرى قد فشل في أداء مهمته في مجمل الكتابات التي أصدرها ، وهو يتعامل مع الماضي القريب بكل تعقيداته واشكالياته ومشاكله وتشابكاته . . لقد بقيت نزوعات هيكل الأيديولوجية تتحكم في مضامينه ونصوصه ومحتويات كتاباته المتنوعة . . ذلك لأن المعرفة التاريخية ، هي عملية معقدة تستوجب تحليل معلومات تاريخية شتى . ولابد من اشتراطات منهجية وبحثية يلتزم بها

المؤرخ تقف في مقدمتها : اعتبارات الأمانة والحيادية والدقة حتى يكتمل الشطر الأول من المعادلة . . فضلا عن المصداقية التي لا يمكن لها أن تكون إلا من خلال توثيق المعلومات والأقوال والأخبار بشكل واضح وكامل ومدعم بالإسناد والأرقام . . حتى يكتمل الشطر الثاني من المعادلة . . وبدون هذا وذاك ، فلا يمكن أن نّسمي مجموعة من التوليفات الكتابية المتعة بـ « تاريخ » و « معرفة تاريخية » ولا يمكن أن يّدعي أي صاحب توليفات للعبارات والنصوص والمقولات انه بمؤرخ !

التوليفات بديل التوثيقات

إن ما تقّدم في أعلاه لا يجعل بطبيعة الحال هيكل - مع الأسف - مؤرخا ، بل صاحب توليفات كتابية تختلط فيها الآراء السياسية بالمقابلات الصحفية بالمعلومات التاريخية . . وانه لم ينجح في تقديم صورة معرفية ولو لمرة واحدة ، ولكنه نجح في تقديم كتابات إنشائية تغلفها ضبابية متعمدة وتتنازعها الأهواء الأيديولوجية مع الخبر والحدث والأحكام والاتهام وسرد القصص . . لتخرج في النهاية طبخة تتألف من خلطة فيها كل الألوان المختلطة والمشّوشة ! ودعونا نتوقف عند بعض الأمثلة :

١ . لنرى - مثلا - كتابه « **قصة السويس : آخر المعارك في عصر العمالقة** » والذي بإمكان أي دارس للتاريخ في مرحلة أولية أن يسّجل عدة ادانات على طريقة كتابة محمد حسنين هيكل لكتابه هذا ، والذي انتفت منه التوثيقات نهائيا ، علما وهو يحكي قصة السويس ، أي يعتني بجزئية مهمة وخطيرة من تاريخنا المعاصر ، كانت بحاجة ماسة لتسليط هيكل الأضواء عليها من خلال التوثيقات التاريخية لا الاعتماد على التوليفات الإنشائية .

٢ . لنقف - مثلا - عند كتابه الآخر : **مدافع آية الله : قصة إيران والثورة** ، والذي سّجل فيه ـ كما يعتقد - هذه القصة الفريدة والتي يبدو نسيجها قاصرا ومفتقدا للأسانيد والتوثيقات والأدلة . . كي يطلق من خلال كتبه جملة من الأحكام الخطيرة . . وقد أدخل نفسه في شرح قضايا تاريخية ومذهبية قديمة من أجل توضيح جوانب من الحياة الاجتماعية الإيرانية المعقدة . . ناهيكم عن سلخه روايات تاريخية عن مؤرخين

متخصصين بشؤون العصور الوسطى الإسلامية والذين يخشون ويتورعون في الخوض بشؤون تاريخ ايران الحديث والمعاصر !

٣ . أما كتابه الموسوم : « ملفات السويس : حرب الثلاثين سنة » الذي كتب القسم الأول منه بنزعة الصحفي لا بمنهج المؤرخ ، اذ لا يعتمد اعتمادا أساسيا في مضمونه الخطير وبمحتوياته التاريخية على التوثيق الكامل من خلال الهوامش ، وبرد كل ما يرد في المضمون إلى أصله ، فثمة قضايا ومسائل معلقة أطلق هيكل لنفسه العنان في توزيع الأحكام والتقييمات . . علما بأن القسم الثاني من الكتاب يتضمن جملة من الوثائق السياسية الأجنبية المترجمة ، والتي كان لابد لمؤلفهِ أن يستفد منها استفادة أمينة من خلال مقارنته لمعلوماتها مع الوثائق السياسية العربية . . كما ويطالبه القارئ ، أي قارئ بذكر الأماكن والدوائر الرسمية التي تحترز على تلك الوثائق التي أفرد لها هيكل قسما خاصا بها ، ويطالبه القارئ أيضا أن يخبره عن الكيفية التي حصّل بها على الوثائق في مقدمات كتبه لكي يكون القارئ مستنيرا ومطمئنا . .

٤ . وفي كتابه « خريف الغضب » الذي أحدث أكبر صاعقة مدوّية في تاريخ الإثارة السياسية العربية ابان القرن العشرين . . وأثار ضجة كبرى لا يمكن لها أن توصف على المستويين الرسمي والشعبي ، وانقسم الناس بين مؤيد ومعارض إزاء الكتاب . . وبيعت من الكتاب الآلاف المؤلفة من النسخ . . كل ذلك لا يهمّني أبدا ، كما لا يهّمني ما جاء به الكتاب من المعلومات والأخبار والاتهامات التي خسفت بتاريخ أنور السادات الى أسفل سافلين ! وفي هذا المجال ، فسوف لن أكتب عباراتي التالية دفاعا عن السادات ، فلقد كتب العشرات من الكتّاب والساسة والمراقبين والمختصين عن « خريف الغضب » ، ولكنني أسجل ملاحظة نقدية واحدة على الكتاب ، تلك التي تقول بأن الكتاب ما دام يتضمن محتوى خطير جدا ، فكان ينبغي على صاحبه أن يوّثق معلوماته ومادته . . وقد أعترض على ذلك أكثر من معترض . . وفي مقدمتهم الدكتور فؤاد زكريا الذي كتب كتابا كاملا يرد فيه على هيكل عنوانه : كم عمر الغضب ؟

٥ . وهكذا بالنسبة لكتاب هيكل « حرب الخليج : أوهام القوة والنصر » ، والذي عالج فيه

حرب الخليج الثانية ، يسّجل على مؤلفه نقطة كبيرة ممثلة بعدم توثيقه التوثيق الصحيح والصائب للمادة المكتوبة ، بل وقد انتقده أكثر من متابع في الشأن العراقي والكويتي أنه بالغ في الروايات مع ثمة نقوصات في الاستدلالات ، وقام بتزوير بعض المعلومات ، بل وقام بتحريف بعض النصوص المنقولة عن مصادر غير مكتملة ، مع عدم تقّيده بالنصوص الأصلية ، فضلا عن اعتماده على إحصائيات كاذبة ، وبيانات ملفّقة ، وسرد وقائع لا أساس لها من الصحة !

٦ . أما بالنسبة لما يخص كتابه : **بين الصحافة والسياسة** ، فقد ذكر أحد الدارسين بأن من يقرأه ، « لا يسعه إلا أن يغلق الكتاب اقشعرارا من هول أخبار وقصص العلاقات والاجتماعات مع عناصر مخابرات البلدان الاستعمارية ، وما تبطنه من إسرائيليات ، وجاسوسية ، وفضائح في مرحلة (ومراحل) حساسة من الثورة المصرية وآمال الجماهير* . ومثل هكذا كتاب خطير يحكي صاحبه قصة علاقاته بين الصحافة والسياسة ، لن نقف عند أية توثيقات أساسية دامغة لكل ما ورد في الكتاب من معلومات ، توثيقات يمكنها أن تسّجل تاريخا حقيقيا . .

٧ . وهذا ما ينطبق على كتابه : **لمصر لا لعبد الناصر** الذي انعدمت منه أي وثائق وتوثيقات يمكنها ان تزرع الثقة عند القارئ بالكتاب ومعلوماته . . ويمكننا أن نجد هذه « الحالة » في جميع مؤلفات الرجل القديمة والحديثة . . وكم نتمنى لو تعلم الرجل من التجارب التي خاضها مرارا على امتداد العقدين الأخيرين . . كما وانه مثقف ومطّلع كيف تكتب هكذا موضوعات خطيرة لدى الأمم الأخرى .

هل فقدت الأمة العربية طريقها نحو المستقبل ؟

السؤال الآخر الذي يمكنني طرحه : متى فقدت الامة العربية طريقها الى المستقبل ؟ وهل كانت الأمة حتى تسعينيات القرن العشرين في حالة رائعة ومتطورة حتى تفقد طريقها مؤخرا ؟

---

* عزيز السيد جاسم ، سقوط مدرسة هيكل وأزمة العقل المصري ، ط١ (بغداد : مكتبة النهضة ، ١٩٨٧) ، ص ١٨٨ .

قبل أن أجيب على التساؤلين في أعلاه ، لابد من القول ان الأمة والبلاد والعباد في أحسن ما يكون عند المسؤولين وذوي المناصب ايام جلوسهم على كراسيهم . . وحالما تنتهي عهودهم وتنقضي أزمانهم ، فان الامة والبلاد والعباد في حالة يرثى لها . . وقد افتقد الطريق الى المستقبل !

والحقيقة ، يكمن الجواب في أحد تخمينين أثنين :

١ . فاما أن يكون الرجل مدركا لسيرورة التاريخ العربي المعاصر على امتداد نصف قرن كامل . . وهو يريد أن يحجب الحقيقة عن الآخرين ممن يريدون القول بانهزام الأمة عند نهايات القرن . .

٢ . واما أن يكون فعلا واحدا من إياهم . . اذ لا يرى الأمة وقد انهزمت من التاريخ على امتداد نصف قرن !

دعونا نستمع الى ما يقول : « لو قرأ الناس هاتين القضيتين (يقصد بهما : ايران ـ كونترا . . والعراق ـ جيت) . . سيكتشفون وجود أزمة سياسية في العالم العربي . . وأزمات اقتصادية واجتماعية ونفسية ايضا . . وسيعرفون ما هي جماعات القوى التي تتكلم باسم العالم العربي . . وما هي الأدوار الخفية التي لعبتها ؟ . . وعندما نتحدث عن القضيتين فاننا نتكلم في الواقع عن قلب العالم العربي . . فواحدة متصلة بالحرب العراقية ـ الإيرانية . . وأخرى متصلة الى حد كبير بما أدى الى حرب الخليج . . الامة العربية كلها كانت موجودة في هاتين االمعركتين ، سواء في هذا الصف أو ذاك . . ولذلك أصبحنا أمة فقدت طريقها الى المستقبل . . لأنه لا يمكن لامة أن تنهزم أغراضها الحقيقية بهذه الطريقة . . أصبحنا مثل ناس تسير في الظلام وتتخبط ، ولا أحد يريد أن يرفع العصابات السوداء من فوق العيون لنرى ما يحدث » (حموده ص ١٠٤) .

ان ما يهمنا هي هذه « النتيجة » التي أوصلنا اليها هيكل الذي ربما نتفّق معه في مبدأ ما يقول ، ولكننا نختلف عنه في ما يريد التوصّل اليه :

١ . هل باستطاعتك أن تفصل أحداث تاريخ الأمة العربية عند تسعينيات القرن العشرين

وما تتصف به طبيعتها من العناصر عن جذورها على امتداد تضاعيف القرن العشرين ؟

٢ . هل باستطاعتك ان تفصل بين أولئك العرب الذين اشتركوا في صناعة أحداث العقدين الأخيرين من القرن العشرين . . سواء كانوا من الذين نعرفهم واحدا واحدا ممن كانوا في السلطة . . أو من الذين كانت لهم ادوار خفية في إذكاء الحروب في المنطقة ؟

٣ . متى لم تكن الامة العربية منقسمة على نفسها سياسيا منذ خمسين سنة ؟ ومتى لم تعش الامة العربية وجود أزمات (وليست : أزمة) سياسية عدة على امتداد القرن العشرين ؟ ومتى لم تكن هنا أو هناك من الأرض العربية أزمات اقتصادية واجتماعية وثقافية ونفسية أيضا ؟

٤ . حبذا لو يعلمنا هيكل بجماعات القوى التي تتكلم بأسم العالم العربي ؟؟ ويعلمنا أيضا عن الأدوار الخفية التي لعبتها ؟ ألم يطالبنا هو بالإفصاح عن القدر الكبير من المعلومات ؟ وهل كانت أدوار تلك « الجماعات » في الداخل أم الخارج؟ أما « الأدوار الخفية » ، فهو يدرك تماما من هو الذي زرعها في تفكير العرب المعاصرين !

٥ . ومتى لم تكن الأمة العربية منقسمة على نفسها على امتداد الخمسين سنة الأخيرة ؟ ومتى لم الاصطفاف على هذا الجانب أو ذاك من حياة العرب المعاصرين ؟ ويدرك هيكل تماما من ذا الذي كان يعمل على ان يبقى الانقسام بين العرب المعاصرين ساري المفعول ؟ ومن ذا الذي بدأ بتقسيم (أو : تصنيف) العرب في خانات وخنادق ومعسكرات واتجاهات ؟

٦ . لقد جاء كلامك يا صاحبي هيكل متأخرا جدا جدا ، فليس من المعقول أن نأتي عند نهايات القرن العشرين ، كي نعترف بأننا قد « أصبحنا أمة فقدت طريقها الى المستقبل » !! فالامة فقدت طريقها منذ زمن بعيد ! فقدت طريقها منذ عهد التناحرات السياسية ، ومنذ السنوات العجاف التي لم يحقق فيه العرب الحد الأدنى من التفاهم على المصالح العربية العليا . . بعيدا عن المهاترات وفن الدعايات واذكاء الانقلابات . . وإشعال العواطف بالخطابات !!

العرب : من فاعل في التاريخ الى مفعول به في التاريخ

ثمة أفكار أخرى لابد من الوقوف عندها نظرا لكونها تنطلق من مرجعية ربما لا يدرك مؤلفنا هيكل طبيعتها حتى يومنا هذا . . انه يقول : « . . أنا أعرف ان وحدة العالم العربي اليوم صعبة جدا ، ولكن هذا لا يمنع إمكانية وجود مجموعة من الدول العربية قادرة على التفاهم وعلى التحرك . . مثلا . . مصر وسوريا والأردن وبعض دول الخليج والمغرب . . إننا الآن كعالم عربي لا نستطيع أن نتحدث بصوت واحد ولكن لابد أن يكون بيننا صوت عاقل يخاطب العالم الخارجي بما فيه كلينتون . . وهذا الصوت في خطابه يستطيع أن يستقطب مشاعر القبول في بقية العالم العربي . . بقايا في شيء من الاحترام . . أكثر شيء يقلقني جدا أن الدنيا تعاملنا وكأنها لا تحسب لنا أي حساب . . وهذه مهانة . . كل ما أتمناه هو أن نواجه كلينتون بشيء من الكرامة المستندة الى فكر عربي واحد . . مع تسليمي أن موقفا إجماعيا عربيا ، مستحيل في هذه الظروف . . لكن لابد من رأي عربي مركزي يتكلم ويعّبر عن شيء واضح . . وبدون ذلك سنكمل ما كان . . وسنقع في نفس المأساة التي وقعنا فيها مع الرؤساء السابقين في أمريكا .

أستطيع أن أقول بشكل أو بآخر أنه حتى كارتر وكامب ديفيد كنا ـ بطريقة أو بأخرى ـ نستعمل الامريكان في الضغط على أسرائيل . . أما بعد ذلك ، فقد دخلنا في عملية أن الآخرن يستعملوننا ، أي اننا تحولنا من فاعل في التاريخ الى مفعول به في التاريخ . . وهذه مأساة » (حمودة ص ١٠٦) .

ثمة نقاط خلاف وافتراق تبعدني كمواطن عربي عن هكذا أفكار يطلقها من يّدعي أنه ولد في مدرسة عبد الناصر ، وثمة ملاحظات لابد من تسجيلها في نقد هذه « الأفكار » التي أضّرت صاحبها ضررا بالغا ، وحبذا لو بقي الرجل يكتب سرديات من الماضي وذكريات لقاءاته مع المسؤولين السابقين العرب ، أقول :

من اجل كتلة عربية موحّدة !

١ . إن مطالبته معقولة جدا في إمكانية وجود تكتل عربي له مفاهيمه الموحدة ، وله القدرة على التحرك . . ولكن متى اجتمع العرب على كلمة سواء ، ومتى كانت مواقفهم

موحدة وسهلة ومستمرة على امتداد القرن العشرين . . حتى تغدو اليوم صعبة جدا ؟! لنفكر قليلا فيما نقول : أحزاب وحركات وقوى ومفكرين وتجارب ونخب وزعامات وحكومات ومؤتمرات واتفاقيات وخطوات عمل مشتركة . . الخ امتدت جميعها تسعى لوحدة العرب القومية ، أو تطمح لتحقيق ما يشابه ذلك ، وكلها باءت بالفشل . . فمتى كانت وحدة العرب واتفاقهم مسألة سهلة وفاعلة في الماضي حتى تغدو صعبة جـدا ومفعول بها اليوم ؟

استراتيجية الصوت الواحد !

٢ . **وهل استطاع العرب ان يتحدثوا بصوت واحد أيضا على امتداد عقود القرن العشرين ، حتى نكون اليوم مختلفين عن الامس القريب ؟** لماذا تريد يا صاحبي أن تصف لنا الامة العربية وكأن صوتاً واحداً كان لها . . وهي اليوم مفتقدة أياه ؟ أتذكر كيف دخل العرب حرب ٥ حزيران / يونيو ١٩٦٧ ؟ وكيف كانت حالتهم السياسية ممزقة ؟ وكيف وقفوا مع جمال عبد الناصر في تلك الايام الصعبة ؟ وكيف كانت حرب تشرين ـ اكتوبر / رمضان ١٩٧٣ مفاجأة للعرب قبل غيرهم كي يسارعوا للمساهمة الشريفة فيها ؟ ثم أسألك : هل وقفت الامة العربية وراء انور السادات وهو يوّقع معاهدة كامب ديفيد ؟ ألم ينفرد الرجل بقراره في صناعة السلام مع اسرائيل منذ عشرين سنة ؟

اجتماع الكلمة العربية !

٣ . لا أدري هل انك تغالط نفسك ام تغالط الاخرين ؟ ولا بد أن تدرك بأن عند كل جيل عربي عدة أصوات تتحدث في وقت واحد . . وعند كل جيل عدة زعامات تتسابق متفرقة ! وعند كل جيل ألوان عدة من الافتراقات ! **ربما اجتمعت الكلمة العربية في حدّها الأدنى مرة أو مرتين على امتداد القرن العشرين . .**

ولكن حتى أيام عصف الأزمات والتحديات والمخاطر الشديدة « تراهم جميعا وقلوبهم شتّى » ! وستبقى هكذا حالهم اذا ما كانت هناك افكار مختلة ووضعية غير متوازنة . . ورؤى لم تزل عقليتها تستمد مرجعياتها عن نزعات جهوية ومركزية وقطرية وعشائرية وقبلية ! وستبقى هكذا حالهم ما دام هناك من ينّظر لهم بصيغة « كنا نحن الأفضل . . » دون أن

يطالب بالديمقراطية العربية والشفافية السياسية وتجاوز أخطاء الماضي العقيم من خلال الاعتراف بها !

صوت عاقل !

٤ . ولكن ، نعم الرأي يا صاحبي في أن تدعوا إلى أن يكون بيننا صوت عاقل يخاطب العالم الخارجي ! ولكن لم تحدّد لنا مواصفات الصوت العاقل ، وحبذا لو كنت قد حددّت لنا شخصية قيادية معينة أو زعامة عربية معروفة . . تمتلك مثل هذا الصوت العاقل ؟ وقد اشترطت أن يكون باستطاعة هذا الصوت العاقل في خطابه أن يستقطب مشاعر القبول في بقية العالم العربي . . من هو بالله عليك . . ؟؟ وأنت الذي قلت لاحقا ، باستحالة إمكانية العرب اليوم في تحقيق موقف جماعي موّحد ! ولماذا خطابه فقط ؟ ألم تحسب أي حساب لمواقفه وسمعته ومكانته الدولية ؟ ولماذا استقطابه مشاعر القبول العربية ؟ الا تجد ان الحاجة تدعو ان يكون لكل زعيم عربي وزنه الدولي المؤثر وتاريخه الناصع في العلاقات الدولية؟ ولماذا تطالب برأي عربي مركزي يتكلم ؟ باسم من يتكلم ؟ باسم دول أم حكومات أم زعامات ؟ الا تعتقد بأن الحاجة باتت ماسة لتبلور تفكير عربي قيادي موّحد لا يعّبر الا عن المصالح العربية العليا للمجتمع العربي بأسره ! ان مجرد ان ينتخب الشعب الأفضل من رجالاته لقيادته ، فمن المحتم ان يتبلور مثل هذا الرأي العربي المُوحد الذي سيعمل من خلال تفكير عالي المستوى بالتعبير عن مصالح العرب في الحاضر والمستقبل .

فكر عربي واحد !

٥ . أرجع لأعيد وأكرر بأن شيئاً من الاحترام ، أو شيئاً من الكبرياء أو مواجهة الاخر بشيء من الكرامة المستندة الى فكر عربي واحد !! كلها صحيحة ، وان كان ثمة شيء من هذا أو ذاك ، فلم يكن مستندا الى فكر عربي واحد . . لاَ أبدا يا صاحبي ! اذ لم يكن لزعماء الامة العربية في أي يوم من ايام القرن العشرين أي فكر عربي واحد يجمعهم . . بل ان كان ثمة شيء من هذه أو تلك ، فقد كانت تستند مرحليا عند هذا أو ذاك الى عهد الصراع الدولي ايام الحرب الباردة او عهد الوفاق الدولي من خلال ثنائية الاستقطاب ! فلا يغرّنك أننا كنا نملك الكرامة . . فالمهانة السياسية كانت قد غابت لمرحلة تاريخية ثم عادت

من جديد الى قواعدها سالمة !

وعليه ، فلا غرابة يا هيكل في أن يستعملنا اليوم عدد من الآخرين ممثلي الاستقطاب الدولي وأعضاء التحالفات وإسرائيل والتكتلات . . وعليه أيضا أقول : بأن العرب ما كانوا يوما من الفاعلين في التاريخ الحديث والمعاصر حتى يغدوا من المفعول بهم مؤخرا . . فقد فعل بهم الكثير الكثير على امتداد القرن العشرين . . وهم يدركون بأن مأساتهم قديمة ومتجّذرة .

الغرب والإسلام: لعبة المصالح وصحة التفكير

لقد سئل هيكل عن معركة في الغرب تقوم اليوم بين الغرب والاسلام ! وهل الإسلام هو العدو الجديد الذي وجده الغرب بعد أن فقد عداوة الاتحاد السوفييتي ؟

ويجيب هيكل مترددا كثيرا في قبول هكذا مقولة ، ويشير الى دلائل عن تناقضات كثيرة بين العرب والغرب ، وهي تناقضات متجددة ، فالاسلام عنده ، يبدو في بعض الأحيان وكأنه العدو . . اذ يشكك في صحة هذه المقولة ! معتبرا أن التناقض أكثر بين العرب بالتحديد وبين الغرب ، اذ لا يجد مثله بين الغرب واندونيسيا أو مع الباكستان أو مع السعودية أو مع تركيا . . وكلها بلدان إسلامية ، اذ يظنها ليست مسألة الإسلام ، بل يقف عند أسباب كثيرة ، بعد أن يجد نفسه ميالا الى اعتبار التناقض تناقضا بين العرب والغرب ، ومنها : الجوار الجغرافي لأوروبا مع الشرق الأوسط ، والذي يسبب الاحتكاك السياسي والاقتصادي والثقافي والعسكري كما حدث أيام الإمبراطوريات الإسلامية الكبرى . . وان الحروب الصليبية لم تكن ضد الإسلام باعتباره دينا ، ولكنها كانت ضد الدولة ، والدول العربية الإسلامية باعتبارها حاجزا يحول دون تجارة الشرق . .

حلف اسلامي :

ويمضي بأسبابه أن أمريكا حتى وقت قريب كانت تغرينا بحلف إسلامي يدخل في مخططها لحصار الاتحاد السوفييتي سابقا . . ويستطرد : ربما أقول ان الإسلام يزعج الغرب بمقدار ما هو فاعل كهوية حضارية وإنسانية ومؤثر في المقاومة الوطنية من أجل الاستقلال

وفي الحركة التقدمية من أجل الوحدة . . وينتهي بقوله : « أستطيع ان أضيف انهم لا يمانعون إطلاقا اذا غرقنا نحن في بحر من التدين وذكرنا الآخرة وتركنا لهم الدنيا . . دنيانا بما فيها الموقع والموارد . هم مستعدون أن يتركونا سعداء بالنوم في الجوامع ، اذا نحن هجرنا العمل في المصانع . هذه هي الحقيقة باختصار » (حموده ص ١٠٧) .

أقول : لا ليست هذه هي الحقيقة يا هيكل لا باختصار ولا بإطناب . . اذ ليست هذه هي الحقيقة التي يراها الآخرون من المتضلعين بشؤون تاريخ العلاقات بين الأمم ، او المختصين الماهرين بالمجتمعات المدنية الحديثة . . وكم كنت أتمنى عليك أن تبتعد عن الجواب على هذا التساؤل ما دامت معرفتك وخبراتك ضعيفة في شؤون العالم الاسلامي . . فضلا عن ضعف قراءاتك واطلاعاتك ـ كما يبدو ـ عمّا هو حاصل في الغرب خلال السنوات العشر الاخيرة من اهتمام يفوق التصور بالاسلام وبالمسلمين سواء في عالمهم ، أم في كل انحاء العالم . . وهو اهتمام يتواصل عما كان ساري المفعول في الغرب منذ أزمان بعيدة . .

دعونا نجيب عن مثل هكذا « أطروحة » احتوت على عدة مغالطات جوهرية لا يمكن الاذعان لها أو السكوت عليها :

١ . انك لم تجد التناقض بين الغرب وبين بعض الدول التي ذكرتها : اندونيسيا والباكستان والسعودية وتركيا . . وغيرها كثير اذ يمكنني أن أضيف عدة دول آسيوية وأفريقية . . ليست لأن هذه الدول إسلامية وان الغرب لم يهمّه الاسلام ، بل لأن هذه الدول كانت ولم تزل تشعر (وبضمنها إيران حتى عام ١٩٧٩) بالتبعية ، وانها تؤمن بأنها اكتسبت شرعيتها السياسية الحديثة لا التاريخية القديمة عن الغرب في القرن العشرين !

٢ . صحيح أن العرب هم أقرب شعوب الجوار الشرق أوسطيين للأوربيين ، وان فرص احتكاكهم كانت كبيرة مع الغرب على امتداد عصور مختلفة . . مما وفر حالات صراع طويلة الامد ، ولكن يشهد معظم المؤرخين المختصين ، ان الصراع بين الاوربيين الغربيين وبين الاتراك العثمانيين كانت أذكى وأطول وأدمى مما حصل بين العرب والاوربيين على امتداد التواريخ الوسيطة والحديثة . . ومع كل هذا وذاك ، فان تركيا المعاصرة في القرن العشرين ، لم تجد عمقها ومركزيتها الا من خلال التحالف الاستراتيجي مع

الغرب . . علما بأن أحد أبرز الثوابت الكمالية يتضمن « التغريب » من ناحية والاستقلالية الوطنية من ناحية ثانية .

٣ . مع الاسف ، لم يفهم العرب طبيعة تكوين علاقاتهم لا التاريخية ولا المعاصرة وسيرورتها مع الغرب بدليل ان هيكل لم يدرك المعاني التاريخية التي يمكن استخلاصها من الحروب الصليبية التي عاشت طويلا بين العالم الاسلامي والغرب ، اذ لم يكن العرب لوحدهم محاربين للقوى الصليبية ، اذ كان هناك السلاجقة والاتابكة الزنكيين والاراتقة الاتراك وغيرهم . وهل يدرك هيكل بأن ما عاناه العرب بالذات من هجمات الغزاة الشرقيين الدامية لا تقل همجية وعنفا ودمارا من هجمات الغزاة الغربيين القاسية . .؟؟ وهل يدرك الرجل بأن جغرافية العرب لها مركزيتها واستراتيجيتها لكل من الطرفين : الشرق والغرب . . ؟؟ وكان على العرب أنفسهم ان يتفاهموا على صيغ مشتركة على امتداد القرن العشرين ، في كيفية التعامل ليس مع الغرب حسب ، بل مع كل أطراف العالم جمعاء .

٤ . إن أمريكا والغرب لا يهمهما وجود تحالف إسلامي أم توحد عربي ام تكتل إقليمي ام ما شابه ذلك من الصيغ والمشاريع التي عرفتها دول وشعوب أخرى متنوعة في العالم الواسع ، بقدر ما يهمهما سيرورة مصالحهما الاستراتيجية سواء كان ذلك في الشرق الاوسط بالذات . . أم في مناطق اخرى حيوية في العالم . . وان لعبة المصالح هي قبل كل شيىء في عرف النظام الدولي الذي تختطّه الدول الكبرى في كل قرن من قرون التاريخ الحديث ، وهذا ما عرفناه في متغيرات القرن التاسع عشر الكولينيالية (= العسكرية) ، ام أساليب القرن العشرين الامبريالية (= السياسية) . . او ما سيطبق من عولمة القرن الحادي والعشرين الكابيتالية (= الاقتصادية) . واذا كانت هناك شعوب ودول تدرك تلك اللعبة وتحاول التعامل معها بذكاء ، فان العرب أبعد ما يكونون عن ايجاد أي صيغ مشتركة وذكية للتعامل مع الغرب .

٥ . لا أظن ان باستطاعة هيكل أن يقرر اذا ما كان الغرب ضد الإسلام ام ضد المسلمين ـ كما يريد القول ـ فما كان في الغرب من مفاهيم عن الإسلام والمسلمين قبل تسعين

سنة هو غيره الذي ساد فيه من مفاهيم قبل ستين سنة . . وهو غيره الذي ساد من مفاهيم قبل ثلاثين سنة . . وهو غيره الذي يسود اليوم من مفاهيم ! لابد من رؤية حالة التغيرات التي أصابت التفكير الغربي اليوم إزاء الإسلام والمسلمين وخصوصا بعد عام ١٩٧٩ .

وهل يدرك الرجل بأن الغرب يفرّق اليوم بين اسلامين أثنين ومسلمين من نوعين أثنين : أولهما : الإسلام العنيف المتشدد وثانيهما : الإسلام المرن المنفتح . . ومسلمين متشددين ومسلمين شفافين ! وهل هذا هو الواقع في العالم الإسلامي اليوم أم لا ؟ وما نسبة ذلك عند العرب ان استطاع هيكل ان يفهم طبيعة متغيرات المجتمع العربي عند نهايات القرن العشرين . . ويكف عن اطلاق الاحكام كما لو انه يعيش في رحاب الخمسينيات والستينيات !

٦ . وأخيرا ، لابد من القول ، بأن العرب لم يعرفوا فن التعامل مع الغرب سياسيا بشكل خاص ، خصوصا وأنهم يواجهون على امتداد خمسين سنة تحدي إسرائيل ، وان أسلوب تعاملهم كان مليئا بالتناقضات . . فكم كان من الأجدى لهم ان يتعاملوا مع تحديات الغرب بطريقة واقعية بدل أسلوب الشعارات والادانات الذي لم يجد نفعا مع الأقوى . . لقد نجحت دول عدة في العالم الإسلامي بعد التخلص من مأزق الاستعمار الأوربي الغربي ان تتعامل بذكاء مع صيغ النظام الدولي الذي ساد في القرن العشرين . . في حين انقسم العرب انقسامات عدة في التعامل مع العلاقة مع الغرب وربط مصيرها بما كان سائدا من صراع القوى الكبرى والحرب الباردة . . ولما انتهى امر العالم ضمن الاستقطاب الأحادي اليوم غدا العرب ضحية ذلك « التعامل » وذاك « الارتباط » . . وهذا ما جنى على العرب عند نهايات القرن العشرين ، وادخلهم في نفق من المشكلات والحروب الأهلية والحدودية والإقليمية التي لا حصر لها . . مضيّعين بذلك مواردهم وخيراتهم بايديهم هم أنفسهم . . دون أي شعور بالمسؤولية التاريخية والمصيرية .

هيكل وأحداث أيران:

إن دراسة إيران في تاريخها المعاصر مهمة صعبة جداً ، اذ تُشكّل مجموعة درامية

متشابكة من الاحداث التي لا يقتصر على الدولة أمرها ، بل على المجتمع ايضا . ولقد كتب محمد حسنين هيكل كتابين عن ايران ، أولهما نشره في مطلع شبابه عندما كان مراسلا صحفيا تحدث فيه عن ثورة مصدق في تجربة تأميم نفط ايران الفاشلة وسماه : **ايران فوق بركان** ، ونشره بالعربية عام ١٩٥١ ، اما ثانيهما ، فقد خصّصه هيكل عن قصة الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ وسّماه : **مدافع آية الله : قصة ايران والثورة** ، ونشره بالعربية عام ١٩٨٢ . وثمة ملاحظات نقدية أود تسجيلها على الكتاب الأخير الذي لا يختلف في سماته ومواصفات مضمونه عن النهج الذي تميّز به مؤلفه :

١ . لقد أدخل المؤلف نفسه في مشكلات تاريخية في تاريخ الإسلام السياسي ، وجاءنا بسرديات متنوعة عن أحداث صدر الإسلام في ما يخص مشاكل الخلافة وحكومة عمر وعثمان وبيعة علي ومعاوية بن أبي سفيان وكيف توّصل الى انشطار العالم الإسلامي نصفين . . ويعلق قائلا : « كان من الضروري أن أعطي موجزا لهذه الأيام الأولى للإسلام ، لأنه من المستحيل على أي فرد أن يدرك ما يحدث الان ، الا اذا فهم ما حدث آنذاك ـ ولو الى حد ما ـ . . » (مدافع آية الله ، ص ١٠٨) ومع الأسف ، جاءت مسردات المؤلف التاريخية ضعيفة كونها نقلها من أطراف متضادة مع بعضها .

٢ . ان المؤلف في كتابه هذا على غرار بقية أعماله ، ضعيف في سنده . . ففيه أخبار منقولة من صحف ، وفيه أخبار مأخوذة شفاهه ، وفيه وكالعادة مقابلات المؤلف مع شاه ايران محمد رضا بهلوي وجملة من تصريحاته التي نشرها هيكل بعد الإطاحة بالشاه ، وكيف كانت ثمة مقابلات سابقة له مع الشاه منذ تجربة تأميم مصدق نفط ايران . . وتتضمن المقابلات معلومات وآراء وأسراراً وتصريحات قالها الشاه عن التسلح وعن البحرين وعن السياسة الدفاعية وعن عمان وثورة ظفار وعن كردستان والعراق وإسرائيل وعن البترول وعن الخليج وعن السياسة الداخلية . . الخ من الأمور . وإنني أدعو الى مقارنة نصوص ما سجله هيكل في كتابه هذا مع نسخة من الحوار نشرت بالفارسية في صحيفة اطلاعات ايام الشاه ، فثمة اختلافات واسعة بين النص الأصلي المختصر ، وبين ما نشره هيكل بعد قيام الجمهورية الإسلامية في ايران ! فضلا عن لقاءات هيكل

مع الأمام آية الله الخميني . .

٣ . يعّرف المؤلف هيكل مفهوم « الثورة » في مقدمة كتابه تعريفات مدهشة ، ولا يعطي رأيه بالثورة الإيرانية عندما سئل عدة مرات عن رأيه فيها ، لأنه يقول : « ومنذ ذاع أمر اهتمامي بـ « الدراما » الإيرانية اثر ما نشر لي في الصحف العربية والعالمية ، سئلت كثيرا ، وفي مراحل متعددة ومتتابعة . . » (مدافع آية الله ، ص ٩) وعندما يجيب ، فهو يذهب مذاهب شتى عن قوانين الثورة والثورة العلمية وأصناف الثورات . . وكأن غيره يكتب الصفحات ويقوم هو بنشرها !

٤ . دعونا نتوقف قليلا عند معلومة خطيرة ذكرها المؤلف في ثنايا كتابه : « مدافع آية الله : قصة ايران والثورة » ، والتي لا يمكن ان يوافقه عليها أبدا العراقيون المختصون من المؤرخين والمعنيين والعارفين بشؤون العراق المعاصر ، وان مجرد ورودها بهذا الشكل من قبل هيكل ، تجعلنا نشكك في قيمة وأمانة كل المعلومات التاريخية التي ساقها لنا في جميع أعماله قاطبة . . بعد ان خبا زمن الاثارة في عصر المعلومات !

ادعاءات هيكل بالاطلاع على وثائق حلف بغداد (السرية):

يقول : « وعندما نشبت الثورة في العراق عام ١٩٥٨ تم الاستيلاء على كل الوثائق التي وجدت في رئاسة حلف بغداد وأرسلت الى القاهرة في طائرة خاصة ، كان ذلك في الأيام الأولى للثورة ، عندما كان قائدها اللواء عبد الكريم قاسم شديد الإعجاب بالرئيس جمال عبد الناصر ، وقبل أن يدبّ النزاع بينهما . وكانت ايران عضوا أساسيا في حلف بغداد الذي كنت أهاجمه على صفحات الأهرام . **وعندما أتيح لي الاطلاع على وثائق الحلف السرية ، سنحت لي الفرصة لكي أراجع مدى صحة افتراضاتي عّما كان يدور في اجتماعات الحلف** . وكأي تجربة ممتعة . كما أنني تمكنت أيضا فيما بعد من أن أقارن بين المذكرات التي كنت أدونها عندما كنت مراسلا في ايران من جهة ، وبين الحقائق التي تكشّفت فيما بعد من خلال نشر مجموعات ضخمة من الوثائق الأمريكية . **كل ذلك ساعدني ايضا على أن أتأمل جذور الدراما التي وصلت ذروتها في الأشهر الاولى من عام ١٩٧٩**» (مدافع آية الله ، ص ٨١) .

أقــول :

١ . أن عـبـد الكريم قـاسم زعـيم حـركـة ١٤ تموز / يوليـو ١٩٥٨ في العـراق لـم يكن شـديد الإعجاب بجمال عبد الناصر أبدا لا قبل إعلان ثورته ولا بعدها !! لقد كان قاسم الذي قام بالاشتراك مع عبد السلام عارف بتفجير ثورة ١٤ تموز / يوليو ١٩٥٨ العسكرية ضد نظام الحكم الملكي في العراق . . من أشد أعداء عبد الناصر في حين كان زميله عبد السلام عارف من أشد المعجبين بعبد الناصر في بداية الامر . . وكان هذا سببا كافيا في تفجّر الخلاف بين الرجلين بعد فترة وجيزة من انقلاب النظام !

٢ . لم يرسل العراقيون بعد قيام الثورة أية وثائق سرية او غير سرية تابعة لحلف بغداد الى القاهرة على متن طائرة خاصة مطلقا ، ولماذا يرسل العراقيون وثائقهم الى عبد الناصر ؟ ولكن ثمة رواية تقول بأن السفير المصري ببغداد أشترك مع بعض الصحافيين المصريين الذين وصلوا من القاهرة بالدخول الى القصور الملكية العراقية والتشفّي بحالات السلب والنهب التي كانت تتعرض لها !

٣ . بأية صفة أطّلع محمد حسـنين هيكل على وثائق حلف بغداد السرية بالقاهرة عام ١٩٥٨ ؟ وما هي المعلومات السرية التي جعلت هيكل يجدها تجربة ممتعة ؟ وما هي أدلة هيكل على ذلك ؟ وما الذي جاء به هيكل من مواد وثائقية سرية مستلهمة من وثائق حلف بغداد السرية . . حتى نقول بأنه قد أطّلع عليها ؟!

٤ . ان مجرد ذكر مثل هكذا ادعاءات لا أساس لها من الصحة أبدا . . تجعلنا نحن المؤرخين سواء كنا عربا أم أجانب لا نأمن من الجانب الذي يقف عنده هيكل . . كما ولا نصدّق مطلقا ليس ما ذكره هنا فحسب ، بل كل ما أتى به في أعماله كاملة ـ مع الاسف ـ !

٥ . ان مجرد ذكر هكذا معلومات عن اطلاع هيكل على هكذا وثائق سرية تابعة لحلف بغداد ، معناه إشعار القارئ بتبرير كل ما قامت به بعض الأطراف ، وهيكل منها ، ضد كل من العراق وايران . . بدليل « مدى صحة افتراضاتي » ـ كما ذكر هيكل ـ . أي يريدون القول بتبرير كل سياساتهم ووصفها بأنها كانت صحيحة !!

٦ . أقول بأنني لما حرصت على هذا الجانب وهذه المعلومة والتأكد منها من خلال البعض من رجالات العراق الذين عاصروا تلك الأحداث ، وكانوا على قرب شديد منها ، أعلموني بأن ثمة صحافيين مصريين وصلوا بغداد بعد يومين من أحداث ١٤ تموز / يوليو ١٩٥٨ الدامية ، وراحوا يدخلون رفقة السفير المصري ببغداد آنذاك في كل المرافق العليا في الدولة العراقية بتخويل من عبد السلام عارف الذي كان في حالة هستيريا لا توصف ، وقد حملوا معهم ما خفَّ حمله وغلا ثمنه ومنها أوراق وملّفات وبعض الأشياء الثمينة ، ورجعوا مسرعين الى القاهرة على متن طائرتهم ! ونستطرد قائلين : بأن الاخوة المصريين ان كانوا قد حملوا معهم بعض المأثورات والوثائق العراقية ، فمن المؤكد أنها اليوم في مبنى دائرة هيئة المخابرات المصرية . . ولابد للدولة المصرية من إرجاعها الى بغداد لأنها تخّص العراق والعراقيين الذين افتقد أمن بلادهم في الأيام الأولى من أحداث ١٤ تموز / يوليو ١٩٥٨ القاسية ! ولكن من المؤكد انها لم تكن وثائق حلف بغداد ، كما سنعلم ذلك في ما بعد .

٧ . وأخيرا ، أقول بأن تهويل هيكل لوثائق حلف بغداد والتي أسّماها مبالغة بـ « السرية » ، وكل الأمر لا يحتاج الى هكذا تهويلات ، اذ لم تكن هناك أية أسرار لم تكشف ! او أي قضايا مبهمة لم تعرف ! فإذا احتوت تلك « الوثائق » على أسرار خطيرة ، وقد حملتها طائرة خاصة الى جمال عبد الناصر ، فأين هي الآن ؟ ولماذا لم تكشف عن تلك « الأسرار » يا هيكل في أكثر من كتاب كما عودت الناس على سماع روايات محبوكة باسم الوثائق السرية والخطيرة . . ؟؟ خصوصا وانك قد وجدتها تجربة ممتعة في اطلاعك على أسرار مهمة وخطيرة في تاريخنا العربي المعاصر . .

رابعا : مكاشفات نقدية في التفكير

هيكل والمشروع القومي المصري :

جيل الثورة القومية والنضال وحركة التحرر الوطني :

عندما حدّدت معنى الأجيال وفلسفة التكوين التاريخي في ثقافتنا العربية ، وتصنيفاتها عربيا في تاريخنا العربي وتطور المعرفة الإسلامية ، ووصلت بها حتى نهاية القرن الحادي والعشرين ، أشرت الى أن القرن العشرين أمتد سقف مساحته الزمنية ثلاثة أجيال ضمن عصر النهضة العربية الحديثة التي يستغرق عمره ثلاثمائة سنة (أو ثلاثة قرون كاملة) ، بدأت نقطة انطلاقه مع ثورة القاهرة الثانية التي قام بها المصريون الاصلاء لا المماليك الدخلاء ضد الفرنسيين عام ١٧٩٩م ، وسينتهي هذا العصر ـ كما أتأمل ـ مع نهايات القرن الحادي والعشرين ، أي عام ٢٠٠٩م ، وان هذا العصر النهضوي الحديث تشكّل بنيته التاريخية عشرة أجيال ، يمتد السقف الزمني لكل جيل منها (٣٠) سنة ، وكل جيل نما وترعرع في حاضنة سابقة حسب مبدأ الابوة والبنوة ، وهو المبدأ الذي يرفضه كل جيل جديد ، ويتهم الجيل السابق بشتى النعوت والتهم والصفات السيئة الا النادر من الناس يبقى على وفائه واحترامه لمن تربّى في رعايته !

البنية النهضوية العربية : عشرة اجيال على امتداد العصر الحديث

لقد افترضت التقسيمات التالية التي تثبت تراكيب تواريخنا الحديثة والمعاصرة بنيويا مدى صحّتها ، وهي :

١ . جيل التأسيس النهضوي في مصر محمد علي وتركيا العثمانية ١٧٩٩ ـ ١٨٢٩م .

٢ . جيل التنظيمات العثمانية في عموم الدولة العثمانية ١٨٢٩ ـ ١٨٥٩م .

٣ . جيل اليقظة الدستورية : العثمانيون والخديويون والحسينيون ١٨٥٩ ـ ١٨٨٩م .

٤ . جيل الاستنارة الفكرية في مصر وبلاد الشام والعراق ١٨٨٩ ـ ١٩١٩م .

٥ . جيل الكيانات الوطنية والاستقلالية والليبرالية السياسية ١٩١٩ - ١٩٤٩م .

٦ . جيل الثورة القومية والنضال وحركة التحرر الوطني ١٩٤٩ - ١٩٧٩م .

٧ . جيل الثورة الدينية وحركات البحث عن الذات الماضوية ١٩٧٩ - ٢٠٠٩م .

٨ . جيل المستقبل القريب (الاول في القرن الحادي والعشرين) ٢٠٠٩ - ٢٠٣٩م .

٩ . جيل ما بعد القادم (الثاني في القرن الحادي والعشرين) ٢٠٣٩ - ٢٠٦٩م .

١٠ . الجيل الأخير (الثالث في القرن الحادي والعشرين) ٢٠٦٩ - ٢٠٩٩م .

ضمن هكذا تقسيمات أوضحتها بالتفصيل في كتابي الموسوم : « المجايلة التاريخية : فلسفة التكوين التاريخي . . »* يتضح أمامنا جليًا موقع جيل الثورة القومية والنضال السياسي وحركة التحرر الوطني الذي أستغرق ٣٠ سنة منذ بعيد الحرب العالمية الثانية وصولا إلى النقلة التاريخية التي مثّلتها أحداث الثورة الإسلامية في ايران عام ١٩٧٩م ، والتي قادت الى تشكيل توجهات الجيل المعاصر الذي بدأ مع مؤثرات ١٩٧٩ وسيمتد بنا سقفه الزمني حتى عام ٢٠٠٩ م . هذا « الجيل » الذي تربّى في أحضان جيل الثورة القومية وهو الذي مثّلته زعامات ثورية عربية وأحزاب وتيارات ورجالات وأفكار ومواقف ونضالات وانقلابات وصراعات وانقسامات وانشقاقات ووقائع مريرة . . حتى يمكننا أن نسّميه بجيل التطلعات الى شعارات الوحدة والحرية والاشتراكية وغيرها من الشعارات التي مثلها الزعيم جمال عبد الناصر وقوى سياسية نخبوية وجماهيرية من حزب البعث العربي الاشتراكي وحركة القوميين العرب وغيرهم من الأحزاب والقوى التقدمية والجماعات القومية التي آمنت فكريا وعقائديا بتلك « الشعارات » باعتبارها مبادئ أساسية . . ولكنها لم تتحقق حتى يومنا هذا !

جيل الثورة القومية العربية: لم يكن يعرف ماذا يريد !

دعونا الآن بعد هذه « المقدمة » ان نحلل رؤية محمد حسنين هيكل وتعريفه جيل الثورة القومية ، الذي أسماه بـ « جيل جمال عبد الناصر » ، يقول :

* راجع التفصيلات في : سيار الجميل ، المجايلة التاريخية : فلسفة التكوين التاريخي (نظرية رؤيوية في المعرفة العربية الاسلامية) ، ط١ (بيروت/عمان : الاهلية للنشر والتوزيع ، ١٩٩٩) ، ص ٤٣٦-٤٥١ .

« ان جو السويس كان هو الاختبار الذي نجح ونضج فيه جيل الخمسينيات في العالم العربي ، وهو الجيل الذي تحّمل على أكتافه مسؤولية الانتقال العظيم من عصر الاستعمار والسيطرة الأجنبية على الأقدار العربية الى عصر الاستقلال والإرادة العربية الحرة والمتحررة ، ثم هو الجيل الذي رأى الإشارات والإيماءات الاجتماعية في قضية الاستقلال الوطني فراح يتابعها ، ونجح أحيانا ولم ينجح في أحيان أخرى .

كان هذا هو جيل جمال عبد الناصر وأحمد بن بيلا وهواري بومدين وعبد السلام عارف وجماعات الضباط الوحدويين في سوريا والطلائع الملتزمة من حزب البعث العربي الاشتراكي في منطقة الهلال الخصيب ، وهو جيل كتب عليه أن يكون جسرا تمشي ـ وتدوس أحيانا – عليه أمة بأسرها من مرحلة الى مرحلة في النضال .

كان هذا هو الجيل الذي فتح الطريق تحت شعارات « الحرية والاشتراكية والوحدة » و « من المحيط إلى الخليج » و « بترول العرب للعرب » و « نصادق من يصادقنا ونعادي من يعادينا » و « نحن جزء من حركة الثورة الوطنية في العالم» إلى آخره إلى آخره . وربما كان أقسى نقد يمكن توجيهه الى هذا الجيل أنه « كان يعرف ما لا يريد بوضوح ، ولكنه لم يكن يعرف ماذا يريد بنفس هذا الوضوح » وهذا صحيح الى حد ما ، ولكنه لا ينقص من أهمية نضال هذا الجيل ولا من شرف تضحياته » (**قصة السويس ١٠ ـ ١١**) . انتهى النص !

تحليل النص ونقده :

عندما نريد تحليل « النص » في أعلاه ، فنحن لا نسعى لمحاكمة أبناء الجيل الماضي الذي تّميز فعلا بثورته القومية وتطلعاته الرومانسية غير العملية في الوحدة والحرية والاشتراكية ، ولكننا نتوقّف لكي نقّيم أفكار صاحب « النص » الذي يعتبر خطابه – كما سنجد – معبّراً عن روح المرحلة التاريخية السابقة وروح الجيل الذي تحّدث عنه :

١ . أن الرؤية النقدية في خطاب هيكل ومقول قوله تعلمنا عن نزعته التي تمّثل حتى يومنا هذا نزعة ذلك « الجيل » وتطلعاته التي لم تكن واقعية أبدا . . ربما هي رؤية نقدية تخالفه في ما أراد قوله اولا ومجال تحقيق قوله ثانيا . . وعليه ، فان هناك رؤيته المؤدلجة التي انتقد فيها على استحياء تلك الرؤية التاريخية التي قالت بالمعاني الحقيقية في

وصفها أبناء جيل الثورة القومية .

٢ . لا يمكن فصل مجهودات أبناء هذا « الجيل » على مستوى الزعامات أو مستوى النخب أو الفئات او حتى الجماهير . . ولا يمكن قطعها أو تأسيس حدود لها عمّا سبقها من الاجيال ، ذلك لأن الجيل الليبرالي الذي تأسست الكيانات الوطنية على يديه هو الجيل الذي انتجها كلها ، اذ تربّى جيل الثورة القومية على أيدي أبناء الجيل السابق الذين وصفوا بالرجعية والتخلف والعفونة ورجال العهد المباد ، وهي نفس الأوصاف التي كان ابناء الجيل الليبرالي العربي أنفسهم قد وصموا بها ابناء الجيل الذي سبقهم على عهد عبد الحميد الثاني !

أدلجة مقصودة :

٣ . وسواء أتفق معه أو اختلف عنه . . فلابد للمؤلف وهو يكتب تاريخا ان يتجرّد من أدلجة أبناء جيله ، ويخضع تجربته وجيله للنقد لا لتوزيع الأمجاد ! وعليه أيضا أن يبرز دور كل من الجيلين : الجيل الليبرالي الذي تربى في كنفه ويحكي عن إيجابياته وسلبياته معا ، كما عليه أن يدرك المفاهيم التي تسود اليوم عند ابناء الجيل الحالي الذي تربّى على الشعارات لا المضامين ، وعلى الأوهام لا الحقائق . نعم ، عليه أن يفعل ذلك اذا كان مؤرخا حقيقيا أصيلا ، وبعكسه ، فسوف يبقى هيكل يحكي مفاخرات وأمجاد سوف لن تلتفت اليها الأجيال القادمة التي ستحمل تفكيرا جديدا ، اذ انها على الأقل ستعرف ماذا تريد وبكل وضوح .

٤ . صحيح ان هذا « الجيل » كان جسرا داست عليه أمة بأسرها - كما تقول - ، ولكن من دون أن تذكر الأسباب . . فبقدر ما حقق هذا « الجيل » نجاحات وانتصارات في مكان الا أنه وقع في هزائم وانكسارات لم تزل الأمة العربية تعاني من آثارها . . وارتكب أخطاء وخطايا لابد من الاعتراف بها ! وحسنا ذكرت أسم عبد السلام عارف أحد أبرز ممثلي ذلك الجيل ، وأمثاله العشرات من الرموز التي أضرت تواريخها بمسيرة حياتنا العربية كثيرا ! وان الأجيال القادمة سوف تقيّم منتجات جيل الثورة القومية بشكل كامل تقييما نقديا وإشكاليا ، وهي لن تحابى فيه اغتراباته ، ولا تتغاضى عن معضلاته تحت حجج

ومسمّيات ومبررات ومسوّغات عدة . . ولابد للاجيال الجديدة في القرن الحادي والعشرين ان تدرك طبيعة ما قدمه كل « جيل » في القرن العشرين من أجل أن تستفيد في بناء تاريخها القادم .

٥ . لا يكفي أن يوافق في نهاية « النص » على عبارة نقدية ذكرها أحدهم في تقويم أعمال هذا « الجيل » ومنتجاته فقط ، اذ لابد من إخضاع مضامين المرحلة التاريخية جمعاء للنقد والمكاشفة والرؤية الواضحة وتحديد الأخطاء المرتكبة . . مقاربة للموضوعية والواقعية والأمانة التاريخية . . فليس بصحيح أن تقول معمما القول انه جيل كان فعلا لا يعرف ما لا يريد بوضوح ! وليس بصحيح أنه جيل لم يكن فعلا يعرف ماذا يريد ! ذلك لأن المجتمع العربي على امتداد القرن العشرين كان يتقدم دوما الى الأمام ، وكان له في كل جيل كفاءات ورجالات أصحاب قدرات ومواهب وابداعات . . ولكن المشكلة تكمن في الساسة والذين نصّبوا أنفسهم رؤساء وقادة وزعماء ومديرين ووزراء . . في دول ومجتمعات اغتيلت الديمقراطية فيها بواسطة العسكر وباسم الجماهير الغاضبة ! وعليه ، فان المسألة التاريخية لجيل الثورة القومية بحاجة الى توضيح لا الى تعمية ، وبحاجة الى نقدات علمية ومعرفية جريئة لا الى تمجيدات ومفاخرات وبطولات ، ذلك لأن لكل جيل ـ كما هي رؤيتي التاريخية ـ تضحياته ومساهماته وانجازاته من طرف ، وله انكساراته وهزائمه وخطاياه من طرف آخر .

هيكل والمشروع القومي ـ المصري :

في عقد الثمانينيات كانت للمؤلف أفكاره والتي أجده قد غّيرها قليلا في عقد التسعينيات من القرن العشرين ، وهو يتحدث عن ذاك الذي أسماه بـ «المشروع القومي» و « المشروع القومي المصري» . . وسأتوقف مناقشا هيكل في بعض ما ساقه لنا حول هذا «الموضوع » الحيوي الذي أعتقد انه قد وقع من خلاله فيه بعدة أخطاء لا يحسد عليها ، خصوصا وان هكذا « موضوع » بحاجة الى عدة قراءات موّسعة ومقارنة طالما يتعلق بقضايا النهضة على امتداد قرنين من تاريخنا الحديث والمعاصر . . كما سنجد الرجل يعالج هذا «الموضوع» من وجهة نظر قومية وعلى استحياء كامل في الثمانينيات ، ولكنه

سيعود الى نزعته القطرية المفعمة بالعزلة والمصلحة المركـزية في التسعينيات . . فماذا نجد ؟

أبطال مصر في العصر الحديث :

يقول هيكل : « وقد أقول ـ وهـذا اجتهاد شخصي أن أبطـال مصر في العصر الحديث ستة ، ولا أظنهم أكثر بالمعايير المتعارف عليها للبطولة ، « الانسان » ، « اللحظة » أمام صراع المقادير وعند نقاط التحول الكبرى :

محمد علي وجمال عبد الناصر : في الصراع لطلب الاستقلال والتقدم .

عرابي ومصطفى كامل : في الصراع من أجل التنّبه واليقظة الوطنية .

الطهطاوي ومحمد عبده : في الصراع لاعلاء سلطان العقل والفكر .

وكلهم . . كلهم على نحو أو آخر تعّرضوا لحروب ضروس ، وكان جمال عبد الناصر أكثرهم تعرّضا لعدة أسباب تظهر وتتجلّى خصوصا بالمقارنة مع نظيره السياسي (محمد علي)» (بين الصحافة والسياسة ، ص ١٠) .

نقد مضمون النص:

١ / لابدّ أن نسأل هيكل : لماذا تحذف لقب الباشوية دائما عن محمد علي باشا الذي عرف هكذا على صفحات التاريخ ، اذ تقصر تسميته بـ « محمد علي » فقط . . واستخدامك للاسم واللقب كاملا ليس عيبا ابدا ، بل النقص كل النقص اذا ما نظر المؤرخ الى الماضي بعين الحاضر ، والخطأ كل الخطأ ان تكتب التاريخ بصورة مؤدلجة . . علما بأننا نسمع استخدام لقب « الباشا » و « البيه » في كل لحظة تمر لأن هكذا ألقاب التصقت بذاكرة اللاوعي الجمعي عند الناس . . فلا حرج أن نشّوه التاريخ تحت مظلة حجج واهية !

٢ / لابد أن نسأل : لماذا أخترت هذه الأسماء الستة ـ وذكرتها على استحياء تام مؤكدا على أنه اجتهاد شخصي ـ من أبطال مصر في العصر الحديث ؟ ألا تعتقد أنك باختياراتك هذه قد جانبت الصواب ؟ الا يوجد غير هذه الأسماء على امتداد قرنين من حياة مصر الحديثة باستثناء محمد علي باشا وجمال عبد الناصر ؟ أتعتقد ان بقية الأسماء الأربعة هي

من وزن هذين الزعيمين الرائدين الاثنين ؟ ونسأل أيضا : ما علاقة الاستقلال الوطني بمحمد علي باشا ؟؟ وان مفهوم «الوطنية» لم يتبلور بعد !

٣ / وعلينا أن نستفهم أيضا : لماذا اخترت خمسة من الأبطال المصريين من الذين برزوا في القرن التاسع عشر بشكل أو بآخر . . وأقتصرت على ذكر بطل واحد هو عبد الناصر من القرن العشرين ؟ لماذا أستبعدت سعد زغلول بطل ثورة مصر الوطنية عام ١٩١٩ والذي اعتبر عنوان جيل بالكامل ورمز وطن حي على امتداد نصف قرن من الزمن المعاصر ؟

٤ / واذا كنت قد أخترت الطهطاوي ومحمد عبده كاثنين بارزين من الكتاب المصريين المصلحين ، واعتبرتهما بطلين رائدين في موضوع اعلاء سلطان العقل والفكر . . فلابد أن يسألك عدد من المختصين والمفكرين العرب المحايدين والمدافعين بقوة عن المعرفة العربية : لماذا تناسيت ريادة طه حسين في القرن العشرين والذي عّد بحق عميدا للأدب العربي ، ليس لركام كتاباته ، بل لنوعيتها أولا ، ولأنه أثار زوابع خطيرة وردود فعل واسعة ، بل وتّعرض أكثر من غيره لاكثر من حرب ضروس !

ان هيكل لا ينفك عن عاطفته وأهوائه ونزعاته سواء كانت أيديولوجية أم سياسية وهو يكتب بعض الآراء ويوزع بعض الأحكام ، ويطلق بعض التقييمات عن مراحل تاريخية صعبة ومعقدة ومثقلة بالأحداث والرجال والأنشطة والانتاجات . . وكان عليه أن ينقطع عن تفكيره الشعاراتي السياسي الذي ألفه منذ أربعين سنة ، فالكل أصبحوا في عداد التاريخ . . ولا يمكن لسعد زغلول أو طه حسين او لغيرهما أن يعودا من جديد ليقفوا حجر عثرة في سبيل التقدم . . كما لا بد أن يدرك المؤلف وأضرابه بأن مصر في القرن العشرين قد أنجبت عددا كبيرا من الريادات السياسية والكفاءات الإبداعية ونسوة ورجالات في النهضة والتقدم . . ولا يمكننا بعد هذا العمر الطويل أن تنشر كتابات مسطّحة وهي تغمط حقوقهم التاريخية ، بسبب خلافات سياسية تافهة أو مواقف شخصية سالبة أو شعارات ايديولوجية بالية !

مقارنة هيكل بين محمد علي باشا وجمال عبد الناصر :

لقد كتب المؤلف هيكل مقارنة بين الزعيمين اللذين حكما مصر : محمد علي باشا في

النصف الاول من القرن التاسع عشر، وجمال عبد الناصر في النصف الثاني من القرن العشرين . . وأعتقد انها مقارنة سريعة لا يمكن قبولها تاريخيا خصوصا وان هيكل كما يبدو غير مضطلع او حتى مّطلع على تاريخ عهد محمد علي باشـا وتاريخ الخديوات من بعده . . دعونا نتأمل في مقارنته التي لا أعرف لماذا أقحمها في مقدمة كتاب له يتضمن ذكرياته «بين الصحافة والسياسة» ؟ ويمكننا أن نستوعب من خلال مقارنته هذه ، كيف يفكّر هيكل تاريخيا بشؤون مصر الحديثة :

١. مصر على عهد زعيمين: الأرض.. الجذور.. الحدود

يقول هيكل : بأن روابط الانتماء العضوي بالارض كانت أقوى في حالة جمال عبد الناصر ، اذ تمكنت الجذور في الأعماق . . ونعّلق نحن بكلمة : نعم ، لقد كان جمال عبد الناصر ابن مصر الحقيقي ووريث عروبتها . . وكان مخلصا لتلك الأرض الطيبة ، وكانت له إجراءاته في إصلاحها . . وتقترب إصلاحاته من تلك التي أقرّها محمد علي باشا بمصادرته الأراضي الزراعية وتوزيعها على الفلاحين المصريين . لقد وصفت تجربة محمد علي باشا كونها متقدمة على عصره ، وذلك بتطبيقه عدة مبادئ اشتراكية على الأرض والفلاحين . .

يقول هيكل مستطردا بأن حدود جمال عبد الناصر كانت أكبر من حدود محمد علي . . وكتب حرفيا يقول : « ففي حين ان المشروع القومي لمحمد علي لم يتجاوز مصر والشام ومحاولة بناء دولة عصرية تقف على قدم المساواة مع دولة الخلافة في استانبول وتشد أزرها أو ترث تركتها ؟ فان المشروع القومي لجمال عبد الناصر كان يمتد من الخليج الى المحيط ثم أصداؤه الى آسيا وأفريقيا توقظ وتحرك » . (بين الصحافة والسياسة ، ص ١٠ – ١١) .

هنا علينا محاورة هيكل معرفيا من أجل إيضاح الحقائق التاريخية : ذلك ان حدود دولة جمال عبد الناصر الفعلية لم تكن أكبر من حدود دولة محمد علي باشا بأي حال من الأحوال . . وأن محمد علي باشا لم يكن صاحب أي مشروع قومي ـ كما يريد البعض أن يصف امتداد دولته الإقليمية ـ على عكس جمال عبد الناصر الذي كان صاحب مشروع قومي . لقد كان محمد علي باشا قد أمتد فعليا من خلال جيوشه الى شبه الجزيرة العربية ،

وأخضع نجد والحجاز ووصلت قواته الى مناطق الخليج العربي . . كما حكم بلاد الشام من خلال (ابنه) ابراهيم باشا لمدة تسع سنوات ١٨٣١ ـ ١٨٤٠م ، كما أمتد جيشه الى السودان . . وكان يفكّر بالجزائر غربا والعراق شرقا وأعماق افريقيا جنوبا والأناضول شمالا . . فضلا عن امتداداته البحرية في البحرين المتوسط والأحمر . .*

٢. عبد الناصر بين الداخل والخارج: امتدادات الناصرية

ولكنه اختلف عن عبد الناصر باختلاف وسائل العصر ، فلقد نجح عبد الناصر دعائيا وإعلاميا وكسب مشاعر الملايين من العرب ، مستقطبا قدرات سياسية لامعة في إحداث انقلابات عسكرية في عدة دول عربية ، على الرغم من فشل مشروع الوحدة المصرية – السورية وفشل قيام الجمهورية العربية المتحدة ، والحرب في اليمن والحروب ضد إسرائيل . . وصحيح أن محمد علي باشا خطط لبناء دولة عصرية كبيرة في المنطقة ، إلا أنه لم يعمل ضمن مشروع قومي كالذي أراده عبد الناصر . . **ولا بد أن نصحّح خطأ شائعا عند هيكل وغيره من الكتاب والمفكرين والمثقفين العرب الذين طالما ما يصفون الدولة العثمانية بدولة خلافة** ، وعاصمتها عاصمة خلافة . . والصواب إن الدولة العثمانية سلطنة ولم تكن أبدا دولة خلافة . . وان عاصمتها عاصمة سلطانية منذ تأسيسها في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي حتى سقوطها في بدايات القرن العشرين .

يذكر هيكل في مقارنته بأن المصالح التي واجهت جمال عبد الناصر كانت أقوى وأعتى اذ لم تعد مصر مجرد طريق الشرق وحلقة في مواصلات إمبراطوريات ، ولكنها أصبحت قلب منطقة في وسط القارات والمحيطات والبحار حساسة وهي في الصميم من مواجهة عالمية كبرى بين عملاقين في القوة لم يعرف لها التاريخ مثيلا من قبل . **ان نفس هذه المنطقة لم تعد مجرد جغرافيا ، ولكنها أصبحت موطن ثروات لم يحلم بها أحد** ، لا بديل لها حتى الآن اذا أريد لعجلات المجتمعات الصناعية أن تدور ، واذا أريد لرخائها أن

* كنت أتمنى على هيكل ان يقرأ بامعان ما كتبه كل من المؤرخين المصريين المعروفين : محمد شفيق غربال وفؤاد شكري سواء في اطروحتيهما عن تواريخ عهد محمد علي باشا ، بالانكليزية للاول وبالفرنسية للثاني . . او أعمالهما المتميزة بالعربية بعد ذلك . . حتى يكون لهيكل قاعدة من المعرفة التاريخية بشؤون محمد علي باشا في مصر .

يزيد ويتضاعف وان يتحمل التكاليف آخرون ! من طرف آخر ، فان محمد علي في أيامه كان هو الطرف المحلي الوحيد ، واما جمال عبد الناصر ، فقد كانت أمامه أطراف محلية أخرى لديها ما تريد ان تحافظ عليه مما تتقاسم غنائمه مع الساعين الى السيطرة ، وهكذا لم تكن المعركة ضده من الخارج فقط ولكن من الداخل ايضا .

٣. تفكير القوميين بعيدا عن جغرافيتهم التاريخية: مغالاة مقصودة

نعم ! صحيح ما يقوله هيكل ، ولكن أراه يغالي كثيرا في بعض الأحيان ، ذلك أن استراتيجية مصر في الماضي والحاضر والآتي تشكّل أهمية بارزة ، أما كونها في الصميم من مواجهة عالمية كبرى . . فهذه مغالاة في غير مكانها ، لأن الصواريخ عابرة القارات سوف لن تعرف مصر فقط . . وان موطن الثروات تتمثّله منطقة الخليج العربي التي اندلعت فيها حربين إقليميتين قاسيتين في كلّ من عقدي الثمانينيات والتسعينيات . أما بالنسبة لمحمد علي باشا فلم يكن حسب المفهوم التاريخي المضطرب لمحمد حسنين هيكل هو الطرف المحلي الوحيد ، اذ كان يواجه عدة معارك داخلية ضده من خلال بنائه مركزية إقليمية له في الشرق الاوسط ابان النصف الأول من القرن التاسع عشر . . وكانت هناك مراكز أقليمية في المنطقة ، وقفت أزاءه موقف الصراع ، ومنها : المركزية العثمانية في استانبول ، والقوى المحلية العسكرية والقبلية والكوزموبوليتانية ممثلة بباشاوات العراق وبلاد الشام وشيوخ الجزيرة العربية وامرائها وأشراف مكة وأمراء لبنان وشيوخه . . فضلا عن بايات تونس ودايات الجزائر وسلاطين مراكش . .

وجميعهم أيضا لم يمنحوه الثقة ، ولم يسلّموه مقاليد أمورهم . . اذ أن هناك ثمة خصوصيات محلية واقليمية لم تكن تدرك تعقيداتها وطريقة ادارة التوازنات فيها الا السلطة المركزية العثمانية في العاصمة أستانبول . . ناهيكم عن تحدّيات الأوربيين في خلقهم للمسألة الشرقية في القرن التاسع عشر والتي لم تكن تقل خطورة عن تحديات المسألة الصهيونية في القرن العشرين . . واذا كان جمال عبد الناصر مخلصا لمبادئه القومية ، فقد أدرك خطورة المعركة ضد المشروع القومي من الخارج ومنذ عام ١٩٥٦م ، كما وأدرك خطورة المعركة على المشروع نفسه من الداخل في أواخر أيامه التي كان يشعر فيها بالقنوط

واليأس والإحباط المرير .

مسألة أساسية تعد ظاهرة في جغرافيتنا التاريخية لم يدرك خطورتها لا الزعيم جمال عبد الناصر ولا غيره من رجالات الثورة التحررية والقومية العربية ومؤسسي أحزابها والمنظرّين فيها وأغلب الزعماء العرب الذين حاولوا عبثا إجراء وحدات ثنائية وثلاثية ورباعية واتحادية وتضامنية ومجالسية واندماجية . . الخ كلها باءت بالفشل بسبب **الخصوصيات الجيوتاريخية المعّقدة لكل بيئة اقليمية عربية . .** والتي تراكمت تواريخ اجتماعية وثقافية واقتصادية لها عدا التواريخ السياسية التي تطورت على مدى أربعة ـ خمسة قرون من تكوين العرب الحديث . . فليست المسألة سهلة ، بل انها غاية في التعقيد ازاء المشروع القومي الذي طرحه عبد الناصر وبقية القوى السياسية العربية القومية على امتداد خمسين سنة من حياة العرب في القرن العشرين .

٤. الحالمون العرب والتداعيات المستقبلية: مقارنات غامضة

ويتابع هيكل مقارناته فيذكر بأن تجربة جمال عبد الناصر قد ولدت في مرحلة من التطور المصري والعربي ، فحفلت بأسباب « الفوران » ، وان تفاعلات اجتماعية واقتصادية طويلة وعنيفة مّهدت لها وفتحت الطريق أمامها . . ويستطرد قائلا : « وفي حين ان محمد علي كان على الساحة وحده ، فان جمال عبد الناصر كان من حوله كثيرون يحلمون ـ ولهم الحق ـ ان يجدوا في مجتمعهم ما بلغته مجتمعات السابقين . . وكان هؤلاء ـ بصرف النظر عن نواياهم ـ عنصر ضغط على التجربة من داخلها وعند الجذور» (**بين الصحافة والسياسة** ، ص ١٢) .

ولا بد من التعليق على هذه التوصيف ، اذ نتساءل : ماذا لو أفصح هيكل قليلا عّما يريد قوله او التوّصل اليه ؟ صحيح ان تجربة جمال عبد الناصر قد حفلت باسباب الفوران ، وصحيح أن تفاعلات شّتى قد مّهدت وفتحت الطريق أمامها ، وأنها بالضرورة تختلف عن تجربة محمد علي باشا ، فبين التجربتين أكثر من قرن كامل . . واذا كانت الدروس التاريخية من تجربة محمد علي باشا تفيدنا مرة ، فان الدروس التاريخية التي يمكن استلهامها من تجربة جمال عبد الناصر ستفيدنا عشرات المرات . . نظرا للصلة العضوية

التي تربط حياتنا المعاصرة وتجاربها الحية ببناء المستقبل العربي على يد الاجيال القادمة . . ان دراسة تجربة جمال عبد الناصر ليس وضعها امامنا في متحف زجاجي نكيل لها المدائح والمفاخر وآيات الاعجاب . . بل من أبرز أولوياتنا اخضاع التجربة للنقد والتحري وابراز العيوب والنواقص . . من أجل الاستفادة الحيوية منها .

وعليه نقول ، بأن العرب كانوا يحلمون منذ بدايات القرن العشرين ، وكانت لهم تجاربهم السياسية والحزبية / التنظيمية والفكرية والثقافية على امتداد أكثر من نصف قرن على مجيء عبد الناصر لحكم مصر ؟ وما تجربة عبد الناصر ألا واحدة من تلك التجارب ، ولكنها « تجربة » تفوّقت على غيرها ، فبدلا من التعامل معها ، وقفت بالضدّ منها ونجحت في ابتلاعها . . ومع كل هذا وذاك ، فقد كانت هناك حتى عهد عبد الناصر : تجارب وأحزاب وقوى وفئات وأفكار وتيارات ينزع بعضها ذات اليمين ، وينزع بعضها ذات الشمال . . وحبذا لو نجحت السياسة الناصرية تجربة وفكرا في أن تستوعبها جميعا قبل أن يغدو أقرب تلك التجارب عناصر ضغط على المشروع الناصري في القرن العشرين .

٥. لماذا اغتيل مشروع عبد الناصر ؟

وأخيرا ، يقول هيكل بأن تجربة جمال عبد الناصر تعرّضت لظاهرة غريبة ، أذ غدا ورثتها هم أنفسهم أحد أسلحة محاولة اغتيالها ، وأساء إليها أصحابها على نحو أو آخر بعضهم ضد وجهها الانساني الحضاري وبعضهم الآخر ضد وجهها التحرري او التقدمي ، فاذا كانت الثورات تأكل ابناءها ، فان أبناء الناصرية هم الذين أكلوها !

لديّ ما أقوله في هذا الباب :

هل عدّ الزعيم جمال عبد الناصر نفسه مؤسسا لدولة ونظام ومجتمع . . أم أنه عّد نفسه حلقة تربط الماضي بالحاضر والمستقبل ؟

هل نجح عبد الناصر في غيابه كما نجح في حضوره ؟ وحتى في حضوره : اذا كان قد انتصر لمبادئه ، فهل نجح الرجل في تأسيس مؤسسات متجذرة في بلاده ؟ وهل نجح في تأسيس أي تجربة ديمقراطية يمكنها ان تكون السند الحقيقي لمشروعه من بعده ؟ ولكن كل هذا لم يحصل !

اذا كنت يا هيكل تعد التجربة الناصرية قد اكلت من قبل أبنائها !! فغيرك لا يشاطرك الرأي مطلقا ، فهذا فؤاد زكريا يعتبر عهد عبد الناصر (= ١٨سنة) هو حلقة في سلسلة حياة مصر المعاصرة سواء في عهديها : الملكي والجمهوري . . واذا كنت تقصد أنور السادات في حكمه هو الذي ابتلع منجزات جمال عبد الناصر ، فنحن لا نعرف النهج الذي سيختاره عبد الناصر إزاء المتغيرات المدهشة التي حدثت في العقود الثلاثة الماضية منذ غيابه وحتى يومنا هذا ؟ صحيح أنه سوف لن يختار الأسلوب السياسي الذي سار السادات على نهجه ، ولكنه كان بالتأكيد سيجدّد في نهجه ، وسيكون أكثر واقعية في التعامل مع الأحداث الجديدة ! أما الذي قاله هيكل بصدد المشروع الناصري الذي أكله أبناؤه . . فهذا صحيح ، ولكن لم يذكر لنا الاسباب ، كونه لم يفكّر في الأسباب والنتائج ، بل يبقى في إطار المسردات من الأحداث وتضمين الأحاديث والحكايات عن الآخرين !

٦. الرموز الوطنية بعد الرحيل:

أن من أبرز الأسباب في ذلك ، ان جمال عبد الناصر بقي رمزا في قلوب محبيه فقط ، دون أن يحمل أحد مكانته رسميا وجماهيريا بعد غيابه . . فقد كان قائد حركة ، وزعيم مسيرة ، ورائد مشروع . . في دولة ومجتمع ، لكنه لم يكن مؤسس دولة ومجتمع ! بل كان فعلا حلقة فعالة في حياة دولة مصر الحديثة ، وأنه لم ينجح في تأسيس كيان سياسي عربي موّحد حتى يغدو أسمه رمزا تاريخيا له بعد غيابه . . ان ما أريد قوله : ان العرب في مصر وسوريا والعراق والجزائر وليبيا على سبيل المثال لا الحصر ، قد اختلفوا في تجاربهم السياسية ابان القرن العشرين عن غيرهم من الشعوب والمجتمعات والدول ، فلقد كان لكل من الدول والمجتمعات التالية رمزها القيادي والوطني الذي أستمر أثره وأسمه وتأثيره معنويا وروحيا في تقاليد البلاد الرسمية ، فلم تزل أسماء مثل : المهاتما غاندي في الهند ومصطفى كمال أتاتورك في تركيا ، ومحمد علي جناح في الباكستان ، والملك عبد الله بن الحسين في الأردن ، والملك عبد العزيز بن السعود في السعودية والرئيس الحبيب بورقيبه في تونس ، والإمام آية الله الخميني (ومن قبل الملك رضا بهلوي) في إيران . . وغيرهم رموزا وطنية لهذه الدول . . في حين لم نجد اليوم لا في مصر ولا في العراق ولا في سوريا ولا في لبنان

ولا في الجزائر ولا في ليبيا . . ولا في غيرها من البلدان العربية أي رموز قيادية وطنية / قومية راحلة لم تزل تقاليدها سارية المفعول حتى يومنا هذا في أروقتها . . ورحاب دوائرها ومؤسساتها وأجهزتها كافة . علماً بأنها غيبت رموزها الوطنية في النصف الثاني من القرن العشرين .

مشروعان كبيران لكل من : محمد علي باشا وجمال عبد الناصر

يبدو أن هيكل يؤمن إيمانا راسخا بمثل هذا « المشروع » والذي أفصح عنه وعن اشتراطاته ومحدداته ، والنتائج التي تتمخض عنه في حياة مصر الحديثة . وعنده ، يتألف هذا « المشروع » من مشروعين كبيرين ، هما : مشروع محمد علي ومشروع جمال عبد الناصر .

ان المشروع الأول في رأيه ـ بالدرجة الأولى ـ كان مشروعا « عثمانيا » لتجديد الإمبراطورية العثمانية . . حتى يكون محمد علي وعائلته حكاما في استانبول . . وكانت مصر هي القاعدة التي يريد الاعتماد عليها . . وعليه ، فهو يستنتج بأن هذا « المشروع » لم يكن موجّها لمصر ، التي لم تكن في تّصور محمد علي الا مجرد قاعدة انطلاق ، وقد استفادت مصر منه في التصنيع والتعليم وبناء الجيش . . (حموده ، ص ١١١) !

دعونا نتوقف قليلا لتقييم هذه « الرؤية » القاصرة والبعيدة عن روح الحقيقة التاريخية ، خصوصا وأنها تضمّنت أحكاما سريعة لا تستند الى الحقائق التاريخية . . ونحن نتأسى على كاتب مثل هيكل في ان يكتب في هكذا أمور ، وهو من أبعد الناس عن المعرفة التاريخية ، وثمة ملاحظات نقدية لدينا حول تاريخية المشروع :

١ . لم يكن مشروع محمد علي باشا عثمانيا لتجديد الإمبراطورية العثمانية ، بل كان مشروعا مصريا حقيقيا لتجديد مصر الإقليمية التي كانت ترتبط ارتباطا إداريا لا مباشرا مع استانبول سواء على عهد محمد علي باشا نفسه ، أم على عهد خلفائه من الخديوات الذين حكموا مصر بعده .

٢ . ومن الذي قال بأن محمد علي باشا كان يطمح وعائلته ان يكونوا حكاما في استانبول ؟ هذا كلام لا يستند الى أية معلومات تاريخية موثقة مطلقا ! ذلك لأن محمد علي باشا

منذ أن بدأ حياته السياسية حاكما على مصر لم يجد فيها الا مركزية إقليمية له . . نجح في تأسيس حكمه فيها والذي توارثه أبناؤه وأحفاده من بعده ، اذ دام حكم عائلة محمد علي باشا قرابة (١٥٠ سنة) للفترة التاريخية ١٨٠٤ ـ ١٩٥٢ م .

٣ . ان هيكل يغالط نفسه من أجل ان يمحي حقيقة الدولة المصرية الحديثة التي عاشت قرابة ١٥٠ سنة من خلال مشروع محمد علي باشا ، عندما يصف هذا «المشروع» بأنه لم يكن موجّها لمصر التي لم تكن في تصوّر محمد علي الا مجرد قاعدة انطلاق ـ كما يرى هيكل ـ ، وهذا ليس من الحقيقة في شيىء ، لأن دولة محمد علي باشا دولة مصرية حقيقية نهضت من خلال مشروع محمد علي باشا النهضوي في حياة المجتمع المصري الحديث وقدمته خطوات كبرى إلى الإمام . . ونالت مصر على امتداد (١٥٠) سنة منجزات كبرى بتأثير ذلك المشروع الاستراتيجي الذي كان ولم يزل ـ كما يظهر ـ محاربا من العديد من الناس . علما بأن تأثير مشروع محمد علي باشا لم يزل ساري المفعول حتى يومنا هذا في حياة المجتمع المصري .

ركائز تاريخية :

نلتفت الى موضوع مقارنة المشروعين الأول والثاني ضمن إطار المشروع القومي المصري . . فماذا نرى ؟

لقد قرن هيكل مشروع محمد علي باشا بمشروع جمال عبد الناصر ، وبرغم الفوارق الجوهرية في تاريخية كل من المشروعين وفلسفتهما وتوجهاتهما التاريخية ، لاتصال كل مشروع بحياة عصره . . فلا يمكننا اعتبارهما ركيزتين أثنتين في نسق تاريخي واحد يمثلهما ، وهذا « النسق » هو الذي أطلق عليه هيكل بـ « المشروع القومي المصري » ، فلم يكن محمد علي باشا قد انطلق أساسا ضمن مشروع قومي واضح المعالم ، اذ أن دولته لم تكن دولة وطنية مدنية حديثة كما نفهم معنى الدولة الحديثة اليوم ، بل انها ـ أي دولة محمد علي باشا ـ كانت دولة عسكرية إقليمية انبثقت من خلال مشروعية ادارية عثمانية عند بدايات القرن التاسع عشر ، وكان الضعف يحيط بالإمبراطوريات القديمة التي هزتها أحداث الثورة الفرنسية عند نهايات القرن الثامن عشر . . وغدت تنتظر مصيرها الذي ستحدده لها

توصيات مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ م وولادة النظام الكولينيالي الاستعماري الذي سينال من مشروع محمد علي باشا في مصر ممثلا لاول مرة باتفاقية لندن عام ١٨٤٠ وولادة المسألة الشرقية وصولا الى احتلال مصر من قبل الإنكليز بعد اكثر من أربعين سنة على تلك الاتفاقية ، أي عام ١٨٨٢م مرورا بأعظم إنجاز تحقق للعالم كله في مصر إبان القرن التاسع عشر متمثلا بفتح قناة السويس عام ١٨٦٩م . .

أما بالنسبة لمشروع جمال عبد الناصر ، فقد جاء على أعقاب حياة ١٥٠ سنة من حكم العائلة الخديوية المصرية التي أسسها محمد علي باشا والذي أرسى - كما عرفنا - مؤسسات وتقاليد وبنيويات وأساليب وعلاقات وخطط وتواريخ مثقلة جميعها بالروح المصرية التي ستغدو عند نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين مشّبعة بالنزعة الوطنية المصرية . . جاء جمال عبد الناصر لا ليصطدم مع تلك التواريخ المترعة الثقيلة ولا بالنزعة الوطنية الصارخة . . بل قدم مشروعه الذي يقوم في الأساس على ضرب الإقطاع والفئات الرجعية القديمة وتحرير مصر من النفوذ الأجنبي وتأميم قناة السويس واحلال مفهوم قوى الشعب العامل . . الخ من المنجزات المصرية . .

حول المرجعية القومية:

وعندما استلهم مفهوم القومية العربية وارادها مرجعية أساسية لمشروعه التحرري المصري ، فهو لم يقدم للامة العربية ما تحتاجه كل بيئة إقليمية من بيئاتها ، اذ انه أراد تطبيق مبادئه المصرية ضمن « المشروع » الذي يسميه هيكل بـ « القومي المصري » . . أراد عبد الناصر أن يطبّق ما وجده في مصر على أقطار الأمة العربية التي تختلف تكوينات مجتمعاتها وأوضاع دولها عن طبيعة مصر ووضعيتها في التاريخ الحديث .

ان الذي أراد قوله هيكل لا يصّب في صالح تقييم مشروع جمال عبد الناصر . . أبدا ، فالزعيم عبد الناصر كان مؤمنا بالقومية العربية ، على الأقل ، كما أظهر فلسفته فيها ورؤيته لها بعد أحداث العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ وبقي ينادي بأهداف الأمة العربية وخصوصا في وحدتها حتى وفاته عام ١٩٧٠ . . ويعطينا اليوم هيكل رأيه بالموضوع وبشكل مختصر محددا أياه أن عبد الناصر اراده مشروعا قوميا مصريا ، بمعنى أنه لم يكن

صاحب مشروع قومي عربي . . وان عبد الناصر لم يكن يعمل للامة العربية ، بل أستخدم الأمة العربية محيطا لمركزيته وتأسيس امبراطوريته المصرية ، كما كان ومازال يعلن أعداؤه عنه ذلك !

واليوم . . كيف نريد ان يفهم الجيل الجديد ما كان لدى الجيل القديم من مفاهيم ومشروعات ، خصوصا اذا ما قام بتشويه تلك « المفاهيم » و « المشروعات » أحد أبرز وجوه الجيل القديم ؟؟ ونحن اليوم ، أما أن نؤمن بما جاء به هيكل في أخريات أيامه كي يتفقّ في الذي دعا إليه أعداء عبد الناصر ، وننكر عشرات الخطابات المؤثرة التي كان يلقيها جمال عبد الناصر . . داعيا فيها الى الوحدة العربية . . واما أن نلفت نظره الى التوقف عن تشويه بعض الثوابت التاريخية ، حتى وان تغّيرت بعض مفاهيمه اليوم ، فليس من مصلحته تقديم مغالطات جديدة . . وربما كان الرجل على خطأ في السنوات التي مضت ، وقد عاد اليه وعيه اليوم . . بعد أن كان قد عاد إلى صديقه توفيق الحكيم !

واخيرا ، لا نعلم هل كنا نحن العرب على وهم في تقييم تجربة عبد الناصر القومية ، وهل كان الرجل قد ضحك على العرب ايام حكمه ، وأنه كان يعمل من أجل مصر فقط . . أم أن هيكل يريد اليوم أن يزرع الوهم في العقول بأن ليس هناك من مشروع قومي عربي عند عبد الناصر ، بل كان صاحب مشروع قومي مصري .؟ دعونا نتوغل في رؤيته . . دون الوقوف عند تجربة عبد الناصر ، لأن العرب يدركون طبيعة تلك التجربة ، ويدركون أيضا من هو جمال عبد الناصر ؟؟

استنتاجات: هيكل و فلسفة المشروع - القومي المصري

السؤال الآن : ماذا يريد هيكل من المشروع القومي ـ المصري ؟

ـ وهذا بطبيعة الحال ما يصفق له عدد كبير من إخواننا المثقفين المصريين البعيدين في توجهاتهم عن أية نزعة قومية عربية أصيلة ـ .

يقول هيكل : « والمشروع القومي المصري ـ مهما كان صاحبه ـ يقوم على أسس ضرورية حيوية ، أبرزها :

١ . اتصال مصر بمن حولها : لأن مصر اذا بقيت في إطار عزلة الصحراء . . في إطار سيناء . . ووراء كل هذه الحواجز الرملية الصفراء ، فسوف تظل معزولة بصحراء من هنا وصحراء من هنا . . وهذا الوضع يؤدي الى الأضرار بها . . ويعزلها عن محيطها الإقليمي ، ويضيع هويتها . . لأن هويتها تتصل بذلك كله . اذن مقدمة المشروع القومي المصري ، خروج مصر ـ خروجا حقيقيا ـ خارج حصار الصحراء الى محيطها الطبيعي ، ومحيطها الثقافي ، ومحيطها الفكري والأمني . . واتصالها بهذا المحيط اتصالا عضويا . .

٢ . الشيء الآخر : هو تنمية مصر سواء كانت معتمدة على الصناعة . . او على الزراعة او على أي شيء آخر . . أي معتمدة على وسائل حقيقية في الإنتاج ، بحيث تصل نتيجة هذا كله الى الإنسان المصري ، وتحقق له المستوى الذي يوصله الى الكفاية والعدل . . بمعنى وجود ما يكفي الناس . . من نوع من عدالة التوزيع . بعد ذلك ، خذ ما تشاء من القيم . . قيم الاستقلال الوطني . . والاستقلال بالتجربة . . وذلك على أساس صحي ، سليم ، وضمن علاقات مضيئة لا تتم في الظلمة . .

هذا هو المشروع القومي المصري . وقد كان لدى محمد علي مشروعه ، وكانت مصر هي الأداة . . وهي القاعدة . . ولكنها استفادت من المشروع ، حتى ولو لم تكن هي الهدف .

ولكن ميزة ما فعله جمال عبد الناصر . . انه وصل القاعدة بالهدف . . أي بقيت مصر هي والمحيط شيئا واحدا . . شيئا واحدا في الطموح العام والأمل العام . . والحركة العامة . . وهذا ما عبرنا عنه بعبارة « من المحيط الى الخليج » .

إذن جمال عبد الناصر لم يأت بشيء جديد الا أنه عَبر عن الضرورات الحقيقية ، المستمرة لطبيعة الشعب المصري ، وحقيقة أنه جزء من المحيط ومتصل به » (حموده ، ص ١١١ - ١١٢) .

هذا نص ما قاله هيكل وصَرح به في تسعينيات القرن العشرين !

دعونا نحاوره على مهل وبكل هدوء . . نحن أبناء هذه الأمة العربية الذين آمنا بها وبوجودها تاريخا وحضارة . . أهدافا ومصيرا . . مركزية ومحيطا . . قبل أن نحسب لمشروعها النهضوي الحضاري الذي اشتركت معظم تياراته واتجاهاته : الإصلاحية والتجديدية والقومية

والتقدمية الثورية . . الخ . . نعم ، قبل أن نحسب لمشروعها الاستراتيجي هذا في عمله وسيرورته التاريخية أي حساب بيع وشراء . . أو حساب صادر ووارد . . او تنمية مركز وتخلف أطراف

١ . نعم . . أن أولئك الذين آمنوا بمشروع الأمة ونهضتها الحديثة لم يحسبوها حساب ربح وخسارة ، او حساب مركز وأطراف . . او حساب غنى وفقر . . او حساب أداة وقاعدة . . الخ ، بل أن أي عربي في هذا الوجود حتى وان لم يؤمن بالأهداف السياسية المحددة ، فانه يدرك مكونات الجغرافية العربية المتنوعة وسيرورات التاريخ المشتركة ، ويتمتع أيضا بقيم اجتماعية وثوابت تربوية ومبادئ متوارثة **تجعله لا يفكر أبدا تفكيرا ضيقا على مستوى تسويق أي مسألة استراتيجية وخطيرة في حياة الامة قاطبة لصالح طرف معين دون الأطراف الأخرى في المركز والمحيط!**

التحولات والجغرافيات :

٢ . لقد أثبت التاريخ الاجتماعي والثقافي العربي المشترك على امتداد عصور عديدة بأن انتقالات العرب من مدينة إلى أخرى لاسباب سياسية او دينية او علمية او اقتصادية او ثقافية . . لم تكن للجغرافية الصعبة اثر في اعاقتها ، ولم تكن لا مصر ولا غير مصر تعيقها الصحارى والجبال والبحار والأنهار . . كي تغدو محاصرة في يوم من الايام . . **فهناك نسيج اجتماعي متكافىء وخصوصا بين المدن والعواصم العربية المتعددة . . كما أن مصر على امتداد حياتها في التاريخ لم تقف معيقة اتصالات المشرق بالمغرب العربيين .**

٣ . اذا كان التاريخ قد أثبت صحة ما يّدعيه هيكل عن إجراءات محمد علي باشا في مصر بتبنيه المشروع القومي المصري في نهضتها واتساع مداها الجغرافي ، واتصالها برا وبحرا بغيرها وإزالة الحواجز الرملية . . وان الرجل قد عمل على تنميتها منطلقا من مركزيتها باتجاه محيطه الجغرافي . . فان مؤلفنا يريد القول بأن جمال عبد الناصر قد بدأ دعوته لمشروعه في الوحدة العربية ولم يكن مخلصا لها ابدا ، بدليل عمله على اثراء مركزيته

المصرية من خلال عمله على وصـــل المركز بالمحيط ، ويجعله شيئا واحدا عملا بالمشروع القومي ـ المصري لا المشروع القـومي ـ العربي الذي آمن به العرب ، فهم أشبه بـ « الناس المغفليّن » ـ كما يريد هيكل أن يصوّرهم لنا ـ !

٤ . هل ان طبيعة الشعب المصري عربية النزعة أم محلية الهوى وقطرية المصلحة ومركزية القوى ؟؟؟ اذ يتضح من كتابات هيكل وتصريحاته أنه يتحاشى اليوم أي ذكر للعروبة وللقومية العربية التي لم يتوان جمال عبد الناصر عن ذكرها صباح مساء . . ويريد القول بأن جمال عبد الناصر لم يأت بشيء جديد سوى ما عبرت عنه طبيعة الشعب المصري في الاستجابة لضروراته الحقيقية المستمرة !

هذا كلام خطير ، صحيح قد نسمعه أحيانا أو نقرأه أحيانا أخرى من دعاة نزعة « مصر للمصريين » أو من رافعي شعار « لولا مصر لما كان العرب » أو من غيرهم ، الا أن خطورته تتـمثّل كونه يأتي على لسان هيكل الذي بقي حتى الآن يؤكد علاقتـه القوية الراسخة بجمال عبد الناصر الذي وصف بـ « رائد القومية العربية» . . والأكثر من هذا وذاك ، أنه عندما سئل هيكل يوما : هل قرأت كتـاب فلسـفـة الثورة لعبـد الناصر ؟ أجاب : بل أنا الذي كتبته ! فحتى لو كنت أنت بالذات الذي كتبته ، فهل من الأمـانة والعقل والوفاء أن تجعل عبد الناصر صفرا على الشمال ؟؟

٥ . لماذا يريد هيكل وبعض من المفكرين والكتاب المصريين الذين صعدوا المسرح السياسي والصحافي وحتى الفكري والثقافي على دفعات في مراحل سلطوية معينة : أن يراهنوا على المركز والأطراف ، او على القلب والمحيط . . فهل بقيت المركـزية المصرية مستـقطبة كل الإجماع العربي في المحيط والأطراف ؟ صحيح ان الذاكرة العربية تحترم مصر « أم الدنيا » ، فان الذاكرة العربية لم تزل تعتز ببغداد « سيدة البلاد » ـ كما كان قد ذكرهما ياقوت الحموي منذ أزمان ـ ، وان الذاكرة العروبية الأصيلة لا تفرق بين حلب الشهباء او دمشق الفيحاء او الموصل الحدباء او مكة المكرمة او المدينة المنورة او فـاس او وهران او البصرة او الإسكندرية او تونس او صنعاء او بيروت او مسقط او البحرين . . الخ ان أي ممارسة للضغط باتجاه مركزية معينة قد خلق نزعة بالضد من الرؤية القومية المتكافئة ،

فبدت نزعات قطرية انقسامية مضادة مقيتة تستشري في جنبات المجتمع العربي الكبير .

٦ . لا نريد نحن العرب من إخواننا المصريين ـ الذين يميّز بعضهم نفسه عنّا ـ وعلى رأسهم كاتب مصري شهير كمحمد حسنين هيكل أن يشعرونا بأن المحيط العربي لابد أن يتّبع المركزية المصرية بحكم ضرورات تلك النزعة المصرية الطبيعية والثقافية والسياسية . . وان الأجيال الحديثة لم تعد ترغب فيما تسمعه على شاشات التلفزيونات او تقرأه في الصحف والمجلات من اداء واجب الطاعة للأب الذي يجلس في قلب المحيط وهو يّوزع أحكامه وأوامره ونواهيه ا وان العرب في الحاضر والمستقبل لابد وان يكونوا نسيجا واحدا كما عرفهم تاريخهم الاجتماعي المتنوع وسيرورتهم النهضوية الخصبة ، وانتقالات الناس من الطلبة والمثقفين والساسة والادباء والتجار . . في البيئات والمدن والأرياف لاسباب شتى . . ولم تكن تحكمهم على امتداد أزمان طويلة أية مشاريع قومية ـ مصرية ؟ فكيف وهل يعقل أن يحكمهم المشروع القومي المصري الذي يدعو الى أن يكون المحيط يلبي حاجات المركز وضروراته ؟

الفصـل الثـاني

الأردن - معبر الأنبياء

هيكل : التصوير والتشهير

« غطيني يا صفية .. مافيش فايدة »

سعد زغلـول

« إن كل إنسان لديه كتاب نائم في موضع ما من ذاكرته ، ولو أنه فكّر وراجع بطريقة جدّية لعثر على موضوعه . ولو أنه عرف كيف يقترب منه لوجد عنده بالفعل شيئا يستحق أن ينشر ، ويستحق أن يقبل (بضم الياء وكسر الباء) الناس على قراءته » .

محمد حسنين هيكل

أولاً : مقدمة منهاجية ضرورية :

إن ابرز من اهتم بالسيرة والتراجم هم الرواد من العرب الاوائل في تدويناتهم التاريخية ، وعلى امتداد عصور طويلة . . كان هناك لهم أساليبهم الاخلاقية القيمة وطرائقهم المنهجية العليا في اثراء الادبيات التاريخية في هذا الميدان . وتعد تلك «الادبيات» مهمة جدا في تشخيص حياة البطل في التاريخ او صاحب الاثر في التراث والمعرفة والفن والادب . . ولكل من المجتمع والدولة . ولقد كتب عن سير زعماء ونبلاء وقادة وساسة واداريين ومسؤولين كبار . . كما ترجم عن علماء وفقهاء وأطباء وقضاة وشيوخ ومدرسين ومفتين . . وكل من له تأثير في الحياة السياسية والاجتماعية ابان مرحلته التي عاشها وعلى امتداد عصور طويلة .

لقد غدت حقول تدوين المعلومات التاريخية عن سير من تقّدم ذكرهم وتفصيلات عن ترجمات حياتهم لها تقاليدها ومنهاجها وقيمها وعاداتها . . ولو تتبعنا مجموع الاثار من السير والترجمات والتدوينات والاخبار لوجدنا هذا الحقل أو الصنف من الكتابات هو الغالب والاكثر من التدوينات التاريخية . . وكان لكل عصر من العصور التاريخية أو كل مرحلة من مراحل تاريخنا مجموعة من الاسس والركائز ضمن مناهج توارثها الابناء والاحفاد عن الآباء والاجداد . . وتدعونا الحاجة والضرورة الماسة اليوم لأن نلقي الظلال على أهمية هذا «الجانب» من التدوينات ، ليس فقط لاشعار أنفسنا بالاهمية القصوى التي تمّيز بها هذا الصنف من الكتابة التاريخية ، ولكن من أجل تحديد الرؤى الواضحة في كيفية التعامل مع السير وأخبار الناس وأسرارهم وتفصيلات علاقاتهم وألوان حياتهم المختلفة . . ثم محاولة تفسيرنا لذلك في يومنا هذا لنا وللاجيال القادمة . . خصوصا بعد أن أشعرنا هيكل بأن ما كتبه يقع في اطار ما كتبه الرواد من المؤرخين العرب المسلمين في مأثورهم التاريخي ، وبالاخص مدوناتهم في السير والتراجم .

ان عملية تسجيل التدوينات في السير والتراجم واخبار الناس افرادا كانوا ام جماعات . . تفترض سؤالا محددا عن طبيعة تناول الموضوع وخصوصا لقادة معينين وزعماء مسؤولين قائلين : ما هو مجال الاختلاف والتباين بين الذي تعود عليه العرب الاوائل في ثقافاتهم السابقة من القراءات مقارنة بما هو حاصل اليوم سواء في كتابة المذكرات او السير الشخصية

أو التوغل في الاسرار التي تفيض خطورة . . ثم مدى قياس مجال الصواب والخطأ في عملية تاريخية خطيرة مثل هذه ، وبالاخصّ اذا لم تّدعم المعلومات التاريخية والبايوغرافية (= السير والتراجم) بالتوثيقات والمستندات والمرجعيات الموثوقة .

طبيعة الأدبيات التاريخية العربية :

أولاً : ثمة تباين كبير بين الذي الفته الثقافة العربية الإسلامية والمجتمعات التي عاشت في كنفها وضمن أساليبها ، والنخب التي تربّت على ادبياتها ؛ تلك الأدبيات التي كتبها المؤرخون العرب والمسلمون على امتداد عصور طويلة ، وبين الذي يحصل اليوم في تدوين المعلومات عن شخصيات معينة تعتمد على طبيعة العلاقة بين الذي يدّون المعلومات بتجّرد وبين الذي يدّونها بتحّيز . ومن الناحية الأخرى ، فان الفرق كبير اذن بين الذي يجري العمل به من قبل كتاب وصحافيين وساسة ومفكرين . . وبين ذاك الذي يكتبه المؤرخون الحقيقيون ، والمشكلة أن الناس في أي مكان وبمجمل نخبهم الفكرية وفئاتهم الاجتماعية تعتمد على ما يذيعه أولئك لا على ما ينشره هؤلاء !

مصداقية القدماء :

ثانياً : من خلال هذا « التمايز » ، علينا اولاً ان نتوغل في فهم طبيعة ما كتبه المؤرخون العرب والكتّاب المسلمون في السير والتراجم والمذكرات ، وبين ما يكتب في هذا الباب ابان هذه الايام . . ان البعض يفسر ذلك ، بان من يعطي ملاحظات حول هذا الجانب أو يسجل نقدات أو يصوّب معلومات أو يجادل في التي هي أحسن . . إنما يحتقر عقلية القراء ، ذلك لأن مثل هؤلاء ليس لهم القدرة في أن يفرقوا بين الذي كتب في الماضي من السير والتراجم والاخبار والاحداث . . وبين ما يكتب اليوم فمثلاً قراءة كتب السلف من المؤرخين والكتّاب كالتي كتبها رجالات من أمثال : المقريزي وإبن اياس وابن تغري بردي والسخاوي وصولاً إلي المحبي والمرادي والعمري الخ . . . . . أولئك الذين قرنهم هيكل ـ مع الاسف ـ بكتاباته هو كونه يكتب تاريخا عن سير الزعماء والملوك والشخصيات الكبرى من الذين يدّعي أنه عرفهم عن قرب والتقى بهم في حياته !

ان المادة التاريخية عند اولئك النفر الراقي من المؤرخين ، لا تعتمد على طبيعة الظروف الشخصية التي تحكمهم مع من كتب عنهم ، وذلك على خلاف ما يكتبه عدد من الكّتاب غير المدققيّن ، والذين اشتهروا بكتاباتهم السياسية والايديولوجية لا العلمية او المعرفية . . وفي ظروف خدمتهم دعائيا واعلاميا . صحيح أن ذلك النفر الراقي من المؤرخين الاصلاء قد ربطوا ظروف نشأة الحكام والزعماء والمسؤولين بالأوضاع المتباينة . . وكتبوا عن الصفات الشخصية والنفسية وعن بعض الأسرار الخاصة ، والطريقة في الحكم وصحيح ان ذلك كله قد صنف ضمن أبواب التراجم أو الحوليات أو كتب السلالات في مظانهم . . وصحيح أن أولئك الكّتاب القدماء سجلوا مواد تاريخية مختلفة عن أصول السلاطين والخلفاء وعن الأسر وعن الزوجات . . وكتبوا عن الأهواء والعلاقات . . وكتبوا بعض الآثار التي اعتمدت من قبل حاشية هذا الزعيم أو ذاك ، لكنهم كانوا في النهاية من المؤرخين الذين قد تتفاوت طبيعة علاقاتهم مع الذين ترجموا لهم من الزعماء ، فثمة بعد زماني أو مجال مكاني ، وانهم ليسوا جميعاً ممن كانت لهم صلاتهم بصناع القرار !

على خلاف ما نجده في كتابات محمد حسنين هيكل عن الزعماء العرب ، اذ يزعم في أكثر من موقف أنه قد دخل غرف نوم اولئك الزعماء . . من أجل أن يغرس الانطباع لدى القراء عن قوة نفوذه التي لا تضاهى ، وللدلالة على ثقة الحكام به ، وتقريبهم له خوفا منه ـ كما يتصور أو هكذا يّصور للناس ـ ، ! وان مجرد مسح دقيق لمضامين كتبه ، نجده يستشهد دوما بمن ماتوا ورحلوا عن هذا الوجود . . ولعل أكبر خطيئة أقترفها ، انما كانت بحق من وثق به واعتمده مستشارا لديه ، ذلك هو الزعيم الراحل جمال عبد الناصر الذي يعجب المرء كيف يتم استخدام هيكل لاسمه متقولا عليه جملة هائلة من النصوص . . التي لا يمكن ان يلتقط التدليس فيها الا من أحكم عمله في مادة التدوين التاريخي وفحص العبارات وتدقيق الجمل ومقارنة المواقف !

عمل المؤرخ الحقيقي :

ثالثاً : هكذا نستنتج بأن عمل المؤرخ الحقيقي في هذا الباب ـ خصوصا ـ إنما هو عمل منهجي أخلاقي متوارث ومتواتر . . ليس من السهولة أن نجد مواد ومعلومات تاريخية يمكن

لأحدهم . . ان يتّهم بها من يترجم عنه نتيجة لعلاقة مضطربة تربطه مع هذا أو ذاك من الزعماء سواء احّب أم كره . . ذلك لأن المنهج المعتمد لدى المؤرخ الحقيقي ، اما أن يأخذ المعلومات محرّرة فينقلها ويضيف عليها ما سمعه أو ما شاهده ، أو ما توصل إليه من روايات لا تعتمد أبدا في طبيعتها على التوليف (والفبركة) ، بل على الرواية الموثوقة والسند الثابت أو حتى على القرينة المماثلة . . فإذا ما أخلّ المؤرخ بهذا الشرط ، فقد بضاعته أولا ، وأضاع سمعته ثانيا ، وأحرق أوراقه أمام الأجيال ثالثا .

ان جملة من الروايات والاخبار عند محمد حسنين هيكل (مفبركة) بدقة ومهارة ، وسيكون الكشف عنها سهلا اذا ما أخضعها الناقد الماهر للفحص والمعاينة واعادة التوثيق لقياس سلامتها ومعرفة حجم الخلل فيها . . وفي النهاية الكشف عن اسباب التدليس او التوليف او الانتحال او الادعاء . . فمثلا ليس هناك أي دور مصري في تحرير الفاو من قبل الجيش العراقي عام ١٩٨٨ ، ذلك لأن الحقيقة التاريخية تقول بأن عملية تحرير الفاو من الايرانيين عراقية بحتة ! ان اختلاق المعلومات والروايات الكاذبة شيىء ، وان نقد ذلك وتوثيقه والبرهنة على الدحض شيىء آخر .

مشكلة هيكل :

رابعاً : وعليه ، فان مشكلة هيكل ، مشكلة معقدة جداً ، وأكاد أجزم انها تلاحقه في جميع كتبه ، فالرجل لم يكتب تاريخا أمينا وصادقا وموثقا . . بل كتب توليفات (مفبركة) باسلوب ذكي فيه التواءات لا حصر لها . . كما شوّق القارىء الى حد كبير بمجموعة كبيرة لا تحصى من مقابلات وحوارات وسفريات واستعراض عضلات وتوصيف نفسه بطريق غير مباشر بالمزيد من الوجاهات . . فكان عليه أن يضّيع قارئه العام والخاص في غابة متشابكة يصعب الخروج منه . . وكلها انشطة وهمية يشك كثيرا في حدوثها كما قدمها بصورتها لنا ، فضلا عن نقولات غير أمينة من هذا وذاك . . لقد أحال الاشاعات ـ مثلا ـ التي يسمعها عن هذا السفير او ذاك الناطق او غيرهما من المسؤولين وحتى نقلة الدعايات ومن كتاب التوقعات او من صحافيين غربيين موتورين ليس لهم من هم الا تدبيج القصص والفضائح عن الزعماء العرب والمسؤولين لينشروها في صحفهم وكتبهم كي يجنوا منها الالاف من

الدولارات ، علما بأن هيكل له علاقــات ومصالح مع هؤلاء ـ كما يحــب ان يذكر ذلك دوما ـ . .

كلها يحيلها هذا الرجل الى «حقائق» و «مسلمّات» ويتعامل معها على هذا الاساس ، وهذه هي مشكلة هيكل وخطورة كتاباته . . ومما يزيدها التباسا وتعقيدا انه يزعم لنفسه مكانة بين المؤرخين العظماء ، اذ يعترف انه كتب ذلك التاريخ أو تلك السيرة أو الاسرار كونه أحد الواقفين عليها والشاهدين لها ، وان ليس هناك غيره في الميدان ـ هكذا يتصوّر ـ . ومن سوء التقدير ، أنه لم يلتزم بما قرأه أو سمعه أو شاهده ، بل يضيف إليه من لمساته والغازه ورموزه ، ويؤشكل من عندياته مزيدا من الافكار والرؤى والاحلام ، ثم يقوم بتوزيع الاحكام والطعن لمن أمامه او التمجيد لمن وراءه ! وهذا ما لم يقره أبدا المنهج العلمي في تدوين الاخبار وتسجيل المعلومات وتحليل النصوص والابتعاد عن اتخاذ المواقف والسير .

طبيعة الكتابة عن الزعماء :

خامساً : ان الكتابة عن الاخرين ، وخصوصا اذا كانوا من الزعماء ، هي كتابة دقيقة وحساسة ومثيرة . . لأن كثرة من الناس متلهفة لمعرفة المزيد من الخفايا والاسرار التي ربما ليس لكلها حقيقة ثابتة او أصل معروف . . لقد تخطّى محمد حسنين هيكل كل الحواجز والخطوط كي يجعل لنفسه مكانة تضاهي الملوك والاباطرة والرؤساء الكبار . . فهو كما يبدو لا يهتم بالرؤساء الصغار والقادة غير المعروفين عالميا . . ويدّعي أنه ينزل في فنادقهم بالعواصم الاوربية ، وقد ذّكرني ذلك اتهامه في يوم من الايام خصمه علي أمين انه ينزل في فنادق الدرجة الاولى بلندن امام عبد الناصر . . وكيف وماذا علّق الراحل جمال عبد الناصر على ذلك ! ولا اعتقد ان هيكل قد نسي ذلك ، وتمنيت لو صحا عبد الناصر من قبره اليوم ليرى هيكل يفعل ما كان يتهم هيكل به علي أمين قبل أربعين سنة !!

لقد جاءنا هيكل بخليط كتاباته من هكذا ميدان عجيب غريب تتمثل على ساحته كل الالوان والاسماء والاشياء التي يستطيع ان يحركها كيفما يشاء ! وعليه أقول : بأن التراجم والسير لابد ان يكون المؤرخ فيها أميناً وواثقاً وصادقاً في ما يكتبه من الأخبار والأسرار والمعلومات الخاصة عن حياة هذا أو ذاك خصوصاً إذا ما تعلق الأمر بمكانة زعيم أو مسؤول

معين تعارض بعض الناس سياسته أو كانت له مواقف سياسية معينة لم يتفق فيها معه بعض الجماعات والنخب . وعليه أيضا ، فإن من يكتب سيرة أي فرد من الناس ان يكون حذراً من تدليس المعلومات أو إلقاء جملة من التهم التي تطال شخصيته أو تصرفاته أو عائلته أو زوجته وأولاده أو أهله وبلده وعشيرته . . فالبلدان كالبيوت لها حرمتها ، والاموات كالاحياء لهم كرامتهم ، وللتواريخ جذور ومستندات لها حقائقها . . أتمنى من القراء العرب الكرام سواء كانوا من ذوى التخصص ام من ذوى الاهتمام والثقافة العامة التوقف عند كتابات هيكل مليا ، والتفكير في مضامينها جليا ، ثم التأمل في صياغة (المعلومات) من خلال تركيب الاحداثيات واللقاءات . . ثم الخروج بالاستنتاجات .

أخلاقيات الكتابة التاريخية :

سادساً : يعتبر هذا الموضوع خطيراً جدا في التدوين التاريخي المعاصر ، اذ يجب ان يمتلك المؤرخ دقة متناهية وخصوصاً ما يخص السلوك والسياسات والتاريخ الشخصي والأسري والعلاقات الذاتية والنشأة والأخلاق والارتباطات . . . . . . الخ لأن المتلقي مهما كان نوعه ، سواء كان ذلك معاصراً لزمن المؤرخ ، أم من سيتلقّى ذلك بعد أجيال سيتخذ من هذه التدوينات مصدر معلومات . . هذه المسألة حساسة جداً من الناحية الاجتماعية والتاريخية لأن هذا المتلقي أو ذاك ، عادةً ما يبحث عن الأسرار وعن السمات الشخصية وكثيراً ما يؤثر ذلك على بناء الأحكام التاريخية في الحاضر والمستقبل . وكثيراً ما تلصق بعض الاتهامات والتدليسات والتقولات والانتحالات بحق زعماء ومسؤولين ونسوة ورجالات . . فتؤخذ في بعض الاحيان على عواهنها دون أي نقد او فحص او تدقيق . . وتفسر على أنها حقائق ثابتة فتؤثر في أسلوب التفكير ، وتغرس خطاياها في المجتمع أو الحياة العامة أو الثقافة القومية للامة . .

وكثيراً ما يجد بعض الذين يدونون السير والتراجم والمذكرات من الكّتاب والساسة والصحافيين من غير المؤرخين فرصاً تدفعهم إليها نزعات مختلفة ومتباينة ، كأن تكون للشهرة والمال والسمعة الخاصة والتفرد للظهور فيمزجون بكتاباتهم مجموعة من الأقاويل تستقطب القراء والمهتمين ولكن خطورة ذلك ستصبح مادة تاريخية في المستقبل ، وخصوصا عند

الاجيال الثلاثة القادمة . . فمثلا بقيت الافكار والآراء والمواقف في الثقافة العربية عن كل من سيرة السيد جمال الدين الافغاني وتفكيره خاطئة بعد وفاته عام ١٨٩٧ ، وشغلت مجال القرن العشرين بطوله وعلى مرور ثلاثة أجيال كاملة . . حتى بدأت جملة من الحقائق التاريخية تنجلي اليوم عند نهايات القرن العشرين عن كل من سيرته وتفكيره معا ، وهذا ما سيحصل عند هيكل مع قياس الفارق الكبير بين الرجلين . . ولكنني أعتقد ان حقيقة هيكل ستنجلي بعد أجل قريب ، وخصوصا لدى الجيل القادم .

الرجل العام والرجل الخاص:

سابعا : صحيح كما ذكر هيكل في إجابته على سؤال طرحه عليه صلاح عيسى في حوار معه قال : بأن «هناك فرقاً بين الرجل العام والرجل الخاص وان الرجل الخاص . وأن الرجل العام يتقدم ليتحدث باسم الناس وينوب عنهم ويتصرف في مصالحهم ويصدر قرارات تمس حياتهم اليومية . ومن هنا فتصرفاته وسلوكه ومزاجه النفسي والعوامل التي أثرت في نشأته ينبغي ان تكون محل اهتمام الناس ، ومن حقهم ان يعرفوها ويفهموها . أما الرجل الخاص فيقتصر أثر تصرفاته على نفسه وعلى أسرته ، فليس من حق أحد ان يهتم بما هو خاص في شؤونه الإ الذين تربطهم به علاقات مباشرة ، لقد ناقش المؤرخون ، وما زالوا يناقشون حياة الخلفاء . فهل من المعقول ان يطالبنا أحد بأن لا نناقش حياة حاكم لم يكن خليفة وليس هو بنبي ؟» (مثقفون وعسكر ، ص٦٠٠)

الإجابات إزاء التقولات: بين المعقول واللامعقول

اولاً : صحيح أن هناك فارق بين الاثنين ربما يعتبر البعض الرجل العام هو ملك للجميع والرجل الخاص ملك لأسرته ، ولكن مصطلحياً وتاريخياً ، فالعام هو من العموم (=عموم الناس) والخاص هو الاستثناء . معنى ذلك : أن الاهتمام في التدوين التاريخي لسير الأشخاص وتراجمهم ينبغي أن تنصب على الخاص بدل العام .

ثانياً : ليس من حق أحد في الوجود ان لم يقر ويعترف ويسمح لأي إنسان مهما كان سواء كان أنساناً عاماً أم أنساناً خاصاً ، وسواء كان مواطناً عادياً أم كان مسؤولاً واحداً وكبيراً في الدولة والمجتمع . . ليس من حق أحد إن لم يسمح له أن يكتب وينشر أشياءه الخاصة أو

أسراره التاريخية والشخصية ، وليس من حق الناس إن لم يكن يسمح بذلك أن يطلعوا عليها ويفهموها .

ثالثاً : كل ما جـرى من تدوينات على امتداد تاريخنا في السـير والتراجم وكتابة القصص وكتابة الأسرار الشخصية سواء كانت عن حياة الخلفاء والمسؤولين والزعماء والحاكمين أم حياة العلماء والفقهاء والنقباء والادباء ورجالات المجتمع . . انما لها حدوداً أخلاقية ولها ضوابط منهاجية . وعليه ، فقد ميز المنهج التاريخي في التدوينات للتراجم والسير بين الذي اعتاد عليه الناس في سماعهم له ، أو ما هو غير معتاد عليه في الذي يتطفل به بعض الناس . وعليه وجدنا الفرق الكبير بين سير الخلفاء والفقهاء ومن شابههم وبين سير الخلعاء والمتهتكين والاشقياء ومن ماثلهم .

رابعا : وعليه ، نجد أن ثمة تدوينات في السير والتراجم يؤخذ بها وبمعلوماتها وتواريخها ، وهناك معلومات وأسرار لا يمكن الأخذ بها عن خليفة معين أو حاكم ما فمثلاً الفرق كبير بين الذي أورده مؤرخ حصيف مثل أبن الأثير في «**الكامل في التاريخ**» وبين أديب معروف كابي الفرج الأصفهاني في كتابه «**الأغاني**» ، كلاهما كتب عن حاكم معين ولكننا اليوم وبعد مرور أكثر من ألف سنة نستطيع أن نميز بين الذي كتبه هذا عن الذي كتبه ذاك .

خامسا : لا يمكن للمؤرخ وهو يدون ويسجل حياة الأشخاص خصوصاً إذا ما كان على علاقة معهم سواء كانت طبيعتها ثقافية أم سياسية أم اجتماعية . . ليس من حقه ان يقتنص الفرص متوثبا . . لكي يسجل ما يشاء عنهم في حياتهم ولا ينشره على الملأ الا بعد مماتهم ، اذ ينبغي عليه ان يكون جريئا ويتحلى بشجاعة أدبية لكي يعلن مشهرا على رؤوس الأشهاد وأبان حياة المترجم إذاعة تلك المعلومات ونشر تلك الاسرار . .

لماذا؟

لان صاحب تلك المعلومات ان كان حياً فسوف يقبل ما هو صحيح ويدحض ما هو باطل من أساسه . . أما وقد مات صاحب الامر ومحور القضية ، فسوف لا يستطيع ان

يوضح للناس وللتاريخ والأجيال صحة هذا من خطأ ذاك . أذن العملية هنا ليست تدوينية فحسب ، إنما هي أخلاقية بالدرجة الأولى .

سادسا : لكن يتابع هيكل بقوله : «هل من المعقول أن يأتي كل حاكم أو خليفة أو زعيم ويفعل ما يشاء ثم يذهب فلا نناقشه في حياته . . . . . ولا نناقشه بعد مماته أهذا معقول؟» (مثقفون وعسكر ، ص ٦٠٠)

لكي نجيب على هذا القول فعلينا ان لا نخلط بين مهمة السياسي ومهمة المؤرخ ؛ باستطاعة السياسي أن يناقش أولي الأمر أثناء حكمهم ، ولكن ليس باستطاعته ان يستغل وفاة صاحب العلاقة لكي يلقي بالتهم جزافاً باسم التاريخ كونه صحفيا وليس مؤرخا . . ولكن من كان في يوم من الايام مؤرخاً باستطاعته ان يدون كل ما يقرأه ويسمعه ويراه دون مناقشه بل يتركها للأجيال . . فالمؤرخ كما نعرف يجب أن يتخلص من أية علاقة سياسية أو إيديولوجية إذا تبقي مهمته اخلاقية حيادية منهجية أمينة وصادقة .

استنتاجات :

نستخلص من هذا التحليل النقدي حول كتابة السير والمذكرات في التدوين التاريخي بعض الاستنتاجات المهمة :

اولاً : قيمة العمل هنا تتحدد ضمن إطار منهجي لا يمكن الخروج عن قواعده مهما كانت الظروف ومهما كانت الأوضاع .

ثانياً : الفصل بين ما هو كتابة تاريخيـــة ومعرفة وثائقية وكتابة ســـياسية وأيديولوجية تجارية . . فالكتابة التاريخية في هذا المجال ينبغي ان تترك فرصة التفكير واطلاق الحكم فيها للأجيال القادمة مقارنة بالاختلاف عما يكتب سياسياً ذلك لان الكتابة السياسية والصحفية والشخصية فيها الغث والسمين ولا يمكن ان تكون نزيهة إلا اذا أخضعت لعملية النقد المقارن ، وهذا ما تنّص عليه منهجية الفكر المقارن .

ثالثاً : لا يمكن لنا ان نفرق بين ما كتب من ســـير وذكريات بما كان قد حصـــل عند المؤرخين القدماء الذين كتبوا ضمن منهج واضح وقواعد معينه أسس التراجم السير حتى

وان ضمت كتاباتهم الصواب والخطأ ، لكنهم لم يحددوا كتاباتهم بطبيعة العلاقة الشخصية أو الايديولوجية أو السياسية التي تربطهم مع هذا أو ذاك .

رابعاً : لا يمكن لصاحب المدونات والتسجيلات والمعلومات عن الأشخاص خصوصاً القادة والزعماء والذين هم ليسوا أبناء قطاع عام بل هم استثناء سواء في حياتهم أم بعد مماتهم وعلى العموم ، لا يمكن لصاحب المدونات عنهم ان يدخل نفسه ضمن مضامين تلك التسجيلات ، ويجعلها موازية لمستواهم . . ولا يمكن له ان يوزع الأحكام أو ينشر التهم أو يكتب التدليسات ، من حقه ان ينشر رسائل ويحقق وثائق ويدقق في الأصول وايضاً يكون صادقاً واميناً في عرض الأصول والقضايا والمواقف والسياسات . . كما لا يمكن له ان يفسر خيارات الحرب أو قرارات الزعماء على هواه لان تراجم الناس وحياة الزعماء المؤثرين في الدولة والمجتمع هي ملك للتاريخ وليس لمن كتب عنهم .*

وأخيراً ، أعتقد بأن نخبة قديرة من زملائي المؤرخين العرب المعاصرين يشاركونني الرأي والرؤية والدعوة للعمل بادوات المنهج واساليب التوثيق في اسناد المعلومات من اجل التأكد من سلامتها ، ولتوفير قدر من المصداقية العلمية للمؤرخ الذي يغامر في كتابة مواد تاريخية . . وكيف اذا كانت تلك المواد تتضمن معلومات خطيرة واحكام قاطعة كالتي كتبها محمد حسنين هيكل ليس في كتاباته الاخيرة حسب ، بل في كل كتبه التي يتناولها القراء ويعتمدون معلوماتها التي ليس لها أي مصداقية كونها فاقدة المنهج والتوثيق بشكل عام .

---

* من أجل توثيق كل ما ذكرته في اعلاه ، يراجع :
- السير هاملتون جب ، علم التاريخ ، ترجمة : إبراهيم خورشيد ويونس عبد الحميد (بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨٣) .
- عبد العزيز الدوري ، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب (بيروت : الكاثوليكية ، ١٩٦٠) .
- عزيز العظمه ، الكتابة التاريخية والمعرفة التاريخية (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٨٣) .
- عبد الله العروي ، مفهوم التاريخ : الألفاظ والمذاهب ، جـ١ ، ط ٢ (بيوت/ الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي ، ١٩٩٢) .

ثانياً : الملك حسين : نصف قرن من تاريخ القرن العشرين

(ضرورات الفهم.....بعد الرحيل)

مقالة غريبة الأطوار:

ما الذي دعا هيكل لكي يسمي مقالته التي نشرها في مجلة «**وجهات نظر**» ، أبريل/ نيسان ١٩٩٩ بـ «شخصية الملك حسين : ضرورات الفهم . . . قبل الحكم ولكن إلى أي مدى ؟!» إذ سنجده في مقالته هذه لا يخرج كثيراً حتى عن تلك الأطوار التي آلفه فيها القارئ العربي ، خصوصاً وأن أجوبته على بعض منتقديه عليها ، جاءت رفقة المقالة الاخرى التي نشرها بعد ذلك عن الملك الحسن الثاني ملك المغرب - كما سنأتي إلى تحليل ذلك لاحقاً في الفصل الثالث من هذا الكتاب - بعد رحيل كل من الملكين العربيين الحسن والحسين في آخر عام من القرن العشرين !

جنازة القرن العشرين:

يقول هيكل مفتتحاً مقالته عن الملك حسين : «إذا كان هناك دليل مادي مطلوب لكشف أحوال العالم العربي في نهاية هذا القرن العشرين - فان مشهد جنازة الملك حسين ملك الأردن الراحل - هو ذلك الدليل المادي المطلوب ! وفي حقيقة الأمر فان هذا المشهد - فكرة وإخراجا وعرضا - كان إنتاجا جديداً لنصين متشابهين سبقاه الأول جنائزي أيضاً وهو تشييع جثمان رئيس وزراء إسرائيل الأسبق «إسحاق رابين» (شتاء ١٩٩٥) ، والثاني لحسن الحظ نصّ احتفالي هو مؤتمر شرم الشيخ لمقاومة الإرهاب (ربيع ١٩٩٦) . ألان هذا الموكب الجنائزي في عمان الصور هي هي والنجوم نفس النجوم ، والحوار تسلسل طبيعي ، والمغزى أو المعنى أو الهدف متقارب ، ومقصده :

- استيعاب صدمة مفاجئة في الشرق الأوسط جاء بها الموت أو الاغتيال أو التفجيرات الفدائية .

- العمل على تثبيت مواقف الأطراف فيما يسمي بالمسيرة السلمية في المنطقة عند الحد الذي بلغته ، وضمان ألا يتراجع أحد بمظنة تغير الظروف .
- وانتهاز الفرصة للتفتيش وسط فوضى المصائب عن فجوة يكون منها مخرج ولو بالهرب إلى الأمام خطوة إذا أمكن أو خطوات !

وتلك مطالب لا تتصل بالاشجان أو الأحزان ، وانما تتصل بممارسة القوة سواء باستغلال جلال الموت أو وحشة القبور . (**وجهات نظر ، ٤/٣**)

لقد كتب هيكل هذا «النص» مقدمة لمقالته الطويلة عن شخصية الملك حسين ، وقبل ان يستطرد اكثر ويكمل مقدمته بتعليق سنورده بعد قليل ، لابد ان نتساءل عن كل هذا الإنشاء الأدبي والتعابير المتداخلة مع بعضها البعض الآخر ! فهل كانت جنازة هذا الملك الراحل دليل مادي مطلوب لكشف أحوال العالم العربي عند نهاية القرن العشرين؟ أم أنها كانت حصيلة رمزية معبّرة لتاريخ رجل رحل قبل أوانه! وإنها حصيلة كاملة لتاريخ قد رحل عنا وعمره نصف قرن من الزمان . . . نصف قرن صعب شغل أسم الرجل كل تفكير العرب بلا جدال سواء أولئك الذين كانوا معه أم اولئك الذين وقفوا ضده . . نصف قرن من حكم زعيم غير اعتيادي . . شهد مختلف البدائل التاريخية : سياسية وإستراتيجية في عملية صراع العرب ضد إسرائيل . . وحصيلة معبرة فاقت كل المشاهد التي اعتبرتها سيناريوهات اعد لها فكرة وإخراجا وعرضا ؟ كيف بإمكانك ان تفرق هذا الذي اعتبرته مشهداً وعددته إنتاجا جديداً قد أعدّ مسبقاً لنصّين متشابهين سبقاه ؟

حصيلة التاريخ عند نهايات قرن :

أهكذا يمكنك قياس حالات مثل هذه؟ لماذا تناسيت مشهدين آخرين يعتبران حصيلتين رمزيتين لتاريخ واحد موحد في النصف الثاني من القرن العشرين؟ **اولهما** مشهد جنازة الرئيس جمال عبد الناصر في مطلع السبعينيات ، **وثانيهما** مشهد جنازة الرئيس أنور السادات في مطلع الثمانينيات . ألم يكونا مشهدين حافلين في بداية كل من العقدين المذكورين . . . . . ؟؟ وكم تضمنا من الصور والألوان والرموز والمعاني؟ فان جاء مشهد جنازة الملك الراحل الحسين بن طلال عند نهايات القرن ، كما كانت عليه صورته الاوسع والاكثر

مهابة وتنظيما فهو حصيلة عهد تاريخي جمع مختلف البدائل والرموز والمعاني لحياة نصف قرن كامل . . . وهي دليل على المكانة التي تمتعت بها شخصيته بوصوله ذروة الكاريزما ، وعد واحد من الزعماء القلائل الذين بقوا في الحكم قرابة نصف قرن جابه خلالها بفعالية بالغة مختلف التحديات والمشكلات والازمات . . وهذا ليس بكلام عام او بتعبير مختلق في مدح الرجل ، اذ شهد الاعداء بذلك قبل الاصدقاء . . فضلا عن كون ذلك حقيقة تاريخية ستذكرها عنه الاجيال القادمة شئنا أم أبينا .

ومن قال لك يا هيكل بأن صور الموكب الجنائزي في عمان الذي يبدو انك لم تتحمل قوة أثره وتأثيره ، ولم تكن تتصور انه سيأتي حصيلة تاريخ إذ كما وصفته انه موكب مرحلة سياسية فهو لم يتضمن الصور نفسها ، ولا النجوم نفسها ولا الوجوه نفسها . . . . . انه ليس حوار تسلسل طبيعي لمرحلة معينة . . . بدليل ان هناك وجوها تنوعت انتماءاتها ، وتعددت واجهاتها بين الشرق والغرب . . . انه حصيلة جامعة ليس للتاريخ حسب ، بل للجغرافية الدولية أيضاً . . . وانت ذكي يا هيكل أو لابد أن تكون هكذا من أجل ان تفهم سيرورة التاريخ عندما تتغير موازينه بين المراحل التاريخية في معاصرتنا أبان القرن العشرين . . . كما انك تفهم المتغيرات الدولية واثرها في الجغرافية أيضاً !

وعليه ، فان ما سجلته في مقدمتك للموضوع من الاستنتاجات سواء في مقاربتك أو في مقارنتك ، فانها قد جاءت ـ مع الاسف ـ مخالفة لسيرورة ما ينبغي ان يكون على امتداد نصف قرن وليس لرؤية مجتزأة تنبعث من زاوية أحادية لما غدت عليه أوضاع عقد التسعينات ! فكيف كانت الجنازة التي دعيت بجنازة القرن العشرين استيعاب صدمة مفاجئة في الشرق الأوسط ، إنها عملية لتثبيت مواقف الأطراف فيما يسمى بالمسيرة السلمية في المنطقة ، أو أنها انتهاز (أو : اهتبال) الفرصة للتفتيش وسط فوضى المصائب ؟؟ وجعلتها فجوة يكون منها مخرج ولو بالهرب إلى أمام خطوة إذا أمكن أو خطوات!؟

وكيف جعلتها مطالب لا تتصل بالاشجان أو الاحزان ، وانما اعتقدت بأنها تتصل بممارسة القوة ، ووضعت ذلك بين احد نقيضين : جلال الموت أو وحشة القبور !

بعد كل هذا الذي انشأت الكلام من اجله . . . . جئت لكي تبرر ما قلت ، أي كانك

تقتل القتيل وتمشي في جنازته ، فماذا قلت ، لقد كتبت مستطردا ، تقول مع بعض الوخزات التي عرفت بها : «وليس في ذلك كله ما يسىء إلى جنازة الملك «حسين» فلقد كانت جنازة مهيبة جليلة في نواح عديدة منها ، خصوصاً عندما تدافعت مشاعر الناس العاديين في الأردن وقد خرجوا يودعون رجلاً لم يعرف معظمهم في حياته حاكماً غيره ، وهم إذ عرفوه تعوّدوا عليه وحتى حينما كانت التقلبات الحادة تجنح بسياساته على هذا الشاطئ أو ذاك فانهم كانوا على اطمئنان طول الوقت معه ، متأكدين من مرونته ، واثقين انه في الثانية الأخيرة من الدقيقة الاخيرة سوف يجد لنفسه شبكة أمان يقفز إليها الجميع» . (وجهات نظر ، ٤/٣)

أين حقيقة الأشياء يا هيكل؟

وقبل ان نناقش ملاحظاتك هذه التي ناديت بأن يصح تسجيلها ، لابد ان اسجّل على عباراتك في اعلاه بعض ملاحظاتي النقدية من جانب **مؤرخ متواضع لا سياسي مؤدلج** .. يفكر في ما يقول ، لا ككاتب يهوى أنشاء العبارات التي تحتمل التأويل لوخزاتها التي لا تعد ولا تحصى ، أقول :

١ . انك تعترف بمهابة الجنازة وجلال قدرها ، مقتصراً على نواح عديدة .

٢ . ماذا تقصد بالناس العاديين في الأردن ؟ اعتقد انك لم تدرك إلى حد يومنا هذا طبيعة المجتمع الأردني ولا حتى طبيعة المجتمع العربي ، بدليل تفريقك بين فئات المجتمع تفرقة لا صواب فيها ! .

٣ . إنني كمراقب للحدث ، لم أجد الاندفاع قد حصل من لدن الناس العاديين فقط ، فلقد هبت كل الجموع والفئات الاجتماعية العليا والوسطي والدنيا . . . ، وكل الأصدقاء والأعداء ، وكل شرائح المجتمع بمختلف انتماءاته الدينية والعرقية والسياسية والايديولوجية! وكل الناس من مختلف المنابت والأصول والمهاجر ! .

٤ . ولماذا اصبحت الجماهير بقضّها وقضيضها من الناس العاديين؟ لقد تداعت كل النخب الثقافية والسياسية وكل الفئات الاجتماعية والعمرية . . . . وكل التموجات السكانية في المدينة والريف والبادية في مسار المهابة . . . .

٥ . وحتى ان كان التعبير بالاشجان والاحزان ، فهي اصوات منها ما ناء عنها البكاء ومنها ما انساحت على وجناتها الدموع . . . انها تعبير حقيقي عن رحيل تاريخ كامل في اللحظة المتمفصلة بين قرنين كاملين . . وسواء اختلفت أم اتفقت معه او مع مشروعه ، فالعجيب ان خصومه الاشداء من الساسة العرب الثوريين قبل أربعين سنة وجدوا ملاذا عنده في نهايات حياتهم فاكرم وفادتهم ، وهم كثر واعتقد أنك سمعت بهم ومنهم : السياسي الراحل أكرم الحوراني . . والسياسي خلدون ساطع الحصري والسياسي هاني الهندي وغيرهم .

٦ . واذ لم يكن ذلك الشعب بمختف نخبه وفئاته وطبقاته وشرائحه وانتماءاته وجماهيره لم يعرف حاكماً غيره . . . . فما رأيك باولئك الذي ودعوه من اعماقهم وبكوه بكاء الصعب . . وقد كان الرجل حامياً لهم ونصيراً لمأساتهم إذ كان قد فتح لهم قلبه وبلده في حين صد الاخرون عنهم في محنتهم الصعبة . . . . علماً بأن اولئك الناس قد عرفوا غيره في حياتهم فخبروا خيره ! حتى قال شيخ شعرائهم في حقه ما قال قبل سنوات خلت . . قصيدة هزت العقول والمشاعر وما كان التاريخ السياسي لذاك الشيخ يتفق في يوم من الايام البعيدة مع سياسة الرجل . . لكنها حقيقة تاريخية برزت واضحة للعيان .

٧ . واخيراً أقول : إذا كان الشعب قد ودّعه توديعاً حافلاً في جنازة القرن ، فلأن ذلك الشعب كان قد استقبل ملكه عند عودته قبل النهائية استقبالاً حافلاً أيضاً ، وقد أبى الرجل الا ان يبقي محيياً الجماهير من سيارته المكشوفة على مسافة طويلة تحت وابل من المطر الغزير . . . . وتحت مرأى ومسمع العالم كله ، وفي ذلك كله دليل أخر لا يمكن تغافله في تسجيل ومعرفة الايام الاخيرة من قيادة الرجل لبلده .

عودة الى مربط الفرس :

نرجع إلى ملاحظاته الان التي وددت تسجيلها ، وهي ثلاث ، وما كنت اريد ان يسجلها هيكل ، لأنها تدينه اولا وأخيرا عندما يكتب اليوم تاريخا ، ولكنها سوف لن تقدم أو تؤخر من تقييم الحدث وصاحبه وتختصّ ملاحظاته الثلاث بالمسألة الدستورية اولاً وتأخير مراسم الجنازة وطقوسها ثانياً ، وميزات الملك حسين ثالثاً :

صاحب الشأن أدرى بشأنه:

١ . ليس من حق أي مراقب بعيد جغرافيا أو مؤرخ للاحداث زمانيا ان يعد على الاخرين انفاسهم وفسحات وقتهم ويحاسبهم عليها . . . فتلك امور لا يدرك تفاصيلها الا من كان يقف في الميدان ، واي عائلة لا تريد لربانها الا الحياة ! اما ان تقول بان تأجيل الموت قد حدث استعدادا للترتيبات ، فهذا كلام ليس في محله . . . . ثم ان للرجل الذي ساس مملكته قد سمح له الدستور في ان يصدر ما يراه الاصوب لصالح بلاده ومستقبلها . . . . وهذا شأن داخلي لا يمكنك ان تعترض عليه ، وليس من حق أحد الاعتراض عليه . وهنا لابد ان أسألك أنت شخصيا : هل اعترضت على الرئيس الراحل جمال عبد الناصر عندما قرر تنصيب انور السادات نائباً له ، لكي يخلفه في سدة حكم مصر بعد رحيله!؟ أو أعترضت عندما أتى السادات نفسه لحكم مصر ، فلا زلنا نذكر كم مدحت السادات وبالغت في ذلك عندما تولى الحكم . . ثم ماذا كتبت عنه بعد رحيله ؟

نقدات في غير محلها:

٢ . وماذا لو تأخرت الجنازة خمس ساعات أو اكثر ؟ هل كنت مشاركاً في صنع الحدث ، لكي تعرف الاسباب الحقيقية ، فلقد تنادى الناس من كل البوادي والقرى والقصبات والمدن والاطراف في الداخل . . . . كما غدا مطار عالية الدولي في حالة لم يسبق مثلها من قبل أبدا ! اما انتقادك لبعض المواقف التي استكشفت فيها ما هو جديد وغريب كتدلي الحذاء الطويل من سرج الحصان الذي غاب عنه فارسه انما هي عادة لا تتصل مباشرة بتقليد عربي أو اسلامي . (وفي الهامش رقم ٢ نهاية مقالتك تنقل عن د . محمد حسن عبد الله في مقال له بالاهرام ١٩ فبراير/ شباط ١٩٩٩ ان تقاليد بعض القبائل العربية كانت بعد رحيل الفارس تقتل حصانه حتى لا يركبه بعده غيره) وأسالك : أهي عادة ضارة في ان يكون حصان الفارس في وداع صاحبه ؟ ولماذا قتل الحصان بعد غياب صاحبه ؟ ولئن كانت احدى قبائل العرب لها عادتها ، فلماذا تجبر كل العرب ان يتبعوا تلك العادات ؟

تحريف التاريخ:

٣ . وجئت تنتقد مسألة إلقاء النظرة الاخيرة على الراحل ، واعتبرتها طقس من

الطقوس التي شاعت في ظروف الحروب الصليبية ، «حين كان رفات المحاربين يعود من الغربة الطويلة في الشرق ثم يعرض امام الاهل والاقارب والاتباع لنظره وداع قبل الغياب النهائي !» (وجهات نظر ، ٣/٥) .

هل هذا كلام معقول ؟ من اين أتيت بهذه المعلومة التاريخية التي لا نعرفها نحن معشر المؤرخين ، والتي قمت بالتحقق منها والتثبت من أصولها من قبل زملاء لي يختصون بأحقاب العصور الوسطى الأوربية والحروب الصليبية بشكل خاص ، فلم يوافقوا ابدا على هذا الذي جاء به هيكل !! لا على مستوى معلومة القاء النظرة الاخيرة عند الأوربيين في العصور الوسطى ، ولا على مستوى اعادة رفات المحاربين العائدين من الغربة الطويلة في الشرق ، لكي تعرض جثثهم أمام الاهل والاقارب والاتباع ! إذ كان الصليبيون يدفنون قتلاهم في الشرق حتى ان كانوا بمرتبة حاملي لقب «الكونت» فكيف يأتينا الكاتب ليدلس علينا الخبر بل ويختلقه اختلاقا ، ويكتب انتقاداته اليوم ضد جنازة الملك حسين مقرناً اياها بما لم يكن له أي اساس من الصحة في التاريخ !؟*

خصوصية المعزوفات الأردنية:

٤ . وينتقد هيكل المعزوفات الأردنية التي عرفتها منذ زمن بعيد موسيقى الجيش العربي في الأردن ، والتي نذكرها مذ كنا اطفالاً وصبياناً تتميز بها ، وتسمعها إيانا محطة الاذاعة الأردنية منذ الخمسينات ! تلك التي جاء نا اليوم لينتقدها كونها موسيقى اسكتلندية عزفت في جنازة العصر ، إذ يقول : «يلحق بذلك ان انين موسيقى القرب الاسكتلندية وآهات النفخ في الابواق على حواف القبور أقرب إلى تقاليد الجيش البريطاني في دفن قتلاه أثناء حروب المستعمرات (في الهند مثلا) منها إلى موروث عربي أو اسلامي» (وجهات نظر ، ٣/٥) .

ولا ادري الم يسمع هيكل بالموسيقى العسكرية الأردنية التي تنفخ بالقرب منذ عقود

* من أجل توثيق معلوماتي ، راجع :

- S. Runciman, *A History of the Crusades,* 5 vols., London, 1978.
- M. C. Lyons and D. B. Jackson, *Saladin the Politics of the Holy War* (Cambridge: Cambridge University Press ,1982)
- J. Richard, *The Latin Kingdom,* trans. by Janet Shirley, 2 vols., Amsterdam, 1979.

طويلة من السنين؟ أم أنه أرادها فرصة ثمينة ، لكي يقرن جنازة الملك حسين بتقاليد الدفن في الجيش البريطاني ؟ وهو لا يدري بأن تقاليد الدفن في الجيش البريطاني لا تعزف فيها الموسيقى الاسكتلندية التي تؤديها قرب النفخ. لقد اخفق هيكل في مقارنته ، وبدا وكأنه لا يلقي التهم جزافاً على الجنازة بحد ذاتها فحسب ، بل ويصوب السهام المسمومة إلى صاحب الجنازة الملك حسين !

والاحلى من ذلك كله ما أنهى به هيكل نقداته في هذا الباب كي يطالب بأي موروث عربي أو إسلامي . . . . . وكأن الملك حسين لم يكن رجلاً عسكرياً له رتبته العسكرية العربية العليا ، وشارك في حروب عدة . . . . ولا ادري ان كان كاتباً يدرك بأن تشييع القادة العسكريين تصاحبه المارشات العسكرية الموسيقية وفي اي بلد عربي أو إسلامي ، فهل تلك المصاحبة الموسيقية للمارشات الحزينة هي من الموروث العربي أو الإسلامي ؟

أصول العزاء العربي:

٥ . أما انتقادك بأن موكب العزاء الطويل قد اضطر إلى مصافحة الملك الجديد وإخوانه لاعداد هائلة من الناس وتجاذب الحديث مع معظمهم بعد انتظار طويل لدورهم في الصفوف ، وبينهم ملوك ورؤساء ووزراء وسفراء وقواد جيوش وزعماء أحزاب الخ كان الإسهام العربي البارز في مشاهد الجنازة ، ويعلق قائلاً : «وربما أريد له ان يسترجع العادات القبلية والعشائرية !» (وجهات نظر ، ٣/٥) .

حرام هذا التضليل ، فكلنا أحياء ، وكلنا شهدنا الحدث ، الذي نقلت مشاهده كل المحطات التلفزيونية العربية . فالمصافحة للعزاء عرف عربي واسلامي ويعرفه كل العالم . اما تجاذب الحديث مع معظمهم ، فلم نشهد هناك تجاذب لاحاديث ، بل كلمات ينبغي ان تقال من قبل السادة المعزّين . . . . وكل المعّزين يعرفون انه موكب عزاء كبير ، والأعداد هائلة من الناس . . . وليس هناك أي استرجاع لعادات قبلية أو عشائرية ، لكي تتعّجب من ذلك المشهد الذي لابد منه !! لقد تبين واضحاً من كلامك بأنك لا مع هذا ولا مع ذاك . . . . فلم يعرف القارئ ماذا أردت ان تقول في توصيفك للحدث ؟ ولكن المتوغل في مشكلتك سيدرك للتو ، لماذا كانت توصيفاتك لجنازة الملك حسين كونها تفوقت على غيرها من

الجنازات ! ولكن من السخف جدا ـ كما أعتقد ـ أن يشغل التفكير العربي نفسه بمثل هكذا أمور . . أوصل الامر الى حد الحسد حتى لجنازات الزعماء ! ؟

جنازة العصر : بيت القصيد

٦ . وتقف في ملاحظتك الثالثة ، وهي بيت القصيد الذي أردت أن تقوله بعد كل الذي تعرّضت لذكره . . . . تقول : «ان كثيراً من الكلام الذي قيل في مناسبة الجنازة وبعدها تجاوز ما يخص الملك حسين نفسه والحاصل ان الملك كان إنسانا يملك صفات تلفت النظر ، وله مواقف شديدة الأهمية ، ومحاولات أخذته جزئياً إلى مهاوي الخطر . . . . ولكن بعض العبارات والشهادات التي احتواها النص الثالث الجنائزي بدت تزّيداً على السياق ومبالغة لا يقتضيها حواره . ومن ذلك ان يقال ان الملك حسين كان عميد السياسة في الشرق الأوسط» وكان «اعظم شخصية في القرن العشرين» وكان ملاذ الشعوب «يتجه إليه الجميع لطلب الرشد حين الحاجة إلى النصح» وكلها تجاوزات تسيء إلى الرجل بغير ذنب لأنه لا شئ يسئ إلى رجل أو إلى حدث مثل المبالغة حين تجمع عن حدودها المنطقية! » ـ انتهى نص هيكل - (وجهات نظر ، ٣/٥) .

الحصيلة الصعبة : مرارة هيكل

ان الحصيلة التي خرج بها هيكل أجدها ناقصة كثيراً ازاء نقده لبعض العبارات والشهادات بحق الرجل ، والتي وجدها قد زادت على السياق كما رآها مبالغة لا يقتضيها حواره . . . واعتقد ان هيكل على امتداد عمره قد خبر السياسة في الشرق الأوسط ، وعرف عدداً كبيراً من زعمائه ملوكاً ورؤساء وامراء . . . . . فلا ندري هل يكتب انتقاداته هذه في باب السياسة أم في مدخل التاريخ ؟ انه يقيم حدثاً تاريخياً دخل صاحبهُ ذمة التاريخ . . . وانه يكتب عن لحظة تاريخية معينه اجتمع فيها العالم لوداع رجل كان له اثره المتميز في تاريخ العرب المعاصر ، ويبدو هيكل هنا وكأنه لم يصبح شيخا ولم يستفد من تجارب السنين والرجال ، اذ بقي على نفس عقليته القديمة باذكاء المشكلات ، وعلى نفس أسلوبه بأن يجرح كثيرا ويداوي قليلا :

نصف قرن من الحكم:

١ . ان كاتبنا يدرك جيداً بأن الملك حسين حكم قرابة نصف قرن من حياة العرب وتاريخهم في القرن العشرين . . . . ونحن معشر المؤرخين العرب المعاصرين الذين يشتغلون في تاريخ العرب الحديث والمعاصر . . ندرك جيدا بأن من امتلك عهداً طويلاً في الحكم فهو استثناء عن غيره .

في قلب المشكلات العربية:

٢ . ان كاتبنا يدرك جيداً بأن الملك حسين على امتداد عهده الطويل ،لم يكن خارج دائرة التاريخ العربي المعاصر ، بل كان في قلب أحداثه وأزماته ومشكلاته وقضاياه منذ بدايات عقد الخمسينات وحتى نهايات عقد التسعينات . . . . مما جعله يكتسب خبرات وتجارب وممارسات في معظم القضايا العربية والقومية اكثر من غيره بكثير ، وقد اعترف بذلك كل زملائه من الزعماء العرب ، بل ووصفوه عميدا لهم باعتباره من أقدمهم حكما وأطولهم عهدا .

شفافية العلاقات مع كل الاطياف:

٣ . ان كاتبنا يدرك إدراكا جيداً بأن الملك حسين كان من اكثر الزعماء العرب الذين يمتلكون علاقات عربيه واسعة . . . . وحتى مع الزعماء والرؤساء الذين خالفوه في سياسته ، وشنوا عليه هجومات اعلامية كاسحة كان هو الرجل الأقدر على احتوائها وتجاوزها وتخطي كل عقباتها وآثارها ليس في التصدّي لها بل في اختراقها لأن واقعيته جعلته يقدر الأمور حق قدرها ، وأن أي تصدٍّ سيفقده الجولة . . . . وخصوصاً ايام ازمات الحروب العربية الباردة التي كان هيكل في مقدمة من كان يذكيها . . !

السياسة المرنة:

٤ . وبنفس الاسلوب الذي مارسه عربياً بنجاح سيذكره المؤرخون في المستقبل بتحليلاتهم لمواقفه المعتمدة على التوثيق الحقيقي لا التوليف الدعائي ، استخدام الملك حسين ذلك في سياسته المرنة علماً بأنه أدرك إدراكا عملياً ، انه يحكم بلداً له موقعه الحساس جغرافياً ، وهو يقع في مركزية بين عدة محاور وقوى . . وتتوجه نحو تلك المركزية

الجيوستراتيجية كل العيون والمديات الصعبة على امتداد قرابة خمسين سنه من عهده : إسرائيل على غربه وجمهوريتان عربيتان تتمذهبان بايديولوجية راديكالية منقسمة على نفسها !! في شرقه وشماله . . . ومملكة مترامية الأطراف لها نزعتها السياسية الخاصة في جنوبه ، ناهيكم عن أكبر دولة عربية كانت تفتح عليه النار بين الحين والاخر وهي قريبة منه جدا . . . . وكان ذكياً جداً في اللعب والحركة السريعة سياسياً واستراتيجيا بين الاطراف ذات الاسنان الحادة ! حتى وصفه الرئيس عبد الناصر براكب دراجة ماهر وسط حقل الغام !

التسامح والوسطية:

٥ . اما داخلياً ، فكان مرناً في توجيه الاحداث ، مستخدماً مرونته واعتداله ووسطيته ، فقد تميز بسياسته المسالمة في كسر شوكة معارضيه وخصومه السياسيين ، من خلال مواجهتهم وتكليفهم المسؤولية لكي يؤدوا واجبهم ، ويعتبر الملك حسين أول زعيم عربي يمارس هذا الاسلوب في الحكم ، إذ سبق غيرة في هذا الاسلوب ، وأقصد بغيره الملك الحسن الثاني عندما كلف في أواخر ايامه أحد أبرز معارضيه كي يتولى المسؤولية . . . . فضلاً عن ميزة يعرفها الجميع عن الملك حسين كونه لم يعدم احداً من معارضي حكمه ومن المتآمرين ضده أبدا على امتداد قرابة نصف قرن من عهده . . . . ناهيكم عن حنكته في معالجة المشكلات العويصة ، علماً بأن هزات عدة هزّت الأردن هزاً شديداً في مقدمتها : احداث عام ١٩٧٠ على أرضه ، اضافة الى عدد لا يستهان به من المحاولات الانقلابيه التي تعرض لها الأردن ، ومحاولات الاغتيال التي تعرض لها الرجل .

ويجدر بالذكر أن أحد المعارضين للملك حسين وهو من الساسة العرب (الثوريين) قال مرة عندما سئل : ماذا لو نجحت احدى الحركات والمؤامرات الانقلابية في الاردن ايام الخمسينيات أو الستينيات ؟ وكان المتوقع ان يجيب على غير ما أجاب . . لقد أجاب : بيني وبينك كان خرب بيت الاردن وبيتنا نحن العرب ، عندما يتولى القيادة أناس جهلة في فن السياسة والحركة والتعامل ، ولكان ضاع ما تبقى من الفلسطينيين !

المكانة الدولية:

٦ . اما دولياً ، فان اغلب المحللين والمراقبين والكّتاب وفي مقدمتهم رجال اختصاص من

اساتذة جامعات ومن كبار العلماء قد أشاروا إلى مكانته الدولية ، واجمعوا على انه أكبر من حجم دولته بكثير ؛ وكان يستقطب حالات من الصداقة مع دول العالم الجيدة مع العالم الاشتراكي قبيل سقوط الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩٢ ، فضلاً عن علاقاته المتميزة مع العالم الرأسمالي وعلاقاته الطيبة مع دول العالم الثالث سواء مع الصين أم مع امريكا اللاتينية . . . .

فضلاً عن قوة مكانته في المحافل الدولية التي كان هو الاقدر والاجرأ من الزعماء العرب المعاصرين في القرن العشرين على مخاطبة العالم من خلالها بالاسلوب والرؤية والتفكير الذي تفهمه وتدركه ، فضلا عن اللغة الانكليزية الرصينة التي امتلكها والامكانات الاخرى والتي وظفها في قضايا داخلية وعربيه وإقليمية .

الاحكام التاريخية :

بعد كل هذا الذي حكاه محمد حسنين هيكل عن «جنازة الملك حسين» التي يستغرب من تسميتها بـ «جنازة العصر» كما ويفترض ان الملك حسين لو عادت اليه الحياة بمعجزة ، سوف يستغرب لما قيل عنه بعد وفاته ولم يسمع منه شيئاً في حياته (**وجهات نظر** ، ٣/٥) . ويبدو ان هيكل لم يقرأ ما كتب عن الرجل في السنوات الاخيرة من حياته . . . . كما ان الرجل نفسه قد سمع اطراء عنه اكثر مما قيل بعد وفاته في مناسبات عدة وليس في بلده حسب ، أو حتى في البلدان العربية . . . . بل سمعها في جامعات مستقلة ومحافل علمية عدة في العالم منح في أروقتها أكثر من شهادة دكتوراه فخرية . . لم يمنح غيره من زعماء العرب في القرن العشرين مثلها وبقدرها . . وعلى هيكل ان يفتخر بهكذا زعيم عربي عاصره حتى وان اختلف معه سياسيا وايديولوجيا ، فانا وغيري من الناس العرب سيفتخر بك يا هيكل ان كرّمك العالم حتى وان اختلفنا اختلافا جذريا !

اما عبارة ونستون تشرشل بالانكليزية التي قالها تعليقاً على الذي سمعة من مديح عن نفسه وهي «Too good to be true» فليس كما ترجمها هيكل إلى العربية : «جميل جداً إلى درجة انه لا يمكن ان يكون حقيقياً» وهو تعبير دائماً ما يأتي على لسان المثقفين الإنكليز الكبار الذين يريدون التواضع امام حقائق الاشياء ـ كما كنا نسمعه منهم ـ اذ ليس معناه ان

ونستون تشرشل قد رفض ما سمعه بحق نفسه على لسان غيره ، بل تواضع امام ما سمعه ! واعتقد ـ وربما يشاركني كل من عرف الملك حسين من الزعماء الكبار او المواطنين في الشارع أنه كان من القادة المتواضعين ـ وهيكل يعترف بذلك على استحياء ـ .

الكاريزما والريادة:

اما تعليق هيكل القائل : « وأنصافاً للمنطق - قبل الأنصاف للملك أو للرجل - فإن ليس في مقدور سياسي مهما فعل ان يتجاوز بدوره موارد بلاده المادية والمعنوية . والأردن وطن عربي كريم ، لكن النفوذ لا تصنعه فضائل البشر ، وانما تفرضه عوامل أخرى ، الا في حالة الأنبياء والرسل وتلك مسألة أخرى!» (**وجهات نظر ، ٥/٣**) .

أسألك : ما علاقة القدرة السياسية والكاريزما السحرية لأي قائد ماهر . . ما علاقتها بموارد بلاده المادية والمعنوية ؟ لقد حكم على سبيل المثال لا الحصر : الحبيب بورقيبة تونس المعروفة بمواردها المادية والمعنوية إزاء العراق المعروف بموارده المادية والمعنوية وقد حكمه مثلا عبد السلام عارف (الذي لم تــزل أنت معجباً به) وحكمه أخوه من بعده عبد الرحمن عارف !! وأسألك أيا من الثلاثة امتلك القدرة السياسية والكاريزما السحرية في قيادة بلده ، واعلاء شأنها بين الامم !!؟ وحكم على سبيل المثال - أيضاً - لا الحصر : الملك حسين بلاد الأردن الذي عرفته بموارده المادية والمعنوية مقارنة بالرئيس الشاذلي بن جديد الذي حكم الجزائر المعروفة بمواردها المادية والمعنوية ، فأيهما امتلك القدرة السياسية والتحرك في مجال الأحداث وصنع التاريخ !؟ إنها مسألة لا تحدد في حالة الأنبياء والرسل . . . . ويبدو انك لم تقرأ التاريخ وخصوصاً التاريخ الحديث ، ولم تدرك مغزى فن السياسة والتربية والتكوين ، وفهم البطولة في التاريخ سواء اختلفت مع طبيعة سياسة ذلك «البطل» أم اتفقت مع اتجاهه وصناعة قراراته !

ويبدو ان أمواجاً كبيرة من الناس العرب ، يتخذون مواقفهم ، ويصنعون اتجاهاتهم ، ويطلقون أحكامهم حسب قياسات كالتي يذيعها هيكل بين الحين والاخر . . . . . انها بالفعل أزمة تفكير عربي حادة ، فاذا كان تفكير الرجل بهذه الصورة ، فكيف سيكون تفكير مجاميع عدة في وطننا العربي الكبير . . ليس علي أي أساس من وعي الحاضر وتمايز التاريخ

وفهم الاحوال وتصنيف الرجال ! ورحم الله اجدادنا العرب القدماء كيف كان تفكيرهم في الماضي ، وكيف غدا عليه تفكير احفادهم اليوم وهم يواجهون اقسى التحديات العاصفة في الحاضر والمستقبل .

حرمة الوعي وكرامة العقل:

وماذا قصدت يا هيكل بالعدوان على حرمة الوعي وعلى كرامة العقل في آن واحد ؟ وقد استنبطت ذلك من خلال مقارنتك بين ما كان يكتب عن الملك حسين أيام حرب الخليج (١٩٩٠-١٩٩١) ، وبين ما كتب عنه - وهو نفس الرجل - حين مرضه ووفاته (١٩٩٨- ١٩٩٩) . . . وأنا بدوري أسألك كمؤرخ عربي متواضع يتابع شؤون الامة وهمومها ومشاكلها :

١ . أي حرمة وعي هذه التي تريد الحفاظ على شرفها ؟ وأي كرامة عقل هذه التي تبغي ان تصونها ؟ وأنت تدرك جيداً بأن لكل رجل مؤثر في السياسة والتاريخ تختلف فيه الرؤى والأقلام ، والناس لها اتجاهاتها وتياراتها ومواقفها ، إذ ليس من المعقول أبدا ان يقف الجميع في صف واحد في تقييم الأحداث والرجال والقرارات . . وهذا ما وجدناه ليس في الملك حسين حسب ، بل كان من قبله الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، والذي لم تزل الآراء والمواقف والأقلام والرؤى والآراء منقسمة في تقييم تجربته . . فالأمر لا يتصل بحرمة وعي !

٢ . وأنت تدري وربما لا تدري بأن هناك فرق كبير بين الذي يقوله الناس ويكتبونه إزاء حدث سياسي أو عسكري معين وبين الذي يقولونه إزاء حدث تاريخي مهم قفل عهدا أحد ابرز كاريزمات العرب في القرن العشرين؟ وفي كلامي معاني عديدة أتمنى ان يدركها هيكل ؛ ذلك ان أي تقييم سياسي لموقف معين (أو : مجموعة مواقف) من حدث سياسي أو حربي كبير ، يختلف اختلافاً أساسياً عن أي تعبير أو خطاب يعكس تجربة تاريخية كاملة لعهد كامل في التاريخ . . . . وربما تتوّحد الآراء والأفكار - هنا - مهما بلغت درجة الاختلاف معه كونه غدا في ذمة الخلود . . . فالأمر لا يتصل أبداً بكرامة عقل! فالحكم يبقى دوما للتاريخ .

ادعاءات هيكل : بداية الحكاية

بعد كل ما حكاه هيكل عن جنازة الملك حسين ، وكل ما علق عليه وقارن فيه واستنتج منه ، يبدأ بتسجيل تاريخ معرفته بالملك حسين ، وهي معرفة قديمة جداً ، ولكن لا ندري كم مدى صحة معلوماته عن هذا «الموضوع» ، خصوصاً وان ما يكتبه لا يدعمه بالوثائق والمستندات الرسمية ! إذ كيف نصدقهُ عندما يزعم عن مخالطته للملك حسين بقوله : «عن قرب ومن زمن فقد لقيته لأول مره وعمره اثنا عشر عاما ، وكان ذلك عندما ذهبت لمقابلة صحفية مع والدته الأميرة زين (وهي سيدة شديدة الذكاء وشديدة الطموح) في فندق «شبرد» القديم في القاهرة سنه ١٩٤٧ ، وكانت يومها زوجة ولي عهد الأردن الأمير طلال (وأصبحت فيما بعد ملكة على الأردن وظل لها اللقب رسمياً حتى توفيت) . ويتابع هيكل أقواله وادعاءاته . . . . . انه صادف الملك حسين بعد ذلك مرات عديدة يركب دراجته في حديقة قصر رغدان مقر جده ويضيف بأنه كان وقت ذاك مراسلاً متجولاً لـ أخبار اليوم في الشرق الأوسط متنقلاً باستمرار بين عمان والقدس وبيروت ويعلق على قصر رغدان قائلاً بأنه أهم بؤرة في السياسة العربية في ظروف حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ ولذلك كثر ترددي عليه للقاء الملك عبد الله ، وكثرت رؤيتي لحفيده ووقوفي مرات عديدة معه» . (وجهات نظر ، ٥/٣) . . ويكتب هيكل عن عودته لمتابعته أثناء مشاورات سياسية وعائلية جرت في قصر بسمان حول مشكلة الملك طلال الذي تولى الملك بعد اغتيال والده ، وقد انتهت تلك المشاورات إلى استبعاد طلال في اللحظة الحرجة كي يصبح حسين ملكاً على الأردن . (وجهات نظر ، ٥/٣ – ٦) .

مدى الصواب والحقيقة .. مدى الخطأ والضلال

بعد كل هذا الذي كتبه والذي لا يعرف القارئ منه مدى الصواب والحقيقة فيه من الخطأ والادعاءات ، وخصوصاً في المقابلات والمتابعات التي أجراها هيكل ، ولا ادري هل كان لمراسل جريدة مصرية وهو شاب صغير ان يتردد على قصر رغدان للقاء الملك عبد الله ؟ وأين نشر هيكل حواراته مع الملك عبد الله ؟ هل نشرها في أخبار اليوم ام في غيرها ؟ علماً بأنه حتى ذلك الوقت كان مراسلاً للأخبار وتسقط الانباء وكان يكتب مقالات الرأي ،

ولكن لم نجد له أية حوارات مع قادة وملوك في عقد الأربعينات! وعليه ، فإن القارئ يطالب هيكل ان يعلمه عن مدى صدق ما كتبه في مقالته التي احتشدت بالأخبار والتهم والقصص والادعاءات وكلها غير موثقة أبداً . . . . . فهل باستطاعته ان يوثق كل ما قاله للقارئ بالدليل المادي والمستندات الرسمية ؟! .

وعندما يكتب ، وجدته وقد أزال كل الحواجز ، ومن المحتمل انها قد ازيلت عندما كبر واتسعت شهرته وطار صيته في عهد الرئيسين عبد الناصر والسادات ، خصوصاً عندما تولى حقيبة وزارية . . . وبعد ذلك غدت له مكانته في الأوساط السياسية العربية ، حتى يجد الحواجز وقد رفعت قليلاً ، فجالس الملك حسين في اكثر من مكان بلندن - مثلا - ولكن صحفياً شاب يتردد على القصور الملكية الأردنية في الاربعينيات والخمسينيات بالصورة التي حكاها لنا ، فهذا ما لا يمكن تصديقه أبداً !

دعونا أيضاً نقف عند الفقرة التالية التي يقول فيها : «وكان فارق السن بين الملك حسين وبيني اثني عشر عاما - ولم يكن هذا الفارق في السن تلك الأيام يسمح بأكثر من ان أراه وأقابله وأتابعه - لكن مع مر السنين وتعاقب التطورات والأوضاع في العالم العربي ، فإن أثر الفارق في العمر راح يتلاشى - تدريجياً وطبيعياً - بما سمح بعلاقة توثقت بالتجارب إتفاقاً واختلافاً ، اقتراباً وتباعداً ، لكنها ظلت موصولة ، حيه ، ويقظى» . (**وجهات نظر** ، ٦/٣) .

شكوى الملك من كتابات هيكل :

ولماذا جعلت فارق السن بين الملك وبينك هو الذي كان حاجزاً في تلك الأيام ؟؟ وكيف تلاشى فارق العمر تدريجياً وطبيعياً؟ لكي ينتج آخيرا علاقة من نوع خاص!! أنني لا استبعد ان تكون للملك حسين هكذا علاقة مع جميع من قابله واجرى حوارات صحفية معه من الصحفيين العرب الكبار ، ولكنني استبعد كل ما كتبه هيكل عن تاريخ علاقة قديمة بينه وبين الملك! ولماذا تسميّها يا هيكل بـ «علاقة» ، فالملك حسين كان يعرفك جيدا ، ويعرف طبيعة الاختلاف الفكري بين الاتجاه الذي تنتمي اليه وبين الاتجاه الذي يتزعمه ، علما بأن الملك حسين كان يؤمن بالقومية العربية ايمانا راسخا ، كما أن الملك حسين قد انتقد

بعض كتاباتك ، وخصوصا ما كتبته عن حرب الخليج : أوهام القوة والنصر ، اذ ينسب الى الكاتب سعد البزاز ان الملك حسين اشتكى أمامه اثناء مقابلته لاجراء حوار معه من هيكل ، وقال بأن كتابه عن حـــرب الخليج لم يكن دقيقا . . كما ان مقالتـــه في الصنداي تايم لم تكن دقيقة هي الاخرى . .*

الحواجز لابد منها: فروق المستويات

الأمر الآخر : ان الحواجز لا يمكنها ان تزال بمثل هكذا سهولة بين ملك ورجل صحافة ، الا إذا كانت هناك قواسم مشتركة وعلاقة شخصية بين الاثنين كي تكون هناك ثمة صداقة وثيقة العرى ومنسجمة وراسخة . . . . وهذا ما لم يكن بين الرجلين ليس لأن الملك لم يكن متواضعا ، بل للفوارق الرسمية بينهما ، فادعاء هيكل الذي جاء متأخراً جداً ، وبعد وفاة الملك حسين لا يمكن الاطمئنان إليه . . . . ودعونا نسمعه يصف العلاقة ضمن ما ادعاه بـ (نفس المعيار) اذ يقول : «ولم تكن علاقتي بالملك حسين بسيطة ، ولعلها كانت أقرب إلى ان تكون علاقة مركبة ، وفي بعض الأوقات معقدة! والسبب ان كلنا كان يعرف انه يتصرف بحال الآخر من موقف مختلف . فهو – في اعتقاده واعتقادي – يقف على ضفة – وبنفس المعيار – وفي اعتقاده واعتقادي – فقد كنت أقف على الضفة الأخرى ، كنت برغم التناقض أقمنا صلات بين رجلين ، كلاهما غارق مستغرق في الشأن العربي العام مع اختلاف التقديرات والضرورات لدى كل منهما . . . ومع دواع كثيرة تقتضي جسور لقاء بجد لقاء الضفاف !» . (وجهات نظر ، ٣/٦)

مشكلات هيكل : تحليل النص

في هذا « النص » أكثر من مشكلة واضحة وكامنة بين سطوره ، مع ما يمكننا من إثارة إشكاليات عدة من خلال التساؤلات ، ومحاولة الإجابة عليها :

المشكلة عند محمد حسنين هيكل ، انه وصل هنا إلى ان يقرن نفسه بينه وبين الملك

* راجع موضوع صندوق العجائب في كتاب سعد البزاز : حرب تلد اخرى . . : التاريخ السرّي لحرب الخليج ، ط٢ (عمّان : الأهلية للنشر والتوزيع ، ١٩٩٢ – ١٩٩٣) . ص ١٩٩ .

على أساس «علاقتي » ، و « نفس المعيار » وهي النقطة الفاصلة التي أراد هيكل ان يوصلنا إليها بعد كل المعلومات التي ساقها لنا عن تاريخ علاقته بقصري رغدان وبسمان! اذ وصل ألان لكي يعلن عن «علاقته » وكأنه يريد القول في بداية مقالته ، انه كان على صحبة وعلاقة وصداقة مع الملك حسين . . . . ولكنها - يضيف - ليست علاقة بسيطة ، بل اقرب إلى ان تكون مركبة ، أي أنها ليست مركبة بالكامل بل معقدة في بعض الأوقات ! .

واعتقد ان كل هذا الكلام لسنا بحاجة إليه ، ولكن صاحبه استهدف في كتابته هذه اشعار القارئ والمتابع واسمعي ايتها الأجيال القادمة . . . . انه من خلال علاقة قديمة و مركبة او معقدة مع الملك حسين ، اكتشف ما لم يكتشفه غيره منه . . . كما انه يريد ان يشعرنا بأنه امتلك هكذا رصيد ثمين ، لكي يقف في مصاف من وصفه العالم بصفات رائعة . . . . فمثلاً عن إشكالية أخرى ، أراد القول بأنه الوحيد الذي وقف على الطرف الآخر أو الضفة الأخرى ، وكأنه والملك حسين سيان في المركز والسياق والتاريخ!؟ - وهذا ما سيفعله أيضاً لاحقاً في كتابته عن الملك الحسن الثاني ، ولكن ضمن تصوير من نوع أخر - .

ان ثمة عقدة نفسية تكمن وراء ذلك التصوير الذي فيه لف ودوران لا يحصى . . فقد عودّنا في كل كتبه أنه في سياق واحد مع الزعماء والقادة الكبار وحتى العظماء من العلماء في العالم . . وتكفي مراجعة بسيطة ـ مثلا ـ لكتابه : زيارة جديدة للتاريخ - وكيف استعرض نفسه فيه ازاء سبع من الشخصيات العالمية ، أمثال : خوان كارلوس ملك اسبانيا ، ولقائه مع الفيلد مارشال مونتغمري قائد معركة العلمين ، ولقائه بالبرت اينشتاين صاحب النظرية النسبية ويوري اندروبوف ، ومحمد رضا بهلوي شاهنشاه ايران ، وجواهر لال نهرو زعيم الهند ، ودافيد روكفلر . . وما ساقه لنا من القصص الممتعة والمثيرة التي لا نعرف مدى صحتها من خطئها ، وكيف يعتقد ان من قابلهم بأي شكل من الاشكال اصبحوا من الاصدقاء الخلص له والمقربين له والمقرب لديهم ! وان كل القصص التي ساقها عنهم خالية من أية توثيقات رسمية . . لقد اندهش احد طلبتي في مقاعد البكالوريوس وهو يعد درجته في التاريخ بعدما قرأ ما كتبه هيكل في : زيارة جديدة للتاريخ ! معلقا على ذلك تعليقا ساخرا لا مجال لذكره .

نعم ، لقد عرفنا منذ زمن ليس بالقصير أن الرجل تلازمه هذه المشكلة ، وعلينا أن نستشف الكثير مما يقوله ، فهو يذكر ـ مثلا ـ بأنه لا ينسب الغائب ما لا يقله مستغلا غيابه (زيارة جديدة للتاريخ) !! كما وأنه يعطي قارئه الانطباع بأنه أهم من الزعيم الذي يقابله والذي غدا صديقا له . . في مقابلته مع خوان كارلوس ملك اسبانيا ـ كما يدعي ـ تأخر عن الموعد نظرا لأنه كان على موعد آخر مع رئيس الوزراء فيليب جوانزاليس . . وان سكرتارية الملك كانت قلقة لتأخره ! وأنه يعطي درسا لملك اسبانيا في تعليقه على نماذج لـ سانتاماريا في مكتبه ليعرف زوارك من الامريكان !! وقس على ذلك مع كل الذين يقابلهم فيصادقوه ويصادقهم !

اللقاء مع الملك حسين:

يسهب هيكل كثيراً في كيفية لقائه بالملك الراحل عندما أراد تأليف كتابه عن حرب الخليج الثانية ١٩٩٠-١٩٩١ ، خصوصاً وانه يدرك «بأن للملك حسين في أجواء تلك السنة الحافلة دور رئيس ومحوري ، وفي مطلق الأحوال فإنه كان السياسي العربي الوحيد الذي ظل من البداية إلى النهاية على اتصال بجميع الأطراف ، متابعاً لكلّ التطورات . وكان من حظه أن أصحاب القرار العالمي في واشنطن – وهم يعرفون أحواله – تركوا له مجاله يتحرك فيه بحرية لم يتركوها لغيره » ـ حسب ما قاله هيكل مؤخرا (**وجهات نظر ، ٦/٣**) .

هكذا ، يدرك هيكل ان للملك حسين ذلك الدور الرئيسي والمحوري في الشرق الأوسط ، وانه يدرك بأن للرجل علاقات متميزة مع جميع الأطراف ، لم يمتلكها غيره من القادة والزعماء ، فضلاً عن متابعين لجميع التطورات . . . . وعليه ، فهو يعترف – هنا – بأنه يتعامل مع زعيم ليس كبقية زعماء المنطقة ، وإذا كان هيكل يفكر ربما تفكيراً سالباً إزاء الرجل ، فأنني اعتقد بان مجرد التفكير في بقاء زعيم عربي مثله هذا العمر الطويل على دست الحكم في قلب الشرق الأوسط ومشاكله وأزماته وطريقة تعامله مع جميع الأطراف المناوئة ومع جميع التناقضات الصارخة في كل مرحلة سياسية . . . هي كافيه لتجعله الأقدر في الاستفادة من تجاربه الصعبة التي خاضها على امتداد خمسة عقود من الزمن ، وتشكل بالأحرى كل ثقل النصف الثاني من القرن العشرين ، وهذا ما يدركه من يشتغل في تاريخ

العرب الحديث والمعاصر . . . . فليس من الخطأ في شئ ان لا يترك له مجاله الذي يمكنه ان يتحرك فيه بحرية . . . وهو امتياز لم يحصل على مثله غيره من الزعماء العرب وغير العرب في المنطقة !

لقد كتب هيكل رسالته التي بعثها إلى الملك حسين بواسطة سفيره الاستاذ نبيه النمر في القاهرة ، وكان يتوجس من ان يصاب بخيبة أمل ويرفض الملك حسين مقابلته بتأثير ما كتبه عنه في كتابة «الانفجار» الذي خص مضامينه بوقائع هزيمة سنه ١٩٦٧ ، وما كال إليه من اتهامات ! متناسيا هيكل العوامل والاسباب المعقدة في حدوث تلك الكارثة التي لم يزل لا يعترف بما جرّته علينا من مصائب وويلات ، محاولا القاء التهم على طرف هو الابعد في حدوثها . . ولكن الملك حسين وافق على استقبال هيكل لكي يسمعه رؤيته وروايته للقضية من أغسطس / آب ١٩٩٠ وحتى فبراير/ شباط ١٩٩١ . يقول هيكل : «وفي اليوم التالي كان موعدي معه ، وقد استقبلني في مكتبه في قصر «الندوة» وجلسنا معاً من الساعة الحادية عشرة في الصباح وحتى الساعة الثامنة في المساء . وتغدينا وتعشينا معاً وأجاب عن كل ما سألته فيه ، واستدعي مستشاره السياسي وهو يومها السيد عدنان أبو عودة ، فأنضم إلينا ومعه ملفات من الوثائق تضيف إلى رؤية الملك وروايته » . (وجهات نظر . ٦/٣) ولا يخبرنا هيكل تفصيلات ما جرى أبدا على امتداد تسع ساعات من اللقاء !

ولكن ؟

لقاءات هيكل المزعومة مع الملك حسين:

لم يفوت هيكل الفرصة لكي ينسج من جديد قصص لقاءاته مع الملك حسين التي جرت لعدة مرات منذ عام ١٩٩١ ، ولا ندري أيضاً مدى صحة ما يذكره بهذا الصدد ، إذا يقول : منذ ذلك الوقت سنة ١٩٩١ ظللت التقي الملك حسين عدة مرات في السنة ، واكثر لقاءاتنا في لندن ، وساعد على ذلك أننا ننزل نفس الفندق فيها « كلاريدج» . . . . فليس هناك أي دعم موثق لهذه الحادثة سيما وان الملك حسين قد رحل .

ويستطرد هيكل . . . . بقوله : « وربما أشرت هنا إلى لقاءين - لكل منهما مذاق

خاص – في تلك الفترة بالذات : الأول منهما . مايو ١٩٩٢ وكان لقاء مشحونا ومؤثراً إلى ابعد حد . . . . .» (وجهات نظر ، ٦/٣) ويقول بعد ان ينتهي من وصف اللقاء الأول :وكان اللقاء الثاني – سبتمبر ١٩٩٣ نقيضاً للقاء الأول . . .» (وجهات نظر ، ٥/٣) .

هنانتساءل : هل التقى هيكل بالملك حسين عدة مرات في السنة ؟ أم التقى به لقائين فقط هما اللذين ذكرهما في مقالته وشرح تفاصليهما؟ فإذا كان الملك حسين قد التقى هيكل عدة مرات في السنة منذ سنة ١٩٩١ ، فلماذا لم يكتب هيكل عن تفصيلات كل تلك اللقاءات التي ذكرها ؟ وماذا حدثه الملك فيها؟ ثم ما هي الأدلة والوثائق والمستندات الرسمية التي يمكننا ان نتأكد من ان هيكل قد صدق في ادعاءاته ؟ هل يكفي ذكر انه والملك كانا ينزلان في نفس الفندق بلندن وهو فندق كلاريدج ؟

دعونا نتوقف عند الذي ذكره المهندس سمير الحباشنه وزير الثقافة الاردني الاسبق في ردّه على هيكل ، قال : «وفي سياق اللقاءات العديدة للاستاذ هيكل مع الملك حسين . . . . وبعودة الى لقاء مايو / ايار ١٩٩٢ ، فان ما يهمني هنا أن أوضحه للقارىء . . ان هذا اللقاء بين الملك حسين وهيكل في مايو ـ انما هو على الاغلب لقاء مزعوم ـ ذلك أنه وعند عودتي الى سجل الملك حسين المرضي والمصدر هنا هو (المكتب الاعلامي في الديوان الملكي) . . . . لم أجد في سجل توثيق لقاءات الملك ابان وجوده في لندن في ايلول / سبتمبر ١٩٩٣ ، اسما لهيكل ، او لذلك اللقاء الذي يتحدث عنه في الفترة نفسها . ولو تم ذلك ، فانه سيرد حتما في هذا السجل ، خصوصا وان لقاء الملك مع أي صحفي عربي ، ليس بالامر السري . . . . وخلاصة ليسمح لي الاستاذ هيكل ان اشكك في هذين اللقائين انهما قد تما بالفعل ـ بالاستناد الى التواريخ المشوشة في مقالة الاستاذ هيكل وبالاستناد الى عدم وجود أي شاهد على تلك اللقاءات ، وبالاستناد الى سجل نشاطات الملك والموثق في الديوان الملكي ، الذي لم يشر الى وجود وانعقاد مثل تلك اللقاءات»*

* (راجع مقالة سمير الحباشنة : « تواريخ مشوشة حان زمن تصحيحها واستنتاجات جائرة ينبغي العودة عنها » ، الزمان ، العدد ٣١٤ ، لندن في ٢٨ – ٢٩/٨/ ١٩٩٩) .

مناقشة في الافتراءات:

اما بالنسبة لما سطره لنا هيكل عما جرى بينه وبين الملك حسين في اللقاء الأول الذي جرى في شهر مايو/ ايار ١٩٩٢ الذي وصفه بأن كان مشحوناً ومؤثرا، وكان في قاعة الاستقبال الداخلية لفندق كلاريدج . . . . . ان كل ما سطره هيكل عن ذاك اللقاء هو حديث الملك عن مرضه وأصابته بالسرطان، ووصف مشاعره وصراعه مع هذا المرض . . . . **(وجهات نظر، ٦/٣)**.

ولم يخبرنا هيكل عن آية معلومات سياسية ولا مواقف ولا وجهات نظر الملك حسين في القضايا العربية والدولية!! وكأنه يصف لنا هدفه من اللقاء انه لقاء صداقة شخصي وليس بلقاء صحفي! ومع كل ذلك فليس لدينا ما يؤكد حدوث اللقاءات رسميا ، وبذلك فقد أعطى هيكل مثلا حقيقيا اخر على فقدان اوراقه ، وليس امام الناقد المؤرخ والقارىء المتابع سواء كانا مع أو ضد الا ان يشككا في الاقوال ويصفانها انها مجموعة افتراءات نظرا لفقدانها اي توثيق وشهود!

دعونا نتابع رجاء :أما بالنسبة لما سطره لنا هيكل عما جرى بينه وبين الملك حسين في اللقاء الثاني الذي جرى في شهر سبتمبر/ايلول ١٩٩٣، والذي وصفه كونه نقيض اللقاء الأول فإنه يبدأ الموضوع بوصف ذلك اللقاء الذي يبدو للقارئ انه لم يكن لقاء عمل لأي صحافي، بل كان لقاء صداقه على مائدة عشاء، وكان عائلياً **(وجهات نظر، ٧/٣)**.

اما الذي يمنحنا هيكل من معلومات عن هذا اللقاء فيمكننا ان نضمن نصّ ما كتبه هيكل بالحرف الواحد كي نطلع معا على مدى (خطورة) المعلومات التي اكتشفها هيكل والذي انخدع الناس – مع الأسف – بما أشاعه عن تلك «المعلومات» وخطورتها يقول: «ومن اول لحظة وجدت الملك متأثراً ومنفعلاً بينما هو في العادة منضبط وكتوم ويظهر لي ان الأحداث يومها أخذته على غره، فقبل ساعات من لقائنا في «سانيتني» (انه اللقاء الثاني) كان الملك قد عرف اتفاق أوسلو سوف يجري توقيعه في واشنطن بين ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية وإسحاق رابين رئيس وزراء إسرائيل، وبحضور ورعاية كلينتون رئيس الولايات المتحدة وقد تضايق الملك – فيما يبدو – لان أحدا لم يخطره بشيء ولم

يستنشره في شئ ولم يدعه إلى شئ . . . . ان قصة أوسلو في حد ذاتها لم تكن غريبة عليه ولكن إعلان الاتفاق فاجأه . وكان الملك على علم بوجود اتصالات واجتماعات بين الإسرائيليين والفلسطينيين في عاصمة النرويج . . . » (**وجهات نظر ٧/٣**) .

ما معنى كل هذا الذي آتى لنا به هيكل؟ انه حديث عن مشاعر الملك حسين إزاء التوقيع على أوسلو ؟ وإذا كان هيكل صادقاً في نقل تلك المشاعر أم لم يكن لحديثه أي جانب من الصدق . . . فما الذي يريد التوصل إليه من كلامه هذا كله؟ انه يريد القول في الذي يسجله بعد ذلك بما كتبه! قال وهو يصف مشاعر الملك حسين : « ودون ان يقولها صراحة فقد راودني إحساس لازمني فقد بدأت عمليات التفاوض بين العرب وإسرائيل ملخصه ان الملك ينتظر ان تتطور الأمور إلى نوع من الخيار الأردني لا يسعى الملك له ، لكن هذا الخيار سوف يسعى للملك بطبائع الأمور . لكن اتجاه الحوادث بدا الان وقد اتخذ لنفسه منحنى آخر » . (**وجهات نظر ، ٧/٣**) .

تزوير الحقائق :

ان كل هذه القصة التي نسجها هيكل ، قصد منها التوّصل إلى ان يقول بأن الملك حسين أراد له خيارا أردنياً في عمليات التفاوض بين العرب وإسرائيل . . . لا أكثر ولا اقل ، وقد دلت الأحداث في ما بعد بأن الملك حسين نفسه ساهم في تطوير الخيار الفلسطيني في اكثر من جولة من المفاوضات . وكانت جميع الأطراف تقصده لإيجاد حلول لها ! ويختتم هيكل حديثه عن موضوع هذا اللقاء بقوله : « لم يكن الملك هو الذي يتكلم وإنما الإنسان فيه بمشاعره المتناقضة لا يخفيها ولا يداريها . ولقرابة ساعة لم يوفر الملك طرفا ، ولم يقصر في أوصافه لأحد . وأظن ان ما سمعته منه تلك الليلة عن الأحداث والرجال في المنطقة وفي العالم سوف يظل في ذاكرتي وفي أوراقي شهادة فوّارة وتلقائية عن دخائل السياسة العربية وطبائع المشاركين في صنعها على المستوى الإقليمي والدولي وبدون مجاملة أو تزويق مما تصنعه المساحيق!» . (**وجهات نظر ، ٧/٣**) .

وانا اعلق على ذلك بالقول : إذا كان هذا الذي تحكيه من الأهمية والخطورة فماذا يبقى في ذاكراتك وعلى أوراقك . . . لماذا لم تكشف عن الأسرار التي أودعك إياها الملك حسين؟

لماذا لم تكشف عما قاله لك الملك حسين ، وخصوصاً عن دخائل السياسة العربية وعن طبائع المشاركين في صنعها على المستوى الإقليمي والدولي ؟ لماذا تخفي أشياء مهمة ، هل تخشى أحدا من القادة والزعماء؟ أم ان في الأسرار ما يحرق أوراق أولئك الذين شاركوا في اللعبة؟ ولكن عليك قبل كل هذا وذاك ان تطمئننا بالتوثيق للاقوال وبحضور غيرك من الشهود ، لكي يثق القارئ بصحة ما تقول على لسان زعيم عربي مجّرب لا اعتقد ابدا أنه كان يثق بكتاباتك حتى يمنحك اسراره السياسية . . وأسألك أيضا : لماذا تعلق بعد كل الذي قلته : «ومرة أخرى ، فقد كان ما يقوله - الان - يعيد طرح مسألة شخصية وقضية الحقيقة في شأنه» . (وجهات نظر ، ٣/٧) .

فإذا كنت تشكك فيما قاله لك الملك حسين ، فكيف تريد منا الا نشكك في ما تقوله أنت لنا أو في ما تكتبه للأجيال القادمة عن هذا وذاك !؟

للحقيقة وجه واحد:

تنتقل يا هيكل بعد كل الذي تحدثت عنه وانتهيت للتشكيك به ، لكي تقول : « ان البحث عن الحقيقة - في شأن الرجال أو الأحداث - لا يتطلب من الناس ان يبادروا بالحكم ، وإنما ان يسعوا للفهم ، وبعده وليس قبله يحق لهم ان يقرروا كما رأوا وكيفما شاؤوا! وسبب ذلك الطلب ان الحقيقة ليس لها وجه واحد ، وإنما وجوه الحقيقة متعددة . . . .» (وجهات نظر ، ٣/٧) .

ولكن ؟

كيف تعرف الحقيقة في شأن الرجال والأحداث؟ وسواء كانت ثمة مبادرة للحكم ، أو ثمة سعي للفهم . . . فلابد ان يقال كل شئ . . . إذ ليس من المعقول أبداً ان تخفي في ذاكرتك أو تضم في أوراقك خفايا أحداث ودخائل سياسة وطابع مشاركين . . . وتأتي لتطلب من الناس ألا يبادروا للحكم ، ويسعوا للفهم دون ان تمنحهم فرصة الإطلاع عمّا قاله لك بعض المسؤولين الكبار (ولكن نشترط قبل كل شيء المصداقية في توثيق الاقوال والنصوص والحوارات كيلا تكون افتراءات ومزاعم) ولكي يعرفوا ان للحقيقة وجهاً واحداً لا

اكثر ـ هكذا تعلمنا من فلسفة التاريخ ومنهج كتابته في البحث عن الحقيقة ، فللحقيقة وجه واحد لا وجوه متعددة ! يتلبسها كل من يريد ان يكتب على هواه يلبس في كل مكان او في كل مرحلة اقنعة مختلفة ! وانك أخذتنا في مقالتك (ومضمونها بيت القصيد)لكي تتحدث عن اوجه الحقيقة المتعددة ، إذا انك ترى منها عدة اشكال ـ كما تذكر ـ: الاسم وجه أول ، والأسرة وجه ثان ، والوطن والهوية وجه ثالث . . . والتجربة والعمل وجه رابع . . . . وفي حالة الشخص السياسي ،ـ تقول مستطردا ـ فالحقيقة السياسية والجغرافية وجه أول والتاريخ وجه ثان وحكم العصر والزمن وجه ثالث وحكم التجربة وجه رابع . . . **(وجهات نظر ، ٧/٣)** .

ما هذا التفلسف ؟ هل تعرف ان ما تقوله هو تسجيل نادر من الهراء لا يتناسب مع مركزك ولا مع اسمك ولا مع تاريخك !! ولكن كل الذي بقيت توزع الآراء فيه ، سينتهي إلى قول يعتبر بيت القصيد ، وعندما ستصل إلى توصيفك شخصية الملك حسين مغالطاً وجه الحقيقة . . . لنستمع إليك وأنت تقول منتهياً من (فلسفتك) : «وفي حالة الملك حسين بالذات ، فإن الاستثناء يبلغ مداه لأن الوجوه المتعددة للحقيقة تظهر مثل الوشم مرسومة وظاهرة – ولعله الضغط الزائد عن الحد لكل وجه من وجوه الحقيقة . والواقع ان شخصية الملك حسين بما يتداخل فيها أجمالاً وتفصيلاً فهمها – حتى وان استحال في بعض الأحيان تبريرها – ألا بالنظر إلى وجوه الحقيقة المختلفة ، وهي في حالته كما قلت : رسوم وشم جرى دقه دقا على جلد لحمه الحي ! » **(وجهات نظر ، ٧/٣)** .

تسفيه المطاعن :

دعوني أسجل الملاحظات التالية على توصيف هيكل لشخصية الملك حسين وهو «توصيف» بدا فيه في غاية النزق بأستفراغ كل ما تجمع عنده على امتداد خمسين سنه من معاصرته لتاريخ الرجل :

١ . كيف دخلت للموضوع ؟ وكيف خرجت منه؟ بأي وسيلة دخلت وبأي تعابير خرجت؟ دخلت مع حفل عشاء على مائدة الملك حسين في مطعم سانيتني في لندن تحدد في ذاكرتك ما قاله على مدى ساعتين أو ثلاث ، وقد جالسته وتحدثت معه . . . وخرجت

لتكتب بعض المطاعن في شخصيته وتاريخه بحجة فلسفة الوجوه المتعددة للحقيقة ! .

٢ . لماذا خصصت حالة الملك حسين بالذات كونها استثناء يبلغ مداه من الوجوه المتعددة للحقيقة ؟ في حين ذكرت قائلاً : «وفي حالة كل الناس ، فان أحكام الوجوه المتعددة للحقيقة - إنسانية وسياسية - تسري في الأفعال وردود الأفعال بطريقة لا يكاد يلحظها أحد لأنها مكونات شخصية متكاملة ، لا يفصح أي جزء منها عن نفسه منفصلاً عن بقية الأجزاء ، بل تتفاعل المكونات طبيعياً مع بعضها - ألا في استثناءات قليلة تظل فيها الوجوه المتعددة للحقيقة منفصلة . . . متجاورة ، لكنها متباينة!» . (وجهات نظر ٧/٣) .

أهذا كلام معقول ؟ كل الناس لهم مكونات شخصية متكاملة لا يلحظ أحد أحكام الوجوه المتعددة للحقيقة فيها ، وقد جعلت الاستثناء يتمثل في الملك حسين !

٣ . صحيح ان شخصية الملك حسين يصعب فهمها على أولئك المثاليين الخياليين والحالمين والشعاراتيين والواهمين . . . . . كونه أحد الزعماء العرب الذين كانت لهم مشاركة حيوية في تاريخ العرب في القرن العشرين ، وإذا كانت شخصية الملك حسين بكل ملاحظتها واجمالاتها وتفصيلاتها قد صعب فهمها عليك وعلى آلاف مؤلفة أخرى غيرك فليس معنى ذلك انه يستحيل في بعض الأحيان تبريرها ألا بالنظر إلى وجوه الحقيقة المختلفة!! وربما يصعب علينا في بعض الأحيان فهم زعامات عربيه أخرى . . . . ولكن الحكم ليس لي أو لك . . . ان الحكم متروك للأجيال القادمة . . . . فالتاريخ هو الذي سيقول كلمته في النهاية : عن أولئك الذين خدموا أمتهم بما توفر لديهم من إمكانات . . . وعن أولئك الذين أضاعوها وجعلوها على امتداد القرن العشرين في اسفل سافلين !

ثالثاً: الجغرافية والتاريخ
نقد وجوه الحقيقة السياسية الغائبة عند هيكل:

١. الجغرافية السياسية للأردن

يعتبر هذا الحكم عند هيكل « أهم وجوه الحقيقة فيما يتعلق بالاردن وملكه» (وجهات نظر ، ٧/٣) ، إذ يتأكد لديه ان الجغرافيا كانت شديدة الصرامة مع الاثنين « فتلك دولة اصطنعت بقرار سياسي خلافاً لما هو طبيعي في نشأة الدول » ـ كما يقول ـ ويأخذنا هيكل في رسم صورة تاريخية خاصة بالأردن المعاصر منذ نشأته عام ١٩٢١ بتوجيه من ونستون تشرشل في مؤتمر القاهرة . . . . ولكي أكون أميناً - كمؤرخ في الشؤون العربية الحديثة والمعاصرة - في نقد مقولات هيكل . . . دعونا نستمع سوية إلى نصّ كتبه في هذا الموضوع ، يقول : «وكان إنشاؤها بتوجيه من ونستون تشرشل وزير المستعمرات البريطاني أثناء مؤتمر عقد في القاهرة برئاسته في فندق سمير أميس ، وعلى جدول أعماله مستقبل الممتلكات البريطانية في الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الأولى وما وقع خلالها وبعدها من أحداث أهمها معاهدة سايكس - بيكو التي قسمت ارث الخلافة العثمانية أنصبة بالاتفاق بين بريطانيا وفرنسا ، ومن ثم رسمت للمنطقة خريطة جديدة .

كان وزير المستعمرات البريطاني ونستون تشرشل هو المهندس الأول للخريطة على الجانب البريطاني ، وقد راح يخطط ، وبين ما خط موقع تحيّر الذين رسموه في اختبار اسم له ، ثم كان ان استعملوا وصفاً جغرافياً بسيطاً هو «شرق الأردن» والدول لا تسمّى في العادة على هذا النحو ، والمألوف ان الدول الجديدة تستعيد اسما قديماً ينسب نفسه إلى اصل تاريخي ، أو سلالة بشرية ، أو قبيلة ، أو نهر ، أو لغة - لكن نسبة الأوطان إلى اتجاهات أو مواقع على خريطة ، سابقة لم تحدث من قبل ، وعلى أي حال فقد كانت للضرورات أحكامها ، وظهرت أمارة «شرق الأردن» و «عبدالله» على عرشها» . (وجهات نظر ، ٧/٣) .

وليسمح لي القارىء الكريم ان أسجل ملاحظاتي النقدية على النص في أعلاه :

١ . لقد جاء كلام هيكل عن الجغرافية السياسية للأردن ونشأته متأخرا جداً ، أي بعد

مرور قرابة ثمانين سنة على تأسيس هذه «الدولة» ، ومنذ عام ١٩٢١ وحتى نهايات القرن العشرين ، كان على هيكل ان يراعي مسائل أساسية في انتقاده شرعية الجغرافية السياسية الأردنية ، منها :

١ / لقد غدا لهذه الجغرافية السياسية تاريخ من المشروعية ، كما هو الحال عند بقية البلدان التي تأسست بمعيتها إثر انتهاء الحرب العالمية الأولى . . . . وغدت للأردن أيضاً جملة من التطورات في جغرافيته السياسية سواء على عهد الأمارة ، أم على عهد المملكة ، وسواء قبل وحدة الضفتين أم بعدها . . . سواء قبل هزيمة ٥ حزيران / يونيو ١٩٦٧ أم بعدها . . . سواء قبل تثبيت حدودها مع جيرانها أم بعد تثبيت حدودها .

٢ / لا يمكن لهيكل ان ينتقد نشأة الجغرافية السياسية للاردن ، بعد مرور ثمانين سنة على ولادتها . . . وقد غابت عنه جملة كبيرة من الأدبيات التاريخية والجغرافية والسياسية الأردنية المعاصرة . . . . . ذلك لأن هناك عدة اعمال علمية متميزة أثرت هذه الجوانب الارتكازية الثلاثة . . . واغلبها كتبها علماء وأساتذة أردنيون وعرب ، لا يمكن التغافل عنها أبداً ، والأسماء معروفة ومتميزة! وهذا ليس باستثناء مطلقاً فأنت يا هيكل تدرك تمام الإدراك ، وربما لا تدرك تمام الإدراك ، بأن لكل بلد عربي معاصر اليوم ثقله المتنوع من الأدبيات الخاصة به ، وان كل عمل ضمن سياقاته الوطنية قد كّرس لاثراء جوانب بلاده التاريخية والجغرافية والسياسية سواء كان ذلك في مصر أم العراق أم سوريا أم لبنان . . . . الخ .

٣ / صحيح ان الجغرافية الأردنية كانت شديدة الصرامة ، ولكن ليس كما وصفت الأردن كونه قد أصطنع بقرار سياسي خلافاً لما هو طبيعي في نشأة الدول ولكن بسبب وقوعها بين جغرافيات سياسية اقوى منها !! وسواء كنت تعرف أم لا تعرف بأن ليس الأردن لوحده قد اصطنع بقرار سياسي ، إذ ان اغلب الدول العربية التي انبثقت بعد الحرب العالمية الأولى قد اصطنعت بقرار سياسي ، وان ونستون تشرشل الذي ترأس مؤتمر القاهرة عام ١٩٢٠ ، وقد شاركت فيه بعض الشخصيات العربية ، أمثال : الفريق اركان حرب جعفر العسكري مؤسس الجيش العراقي وغيره لم يكن يختص عمله في المؤتمر

بشؤون الأردن وحده ، بل اختص بهندسة المنطقة العربية ومستقبلها في القرن العشرين قاطبة .

٤ / وليكن معلوما بأن مؤتمر القاهرة عام ١٩٢٠ ، لم يقر أبداً ما جاء في معاهدة سايكس - بيكو عام ١٩١٦ ، وألا فإن منطقة الموصل كانت -حسب المعاهدة - ستضم إلى سوريا بدل العراق! فضلاً عن المتغيرات السياسية التي غيرت معالم بلاد الشام بين انطلاق الثورة العربية الكبرى وحتى دخول ولده الأمير فيصل بن الحسين دمشق عام ١٩١٨ وتأسيسه للحكومة العربية المستقلة التي انهارت أمام الزحف الفرنسي على دمشق عام ١٩٢٠!.

٥ / ولماذا تستغرب من ولادة الأردن ضمن خريطة جديدة رسمت للمنطقة بعد الحرب العالمية الأولى؟ ولم تستغرب من انقسام بلاد الشام إلى أربعة أقسام؟ ولم يتحّير أولئك الذين رسموا حدود هذا الأردن في اختيار اسمه - كما تدّعى - فكما ولدت كل من دولتي سوريا ولبنان ، فقد ولدت دولة الأردن ، وقد أطلق على الأخيرة اسم إمارة شرق الأردن ، لأنها تقع فعلاً شرق نهر الأردن ، وقد عرفت هذه البقعة الجغرافية في الأدبيات القديمة عربيا بأسم الاردن (وقد ذكر المصطلح في مقدمة ابن خلدون مثلا)* كما وعرفت جغرافيا باسم Trans-Jordan ، أي : عبر الأردن . . .

أما انتقادك لتسميته باعتباره قد نسب إلى اتجاه ، وتعلق على ذلك كونها سابقة لم تحدث من قبل ، فلا ادري اين وجه الغرابة ، وإذا كان النهر يسمى بـ «الأردن» (أو : الشريعة) فهو يقع شرق ذلك النهر ، وأنت تعلمبأن لبنان قد استلهم اسمه من جبل لبنان ، وأن مراكش قد استلمت اسمها من مدينة مراكش ، والبحرين استلمت اسمها من جزيرة البحرين ، وعدن استلهمت اسمها من ميناء عدن . . . . . الخ ، وكان عليك ان تنتقد الباكستان في قسميها السابقين : الشرقية والغربية ! وعليه ، فأنها ليست سابقة لم تحدث من قبل !؟ ان تسمى بلاد باسم نهرها ، فأنت من بلاد كانت ولم تزل تدعى ببلاد وادي النيل ، وأنا من بلاد كانت ولم تزل تدعى ببلاد وادي الرافدين أو ببلاد ما بين النهرين !!

* عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، ط ٤ (بيروت : دار احياء التراث العربي ، ١٩٦٧) ، ص ١٠ ، ٢٤٤ .

المقاصد والغايات:

كل هذا الذي تريد ان تحكيه ، فإن مقصدك واضح تمام الوضوح ، متمثلاً باستنتاجات ووجهات نظر تّود البوح بها ، وهي :

تقول : «لكن الخريطة كان عليها موقع آخر اختار له أصحابه اسما من أساطير التاريخ وليس من تضاريس الجغرافيا : إسرائيل . والواقع ان قرار إنشاء «شرق الأردن» يمكن اعتباره ملحقاً إضافياً إلى معاهدة سايكس بيكو ، وهو رابط بينها وبين وعد بلفور الذي أعطى اليهود حقاً بإنشاء وطن قومي في فلسطين» .(وجهات نظر ، ٣/٧) .

١ . ان الخارطة لم يكن عليها موقع آخر في ذلك الوقت ، إذ كانت الاستعدادات والتحضيرات قائمة لإنشائه . . . . . دون ان يعرف الإنسان ما يبيته له الآخرون في المستقبل .

٢ . ان اسم إسرائيل لم ينطلق على الألسنة ، إلا بعد ان اصبح حقيقة على الأرض ، اثر تأسيس الكيان الصهيوني عام ١٩٤٧ .

٣ . ان كل الخرائط القديمة المرسومة في القرن التاسع عشر ، ثم الخرائط الحديثة المرسومة في القرن العشرين وحتى تأسيس الكيان الصهيوني ، كانت تسمى فلسطين باسمها وليس باسم إسرائيل ! .

٤ . وكيف كان بإمكانك ان تعتبر قرار إنشاء شرق الأردن ملحقاً إضافياً إلى معاهدة سايكس بيكو؟ كنت أتمنى ان تقرأ كتاب الأستاذ المؤرخ زين نور الدين زين الموسوم : «**الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان**»* وغيره من كتب المؤرخين المختصين بشؤون المنطقة أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها . . . . فلقد كانت هناك بعد مؤتمر سايكس بيكو أنشطة وتفاعلات ، ومؤتمرات وقرارات ، أبرزها مؤتمر الصلح بباريس عام ١٩١٩ وقراراته التي انبثقت عنها مؤتمرات أخرى مثل : سان ريمو وسيفر ، ولوزان . .

* التفصيلات في : زين نور الدين زين ، **الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان** ، ط ٢ ، (بيروت : دار النهار ، ١٩٧٧) .

فضلاً عما جرى من محاولات لتأسيس عدة دول محلية وقزمية في داخل البلاد السورية . . . . حتى استقر الوضع بالنسبة لمؤتمرالقاهرة عام ١٩٢٠ بصدد الممتلكات البريطانية ، وهي الممتدة أفقياً من أقاصي جبال زاكروس شرقاً حتى البحر المتوسط غرباً . . . واقرار : تأسيس المملكة العراقية وأمارة شرق الأردن عام ١٩٢١ .

تصويبات تاريخية:

وأخيراً ، ثمة تصويبات أود تسجيلها على ما كتبه هيكل في الصفحة ٧-٨ من مقالته :

١ . ان الأردن الجنوبي لا يحادد الحجاز فقط عند نقطة ميناءالعقبة . . . ، بل تمتد حدوده الجنوبية ضمن البوادي العربية التي تفصله عن إقليم نجد مترامي الأطراف والذي تمتد منه البوادي العراقية شرقا .

٢ . بالنسبة لمنابع النفط العربي المعروفة حتى ذلك الوقت (١٩٢١م) لم تتجاوز التنبؤات والاحتمالات العراق فقط ، وخصوصاً أقليمه الشمالي المتمثل بنفط الموصل . . . فكيف تقول : «انه مع ظهور احتمالات البترول المؤكدة في مناطق الخليج وشبه الجزيرة العربية . . . .» ؟ (**وجهات نظر** ، ٧/٣) وكيف تستبق الأمر بوضع احتمالات من عندك من لم تكن موجودة أصلاً ؟ .

٣ . أما بالنسبة للمساعدات الأجنبية التي كانت بريطانيا تمنحها للأمراء العرب ، فلم يكن الأردن لوحده يتسلم تلك المساعدات ، فتاريخ المنطقة بالكامل يؤكد تسلّم تلك المساعدات المالية من بريطانيا ، فالمسألة ليست خاصة بهذا وحده دون الأخرين في المنطقة جميعاً ! .

٤ . ان قاعدة : الزرقاء « ليست في المفرق» كما ذكرت في مقالتك (**وجهات نظر** ،٧/٣) ، إذ أن ثمة ثكنات عسكرية تقع في مدينة الزرقاء القريبة من العاصمة عمان . . . أما مدينة المفرق فقد تأسست فيها قاعدة عسكرية لاحقاً .

٥ . ان انقلاب رشيد عالي الكيلاني في العراق لم يحدث عام ١٩٤٠ ، بل حدث في مايس/ أيار ١٩٤١ ، وانه ليس انقلاباً بحد ذاته بل دعي بـ «حركة» و «ثورة» قومية

اشترك فيها العسكريون العراقيون يمثّلهم العقداء الاربعة : محمود سلمان وفهمي سعيد وصلاح الدين الصباغ وكامل شبيب ، فضلا عن القوى المدنية ممثلة بالمحامي يونس السبعاوي عن العراق ، والحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين عن العرب . . ويقول أنور السادات في مذكراته بأن الضباط الاحرار في مصر كانوا قد تأثروا عندما كانوا طلبة بأصداء تلك الثورة القومية في العراق ، واشعال العراقيين الحرب ضد بريطانيا .*

٦ . ان القوات البريطانية التي ضربت الانقلاب المذكور ، (بل هذا الذي اسمي من قبل اغلب المؤرخين والإنكليز معاً بـ « الحرب العراقية - البريطانية») لم تعد الفرع العراقي للأسرة الهاشمية إلى عرش بغداد بعد طرده منها ، هذا خطأ واضح لأن هيكل لا يقرأ التواريخ بشكل مضبوط . . . ذلك ان حركة رشيد عالي الكيلاني عام ١٩٤١ ، لم تكن ضد العرش الهاشمي أبدا ، بل كانت ضد سياسة كل من الوصي على العرش الأمير عبد الإله ورئيس الوزراء نوري السعيد اللذين كانا يميلان باتجاه الحلفاء ، وكان رشيد عالي وبرفقته العقداء الأربعة والمناصرين المدنيين كانوا يدينون بالولاء الكامل للعرش ونوري السعيد ، ولكنهم بدأوا يميلون باتجاه المحور ومعهم الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين . . . . ولما نفذ العقداء الأربعة ورشيد عالي حركتهم لم يقصدوا الملك فيصل الثاني عن العرش وكان طفلاً صغيراً ، بل حدث فراغ سياسي إثر هروب كل من الوصي الأمير عبد الإله ونوري السعيد ، فدعي الشريف شرف (وهو من الهاشميين أيضاً) ليكون وصياً وتشكلت حكومة الدفاع الوطني برئاسة رشيد عالي الكيلاني ببغداد ، ولكن الحركة اجهضت .**

---

* أنظر : Anwar Sadat, *In Search of Identity* (London, Collins, 1978). P. 54.

** التفصيلات التاريخية في عدّة كتب تاريخية ، اقتصر على ذكر :

عبد الرزاق الحسني ، تاريخ العراق السياسي الحديث ، ط ٦ ، بيروت : مطبعة دار الكتب ، ١٩٧٤) ، وكتابه الكبير : تاريخ الوزارات العراقية ، الاجزاء ١ - ٦ ، ط٤ (بيروت : مطبعة دار الكتب ، ١٩٧٦) .

يونس بحري ، اسرار ٢ مايس ١٩٤١ او الحرب العراقية - البريطانية (بغداد : دار الحرية ، ١٩٦٨) .
محمود الدرة ، الحرب العراقية البريطانية ١٩٤١ (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦٩) .
وهناك كتب ومذكرات عدة حول الموضوع .

٢.قسوة التاريخ عند هيكل !

هل الأردن بلا تاريخ ؟؟

نتوقف مع هيكل الذي ينتقل من تلك التي يسميها «قسوة الجغرافية» إلى ما يسمّيه بـ «قسوة التاريخ» التي كانت أشد حسبما يذكر . . . كيف ؟

يقول : «ان المملكة كانت بغير تاريخ قديم يخص الشعب الذي يعيش فيها حين أنشئت الدولة الجديدة وأقيم عرشها – ألا بمقدار ما يخفي التاريخ العربي في جملة كل العرب في عمومهم» . (وجهات نظر ، ٨/٣) .

من المحتمل أن لجغرافية الأردن قساوتها عندما تأسست الأمارة . . . ولكن تطوعت تلك «الجغرافية» مع مرور الزمن ، ولو لم تتأقلم الأردن دولة وشعباً مع جغرافيته ، لما عاشت الدولة قرابة ثمانين سنة ، ويعود الفضل بالدرجة الأولى إلى الملك حسين الذي حكم قرابة خمسين سنة من حياة الدولة الأردنية في القرن العشرين . . . وهي حياة مناضلة إزاء ما تعرضت له من الهزات الصعبة ! .

إذا كان هيكل قد قدّم مبررات واهية عن قسوة الجغرافية والتي وجدنا بأن الأردن قد استجاب لتحدياتها ، وما أفرزته تلك الجغرافية من سياسات ومؤامرات ومحاولات انقلابية وتنظيمات معارضة وصدامات داخلية وحروب ضد إسرائيل . . . . فقد خرج الأردن منها سالماً . . . وعليه ، فإن السؤال الذي يفرض نفسه هنا : إذن أين تكمن القساوة الأخرى التي يتمثلها التاريخ ؟ وهي عند هيكل كانت أشد وأقسى ! .

ولا ادري ماذا قصد بقوله : « ان المملكة كانت بغير تاريخ قديم» ، فماذا قصد بالتاريخ القديم ؟ هل هو التاريخ الكلاسيكي لما قبل الإسلام؟ أم يقصد به تاريخ العرب وصدر الإسلام؟ ومهما قصد ، فإن الأردنيين لم يقبلوا أبداً التقليل من شأن تاريخهم بهذه الطريقة المستهجنة ، ونحن نشاركهم اهتمامهم بتاريخهم . . وقد برز من بينهم اكثر من مؤرخ ورجل آثار تخصّص في حقبة معينة من تاريخ بلده . . . وثمة اعتزاز كبير ومضامين مهمة يحتويها تاريخ الأردن في أحقاب مختلفة . السؤال : لماذا استخف هيكل بتاريخ شعب عربي له

خصوصيته ، برغم شراكة التاريخ العربي الذي وصفه انه يخّص كل العرب في عمومهم؟ وان الذي يفحص تاريخ الأردن بدقة في أحقابه القديمة والوسيطة ، سيجد ان ثراء كبيراً في المعلومات لا بد ان يعرف . . . وان ثمة مضامين تاريخية وحضارية أردنية لا بد ان تخضع للدراسة والتحقيق ! .

ويستطرد فيقول : «والشاهد أن المنطقة التي أنشئت فيها أمارة «شرق الأردن» كانت محرومة من وفرة الموارد ، ولهذا فأنها لم تعرف مجتمعات مستقره تترك وراءها بمضي العصور تراكمات حضارية متواصلة» (وجهات نظر ، ٨/٣) .

ان أي قراءة متخصصة في التاريخ لهكذا «نص» ستخضعه للنقد والمعالجة مباشرة ، كونه أبتعد كثيرا عن الحقيقة التي يعرفها الاقرب الى مضمونه . . وعليه ، لابد من تسجيل الملاحظات التالية :

حقيقة الأردن المعاصر :

وهكذا يستعجل هيكل القول ، فوقع في ما ليس له بد إلا في مأزق لا يستطيع الخروج منه أبدا :

١ . لم يكن شرق الأردن على امتداد خمسين سنة بلدا دون تاريخ أو دون جغرافية . . . ويكفي أن يطلع على ما نشر في هذين الميدانين في الثلاثين سنة الأخيرة ، وخصوصاً بعد تأسيس الجامعة الأردنية . . . . فضلاً عما حفلت به الأدبيات الأردنية العلمية من مضامين .

٢ . لقد توفر للأردن على امتداد ثمانين سنة من موارد ، وخصوصاً في الخمسين سنة التي توّفر له ما يكفي لمكوناته من البقاء والاكتفاء الذاتي في الموارد المتنوعة ، مقارنة ببلدان أخرى عربية وغير عربية ، سواء كانت من صاحبات الموارد أم من عدمها . . . . فليقارن هيكل بين النماذج العربية في الجغرافية السياسية لها على امتداد النصف الثاني من القرن العشرين . . . . ثم ليخرج بعد ذلك بالنتائج والأحكام .

٣ . لا يمكن لهيكل ان يتّهم المجتمع الأردني انه مجتمع غير مستقر في الماضي

والحاضر* . . . . فلو خصّص جزءاً من وقته ، وقرأ تواريخ المدن الأردنية وجواراتها المختلفة والتي كرسّتها في السنوات الأخيرة اطروحات ورسائل وكتب علمية بحثت في تاريخ الأردن إبان الحكم العثماني والتي أشرف عليها المؤرخ المعروف محمد عدنان البخيت الذي كان لجهوداته العلمية أكبر الأثر في التوثيق العلمي وتأسيس مدرسة منهجية مقتدرة ، ولو قرأ هيكل تاريخ كل من الدولة والمجتمع في الأردن وحياتهما في القرن العشرين ، كتلك الاعمال التي نشرها جامعيون أردنيون** . . . سيجد ان هناك مجتمعاً اردنيا مستقراً منذ أزمان طويلة سواء في المدن والقصبات والأرياف بدءاً بالشمال : إقليم حوران واربد وجوارها ومروراً بالوسط : إقليم عجلون والسلط والزرقاء وجواراتها ووصولاً إلى الجنوب : إقليم الكرك ومعان والعقبة وجواراتها . . . .

وكانت لهذا «المجتمع» روابطه الحيوية مع الفلسطينيين سواء قبل وحدة الضفتين أم اثنائها ام بعد كل الذي حلّ اثر هزيمة ١٩٦٧ . وكان ولم يزل لهذا المجتمع العربي ثقافته وعاداته وتقاليده وتراكماته من القيم . ويكفي هذا «المجتمع» تنوعه باستيعابه على امتداد اكثر من قرن كامل الأعداد الكبرى من المهاجرين المسلمين والعرب : جماعات الشركس والشيشان واللازكي والأرمن والأكراد وانتهاء بهجرات الدروز واللاجئين الفلسطينيين وغيرهم . . . فضلاً عن ان هذا المجتمع الذي اكتسب صفة التعددية عاش منذ القدم وحتى

---

* انظر تحليلات رصينة كتبها :
Norman N. Lewis, *Nomads and Settlers in Syria and Jordan 1800 - 1980* (Cambridge: Cambridge University Press, 1987), PP. 116 - 148.

** لابد من مراجعة الرسائل العلمية التالية التي اشرف عليها الاستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت :
- عليان الجالودي ، قضاء عجلون ١٨٦٤ - ١٩١٨ ، ط ١ (عمّان : منشورات الجامعة الاردنية وجامعة اليرموك ١٩٩٤) (في الاصل رسالة ماجستير) .
- جورج فريد طريف ، السلط وجوارها ١٨٦٤ - ١٩٢١ ، ط١ (عمّان : منشورات بنك الأعمال ، ١٩٩٤) . (في الأصل رسالة ماجستير) .
- هند ابو الشعر ، اربد وجوارها (ناحية بني عبيد) ١٨٥٠ - ١٩٢٨ ، ط١ (عمّان : منشورات بنك الاعمال ، ١٩٩٥) (في الاصل اطروحة دكتوراه) .
- محمد سالم الطراونه ، تاريخ منطقة البلقاء ومعان والكرك ١٨٦٤ - ١٩١٨ ، ط١ (عمّان : وزارة الثقافة ، ١٩٩٢) (في الاصل رسالة ماجستير) .

اليوم متسامحاً ضمن سيرورة التعايش الديني بين المسلمين والمسيحيين وبين العرب وغير العرب . . . . كي تغدو له ثقافته الواضحة وخصوصيته التي غابت عنها التنافسات والشقاقات والانقسامات والصراعات التي عرفتها مجتمعات عربية أخرى .

أين قيم التاريخ ؟

ونبقى نتعامل مع نصوص هيكل ومناقشتها نقدياً ، فهو يتابع مستطردا ليقول : «ولان المنطقة كانت قبل الإسلام وبعده مسالك طرق من الجنوب إلى الشمال ، ومن الشرق إلى الغرب ، فقد ظهرت عند بعض تخومها آثار شعوب وإمبراطوريات علا نفوذها في المنطقة ، ومشت جيوشها أو سارت قوافلها عبر الأردن . ثم انه على طرق زحف الجيوش وحركة القوافل نشأت مراكز محدودة للعمران ظلت آثارها باقية مثل معبد «بترا» والملعب الروماني في قلب عمان ، ثم مقابر لبعض قواد الفتح العربي للشام استشهدوا بالسيف في الجهاد أو بالعطش وسط التيه ، ثم حفظت قبورهم شاهدا إذا صدق الرواة ، كذلك بقيت أطلال بيوت أريد لها في زمانها ان تكون ملاذا بعيداً لبعض أمراء الأمويين إذا أوحشتهم حياة الصحراء . لكن المنطقة في عموم أحوالها كانت ممرا اكثر منها مستقرا ، ومعبرا اكثر منها مقاماً» . (وجهات نظر ، ٨/٣) .

كيف نجيب على هذا النص؟

المسالك الاستراتيجية :

١ . لم تكن هذه المنطقة بالذات قبل الإسلام وبعده لوحدها : مسالك طرق باتجاهات مختلفة ، فلقد ازدحمت المسالك والمنافذ والخطوط التجارية العمودية والأفقية في عموم بلاد الشام والعراق ، باعتبار ان منطقة الهلال الخصيب كاملة هي حلقة الوصل الإستراتيجية بين شرق العالم وغربه وبين شماله وجنوبه .

امبراطورية واقاليم :

٢ . لم تظهر آثار الشعوب والإمبراطوريات التي علا نفوذها عند تخوم هذه المنطقة لوحدها . . . إذ كانت جزءاً حيوياً من منطقة (أو : إقليم بلاد الشام) بشكل كامل ، ذلك

لان البتراء كانت عاصمة للأنباط الذين اسسوا دولة عربية نبطية وصل نفوذهم حتى مشارف الاناضول ، كما انتشر فيها الغساسنه وعاصمتهم تدمر . . . وكان العرب المؤابيين الذين استقروا في الاردن قد نذروا أنفسهم لدحر العبرانيين . . وكل من المدينتين البتراء وتدمر تقعان في قلب الصحاري! أما الآثار الرومانية التي تنتشر في طول البلاد وعرضها ، فهي دليل على قوة استراتيجية المنطقة ، خصوصاً في مناطق : أم قيس وجرش وفيلادلفيا (=عمان) ومعين . . . . وغيرها فضلاً عن أن إقليم حوران في شمال الأردن كان من اثرى السهول الزراعية التي اعتمد علية الرومان . . . . فالأردن ليس معبراً بل مستقراً ، وموطناً وليس ممراً ! .

عبور الانبياء :

٣ . إن سر قوة هذه المنطقة في جنوب بلاد الشام ، انها الفاصلة بين المتوسط غرباً والبوادي الشامية والعراقية شرقاً ، وبين أقاليم سوريا العليا شمالاً وكل من الحجاز ونجد جنوباً . . . . وعلية ، فإن امتدادات الجيوش ، وقوافل التجارة ، وركبان الحج ، وتواصل العلماء وهجرة الأقوام . . . . كلها أسست لها مراكز استيطان حقيقية للعمران وليست محدودة أبدا .

ولعل أبرز قيمة حضارية ورمزية تتمثلها الاردن انها البلد الوحيد بعد الحجاز الذي مر في أراضيه نبي الاسلام ﷺ لمرتين اثنتين في طريقه الى مدينة بصرى الشام . . فضلا عن تاريخ عدد من الانبياء الذين استقروا في مناطق عدة من الاردن ، اضافة الى الرمز التاريخي الذي يعتني به الاردنيون والمتمّثل أيضا بأهل الكهف واستكشاف مكانهم في قلب الاردن .

مقابر وأضرحة وقلاع :

٤ . وتلك «المقابر» و «الأضرحة» المعروفة لبعض قواد الفتح العربي للشام مع مقابر عدة لجنودهم بالتأكيد ، والذين استشهدوا بالسيف في الجهاد أو بالعطش وسط التيه – كما وصفت ذلك يا هيكل – ثم حفظت قبورهم شاهدا إذا صدق الرواة – كما تقول متشككاً – ، فلا بد أن تعرف التاريخ قبل أن تطلق الاحكام ، وينبغي أن تدرك الأمور وتتحرج في إطلاق التشككات! ان معركتين فاصلتين – عدا غيرهما من المعارك – قد

اندلعتا على هذه الأرض بين المسلمين الأوائل وبين الرومان البيزنطيين في مؤتة واليرموك ، وقد اتخذ كل من المصطلحين العزيزين على القلوب تسمية لجامعتين مرموقتين في الأردن اليوم . . . فكيف لم يستشهد في كل من المكانين وغيرهما من الأماكن قواد وجنود من العرب الفاتحين ؟ وإذا كنت لم تذكر الناصر صلاح الدين ، فبينه وبين الصليبيين على هذه الأرض وبعض قلاعها وحصونها تاريخ حافل بالأمجاد ، وتكفي قلعته العالية التي بناها على قمة جبل عجلون . . . . . ويكفي حصاره المجيد لقلعة الكرك الحصينة!ومدينة الكرك نفسها اتخذها الملك الناصر داوود عاصمة للدولة لمدة ثلاث سنوات صدر عنها عدة قرارات سلطانية* .

بيوت الامويين :

٥ . اما اطلال بيوت الامويين التي تتوزعها البوادي الأردنية الشرقية ، فهي ليست دليل إنكار ، أو نموذج تهكم إذا كان اولئك الأمراء من الأمويين قد أوحشتهم الصحراء . . . . ولماذا لا ؟ فهم الذين ولدوا في رحم الصحراء العربية وفتحوا العالم شرقاً وغرباً ، ووصلت قواتهم حدود الصين وأعماق فرنسا!والصحراء بمفازاتها وبواديها ليست عيباً من العيوب ، وان الحياة فيها تمثل كل التحدي وكل الانفتاح ، وقد كانت على امتداد تاريخ العرب موطناً للفصاحة والرجولة والاستجابة والصبر والشعر الجميل! ولقد أنجبت الصحراء العربية عدداً كبيراً من عمالقتنا ورجالاتنا الذين سجلوا بأعمالهم ومعطياتهم صفحات رائعة في التاريخ .

الأردن بين عاصمتين:

يقول هيكل وهو يبدأ فقرة جديدة : «كانت عمان التي وصل اليها موكب الامير عبد الله ابن الحسين معاتباً لأبيه ومغاضباً لشقيقه الأصغر منه – قرية صغيرة تتناثر بيوتاتها على

---

* راجع : سيار الجميل ، النسر الاحمر : صلاح الدين الايوبي : التجربة والتكوين ط١ (بيروت / عمان : الاهلية للنشر والتوزيع ، ١٩٩٧) ، ص ٥٦ – ٥٨ .

مجموعة من التلال . وكانت حياتها تجارة محدودة وزراعة في واحات محصورة حول بئر هنا أو بئر هناك . ثم بعض مبان إدارية تركتها الإمبراطورية العثمانية وراءها حين كانت عمان محطة ضرورية على الطريق من دمشق إلى مكة والمدينة في الحجاز» . (وجهات نظر ، ٨/٣) .

لقد تبين واضحاً كيف يحّرف التاريخ ، وكيف يركز كاتبنا على جوانب دون أخرى ، دعونا نسجل الملاحظات التالية مع تساؤلات المؤرخ الناقد التي لا بد منها :

١ . نسأل هيكل : عندما تكتب تاريخاً معيناً ، وأنت تقتنص بعض الأشياء لكي تشّدد عليها دون أية توثيقات ، فهل تعتقد أن الأمة العربية قد عدمت من المؤرخين المحققين ومن ذوي الاختصاص بالشأن العربي ؟ وإذا كنت قد مرّرت على مدى ثلاثة عقود من الزمن أشياء كثيرة في كتاباتك على الناس ، فهل تعتقد أن أعمالك سوف لا تخضع للفحص والتدقيق ؟ وهل تعتقد ان توليفاتك ستمر على الأجيال القادمة ؟

٢ . هل أنت متأكد بما قلته في «النص» أعلاه ؟ وهل حددت بالضبط تواريخ ما تكتب بالضبط ؟ وهل استطعت – وأنت الصحفي العربي الشهير – ان تفحص الصحف العربية القديمة الصادرة في الأردن وسوريا والعراق والحجاز ، وخصوصاً الصحف التي صدرت عام ١٩٢١ ، وهو العام الذي تأسس فيه كل من كيان المملكة العراقية ، وكيان إمارة شرق الأردن بقيادة هذين الاخوين ؟ لتقف على العلاقة الطبيعية بينهما من ناحية ، وبين الأخوين نفسهما وبين والدهما؟ وهل دعمت ما قلته بالوثائق ؟ بعيداً عن التداعيات التي ركز عليها الكتاب الغربيون بشكل خاص . . . ! إضافة إلى ما كتبه عدد من الساسة والصحافيين العرب الذين كانت لهم ولم تزل مواقفهم السياسية ضد الهاشميين ، وجئت أنت لكي نطالبك نحن من المختصين الحياديين بإبراز المستندات والوثائق اوانت تعرف أو لا تعرف بأنه قبل العراق ، كان فيصل الأول قد أسس الحكومة العربية في دمشق التي عاشت للفترة ١٩١٨ – ١٩٢٠ بعد دخوله على رأس الجيش العربي منتصراً . . . . فهل عرفت بهذه السهولة مشاعر الأب وولديه ؟ .

٣ . وهل قرأت ما صدر عن تاريخ العاصمة الحديثة عّمان منذ مطلع القرن العشرين وحتى

اتخاذها من قبل الأمير عبد الله عاصمة لدولته الجديدة ؟* ان تقديمك لهكذا وصف يتضمن المزيد من المغالطات لا يثير وحده حفيظة أبناء - مدينة عمان وحدهم ، ولا أبناء الأردن كلهم ، صحيح انهم أهلها وهم أدرى بشعابها ولكنني - وأنا لست بأردني - أعلمك بأنني قد توقفت على حقائق تاريخية خلال السنوات الاربع المنصرمة ، تخالف ما جئت به وذلك من خلال قراءاتي المتنوعة عن تاريخ الأردن الحديث والمعاصر أولا ومن خلال إشرافي وعضويتي العلمية في اكثر من لجنة امتحانية لطلبة ماجستير ودكتوراه كتبوا في موضوع تاريخ مدينة عمان وجوارها منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى اليوم !

ماهي حقيقة تاريخ عمان؟

٤ . لم تكن عمّان كما وصفتها قرية صغيرة تتناثر على مجموعة من التلال ، بل أنها كانت مدينة صغيرة تتوزع محلاتها وبيوتها القديمة على سبعة من الجبال - وأنت الذي تقول بأنك زرتها عدة مرات - ويقطنها العرب الاقحاح الذين رحبوا فيها بجماعات كبيرة من اخوة مسلمين لهم من الشراكسة واللازكي والشيشان وغيرهم . . . . وكان للناس فيها لهم تجارتهم ومعاملاتهم ، مع وجود أجهزة ومؤسسات ويكفي أن تطلع على سجلات محاكمها الشرعية عند نهايات العهد العثماني ، وخصوصا سجل شرعي عمان رقم (١) وسجل شرعي عمان رقم (٢)** لتقدير مكانتها الاجتماعية وهي التي آثر مهندسو خط سكة حديد الحجاز بين دمشق والحجاز ان يمر بها كمحطة ضرورية تربط بلاد الشام باقليم الحجاز .

٥ . وكان عليك ان تذكر بأن عمان وهي المدينة التي ترك فيها الرومان القدماء آثارهم التي لم تزل شاخصة أمام أبصار من يزورها ، وخصوصاً المسرح الروماني الواقع في قلب

---

* أشير بالخصوص الى اطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث وباشراف أ . د . محمد عدنان البخيت ، كتبها : نوفان رجا الحمود ، عمّان وجوارها خلال الفترة ١٨٦٤ - ١٩٢١ ط١ (عمّان : منشورات بنك الاعمال ، ١٩٩٦) .

** يقوم حالياً صلاح قازان أحد طلبتي لنيل درجة الماجستير بدراستهما وتحقيقهما في رسالة علمية بجامعة آل البيت / الأردن .

المدينة . . . كان عليك أن تذكر بأن الأمير قد آثرها على مدينة قريبة منها ، كانت تلك «المدينة» هي المركز الإداري - العثماني في الأردن . . . هي مدينة السلط القريبة من عمان ، والمتميزة بثقلها السكاني على امتداد قرون طويلة ، وهي التي جعلها العثمانيون مركزاً إقليمياً له نفوذه وأجهزته ودوائره الإدارية فضلاً عما تميزت به السلط من التركز الثقافي والاستقرار البشري ، مع وجود السوق الذي يسيطر على الموارد المحلية (والزراعية خصوصاً) ، إضافة إلى علاقات السلط القوية مع المدن الفلسطينية عبر غرب النهر ، واستقرار أعداد كبرى من الفلسطينيين في السلط وما حولها* .

تأسيس الأمارة :

ونبقى مع هيكل الذي بدأ يحدثنا الآن عن الأمير عبد الله ، ويستعرض لنا بعض «التقولات» التي يضعها على لسانه والقارئ لا يدري مدى صحتها من كذبها ، يقول : «ولم يكن الأمير عبد الله شديد السعادة بالأمارة التي اقطعه إياها وزير المستعمرات البريطاني ، وقد قال وقتها ، وظل يقول - حتى سمعتها منه سنة ١٩٤٨ - ان هناك «ممالك دون ملوك وهناك «ملوكاً بدون ممالك» وكان يصرف المعنى على هواه وهوى سامعيه ، فـ «المملكة بلا ملك» في بعض الجلسات هي السعودية - وفي بعض الجلسات هي العراق - بل وفي إحدى المرات - على الأقل - هي مصر - لكنه هو عبد الله الحسين في كل الأحوال كان «الملك بلا مملكة» (**وجهات نظر** ، ٨/٣) .

وينقلنا محمد حسنين هيكل لكي يعلق ويفصل حول هذا «النص» :

١ . يذكر عدد من المؤرخين المختصين بشؤون الأردن المعاصر ، ومنهم : المؤرخ المعروف على محافظة في كتبه ومحاضراته وأوراقه بأن الأمير عبد الله بن الحسين عندما تسلم قيادة أمارة شرق الأردن ، قد جعلها قاعدة استراتيجية له في تأسيس مملكة عربية سورية واسعة تتمثل فيها كل عوامل الوحدة . . . . وانه بقي طوال حياته ينادي بوحدة سوريا

---

* من المفيد مراجعة ما كتبه وليد قزيها في :

Walid Kazziha, *The Social History of Southern Syria (Trans Jordan) in the 19th and Early 20 th Century* (Beirut: Beirut Arab University, 1972).

الكبرى من خلال المشاريع التي طرحها بوحدة البلاد السورية .

٢ . لم تعلمنا جميع الأدبيات والوثائق القديمة سواء كانت أردنية أو عراقية عن أي خلل في العلاقة الشخصية أو السياسية التي جمعت بين الأخوين : عبد الله في الأردن وفيصل في العراق . . . . وحبذا لو راجع هيكل الصحف القديمة والوثائق الهاشمية في كل من البلدين ، سيرى طبيعة العلاقة الوثيقة التي كانت تربط بين الأخوين ، وحجم الزيارات المتبادلة بين الرجلين . . . . ولقد كان ذلك هو الأساس الذي بنيت عليه طبيعة العلاقات التاريخية على امتداد القرن العشرين بين الأردن والعراق .

٣ . نحن نطالب محمد حسنين هيكل أن يأتينا بوثيقة دامغة وواضحة وصادقة تنبئونا عن سماعه عبارات الأمير عبد الله وعن لقائه معه شخصيا سنة ١٩٤٨ ! ولماذا بقيت هكذا «عبارة» معلقة في ذاكرة هيكل على امتداد اكثر من خمسين سنة ، ولم ينشرها حتى عام ١٩٩٩ ؟

رابعاً : الهاشميون من آل البيت :

كيف نفهم مكانتهم في تاريخ العرب والمسلمين؟

الهاشميون: هل كان تاريخهم مشكلة ومأساة وإرهاق ؟

هذا موضوع تاريخي حافل ومعقد آخر ، ادخل هيكل قلمه فيه ، ولم يستطع ان يتوفق أيضاً في معالجته علمياً! كما وأنه ، ونظرا لعدم معرفته بدواخل التاريخ العربي والاسلامي وعدم سيطرته على مظانه ، واقحامه للموضوع في غير محله ، فقد أطلق أحكامه السالبة عليه متخذا من الكراهية السياسية دافعا له في التشويه التاريخي ، ومادة للكتابة غير المسؤولة أبدا مبتعدا كعادته عن الموضوعية والحياد والأمانة العلمية . . . ودعوني استفيد - أيضاً - من تخصصي المتواضع بشؤون تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، لمناقشة ما كتبة الرجل ، وكشف المزيد من أخطائه ومغالطاته :

يقول هيكل : «وتاريخ الهاشميين بالدرجة الأولى مشكلة ، وحكايتهم من القرن السابع الميلادي وحتى القرن العشرين مأساة ، ثم أن التعقيدات التي صنعوها وصنعتهم - مشكلة ومأساة - تركت آثارها عليهم وعلى التاريخ الإسلامي ، وعلى السياسة العربية المعاصرة من وقتها إلى اليوم - وكانت النتائج - ولا زالت - مرهقة !» (نلاحظ معاً ان هيكل يشدّد على كلمات معينة : مشكلة/ مأساة/ مشكلة ومأساة/ مرهقة ، ويضع تحتها خطوطاً) .

يكمل النص قائلاً محاولات إثبات ما كتب مغالطا :

ان «المشكلة بدأت حين تصور البعض من أسرة الرسول(ص) أن لهم حقاً في خلافته ، ثم رأت غالبية من المسلمين أن النبوة ليست ملكاً يؤول إلى عائلة «محمد» (ص) بعد انتقاله إلى الدار الآخرة . وكانت تلك هي القضية المثارة علناً أو همساً في المجتمع الإسلامي طوال الجزء الأكبر من عصر الراشدين ، وكانت ضمن العوامل التي أدت إلى الفتنة الكبرى وقد حسمها «معاوية» - أو هكذا بدا وقتها - بقيام دولة الأمويين . وكانت المأساة أن معاوية لم يكتف بالنصيحة كما فعل أبو بكر وعمر وعثمان وانما قاد عملية تمرد ضد علي (وهو أول

خليفة من أسرة الرسول (ص) ، ثم أن معاوية قاد العالم الإسلامي إلى تجربة إنشاء دولة قوية (تحولت إلى إمبراطورية إسـلامية عظمى) . وهي دولة لم تكن طول عمـرها على استعداد - بالطبع - لقبول دعاوى بالأحقية في الخلافة لغيرها ، وكان بين النتائج ما يسمي في الأدبيات الإسلامية بـ «مصارع الطالبين» (نسبة إلى على أبي طالب) ، وكان اشهرها مذبحة كربلاء واستشهاد الحسين .*

واستفحلت المشكلة واستفحلت المأساة معها حينما اختلف أسرة النبي (ص) نفسا مع بعضها ، هاشميين وعباسين وعلويين ، إلى آخره . . . . وكانوا اشد على بعضهم من شدة غيرهم عليهم .

ونتيجة التفاعل بين المشكلة والمأساة جاءت التعقيدات التي صنعها الهاشميون كما صنعتهم ، وهي باختصار (وحتى لا يتوه أحد في سراديب الماضي وكهوفه) . كما يلي : (وجهات نظر ، ٨/٣) (وسأبقى مسجلاً لنص محمد حسنين هيكل لمناقشته بجملته تاريخياً ونقدياً) .

يستطرد هيكل وهو يكتب عن الهاشميين قائلاً :

١ - ان الهاشميين اعتقدوا وظلوا على اعتقادهم بأنهم أصحاب حق في ولاية الأمر . ومنطقهم ان صلتهم بالنبي (ص) لا يمكن ان تكون مصادفة .

٢ - ان عامة المسلمين ، أغلبية المسلمين لم تعترف لهم بهذا الحق مؤيدة لفكرة ان الرسالة اختيار الهي لرجل اصطفاه ربه وحده ، وأي حديث عن أسرته . ينقل الأمر في الإسلام من الخلافة برضا الناس إلى الملك بالإرث حتى وان غطته مظاهرالبيعة !

٣ - لكن الهاشميين لم يقتنعوا ، ولأنهم لم يقدروا على المطالبة الصريحة إزاء إجماع معظم المسلمين ، فإن عتبهم على الامة ظهر وزاد ، فقد كان مناهم ان تقدّم لهم ما اعتقدوا انه حقهم دون ان يضطروا هم إلى المطالبة به .

* هنا لا بّد لي أن أسأل : ما علاقة كتاب «مقاتل الطالبيين» وليس كما ذكره هيكل بـ «مصارع الطالبين» بالموضوع ؟ انظر الاصل : أبو الفرج الاصفهاني (ت ٣٥٦هـ / ٩٦٦م) ، مقاتل الطالبيين (بيروت : مطبعة دار الكتب ، د .ت) .

٤ - إزاء هذا الوضع المعقد فإن الهاشميين في كل ما سعوا لتحقيق مطلبهم - حاولوا سراً ولم يحاولوا جهراً . وعلى هذا فإن دورهم عبر التاريخ اكتسب على نحو ما طابع العمل الخفي - واحياناً لحقته شبهة المؤامرة ا .

٥ - والشاهد انه من عصر الأمويين إلى عصر العثمانيين ، فإن الهاشميين تحركوا دائماً ومن وراء عواصم كل دولة إسلامية في التاريخ ومن مكة إلى دمشق ، ومن الكوفة إلى استانبول - وكانت حركتهم في كل الاتجاهات ومع كل قريب أو بعيدا - تصوروه قادراً على فهم لغة الإشارات!

٦ - نتيجة لذلك ان الهاشميين صنعوا ما يمكن حسبانه لغة خاصة تقول بالعين ما لا ينطبق به اللسان ، وتعبّر بجمل توحي ولا تبوح ، وقد تفاقم الإبهام المقصود - والذي اصبح فيما بعد - إلى درجة يمكن معها تمييز «أسلوب هاشمي» في الكلام أو الكتابة ، يقبل كل تأويل ويحتمل أي معنى .

٧ - ومع مرور السنين والقرون فإن الخطاب الهاشمي غلبت عليه نبرة من الإحساس بالاضطهاد والادعاء بالاستشهاد ، فالأمة صنعت عليهم بحقهم ، ودولها الكبرى (الأمويين بالذات) ظلمتهم ، واستباحت ذمامهم ، وأهدرت دمهم - ثم لم ينتصر لهم أحد رغم تعاقب الدول - ومع انهم استعملوا - أحياناً - رايات في معارك الآخرين ، إلا انهم خرجوا في النهاية - ودائماً - صفر اليدين ، لا دولة ولا عرش ولا تاج !

واخيراً ، فقد قيض الله لهم من أنصفهم من الظلم بما فيه «كيد الأعداء وحسد الأمراء » - طبقاً للنص الرسمي الذي أصّر عليه الشريف حسين حين قدّم لحلفائه البريطانيين مشروع اتفاقية ا .

ولم ينجح مشروع الشريف حسين ولكن اثنين من أبنائه فيصل وعبد الله - عثر كل منهما لنفسه على عرش : أولهما في بغداد ، وثانيهما في عمان » **(وجهات نظر ، ٣/٨-٩)**

انتهى «النص» الذي كتبه هيكل ، وهو بحاجة ماسة الى اخضاعه للنقد والمعالجة ، ذلك لأن ثمة أخطاء ومغالطات عديدة تحتويه :

مناقشة النص ودحضه:

سنأخذ في المناقشة فقرة بعد أخرى للتعرّف عليها ، والتعمّق اكثر فاكثر في تفكير كاتبها الذي أوقع نفسه في أكثر من مأزق يحسد عليه ، خصوصاً عندما يتعامل مع الشأن التاريخي الخاص وفي موضوع تصعب السيطرة عليه ، نظراً لتشابكه وقدمه واتساع سقفه الزمني ، وكبر مجاله وكثرة مشكلاته ومعضلاته . . وحدوث أكثر من قطيعة تاريخية فيه . . وسأحاول أرد عليه نقطة بعد أخرى . . . كي نتوّصل أخيراً لمعرفة ما يريد هيكل تكريسه عن سوء قصد ، كما أراد فعله في الشأن الجغرافي للأردن !

فماذا يمكننا قوله ؟ .

سلالة واحدة في بيوتات وأسر عديدة:

١ - ماذا يقصد هيكل بالهاشميين الذين اعتبر تاريخهم بالدرجة الأولى مشكلة وان حكايتهم من القرن السابع الميلادي وحتى القرن العشرين مأساة ؟ فهل من المعقول أن يبقى الهاشميون ضمن سلالتهم الواحدة في إطار أسرة واحدة ،هم أنفسهم على امتداد أربعة عشر قرناً ؟ بدليل انك قرنت بين مشكلة ومأساة لم يعد لها أي وجود في وعي الهاشميين المعاصرين ولا في ذاكرتهم التي تحفظ في كوامنها رمزاً أحاديا يتمّثل بنسبهم الشريف ليس إلا! ولا بد من معرفة ان مصطلح «الهاشميين» لم يستخدم على امتداد تاريخ عمره أربعة عشر قرناً ، بل إنها تسمية رمزية استلهمها أشراف مكة الاواخر . . . . إذ لم يجد المؤرخ بعد فحصه الدقيق لتاريخ اشراف مكة بالذات مثل هذه التسمية الرسمية حتى ولا عند أمرائهم وزعمائهم! فإذا كانت هذه «التسمية» قد أرادها آل عون لانفسهم عند مطلع القرن العشرين باعتبارهم من اشراف مكة وامرائها ، ويتصل نسبهم بآل البيت حقا والهاشميين صوابا . . . . فلماذا أصّر هيكل على أن يستخدم التسمية على كل فروع آل البيت ، بدليل رجوعه إلى أربعة عشر قرناً . . . وليتخذ من الهاشميين المعاصرين سبباً يمنحه لنفسه في زج تاريخ أسرة ليسجل تقولات عن تعقيدات صنعها الهاشميون على امتداد أربعة عشر قرناً ، وان مشكلة ومأساة قد صنعتهم والمرء العاقل يسأل : ما علاقة هؤلاء الأواخر بأولئك الأوائل الذين ما كانوا يسمّون بالهاشميين! فماذا كانت تسميتهم ؟

مصطلح آل البيت ومفهومه :*

٢ - لقد غلبت تسمية آل البيت عليهم (أي : آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم) ومن الغريب ان هيكل لم يدرك المعنى التاريخي لكل من المصطلحين : الهاشميون وآل البيت ، ولا ادري كيف حرر عدة صفحات عن تاريخ الشيعة والانقسام الذي حدث منذ وفاة (الرسول ﷺ) في كتابه : مدافع آية الله : قصة ايران والثورة . علماً بأنه قد ذكر في كتابه هذا مصطلح جاء في سياق حديث الرسول ﷺ هو : «عترتي واهل بيتي» (مدافع أية الله ، ص ١٠٩) وان هيكل في كتابه هذا كتب قائلاً : «ترك علي ابنين ، الحسن والحسين ، الذين كان يمثلان في ذلك الوقت ، كما كان أبوهما من قبل ، فكرة السلالة الحاكمة في الإسلام (أي : أهل البيت) . . .» (مدافع أية الله ، ص ١٠٨) كما وانه كتب الكثير عن سلالة علي وشيعة علي وذكر العباسيين والفاطميين . . . . . لكنه لم يذكر مصطلح الهاشميين أبدا ! فلماذا كرّس كل انقسامات المسلمين وصناعة المشاكل وسيناريو المأساة على امتداد أربعة عشر قرناً باسم الهاشميين ؟ أنه تاريخ تمزق ومصارع على الحكم والسلطة والنفوذ يصطبغ به تاريخ العرب والمسلمين وتقع جماعات (وعتر) ال البيت في قلب ذلك الصراع ! ان هيكل واضح غرضه منذ البداية ، انه يريد القول بأن الهاشميين أجداد هؤلاء الحاليين الذين حكموا العراق والأردن في القرن العشرين لهم الدور في إنتاج الإرهاق !

ماعلاقة الماضي البعيد بالحاضر القائم؟

٣ - ماذا يريد هيكل في هذا المجال وهو يتحدث عن الأردن والأمير عبد الله ، لكي يكتب عن مشكلة الخلافة بين الرسول ﷺ وعن قضيتها في عهد الخلفاء الراشدين (وادعو هيكل ليصحح كتابة مصطلحات تاريخية ، إذ لابد ان يقول «عهد» بدل «عصر» الذي أطلق على الخلفاء الراشدين) ، ثم ينتقل إلى معاوية وتمرد علي . . . وما علاقة كتاب «مصارع

---

* أشير الى أفضل مقالتين كتبتا حول هذا «الموضوع» لـ :
فاروق عمر فوزي ، «حول مصطلح (آل البيت) » ، مجلة الزهراء ، العدد (٩) ، جامعة آل البيت / الاردن ، ايلول/ سبتمبر ١٩٩٥ .
و «مقالة آل البيت» ، موسوعة الحضارة الاسلامية ، مؤسسة آل البيت ، عمّان ، ١٩٩٩ .

الطالبيين» ومذبحة كربلاء واستشهاد الحسين ؟ ثم كيف تصنّف يا هيكل اختلاف اسرة النبي ﷺ نفسها مع بعضها وتذكر : هاشميين وعباسيين وعلويين إلى آخره ؟ لم يكن هناك فرع أو تصنيف يسمّي نفسه بـ «الهاشميين» فالهاشميون هم : العباسيون والعلويون معاً !

تاريخ آل البيت وحدة بنيوية واحدة لكن لها أنساقها المختلفة :

٤ - لقد جئت بمختصرات (حتى لا تتوه - والاصوب ان تقول : نتيه بدل نتوه - في سراديب الماضي وكهوفه) ولكنك تائه ليس في سراديب الماضي وكهوفه ، بل في دوامات الحاضر وتموجاته! وأنت الذي أخذت ذلك «الماضي» لكي تكتب عن الهاشميين ، وتطلق أحكامك عن تعقيداتهم ومشكلتهم ومأساتهم ونتائجهم المرهقة!! فإذا كنت تعرف انك غير قادر على الثبات في سراديب الماضي وكهوفه لمعرفته وإدراكه فلماذا تجازف للدخول فيه؟ ومن أعطاك الحق في توزيع أحكامك عليه؟ .

لقد ذكرت الشيعة كثيرا في كتابك «مدافع آية الله . . . .» وتعاطفت مع مشكلتهم التي خلقتها هناك (لاسباب شخصية وخاصة وليس لاسباب أيديولوجية أو سياسية) فكيف لها أن تكون معرفية وانت لا تفقه تاريخ الاسلام والمسلمين منذ ولادته حتى يومنا هذا . . ونترك للقارىء ان يطّلع على ما كتبه في باب علاقة هيكل ببعض الساسة الايرانيين ابان مخاض الثورة الايرانية محمد جلال كشك الذي اتهم فيه هيكل تهما خطيرة جدا كونه الغراب او الواسطة بين عبد الناصر والامريكان* !! وانني أخالف ما جاء به كشك ، لأن اثباتاته قليلة مما دعا اليه . . فضلا عن كوني لم اناقش هيكل من مستنقع سياسي ، وبرغم بعض قناعاتي السياسية في هيكل وأضرابه من اولئك الذين دفعوا بكل امكاناتهم لتأسيس أيديولوجية معينة لا تفقه شيئا في تاريخنا العربي ! ولكن دعونا نرجع لمناقشة هيكل في قضايا التاريخ ، كوني لا أحاسبه على معتقداته السياسية او علاقاته الايديولوجية او ارتباطاته الخفية !

لقد ذكرت الفاطميين أيضا وتعاطفت مع مأساتهم . . . . دون ان تدرك بأنهم من

---

* راجع : محمد جلال كشك ، ثورة يوليو الامريكية : علاقة عبد الناصر بالمخابرات الامريكية ، ط٢ (القاهرة : الزهراء للاعلام العربي ، ١٩٨٨) .

الهاشميين وانهم من آل البيت!؟ اهكذا تقيّم الأمور ؟ فالتاريخ وكتابته ليس مجرد تعبيرات ووجهات نظر وإشاعات تنقلها من هذا أو ذاك . . كتابة التاريخ بحاجة إلى دقة متناهية وحيادية بالغة ومصداقية أخلاقية! ومن العيب ان نصف تاريخنا برغم كل مشكلاته وتعقيداته كونه سراديب الماضي وكهوفه . فماذا قلت في مختصرات لك ذلك ؟ الجواب ببساطة : لكي تتخلص من تلك السراديب والكهوف ؟

انتشار جماعات وعائلات آل البيت: الأشراف والسادة

٥ - من أين أتيت بالرأي الذي قلته ان الهاشميين اعتقدوا وظلوا على اعتقادهم بأنهم أصحاب حق في ولاية الأمر - ومنطقهم أن صلتهم بالنبي ﷺ لا يمكن ان تكون مصادفة ؟ أقول ثانية مخاطباً هيكل : إن مجرد تركيزك على مصطلح «الهاشميين» يوحي للقراء بأن المقصود بهم الهاشميون المحدثون وأجدادهم . . . . . ولابـدّ ان أعلمك بأن الهاشميين (=جماعات آل البيت) لم يعتقدوا جميعاً بذلك ، ولم يظلوا على اعتقادهم بأنهم أصحاب الأحقية في ولاية الأمر ، إذ تكاثروا على امتداد التاريخ العربي والإسلامي وانتشرت عوائلهم في جغرافيات إسلامية عدة ، فنسل الأمام الحسن يتمثل بالأشراف والنقباء وهو قلة . . أما نسل الأمام الحسين فيتمثل بالسادة وهم كثرة . . ان التدقيق في دراسة تاريخنا الاجتماعي العربي والاسلامي يمنحنا معلومات مؤكدة بأن هؤلاء وأولئك قد انتشروا في أمهات المدن العربية على امتداد تاريخ الإسلام دون مطالبتهم بالملك والحكم . . . . بل اثروا أن يكونوا في مقدمة التراكيب الاجتماعية وخصوصاً في المدن سواء في المشرق أم المغرب العربيين ، وكانت لهم أدوارهم الحقيقية في الحياة الحضرية كونهم وقفوا على رأس القوى الفاعلة في المجتمع تتمّثلهم نقابات الأشراف ! .

٦ - سواء اتفق عامة المسلمين واعترفت أغلبية المسلمين بحق آل البيت الهاشميين في ولاية الأمر أم لم تتفق أو تعترف . . . . . فقد ثبتت فروع الهاشميين من آل البيت في مفاصل المجتمع العربي على امتداد اكثر من ألف سنة . . . ولكن هل يمكننا ان نتّعرف على أصناف الهاشميين من آل البيت ؟

تصنيفات آل البيت في التاريخ:

١ / هناك السابقون الأولون من آل البيت ممثلين بزوجات النبي ﷺ وابنته فاطمة الزهراء البتول(رض) والإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وعبد الله بن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه ، وجعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وعقيل بن أبي طالب رضي الله عنه .

٢ / هناك الطالبيون اللاحقون من آل البيت ممثلين بالإمام الحسين بن على رضي الله عنه ، ومحمد بن عبد الله المحض (هو : محمد النفس الزكية) ، والحسين بن علي الحسني (صاحب فخ) . . . . ثم الإمام الحسين بن علي رضي الله عنه ، وزيد بن علي (زين العابدين) (الذي تحزّبت من بعده الفرقة الزيدية) وجعفر (الصادق) بن محمد الباقر (الذي تزعم الفرقة الامامية) ، واسماعيل بن جعفر (الصادق) (الذي انتمت لاسمه الإسماعيلية وانشقاقاتها) ؛ وهناك محمد بن علي بن أبي طالب واله (ابن الحنفية) وأبو هاشم عبد الله ابن محمد (الذي تنتمي إليه الفرقة الهاشمية) ؛ وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر (الذي تحزبّت له الفرقة الجناحية) واخيراً : مسلم بن عقيل بن أبي طالب .

٣ / هناك - أيضاً - العباسيون سواء الذين كان لهم دورهم قبل الخلافة فقط ، ومنهم : العباس بن عبد المطلب (عم الرسول ﷺ) ، وعلي بن العباسي ، ومحمد بن علي العباسي (منظم الدعوة العباسية) ، وهناك أيضا : الامام إبراهيم بن محمد العباسي (مفجر الثورة العباسية) . . .*

٤ / ولا بد ان نذكرك يا هيكل بإبرز الكيانات السياسية التي قامت باسم آل البيت (الذي أسميتهم بالهاشميين) :

إولاً : في المشرق الإسلامي :

* العباسيون ١٣٢-٦٥٦هـ/٧٤٩-١٢٥٨م ، بإنجازاتهم الحضارية في تاريخ العرب والمسلمين .

---

* التفصيلات التاريخية في كتاب :
فاروق عمر فوزي ، المدخل الى تاريخ آل البيت منذ فجر الاسلام وحتى مطلع العصر الحديث ، ط١ (عمان : منشورات جامعة آل البيت ، ١٩٩٨) .

* العلويون الزيدية في طبرستان والديلم ٢٥٠ –٥٢٠هـ /٨٦٤ – ١١٢٦م .

* الزيدية والرسّيون في اليمن ٢٨٠ – ٧٠٠ هـ/ ٨٩٣ – ١٣٠٠م .

* أصحاب إمارة الاخيضر في اليمامة ٢٥٢ – ٣٩٠هـ / ٨٦٦ – ١٠٠٠م .

* أشراف مكة في الحجاز وامرائه ٣٥٨ هـ / ٩٨٦م – وحتى مطلع القرن العشرين .

* الملوك والأمراء الهاشميون في الحجاز وسورية والعراق والأردن (في القرن العشرين) .

ثانياً : في المغرب الإسلامي :

* الادارسة في المغرب الأقصى ١٧٢ – ٣٧٥هـ/٧٨٨ – ٩٨٥م .

* الفاطميون في المغرب العربي ومصر ٢٩٧ – ٥٦٧هـ/٩٠٩ – ١١٧١م .

* السعديون والأشراف العلويين (الفيلاليون) في المغرب الاقصى منذ بدايات القرن السادس عشر الميلادي وحتى اليوم (وآخر ملوكهم اليوم محمد السادس) .

المنجز الثقافي والحضاري:

٥ / برغم ما اتصف به آل البيت كونهم محور التاريخ السياسي بكل انقساماته وصراعاته الدموية ولكن اختلف الامرعلى المستوى الاجتماعي والثقافي ، فقد كان تاريخهم حافلاً بالتنظيمات والأصناف والتصوف ونقابات الإشراف ، وكان لهم دورهم في الثقافة والتعليم والفكر والعلوم سواء ببناء ببيت الحكمة في بغداد والجامع الأزهر في القاهرة أم بناء جامع القرويين في فاس . . . . فضلا عن المراصد والمكتبات والمزيد من أنشطتهم الأدبية والثقافية والعمرانية والفقهية والاقتصادية . . . . ناهيكم عن الادوار الحضارية المتنوعة وانشطتهم في التجارة ونشر الاسلام في ايران وطبرستان وقوقاسيا وآسيا الوسطى والهند وجنوب شرق آسيا . . ومسؤوليات أشراف مكة لشؤون الحج وسدانة الكعبة المشرفة على امتداد عصور طويلة . . . . . فليس هذا كله في سراديب الماضي وكهوفه . . وليس كل هذا مشكلة ومأساة وإرهاق يا هيكل !

ليس هناك ثمة مشكلة !

٧ - أبعد كل هذا «العرض» المختزل الذي تضمّـه أدبيات ومأثورات رائعة : تاريخية وفقهية وثقافية وسياسية وحضارية . . . والذي تغافل عنه كاتب عربي شهير مثل محمد حسنين هيكل أو تجاهله أو أنه لا يعرفه او يدركه او حتى لا يقيم له وزنا !! أبعد كل هذا الاتساع المعرفي في امتداد تاريخنا العربي الذي يعتبره سراديب الماضي وكهوفه . . يأتينا هيكل لكي يتفلسف علينا بشأن الذين صور تاريخهم مشكلة ، ووصف حكايتهم مأساة وانهم أصحاب تعقيدات صنعوها وصنعتهم مشكلة ومأساة !! وأنها تركت آثارها على السياسة العربية المعاصرة من وقتها والى اليوم - على حد تعبير هيكل - لكي يجعل نتائجها أنها كانت - ولا زالت - مرهقة !

أقول : ما هكذا يشوه التاريخ الذي نمتلكه نحن العرب والمسلمين ؟ وما هكذا ننأى عنه بايجابياته وسلبياته ؟ وليس تاريخ الاسرة قد انحصر في بيت واحد لكي تدق أسفينا في خاصرة ذلك البيت ؟ واذا كانت شرعية الهاشميين فيمن تبّقى من آل البيت قد بقيت وانحسرت في القرن العشرين عند الشريف الحسين بن علي وانجاله . . فهم ورثتها ولكنهم غير مسؤولين عما حدث في تاريخنا الطويل لكي تدبّج قصة علي ومعاوية . . ومأساة كربلاء وغيرها ؟ إذا لم تكن بقادر على سبر غور هذا «التاريخ» المتنوع والخصب والذي هربت منه بتوصيفك اياه «سراديب الماضي وكهوفه» وتخوفت ان تتيه في أعماقه . . . فالأولى ألا تغامر بإطلاق أحكامك عليه ولقد زدت عليه بما ليس له أي قدر من الحقيقة . . . . كيف ؟ .

آل البيت : الاندماج الاجتماعي وهاجس التعايش مع الاخرين

٨ - واتهمت الاسرة - وأنت تقصد آل البيت - انهم عتبوا على الأمة ، وانهم سعوا لتحقيق مطلبهم بمحاولتهم سراً ولم يحاولوا جهراً ، وزدت في اتهامك لهم بأن دورهم عبر التاريخ اكتسب على نحو ما طابع العمل الخفي ، واحياناً لحقته شبهة المؤامرة! - حسب قولك - ولا ادري من أين آتيت بهذه الاتهامات ؟ وما هي معلوماتك التاريخية الأكيدة التي استندت عليها في أحكامك التي لا اصل لها من الصحة أبدا . . . . فليس كل من انتمى إلى آل البيت كان متآمرا للاستحواذ على السلطة! وليس كل من انتسب إليهم سعى إلى

تأسيس كيان سياسي باسمه . . . . لقد كانوا مندمجين في المجتمعات التي عاشوا فيها سواء في المشرق أم المغرب العربيين والإسلاميين . . . . بل وكانوا ينالون في جميع المدن التي استوطنوها ثقة الناس واحترامهم ، مؤسسين لانفسهم نقابات الإشراف التي كان لها دورها البالغ في التنظيمات ورعاية القوى الاجتماعية الفاعلة واصنافها الاقتصادية وخصوصاً في المدن العربية الأساسية ، مثل : بغداد ودمشق وحلب والموصل والبصرة ومكة . . . . الخ* .

ليس هناك غموض في أسلوب آل البيت !

٩ - وماذا تقصد بأن تحركات الاسرة في كل الاتجاهات مع كل قريب أو بعيد من وراء عواصم كل دولة إسلامية في التاريخ ، تصوره قادراً على فهم لغة الإشارات ! ما معنى ذلك يا هيكل ؟ بل ما هذا الخلط يا هيكل؟ نعم ، لقد فسرت ذلك في نقطة أخرى عندما ذكرت بأن نتيجة لذلك فإن الهاشميين صنعوا ما يمكن حسبانه لغة خاصة تقول بالعين ما لا ينطق به اللسان . . . . . وقد تفاقم الإبهام المقصود . . . . إلى درجة يمكن معها تمييز «أسلوب هاشمي» في الكلام أو الكتابة ، يقبل كل تأويل ويحتمل أي معنى ! ما هذا الذي كتبته يا هيكل ؟ أي «أسلوب» هذا الذي تتحدث عنه ؟ في أي مرحلة ؟ وفي أي تاريخ ؟ نعم! تحاول أن تعلله لنا بقولك : ومع مرور السنين والقرون ، غلبت على الخطاب الهاشمي نبره الإحساس بالاضطهاد والادعاء بالاستشهاد . . . . فالأمة ضنت عليهم بحقهم ، ودولها الكبرى (الأمويين بالذات) ظلمتهم ، واستباحت ذمامهم ، واهرقت دمهم . . . . حتى قيض الله - كما تقول - لهم من انصفهم . . . حين قدم الشريف حسين لحلفائه البريطانيين مشروع اتفاق معهم ! (وجهات نظر ، ٩/٣) .

أمراء مكة في العهد العثماني :

أهكذا تعالج الأمور ؟ اهكذا تصّدر الآراء من عندك دون ان تميز بين مفاصل التاريخ ومضامينه ؟ وهل اطلعت على ما كتب من أدبيات تاريخية قديمة وحديثةعن الإشراف

---

* التفصيلات التاريخية في كتاب :
سيار الجميل ، بقايا وجذور : التكوين العربي الحديث ، ط١ (بيروت / عمّان : الاهلية للنشر والتوزيع ، ١٩٩٧) ، ص ٢٢٥ - ٢٦٨ .

لهاشميين ؟ ولماذا لم تتوغل في دراسة تاريخ أشراف مكة فقط ، الذين ينتمي إليهم هاشميو الأردن والعراق ؟ ولماذا لم تكن دقيقاً في معرفة تاريخ العتر الشريفة التي كان ينصب أمراء مكة من بين أعضائها ؟ وهلا توغلت في تواريخ الإشراف أبان العهد العثماني ، والمكانة التي حظي بها أشراف مكة في البلاط العثماني من ناحيــة ، أو في المجتمع العربي من ناحية ثانية ؟ حبذا لو اطلعت على فصول من كتابي الموسوم : بقايا وجذور : التكوين العربي الحديث ، ففيه أجوبة حقيقية عن أمور أنت تجهلها ! ولمعلوماتك أن نص عبارة الشريف حسين بن علي التي ذكرتها : «كيد الاعداء وحسد الامراء» قصد بها اعداءه من الترك في جمعية الاتحاد والترقي في استانبول ، اما الامراء ، فقد قصد بهم فرع آل زيد الذي خاصم آل عون على امارة مكة ، فلا تقّول الرجل ما لم يقصده ، وهي عبارات لا يستطيع فهمها الا المؤرخ المختص لا السياسي المؤدلج !! .

مراسلات لا اتفاقات :

١٠ – طالما وصف غيرك يا هيكل كما وصفت أنت بـ «مشروع اتفاق» أو «اتفاقية» بين الشريف حسين بن علي وبين حلفائه البريطانيين . . . . وللحقيقة والتاريخ فإن الملك (الشريف) حسين لم يوقع مطلقا على أي اتفاقية أو على أي مشروع اتفاق بينه وبين الإنكليز ، بل كانت له مراسلات مع السير هنري مكماهون والتي وعده الانكليز من خلالها وعدا شفوياً وليس مكتوباً بتحقيق مطالبه بتأسيس مملكة عربية كبرى يعرف امتداداتها الجميع . . . . ولم يكتشف حتى يومنا هذا أي اتفاق رسمي سري أو علني قد وقع بين الطرفين ، في حين كانت هناك أطراف عربية أخرى قد وقعت على اتفاقات رسمية بينها وبين الإنكليز ، ولقد نفي الملك «الشريف» حسين من قبل الإنكليز الذي كان عنيدا ازاءهم في البقاء والاصرار على تحقيق مطالبه المشروعة .

الهلال لخصيب : الحلم الذي لم يتحقق

يتهم محمد حسنين هيكل الملك عبد الله بن الحسين أنه مذ بدأ يبني بيتاً له على أحد جبال عمان ، راح يمد بصره إلى الضفة الأخرى للنهر حيث تمتد ارض فلسطين ، وان «الذي أقنعه بقبول أمارة شرق الأردن مقدمه لجائزة أكبر منها – كان حلم فلسطين . . . ثم لعله إذا

اخذ فلسطين أحاط بعدها بسوريا وإذن اصبح قريباً من الحلم الذي راود والده واصحابه - بدولة عربية كبرى تملأ الهلال الخصيب من البحر الأبيض إلى الفرات!» (وجهات نظر، ٩/٣)

لم يكن هذا أمرا خافياً، ذلك أن الأمير/ الملك عبد الله قد أعلنه مراراً وتكراراً أن هدفه الأسمى من تشكيل دولته، تحقيق طموحه بتأسيس دولة عربية موحدة في الهلال الخصيب، وقد قدم الرجل عدة مشاريع في هذا الصدد منطلقاً من فكرة قومية لتوحيد الأجزاء التي بعثرتها المعاهدات الدولية.. فما العيب في ذلك؟ متمنياً على هيكل ان يراجع الأوراق القديمة والصحف التي كانت تصدر في تلك الفترة مع مجموعات من الوثائق.. لكي يتثّبت بأن الملك/ الشريف حسين بن علي نفسه لم يكن راضياً عن تلك المعاهدات بدءا بمعاهدة فرساي ١٩١٩، والاتفاقيات اللاحقة بها*.

من جانب آخر، أود من هيكل ان يتوسع كثيراً في معرفة الصورة السياسية والاجتماعية التي كانت عليها تلك المرحلة التاريخية، وان لا يقف عند طرف واحد دون الأطراف الأخرى... متمنياً عليه كمؤرخ عربي متواضع أن يدقق في مواقف الشعب الفلسطيني ليس من الأمير/ الملك عبد الله لوحده، بل من الهاشميين كلهم ممّثلة مواقفهم بما كان يعلنونه في تظاهراتهم ومدارسهم وشوارعهم ومدنهم واريافهم... فضلاً عن صحفهم ومنشوراتهم التي كانت تصدر على امتداد عقدي العشرينيات والثلاثينات من القرن العشرين.

مشروعات لم تتحقق في القرن العشرين:

اما بصدد اتهاماتك للملك عبد الله في مواقفه أو علاقاته، فأنني أنصحك ان ترجع - على سبيل المثال لا الحصر - إلى أعداد عديدة من جريدة فلسطين التي كانت تصدر في مدينة يافا منذ عام ١٩١١ وحتى عام ١٩٤٨، لكي تطلع على جملة من الحقائق التاريخية الدامغة والتي لا يمكن الهروب منها تحت ذرائع أيديولوجية، فمن يكتب تاريخاً عليه ان

* من أبرز الصحف القديمة التي يستوجب التوثيق. منها: جريدة العاصمة، العدد (٦٩)، ٢٣ تشرين الاول / اكتوبر ١٩١٩. وجريدة الدفاع، العدد (٣٤)، ٩ شباط / فبراير ١٩٢٠.

يكون أمينا وحيادياً في عرض الصورة ، قبل ان يلقي بالتهم وقبل ان يوزع الأحكام على هواه . . . . . وهو لم يذكر حجة واحدة أو وثيقة واحدة أو سنداً واحداً ! . وإنني أتعجّب من بعض الساسة والمؤدلجين القوميين ، لماذا يعترضوا على أي مشروع قومي قاله او طالب به او عرضه وطرحه غيرهم . . ما دام يصّب في النهاية لخدمة اهداف الامة العربية على المدى البعيد ؟

كما أتعجّب من بعض الاخوة المثقفين العرب من مناطق محددة من وطننا العربي الكبير الذين يعاتبون التاريخ الاستعماري على ما فعلته سايكس بيكو وغيرها بالمشرق العربي ، لكنهم لا يتقبلون مشروعا قوميا لتأسيس دولة عربية كبرى طالب به زعيم حجازي ، او مشروعا قوميا لتأسيس سوريا الكبرى طالب به زعيم أردني ، او مشروع دولة اتحادية للهلال الخصيب طالب به زعيم عراقي ، أو مشروع دولة قومية سورية طالب به زعيم لبناني ؟؟ واذا كان فيصل الاول قد طالب ببناء دولة الولايات المتحدة العربية في النصف الاول من القرن العشرين ، فان جمال عبد الناصر قد حقق لامد قصير حلم الامة ببناء دولة الجمهورية العربية المتحدة . . وهكذا ، بالنسبة لمفكرين ونخب واحزاب عقائدية وقوى جماهيرية لم تحقق على امتداد القرن العشرين حلم العرب . . ولم تكن الاسباب واهية او مؤامراتية او زعاماتية كما يتصور ذلك البعض ، بل انها كانت عميقة ومعقدة أكثر مما يتصور المرء !

الملك فيصل الأول : زعيم غبن العرب تاريخه*

ولا يفوتك ان تستغل الفرصة هنا وأنت تكتب عن الملك عبد الله ، لكي تطعن في مواقف أخيه الملك فيصل الأول الذي شهد معظم المؤرخين العرب المنصفين بجدارته وقدراته ومواقفه ليس في بناء الدولة العراقية الحديثة ومؤسساتها الرصينة ، وما كتبه المؤرخون العراقيون المعاصرون عنه خصوصا في عدة مؤلفات ورسائل علمية موثّقة وكتب ومقالات تخصّصية ، بل وما كتبه عدد من المؤرخين العرب والأجانب في أدواره القومية بدءاً بقيادته جيش الثورة العربية الكبرى ضد الأتراك الاتحاديين ١٩١٦ – ١٩١٨ ، ومن قبلها أنشطته مع الجمعيات العربية السرية والعلنية ، ومن بعدها تأسيسه كيان الحكومة العربية – الفيصلية بدمشق ١٩١٨ – ١٩٢٠ والتي اغتالها الفرنسيون اثر احتلالهم دمشق . . . فضلاً عن مواقفه

* راجع أيضاً : الفصل السادس من هذا الكتاب .

الأخرى الدولية والإقليمية وتمثيله العرب في مؤتمر فرساي عام ١٩١٩ على رأس وفد عربي قومي يتألف من خمس رجالات : عراقي وسوري ولبناني وفلسطيني وأردني ، كي يطالب النظام الدولي بحقوق العرب في قائمة المؤتمر التي لم يسمح كي يدخلها رجالات عرب آخرون - ومنهم سعد زغلول وغيره . . .

وصولاً إلى أنشطته القومية الفعالة التي جعل من العراق بؤرة قوية وفعالة في فترة ما بين الحربين العظميين والتي تماهى العرب وتنادوا إليها . . . . نسيت كل هذا وغيره ، لكي تأتي مردداً العبارة التي كان وما زال يرددها غير المنصفين على ألسنتهم . . . قائلاً : « . . كما أدركه من قبله اخوه الملك فيصل حين رتب له لورانس أن يلتقي قرب العقبة بالدكتور حاييم وايزمان رئيس الوكالة اليهودية الشهير(وأول رئيس لدولة إسرائيل فيما بعد) وفي ذلك اللقاء وكما تبين من نصوص محاضرة - فإن فيصل تبين أن قبوله بحق اليهود في فلسطين هو جواز مروره إلى أي مملكة في المشرق - وقد قبل» (**وجهات نظر** ، ٩/٣)

وأعلمك ان كنت لا تعلم بأن مجموعة من المؤرخين (والعراقيين خصوصاً) قد تصدوا لهذا الخبر ، دارسين جملة من الوثائق والشهادات والتواقيع لكي يخرجوا منذ اكثر من عشرين سنة بنتائج تقول على عكس ما اتهم به الملك فيصل الأول زورا وبهتاناً . . . . وأرجعك على سبيل المثال لا الحصر إلى ما كتبه عدد من مؤرخي العراق والذين نشروا اكثر من مقال وكتاب بهذا الصدد ، مفندين تلك الدعاوى الظالمة بحق فيصل الأول* ، ولا يفوتني ان أذكرك بكتاب جدير أن تقرأه صدر حديثا وهو يجمع أعمال ندوة تخصصية تاريخية عن الملك فيصل الأول ، أقامتها جامعة آل البيت في الأردن . وتتصف بحوثه بالحيادية والأمانة والموضوعية** . . فضلا عن مؤرخين محترفين كتبوا عن فيصل الاول بمنتهى التجرد والحيادية ، وهما : مجيد خدوري وحنا بطاطو ونجدت فتحي صفوة وغيرهم . .

---

* وخصوصاً تلك المقالات في التاريخ الوثائقي التي تمّ نشرها في مجلة آفاق عربية التي تصدرها وزارة الثقافة والإعلام ببغداد (انظر : اعداد اغسطس ١٩٧٨ ، اكتوبر ١٩٧٨ ، ديسمبر ١٩٧٨)

** راجع دراسات كل من : سليمان الموسى وممدوح الروسان وخيرية قاسمية وعلي سلطان وكمال مظهر وعلاء نورس وعبد المناف النداوي في : بناء الدولة العربية الحديثة : تجربة فيصل بن الحسين في سورية والعراق ، اعداد وتحرير : هند أبو الشعر ، ط١ (عمّان : جامعة آل البيت ، ١٩٩٩) .

مسألة وحدة الضفتين:

لقد كال المؤلف كعادته عدة اتهامات خطيرة ضد الملك عبد الله بن الحسين من دون أي توثيق لما يقوله . . وبدا وكأنه يكتب مسترجعاً على ظهر قلب ما كان قد أشاعه عدد من الساسة والقادة العرب منذ عام ١٩٤٨ وعهد الملك فاروق في مصر وعهد عبد الوهاب عزام في الجامعة العربية ضد سياسة الملك عبد الله من دون ان يعطي أي مساحة عملية للتأكد مما سرى من الشائعات . . ويقول هيكل : «وفي سبيل تحقيق ذلك ، فإن الملك عبد الله راح يعمل – وبكل الوسائل – على خروج جميع العرب الآخرين من فلسطين بحيث لا يظل على أرضها من العرب غيره . . . .» (وجهات نظر ، ٩/٣) ويتابع قائلاً : «وكان ان قنع الملك عبد الله بأن يأخذ ما تبقى غرب الأردن من أشلاء فلسطين ويضمّه إلى إمارته يحوّلها إلى مملكة تعقد له البيعة عليها» (وجهات نظر) ، وينتهي بقوله : « . . شملت صياغة اسم البلد ذاته(المملكة الأردنية الهاشمية) – اصبح مخاطرة لا لزوم لها لأنها تضفي على بعض التصرفات الصحيحة أو الخاطئة مسحة من العصمة تصّد عنها حق الدرس والمناقشة والتقييم بدقة وموضوعية وبدون تحرج من رموز يعاد بعثها بعد زمانها !» (وجهات نظر ،٩/٣)

١ – ان هيكل هو آخر من يحق له التكلم باسم الدرس والمناقشة والتقييم بدقة وموضوعية . . . فلو رجع قليلاً إلى ما كتب خلال العشرين سنة وما نشر من وثائق ودراسات وكتب ومقالات عن هذا «الموضوع» لكان سيتحرّج فعلا عما كتبه في أعلاه ، ولكان قد تواضع قليلاً وتعمق كثيراً في المجهودات العلمية التي أداها جيل من الشباب الباحثين العرب وخصوصاً من الفلسطينيين والعراقيين والأردنيين . . . .

٢ – لا بد ان يراجع وثائق الجامعة العربية التي تحترز عليها الجامعة نفسها ، ودراسة القرارات التي اتخذها مجلس الجامعة العربية ازاء خطوات الملك عبد الله في مشروع وحدة الضفتين ، وان المواقف التي اتخذها الساسة من ممثلي الدول العربية في جامعة الدول العربية تعكس رأي حكوماتهم في الموضوع ، وليس رأي الشعب العربي بشكل عام أو الشعب الفلسطيني بشكل خاص .

٣ – ينبغي على هيكل مراجعة وثائق الامم المتحدة ، فضلاً عن مراجعته لبعض

الصحف الأمريكية الصادرة في عامي ١٩٤٧ - ١٩٤٨ والاطلاع على نصوص البرقيات اليهودية التي تدين الملك عبد الله ، وردود فعله بمهاجمته امريكا وزعمائها وصحافتها ويحملهم جميعاً مسؤولية الإرهاب في فلسطين (ومنها على سبيل المثال لا الحصر ، جريدة «أمريكان مغازين» في ١٧ ، ١٨ آب ١٩٤٧) ، وتصديه لنقل مائة ألف يهودي إلى فلسطين !! في حين لم يكن هناك أي رد فعل من أية حكومة عربية .

٤ - ان وحدة الضفتين وولادة المملكة الاردنية الهاشمية لم تكن وليدة مؤامرة استعمارية ولا نتيجة اتفاقات خيانية . . فثمة رأي عام فلسطيني عّبر عن رأيه بالكامل في ثلاثة مؤتمرات ، أحدهما في القدس وثانيهما في اريحا ، وثالثهما في نابلس اشتركت فيها كل القوى السياسية الفلسطينية والشخصيات ورؤساء البلديات والمجالس المحلية والقروية ، واصدرت مجموعة من التوصيات التي طالبت فيها بوحدة الضفتين والتي صادق عليها الملك عبد الله . . وعّبر أكثر من مؤرخ ودارس بأن هذا « الحل» كان علاجا مرحليا من اجل الحفاظ على الضفة الغربية والتي كانت اسرائيل قادرة على ابتلاعها منذ تأسيس كيانها* . . وفعلا لم تكتمل عشرين سنة على وحدة الضفتين ، حتى ابتلعت اسرائيل الضفة الغربية في ايام حرب ٥ حزيران/ يونيو ١٩٦٧ التي عدت كارثة لا يطاق تصّورها ازاء ما كانت تعتقد به الجماهير العربية من التحرير الكامل !

٥ - لابد أن أشير لهيكل أن ثمة حقائق تاريخية جديدة عن هذا «الموضوع» تتضمنها وثائق دائرة تسجيلات وزارة الخارجية البريطانية في لندن ، وفيها مادة ثرية بالمعلومات ، وخصوصا تلك الوثائق التي تتحدث عن الملك عبد الله وموقعه في مستقبل فلسطين . . فضلا عما يحترز عليه مركز حفظ الوثائق وارشيف مكتبة الجامعة الاردنية ، وفيه ثروة قيمة من المعلومات والوثائق النادرة ، اذ يعتبر ارقى مركز من هذا النوع ، ولا يمكن الكتابة في موضوع وحدة الضفتين من دون استخدام وثائقه .

---

* من أبرزهم : علي محافظة وممدوح الروسان وسليمان الموسى وغيرهم ، وراجع ماكتبه على محافظة ، تاريخ الاردن المعاصر : عهد الامارة ، ١٩٢١ - ١٩٤٥ (عمّان : الجامعة الاردنية ، ١٩٧٣) .

الأمير الحسن بن طلال: نموذج متميز آخر

أن الأمير الحسن بن طلال ولي العهد الأردني الأسبق كان واحدا من المسؤولين العرب الذين تميّزوا بثقافتهم ، وتفكيرهم ، وحرصه على العلم والعلماء . . . ولقد وجدت هيكل مرة أخرى ، وقد تجنّى على هذا الرجل وعلى مجهوداته العلمية ، وعلى تفكيره لكي يصفه بما يحلو ان يصف به أعداءه وخصومه كبقية المؤدلجين العرب ! وأنا واثق ان الأمير الحسن لم يكن له أي موقف عدائي أو مضاد سياسي او فكري من أي اتجاه أو تيار . . . . وهذا ما يتوّضح في كل من خطابه ومواقفه اولا ، وفي تلك المجاميع من النخب العربية الحية ذات الاتجاهات المختلفة .

دعونا نتفحص الآن ما سجله هيكل ضد الأمير الحسن بن طلال ، إذ يقول : «وليس هناك شك أن مسار التاريخ عرف أدوارا عظيمة لرجال ونساء من الهاشميين لكن هذا التاريخ لم يعرف مسئولية معينة موكولة إلى أسرة بعينها ويكون على الجميع ان يسلّموا لها بما يترتب على ذلك من حقوق ، بما في ذلك عصمة تغطي على أي قول أو فعل لكن بعض أمراء الأسرة الحاكمة في عمان بالذات بالغوا في تقديم الأسطورة الهاشمية وجعلوا منها حقيقة سياسية ليس يحق إنكارها ، ووصل بعضهم في المبالغة إلى حد بعيد !» . (وجهات نظر ، ٩/٣) (لقد قصد هيكل بتعبيره : بعض أمراء الأسرة الهاشمية في عمان الأمير الحسن بن طلال بدلالة ما سيشير اليه لاحقا بالاسم) .

أود مناقشتك على مهل مفككاً ما قلته معتمداً على أولويات التاريخ والمعرفة والحقائق التي يظهر أنك لم تعرف بها أو تسمع عنها :

أولويات التاريخ ونقد للاتهامات :

١ - لا داع لاعترافك بأن مسار التاريخ عرف أدوارا عظمى لرجالات ونسوة من الهاشميين (وأنت تقصد كل الهاشميين من آل البيت) ، فالمجتمعات الإسلامية قاطبة لم تعترف بأدوارهم حسب ، بل أشادت بمنجزاتهم الحضارية قبل السياسية .

٢ - ولكن أسألك : كيف لم يعرف التاريخ مسئولية معينة موكولة إلى أسرة بعينها ؟ ألم

يحكم العباسيون العالم الإسلامي من قلب العراق لأكثرمن خمسة قرون ؟ ألم يحكم الفاطميون في المغرب ومصر من قلب القاهرة لأكثر من قرن ونصف القرن ؟ ألم يحكم أئمة اليمن الزيديون اكثر من أحد عشر قرناً ؟ ألم يحكم السلاطين من الأشراف العلويين في المغرب الأقصى اكثر من ثلاثة قرون كاملة ؟ ولكن الأكثر بقاءً وقدماً برغم فقدان الكيان السياسي عندهم ، هم : أشراف مكة الذين يمتد وجودهم التاريخي لثلاثة عشر قرنا مضى من تاريخ العرب المسلمين! وقد أوكلت لهم مسؤولية الأمارة من قبل المماليك في مصر والعثمانيين في استانبول في القرون الستة الأخيرة . . .

ويشعر اغلب المؤرخين العرب والأجانب الذين تدارسوا تواريخهم المتنوعة بأن لهم مكانة من نوع خاص ليس في عموم المجتمع العربي ، بل كانت لدى السلاطين العثمانيين أنفسهم منذ عهد السلطان محمد الفاتح وحتى عهد السلطان عبد الحميد الثاني* . . . . .

٣ - ونحن نسأل هيكل : من ذا الذي طلب من الجميع أن يسلموا لأسرته ؟ وما هي الحقوق التي طالبهم بها ؟ ومن ذا الذي ادعى العصمة التي تغطي على أيّ قول أو فعل؟ وعندما نذكر «بعض أمراء الأسرة المالكة في عمان بالذات» وأنت تقصد بهذا «البعض» الأمير الحسن بن طلال ! فهل من المعقول استطرادك الذي تقول فيه أن ذلك البعض بالذات بالغوا في تقديم الأسطورة الهاشمية وجعلوا منها حقيقة سياسية ليس يحق إنكارها ، ووصل بعضهم في المبالغة إلى حدٍّ بعيد» . **(وجهات نظر ، ٩/٣)** .

هل تعتقد ان تاريخ آل البيت بطوله وعرضه ، بأسره وسلالاته ، بدوله وحكامه ، بمنجزاته ومعطياته ، بإيجابياته وسلبياته ، بكياناته ومجتمعاته . . . . برجاله ونسائه . . . . الخ كله «أسطورة هاشمية» ؟؟ إن كلا من الأسرتين الهاشميتين اللتين حكمتا في كل من العراق والأردن لم تجعل من تاريخها حقيقة سياسية - كما يعتقد هيكل - بل كانت بالنسبة لهم حقيقة تاريخية ذلك لان كلا من الأسرتين كانت لهما «حقيقتهما السياسية» الموحدة المنبثقة عن مرجعية أرساها الملك/ الشريف الحسين بن على متمثلة بالثورة العربية

---

* (وللمزيد من المعلومات : يراجع ما كتبهُ المؤرخ التركي المشهور إسماعيل حقي أوزون جارجلى في كتابه : امراء مكة المكرمة في العهد العثماني ، ترجمه عن التركية : د . خليل علي مراد ، جامعة البصرة ، ١٩٨٥) .

الكبرى أبان الحرب العالمية الأولى ١٩١٦ - ١٩١٨ . وقد استلهم منها كل من العراق والاردن على عهديهما الهاشميين . .

إنها كلها مطاعن أراد هيكل أن يلصقها ليس بالملك حسين وحده بل بأخيه الأمير الحسن . . . . وأعتقد أن كليهما براء من اتهاماته !

وماذا أيضاً ؟ .

لم يكف هيكل عن الأمير الحسن فراح يزيد من الاتهامات ضده ، بقوله : «واذكر أنني ناقشت الملك حسين في ذلك مرات وكان يأخذ ويعطي ، لكن الغريب أن آخرين - ويقصد به الأمير الحسن - كانوا على تصميم أن يأخذوا فقط ! ومن المفارقات - يستطرد هيكل - أن الأمير الحسن كان يشرف على مؤسستين : أولاهما تحت اسم «المنتدى» واختصاصها أن تكون مركزاً للدراسات السياسية والاستراتيجية . أما المؤسسة الثانية فقد كان اسمها «مؤسسة آل البيت» وهو وصف ملتبس إلى درجة التلغيم بما لا داعي له من مظان » . (وجهات نظر ، ٩/٣) .

لا ماهكذا تورد الإبل ؟!

ان كنت تريد تعمية الأبصار ممن لا يدرك الحقائق على ارض الواقع ، فربما نجحت مهمتك لأجل ، حتى تنجلي الحقائق . . . أما من يدرك الحقائق ويعايشها عن قرب ، فسوف يثير ما يكتبه هيكل عنده الغثيان !

١ - لا ندري متى ناقشت الملك حسين في كل هذه الأمور مرات ، فإذا نفى الأخ سمير الحباشنة في مقالته* ، حدوث أية لقاءات معينة بينك وبين الملك حسين ، فمتى ناقشته في ذلك مرات ؟ بل وحكمت عليه انه يأخذ ويعطي ! .

٢ - ولا ندري لماذا تستغرب ان آخرين كانوا مصممين أن يأخذوا فقط ؟ وممن يأخذون ؟ وماذا يأخذون ؟ في موضوع أنكرته منذ البداية عليهم ، ووصفته بـ «الأسطورة الهاشمية» وكأن ليس لديهم أية أحقية في حقيقة تاريخية مؤكدة ومعروفة !

---

* ذكرناها سابقاً ، انظر : هامش ص ١٧٥ من هذا الكتاب .

٣ – ومن الصواب ، أن الأمير الحسن بن طلال كان يشرف على مؤسسة ثالثة نسيت لن تذكرها ، هي جامعة آل البيت التي لم تذكرها وتتهمها وهي التي تفوّقت بمنجزاتها العلمية والإبداعية في غضون أقل من سبع سنوات من تأسيسها ! .

٤ – أما المؤسسة الأولى ، فالتسمية الكاملة لها «منتدى الفكر العربي» ، وهو جمعية حيوية كانت ولم تزل لها أثرها الواضح ، وأنشطتها عالية المستوى . . . . ومن المؤكد أن هيكل يعرف بأن كل أعضاء المنتدى ليسوا من الهاشميين ، إذ جمع كل تيارات الفكر العربي المعاصر : ليبراليين وراديكاليين وقوميين واصلاحيين . . . . ممثلة نخبة عربية متنوعة الاتجاهات . . . لهم كامل حريتهم في التعبير عن آرائهم وأفكارهم السياسية المتبادلة .

٥ – أما مؤسسة آل البيت ، فلماذا وصفتها بالالتباس إلى درجة التلغيم ؟ وهذا اتهام باطل ، فالمؤسسة تعتني بالتراث الحضاري للعالم الإسلامي ، لها إصداراتها بالعربية والإنكليزية ، ولها موسوعتها وأنشطتها العلمية في إطار التاريخ الحضاري ، وليس للمؤسسة أي دور سياسي خطير يمكن ان يهدد هيكل ومؤسسته ؟!

متى يتخلّص تفكير العرب من نظرية المؤامرة ؟

ويدّعي هيكل أن الأمير الحسن كان يبعث له برسائل شفوية مؤداها بأن هيكل تجنّى على الهاشميين باتهامهم أن لهم نوايا في مستقبل العراق ، «وذلك قدر الهاشميين أن يظلمهم الناس عبر عصور التاريخ وان يشكّكوا في مقاصدهم ويروا في تصرفاتهم ما ليس من طبائعهم ، ويظنوهم أطرافاً في خطط خفية ، وتحركات سرية ، ومغانم يريدونها لأنفسهم غيلة من حق غيرهم – وليس ذلك إنصافا» . (وجهات نظر ، ٩/٣) .

ويدعّي هيكل بأن الرسائل الشفوية تضمنّت ما مؤداه :

«ان الهاشميين لا يعرفون ما يسمّى بالتعبير المصري الشائع (تدبير المقالب) للإخوان أو للشعوب أو للامه» . (وجهات نظر ، ٩/٣) .

وقد وجدها هيكل فرصة ليزيد من غلوائه ومطاعنه ، لكي يتدخل في شؤون خاصة وأحداث جرت معتمداً على تقولات هذا وهمسات ذاك وروايات ضيوف كي ينقل رواية

وتقولات على لسان الأمير الحسن . . . . بعد أن أذن هيكل من القارئ الخروج من النص . . . ولما انتهى من حكاياته المنقولة يعلم القارئ انه هنا ينتهي الخروج عن النص بعودة إلى سياقه الأصلي !!

لقد أورد هيكل حكاياته هذه لكي يؤكد «تدبير المقالب» ولكنه اخفق في ما كتبه وسجله عن أمور لم يكن متحققاً منها ، كونه لم يستند على معلومات وثائقية . . . . وقد فاته ان يدرك المغزى الحقيقي الذي قصده مصطلح «تدبير المقالب» . . . . فالأجيال القادمة ستقف ، ولكي تميّز بين من يدبر المقالب ، والمكائد ، والانقلابات ، ويهيج الشوارع ، ويثير العواطف ، ويخطط المؤامرات ، ويتبجح في الإذاعات . . وبين من لم ليست من طبيعته هكذا عادات كونه يمتلك أخلاقيات عالية المستوى . لأنك على غرار غيرك أخطأت في الذي حدث في الاردن من انتقال السلطة ، وهو أمر جد طبيعي ، لا يمكنك وصفه انقلابا البتة لأنه جرى ضمن اطار دستوري وقانوني . .

التوليف ثانية

فقدان التوثيق : العلة المزمنة

يخصص كاتبنا بقية صفحات مقالته عن الملك حسين ، تلك التي نشرها في مجلة وجهات نظر ، والتي لاقت الى حد الان أصداء مفعمة بالالم والاشمئزاز عند مختلف الاتجاهات السياسية الليبرالية والقومية والراديكالية والاسلامية . . نظرا لما تضمنته من المغالطات والتلفيقات والتقولات والادعاءات التي لا صحة لها . . ومما زاد في الامر سوءا أن صاحبها هيكل قد أدّعى أكثر من مرة في صفحات عدة من مقالته أنه اعتمد على وثائق ، أو حسب ما يضعه بين قوسين محشورا بين سطوره كلمات تقول (كما تظهر الوثائق) ، ولكننا لم نعثر على أية وثيقة واحدة ، يمكننا أن نقول بأن الرجل قد صدق فيما أدعى وفيما قال ولو لمرة واحدة . . ان مجمل ما تضمنته مقالته عن الملك حسين مجرد أحاديث كالتي تحكيها نسوة مشاغبات عن شخصية مثيرة كان لها مكانتها ! وهكذا حكايات هيكل حكايات مشاغبة وهي مجموعة مركبة من المطاعن والمزاعم التي لم أقف ولو لمرة واحدة على ما يمكن اعتباره قضية موثوقة يمكن أن يعتّد بها صاحبها او قائلها او كاتبها لمجادلة غيره ان جادلوه . .

ولا أعرف كيف يفسّر لنا هيكل هكذا مسألة ، أقصد مسألة انعدام توثيقاته نهائيا لقضايا خطيرة ، ومطاعن لا حد لها ؟

علاقات ولقاءات:

ربما اعتقد الرجل ان مجرد أقواله هو نفسه ومشاهداته ومسموعاته ولقاءاته (التي لا نعرف أيضا مدى صوابها من خطئها) . . هي في عداد التوثيقات ! فان كان هذا تصّور الرجل واعتقاده عن نفسه ، فانها مسألة ـ فعلا ـ تثير الضحك والسخرية معا . . اذ كيف لي أن أطمأن الى ما يقوله من استعراض علاقاته ولقاءاته مع الملوك والأباطرة والرؤساء والزعماء الكبار في العالم من دون أي إسناد رسمي أو معرفي او خبري . . كان عليه ان يأتينا به ليوّثق حجتّه ؟ الرواة السابقون للروايات التاريخية والحوادث والتراجم والأخبار والأقوال كانوا يربطوا ما يكتبونه بالسند والمستند والوثيقة . . ولقد استخدم علم الجرح والتعديل عند علماء العرب المسلمين منذ أكثر من ألف سنة ونيف . . فكيف يأتي اليوم من يسجّل على زعماء وملوك ورؤساء كان لهم دورهم التاريخي الخطير في حياة الأمة ويتهمهم شتى التهم من دون أن يكون حريصا على سند ما يقول ، حتى ولو كان ذلك في تحقيق الحد الأدنى من التوثيق !

ومـاذا ايضـا؟

لقد تمادى كاتبنا كثيرا في القاء عدد كبير من التهم ضد الملك حسين وتجريح تاريخه ووطنه وأهله ونسبه ومواقفه وسياساته . . الخ فاذا كان هيكل قد اختلف سياسيا مع الملك حسين في مواقفه وانشطته وفلسفته في الحكم . . فلماذا وجدتَ غياب الملك حسين فرصة ثمينة له لكي يطعن في تاريخه ، ويوغل كثيرا في التجريح ، وباسلوب دعائي لا يستند الى المعرفة التاريخية ولا حتى الى الذوق السياسي او أدب الاختلاف ! علما بأن الملك حسين الذي كانت له فلسفته في الحكم ، وقد تربّى على فكرة القومية العربية باسلوبها المثالي ، مع رؤية واقعية للامور ، . .

نقد الاستلابات:

ويمكننا أن نسجّل ـ هنا ـ بعض ما أثاره هيكل للرد عليه ونقده ، وكشف بعض استلاباته :

١ - برغم تشككنا الان بكل أو بعض ذاك الذي كتبه هيكل على لسان او عقل او نوايا الزعيم الراحل جمال عبد الناصر ، الا أن الكيل قد طفح عند هيكل ، فليس هناك من واقعة او حادثة أو شخصية أو مقابلة . . الا ويقوم كاتبنا باحضار جمال عبد الناصر في قلب ذلك «الموضوع» ، وبدلا من أن يجعل عبد الناصر يتكلم باقواله كي ينقل عنه بكل دقة واحترام . . بدا هيكل وكأنه يتكلم باسم عبد الناصر ، وكأنه قد فوّضه من بعد مماته أن يصنع قصصا باسمه ، ويختلق أحاديث عنه ، ويكتب خطاباته حتى بعد مضي قرابة ثلاثين سنة على رحيله !! صحيح ان العلاقات بين الزعيمين جمال عبد الناصر والملك حسين كانت متوترة حينا ، وطبيعية حينا ، وممتازة احيانا اخرى . . الا انني أعتقد ان الزعيم الكبير جمال عبد الناصر لو عاد حيا اليوم ، لاندهش وانزعج ولهاله أمر هيكل الذي كتب باسم عبد الناصر الكثير الكثير على مدى ثلاثة عقود من الزمن . . وليس في ذلك ضير ، ولكن تكمن المشكلة الحقيقية امام التاريخ ، أنه يكتب وينقل ويتحدث ويصرح باسمه من دون أية توثيقات رسمية يمكن للاجيال القادمة ان تطمئن لما يقول !

الملاحق غير مطابقة للمضامين:

٢ . انها المشكلة الحقيقية التي لا يمكنه أن يعالجها أبدا ، لأنها ليست محددة في صفحة كتبها أم كتاب نشره . . انها مستشرية في كل مضامين كتبه قاطبة ، ولا أقصد كتبه التي جمع فيها بعض مقالاته ، مثل كتاب : آفاق الثمانينات أو كتاب : **المقالات اليابانية** . . بل كتب مثل : **الانفجار ١٩٦٧ وقصة السويس وملفات السويس وحرب الخليج : اوهام القوة والنصر ، وسنوات الغليان** . . وغيرها . . ولا يتوهم القارىء الكريم ان بعض الملاحق التي يفردها المؤلف في نهايات بعض كتبه ويسميها بالوثائق المعتمدة ، فهي ليست بذات أهمية أبدا لأنها مجموعة مصورات لرسائل او قصاصات ورق او منسوخات مأخوذة من دوائر دوبلوماسية او من دائرة المخابرات المصرية . . او غيرها واغلبها ليس له أي علاقة بمضمون الكتاب . .

انه يوهم القارىء في أكثر الاحيان ، فما دام هناك ملحق يتضمن وثائق بهذه الشاكلة ،

فالكتاب موّثق ! فمن يقلب في بعض الملاحق التي ضمّنها مؤلفنا في نهايات كتبه ، سيجد أنها ليس بذي شأن أبدا . . فمن يراجع مثلا ملحق وثائق كتاب : الانفجار ١٩٦٧ : حرب الثلاثين سنة ، فسيرى أن أغلب ما يتضمنه ليست معلومات سرية أو خطيرة كما يصورها هيكل لنا ، كما ان حجم كتابه الكبير لا يستقيم وهذا الحجم من المراسلات . . وعليه ، لابد للمرء أن يسأل : اذن من أين أتى هيكل بكل ما كتبه في هذه المئات من الصفحات ؟ ولكن اذا كان في السابق يضم بعض الملاحق عند نهايات كتبه ، فاليوم يكتب من دون أن يلحق أي شيء بمضامينه . . لقد استسهل الرجل العملية ، وكل الحكاية أنه يكتب وينشر ليتلقف الناس ما ينشره . . وتتوالى الطبعات من كتبه التي من هذا النوع !

سايكلوجية هيكل من نوع خاص :

٣ - المشكلة الاخرى عند الرجل ، انتظاره كل هذه السنين الطوال منتظرا رحيل الملك حسين ، لكي يفاجئ العالم بقصص وروايات وأخبار ولقاءات وتصريحات ومؤامرات . . يحبكها جيدا ، ويحشر بين السطور ثلاث كلمات فقط ، هي (كما تظهر الوثائق) من دون أي وثائق ومن دون أي مستندات وارقام رسمية . . وأبقى أبحث عن تلك الوثائق في مقالته أو كتابه فلا أجدها . . انه نوع من التمويه بتسمية الشيء من دون احضاره وتوظيفه . . بل التكلم بأسمه . . وهذا أسوأ أنواع التدليس في كتابة التاريخ - كما علمنا أياه اساتذتنا العرب الكبار أمثال : أسد رستم وقسطنطين زريق ومحمد شفيق غربال وعبدالعزيز الدوري وغيرهم -!

ان التوثيق مهمة مقدسة بالنسبة لمن يكتب أي مواد تاريخية مهما كان نوعها ، وخصوصا تلك التي تتعلق بسير الأشخاص ، وأسرار العائلات ، وقرارات الدول ، وعلاقات الزعماء ، وأساليب التعامل . . الخ فتوثيق هكذا أمور تمكّن الباحثين والمهتمين والساسة والمثقفين وحتى القراء العاديين في الحاضر والمستقبل من التأكد مما يقوله المؤرخ والكاتب اولا ، والاستفادة منها في المستقبل ثانيا ! وليس من المقبول أبدا أن يسرد لنا هيكل قضايا واتهامات خطيرة معتمدا فيها على مقابلات يدّعي أنه كان قد أجراها ليس مع الملك حسين وحده حسب ، بل مع غيره من الزعماء والمسؤولين .

تعالوا معي لنتساءل : كيف نصّدق الخبر التاريخي ، من دون أن تذكر شاهد حضور

معك من الأحياء ، ودون أن تعطينا أي مستمسك تثبت صحة هذا الخبر او ذاك ! وقس على ذلك أيها القارئ العزيز ! ومقابلة أخرى لهيكل مع جوليان أيمري ابن اللورد ليو ايمري رئيس مجموعة المحافظين المعارضة للانسحاب البريطاني من السويس ومن العالم العربي بأسره . . يقول : «وقد روى لي أيمري . .» (**وجهات نظر** ، ٣ / ١٢) ، متى؟ وأين ؟ وما وجه العلاقة ؟ لا أحد يدري ! ثم الملك خوان كارلوس ملك إسبانيا عندما قال : «وكنت أتحدث عنه مع الملك خوان كارلوس ملك إسبانيا . .» (**وجهات نظر** ، ٤١/٣) . وهناك العشرات من الأسماء التي يدّعي هيكل أنه التقى بأصحابها لقاءات مطولة . . وتحدّث معهم أحاديث تفصيلية ، والامثلة أكثر من ان تحصى في صفحات كتبه ، فلقد جاء في واحد منها قوله : «وسبقني لورد بيفر بروك أحد اباطرة الصحافة البريطانية» (**آفاق الثمانينات** ، ص ٥٠) . . وهذا ما ذكره أيضاً عن بيير سالينجر (**آفاق الثمانينات** ، ص ٦٦) .

ان الأجيال القادمة عندما ستخضع كتابات هيكل للنقد العلمي ، وتتعمّق في سايكلوجية الرجل ستكتشف عنده جملة هائلة من الغرائب والعجائب ! واتمنى أن أكون مخطئا . .

اتفاقية الدفاع المشترك : لماذا لم يذكرها هيكل؟

٤ - المشكلة الأخرى تتمثّل عند هيكل بوقوعه في بعض الأخطاء التي أعتقد أنها متعمّدة ومقصودة لأغراض التشويه ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر . . يقول : «وفجأة يوم الثلاثاء ٣٠ مايو (١٩٦٧) وصل الملك حسين الى القاهرة ، يطلب اجتماعا مع جمال عبد الناصر . .» (**وجهات نظر** ، ١٢/٣) . والصواب : أن جمال عبد الناصر نفسه استقبل الملك حسين في مطار القاهرة ، ولم يصل الملك ليطلب اجتماعا ، وقد تمخّض عن الزيارة اجتماعا خرج الزعيمان منه بعقد اتفاقية ثنائية أسميت بـ «اتفاقية الدفاع المشترك» وقعها كل منهما . وهذا كله لم يذكره هيكل ، وكأن ذاكرته تعطلت ! الى جانب ذلك ، فانه يركّب من عنده وقائع يظنّها بالغة الخطورة ، وانها كما يرى وراء الدور الذي لعبه الملك حسين في سنة ١٩٦٧ ، ولا أدري كيف استكشف ذلك «الدور» من خلال تأويله بعض ما جرى :

تأويلات أسباب كارثة حزيران / يونيو ١٩٦٧ عند هيكل :

١ / وصول الملك حسين الى القاهرة (وتوقيعه معاهدة الدفاع المشترك مع مصر والتي لم يذكرها هيكل في حديثه) ، وتأويل هيكل لموقف الملك تأويلا سلبيا ، وهذا طعن في غير محله حتى في موقف عبد الناصر نفسه !

٢ / يؤكد هيكل ان الملك حسين طلب تعيين الفريق عبد المنعم رياض أحد كبار ضباط الجيش المصري قائدا للقوات الاردنية ، وهذا ليس بموقف يمكن ان يسجّل ضد الملك ، ذلك لأن معاهدة الدفاع المشترك التي وقعها الزعيمان قضت بذلك .

٣ / يؤكد هيكل ان الملك حسين اثناء اجتماعاته في القاهرة مع جمال عبد الناصر تطّوع بالسماح للجيش العراقي بدخول الاردن للمشاركة في المعركة . . ويعّلق قائلا : «والجميع يعرف ان دخول قوات عراقية الى الاردن واحد من النذر التي تعتبرها اسرائيل مبررا لشن الحرب » (وجهات نظر ، ١٢/٣) . هل كتب هيكل هذه العبارة وهو في وعيه الكامل ؟ بالله عليك ماذا كنت ستكتب في جريدة الاهرام ، وماذا كان صاحبك أحمد سعيد سيعّلق في اذاعة صوت العرب وقت ذاك . . لو رفض الملك حسين دخول القوات العراقية الاراضي الاردنية ؟

٤ / ولم يكتف هيكل ، اذ تابع تأويلاته العجيبة ، اذ يقول بأن الملك حسين أخذ أحمد الشقيري رئيس منظمة التحرير الفلسطينية معه على الطائرة الى عمان . . وكان ظهوره في عمان بدوره نذير آخر مما تعتبره اسرائيل مبررا لشن الحرب ! (وجهات نظر ، ١٢/٣) . هل يعقل ان يكون وصول احمد الشقيري الى عمان عاملا في اندلاع حرب ؟

٥ / ان هواجس عبد المنعم رياض في غير محلها ، فليس من المعقول ان تقلل من شأن الجيشين الاردني والعراقي في حرب ١٩٦٧ ، بقولك أن خسائر الجيش الاردني في حرب ١٩٦٧ لم تزد على (٦١) شهيدا ! فهل يعقل ذلك ؟

حقائق التاريخ واضحة :

كلها اتهامات خاطئة لا أساس لها من الصحة أبدا ، ذلك لأن :

١ - هيكل يكتب حسب ما يريده مزاجه ، بعيدا عن أي حس قومي . . اذ ثبت لدينا على وجه قاطع انه يذكر ما يطيب له أن يذكر مع تأويلات يستهدف منها التوصل الى غاية معينة . . كما انه يتناسى وقائع وأحداث مهمة جدا وقعت في الاردن مثلا ضد إسرائيل ، مثل معركة الكرامة البطولية التي حدثت في شهر آذار/ مارس من عام ١٩٦٨ التي كسرت فيها شوكة اسرائيل المتغطرسة !

٢ - يريد هيكل ـ عبثا ـ أن يرفع مسؤولية حرب ١٩٦٧ عن كاهل من تسبّب في اشعالها ، أو من كان طرفا رئيسيا في حصول نتائجها المدمرة ، ليلقي بتبعاتها على الملك حسين كما رأينا . . وهذا تزييف واضح ومقصود للتاريخ !

٣ - يقول المهندس سمير الحباشنة في ردّه على هيكل : «حين تقول بأن عدد شهداء الجيش الاردني في حرب ١٩٦٧ كان ستة عشر شهيدا فقط ! حيث أبين لك أن عدد شهداء الجيش العربي (= الاردني) في عمليات (٦٧) قد وصل الى (٥٩٢) شهيدا ، وهم على أي حال رجال معروفون لدينا تماما* .

٤ - لقد أبدت كل من القوات الاردنية والعراقية مقاومة بطولية مدهشة ايام حرب ١٩٦٧ ، وكنا نسمع انهم كانوا يقاتلون قتالا رائعا ، حتى عندما حوصروا في جبل المكّبر ، واضطرارهم لاستخدام السلاح الابيض . . ولم تصدر لهم أي أوامر بالانسحاب ، كما أنهم لم يلوذوا بالفرار .

٥ - كثيرا ما تحدث الملك حسين في بعض خطاباته واحاديثه عن حرب ١٩٦٧ (وخصوصا تلك التي صرّح بها مؤخرا قبل أن يرحل ، وقد أتيح لي سماعها) عندما أشار الى الاسباب الحقيقية وراء الهزيمة ، وحجم توازن القوى في المنطقة ، ووسائل الدعاية العربية غير المعقلنة ، وضعف الجيوش العربية ازاء قوة اسرائيل ، وضعف التضامن العربي . . فضلا عن القرارات السريعة . كما تحدّث عن علاقاته بالرئيس عبد الناصر ، والاسباب التي جعلته يطير الى القاهرة للتباحث مع عبد الناصر والتي تكللتها معاهدة الدفاع المشترك ، واتصالاته التلفونية مع عبد الناصر . . وشعور عبد الناصر نفسه بتأنيب

* انظر : مقالته في جريدة الزمان ، العدد ٣١٣ ، ٢٨ ـ ٢٩ /١٩٩٩/٨ .

الضمير نتيجة فقدان الضفة الغربية . . واخيرا ،لابد لنا أن نقول بأن جمال عبد الناصر كان له تقييمه الخاص في خطاب التنّحي الشهير ، غداة انتهاء الحرب ، عندما قال . . ان «الملك حسين وجيش الملك قد وقفا موقفا مشرّفا في المعركة» . وكان عبد الناصر نفسه قد طلب من الملك حسين أن يطير الى امريكا من أجل مقابلة جونسون للتوسط من أجل ارجاع الضفة الغربية . .

سادساً : نقولات هيكل

كتاب الصحفي دالاس : علامات استفهام متعددة

لقد تأكد لنا بما لا يقبل مجالا للشك ان هيكل ينقل ما يطيب له ان ينقل ، بل ويضيف في تسجيلاته ما يحلو له أن يضيف !! وانه يتغاضى عن ذكر ما لا يرد ذكره وقوله . . . وإذا كان قد ساق في مقالته عن شخصية الملك حسين (**وجهات نظر** ، ١٣/٣) بعض ما يطيب له من الاتهامات ، معتمداً في ذلك على كتاب رولاند دالاس :

Roland Dallas. King Hussein : **A life on the Edge** (London : Profile, 1998).

ومسجلاً ما يحلو له مع تلاعبه بالنصوص ، ومتغافلاً عن نصوص أخرى متعمداً . . . وإذا كان رولاند دالاس قد اعتمد في تسجيل بعض أخباره على شائعات صحفية ، وادعّى انه قد اطلع على محاضر مجلس الوزراء الإسرائيلي وعلى برقيات رمزية لوزارة الخارجية الأمريكية . . . . وهكذا بالنسبة لغيره : عشرات من الكتاب والصحافيين الغربيين الذين كتبوا وما زالوا يكتبون عن الشرق الأوسط وهم يشوّهون الحقائق ، ويختلقون الأخبار بأقنعة من التوليفات ، ويركبون القصص والسيناريوهات باسم هذا أو ذاك وخصوصاً عن الزعماء العرب في القرن العشرين . . . وان وراء ذلك – بطبيعة الحال – أغراض لا تخفى دوافعها ولا ينكر أحد مصادرها !

الكتب عن الزعماء : سوق رائجة مربحة

ونحن نعلم كم كتب الغربيون بالضد من الزعيم الراحل جمال عبد الناصر والملك

فيصل الأول وعن سعد زغلول وعن الحبيب بورقيبة وعن الملك فيصل آل السعود وعن أنور السادات وعن غيرهم . . . . فكيف لا تنسج القصص عن الملك حسين الذي دام حكمه قرابة نصف قرن من حياة العرب في التاريخ المعاصر ؟ وكيف لا تحبك الأقاويل والاتهامات ضده باسم «محاضر جلسات» و «برقيات رمزية» و «لقاءات صحفية» و «برامج تلفزيونية» ؟؟

ان على الكاتب والمؤرخ العربي أن لا يستسلم بسرعة لذلك دون أن يتحقق بدقة من المظان الأصلية ، ويطلع عليها بنفسه (إن استطاع إلى ذلك سبيلا) ، ويوّثق الخبر . . . . لا أن يستعين بها بسرعة متغافلاً عن حقائق أخرى سواء داخلية أم خارجية تتضمن المزيد من الإيجابيات! لم يستثن أي زعيم عربي في القرن العشرين من التقولات والمطاعن والاتهامات التي كانت تأتي سابقاً بوسائل ، وتأتي اليوم بوسائل أخرى . . . انهم من أجل الإيغال في تأسيس التوليفات ، بدأوا يتكلمون باسم محاضر وبرامج تلفزيونية وبرقيات رمزية . . . لتأسيس المطاعن والمثالب ، وحتى يطمئن القارئ العربي ، فلا بد أن يطالب هيكل نفسه بأن يقف بنفسه على الوثائق الرسمية ويصوّرها لنا بدلاً من ذكر رموز وأرقام !

واخيراً : ماذا يمكنني قوله ؟

الزعماء : الابتزاز من اجل التبجيل أو التشويه

١ - ان هيكل يدرك جيداً طبيعة ما يكتبه الصحافيون والساسة الغربيون ليس عن مجتمعات العرب المسلمين حسب ، بل حتى عن زعماء الدول العربية والإسلامية مهما كانت درجة اتفاق او اختلاف ذلك الزعيم من الغرب ! . . وخصوصاً عن أولئك اللامعين الذين تتوهج أسماؤهم بين مرحلة تاريخية وأخرى ، كما ويدرك جيداً حجم ما يتعرّض له أولئك الزعماء من ابتزاز مادي ومعنوي ، فإذا استسلم ذلك الملك أو الرئيس أو الأمير لمطالبهم واشتراطاتهم فهو يغدو من العظماء بما يطلقونه عليه من آيات التبجيل ، وما يكتبونه عنه من كتب ومقالات تصل الى حد القداسة في بعض المرات ، وخصوصا عند من يدفع أكثر . . . . اما ان رفضهم ولم يستسلم لهم ، فان كتباً ومقالات تنشر لتتهمّه ، وبرامج دعائية

تذاع ضده ، وتشوه سيرته ، وتتمادى في الإساءة لشخصيته وأسرته ولأساليبه وقراراته . . . .

ان هيكل يدرك تمام الإدراك تلك اللعبات الصحافية في الغرب ، والكتب التي (تفبرك) معلوماتها باسم «التوثيقات» غير الحقيقية التي لا تستند إلى أية مستندات رسمية مكشوفة وليست خفية . . فضلاً عّما تنشره بعض المؤسسات التي يجهل القراء سواء في الغرب أم الشرق من الذي يقف وراءها ويدعمها ويمولها ؟! وهي تقف بالمرصاد لتلميع هذا أو التشنيع ضد ذاك !! وان هيكل يدرك جيداً الفروقات الواسعة والاختلافات الكبيرة بين الذي ينشره الصحفيون القديرون والأمناء على الحقيقة ، والصحفيون الملفقون (المفبركون) والتوليفيون الذين يجيدون فن هندسة صنع الدعايات والحوارات والوشايات وتشويه سمعة نسوة ورجالات !

رفقا بالقوارير ياهيكل :

٢ – ونحن ندرك على امتداد القرن العشرين ، ماذا يكتب في الغرب وما ينشر ويذاع وينتج في مؤسساته غير العلمية . . وماذا نأخذ نحن هنا في الشرق (وخصوصاً في ثقافتنا العربية) عنهم ، مستسلمين لذاك المنتج الغربي باعتباره مادة حضارية موثقة ورصينة قيلت بحق هذا الزعيم أو ذاك من زعمائنا في تاريخنا العربي المعاصر . . لقد كتب الغربيون وخصوصاً من الصحافيين والساسة الكتّاب حتى المشهورين ما شاء لهم أن يكتبوا في مطلع هذا القرن عن السلطان عبد الحميد الثاني ، مشوّهين سمعته ، مخترقين تاريخه مقارنة بما كتبه مؤرخون متخصصون وأساتذة أكاديميون وقفوا على حقائق تاريخية باستنادهم إلى وثائق رسمية تحترز عليها مكتبات وخزانات في مراكز بحوث وتوثيق . . ومحللين نصوصهم على الوجه الأصوب ؛ كما ونحن ندرك كم كتب الغربيون من تناقضات وتشوهات بحق اكثر من زعيم عربي ومسلم على امتداد تاريخ القرن العشرين !

وسيثبت التاريخ والأجيال القادمة زبد ما أشيع وكتب ونشر وشّوه ولفق ليس ضد الملك حسين وحده ، بل حتى ضد جمال عبد الناصر وضد الملك فيصل بن عبد العزيز والحبيب بورقيبه وغيرهم ، ناهيكم عن زعماء الجيل الماضي ، أمثال : فيصل الأول ملك العراق وعبد العزيز آل السعود ملك السعودية ، وفاروق ملك مصر ومحمد الخامس ملك المغرب . . . .

ناهيكم عما كتب عن اللاحقين وما زالوا يكتبون ويلفقون . . فحريّ بمحمد حسنين هيكل ان يترّفق بالقوارير . . . . سيما وانه هو نفسه مدان في سيرته ، وقد اتهّمه البعض - ممن لا يمكنني أبدا الاعتماد على كتبهم وأقاويلهم - بتهم شتى تصل إلى حد العمالة والخيانة ومن خلال اتصالاته التي وصفت بالمشبوهة مع أطراف معروفة ومجهولة !؟

لا صحة للأقاويل دون مستندات !

٣ - ومطلوب من هيكل أن يكون منصفاً ومدققاً وأمينا على مصالح الأمه وتواريخ رجالاتها كرجال العلم والتخصص . . . . ومطلوب منه أيضاً أن يكون عربياً قحّا وقومياً أصيلا في رؤيته ، وان يوّسع من مداركه كونه يكتب للمستقبل وللأجيال ، وخصوصاً في محافظته على مصالح الأمة اجمع . . . دون أن يلتزم ما قاله هذا أو ذاك ! وان يكتب تاريخاً حقيقياً وحيادياً باعتباره «مؤرخاً» لا باعتباره «سياسياً» ، اذ لا يمكن أبدا أن يصف صحفيا أمريكيا قديرا بفّنه الصحفي بـ «الأسطوري» ، أو يضفي من عنده أشياء وتصورات مبالغاً من شأن هذا البرنامج التلفزيون الذي تبثه قناة بريطانية ، أو مضخّماً من حجم صاحب مؤسسة صحافية أمريكية مشبوهة ، أو يأتمن على كتابات صحافي يدّعي انه اطلع على محاضر مجلس وزراء إسرائيل أو غير إسرائيل ، وهي وثائق لا يمكن لأي دولة - كما نعرف نحن المؤرخين المختصّين - ان تعلن وثائقها على الملأ وتجعلها بيد هذا وذاك إلا بعد مرور عقود من الزمن !

كان الأجدر بهيكل أن يدخل لمناقشة موضوع كتاب أو نقد أقاويل وادعاءات محللا ناقداً بارعاً في تفكيك النصوص والتدقيق في التصريحات قبل أن يوظفها توظيفا سيئا ومقصودا ضد هذا الزعيم أو ذاك !! وكان عليه أن يقلل من غلوائه بجعل نفسه في مصاف الملوك والرؤساء ، متحدثاً باسمهم ، مصادقا لهم . . وطاعنا أياهم فالواجب والأمانة والموضوعية تقتضي منه كشف الحقائق من خلال تحليله للنصوص وقياس مدى واقعيتها وصحتها بالرجوع الى المستندات الاصلية . . فضلاً عن إحاطته بظروف كل بلد من البلدان العربية وقد عايش هو نفسه تلك «الظروف» واطلع على مصاعبها على امتداد خمسين سنة من القرن العشرين .

من أجل الوعي بالحاضر وادراك المصير:

٤ - ولنفترض الصدق لمرة واحدة في النصوص التي ساقها هيكل على لسان الملك حسين في مقابلته له أو ما سجله - مثلاً - على الملك حسين نقلا عما ذكره الملك خوان كارلوس لهيكل - كما يدّعي - عن نصّ ذكره الملك حسين ! ألا يفترض في هيكل أن يقف وقفة تحليلية علمية صادقة على النص التالي :

يقول هيكل وهو ينقل نصّ ما قاله الملك حسين له : «ان هؤلاء الذين يعادون الآخرين ويعاديهم الآخرون - أكثرهم منافقون ، فهم يقولون في العلن عكس ما يفعلون في السر ، وهو على علم ، ماذا يريد مني هؤلاء ؟ بلدي في حاجة وهم لا يعطون شيئاً ، وإذا أعطوا فقطرة قطرة ، وبلدي معرّض للخطر وليس فيهم من يستطيع أن يبعث جندياً إلى خندق أو يطلق رصاصة في اشتباك . . . . . . إذا كان بينهم من يتصّور أنني أتصرف في سياسة الأردن من موقف ترف الاختيار فهو «يكذب» أنني اعرف أن هناك من ينتظر حركة «غير مسؤولة» أقوم بها ثم يتخذها ذريعة لابتلاع البلد كله ، وساعتها سوف اسمع واقرأ بيانات تنديد ويذهب الأردن إلى حيث ذهبت فلسطين قبله . . هل هذا ما يريده منى . . . !!» . (**وجهات نظر** ، ١٤/٣) .

الثيران الهائجة من كل جانب: صراع من أجل الحياة

ويقول هيكل وهو ينقل عن الملك خوان كارلوس فقرة قالها الملك حسين للملك خوان كارلوس وهما يشهدان عرضا في مصارعة الثيران : «إنني اعرف ما تتحدث عنه ، وأنا أجربه كل يوم في المنطقة التي أعيش فيها ، وحالي اخطر من حال المصارع الذي تتحدث عنه ، فهو على الأقل يواجه ثورا واحداً ، وأنا عندي كل يوم في المنطقة عشرة ثيران على الأقل ، وكلها هائجة ، وكلها تهجم ، وكلها مواجهات يمكن أن تؤدي إلى القتل ومصارعك الأسباني لديه مساعدون يحملون السنون والحراب ، واما أنا ففي الحلبة وحدي ، واحياناً تجئ إلي السنون والحراب من وراء ظهري !» انتهى النص . يستطرد هيكل قائلاً : وسألني الملك خوان كارلوس : «هل حسين مبالغ في وصف صعوبة موقفه» ؟! ورددت على الملك ، وكنا في

مكتبة في قصر زرزويلا : «الصورة فنية ونابضة بالحيوية ، لكنني في الحقيقة لا اعرف ، لان كثيرا في شخصية الملك يحيّرني رغم محاولات من ناحيتي مستمرة لفهمه . .» . (وجهات نظر ، ١٤/٣)

مطلوب تحليل النصوص :

دعني أقول : إذا افترضت صدق ما أتيت به في النص الأول أو النص الثاني . . . . . وإذا افترضت جدلاً أن الملك خوان كارلوس قد حكى هذه الحكاية الطويلة لك ؟ وإذا افترضنا - أيضا - انه تنازل وهو ملك أسبانيا ليأخذ رأيك في زميل له في مهنة الملك ، وأنت صحفي ؟ وماذا ؟ رأيك في ملك عربي قديم يعرفه حق المعرفة وليس في رئيس دولة أتت به المقادير من ثكنة عسكرية إلى سدة الحكم ، اذا افترضنا أن كل ما قلته صحيحاً . . . . . أليس من الأجدر أن تحلل هذين «النصين» اللذين يتضمنان ما كان يعانيه الملك حسين أو أي زعيم في مكانه على امتداد قرابة نصف قرن ؟ أليس من الأنصاف والحياد أن تعترف بالهزات السياسية الشديدة التي تعرّض لها الأردن ؟ أليس من الموضوعية ان تقول كلمة سواء في المصاعب الاقتصادية والسكانية التي عانى منها الأردن ؟ وإذا كان خوان كارلوس قد سألك - وأنا اشك في الرواية كاملة - فلماذا لم تكن صادقاً في توضيح حقيقة الوضع بدل المزايدة على البضاعة الأيديولوجية التي ليس لها أي سوق لا عند خوان كارلوس ولا في العالم كله ؟ وكيف لم تفهم شخصية الملك حسين التي حيرتك زمناً طويلاً وأنت الذي تدّعي معرفتك به منذ عام ١٩٤٨ ؟ أيجوز لك أن تتناسى كل الأدوار والمواقف والمشاركات بحلوها ومّرها بايجابها وسلبها على امتداد خمسين سنة من تاريخ القرن العشرين ، لكي تتخذ مثل هذا الموقف غير المحايد ؟ ربما لم تكن ولن تريد أن تكون مع سياسة الملك حسين . . . . ولكن ما اشدد عليه - كمؤرخ - هو الحيادية والموضوعية في تأسيس موقفك الذي استسلمت فيه لما كتبه صحافيون غربيون .

أليس من حقنا - أيضا - أن نسألك : لماذا استسلمت لكتاب هزيل كالذي نشره رولاند دالاس ، او غيره من دون أن تلتفت الى أعمال اخرى نشرت في الغرب عن الملك حسين ،

وخصوصاً تلك التي كتبها : جيرالد سبارو وفيك فانس وبيير لاويه وبيتر سنو وجيمس لونت وغيرهم* .

النص الجنائزي .. يبقى هو المشكلة !

هذا « الموقف » الذي اختصرته بعبارة واحدة ، قلت فيها : « هل تكفي حشرة الجغرافيا؟ وهل تكفي مشاكل ومآسي التاريخ وعقده ؟ وهل تكفي مفاجئات العصور والأزمنة ؟ وهل تكفي ضغوط – وحتى أهوال – تجربة شخصية لملك عربي فرضت عليه ظروفه أن يتحرك بسرعة إلى حافة الخطر ثم يعود في الثانية الأخيرة بشبه معجزة ؟ ثم أين هو الخط الفاصل بين المرونة والسيولة ، ومن الممكن وغير الممكن ؟ أين هذا الخط الفاصل خصوصاً بعد أن تنسحب من الذاكرة أصوات وأصداء نصٌ جنائزي كان في حد ذاته مهيباً وجليلاً» . (وجهات نظر ، ١٤/٣)

معنى ذلك يا هيكل بما يستشفه المرء من رقعتك الفنية وصياغتك الأدبية : أن النص الجنائزي قد جرحك كثيراً بشكل لا يمكن تصوره ! .

مقالة هيكل لم تكن مجرد صفحة مترجمة عن أصل !

يبدو ان ردود الفعل القوية ضد ما كتبه محمد حسنين هيكل عن شخصية الملك حسين قد هزته فعلاً ، وبدلاً من إعادة ترتيب أوراقه ، وإخضاع النصوص والأخبار والروايات الصحفية للتدقيق بالرجوع فعلياً إلى المستندات الرسمية . . . . راح هيكل في مقالته عن دور الملك الحسن وسياساته ، يكتب في المفكرة رقم (١) رداً بأسلوب غير مباشر مدافعاً عما أورده من معلومات ترجمها عن غيره ، لكي ينشر ذلك «الرد » بعنوان (عن الملك حسين . . . مجرد صفحة مترجمة عن اصل) ، فاعترف بداية انه ترجم معلومات لا اكثر ولا اقل . .

---

* راجع :

- Gerald Sparrow, *Hussien of Jordan* (London: Harrap, 1960).
- Vick Vance et Pierre Lauer, *Hussein de Jordanie: Ma "Guerre" A Vec Israel* (Paris: Editions Albin Michel, 1968).
- Peter Snow, *Hussein* (London: Barrie & Jenkins, 1972).
- James Lunt, *Hussien of Jordan: A Political biography* (London: I.B. Tauris & Co. Ltd., 1989).

ونسي أنه كتب ما شاء له قلمه ان يكتب عن الهاشميين والأردن بأسلوب غير معهود حتى في حدّه الادنى !

أننا نطالبه نحن اليوم باكتشاف المعلومات أو على الأقل بإعادة اكتشافها من مكانها الأصلية أولا ، وبإحالة ما ترجمه عن هذا الأمريكي أو ذاك الصهيوني للنقد والتحميص ثانياً ، واعتقد أن كلا من العمليتين من الصعوبة بمكان أن ينجزها هيكل ، نظراً لأنه - كما يظهر - داخل في إطار اللعبة السياسية العليا في تشويه التاريخ وليس بخاف على أحد أن الدوائر الغربية وفي مقدمتها الدوائر الأمريكية والصهيونية لها خططها وترتيباتها في صناعة الأخبار وترويج الدعايات وأنها المتفوقة في هندسة الإعلام المضاد في الأوقات المناسبة ، من اجل تمرير صفقات وآليات وأساليب ضد مسؤولين معينين ليس في الشرق الأوسط بعينه ، بل في كل مجالات العالم الحيوية الأخرى . .

تسويق المصالح والتلفيقات الأمريكية

وتعتبر الصحافة ووكالات الأنباء خير وسيلة عملية لتسويق المصالح العليا ، والعقلاء يعلمون بأن ليس هناك صداقات دائمة او عدوات دائمة ، بل هناك مصالح دائمة !! فليس من المنطق يا هيكل - وأنت الأعرف بهذه الأمور - ان تسمّي بنيامين برادلي - مثلاً - بـ « رئيس التحرير الأسطوري لجريدة الواشنطن بوست» ، أو تستسلم هكذا وبسهولة لشهادات بوب وود وارد صاحب كتاب عنوانه «الظل» **Shadow** الذي صدر في مايو سنة ١٩٩٩ ، وحتى إعجابك بهذا «الكتاب» كونه «ألان ومن يومها على رأس قائمة الكتب الأكثر مبيعاً في الولايات المتحدة الأمريكية وفي أوروبا» (**وجهات نظر** ، ٦/٩) لكي تأتينا بترجمة حوارات صحفية تحتمل كل الأكاذيب ، ولا سند وثائقي واحد يؤكدها ، وأنت تعرف (أو : لا تعرف) بأن الوثائق السرية للدولة في علاقاتها بالخارجية خصوصاً ، لا تنشر بهذه السهولة أولا ، وان نشرت فلن يتعامل معها الصحفيون أمثال بوب وود وارد ، بل يعالجها المؤرخون في فحص مضامينها بصعوبة ودقة ومقارنة لاستنباط الأحكام بعد ذلك !

وأنت تعرف (أو لا تعرف) ، بأن تسويق الكتاب في العالم كله نسبي في حركته

التجارية ، فالكتاب العلمي المنضبط والتخصّصي الذي يتضّمن المعرفة والتوثيق والمنهج والرؤية والاستنتاجات المحكمة والفهارس وقوائم المصادر المعتدة لا يمكن ان يكون الأكثر مبيعاً في الأسواق ، لان النخبة هي التي تعتمد عليه . أما الكتاب الذي يتضّمن رواية مدهشة ، أو أخبار سياسية ملفقة ، أو مضامين رومانسية أو بوليسية ممتعة ، أو مذكرات أحادية الجانب ، : أو أسرار صحافية (مفبركة) . . الخ فهي الكتب الأكثر مبيعاً وبطبعات عديدة !

ولكي اضرب مثلاً ، فلقد كان المؤرخ البريطاني المعروف ارنولد توينبي نشر اكثر من كتاب في تاريخ ما بين الحربين العظميين تناول فيها وثائقياً من خلال عمله في وزارة الخارجية البريطانية قضايا حساسة في تاريخ الشرق الأوسط ، ودرسها بدقة متناهية ليتفحص أحكامه عن زعماء المنطقة ، ومنهم : فيصل بن الحسين على -سبيل المثال لا الحصر- ولكن كتابه هذا لا تقارن مبيعاته بحجم مبيعات كتاب مذكرات أحادى الرؤية والعاطفة والمواقف كالذي كتبه لورنس العرب المرسوم بـ «أعمدة الحكمة السبعة»* الذي طبعت منه طبعات لا تعد ولا تحصى ! والفرق واضح لكل ذي عينين ورأي صائب . . وهكذا بالنسبة لكتاب رصين كتبه جورج انطونيوس بعنوان : «يقظة العرب»** الذي ضمنه تفصيلات تاريخية أمينة ، إزاء كتاب مليء بالأكاذيب ونال شهرة واسعة وتسويق تجاري أوسع ضد العرب وزعمائهم ، كتبه اكثر من صحفي وسياسي مرتبط بأجهزة معينة ترّتب لمصالح معينة !

الحكم الأخير للأجيال القادمة :

وأخيراً ، فإن الذي أود أن أقوله وانتهي إليه . . . . أننا نحن العرب من أسرع الناس إطلاقا للأحكام ، ومن اكثر الناس تصديقاً للأعداء ، وكانت ولم تزل تشغلنا «عقدة

---

* راجع :

Th. E. Lawrence, *The Seven Pillars of Wisdom: A Triumph, Harmondsworth* (London: Penguin, 1969).

** راجع :

George Antonius, *The Arab Awaking: The Story of the Arab Movement,* London, 1938.

الخواجا» أوربيا كان أم أو أمريكيا . . ويأخذنا الهوس في الإشاعة وترويجها ، والتقليل من حجم أنفسنا وتصغيرها أمام الآخرين كما وأننا لا نميز بين ما يكتب ، بين ما هو علمي مضبوط وبين ما هو دعائي مهترئ . . . . والحكم أولا وأخيراً ليس لنا ، ان الحكم لأجيالنا العربية القادمة ، فهي الحكم الفصل في كتابة تاريخنا ، ومعرفة أسرارنا والتأكيد من الحقائق . . . فلننتظر دون أن نتسّرع ، ولا نجني آلا على حاضرنا ومستقبلنا إذ كفانا تمزيقاً وخلافات وكفانا بث روح الانتقام وتصعيد الكراهية والأحقاد ، وعدم التمييز بين الناس . . . وان التاريخ لا يحتكره شخص واحد يريد أن يكون وصياً عليه !

الفصل الثالث

المغرب الأقصى : عراقة معاصرة

هيكل : التذكير والتزوير

« ان حبل الكذب قصير ولا يمكن للسحاب أن يحجب أشعة الشمس الساطعة ولو بعد حين »

- نوري السعيد -

« ان البحث عن الحقيقة - في شأن الرجال أو الأحداث - لا يتطلب من الناس ان يبادروا بالحكم، وإنما ان يسعوا للفهم، وبعده وليس قبله يحق لهم ان يقرروا كما رأوا وكيفما شاءوا ! »

محمد حسنين هيكل

أولاً : معالجة المسائل التاريخية

مقدمة: هل من منهج نقدي عربي في كتابة التاريخ المعاصر؟

لا احسب أن الآخرين حتى وان خالفوني الآراء والمفاهيم والنقدات التي اكتبها في هذا الكتاب ، انهم سيمنحون الفرصة لهيكل في ان يكتب ما يشاء ، ويستسلم الآخرون له دون منحهم الفرصة ديمقراطيا لمن يخالفه منهجه ورؤيته وتفكيره وأسلوبه في معالجة الأمور التي لا احسبها بسيطة أو سياسية عارضة ، بل إنها خطيرة وتاريخية تصل أحكامها الحدّية إلى حد النخاع ! ونحن عند نهاية القرن العشرين . . . إذ ليست «المسألة» - كما يفهمها البعض وعلى رأسهم هيكل - أنها قد حسمت على يديه ، فتاريخ القرن العشرين ومعرفة تكويناته والتوغل في طبيعة بنيوياته وأبطاله وشخوصه ، وعلاقاته وأحداثه وكل جزئياته . . . . بحاجة إلى أجيال عدة لفهمها ، وحسم حقائقها ، وقياس تموّجاتها ، والوعي بكل مظانها . . . . . وعند ذاك سيقول التاريخ كلمته ، ولكنها تبقى كلمة غير أخيرة ، ولكنها محسومة عند الناس أجمعين ، وخصوصاً في من قدم وخدم واخلص لهذه الأمة ، وفي من أضرّها واخطأ في حّقها وجعلها في اسفل سافلين على امتداد مراحل متعددة من القرن العشرين !

البداية الموهومة: المعلوم والمكتوم

بدأ هيكل مقالته عن الملك الحسن الثاني التي اسماها بـ « المعلوم والمكتوم في دور الملك الحسن وسياساته » والمتألفّة من سـبع مفكرات ، وجميعها تحت عنـوان أولّي من المؤكد أن هيكلا قد اختـاره ليتصدر كتاب جـديد له ، هو : « **فقرات في ملفات ملكيـة** » ، تلك « الملفات » التي يبدو انه حرص على ان يصّدرها بعد وفاة كل من الزعيمين العربيين الراحلين : الحسين بن طلال والحسن الثاني .

بدأ هيكل مقالته بعقد مقارنة مبسّطة بين الملكين تحدوها علاقتهما ببعضهما البعض ، وهي مقارنة جيدة برغم بعض الهنات والأخطاء والنواقص التاريخية :

النسب العربي القديم:

١ - نسبهما الذي يشكك فيه هيكل على استحياء بقوله : « مقولة النسب ، ومع احتياج المقولة للفحص والدرس - فأن الأخذ بها سواء بدواعي التصديق التاريخي أو بمطالب الشرعية السياسية يخلق عند أصحابها نوعاً من مظنة العصمة الموروثة تعفيهم من أية قيود أو عقود تلزم غيرهم من الناس » (وجهات نظر ، ٤/٩) . ان هيكل لا يهّمه النسب سواء كان صادقاً في التاريخ أم غير صادق ، فالذي يهمه هو اختلاق ما اسماه بـ « مظنّة العصمة الموروثة » . . . ولا أظن أن غيرهما من الزعماء العرب برغم عدم امتلاكهم للشرعية التاريخية ولموروث النسب ، لم يمتلكوا « العصمة » في العهود التي حكموا بها أوطانهم في القرن العشرين ، بل ووصل البعض تأليه نفسه ، أو هكذا تراءى له عندما سمع تأليه نفسه وبقي ساكتاً ! كما حاول البعض أن يخلق له نسبا من خلال شجرة توصله بالأئمة العرب الأوائل وهو من غير العرب ويحكم بلادا غير عربية . . اعتزازا بقيمة هذا النسب على المستوى الرسمي ، بل ويصل إلى حد القداسة على المستوى الشعبي !

٢ - ونتابع هيكل الذي يستطرد قائلاً : « وعلى سبيل المثال فانه في حين كانت مقولة الملك حسين هي « آل البيت » ، فان مقولة الملك الحسن كانت « إمارة المؤمنين » ، وكلتا المقولتين جرّت وراءهما - ولو بالإيحاء - هذا النوع من مظنة العصمة ، والمشكلة فيه انه يغري أصحابه بالحياة في مناطق مختلفة في ذات الوقت ، وهي مناطق بعضها ظاهر أمام الناس مقيد بتكاليف لها ضوابطها ، والآخر خفي يملكه أصحابه وحدهم بـ « مظنة العصمة » وهم أحرار فيه لا يقدمون لغيرهم حساباً عنـه ، وكانت تلك بالفعل أبرز الظواهر في سياسة كل من « البيت الهاشمي » في الأردن ، والبيت العلوي » في المغرب (وجهات نظر ، ٤/٩) .

مظنة العصمة: هل لها وجود؟

مرة أخرى ، لا اعتقد أن الملكين قد اخترعا كلاً من المقولتين المذكورتين ، فلقد توارثاها عن آبائهما وأجدادهما ، فهي لم تجّر وراءها - ولو بالإيحاء - هذا النوع من مظنة العصمة ،

بل كانت موجودة أصلا من خلال التوارث عند الناس ، وربما كانت مغروسة في اللاوعي الجمعي دون أن تكون جديدة قد اتخذها لنفسيهما كل من الملكين الاثنين الحسن والحسين . . . . وهي موجودة كابرا عن كابر ، كما هو حال هذين الاسمين ، اذ يعتبران رمزين لهما قيمتهما منذ صدر الإسلام حتى يومنا هذا عند عموم المسلمين ، اذ غرسا في الذاكرة التاريخية العربية الإسلامية ، وأن من يسّمى بهما لن يستطيع أن يفرض سلطته من خلالهما على الناس ، وأنت نفسك يا هيكل ، هل فكّرت يوما بأسمك « حسنين » الذي يجمع بكلمة جميلة رائقة أسم كل من الحسن والحسين ؟؟ . . كذلك مسألة النسب التي أكتسب جذرها قيمة رمزية وليست سلطوية . . أي انها تعد تاريخيا حقيقة أرثية لها مكانة اجتماعية قبل أن تكون لها سلطة سياسية . .

وعليه ، إذا لم يدرك هيكل مغزى ذلك كلّه فهذه مشكلته في كيفية استيعاب تاريخنا العربي الاسلامي . . وليس عيبا أن يقوم الآن بدراسة ذلك دراسة معمّقة وأن يبحث عنها على امتداد تاريخ المجتمع العربي منذ أعماقه حتى اليوم وخصوصاً في المدن العربية القديمة كبغداد ودمشق ومكة وحلب والموصل والبصرة وغيرها من المدن العريقة في المغرب العربي وفي ايران ، فثمة مؤسسات اجتماعية قديمة وجدت في تلك الحواضر باسم « نقباء الإشراف » أو « نقابات السادة الإشراف » الذين كانت (ولم تزل توابعها) سارية المفعول في مجتمعاتنا حتى يومنا هذا ، ولكن ضمن أعراف وتقاليد الهيئة الاجتماعية العليا . . ولكن ليس في ممارسة العصمة ، بل الاستحواذ على سلطة اجتماعية معينة ، أو حتى مكانة قديرة بين الناس . . هذا هو حال مجتمعاتنا العربية الإسلامية في الحواضر خصوصا شئنا أم أبينا ، ولكن ستقل مع الأيام وتضعف مثل هذه الرموز بفعل المتغيرات الجديدة في المجتمعات الإسلامية قاطبة .

السادة والأشراف العرب :

وهكذا ، نجد أن من لم يمتلكها ـ حتى على مستوى شعبي بسيط ـ فهو يدعو نفسه بـ « سيد » ، أو يسّمى من قبل والديه بـ « سيّد » سواء أكان ذلك تيمّنا بالسادة الحسينيين ، أم أنه يّدعي الانتماء إليهم تفاخرا وتنطّعا أمام الناس كونه ينتمي إلى السادة الحسينيين ،

وحتى يكون باستطاعته امتلاك نوعا من الأصالة . . . . ولكنه لم يتجرأ على أن يدّعي انه من « الإشراف » الحسنيين لأنهم معروفون بأسرهم واحدة واحدة ! وقد انتهى مفعول « العصمة » منذ زمن طويل عند العرب ، وبقيت منحصرة فقط عند الاخوة الشيعة الجعفرية ممن يؤمنون بفكرة « الإمام المعصوم » . . . . وإذا كانت قد وجدت عنه الأئمة الزيدية بشكل خفي في اليمن ، فان بروزها يظهر بشكل واضح عند الجعفرية الاثني عشرية الذين يؤمنون بأثني عشر إماما معصوماً . .

وعليه ، فان هيكل لا يستطيع - مثلا - أن ينكر على الإمام آية الله الخميني الذي قال بنسبه الحسيني المتّصل بالسادة الحسينيين ، وما غرس عند من تبعه كونه إماما معصوماً !! وهكذا ، فلا حاجة أبدا لإثارة موضوع « العصمة » عند الأشراف الهاشميين في المشرق العربي أو الأشراف العلويين في المغرب العربي ، لأن كلا من الطرفين لم يدع « العصمة » لنفسه ، لا عند الأمراء من أشراف مكة ولا عند السلاطين من أشراف العلويين مطلقاً وعلى امتداد القرون المتأخرة !! وكل الذي حصل أن التمسك بشرعية كل من مصطلحي « آل البيت » عند الأشراف الهاشميين و « وامارة المؤمنين » عند الأشراف العلويين ، مجرد رمزين قديمين ينتمي إليه كل من الطرفين المذكورين .

تبريرات واهية : هل هناك تاريخ سائل وتاريخ جاري

كتب هيكل يبرر ما كتبه عن الملك حسين ، في بداية مقالته عن الملك الحسن الثاني ، وظهر بمظهر انه ناقل الأخبار ، وناقل الأخبار ليس بكافر ! وبرر كل ذلك متناسياً جملة اتهاماته وحصيلة تقولاته على امتداد « المقالة » ، ولعل اخطر ما جاء به هنا ، قوله : « لكن الظاهر أن مقولة (هذا ليس وقته) تريد من الناس حبس مواقفهم وآرائهم إلى اجل غير محدد تكون فيه السياسة قد خرجت من نطاق الذاكرة إلى نطاق السجلات ، وذلك يتصادم مع حقيقة أن السياسة تاريخ سائل يواصل جريانه ، وان السجلات محفوظات منسّية يحتاج البحث عنها إلى حفائر جيولوجية سواء كانت أوراقا نائمة في ادراج حديدية أو إشارات محبوسة في صناديق إلكترونية! » (**وجهات نظر ، ٦/٩**)

أنهى هيكل في « النص » الذي كتبه في أعلاه ، مهمة المؤرّخ ومهمة المحّقق ومهمة

المُوثق . ذلك لأنه يعارض كل ما تعارف عليه العلماء في التدوين التاريخي ، وانه مزج بين السياسة والتاريخ ، معتبرا السياسة تاريخ سائل وهذا خطأ كبير مارسه الرجل في اغلب كتاباته ، فإذا كانت السياسة تتحمل وجهات نظر ، وتباين مواقف ، واحتمالات وتوقعات واراء وأفكار . . فان التاريخ يسعى من خلال تدوينه في البحث عن الحقائق والمعلومات المؤكدة والأخبار . . سواء في منهجه أو في فلسفته ، ربما هناك مدارس وفلسفات تاريخية متعددة ومتنوعة ، ولكنها تتفق على أن التاريخ لا يكتب لما هو معاصر لابنائه ، فالمعاصرة شأن يختص بالحاضر ويتّصل به . . وهو « الحاضر » الذي تختفي فيه جملة هائلة من المعلومات المؤكدة والحقائق الخفية . . .

وعليه ، فلا يمكن أن يدمج هذا بذاك تحت ذرائع مختلفة ، ومن المؤسف أن هيكل لم **ينجح كما بدا حتى الان لا في كتابة الشؤون السياسية ولا في كتابة الحقائق التاريخية لأنه لم يفرق بين كل من المعرفتين** . . . . وإلا لماذا كان لكل من علم السياسة وعلم التاريخ ميدانيين مختلفين ، وتخصصين متباينين . . . ومنهجين متضاربين وفلسفتين اثنتين . . .

لقد كتب عن الزعماء العرب في القرن العشرين سواء في حياتهم أم بعد مماتهم كتباً عدة من قبل كتاب ومؤلفين وصحافيين متنوعين ، ومنهم من أطلق تهماً خطيرة عن الزعماء العرب ، أمثال : جمال عبد الناصر ونوري السعيد والحبيب بورقيبة والحسن الثاني وعبد الكريم قاسم وياسر عرفات وأنور السادات والهواري بومدين وغيرهم . . . . ولكن هناك من المختصّين الأكاديميين العرب والأجانب قد الفّ كتبا عدة عنهم . . وأن كل ما كتب ونشر في أغلبه عند هؤلاء صحيحاً وصائباً اذ لم تكن هناك مواقف سياسية ونزعات أيديولوجية وابتزازات صحافية تقف وراء إلقاء التهم على هذا أو ذاك . . لكن لا يمكن التأكد من ذلك إذا لم تكن هناك أوراق ضبط رسمية موثوقة !

كتابة التاريخ المعاصر : عملية صعبة معقدّة

والعلم الذي يبحث عن حقيقة الأشياء لا تحدده الذاكرة يا هيكل ، لان الذاكرة تخطئ وتصيب . . ومن المؤسف انك اعتمدت على ذاكرتك في كتابة كتبك ، فوقعت في أخطاء لا تغتفرا فإذا كان الذي يعتمد على ذاكراته في كتابة مسائل خطيرة سيخطىء لا

محالة . . . . . فكيف بالذي يختلق أحداثا ومواقف واراء وتهماً وأفكاراً كلها من عندياته ؟؟

لقد بدأ هيكل - هنا - عدوا لدودا للسجلات والمحفوظات الرسمية التي تتضمن الحقائق والمعلومات المؤكدة ! لماذا ؟ لأنه اعتمد طوال حياته على ذاكرته الخصبة في خلق المعلومات ، ولان ليس له القدرة على استخدام تلك السجلات والمحفوظات . . . والتي يحتاج من يشتغل عليها سنوات طوال لانتاج كتاب واحد رصين ! فوصف كاتبنا عمل المؤرخ والباحث فيها بحفائر جيولوجية !! المطلوب منه قبل أن يبرر ما كتبه عن هذا أو ذاك أن يطلعنا على أوراق نائمة في ادرج حديدية ، وان يوثّق لنا ما كتبه مستندا على الإشارات المحبوسة في صناديق الكترونيه! وان يعترف بان الكتابة في السياسة هي غير كتابة التاريخ ، وان الكتابة في السياسة ليست كتابة في « التاريخ الجاري » ! ولا ادري من أين استلهم هذا « المصطلح » ، فليس هناك من مصطلح بهذا الاسم أبدا كما نعرف نحن الذين يشتغلون في علم التاريخ . .

أما إذا قصد « التاريخ المعاصر » The Contemporary History فان للتاريخ المعاصر فلسفته ومنهجيته واليات عمل محددة* ، إذ لا يمكن أن يكتب أبدا دون وثائق رسمية كان قد مضى على صدورها قرابة ٤٠ -٥٠ سنة ، وثمة وثائق سرية أو خطيرة لا يكشف عنها من قبل الدوائر الخاصة التي تحترز عليها ، إلا بعد مضى وقت طويل يقدر بعقود عديدة من السنين! فالعملية ليست سهلة جدا في أن يأخذ الكاتب ، أي كاتب مجموعة رسائل ومجموعة قصاصات ومحاضر جلسات . . من هنا وهناك ويأتي ليكتب ما تتوّهمه ذاكرته او ما تسعفه به خيالاته أو ما يسمعه من دعايات واشاعات لهذا الدوبلوماسي أو ذاك الصديق في دائرة مخابرات . . او ما يترجمه من هذا الصحفي الأمريكي أو ذاك السياسي الصهيوني . . كي ينتج كتبا لها عناوين براقة ومضامين منتحلة كتبت جميعها بأسلوب له التواءاته من طرف وجمالياته من طرف آخر !

ان هكذا عملية فاقدة للمصداقية وللمعرفة الحقيقية ولا يمكن لها أن تكون مرجعية

---

* التفصيلات في :

R. P. Dutt, *Problems of Contemporary History*, London, 1963, pp. 56 - 79.

تاريخية للباحثين والدارسين . . وعليه ، فثمة عرف اليوم في أغلب اقسام التاريخ بجامعاتنا العربية أو في الجامعات الغربية ، يؤكد على عدم استخدام كتابات ومؤلفات محمد حسنين هيكل في اعداد بحوث الدبلوم ورسائل الماجستير واطروحات الدكتوراه ! وللعلم يا صاحبي ، ان المؤرخ حنا بطاطو المختص بشؤون الشرق الاوسط المعاصر ، صرف أكثر من عشرين سنة في تأليف كتابه (بالانكليزية) : **الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية في العراق المعاصر !***

اشتراطات التدوين التاريخي :

لنتعرف على من هو المؤرخ الحقيقي في التسجيلات وكتابة المعلومات وخصوصاً عند ذلك المؤرخ أو الكاتب الذي يدون أحداثا ووقائع ومواقع ونصوصاً وأقوالاً . . . الخ ويتركها من بعده للتاريخ وقد كان معاصراً لها على امتداد حياته . . فثمة اشتراطات أساسية تعلمناها نحن العرب والمسلمين من خلال الإرث المنهجي والنقدي في مراحل تاريخية متعددة من حياة التدوين التاريخي . . ونحن نشهد اليوم ذلك الفرق الواسع بين من يدّون المعلومات دون أي توثيق أو أية مستندات رسمية لأحداث ومواقف عاصرها ، اذ لا تفيد هنا عملية استنساخ بعض ما يعثر عليه هيكل من أوراق ونصوص وذكريات ، وبين من يتدارس ويستبطن وينقدُ ويحلل ويدقق موظفا مضامين السجلات والوثائق والاضابير والمراسيم والقرارات .

التعامل مع التعقيدات التاريخية :

لابدّ اذن من توفير الاشتراطات المنهجية في العمل المعرفي التي تتعلق بكتابة التواريخ المعاصرة التي يتصف العمل بها بالتعقيد والصبر والامانة ، وخصوصا في كيفية تدوين تلك المعلومات إذا كانت من الخطورة بمكان . . كأن تمس جوانب سياسية تتصل بمواقف زعماء وسياسات دول وخطط حكومات مع طبيعة علاقات تلك الدول وارتباطاتها أو مع النظم السياسية المتنوعة في أية أمة من الأمم ، ناهيك عن الانقلابات العسكرية فيها والانتفاضات الشعبية ومواقف الأحزاب والتجمعات بعيداً عن المؤثرات الايديولوجية . . كما ويشترط أيضا

---

* سنأتي على ذكر استخدام هذا «الكتاب» لاحقاً في الفصل الخامس من «تفكيك هيكل» .

الانتقال من وقت لأخر لمعالجة الخطوط الأخرى التي تختص بتسجيل التاريخ الاجتماعي ذلك لان التكريس شبه الكامل كان للخطوط السياسية بمجمل صراعاتها أو توافقاتها !

وهنا لا يمكن للمؤرخ أو كاتب المعلومات أن يبقى أحادي النظرة أو ازدواجي التفكير أو انه يسجل تلك الوقائع والمواقف والأقوال بعيداً عن أية مستندات ووثائق وشهود أحداث، لابدّ أن يكونوا أحياء كي يمنحوا الفرصة كاملة من أجل أن يردّوا على كل التهم والادعاءات، أو حتى تبريرهم لمواقف وعلاقات . . فضلاً عن هذا وذاك، لا يمكن أيضاً ترديد أقوال ومسميات وتهم . . . الخ على لسان الأموات لأنهم اصبحوا في ذمة الله . .

التوثيقات هي الأصل:

ومن الاشتراطات الأخرى التي لابد للأجيال الجديدة أن تدركها وتفهمها وتعي مخاطرها في التدوين التاريخي : الاعتماد على نصوص ورسائل ومستندات بعيدة كل البعد عن الموضوع الأصلي الذي يسجل فيه المؤرخ مادته فكل معلومة مهما بلغت درجتها من الصغر والتي تمس قضايا خطيرة لابد أن توّثق توثيقاً واضحاً (في الهوامش أو الملاحظات بكل دقة) وليس ضمنياً . وحبذا لو أتيح للمؤرخ ومدون التاريخ أن يدعم مستنداته بمستندات أخرى من اجل أن يقيم الحجة على دعاواه قبل ان يتهم بنعوت تخرجه عن طور التدوين التاريخي إلى صفات أخرى . . فضلاً عن هذا وذاك فإن المستندات والوثائق لابد أن يشار إلى محل وجودها، وان أمكن فليقدم المؤرخ أو الباحث أو الكاتب والمؤلف صورا منها كاملةً غير منقوصة سواء أكان ذلك مضمناً داخل النص أم مهمشاً في ملاحق عديدة لكي يقف القارئ على مصداقية المؤرخ في عملية التدوين . .

الشهادات الشخصية لا تكفي:

من الأمور الأخرى الواجب توفرها ضمن اشتراطات التدوين التاريخي كما تعلمنا ذلك من الأسانيد وتحرير الروايات والسجلات الرسمية أو شبه الرسمية في عهود مختلفة يفترض فيمن يمارس التدوين التاريخي عدم الاعتماد على أية روايات ضمن صيغة « قيل وقال » كتلك التي يمارسها البعض بادعائه انه يمتلك علاقات شخصية مثلاً أو مخزونات من المعلومات الخاصة والشخصية . . صحيح أن بمقدوره استخدام ذلك لا بشكل وثائق ولكن

بشكل شهادات ، وهنا يشترط عليه أن يدعم تلك الشهادات بالتوثيق مع مستندات رسمية أخرى ، كما ليس له الحق مطلقاً في أن يتدخل داخل ثنايا الروايات لكي يضيف ما يشاء أو يمحي ما يشاء ، فتبدو تدويناته (التاريخية) وكأنها مخطط لها أن تكون بهذه الصيغة وان تبدو موافقة مع صياغته التي يرسمها ويصورها . .

والشيء الآخر من اشتراطات التدوين التاريخي ، وهذا ما نبّه إليه بشكل خاص العلامة ابن خلدون في نقده لطرق المؤرخين التقليديين السابقين (في مقدمته الشهيرة) أن لا تكتب الرواية التاريخية وتصاغ التقولات على الآخرين إلا ضمن اشتراطات :

أولهما : تدعيم تلك الروايات بالتوثيقات والمستندات .

ثانيهما : أن لا يبتعد تدوينها عن وقتها وحدوثها كان يحتفظ بها بعض الأشخاص سنوات طويلة ، ثم ينتهزوا الفرصة المناسبة لكي يحرروها وينشروها !

وهذا من الأخطاء الشائعة التي ألفها التدوين التاريخي ، وخصوصاً عندما كتب عن الزعماء والأنظمة والسياسات والدول والصراعات والحروب الخ

الحيادية والموضوعية:

ثمة شيء آخر ضمن هذه الاشتراطات وخصوصاً في التدوينات السياسية للأحداث والوقائع الساخنة أو الوطنية أو البطولية لكي لا تتخذ عند البعض من المدوّنين صوراً تمجيدية من المفاخرات ! وهذا ما سمي (بالنسيب) ، وهنا لا يمكن أبدا الاعتماد على المقابلات والحوارات الشفوية والمذكرات التي يستعرض بها البعض أمجاده ومفاخره لوحده دون أن يذكر ما عند الآخرين من أنشطة وأدوار وفعاليات . . لان الأمانة العلمية والتاريخية تقتضي إعطاء كل ذي حق حقه من تلك الأدوار . (وعليه نؤكد على طلبتنا نحن المؤرخين العرب الحدثين وخصوصاً طلبتنا في الدراسات العليا أن لا يعتمدوا على مثل هذا النوع من المواد اليتيمة التي فيها تسجيل لأنواع من المفاخرات والبطولات أو فيها معلومات خطيرة غير مسندة لاكثر من مصدر) .

إن التدوين التاريخي لابدّ أن يلازمه التوثيق الرسمي بشكل خاص ، إذ كثيراً ما نجد

اليوم كتباً تتحدث باسم التاريخ وخصوصاً التاريخ المعاصر تتضمن معلومات أحادية الجانب وغير موثقة ، وقد اعتمدت على راو واحد فقط . . هذا الراوي يضيف من عنده منتحلاً أو مدلسا لمعلومات أو أقوال أو استشهادات أو أوصاف أو تهم . . . . . كونها ادعاءات تأتي من اجل مغنم ما أو هدف معين أو تاريخ شخصي خاص ! وقد كثر الانتحال ، وهو التقول على الآخرين شيئاً أو نصاً أو قولاً أو قصيداً أو حادثة الخ وهو ما لم يقله صاحبه الأصلي ، وهذا منتهى الخلل عند أصحاب هذا « التدوين » . . أما التدليس فهو يشابه الانتحال ولكن للمدون إن كان يحمل صفة التدليس ، فهو قادر على تشويه النصوص والأقوال والأخبار حسب ما يراه هو نفسه إذ لا يرى الحقيقة التاريخية ذات وجه واحد ، وانما يراها من اوجه مختلفة وهذا ذروة الخطيئة في عملية التدوين التاريخي . .

لماذا لم يستفد هيكل من قصة مايلز كوبلاند؟

لقد اعتمد هيكل في ايراد اتهاماته لكل من الملك حسين والملك الحسن الثاني على دوافع متعددة ، ملتقطا بعض المعلومات التي قال بها بعض الكتاب الاسرائيليين والامريكان . . وأسس ـ مع الاسف ـ كل أحكامه الخطيرة دون ان يفكّر لماذا أقدم بعض الكتاب الغربيين على القاء التهم على بعض الزعماء العرب في القرن العشرين . . وما هي دوافعهم وغاياتهم وأهدافهم ؟ ويدرك هيكل ان عددا من الزعماء العرب وبعض الاسر الحاكمة قد نال منها ومنهم اولئك الكتّاب الذين لا يتورعون عن نسج القصص والاكاذيب واختلاق المعلومات التي لا تستند الى أي توثيقات او مستندات كالتي يطالب بها المؤرخ المختص كي يستكشف الحقيقة من ثناياها . . لقد اعتمد الكاتب على بعض اولئك الكّتاب والصحفيين الذين جعلهم في مصاف الاسطوريين ، وغابت عنه مرتكزات أساسية في طبيعة الكتابة التاريخية التي يتحّرى صاحبها عن الحقائق بصعوبة بالغة وبوثائق دامغة ! علماً ان مايلز كوبلاند ألّف كتاباً كاملاً . . . ولم يختلق خبراً رخيصاً !

شبيه الشيء منجذب إليه !

ولا أدري كيف فاتت على هيكل قصة مايلز كوبلاند التي جاءنا هيكل نفسه بها في واحد من اهم كتبه والموسوم : سنوات الغليان ، الجزء الاول المطبوع بالقاهرة سنة ١٩٨٨ . .

فمن يتحرّى الملحق الوثائقي الذي ضمّه الكتاب المذكور، فسيقف في صفحات ٨٠٨ الى ٨٢١ على قائمة ومضامين مجموعة مراسلات مايلز كوبلاند .. ذلك الكاتب الامريكي الذي تعلمنا ما جاءت به مراسلاته في كتاب هيكل نفسه انه كتب وارسل عدة رسائل الى الرئيس جمال عبد الناصر بواسطة هيكل وغيره مستغلا الظروف كي يبتز عبد الناصر بتأليفه كتاب عنه كما هو شائع .. يقول هيكل : ان « خطاب من مايلز كوبلاند الى الوزير المفوض سمير أحمد بالسفارة المصرية في لندن ذلك الوقت، وهو بتاريخ ١٥ سبتمبر ١٩٦٩ وفي الوقت الذي ظهر فيه كتابه « لعبة الامم »* وفيه يروي نواياه الحقيقية كما يتصوّرها من الكتاب كما يعرض خدماته . وأهم شيىء في هذا الخطاب العبارة التي يقول فيها « ان أحد كتاب الاثارة وأسمه أندرو توللي قد تسرّع في جمع مواد لكتاب « يثبت » فيه ان عبد الناصر بدأ انقلابه وهو عميل للمخابرات المركزية، وان المصريين كانوا يأوون ضباطا نازيين بالتواطؤ مع المخابرات المركزية الامريكية، والكثير من هذا الهراء ! » (هيكل، سنوات الغليان، ص ٨١٠) .

أليس هذا كلامك يا هيكل ؟ أليس هذا الذي يدركهُ جيدا من كتاب غربيين لا هم لهم الا ابتزاز زعماء عرب على وجه الخصوص ؟ ألم يعرف الكاتب أن هناك كتّاب اثارة وكتاب تلفيقات وكتاب أعداء .. ؟؟ ألم تثبت نصوص الرسائل المرسلة من مايلز كوبلاند ضمن ملحق وثائقه .. ألم يصف تهديداته ومساوماته بالهراء ؟ ألم يكتب هيكل بأن في انجلترا نفسها بيعت الطبعة الاولى من « لعبة الامم » بكاملها في ثلاثة أيام ؟ (سنوات الغليان ، ص ٨١٢) ثم ألم تكتب ما جاء به كوبلاند وغيره في رسالته اليك وما تضمنته بأن الصهيونية ومن يتعاطف معها يقفون وراء مؤامرات من خلال كتب وانشطة تلفزيونية واذاعية (سنوات الغليان، ص ٨١٥) ؟؟

---

* راجع اصل الكتاب بالانكليزية :

Miles Copleand, *The Game of Nations* (London: Weidenfeld & Nicolson, 1969).

وقد ترجم الكتاب الى العربية :

مايلزكوبلاند، لعبة الامم اللاخلاقية في سياسة القوة الامريكية، تعريب : مروان خير، ط١ (بيروت : الانترناشنال سنتر، مكتبة الزيتونة، ١٩٧٠) .

ان المقام لا يتسّع هنا لعرض نماذج من قصة مايلز كوبلاند التي عرضتها بنفسك بتفاصيلها ومضامين رسـائله بالانكليزية وترجمتهـا بالعربية . . ولقد آثرت ان أقـدم هذا «المثال» الساطع لأن هيكل نفسه أتى به على رؤوس الاشهاد في واحد من كتبهِ . . ويكفي ذلك دليلا ، اذ أن هناك العشرات من الامثلة والنماذج التي تشابه قصة كوبلاند* جرت لابتزاز زعماء عرب في بلدان عربية لها ثقلها السياسي . . وزعماء عرب لهم ادوارهم التاريخية . وهل فكّرنا قليلا في شأن ما يمكننا أن نأخذه من هذا . . وما لا نأخذه من ذاك خصوصا ونحن نكتب عن زعمائنا العرب مهما بلغت درجة الخلافات بيننا وبينهم !

التوظيف النقدي:

ولعل من ابرز الأمور التي يمتاز بها المؤرخ الحقيقي والمؤلف الجاد كالذي نراه عند أصحاب التخصص من الذين يتحمّلون المسؤولية العلمية في كتابة التاريخ (وخصوصا الحديث والمعاصر) اعتمادهم وتوظيفهم معاً الوثائق والمستندات والأضابير والسجلات والدفاتر والنصوص والمعاهدات الخ مع التزامهم بذكر أرقامها وتواريخها وأماكن وجودها كاملة غير منقوصة . . إن هذا ما يفتقده أولئك الذين لا يوثقوا أخبارهم ولا يعتمدوا الشروط الأساسية للأمانة العلمية . إن الخطورة تكمن هنا ليس بالنسبة لمن يتعرف عليهم من أبناء النخبة الذين يعملون في علم التاريخ لان كشفهم لأولئك الكتاب سهلا ليس باعتبارهم من غير صنفهم ، بل لأنهم من غير الثقاة .

سؤالنا الذي يبحث له عن اجابات حقيقية : **هل كان هيكل موظفا نقديا في كتابته ؟** وهل تحمّل المسؤولية (العلمية) التي نطالبه بها ؟ هل رجع في عموم كتبه ، ولو لمرة واحدة الى أدبيات علمية عربية تعب من أجلها العشرات من الاساتذة الاكاديميين والمفكرين العرب الذين عالجوا بكتبهم واطروحاتهم ومؤتمراتهم ودراساتهم جوانب مهمة من الشؤون العربية في

---

* يعتقد د . مصطفى خليل وهو شخصية مصرية سياسية معروفة تقلّد عدّة مناصب عليا في عهد عبد الناصر وعهد السادات ، بأن كل ما أتى به مايلز كوبلاند في كتابه « لعبة الامم » صحيحاً ! (نقلاً عن تصريحه الذي أدلى به مؤخراً الى أحمد منصور في برنامج تلفزيوني اسمه « شاهد على العصر » ، قناة الجزيرة الفضائية ، مساء يوم ٢٠٠٠/٢/٢٧) .

القرن العشرين ؟ ان مجرد تجاهلها من قبله يضعه في أزمة حقيقية مع المعرفة العربية مهما كانت درجتها من الضعف او النضج ! أما أن نّعول على كّتاب وصحافيين ومعلقين غربيين وصهاينة . . ونلقي عليهم صفات الاسطورية والعظمة والفهم الكامل ، ويستسلم صاحبنا الى مقولاتهم استسلاما كاملا . . فهذا موقف غير مسؤول البتة من مشروعنا النهضوي العربي المعاصر في المشرق والمغرب العربيين .

مكمن الخطورة : الذاكرة لا تحتوي كل الحقيقة !

ولكن أين تكمن الخطورة ؟

تكمن الخطورة في ما ينشره أولئك الكتّاب غير الثقاة على أبناء المجتمع قاطبة وعلى أصحاب القرار خاصة ، كي يؤخذ بما آتو به من التدليسات والانتحالات والنواقص يأخذونها مأخذ الجد دون علمهم بالتحريفات التي تتوزع في كتبهم أو في كتب أولئك الكتّاب من المدونين الذين ليس عندهم غير الاثارة والضجة ، واعتقد ان هيكل لم يفته ذلك ، فهو يعرف حق المعرفة من ذا الذي يستهدف المعرفة ، ومن ذا الذي يعشق الضجيج .

تنقلنا هذه الاشتراطات في عملية التدوين التاريخي إلى تفسير بعض القضايا المبهمة التي لابدّ لكل من يتخصص في التاريخ من استيعابها وفهمها خصوصاً عندما يقرأ مواد تاريخية سواء تلك التي تنتمي لعصره ومعايشته لها ، أم تلك التي مضى على تدوينها سنوات أم عقود من السنين أم قرون أم أحقاب وعصور من التاريخ .

أولا : يؤكد كل العلماء في التاريخ على أن التاريخ الحقيقي لا يمكن أن يؤخذ إلا من مظان السجلات (خصوصاً الرسمية) الرسمية بالنسبة لمن يعاصر تلك التدوينات . . اما إن لم يعاصرها ، وكان قد مضى عليها عهود من التاريخ ، فإن الزمن قد هذبها واذهب زبدها ولم يبق منها إلا ما كمن في أعماقها .

ثانياً : لا يمكن للمؤرخ الذي يدون تاريخاً معاصراً لأمته ، أن يعتمد على ذاكرته فقط ، فالاعتماد على الذاكرة الشخصية خلل كبير في التدوين التاريخي ، لان الإنسان معرض للنسيان . . وان الذاكرة نفسها إذا ما اعتمدت على بعض ما احتفظت به عندما يدون

الإنسان مذكرات ـ خصوصاً إذا كان من أصحاب الشأن ـ حياته فهو مسؤول عنها لأنها تتصل بحياته فقط . . أما الاعتماد على الذاكرة الشخصية في تسجيل ما لم يتصل بحياته فهذا خطأ كبير . وأعتقد أن هيكل مهما أوتي من قوة ذاكرة ، فلا يمكنه ان يستذكر تفصيلات مضى عليها عشرات السنين !

ثالثاً : إن الذاكرة ضد التسجيلات . . وقد شهدنا على امتداد عصور التدوين التاريخي وحتى عند مؤرخين قدماء اعتمادهم على التسجيلات في ضوء الأحداث مهما كانت قديمة وإسنادها إلى أصحابها . . ومن يعتمد على ذاكرته دون التسجيلات ، فثمة خلل كبير قد لا يكشفه إلا من توغل في قراءة المعلومات المكتوبة ومقارنتها وطبيعة العصر وزمن نشرها . ان جملة من النماذج والامثلة التقيناها في تفكيك هيكل !

رابعا : وربما سيكون انموذج هيكل في كتاباته التي ستذكر ضمن نتاج ادبيات القرن العشرين هو المثل العملي في ممارسة الاجيال الثلاثة القادمة في القرن الحادي والعشرين لاجراء المزيد من الفحوصات عليها ، اذ ستبقى معرضة للنقد والدراسة وليس للمتعة والاثارة . . وستتعلم اجيالنا القادمة بأن تحليل أوضاعنا وشؤوننا التاريخية نحن العرب لا يمكن أن تعالج بهكذا طريقة !

المساجلات ضمن المستويات: في الادب لا في السياسة

ثمة مصطلح أو مفهوم آخر لا يمكن اعتماده في التدوين التاريخي ، ولكن اصطلح عليه ومورس العمل به بالتدوين الأدبي . . ذلكم هو « المساجلات » . . فمصطلح المساجلات لغة ومضموناً هو المقابلة الأدبية بوسائل تحريرية يمكن لها أن تكون مراسلة أو حواراً لكن بين أديبين اثنين يتقابلان ؛ وهما من نفس المستوى كي يتساجل أحدهما مع الآخر في الأدب . . وخصوصاً في فن الشعر . أما أن يؤخذ هذا المصطلح لكي يستخدمه هيكل – كما ذكر – وهو يدّون التاريخ عن الحسن الثاني ملك المغرب . . وغيره من الزعماء والملوك والأمراء . . فان الدرجة هنا تختلف بينه وبين أولئك . . ثم بماذا يساجلهم إذا كانت المساجلة أدبية ؟ وعليه ، لم نشهد أية مساجلات بين المؤرخين من طرف وبين أصحاب صنع القرارات من طرف آخر !

لا يمكننا أبدا أن نبتعد عن التوثيق ضمن آليات للتدوين التاريخي ونحن نكتب تواريخ شتى : احداث وعلاقات ومراسلات وتراجم وحوادث في اكبر رصيد كمي من الكتب والمقالات التي تعد بالعشرات (كما نجد ذلك عند السيوطي مثلاً) دون أن يركز المؤرخ جهده وفكره ونشاطه على منجز واحد يستوفيه حقه من كل الجوانب حتى يكون عملاً موثوقاً يمكن أن تعتمد عليه الأجيال .

التاريخ بين السائل والجاري: فحوى التاريخ المعاصر

ثمة مصطلح جديد في التدوين التاريخي ، ذلكم هو التاريخ المعاصر الذي يعتبر من اصعب مهام كتابة التاريخ . ولا يمكننا أن نسميه (التاريخ الجاري) أو كما وصفه هيكل بالتاريخ السائل اذلك لان العمل بالتاريخ المعاصر ينبغي أن يبتعد عن حياتنا لقرابة عمر جيل كامل (٣٠ سنة) . . ذلك لان المعاصرة لا تتصل بنا كجيل أخير ، وانما تتصل بحياة قرن كامل تحتويه ثلاثة من الأجيال .

كيف ؟

يبتدأ التاريخ المعاصر حياته من أول جيل من هذه الأجيال الثلاثة ، فهو في حالة استمرار وتواصل ، فمثلاً اليوم لا يمكن أن نقول بأن التاريخ المعاصر يتمّثل بالثلاثين سنة الأخيرة من القرن العشرين ، لان الثلاثين سنة الأخيرة من القرن العشرين تعتبر حالة : حاضر وواقع فيهما : سياسة ووجهات نظر وأفكار وأيديولوجيات ليس الكتابة عنها تاريخاً أبدا . ان التاريخ المعاصر يبتدئ من حيث يعي رجال شيوخ اليوم كانوا قد عاصروا الحرب الأولى في مطلع حياتهم وحتى منتصف القرن عندما بلغوا الستين سنه فالستين سنه هي معاصرة لأن هناك شهوداً أحياء عليها* . . وماعدا ذلك فلا يمكن لآخر جيل أن يسمي نفسه بمدّون للتاريخ المعاصر وكل ما يكتب اليوم عن أحداث جرت في عقود الستينات والسبعينات والثمانينات والتسعينيات . . فهذا ليس بتاريخ معاصر .

---

* التفصيلات في : سيّار الجميل ، المجايلة التاريخية : فلسفة التكوين التاريخي (سبق ذكره) ، ص ٧٥ - ٧٦ .

قد يكون المؤرخ الذي يدون تاريخاً مسهباً في كتابته وعمله ونشاطه وتدويناته . . ويكون أمينا وموثقاً لأنه رجل اختصاص ، يدرك طبيعة التدوين التاريخي ويدرك ان كان يكتب تاريخاً خطيراً أم تاريخاً عاديا . . لكنه لا يقارن أبدا بمن يتطفل على التاريخ والتدوين التاريخي وهذا الأخير لا يدرك طبيعة التوثيق ولا يدرك خطورة التاريخ ولا يدرك تأثير الكتابة التاريخية على الأجيال القادمة خصوصاً إذا ساق معلومات ذكرت لأول مرة .

من خلال متابعتنا للمدونات التاريخية قاطبة منذ فجر التدوين التاريخي العربي الإسلامي حتى يومنا هذا . . نلحظ صنفين من الكتاب والمؤرخين . . يبتعد هذان الصنفان عن صنف ثالث . فالصنف الاول نقلي حر في سرده للأحداث والنصوص وما شابه ذلك للتراجم . . والصنف الثاني عقلي نقدي يأتمن على الحادثة ، يحلل النص ، يتورع من ذكر ما لم يكن متأكداً منه ولا يغالي ولا يتهم ولا يدّعي* . . هذان الصنفان يقفان إزاء صنف آخر ثالث بعيد عن طبيعة التدوين التاريخي وهذا الصنف لا نقلي ، ولا عقلي فهو أما أن يكتب أحاديث سياسية أو مقالات أدبية أو مذكرات شخصية أو يوميات عادية الخ . . . . . والخطورة تكمن في هذا الصنف الأخير الذي يريد أن يعد نفسه من المؤرخين ويبرر كتاباته على أنها تاريخ جاري وتاريخ سائل وما شابه ذلك من التعريفات خصوصاً إذا ما كتب أمورا خطيرة تخص سياسات دول وقرارات زعماء وشخصيات عليا .

الأساليب الحديثة :

(الأمر الأخير) ، نعرف أن كل هذا يتصل بمجمل التدوين التاريخي على امتداده الطويل بدءا بالطبري وانتهاء إلى عصرنا . فالتدوين التاريخي في العصر الحديث دخلت عليه الوسائل الحديثة وهي غير الوسائل التي كانت معروفة سابقاً ، ومنها : الصحافة ، والإعلام والمنشورات السياسية والحزبية والكتب العامة والذكريات الشخصية . . وهنا يجب أن نعلم بأن لكل هذه الوسائل خطورتها الشديدة على التدوين التاريخي . وعليه ، لا يمكننا أبدا أن نعتبر مقاله صحفية مادة تاريخية ولا نعتبر خبراً صحافيا مادة موثقة . ولا نعد خبراً إذاعياً

---

* التفصيلات في :

Franz Rosenthal, *Knowladge Triumphant: The Concept of Knowladge Medieval Islam* (E. J. Brill & (Lieden, 1970), pp. 56 - 98.

يدخل ضمن إطار التدوين التاريخي . . فالمسالة معقدة ، اذ أن الاشتراطات تقضي بالرجوع أصلا الى ما هو رسمي في الدلالة والمعلومة والسند والشاهد الحي وبدون ذلك لا يمكننا الاعتماد على الإعلاميين والسياسيين والكتاب العاديين ونعتبرهم ضمن قافلة المؤرخين .

وأخيرا :

ننتهي أخيرا ، إلى أن التدوين التاريخي معرفة وعلم ونقد وتوثيق وتسجيل حي له شواهد واصول ومنهجية ومصطلحات . . وهو لا يتصل لا بذاكرة معينة ولا بأيديولوجية خاصة ولا بشخص معين لأنه ملك للجميع يتحرى صاحبه الحقيقة ، ولا يمكن أن يحتكر من طرف واحد على حساب الأطراف الأخرى .

ولا بد لي من الاشارة وانا انتهي من هذا « المبحث النقدي » ، بأننا نحن العرب عندما نكتب في تحليل شؤوننا المعاصرة وتواريخنا القريبة ـ بوجه خاص ـ لابد من التعويل على مصادرنا ومرجعياتنا . . كما علينا ان نثق بالمجهودات العلمية العربية التي أثرت على مدى خمسين سنة من حياتنا الفكرية والمعرفية على الرغم من هناتها ، وبرغم اعتمادنا على ما يكتبه غيرنا عنا . . فليس من السهولة الاطمئنان الكافي للنتائج التي توصلوا اليها ، وخصوصا ما يتعلق بالمسائل الخطيرة في حياتنا السياسية والاجتماعية والفكرية .

كما ان العرب على عموم ساحتنا الواسعة ، لابد ان يحترم أحدهم الاخر بعيدا عن المغالاة والمكابرة والتزمت والتعصب والديماغوجية القاتلة والقطرية الضيقة . . ثم التشدق بالشيء والعمل ضده . . . الخ متمنيا على الاجيال الثلاثة القادمة في القرن الحادي والعشرين ، ان تبدأ صفحة نهضوية جديدة في استقلالية الذات ، واحترام البعض للبعض ، وانتعاش روح الثقة . . والتخلّي عن الاطنابات والتوصيفات والشكليات والانشائيات والمغالاة في المديح الفارغ او الذم الرخيص* .

---

* من الاهمية بمكان ، مراجعة الاعمال التالية لتعزيز أفكاري ونقداتي وآرائي في هذا « الفصل » :
- محمد احمد حسين ، الوثائق التاريخية ، القاهرة ، ١٩٥٤ .
- عبد الله العروي ، العرب والفكر التاريخي ، بيروت / الدار البيضاء ، ١٩٨٣ .
- قسطنطين زريق ، نحن والتاريخ ، بيروت ، ١٩٧٤ .

ثانياً: الملك الحسن الثاني: تهمة خطيرة

مقـالة بعد الرحيل :

كتب هيكل مقالته عن الملك الحسن الثاني ، ونشرتها مجلة « وجهات نظر » في حلقتين اثنتين ، ضمنها أربعا من مفكراته - هكذا سمّاها هيكل - عن الملفات الملكية التي أراد نشرها واخراجها بعد وفاة الملكين الحسين بن طلال والحسن الثاني ؛ وكم كان الأجدى أن ينشر مفكراته كاملة دون نقصان قبل وفاة الزعيمين المذكورين . . . . كما كان كاتبنا مسهباً في تحليله شخصية الملك حسين ومقالاته في ذلك في إعطاء اكثر من صورة غير حقيقية - كما اعتقد - أبدا عن الملك حسين ، جاء الآن بمقال مسهب آخر عن الملك الحسن الثاني بعد وفاته سماه بـ « المعلوم والمكتوم في دور الملك الحسن وسياساته » ، وتناول فيه ثلاث مفكرات من ثلاث زوايا مختلفة :

إحداها : عن اوجه الشبه والتقارب بين الملكين العاهلين المذكورين ، وقد غابا عن عرشهما في كل من الأردن والمغرب ورحلا قبل أن يسدل آخر عقود القرن العشرين أستاره .

والثانية : عن ذاكرة ملك وذاكرة صحفي في « مساجلة » - هكذا أسماها - عندما كتب هيكل ذاكرة صحفي مساجلا الملك الحسن الثاني في ذاكرة ملك أثناء حياته ، قبل عدة سنوات .

والثالثة : كانت تسجيلاً لوثائق خرجت من إسرائيل - هكذا يدّعي هيكل - منسوبة إلى احدى الدوائر الاسرائيلية والتي ضخمّها هيكل كي يسميهّا بـ « أعلى المستويات » ، قالت فيها ان الملك الحسن الثاني سمح للموساد أن تتسّمع على مناقشات مؤتمرات القمة العربية منذ عام ١٩٦٥ !!

المعلوم والمكتوم:

يبدو أن هيكل كان يترّصد وفاة الملك الحسن الثاني لكي ينشر ما كان مكتوماً في صدره ! وبمجرد كتابة عنوان مقالته بـ « المعلوم والمكتوم . . . . » ، فقد أثار الشكوك حول ما

كتب ، ليس كل ما كتب ، فالمعلوم الذي كتبه معروف عند الناس عن الملك الحسن الثاني وثقافته ولغته وأسلوب تفكيره ، ولكن المكتوم في صدر هيكل هو الذي يثير علامات الاستفهام من وجهة النظر النقدية والأخلاقية قبل السياسية والتاريخية ! ذلك لان التهمة التي نشرها هيكل ضد الملك الحسن الثاني خطيرة جداً ، ولا يمكن المرور عليها دون معالجتها نقديا ، ذلك لان التاريخ أمانة ، ولابد أن يكون للحقيقة وجه واحد لا عدة وجوه - كما يريد تفسيرها - . .

لقد ذكرّتني مقالة كاتبنا عن الملك الحسن الثاني « المعلوم والمكتوم . . . » بكتاب كنت قد قراءته منذ اكثر من خمس وعشرين سنة أسمه : « **المعلوم والمجهول** » ، وهو كتاب رصين ، ذلك الذي ألفّه السياسي المصري المناضل والداعي إلى الحرية السياسية ولي الدين يكن ١٨٧٣ - ١٩٢١م عندما كان أسيرا منفياً من قبل السلطان عبد الحميد الثاني في قلعة سيواس . . ولكن شتّان بين الثرى والثريا . . . . وشتّان بين كتاب ولي الدين يكن في كتابته ضد حكم السلطان واستبداده - كما وصف ذلك الأحرار ومنهم ولي الدين يكن - على عهد السلطان نفسه . . وبين مقالة هيكل الصحفي العربي الشهير الذي نشر مكتومه ضد الملك الحسن الثاني بعد رحيل الاخير . . واذا كنت ربما اختلف من الناحية الفكرية مع أسلوب حكم هذا الزعيم أم ذاك ، أو أسلوب ومنهج هذا المؤلف أو ذاك . . . . إلا أن تدوين المعلومات التاريخية الخطيرة التي فيها اتهامات تحرق الأخضر واليابس . . . . لا يمكن تقبلها دون أن تواجه من ينشرها على الناس كحقائق مسلم بها !!

المفكرة رقم (٤): توظيف خاطئ في غير محله

سأتوقف عند المفكرة رقم (٤) في « **مفكرات في ملفات ملكية** » والتي كان عنوانها الثانوي بالمانشيت العريض : الحسن الثاني : قرأ ميكافيللي أميرا وطبق آراءه ملكا ! فما هي إلا مقدمات أرادها هيكل أن تكون ، لمضمون المفكرة رقم (٤) . . . وقد عرفنا ما خصصه في كل مفكرة من مفكراته . . وقد استعرض في المفكرة رقم (٣) جملة من نماذج بيانات وبرقيات وإعلانات ومانشيتات صحف اغلبها صدر في إسرائيل عند وفاة الملك الحسن الثاني ، ويقدّم هيكل هذا كله بعبارة قال فيها : « عندما أعلن عن وفاة الملك الحسن يوم

٢٣ يوليو الأخير (١٩٩٩) كانت ردود الفعل في إسرائيل عاجزة عن السيطرة على النفس ، وكذلك أدى الإعلان عن وفاة الملك إلى خلل في التوازن أعقبته لحظة تحولت إلى ثغرة تدفقت منها دون تحسب أشياء طال الحرص عليها وتمكن الحذر . وهكذا فان التعبيرات انفلتت إلى حد الاعتراف على مستوى الحكومة الإسرائيلية وهي مسؤولة ، وعلى المستوى الإعلامي الإسرائيلي وهو لسوء الحظ أكثر مصداقية من غيرة في المنطقة! » (وجهات نظر ، ١١/٩)

التهمة الصهيونية اليتيمة:

وهذا أمر معروف يا هيكل بالنسبة لإسرائيل في إعطائها الأهمية لوفاة زعيم كالحسن الثاني . . . كما فعلت بالنسبة لبقية الزعماء العرب في وضع كل واحد منهم عند وفاته في المكان الذي تراه مناسباً ، ولكن اخطر الأمور التي يسوقها لنا كاتبنا عن ذاك الذي نقله عن تقارير صحفية نشرت خلال ٢٤ ساعة فقط في صحف معينة ثلاث ، نقلت واحدتها عن الأخرى تصريح أمير اورين (مسئول صهيوني بارز في الموساد) ، صرح في مقابلة مع جريدة معاريف يوم ٢٦ تموز/ يوليو ١٩٩٩ بأن « الملك الحسن الثاني سمح للموساد بأن تتسّمع على النقاشات التي دارت بين الزعماء السياسيين والقادة العسكريين في العالم العربي ، وذلك أثناء مؤتمر قمة عربي عقد في الرباط (في مكان قادم يذكر هيكل الدار البيضاء !) سنة ١٩٦٥ ، وكان موضوع البحث الرئيس فيه هو خطط القيادة العربية الموحدة في المواجهة مع إسرائيل ولابد من الاعتراف أن هذا التسّمع كانت له نتائج مخابراتية هامة في الجهد الذي أدى إلى انتصار إسرائيل في حرب الأيام الستة سنة ١٩٦٧ » . . .

هذه « المعلومة » اليتيمة نقلتها المراسلة الصهيونية دبيورا سونتاج كي تنشرها في اليوم نفسه بصحيفة « النيويورك تايمز » يوم ٢٦ يوليو / تموز ١٩٩٩ . . . ثم يتلقفها أريك سيلفر ، وهو واحد من اشهر الصحفيين الصهاينة ، لكي ينشرها في اليوم الثاني في صحيفة « الاندبندنت » البريطانية يوم الثلاثاء ٢٧ يوليو/ تموز ١٩٩٩ .

الآن . . حكاية لصهيوني صاغها بإحكام في تصريح لمناسبة رحيل الحسن الثاني تنشر صباحاً في إسرائيل ، وتنشر مساء في امريكا ، ثم تنشر في صباح اليوم الثاني في بريطانيا!

وهي تتداول على لسان ثلاثة صحفيين ولكن أصلها يمتد لواحد منهم نجح في سبك أو طبخ هكذا خبر طازج يمكن أن يستمع اليه الملايين من الناس ولدوافع شتّى يعرفها كاتبنا تمام المعرفة .

إننا ندرك تمام الإدراك انه كان للملك الحسن الثاني علاقات مع إسرائيل ، وقد كان قد استقبل شيمون بيريز في مدينة ايفرن المغربية منذ عام ١٩٨٤ . . . وهو يصرّح بذلك ويجهر به ولا يخاف أحدا . . . . وان في المغرب أقلية يهوديه لا يستهان بها . . . . . ولكن اتهامه بهذه التهمه كونه عميل للموساد الاسرائيلي دون أية اثباتات ومصوّرات ووثائق ومستندات للادانة لا يكفي أبدا . . وأن الخبر انتقل في غضون ٢٤ ساعة من إسرائيل الى الغرب . . لا يعني مطلقا أنه بخبر صحيح البتة ! واذا كان أمير اورين وجوزيف الفر ويوسى ميلمان قد كتبوا في الصحافة عن قوة علاقة إسرائيل بنظام الملك الحسن الثاني ، فلابد أن نقف على ما يثبت تلك « الأقوال » و « الاتهامات » بشكل رسمي ! وهل كانت لمؤتمرات القمة العربية أسرار خفية ، ومشروعات وخطط وخطب عامة فماذا استطاعت إسرائيل الاستفادة منه ؟ إن من السهولة بمكان على إسرائيل أن تحضر خفية إلى داخل قاعة المؤتمرات للقمة العربية بواسطة صحفيين أو مراسلي وكالات أنباء!! كما كان قد ذكر هيكل في أكثر من مكان في كتبه .

حكاية لها توقيت من قبل ثلاثة صهاينة:

هذه « الحكاية » التي جاءت في ثلاث صحف على مدى ٢٤ ساعة ، اطلّع هيكل ، لا لكي يتحقق من مدى صحتها أم خطئها ، برجوعه – إن استطاع – إلى وثائق رسمية تثبت ذلك بل إلى شهود إسرائيليين صهاينة . . . ولكن لربطها بحكاية وسيناريو غير قابل للتصديق هو الآخر حتى من قبل عبدالناصر نفسه ، من اجل إثبات أن ما قاله ثلاثة صهاينة هو صحيح ! كتب هيكل قصته والتي لم يذكرها مطلقاً قبل وفاة الملك الحسن الثاني من اجل أن يؤكد ما قاله الصهاينة الثلاثة . . . . . فبدأ هيكل يكتب قصته بعد سماعه هذا « التقرير » العابر (والذي لم نسمع به نحن ولم تتناقله لا الصحف العربية ولا الأجنبية ولا الإذاعات أو محطات التلفزيون) ، وهو « تقرير » بحاجة إلى مراجعة بحثية للتأكد من نشره

فعلاً في كل من إسرائيل صباحاً وأمريكا مساء وبريطانيا في صباح اليوم التالي ! ؟

أصل الحكاية عند هيكل:

يقول هيكل : « كانت الواقعة كما نشرتها - في كتاب الانفجار ١٩٦٧ » بداية من الصفحة رقم ٢١٢ حتى ٢١٤ - ثم اكتلمت تفاصيلها بعد ذلك بداية من الصفحة ٣١٤ حتى ٣١٦ تتلخص في أن « مؤتمر القمة العربي الذي انعقد في الدار البيضاء في سبتمبر ١٩٦٥ - بحث مشروعا سوريا (قدمه رئيس الدولة حينئذ اللواء أمين الحافظ) يطلب قرارا عربيا على مستوى القمة يطالب بـ « التصميم على خوض معركة تحرير فلسطين معتمدين بعد الله على مقدراتنا وإمكانياتنا مهما كلفنا ذلك ومهما كانت النتيجة » - ثم ان هذا المشروع السوري مضى بعد ذلك إلى تحديد للقوات العسكرية القادرة على تنفيذ هذه المهمة . . والذي حصل وقتها أن مؤتمر القمة العربي وقد استمع إلى عرض سوري للخطة واطلع على أوراقها وجداولها ورسومها لم يصدر بشأنها قرارا ، ولعله وجدها بالغة الصعوبة إقليميا ودولياً . واهم من ذلك عمليا - ومن ثم ظلت المناقشة مفتوحة ومعلقة في الهواء . ولكن المهم أن هذا الموضوع عرض فعلاً ونوقش في اجتماع على مستوى القمة العربية في الدار البيضاء في سبتمبر ١٩٦٥ (**وجهات نظر** ، ١٢/٩ - ١٣) .

وقبل أن انتقل الى موضوع آخر يتعلق به ، فلقد اطلعت على ما كتبه هيكل في كتابه « **الانفجار** » ١٩٧٦ ، ص ٢١٢ - ٢١٤ ، ويتضح من ذلك ما يلي :

١ - أن الجلسة السرية المغلقة بين الملوك والرؤساء العرب جاءت بناء على طلب من الوفد السوري .

٢ - إن الرئيس السوري حينذاك اللواء أمين الحافظ ألقى كلمة بناء على طلبه كما جاء على لسان الرئيس جمال عبد الناصر ، وقد سأل الحافظ عما فعله القائد العام للقيادة العربية الموحدة الذي كان قد كلف في مؤتمر الاسكندرية (نهاية ١٩٦٤) ببحث مطلب تحرير فلسطين ، وهو الآن يريد أن يسأل القائد العام عما فعله بهذا القرار ؟

٣ - رد الفريق علي علي عامر القائد العام - ويبدو انه كان حاضرا - بأن القيادة أعدت

خطوطاً عريضة بمطلب التحرير « ولكنه للأمانة يريد أن يسجل أن هذه الخطوط العريضة نوع من التجربة النظرية ولا يجب تحميلها اكثر » . (الانفجار ١٩٦٧ ، ص ٢١٣) .

٤ – راح الفريق بعد تلقى ألامر من الرئيس عبد الناصر يقرأ بحرج واضح مشروع قرار كتبه بخط يده .

٥ – اورد هيكل في كتابه (الانفجار ١٩٦٧ ، ص ٢١٤ – ٢١٧) هذا المشروع النظري .

٦ – بعد أن فرغ علي علي عامر من قراءة تقريره ، ساد صمت في قاعة المؤتمر قطعه عبد الناصر بقوله : « إن رؤساء الوفود الذين سمعوا الآن هذا المشروع وما فيه من اقتراحات مفصلة يحتاجون إلى دراسة لما احتواه . . . . » (الانفجار ١٩٦٧ ، ص ٢١٧) .

٧ – علق أمين الحافظ قائلاً : « انه تمسك بضرورة بحث هذا المشروع واقراره (الانفجار ١٩٦٧)

٨ – هنا قال هيكل بالنص : ثم اقترح الملك الحسن أن « الأمر يحتاج إلى دراسة وبحث عميقين . وان هذا لا يمكن أن يتم على أساس سماع رؤساء الوفود لهذا المشروع الذي قدمه القائد العام بناء على ضغط شديد وقدمه وهو يقول مقدما انه تجربة نظرية ، وان القمة لا تستطيع أن تعطل كل أعمالها في انتظار بند واحد ، ولهذا فهو يرى أن يواصل المؤتمر جدول أعماله ، وأهمها . . . . . .» (الانفجار ١٩٦٧ ، ص ٢١٧) .

الفهم المشترك بين الحسن الثاني وجمال عبد الناصر :

بعد هذه الآراء التي كتبها هيكل على ألسنة كل من الرئيس جمال عبد الناصر والرئيس امين الحافظ والملك الحسن الثاني . . . . بدا وكأن لم يكن هناك مشروعا استراتيجياً خطيراً قد تقدمت به القيادة العامة التي اعترفت بان تلك الخطوط مجرد « تجربة نظرية » . . . . وقد بدا عبد الناصر مستخفاً بها ، وبدا الحسن الثاني لا يقيم حتى لمناقشتها وزنا بمطالبته الانتقال إلى مناقشة ما تضمنه جدول الأعمال !

الأمر الآخر الذي غفل عن ذكره هيكل ما كتبه في الصفحات التالية من كتابه « الانفجار ٦٧» ، وفيه يصف بقاء الرئيس جمال عبد الناصر في ضيافة الملك الحسن الثاني بعد انتهاء المؤتمر ومغادرة الرؤساء ارض المغرب ، والعلاقة الحميمة التي ربطت الزعيمين . . .

والاهم من كل ذلك تعليقات الرئيس جمال عبد الناصر عندما انتقد بعض الزعماء العرب وهو في اجتماع مع الملك الحسن الثاني ، قائلاً : « انه من سوء الحظ ان بعض الزعماء العرب لا يفرقون بين « القدرة على الحلم » و « القدرة على الفعل » ثم تحدث الحسن الثاني في امور شتى مع عبد الناصر حول أوضاع المغرب الداخلية وان لا مستقبل للمغرب دون المشرق ، منتقدا النظام في سوريا ومزايداته في الحرب ضد إسرائيل قائلاً بالحرف لعبد الناصر انه « على صلة مباشرة بعدد من أقطاب الجالية اليهودية في المغرب ، وانه يعرف أن بعضهم له علاقة وثيقة مع اليهود المغاربة الذين هاجروا إلى إسرائيل . . . .

وهو لا يعترض طريق هذه العلاقة لاسباب متعددة ، بينها انه يعتبر ان اليهود المغاربة الذين هاجروا إلى إسرائيل ما زالوا يحتفظون بجزء من ولائهم للمغرب ، وهذه نقطة مفيدة خصوصاً وانها تعطي للملك فرصة لمتابعة ما يجري في إسرائيل عن قرب . ومن متابعته لما يجري في إسرائيل فهو يشعر انهم هناك يتسلحون من الرأس إلى أخمص القدم ، وهناك قوى تساعدهم بل وتحرضهم وان كانوا هم ليسوا في حاجة إلى تحريض . والذي يقلقه فيما يراه أمامه من مزايدات عربية هو انه يخشى ان يكون البعض - بدعوى الحماس - يلعبون ، دون ان يشعروا ، لعبة إسرائيل ، وهذا يقلقه كثيراً » . .

هذا نصّ ما نقله هيكل على لسان الملك الحسن الثاني(الانفجار ٦٧ ، ص ٢٢٢) ودون ان يكون هناك لا مشروع استراتيجي لتحرير فلسطين ، ولا خطة هجومية . . . . يمكن ان تكون بوزن كالذي جاء به نفسه اليوم ليبالغ ، وهو الذي ذكره في كتابه دون غيره من الناس !

عودة الى التهمة الجديدة :

نتابع ما قاله هيكل الان في مقالته الجديدة بعد اكثر من أربع وثلاثين سنة على مؤتمر قمة الدار البيضاء سبتمبر ١٩٦٥ ، واقل من عشر سنوات على إصداره الطبعة الاولى من كتابة « الانفجار ٦٧» ، فماذا كتب اليوم ؟ كتب قائلا : « ثم كان الأهم بعد قرابة سنة من اجتماع الدار البيضاء - ان لقاء جرى بين جوزيف بروز تيتو زعيم يوغسلافيا ورئيسها في ذلك الوقت ، وبين الرئيس جمال عبد الناصر ، وفوجئ جمال عبد الناصر بصديقه اليوغسلافي يقول له بالحرف (كما رويت على صفحة ٣١٤ من كتاب الانفجار

١٩٦٧) . . . . . هل صحيح انتم وضعتم خطة عسكرية للقضاء على إسرائيل أثناء انعقاد مؤتمر القمة العربي في الدار البيضاء في العام الماضي ؟ (وجهات نظر ، ١٣/٩) وبطبيعة الحال يشرح هيكل هنا في مقالته وفي كتابه الانفجار كيف اندهش عبد الناصر وكيف روى له تيتو قصة ناحوم غولدمان رئيس الوكالة اليهودية يومذاك والذي ابلغه بها . . . . . وكيف وصلت إلى اسرائيل . . . . . (وجهات نظر ، ١٣/٩) .

فحص للنص من جديد:

دعونا نرجع إلى كتاب الانفجار لهيكل لنفحص النص من جديد ، إذ ان الرجل قد نقل ما كان قد كتبه في كتابه المذكور هنا في مقالته ، ولكن بتفاصيل اكثر ، وبتضخيم أوسع . ان المهم – لدينا – هو رأي عبد الناصر الذي قال فيــه مجيباً على ما ســره إياه تيتو : « انه يعرف ان هناك ورقة من هذا النوع طرحت على مؤتمر الدار البيضاء وان هذه الورقة كتبت نتيجة مزايدات سياسية ، ولكنها لم تتحول إلى قرار من قرارات القمة » ثم أضاف (والكلام لهيكل والعهدة عليه) : ان « أول من يعرف ان ذلك كان مسار الموضوع هو الولايات المتحدة الأمريكية التي كان لها كثيرون من الأصدقاء في المؤتمر . ومن الناحية العملية فهم اول من يعرف ان هدف القضاء على إسرائيل يتعدى حدود الامكانيات العربية في الحاضر وفي المستقبل المرئي » (الانفجار ١٩٦٧ ، ص ٣١٦) .

نتابع أيضا ما كتبه هيكل ، إذ يقول : « وبينما كان جمال عبد الناصر ، لا يزال يواصل محاولته في الشرح ، كان الشعور بالدهشة قد انتقل منه إلى ملامح تيتو الذي سأله مرتاعاً : هل يعني ذلك بالفعل أنكم وضعتم هذا الكلام على ورق ؟ وراح جمال عبد الناصر يحاول إعطاء تيتو فكرة عن أجواء المزايدات العقيمة التي تجري احياناً بين العرب ، وكلها مزايدات خطابية عاجزة عن الفعل ، . . . . » (الانفجار ، ص٣١٦) (وأنا بدوري اتمنى على القارىء التأمل قليلا في العبارات الاخيرة) وبعد استطرادات بين الزعيمين . . . . عاد عبد الناصر يقول لتيتو : « صدقني ان هذه كلها ، سواء من إسرائيل أو من الولايات المتحدة ، عمليات تصّيد ، فهم يعرفون الحقائق بأكثر مما تقول به أي ورقة يذهب بها إليهم عميل من عملائهم هم يستعملون هذه الورقة وسيلة من وسائل تحقيق اهدافهم بما فيها التأثير على اصدقائنا

مـثلك ، وكل مـا اتمناه ان لا تبـتلعـوا هذا الطعم حـتى وان بدا لكم انه طعم حـقـيـقي » (الانفجار ١٩٦٧ ، ص ٣١٦) .

ماذا نستنتج نحن الان ؟

وماذا يمكننا الخروج به من – خلال مقارنتنا لما جاء به هيكل اليوم بما كان قد جاء به قبل عشر سنوات (في كتابه الانفجار ١٩٦٧) عن تهم لا يعرف مصدرها الحقيقي . . ودعوني اكتب ملاحظاتي آلاتية من وجهة نظر نقدية تاريخية :

١ – ثمة اختلاف واضح ليس بين الروايتين ، فهي رواية واحدة ، ولكنها نشرت في سياقين مختلفين ، أولهما لا يعرف أبدا مصدر التقولات ، وثانيهما إلصاق التهمة بملك المغرب دون أي مستندات !

٢ – لقد بدا من خلال مقارنة النصوص والأقوال (التي جاء بها هيكل نفسه) على لسان جمال عبد الناصر نفسه ، وصياغتها لاول مرة ، من ان ما سمي بـ « المشروع » أو « الورقة » التي بحث شأنها في مؤتمر الدار البيضاء امام الملوك والرؤساء العرب ، انها ورقة هزيلة لم يرتح المؤتمرون جميعاً حتى لمناقشتها وفي مقدمتهم الرئيس جمال عبد الناصر نفسه! فلماذا اصبحت تلك « الورقة » اليوم على زعم هيكل واتهاماته التي يعتمد فيها على ما تروّجه صحيفة معاريف الصهيونية : « مشروعاً استراتيجياً عربياً » تسرب إلى اعداء العرب وفي مقدمتهم إسرائيل بطبيعة الحال !

٣ – السؤال : إذا أراد اولئك الاعداء اليوم ان يوظفوا مثل هكذا «ورقة» لالصاق تهمة معينة أو مجموعة من التهم بموقف زعيم عربي معين ، فلماذا لم يذكروها قبل رحيله اولاً ؟ ولماذا لم يدعموا تهمتهم بمستندات رسمية تفيد ان زعيماً عربياً معيناً قد اوصلها لهم ؟

الى متى نبقى أسرى عمليات تصيّد الاعداء ؟

هكذا نتوصل الى بعض الامور التي لابد ان يتحكم العقل العربي بها كي نشكّل مرتكزات قوية لنا بحيث تتولد الثقة بيننا نحن العرب سواء على مستوى الزعامات ام على مستوى النخب ام على مستوى الجماهير . . وذلك بعد عقود طويلة من الصراعات والقاء

الاتهامات والتجريح . . ونحن نعرف ان أول المستفيدين هم اولئك الذين يتصيدون اوضاعنا وأحوالنا التي عشنا عليها ردحا من الزمن المر . . وان المرحلة القادمة في القرن الحادي والعشرين ستختلف لا محالة عن المرحلة التي عشناها في القرن العشرين . . وان جيلا جديدا سيلوم كل اولئك العرب الذين ساهموا بانقسامات الامة وتأجيج تشظياتها ، وزراعة الشكوك ، والقاء التهم ، وفضاء المزايدات ، واللعب بالعواطف . . نرجع الى بعض الامور :

أولا : لابد لنا ان نتأمل ما قاله الزعيم عبد الناصر معلقاً على ما حكاه تيتو له وكيف انتهى به الموقف ازاء تيتو الذي نقل إليه الخبر : ورقة نعم لكنها كتبت ضمن مزايدات سياسية ! معنى ذلك ان لا فائدة ترجى منها ! وهي مزايدات خطابية عاجزة عن الفعل .

ثانياً : اقتناع عبد الناصر نفسه اقتناعاً راسخاً ان هذه كلها ممارسات للأعداء التاريخيين لنا نحن العرب بوصفه لها بـ « عمليات تصّيد » ! إذ انهم يعرفون الحقائق باكثر مما تقول به أي ورقة يذهب بها عميل من عملائهم وهم يستخدمون هذا الأسلوب كورقة ضغط على العرب واصدقائهم .

ثالثاً : ان عبد الناصر نفسه يدرك - كما علمته تجربته الصعبة - بطبيعة الزعماء العرب ابان مرحلتي الخمسينيات والستينيات ، عندما يشير وهو يتحدث مع الملك الحسن الثاني « انه من سوء الحظ ان بعض الزعماء العرب لا يفرقون بين « القدرة على الحلم » و « القدرة على الفعل » . . . . . ويبدو ان عبد الناصر من خلال معرفته للملك الحسن الثاني بشكل اكثر في مؤتمر الدار البيضاء ومحادثاته المنفردة معه عقب ايام المؤتمر في مصيف ايفرن ، بأن الحسن الثاني كان من زعماء الصنف الثاني (القدرة على الفعل) وليس من صنف زعماء الصنف الأول (القدرة على الحلم) عند العرب !

رابعاً : يبدو واضحاً ان ليس هناك اذن مشروع استراتيجي عربي كان سرياً للغاية من اجل تحرير فلسطين ، إذ لم يكن الا محاولة تنظيرية تقدم بها علي علي عامر على استحياء ، ولكنها لم تلق أي اهتمام . . . . فليس من المعقول ابدا يا هيكل ان يقوم زعيم عربي ، وأي زعيم مهما كانت درجة علاقته بالموضوع ان يحملها ليسلمها الى اعداء امته بهذه السهولة ! .

خامساً : لا يمكن لمحمد حسنين هيكل ان يتناسى كل ما أتى به في كتابه « الانفجار ١٩٦٧ » أو غيره من الكتب ، وهو يتحدث عن جواسيس إسرائيل في المنطقة العربية ، وجذور التجسس الإسرائيلي في بعض البلدان العربية . . . . .

قصة الجواسيس في البلاد العربية :

ومحمد حسنين هيكل نفسه قد اطلعنا في كتابه « الانفجار » عن قصة ايلي كوهين الذي عاش في سوريا بصفة رجل اعمال عربي من الارجنتين وجاء بصفة صديق للرئيس السوري امين الحافظ ، باسم كامل أمين ثابت ، وكيف اكتشف أمره واعدم ، وبقي لسنوات يسرب الأخبار السياسية والعسكرية من اعلى المستويات السورية إلى إسرائيل (الانفجار ، ص ٢٧٨ - ٢٨٨) . كما وكتب هيكل في كتابه نفسه قوله : « على طول الستينات كانت شبكات التجسس في مصر وعليها حلقات متصلة ، تنكسر منها حلقة فإذا وراءها حلقة اخرى » (الانفجار ، ص ٢٨٠) .

ويقول أيضاً : « ولقد تكشف الان ان عددا من جواسيس إسرائيل ، ومن أصول أوربية وامريكية ، حصلوا على بطاقات هوية من صحف عالمية ، وجاءوا إلى مصر تحت ستار انهم مراسلون صحفيون ، وسعوا إلى مقابلة عدد من الشخصيات . . . » (الانفجار ، ص ٢٨١) أينسى هيكل كل هذا الذي كتبه لكي يصدق ما تقوله اشاعة رخيصة نشرتها صحيفة معاريف في إسرائيل اليوم ، ويأتي ليتهم أحد الزعماء العرب بعد وفاته بهكذا خبر وورقة ! ؟ انني لا يمكنني ان اصدق ابداً ان يقوم أي زعيم عربي يمثل هكذا عمل . . . ومهما قيل ويقال من اتهامات تلصق بهذا الزعيم أو ذاك في القرن العشرين ، اذ أعتقد أنها كلها عارية من الصحة ، واذا صدق معتقدي هذا فاتمنى ان يثبته التاريخ في يوم من الأيام !

متى يتخلص العرب من خطايا الانقسامات ؟

ان المشكلة الحقيقية كامنة في تفكيرنا نحن العرب ، فما دام هذا أو ذاك قد اختلف مع سياسة ونهج وخطط هذا الزعيم أو ذاك ، فهو يجري دوما ، لكي يلصق به التهم !! ولعل أخطر التهم التي يتلقفها اللاوعي الجمعي العربي هي تهمة الخيانة والتجسس والعمالة !

واعتقد انه منطق ساد حتى في تفكير عدد من الزعماء العرب أنفسهم في ان يلصقوا مثل هكذا تهم لمن يخالفهم سياستهم وتوجهاتهم وأستراتيجياتهم ! والمشكلة بطبيعة الحال مركبة ، ذلك لان المستفيد الأول من هكذا تفكير سائد العرب هو إسرائيل والأعداء التاريخيين للامة العربية تاريخاً وحاضراً ومصيراً . .

لقد تراقصت إسرائيل على امتداد نصف قرن من حياتها أي منذ تأسيسها حتى اليوم على اشاعة ما يغذي هذا التفكير الذي تختلط فيه التهمة والمؤامرة في ان واحد وعادة ما تستخدم إسرائيل هذا « الاسلوب » ضد اولئك الزعماء العرب الذين يعتقدون جميعاً بعدوانها التاريخي ، وضد اولئك الزعماء العرب الذين يواجهونها باشتراطاتهم واهدافهم من اجل الحقوق العربية . . وثمة روايات مؤكدة تقول بأن يد اسرائيل طالت حياة بعض الزعماء العرب بوسائل الاغتيال أو القتل البطيء من اجل ان لا تنفذ استحقاقاتها لهم ، أو ان لا يواصلوا مشروعاتهم ضدها !

المسألة الاخرى: اتهامات هيكل المريرة

المسألة الاخرى التي جاء بها هيكل اليوم ضد الملك الحسن الثاني ، والتي لم اجد لها أي ذكر في كتابة « الانفجار ١٩٦٧» ، وكأنها أضيفت اليوم ، من اجل إكمال صورة الاتهام التي رسمها للحسن الثاني ، جاء فيها : « ان جمال عبد الناصر الذي فوجىء بما سمع من تيتو استطاع على الفور ان يدرك صحة المعلومات التي وصلت لاسرائيل ، وقدر خطورتها (قارن بين مشاعر عبد الناصر التي كانت للرجل التي كتبها هيكل في الانفجار ، وكيف جعل هيكل الان مشاعر عبد الناصر وتقديره لخطورتها !) » . . . . . يكمل هيكل قائلاً : « ومن الغريب ان شكوكه - وقتها - اتجهت إلى الجنرال أوفقير وزير الملك الحسن القوى والنافذ خصوصاً في مجال المخابرات - لكنه لم يرد على باله ، ولا حتى كهاجس او كابوس - ان المشكلة فوق أوفقير واعلى منه ، وان الموساد - كما يظهر الان من شهادات الساسة ووسائل الإعلام الاسرائيلية في مناسبة رحيل الملك الحسن - كان لها مركز تنّصت وتسّمع على كل كلمة تجري في اجتماعات ومداولات ملوك العرب ورؤسائهم في الرباط » .

ويستطرد هيكل ليقول اليوم ما لم يقله في الانفجار ليكمل إلصاق التهمة : « والأغرب

– والاشد مدعاة للتأمل الان – هو ان جمال عبد الناصر رأى ان يصارح الملك الحسن أثناء مؤتمر القمة العربي في الرباط سنة ١٩٦٩ بأن هناك أخبارا تتسرب من المغرب إلى إسرائيل. والأكثر في المفارقة ان جمال عبد الناصر أمضى إلى الملك الحسن بشكوكه في وزيره القوى محمد أوفقير !! » (وجهات نظر ، ١٣/٩) .

لقد زاد هيكل من مشكلته التي بدأت معه منذ زمن طويل . . لقد اصبح اليوم يجد فكرة المؤامرة في تفكيره ، لكي يجمع الخطوط بعضها بالبعض الاخر ويربطها بصعوبة كي يستخرج عنها قصة قد يتخيلها مرة أو يهندسها بذكاء مرة أخرى . . . . بعيدا عن أي تفكير يتسع لكل المديات مقاربة لتفكير محدد . . وأنه يريد بشتى الطرق صياغة الكراهية لاناس يعرفهم حق المعرفة على امتداد حياته ، جالسهم وعاصرهم مرارا وتكرارا . . . . وما ان غابوا ورحلوا عن الحياة حتى يبدأ بنسج القصص عنهم والاتهامات ضدهم . .

المشكلة مركبّة: نسيج من (الفبركة)

وان مشكلته مركّبه ، ذلك لانه يعتمد على ما يقوله الاعداء التاريخيين لنا وللعالم ضد هذا الزعيم العربي أو ذاك ؟ فالذي يقرأ ما كتبه هيكل في كتابة « الانفجار » عن هذا « الموضوع » ويقارنه بما كتبه اليوم عن الموضوع في « وجهات نظر » فسيجد انه التقط خبراً مفبركاً اسرائيلياً لكي يربطه بموضوع تيتو وعبد الناصر ، ولم يبق على ما كتبه بل يجرده من الامانه ، كونه موضوع لم يعره عبد الناصر الاهمية ، بل جاء لان ليكتب متقولاً بان الموضوع هو استراتيجي وخطير ، ويأتينا برواية جديدة تقول بأن عبد الناصر فتح الموضوع مع الملك الحسن وأنه أفضى بشكوكه له في وزيره أوفقيرَ !

وكي يزيد هيكل روايته ويضبط تهمته ضد الملك الحسن الثاني (الذي لا اعتقد بأن الرجل كان قليل الجرأة وقليل التجربة في ان يعلن عن علاقاته وارتباطاته مع الاخرين جميعهم) ، بنقله ورقة محاولة تنظيرية كتبها علي علي عامر لا تقدم ولا تؤخر ، ولم يعرها الزعماء العرب جميعهم أي اهتمام . . . . . ينقلها إلى إسرائيل باعتبارها مشروعاً استراتيجياً خطيراً لتحرير فلسطين ! واعتقد من خلال مقارنة هكذا موضوع معاصر بمواضيع تاريخية تدارسناها في تواريخ زعماء ومسؤولين في تاريخ العالم ، خصوصاً تاريخ أوربا المعاصر ، أن أي

تهمة مثل هذه ان ذاعت ضد أي زعيم أو مسؤول ،فان الدنيا تقوم ولا تقعد لان الامر يتصل بحياة الامة وتاريخها ولا يتصل بسياسة الدولة ونهجها فقط !

نعم ، ولكي يزيد هيكل الصورة التي رسمها ضد الملك الحسن الثاني ويجّملها بالرتوش ، مشاركاً ما يقوله بعض الإسرائيليين الذين عودونا على مدى خمسين سنه كيف يصرحون يوما بشيء وكيف يصرحون في اليوم التالي بشيء اخر . . . ولقد كان بنيامين نتناياهو خير مثال على احتراف الديماغوجية السياسية اولاً ونقض الاقوال ثانياً . .

زيادات في التهم: مغالاة ضد من؟ ولمصلحة من؟

دعونا نسمع هيكل ما يقوله وقد اقترب من نهايات نسج اتهامه ضد الملك الحسن الثاني : « وربما انه الان فقط يمكن لاي متابع مهتم بالشأن العربي ان يسمح لنفسه بالتساؤل على الاقل - عن أسباب الحرص الزائد للملك الحسن على استضافة اكبر عدد من مؤتمرات القمة العربية والاسلامية التي تتعرض مناقشاتها بالضرورة للصراع العربي - الإسرائيلي في ذلك الوقت - ثم يلحق بذلك ما يقال ألان صراحة وعلى لسان اكبر المسئولين واكثر المعلقين في اسرائيل ان جهاز الموساد كانت لديه في قاعات اجتماع القمم العربية والاسلامية وسائل تنّصت وتسمع . أي ان جهاز الموساد كان طرفاً حاضراً في هذه الاجتماعات وان لم يكن مرئياً - مشاركا فيها وان لم يفتح فمه بكلمة وهذه مصيبة بأي معيار ! » (وجهات نظر ، ١٣/٩) .

امعقول هذا الذي يكتبه محمد حسنين هيكل اليوم ؟ امعقول هذا الذي يريد ان يزرعه من الاوهام كثوابت من الحقائق ؟ امعقول يصل تفكير الرجل إلى هذا « الحد » من القاء التهم على الاخرين ؟ والمصيبة انه يشارك الاعداء الاسرائيليين ما يقولونه دون ان نعلم منهم انفسهم ان الذي يقولونه صحيحا أم كاذبا ؟ ودون ان نعلم لماذا كان توقيت ذلك يتلازم ويتزامن مع ما كانوا يذيعونه ؟ لماذا يحاول هيكل ان يكتب ما ينسجه له خياله ، ويهندسه له تفكيره دون ان يتّثبت من الامر بالمستندات الرسمية ؟ ذلك ان التاريخ لا يرحم اولئك الذين يتهمون الاخرين سواء كانوا من الزعماء المسؤولين أم من المواطنين العاديين !

ما الذي يريد هيكل التوصل إليه من اطلاق هكذا أحكام تستبقها قصص وحبكة من الروايات والأقوال والنصوص من اجل التمهيد لها . . . . ثم تصوير التهمة وكأنها حقيقة ثابتة بحجة ان للحقيقة اوجه عدة التي طالما عاد وكررها هنا ثانية ! ربما اختلف أو اتفق مع هذا الزعيم أو ذاك ، من الناحية السياسية ، ولكن لابد ان يطيل المرء النظر ويعيد التفكير مرات ومرات يحاول جمع كافة القرائن والادلة والشهادات لاقامة الحجة على المتهم - وهذا هو عرف القانون في احقاق الحق - . . . . فكيف يأتي هيكل وبكل سهولة وبساطة لكي يردد بعض ما صّرح به احدهم أو ما اطلق له ثانيهم . . . . . فيسوق تهمة خطيرة ومركبة تتعدى الموقف السياسي أو الايديولوجي إلى النطاق التاريخي والمصيري ليس لزعيم ممثلاً بشخصيته وحده ، بل لامة كان يحكمها قرابة (٣٧) سنة ، وبرغم رضا شعبه عنه أو معارضته لنظامه . . . . فقد سجل ذلك الملك تاريخاً متنوعاً واصل به تاريخ نظام له عراقته وتاريخ دولة لها أعرافها وتقاليدها من حكم ابائه واجداده له !

التاريخ سيكشف كل شيىء !

ويبقى وسيبقى تفكير المؤرخين والنقاد والدارسين منشغلاً في البحث عن حقائق زعيم مثل الحسن الثاني ، وان توقفوا يوما عند التهمة التي رّوج لها اليوم هيكل ، فسوف يسألوا سؤالي : ما الذي يريده محمد حسنين هيكل من وراء ذلك ؟ وسواء تعاطف ذلك المؤرخ أو الدارس مع عهد الحسن الثاني أو لم يتعاطف فان حياديته وموضوعيته ستجعلاه يبحث عن بعض القرائن والاثباتات . . ولكنه - كما اعتقد - سيكتشف أن وراء هيكل يكمن شيئاً معيناً أراد إحضاره مباشرة وفجأة بعد رحيل الحسن الثاني ، وبنفس الأسلوب الذي اتبعه في كتابته عن شخصية الملك الحسين ! هذا « الشيء » الذي ربما يدركه اليوم بعض العقلاء المحققين من المفكرين والقادة والزعماء وحتى المواطنين العرب ، سيفصح عنه الزمن عاجلاً أم اجلاً ! فالامر لا يقتصر على ثنائية هيكل وتفكيره أو سايكلوجيته في حبه للآخرين أوكراهيته لهم . . . أي ليس بما هو واضح تمام الوضوح في اعمال كاتبنا ومواقفه ووجهات نظره ، بل هو اعمق واخطر من ذلك بكثير ! .

ان الغريب وقد اقترب هيكل من اكمال قصته في « المعلوم والمكتوم » يقدم عددا قياساً من المؤتمرات التي عقدت في المغرب ، ويعلق بأن « لم تستطع دولة عربية ان تتحمل بتكاليفه أو بمسؤولياته » (وجهات نظر ، ١٣/٩) سواء كانت تلك المؤتمرات عربية أم اسلاميه !

نعم! الفهم قبل الحكم

ولكن لنتأمل ما قاله كي يبرر قليلا ما كتبه : « وبرغم ذلك فانه قبل الذهاب بالوقائع والافكار والتأملات بعيداً وواسعاً فلابد ان نستدرك جميعاً لتنبه إلى ان هناك مطلباً ضرورياً قبل كل شيء وبعد كل شيء ، وهو مطلب الفهم قبل الحكم - في حالة الملك الحسن كما كان أيضاً في حالة الملك حسين - (وجهات نظر ، ١٣/٩) وأنا اسأل هيكل : هل حققت عشر معشار هذا « المطلب » لكي تتثبت قبل ان تطلق حكمك ؟ وقد جئت الينا بتهم خطيرة لا يمكن ان يتصورها أي مؤرخ درس طبائع الزعماء والمسؤولين على امتداد التاريخ سواء لدى الامة العربية أم لدى الامم الاخرى : جئت الينا كي تتهم الملك الحسن والملك حسين وانت دون أي مستندات أو قرائن أو وثائق أو شهادات شهود أو ثبوتيات ادانة لإيضاح البينات على ما تدعّيه ضد الزعيمين المذكورين ا؟ وقد قال لي أحد الزملاء من المؤرخين العرب الكبار : انها نفس عادة هيكل ضد غيرهما من الزعماء العرب خصوصاً !

لقد تغيرت العقليات !

باختصار : لقد كان مضمون مقالتك « المعلوم والمكتوم » تشويه حقيقي لتاريخ طويل لا يخص المغرب الاقصى لوحده فقط ، بل انه تشويه متعمد لتاريخنا المعاصر نحن العرب في القرن العشرين . . . وسيقول التاريخ كلمته في يوم من الايام ! ونعيد ونكرر . « لمصلحة من ما تكتبه يا هيكل ضد هذا أو ذاك ؟ أتمنى صادقاً ان يكون لمصلحة امتنا العربية وبناء مستقبلها؟ واعيد واكرر : ان تاريخ العرب في القرن العشرين لا يحتكره أحد ، ولا يمكن ان يكون نحن الاوصياء عليه . . فثمة اجيال قادمة ستأتي ، وتقول كلمتها في كل الذي حدث وصار وكتب ! فضلا عن ان الزمن تطور والوعي اتسع والمعرفة زادت . . عما كان عليه الحال قبل ثلاثين أو ستين أو تسعين سنه من القرن العشرين عند العرب ، فلم يعد هناك من يريد ان يفرض سطوته أو رأيه أو أيديولوجيته أو دعايته باساليبه التي تعودها أو مارسها !

وعليه ، لم تعد المسألة أحادية الجانب ، فالآراء متعددة والوعي بتعددية الأمور والأشياء يتنامى يوما بعد اخر في مشاكلنا السياسية أو أزماتنا الفكرية أو أساليبنا التاريخية . . . . . ولم تعد جماهير الأمة تنساق وراء التضليلات أو الخطابات أو الاشعار أو الهتافات والشعارات ! ولم يعد كل من الفكر والتفكير العربيين قابعاً في مكانة وراء أيديولوجية محددة المضامين ، أو منشورات حزب أو تيار غريب العناوين ! واذا فات على بعض النخب والفئات من الجماهير العربية ما يقوله هذا أو يدعيه ذاك . . . . فنحن نفهم بعضنا بعضاً . . . . لا من اجل تسويد صفحة هذا الزعيم وتبييض صفحة ذاك ، فالمسألة اكبر من السياسة أو الدعاية أو الحب أو الكراهية ، أو حالة الوقوف مع أو ضد !!

المسألة تاريخية ومعرفية:

ان المسألة تاريخية ومعرفية قابلة لاستيعاب الجدل لا الجدال ، والنقد والتدقيق لا الإثارة والتمجيد وعرض الخصال ، فضلاً عن البحث في المنهج والرؤية والتفكير . . . . وباسلوب مهما تضمن من الخلافات واحتوى من الاختلافات ، فلا يمكن ان يبتعد عن مستوى معين من الاخلاقيات !! وعلى الإنسان ان يدافع عمن يخالفه الرأي ! ويكفي العرب زرع الشقاق وروح النقمة والكراهية في ما بينهم ! ويكفي العرب جلدهم لانفسهم ولاخوانهم . . . وتشويه تاريخهم ، والاستعانة بشهادات الأعداء عنهم ! ويكفي هيمنة القوي على الضعيف ، واستلاب المواقف ، وتشويه المراكز والاطراف ! يكفيهم ما جنوه من التفكير في التآمر والتخوين . . . وتثوير العواطف واشاعة الدعايات ، وكفاهم من ذاك الذي يكتبه مزورو التاريخ وملفقو التهم ومدلسو الأحاديث . . . . . فمتى نحترم بعضاً بعضاً . . . . مواطنين وزعماء . . . . نخباً وجماعات ؟؟

وبعد كل هذا وذاك ، فلا بد نختتم هذه « الجولة » بنص قاله هيكل : « وفي النهاية فإن هذه المسافة بين ما هو « مثير » وما هو « مؤثر » - هي بالضبط المساحة المتروكة كي يقيم فيها التاريخ قضاءه وينطق باحكامه ، أو ربما يظهر ان الكلام عن التاريخ في العالم العربي تهويل لا تتحمله الأحوال الراهنة فيه » . (**وجهات نظر** ، ١٠/١٧) .

المؤثر فينا بديل عن الإثارة لدينا:

بهذا « النص » اختتم هيكل مقالته المطولة التي جاءت بسبع فقرات عن الملك الحسن الثاني ، واذا كنا قد ناقشنا اخطرها على الاطلاق نظرا لما احتوت عليه من التهم ، فسنعالج ما جاء ببعض مفكرات هيكل من الآراء والتهم والحكايات . . . . . ولكنني آثرت ان أبدا هذه « الجولة » بالنص - اعلاه - الذي كتبه هيكل في نهاية مقالة على استحياء وكأنه يعرف ان ما كتبه ليس بتاريخ ابدا ، ولكنه كلام مثير يتحرك في مساحة له ، لكي يكون هو نفسه قاضياً ينطق بالاحكام على مسيرة الزعماء العرب الذين لا يستطيع البته الاقتراب من بعضهم لرعبه منهم ، في حين انه يزجى بالأخبار البسيطة والحوارات المرضية لبعضهم كونه من أصدقائهم . . . . . ثم يجعل نفسه قاضياً على الجميع بعد موتهم ورحيلهم عن المسرح ، فيكيل عليهم (احكامه) . . . .

وحسناً منه انه اعترف في اخر سطر كتبه في مقالته عن الحسن الثاني انه : « ربما يظهر ان الكلام عن التاريخ العربي تهويل لا تتحمله الأحوال الراهنة فيه » - كما يقول - وهو يعترف ان كتابة التاريخ العربي علميا ومنهجياً ومعرفياً وتوثيقياً شيء وان الكلام عن التاريخ العربي بكل ما فيه من انفلات وعموميات وحكايات وأقاصيص شيء آخر ! وان هذا « الكلام » - كما يراه - تهويل لا تتحمله الأحوال الراهنة فيه . . . . لقد صدق انه تهويل ، ولكنه لم يصدق عندما قال بأن التهويل لا تتحمله الظروف الراهنة !! فالتهويل - وهو يعلم - لا ينفع لا في الظروف الراهنة ولا غير الراهنة !

ثالثاً : المغرب الأقصى : الدولة والمجتمع

التاريخ المغاير عند هيكل:

جاءت مقالة هيكل عن الملك الحسن الثاني في قسمها رقم (٢) تحت عنوان جديد : « الحسن الثاني : قرأ ميكافيللي أميرا وطبق آراءه ملكا ! » . (**وجهات نظر** ، ٤/١٠ - ١٧)

ويبدأ هيكل بالجغرافية والتاريخ معتقداً انهما ضروريان ، الأولى لفهم طبيعة أي بلد وطبائعه الاستراتيجية التي تحّرك سياساته عموما ، والثاني لازم لفهم طبيعة السلطة في أي بلد ، وفهم طبائع الحكام مهما كانت أتعابهم ! ويظن ان الملك الحسن سواء بقراءاته أو بتجاربه كان قد استوعب دروس الجغرافيا والتاريخ ، فضلا عن قوة اللغة ، وإلمامه بآداب العربية والشعر وكان شغوفاً بالموسيقى وعارفاً بها وبسّلم مقاماتها النغمية ، كما وله باعه في اللغة الفرنسية حديثاً وكتابة اطل من خلالها على العالم دون أي ترجمان .

بتكلم هيكل عن جغرافية المغرب طويلا ينهيه بفقرة يدّعي أن الملك قالها له ، وكأنه يسجل نوعاً من العتب عليه ، يقول : « وفي حديث مع الملك الحسن مرة ، وقد اشتد النقاش في شئون السياسة الجارية وقتها - قال لي ما معناه : « لا تهددونا بإذاعات صوت العرب . مصر لم تغز المغرب أبدا ولكن المغرب غزا مصر وأقام دولة هناك » - قالها الملك وابتسم باقتناع انه سجّل في النقاش نقطة تاريخية لصالحه ! » (**وجهات نظر** ، ٦/١٠)

ولا ادري كيف يشتد النقاش في شؤون السياسة الجارية بين الاثنين ، وكل منهما يعرفطبيعة موقعه ، إلا إذا كان الملك الحسن الثاني قد تناسى الاعتبارات الملكية الخاصة به ، وان هيكل قد تجاوز وهو معه طبيعة البروتوكولات المعتمدة في المغرب الأقصى والمتميزة براسيمها السلطانية القديمة ؟! .

المغرب الأقصى ليس الأندلس : تشويه تاريخي متعّمد

ويتكلم هيكل عن تاريخ المغرب الأقصى ، ليكتب لنا سردا مطولا اغلبه يختص بشؤون

الأندلس الخاصة بتاريخها ، والتي لا علاقة بالكيان السياسي المغربي القديم ، إلا في ظروف ومراحل كان المسرح فيها مشتركا بين الاثنين ! إذ بدأ هيكل يسرد لنا قصة الأندلس الرائعة والحزينة والتجربة الإسلامية العربية هناك - منطلقاً بالقائد موسى بن نصير والامويين ، ثم مرحلة الفرح العربي الإسلامي في الأندلس وقصور الملك التي استحكمت فيها الدسائس بالترف ثم يعرج على الاقتتال الداخلي بين الأمراء ! وقصور الأندلس وتعدد الزوجات ومعه غواية الزواج من أميرات أجنبيات ملونات الشعر والبشرة والعيون ، ويضاف إلى غواية الزوجات الأجنبيات احتمال الاستعانة بسلاح أسرهن الحاكمة من مقاطعات وامارات قريبة إذا دعت الضرورات !

والعادة أن الملك الأندلسي ينشغل بأعباء أو هموم أو مباهج الملك ، وكذلك تقع حضانة الأبناء والبنات على الام ، فهي بالطبيعة متفرغة لهم . وتكون ألام - زوجة الملك الأجنبية - ما تزال مأخوذة بتراثها السائد ، وما تزال مسكونة بدينها الذي تركته للزواج من أمير مسلم أعطت نفسها له تعزيزا لملك أهلها ، ثم يزيد انشغالها بمستقبلها وهي تعلم أن الملك مزواج . وهكذا ينشأ الأبناء والبنات - الأمراء والأميرات - اخوة من أمهات مختلفات ، لكنهم ودون استثناء تقريبا أعداء متنافسون بتأثير تربية كل واحد - أو واحدة - أخوالا في الشمال يتابعون ويراسلون ، ويتحركون كما تقضى مصالحهم وتوازناتهم ، وأمانيهم القريبة والبعيدة . (وجهات نظر ، ٧/١٠) .

هكذا ، يكتب محمد حسنين هيكل تاريخ الأندلس ! وهكذا يختصر تاريخ اكثر من ثمانية قرون بهذه العبارات التي لا عناية لصاحبها الا بزواج العرب للاسبانيوليات !! وكأنه تاريخ لقيط تائه في أوساط الأوربيين ! وليسأله السادة العقلاء : ما علاقة كل هذا أولا بتاريخ المغرب الأقصى أو المغرب العربي كله ؟ إذا كنت لا تعلم تاريخ بلاد المغرب العربي وتاريخ المغرب الأقصى وتتجرد للكتابة عنه ملكا ودولة ومجتمعا فتلك مصيبة . . وان كنت تعرف حتى أولوياته وتريد أن تلغيه لتكتب بدله هذه الفقرات البائسة عن التاريخ الأندلسي فالمصيبة اعظم ! والكاتب - أي كاتب - مسؤول عن كلماته وفحواها . . فهل يعقل ان يكتب عن الأندلس بمثل هذه العبارات ؟

المشكلة المعرفية لدى هيكل:

والمشكلة المعرفية : ما علاقة هكذا مواضيع بتاريخ الملك الحسن الثاني ومفكرات هيكل؟

بطبيعة الحال ، إن هيكل عندما كتب هكذا كلمات وتوصيفات يقصد منها أشياء كثيرة ، لأنه كما قال في بداية مقالته أن « التاريخ لازم لفهم طبيعة السلطة في أي بلد ، وفهم طبائع الحكام . . . . . » . (وجهات نظر ، ٤/١٠) .

سنتعرف من هيكل ، انه قصد أن يكتب هكذا « عبارات » باسم تاريخ المغرب ، ليعلم القارئ بأن طبيعة السلطة فيه وراءها هكذا تاريخ ! وقبل أن انتقل إلى « نصّ » آخر له ، لا بد أن يفهم الرجل بأن العرب المسلمين قاطبة سواء كانوا من الملوك والسلاطين أم من الرعايا العاديين ما ذهبوا إلى مكان في هذه الأرض سواء في الشرق أم المغرب بصفة حكام وملوك أم تجار ودعاة أم رحاله وطلاب علم ، أم متصوفة وأدباء أم فقهاء وسائحين . . . . إلا واختلطوا بسكان تلك البلاد وتزاوجوا معهم وقد استوطنوا بلادهم ، وكانت تلك من الوسائل السليمة في نشر الإسلام في آسيا وأفريقيا وشبه الجزيرة الايبرية ، فلا عيب في ذلك ، ان كنت ترتاع من انفتاح العرب القدماء على الشعوب !

وعليه ، فإن العرب المسلمين عندما عمّروا الأرض اختلفوا عن الأوربيين المستعمرين الذين لم يختلطوا بالناس وعاملوهم باستعلاء من فوق بل واضطهدوهم وانعزلوا عنهم !! وتلك كانت فلسفة العرب والمسلمين في مفهومهم الذي جسّدوه في فلسفتهم العالمية بـ « دار الإسلام » ؛ وحبذا لو أطلعت على أطروحة المستشرق الفرنسي المعروف أندريه ميكال الذي حلل هذا « الجانب » المضيء الوضيء من ميراثنا الزاهر ، وسمّى أطروحته تلك بـ « الجغرافية الانسانية عند العرب المسلمين »* . . فليس عيبا أن يتصاهر العرب مع غيرهم ، ولم يكن هذا هو السبب في انحلال الملك في الأندلس ! هكذا ، نقلنا هيكل إلى موضوع تاريخي عن الأندلس ، أعتقد أن ليس له أي حاجة هنا ونحن نتحدث عن المغرب الأقصى في عهد الملك الحسن الثاني !

---

* Andre Miquel, *La Geographie humaine du monde Muslman Ju squ milieu de ll siecle* (Paris: Mouton, 1973).

من أجل فهم تاريخي للأندلس!

ولكن من أجل أن يفهم هيكل تاريخ الأندلس، نقول:

لقد ظهرت في المجتمع الأندلسي الذي انتقد هيكل حكامه وامراءه وزعماءه بزيجاتهم بالأوربيات، طبقة اجتماعية واسعة يتمثلها « المولدون » من آباء عرب مسلمين وأمهات أوربيات اسبنيوليات.. وكان لتلك « الطبقة » ميزاتها ومستوياتها، وظهر من بين مولدي الأندلس العديد من العلماء والفقهاء والشعراء، ومنهم: ابن حزم الأندلسي وابن شهيد وابن طفيل وابن زيدون وغيرهم..... وهؤلاء وغيرهم كانوا من أبناء الناس العاديين، إذ لم يكونوا من الأمراء أو الزعماء أو الخلفاء.. أما أن تجعل هذا العرف الذي مارسه العرب وعدد من المسلمين في أصقاع الدنيا سبباً في الاقتتال والصراع وتحمله مآسي الأندلس واحزانها بتأثير الغواية عند الأسر الحاكمة وتتهم حكامها بالمزواجين.. وقد نسيت خلفاء الدولة الأموية في الأندلس، ونسيت زعماءها القديرين، وعمالقتها من المولدين وغير المولدين الذين أثروا ثقافتها وبنوا حضارتها..

ان كل ذلك تدليس لا يقبله الذوق ولا يستوعبه من له باع قليل من المعرفة التاريخية.... وأن كل الذي تحكيه مشوّهٌ في التاريخ الأندلسي، وهو لا علاقة له لا من قريب ولا من بعيد.. لا بالحسن الثاني ولا ببقية زعماء المغرب وسلاطينه عبر تاريخ المغرب الأقصى الحافل ليس بسلالات الذين حكموا وخدموه في السياسة وبناء الدولة، بل صنعوا منجزات حضارية خلاقة على امتداد اكثر من ألف سنة ونيف من حياة تاريخنا العربي الإسلامي!

القصة الأندلسية الحزينة: ماعلاقتها بالموضوع؟

ويستطرد هيكل قائلاً: « وتعاقبت الدول صراعات دامية في الأندلس وفي المغرب، وهو القاعدة الخلفية والمرتكز الرئيسي لكل القصة الأندلسية سواء في ذلك روائعها أو أحزانها. كان الأندلس والمغرب شبه مسرح تاريخي واسع جرت عليه مواجهة إنسانية وحضارية هائلة تداخل فيها الصوت والصدى، والفعل ورد الفعل، والنصر والهزيمة، والنور والظلم. وهكذا فانه عندما غربت شمس العرب والإسلام عن الأندلس كان الليل خفي

المغرب موحشاً وفي قلب الخوف وبرجاء الانتصار عليه ظهرت في المغرب دولة المرابطين ، ثم لحقتها دولة الموحدين ، لكن الفجر كان ولا يزال بعيدا ، وليل الحزن الأندلسي يمزق نفسه بألسنة الحريق ، والحقد ، وسيال الدم المسفوح .

وفي هذه الوحشة فقد كانت اشد الجرائم عنفاً وغلاظة هي تلك التي اشتهرت بوصف « محاكم التفتيش » والتي أطبقت على المسلمين ، ومعهم اليهود الذين استظلوا بحماهم على ذلك الطرف القصي من القارة الأوربية هرباً من قساوة مسيحية القرون الوسطى وضيق افقها . وأمام حملة الرعب من محاكم التفتيش بدأ النزوح من الأندلس إلى المغرب . وكما كان المغرب هو القاعدة والمرتكز في قصة الأندلس الرائعة عند بداياتها ، فإنه اصبح المهرب الملاذ في القصة الحزينة عند النهايات . وكان المسلمون العائدون من الأندلس (من العرب والبربر) راجعين إلى المغرب ضمن التوالي المحتمل للنصر الهزيمة . واما اليهود الهاربون إلى المغرب من الأندلس فقد كانوا في مسار سياق من نوع اخر ، يكاد يكون ظرفاً تاريخياً ذاته» (وجهات نظر ،١٠/٧)

ملاحظات معرفية ونقدية:

ثمة ملاحظات على« النص » اعلاه :

١ - ثمة كلام مزوق تختلط فيه عبارات وكلمات جميلة صيغت بأسلوب أدبي مع عبارات تاريخية ولكن فيها هروب من التاريخ إلى شيء ما لا يعلمه إلا تفكير هيكل . . أو اصبح هيكل يكتب أي كلام ! .

٢ - لماذا هذا الخلط المبهم بين تاريخ إقليمين جغرافيين مختلفين برغم جيرتهما . . صحيح أن ثمة أشياء كانت مشتركة بحكم الاقتراب الجغرافي ، ولكن ليس كما جاء في توصيف هيكل ! .

٣ - لكل من تاريخ المنطقتين الإسلاميتين : الأندلس والمغرب سياق مختلف عن الآخر ، بل ومتباين عنه . . . . صحيح أن ثمة شراكة حضارية وثقافية بين الطرفين ، إلا أن الكيانات السياسية في الأندلس منذ ولادتها هي غير الكيانات السياسية في المغرب الأقصى ، وان مسلسل السلالات الحاكمة في كل من الإقليمين قد اختلف في مساره وسيرورته

وسياقاته التاريخية ، اللهم عدا حالة التوحد التي شهدها عصر دولتي المرابطين والموحدين في كلتيهما* .

٤ - إن مراجعة معرفية مبسطة لكتاب المستشرق البريطاني القدير كليفورد ي . بوزورث الموسوم : « السلالات الإسلامية الحاكمة » المنشور في جامعة أدنبره عام ١٩٨٠** ، سيتعلم محمد حسنين هيكل من خلال صفحاته التواريخ السياسية في كل من الإقليمين : الأندلس والمغرب الأقصى ، إذ تزامن إلى مد قريب تأسيس دولتيهما المستقلتين عن الخلافة العباسية : الخلافة الأموية في الأندلس ودولة الإدارسة في المغرب الأقصى .

٥ - وعلينا أن نراقب تسلسل الدول العربية الإسلامية في الأندلس بدءاً بالخلافة الأموية فيها . . ثم انقسامها ، ومبدأ ظهور دويلات الطوائف التي انتهت على عهد أمراء بنو الاحمر ، فغابت الأندلس العربية الإسلامية عام ١٤٩٢م .

وفي حين يشكل تاريخ المغرب الأقصى سلسلة طويلة من الدول التي أطرت خصوصيته على امتداد تاريخ طويل يقترب اليوم لأكثر من ١٢٠٠ سنة ! فلقد بدأت حياة دولة الادارسة عام ٩٨٧م ونحن اليوم في ١٩٩٩م .

البنية التاريخية للمغرب الأقصى:

علينا إذن أن نتصور قيمة البنية التاريخية وخصوصية التكوين السياسي ، وصورة هذا « التشكيل التاريخي » الذي لا نجد مثله في أجزاء أخرى من العالم الإسلامي : لقد كتبت في كتابي : **تكوين العرب الحديث** عن هذا « الموضوع » ودعوني انقل ما كتبته هناك لأهمية ذلك - حسبما اعتقد - وأنا أناقش هيكل في التاريخ : « يعد المغرب الأقصى هو

---

* من الاهمية بمكان قراءة كتاب عبد الله العروي عن تاريخ المغرب الاقصى :

Abdallah Laroui, *The History of the Maghrib: An Interpretive Essay* (Princeton: Princeton University Press, 1977).

وانظر له ؛ بالعربية : عبد الله العروي ، **مجمل تاريخ المغرب** ، ط١ (بيروت / الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي ، ١٩٩٤) .

** Clifford E. Bosworth, *The Islamic Dynasties: A Chroelgical and Genealogical Handbook* (Edinbrugh: Edinburgh University Press, 1980).

النقطة الأخيرة من أقصى غربي العالم الإسلامي والعربي معا ، وباطلالته على المحيط الأطلسي ، فقد عّد من التخوم التاريخية التي وظفّت نفسها بنفسها في المجالات السياسية والاقتصادية على مدى العصور التاريخية الطويلة ، وهو أول إقليم استراتيجي ينفصل عن جسم الخلافة العباسية ببغداد على عهد الخليفة هارون الرشيد إبان عصر العرب الذهبي . ليؤسس له دولة الادارسة ٧٨٩ - ٩٢٦م في محيطه الاجتماعي المتفاعل المقابل للأندلس على الجانب الأوربي .

ثم تأسست فيه ثاني دولة مستقلة على يد المرابطين ١٠٥٦ - ١١٤٧م الذين وحّدوا المغرب ، ثم ظهرت دولة المّوحدين ١١٣٠ - ١٢٦٩م ، وكان كل من المرابطين والموحدين قد امتدوا بدولتهم في أعماق أسبانيا . . ثم تأسست دولة المرينيين ١١٩٦ - ١٤٢٨م التي وحدت المغرب العربي واكسبته خصوصية اجتماعية مشتركة ومتفاعلة بين أقاليمه ، وهي الدولة التي أعطت - كذلك - المغرب الأقصى الشكل التاريخي الذي استقر عليه اجتماعياً وانثربولوجيا ، باعتباره « أمة » لها نظمها وأعرافها وخصوصيتها وسماتها المتميزة . وجاء الوطاسيون إلى حكم المغرب بدولتهم ١٤٢٨ - ١٥٤٩م ، التي ضعفت قليلا ونال منها الأعداء ، إذ احتل كل من الأسبان والبرتغال خلال عهدهم عدة من الثغور الموانئ المغربية .

« ثم جاء السعديون ليحكموا المغرب الأقصى ١٥١١ - ١٦٥٩م . . . . مستفيدين من هجرة الأندلسيين المورسيكيين الذين عمروا البلاد وانعشوا الاقتصاد واوضاع السوق ، وطوروا الصناعات الحرفية . . . . ووقفوا ضد الأطماع البرتغالية ، وامتدوا في أعماق أفريقيا ثم» جاء تأسيس حكم السلالة العلوية للمغرب الأقصى مترافقاً مع بدايات القرن السابع عشر حتى اليوم « ويعتبر كل من الملك الراحل الحسن الثاني وولدم الملك محمد السادس هما آخر الملوك العلويين»*

النتيجة: وماذا بعد؟ من أجل صورة تاريخية مختزلة:

وإنني اسأل : ألم يكن بمقدور هيكل أن يكتب صورة تاريخية مختزلة مثل هذه التي

* سيار الجميل : تكوين العرب الحديث ، ط٢ ، عمان : دار الشروق للطباعة والنشر ، ص ١٣٥ .

أدرجتها في أعلاه عن المغرب الأقصى ، بدل كتابته التي لا يعرف القارئ أين يستقر به التفكير بين ليل الحزن والأندلس والصوت والصدى وقلب الخوف وسيولة الدم المسفوح !! .

ثم ما علاقة محاكم التفتيش التي أطبقت على المسلمين ومعهم اليهود في الأندلس بالموضوع ؟ نعم لقد كان نزوح الأندلسيين العرب المسلمين واليهود إلى ديار إسلامية عدة في المغرب والجزائر وتونس وذهب بعض اليهود ليحتموا بحمى الدولة العثمانية ! لقد كانت سواحل المغرب العربي قاطبة هي المهرب والملاذ في القصة الحزينة عند النهايات . . . وباستطاعة هيكل أن يعتمد على الأدبيات الوثائقية الممتازة التي نشرت من قبل الاستاذ المؤرخ عبد الجليل التميمي في مؤسسته القديرة بتونس ، والذي كتب ونشر عدة أعمال عن الموريسكيين الأندلسيين ، فضلا عن عقده عدة مؤتمرات علمية دولية عن تواريخهم* .

لقد أراد هيكل من الذي أورده عن الأندلس والأندلسيين الموريسكيين أن ينتهي بالقول أن اليهود الذين هربوا من الأندلس إلى المغرب ، كانوا في سياق مسار من نوع يختلف عن المسلمين العائدين باحتمالية النصر أو الهزيمة . . . . أما اليهود ، فإن مسارهم يكاد يكون ظرفاً تاريخياً بذاته! .

اليهود في المغرب: مسألة معقّدة

يريد هيكل أن يصل من بداية ما كتبه عن الأندلس حتى الآن ، إلى نتيجة مفادها بأن المغرب الأقصى يحوي على ثالث أكبر تجمع لليهود في العالم بعد العالم الجديد الذي يضمّ التجمع الأول ، وبعد التجمع الثاني في وسط وغرب أوروبا . . . وأن تجمع اليهود الثالث في المغرب ينتمي إلى السفارديم(أي : يهود الشرق) ومصدره سقوط الأندلس ! ولم يذكر أي مراكز أخرى لليهود وتجمعاتهم في العالم ، وأبرزها : الاتحاد السوفييتي سابقاً ، مع يهود قدماء متفرقين في إيران والعراق ومصر والحبشة واليمن . . . . إلخ ، كما ويقول هيكل بأن « تعداد اليهود في المغرب ما بين ٥٠٠ ألف إلى ٦٠٠ ألف(بعد الحرب العالمية الثانية) » . . (وجهات نظر ، ٧/١٠) .

* من أبرز منجزاته العلمية والتي خدم فيها كل من التاريخ الاندلسي - الموريسكي والتاريخ العربي - العثماني : المجلة التاريخية المغربية والمجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية . . وتأسيسه لكل من مركز سيرمدي CEROMDI ومؤسسة فترسي FTERSI بتونس .

هذه مسألة معقدة في التاريخ العالمي والديني والميثولوجي والقومي ، لم ينجح هيكل في توظيفها علمياً ، من خلال كتابته الموضوع ، أو جعله لها قاعدة معلومات تاريخية يستطيع من خلالها التهجّم على المغرب وتاريخه ، بل قصد بالتحديد مهاجمة الملك الحسن الثاني وسياسته . اذن ، لنتوقف قليلاً عند بعض النصوص التي كتبها هيكل عن اليهود وتقسيماته لهم ، ولا ندري ما هي مصادره التاريخية المعتمدة التي نسخ منها ما قاله وسجله في أدناه :

يقول الرجل : « وفي قرون تالية ، ومع انتشار يهوديّ حول حوض البحر الأبيض المتوسط ، وهو بؤرة التجارة العالمية في تلك الأزمنة - وربما إلى الآن - فإن المغرب أصبح أكبر مراكز تجّمع اليهود في العالم ، ولعله الثالث في الترتيب :

- **الأول** : تجمع يهودي مهاجر(ما بين ٥ إلى ٦ ملايين الآن) في العالم الجديد ، أي أمريكا ، وهو تجّمع يريد أن ينسى الماضي بأسره لو استطاع ، أو يعود إلى هذا الماضي مرة أخرى مسنودا إذا تمكن في عالمه الجديد .

- **والثاني** : تجمع يهودي أزاحه وسط وغرب أوروبا إلى مخزن على الحافة (بولندا) وكان معظم يهود هذا التجمع (٣ ملايين عند الذروة قبل الحرب العالمية الثانية) من الأشكناز (= يهود الغرب) .

- **والثالث** : تجمع يهودي طرده سقوط الأندلس- بين ما طرد - على الشاطئ الإفريقي في المغرب ومعظمه من السفا رديم (= يهود الشرق) ، وكان تعدادهم في المغرب ما بين ٥٠٠ ألف إلى ٦٠٠ ألف (بعد الحرب العالمية الثانية) » (انتهى نص هيكل) .

من أجل معلومات صحيحة:

لست متخصصاً بتاريخ اليهود وميثولوجيا العالم ، ولكنني أزعم أن لي معرفة تخصصية متواضعة في تواريخ العرب ومجتمعات البحر المتوسط ، فضلاً عن ثقافة متواضعة أظن أنني قد اكتسبتها على مدى ٢٥ سنة من حياتي العلمية ، واسمحوا لي أن أسجل ملاحظات على « النص » أعلاه الذي ساقه لنا هيكل* .

* (وقد ساعدني في التوصّل الى مصادر تاريخية رصينة عن يهود المغرب زميلي العزيز بجامعة آل البيت بالأردن المؤرخ الجزائري المعروف الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله) .

١ . من أين أتيت بهذه التقسيمات يا هيكل ؟ وعلى أي مصدر متخصص اعتمدت عليه فيها ؟ أم أنها معلوماتك العامة التي أردت أن تسجّلها هكذا . . . ؟ وكنت أتمنى أن تطلع على بعض« الموسوعات » العلمية كالموسوعة الرصينة التي حرّرهـا مؤخرا الدكتـور عبد الوهاب المسيري ، أم ليس هناك وقت لديك في قـراءة الكتب المتخصصة التي تعب عليها من أجل المعرفة عشرات بل مئات العلماء والباحثين على امتداد القرن العشرين ، وخصوصا كتاب العالم العراقي القدير أحمد سوسه والموسوم « **العرب واليهود في التاريخ** » !*

٢ . أتمنى على هيكل أن يفرّق بين المفاهيم والمصطلحات ، وخصوصاً في مثل هكذا مواضيع معقّدة وحسّاسة ليست مواضيعها في التاريخ العام ، بل إنها متصلة بحياة اليهود في التاريخ ، ومنهم أعداؤنا الصهاينة الذين أسسوا لهم كياناً صهيونياً على حساب حقوقنا التاريخية ، ولا أظن الرجل إلا وسيشاركني القول . . فكيف لا يستطيع أن يميّز بين السفارديم والإشكنازيم ، والتحولات التاريخية التي مرّت على الجانبين ، والتفرّعات التي ظهرت لكل منهما ! ذلك أن يهود السفارديم ليسوا هم اليهود الشرقيين القدماء ، ولكنها صيغة الجمع العبرية من كلمة «سفارادي » : نسبة إلى : سفاراد أي إسبانيا ، وهو اصطلاح يستخدم من قبيل إطلاق الجزء على الكل إشارة إلى يهود الدياسبورا (= شتات) إسبانيا الذين نزحوا على غرار الموريسكيين المسلمين منها ، ليس إلى المغرب الأقصى وحده ـ كما أراد هيكل أن يقول ـ بل إلى عموم شمال إفريقيا وأصقاع متنوعة من الدولة العثمانية ، وخصوصاً في قسمها الغربي المتمثل في تراقيا وأقاليم شرق أوروبا ، فضلاً عن مناطق في شمال إيران واليونان والبرتغال** .

أما الإشكناز ، فهم في طبيعة الحال يهود الغرب القدماء الذين كانوا ينتشرون في عموم أقاليم أوروبا وبلدانها بدءاً بروسيا مروراً بشرق أوروبا ووسطها ، ومنها بولندا وصولاً إلى ألمانيا

---

* أحمد سوسه ، العرب واليهود في التاريخ ، (بغداد : وزارة الثقافة والاعلام ، ١٩٧٢) .
وانظر مقارناً الآراء المتحيزة للمستشرق برنارد لويس :

Bernard Lewis, *Jews of Islam* (Princeton: Princeton University Press, 1984).

** (التفصيلات في :

Andre N. Chouraqui, *Between East and West: A History of the Jews of North Africa* (New York: Atheneum, 1973). 56 - 99.

وفرنسا وإنكلترا . . . ومن هؤلاء هاجر القسم الأعظم إلى العالم الجديد وخصوصاً تجمّعاتهم في الولايات المتحدة الأمريكية .

أما اليهود الشرقيين القدماء ، فهم ليسوا لا من السفارديم ولا من الإشكنازيم ، إنهم اليهود الذين كانوا يستوطنون منذ القدم في العراق وبلاد الشام ومصر واليمن انتقالاً إلى الحبشة والسودان . . . وأغلب هذه الأقاليم والبلدان كانت تابعة على امتداد العصور الحديثة إلى الدولة العثمانية .

ولقد برز مصطلح آخر في تضاعيف تلك« العصور » ، هو : « الفتيكيم » ومعناه : المحنكون أو القدامى ذوو الخبرة من اليهود المهاجرين وهم من أبناء الأجيال القديمة من المستوطنين اليهود والصهاينة في فلسطين بالذات وفي مصر وهم من ذوي الأصول الأوروبية الذين كانوا يفدون إلى مناطق محدّدة في الشرق الأوسط واختلطوا بالسكان الأصليين ، ويذكر رشاد الشامي بأن هذه الكلمة أدخلها يهود مصر إلى العامية المصرية وتنطق من قبل المصريين عموما بـ « فِتِك » ويقصد بها : الشخص الذكي وصاحب التجربة والقدرة على اختراق الآخرين !!* . إذن ، فالفتيكيم ، هم أساساً من الإشكنازيم (يهود شرق وغرب أوروبا) .

٣ . والمرء يعجب عندما يقرأ هيكل الذي يقول بأن « المغرب أصبح مراكز تجمع اليهود في العالم ، ولعله الثالث في الترتيب » (وجهات نظر ،٧/١٠) ، وهو التجمع الذي وصفه خطأ كونه(يهود الشرق) ، وأن تعداده ما بين ٥٠٠ ألف إلى ٦٠٠ ألف(بعد الحرب العالمية الثانية) ، (وجهات نظر ،٧/١٠) . . . في حين لا يذكر تجمّعاً يهودياً أكبر بكثير مما هو عليه حال المغرب ، وهو الذي يتمثله الاتحاد السوفييتي سابقاً ، الذي كان قد هاجر في دوله إلى إسرائيل ٨٠٠ ألف يهودي في السنوات الأخيرة !

٤ . لا أدري من أين أخذ هيكل معلوماته عندما قال بأن « تعداد اليهود في المغرب ، ما بين ٥٠٠ ألف إلى ٦٠٠ ألف(بعد الحرب العالمية الثانية) » (وجهات نظر ، ٧/١٠) .

وهذا ليس بمعقول أبداً !! هل ابتكرت رقماً من عندك ، لكي تبني عليه مفاهيمك

* رشاد الشامي ، إشكالية الهوية في إسرائيل ، عالم المعرفة ، الكويت ، (٢٢٤) ، ص ١٠٧ م ٢٩) .

وآراءك ؟ وإذا كنت أخذته من مصدر معيّن ، فنتمنى أن تعلمنا به لنستفيد منه!! ولقد راجعت عــــدة كتب وموسوعات للتأكد مما ذكره هيكل ، فلم أقع على هكذا أرقام كبيرة . . ولعل أهم مصدر موثوق يعتمد عليه العالم في معلوماته الدقيقة هو « الموسوعة البريطانية »* جاء فيها النص التالي : « إن السكان اليهود المغاربة الذين كان تعدادهم عام ١٩٦٠ حوالي ١٦٠ ألف تناقصوا إلى ٣١ ألفً ، بينما الجاليات الأجنبية لكل الجنسيات ، والذين قدر تعدادهم قريباً من ٤٠٠ ألف نسمة ، تناقص إلى ١١٢ ألف نسمة فقط »** . وجاء في الكتاب الاكاديمي الذي حرّره هارولد نيلسون عن المغرب الاقصى بأن تعداد اليهود في المغرب ابان منتصف الثمانينيات من القرن العشرين يقدّر بين ١١ الى ١٤ ألفا ، وقد كان تعدادهم عند استقلال المغرب عام ١٩٥٦ يقّدر بحوالي ٢٠٠ الف نسمة** .

قوى تتنازع التأثير على المغرب:

ينقلنا هيكل بعد ذلك إلى مقدمة تاريخية قبل أن يبدأ كلامه عن مفكراته الخامسة والسادسة والسابعة ، يقول : « وفي خضم محاولة المغرب للتعامل مع ظروف مستجدة كانت هناك عدة قوى تتنازع التأثير عليه :

١ - قوة القاعدة العريضة العربية ، المسلمة السنية ، الموصولة لغة وثقافة ، وتشابكاً حياً ونابضاً مع الكيان العربي المتمدد نحو المشرق .

٢ - وقوة التجمعات العرقية متمثلة بالدرجة الأولى في البربر ، وقبائلهم الأصلية وهي متمركزة بالدرجة الأولى في جبال الأطلس ، ووراءها مواريث وتقاليد قبلت بالإسلام . . . ولكن ليس بالعروبة !

٣ - قوة الاحتلال والاستيطان والثقافة الفرنسية ، وهي تريد مواصلة السيطرة .

* (في مقالة Morocco ، المجلد العاشر منها في موضوع (The People of Morocco) الصفحة ٤٤٨) .

** (أنظر :

Harold Nelson (ed.), *Morocco: A Country Study*, (Foreign Area Studies), Washington D.C., 1985.

وقارن ذلك مع كتابات يهودية :

Allan R. Meyers, "Patronage and Protection: The Status of Jews in Precolonial Morocco" in Walter P. Zenner and Shlomo Dashen (eds.), *Jewish Societies in the Middle East* (Lanham, Maryland: University Press of America, 1982). pp. 85 - 104.

٤ - وقوة العرش متمثلة في السلطان محمد بن يوسف ، ودائرة القصر التي تحيط به ، وهالة الدين التي يضع نفسه وعرشه تحت مظلتها .

٥ - وقوة حياة سياسية وليدة راحت تشارك في عملية تحديث المغرب في ظروف صعبة ، ثم إنها بحقائق الأشياء راحت تتحرك وسط المغرب الإقليم وليس فقط المغرب الدولة ، وكانت هذه الحقائق هي الجامع الذي دعا كل حركات التحرر والاستقلال في المغرب إلى إنشاء ما سمي بـ « مكتب المغرب العربي » الذي اتخذ من القاهرة مقراً له !

٦ - وأخيراً فقد كانت هناك قوة رأي عام مغربي تتنازعه آمال غير محدودة وتحرّكه طموحات تبحث عن مستقبل ، وتشدّه دعوات معظمها قادم من وراء الصحراء من المشرق ، وخاصة بعد ثورة عبد الناصر في مصر» (**وجهات نظر** ،١٠ / ٧ - ٨) .

وينهي هيكل كلامه عن هذه القوى بهذه الفقرة التالية : « وكانت تلك الفترة (وذروتها ٢٠ إبريل ١٩٥٣) هي اللحظة التي تصادمت فيها كل القوى وكل العناصر وكل العوامل ومن كل الاتجاهات ، والسبب أن ضغوط مطالب ومطامع متعارضة جعلت الحاكم الفرنسي العام في المغرب وقائد عموم القوات الفرنسية هناك ـ وبتحريض وتعاون من زعماء عشائريين وقبليين ومحليين ـ يأمر بعزل سلطان المغرب الشرعي محمد بن يوسف ونفيه إلى جزيرة كورسيكا ثم إبعاده عن البحر الأبيض كله إلى جزيرة مدغشقر وتعيين سلطان آخر من أقاربه بدلاً منه هو مولاي محمد بن عرفه . . . » (**وجهات نظر** ، ١٠ /٨) .

حقيقة سيرورة المغرب:

بهذه المقدمة التي اختزل فيها هيكل تفاعلات قوى حيوية تنازعت تأثيراتها البالغة على سيرورة المغرب ، بدأ يمهد لما يعنيه أمره ، ألا وهو على حد قوله : « الملك الحسن الثاني ودوره في العمل العربي العام طوال فترة حكمه ، وحتى من قبلها ، وتأثيره في السياسة العربية من منتصف الخمسينات إلى نهاية التسعينات ، وبما في ذلك صلة الملك الحسن بإسرائيل ! » (**وجهات نظر** ، ٨/١٠) .

ومن أجل أن تتضح لدينا نحن العرب الصورة التاريخية كاملة في محاولة تفسير ما كتبه هيكل من مقالات ليست ضد الملك الحسن الثاني فقط ، بل ضد الملك الحسين بن

طلال أيضاً . . . . كما كان قد كتب ضد زعماء آخرين من قبل ، ومن أجل معرفة الأسباب الكامنة التي دفعت كاتبنا لذلك ، ومدى تأثير ما كتبه ليس على النخب والساسة والمثقفين العرب قاطبة بل على الشارع السياسي العربي . . . خصوصاً وأن جملة « الاتهامات» التي ساقها هيكل ضد الرجلين كانت خطيرة جداً ، لا يمكن أن يتخيلها حتى خصومهما السياسيين . . فكيف سيقبلها أو حتى يستوعبها رجل الشارع العادي ؟

من أجل أن تتضّح لنا مصداقية ما رواه هيكل ، سواء في معرفة دوافعه من وراء ذلك ، أم في معرفة مضامين « روايته » التي غدت رواية تاريخية ، خصوصاً وقد مضى على الأحداث السياسية أو غير السياسية التي يحكيها هيكل قرابة ثلاثين سنة أو أكثر !

ومن أجل أن نتوصل إلى نتائج واستنتاجات من وراء دراستنا لتفكير هيكل ومنهجه ورؤيته واشكالياته . . فان ثمة محددات أساسية ستساعدنا كثيرا والذين سيتابعون محاولتي النقدية المتواضعة لما كتبه ونشره هيكل مقارنين ومدقّقين . . من أجل التوصل إلى نتائج واستنتاجات ربما تتفق معه وربما تتفق معي ! ولا بدّ أن أقول بصراحة : أن أي من الاشتراطات والمطالب التي يقبل هيكل أن يقدمها للتاريخ لكي يدعم وجهات نظره من أجل الوصول إلى الحقيقة ، ويتخلّى عن جعله لها حقائق ثابتة . . فسيكون التاريخ والأجيال معه! وعدا ذلك ، فلا يمكن له ولكتابته ولنصوص كتبه أن تصمد بوجه المستقبل . . اللهم الا إذا برز في يوم من الأيام ما يثبت كلامه بشكل موثوق عن ذاك ، سيكون قد أحتل قصب السبق في الكشف عن الحقيقة الغائبة ! ـ وأنا أستبعد ذلك بكل تواضع الباحث ـ .

رابعاً : من أجل ملاحظات تدقيقية !

ثمة ملاحظات مدقّقة لدّي لا بد من الوقوف عندها ، قبل الشروع بنقد المفكرات الثلاث ٥ ، ٦ ، ٧ التي كتبها هيكل :

اللقاءات بين الزعم والحقيقة:

أولا : لقد ادعّى هيكل انه التقى بالملك الحسن الثاني إحدى عشرة مرة بالعدد ، ويستطرد قائلا : « ولا أتحدث هنا عن مناسبات رأيته فيها ، وإنما عن جلسات استغرق بعضها اكثر قليلا من ساعة ، وبعضها الآخر امتد عدة ساعات ، ستّا في إحدى المرات » (**وجهات**

نظر ، ١٠ / ٨) . . وإذا تابعنا تلك « اللقـاءات » التي أجـراها هيكل ، فـسنجـده يدّعي إجراءها في كل من الأماكن التالية :

١ . اللقاء الأول في القاهرة (خريف ١٩٥٧) .

٢ . اللقاء الثاني في نيويورك (سبتمبر / ايلول ١٩٦٠) .

٣ . اللقاء الثالث في الدار البيضاء (بداية ١٩٦١) .

٤ . اللقاء الرابع في الدار البيضاء (بداية ١٩٦١) . (هذه أربعة لقاءات حققها هيكل ـ كما يدّعي ـ مع الحسن الثاني عندما كان أميراً ووليّاً للعهد) .

٥ . اللقاء الخامس في القاهرة (٣ مارس / آذار ١٩٦١) .

٦ . اللقاء السادس في القاهرة (في ١٩٦٤) .

٧ . اللقاء السابع في الدار البيضاء (سبتمبر / ايلول ١٩٦٥) .

٨ . اللقاء الثامن في الرباط (ديسمبر / كانون الاول ١٩٦٩) .

٩ . اللقاء التاسع في باريس (بداية خريف ١٩٧٤) .

١٠ . لقاء المساجلة ـ كما أسماه هيكل ـ .

(وهذه خمسة لقاءات أخرى يدّعي هيكل انه حقّقها كما ـ ورد في نص مقالته ـ مع الحسن الثاني عندما كان ملكا) .

ولكن يدّعي هيكل إن لقاءاته مع الملك الحسن الثاني كانت إحدى عشرة مرة بالعدد ، ولما قمنا بعملية حسابية لعدد لقاءاته التي ذكرها في النص الذي كتبه ، وجدناها تسعة لقاءات!؟

أين الشهود الأحياء احتراما لحرمة الأموات؟

ثانيا : لم يذكر محمد حسنين هيكل على امتداد أوراق مقالته التي كرّسها ضد الحسن الثاني أي شهود أحياء يمكن الرجوع إليهم للتثبت مما كتب ، وإذا تتّبعنا ما كتبه من أسماء رواة حدّثوه عن الحسن الثاني ونقلوا إليه أخباره ، فسنقف فقط على اسم : المهدي بن بركة(وهو الوحيد الذي حدّثه عن أسرار خطيرة) (**وجهات نظر** ، ١٠/١٠) كما يذكر هيكل

اسم الملك الحسين مرة واحدة كمحّدث له ، حسب قوله : « وفيما بعد روى لي الملك حسين » (وجهات نظر ، ١٤/١٠) . . كما يذكر هيكل تعليق واحد سمعه من الرئيس السادات عن الملك الحسن الثاني (وجهات نظر ، ١٤/١٠) . .

هؤلاء الثلاثة الذين ذكرهم فقط من الأموات ، ولكنه لم يذكر أسماء أشخاص أحياء أبدا لا من الأخوة المغاربة ولا من العرب . . اللهم ألّا ثمة عبارات تشير إلى أن هناك أحياء حدّثوه عن الملك الحسن الثاني ، وخصوصا عندما كان الاخير أميرا بصدد أزمة الدين التي تعرض لها في باريس ، إذ يدّعي هيكل انه أخذ (معلوماته) عنهم ، دون أن يذكر أسماءهم بدليل ذكره عبارات هي بالنص : (وبينهم الآن أحياء مازالوا) ، أو (وبينهم أحياء حتى الآن) ، أو (أطال الله عمره) ، أو (وقابلت وسمعت كثيرين من الخبراء للدارسين لأمور المغرب ، ومن أصدقاء الملك ، ومن الذين يعرفون دخائل السياسات الغربية (الفرنسية والأمريكية بالذات) ، أو (تأكدت لدي من مصدرين كلاهما عارف ومطلع على الدخائل) . . . (وجهات نظر ، ١٠ / ١١ ، ١٦) .

أسئلة بحاجة الى أجوبة:

وإنني أسأل عدة أسئلة بحاجة إلى أجوبة حقيقية من هيكل نفسه :

١ . لماذا تذكر أسماء الأموات دون أن تذكر الأحياء ؟!

٢ . لماذا تقتصر على رواية يتيمة حكاها لك المهدي بن بركة في القاهرة قبل قرابة أربعين سنة أي في ديسمبر / كانون الأول ١٩٦١ ، وقد حفظتها بكل تفاصيلها هذه في ذاكراتك وبمثل هذا الترتيب والأسماء والأماكن والأحداث بدقة ، ولم تنشرها إلا بعد وفاة الملك الحسن الثاني ؟!

٣ . وما دامت هي رواية حكاها لك المهدي بن بركة (وأنا أشك في ذلك ، اذ اعتقد انها رواية مفبركة من أولها إلى نهايتها) ، وأنت تدرك بأن المهدي بن بركة كان عدوا لدودا للملك الحسن الثاني ! أليس من الأمانة والموضوعية ، أن تذهب بنفسك إلى المغرب ، وتتّحقق من صدقها أو كذبها بلقاءات تجريها مع الشخصيات الوطنية المغربية ؟

هلا أستشرت رجالات السياسة والتاريخ المغاربة يا هيكل؟

٤ . وما دمت تكتب عن هكذا تاريخ خطير للحسن الثاني وقد اتهّمته اتهاما لا يمكن للمرء أن يسمعه دون أن يقشعر بدنه منه ، أليس من المعقول قبل أن تنشر شيئا من هذا القبيل أن تقضي في المغرب مدة شهر أو شهرين على الأقل للالتقاء بالرجالات الوطنيين المغاربة القدماء ، ومازال أكثرهم حي يرزق : إبراهيم عبد الله ، والمحجوب بن الصديق ومحمد بنسعيد ومحمد البصري وعبد الرحيم بوعبيد وعبد الرحمن اليوسفي وعبد الكريم غلاب وأبو بكر القادري . . وغيرهم إن كانوا أحياء وأغلبهم قد اشتغلوا في الحركة الوطنية المغربية وصادقوا المهدي بن بركة ، ويمكن لهم أن يؤكدوا هذه الروايات أو ينفوا بعضها أو جّلها !! بعيداً عن أي تكهنات او تقولات لكتاب صهاينة وغربيين !!

وكم كان حريا أن تستأنس بآراء ومعلومات أصحاب الشأن المغاربة من مؤرخين ومثقفين ومفكرين كبار . . لأن الأمر يخصّهم ويخّص المغاربة بالدرجة الاولى ، وليس من حق أحد أن يتجاوز على تاريخهم ومعلوماتهم . . وهذا ما أريد أن أسجلّه نقديا ضد محمد حسنين هيكل الذي خاض أيضا بشؤون العراق وسوريا والأردن ولبنان . . الخ وتواريخها وشؤونها المعاصرة والخطيرة . . دون أن يستخدم مرجعا أو كتابا واحدا عن أي بلد عربي ، فضلا عن كتاباته في حوادث خطيرة وعلاقات متنوعة دون أن يستشير أصحابها سواء كانوا من المختصين أو المشاركين !

لماذا الاستسلام لما يقوله الاسرائيليون؟

٥ . ومرة أخرى ، استسلمت لما قاله الإسرائيليون فقط في تهمة تخص أحد الزعماء العرب الذين لهم تاريخهم ، فليس من الهين أبدا أن تذهب فيما ذهب إليه الإسرائيليون ، وأنت أدرى مني بهم : كيف باستطاعتهم أن يخططوا ويبرمجوا وينشروا كل ما يعمل على إشاعة الانقسام وروح التشرذم وزرع الكراهية بين أبناء الأمة العربية الواحدة . لقد أسسها بن جوريون . . فكرة وتطبيقا عندما دعا الى تشويه سمعة الزعماء العرب قاطبة بأساليب شتى منذ ذلك الوقت* . . وهم لا يفرقون بين هذا الزعيم العربي أو ذاك ، فقد ثبت ان الصهيونية

* من أجل توثيق ذلك ، انظر ما حققّه حديثاً :

Michael Prior, *Zionism and the State of Israel: A Moral Inguiry* (New York: Routledge, 1999), p. 116.

تكيل المديح من الأمام، ولكنها تطعن في الظهر!

أليس من المفروض وأنت الذي تشيع دوما في كتبك للعمل بالوثائق والمستندات، أن توثّق الخبر، وتحاول أن تجد ما يثبته للعالم، لأنك في هذه الحالة جعلت من نفسك خصما للزعماء العرب في كتابة جملة اتهامات عنهم بعد رحيلهم، خصوصا وأنت تعلن للملأ أن اتهاماتك لهم مأخوذة من ألسن خصومهم السياسيين الألداء! والموضوعية تفرض عليك مهما كانت درجة اختلافك مع هذا الزعيم أو ذاك، أن تعرض وجهات النظر المتباينة في أمر ما، ثم تطلق حكمك عليها، أو تترك « الاحكام » للناس وللاجيال القادمة . . فكيف إذا كان الأمر تهما خطيرة ؟

المقالة لا تسمن أو تغني من جوع !

٦ . من الصعب جداً على أي مؤرخ وباحث ومفكر، أن يختزل تاريخ أمة يمتد لأكثر من خمسين سنة، مضمّنا عهدي زعيمين من زعمائها، وبحث علاقاتها السياسية وأوضاعها الداخلية . . ومراقبة حياة زعيميها بدقة وأناة . . من الصعب جداً جداً أن يتضمن كل ذلك مقالة محددة بعدد من الصفحات . . ليس لكاتبها إلا حركته هو نفسه في الذي يكتبه من «نص» مثير جدا ، بعيدا عن الإلمام بكل الجوانب والأخبار والمواقف ذات العلاقة بتاريخ ذلك «الزعيم»، فهو الذي يمثل تاريخ بلده! بمعنى : أن محاولة مثل هذه هي تشهير بمكانة بلد من خلال تلطيخ سمعة زعيمها !! علما بأن ذلك الزعيم لم يكن يخفي طبيعة علاقاته مع الآخرين، مهما كان ذلك الآخر، ولم تكن له أية أسرار ـ كما سنأتي لمعالجة ذلك لاحقا ـ .

ان أبرز النقاط التي أود التركيز عليها، ان الاختلاف السياسي مع زعيم معين من الزعماء لا يمنعني من قول ما له وما عليه اذا كتبت تاريخه أو سيرته . . وكثيرا ما يخلط العديد من الكتّاب العرب ومحمد حسنين هيكل منهم بطبيعة الحال بين المواقف السياسية وبين المعرفة التاريخية ! فكثيرا ما شوهنا نحن العرب صفحات تاريخية لعدد من زعمائنا على امتداد القرنين التاسع عشر والعشرين كون كتابنا ومؤلفينا خلطوا بين عواطفهم السياسية واتجاهاتهم الأيديولوجية من جانب وبين أساليب التقييمات المعرفية والمنهجية التاريخية ! وهي التقييمات التي تعرض الحقائق والمعلومات بشكل متوازن وموضوعي

ومتكامل . . بعيدا عن الحب الجارف أو الكراهية العمياء . . وان الزعماء الذين لم تدرس تواريخهم بشكل مضبوط ، بل بشكل عاطفي أو مشّوه ، فهم كثر ، أذكر منهم : محمد علي باشا والخديوي اسماعيل والسلطان عبد الحميد الثاني والملك فيصل الأول والملك عبد العزيز آل السعود وسعد زغلول والملك غازي ونوري السعيد وانطون سعاده وأديب الشيشكلي وجمال عبد الناصر وعبد الكريم قاسم . . وغيرهم . .

يبدو أن الزمن قد تبدّل !

٧ . يبدو واضحا أن السكوت الذي جوبهت به من قبل الجهات الرسمية للدول التي تناولت زعمائها الراحلين بالقدح والردح وإلقاء الاتهامات . . دليل على أن بضاعتك لم تعد لها أي سوق يروجها ! فضلا عن النخبة العربية المثقفة التي يبدو أنها لم تهتم بما نشرته !! لا من الناحية الدعائية كونه يفتقد إلى مناخ عقدي الخمسينيات والستينيات . . ولا من الناحية المعرفية كونه لا يتسق مع مناخ عقد التسعينيات عند نهايات القرن العشرين ! إن النصوص التي نشرتها مؤخرا قد أضّرت بسمعة كل الأدبيات التي نشرتها على امتداد نصف قرن!! وأنها لم تؤد أغراضها التي كنت معّولا عليها !

المعلومات الخطيرة: الاحتجاب.. الزمن.. المصداقية

٨ . ومع كل التقدير لتاريخ السجل الوطني للمناضل المهدي بن بركة ، وأقواله التي أشك جدا أنه قد أسّرك اياها ! ولكن لماذا أسرك أنت بالذات يا هيكل بهذه المعلومات ؟ وقد احتفظت بها في ذاكراتك لمدة تقرب من نصف قرن ؟! أو كما تقول ما نّصه : وفيما رواه لي المهدي بن بركة وقتها وسجلته في أوراقي إحساسا بأهميته . . (وجهات نظر ، ١٠/١٠) .

السؤال الآن : لماذا احتفظت بما قاله لك من معلومات خطيرة بعد غياب بن بركة ؟ ولماذا احتفظت أيضاً بما قاله لك من معلومات خطيرة لكي تنشره الآن بعد غياب الملك الحسن الثاني ؟ وان المعلومات لا تتصل بموقف سياسي حسب ، بل تنص على مضامين تاريخية ، إذ لم تطال الملك الحسن الثاني وحده ، بل طالت والده الملك محمد الخامس ؟ واليوم أين هو المهدي بن بركة وأين هم كل من الملك الحسن الثاني ووالده محمد الخامس؟ لقد غيبهم

الموت جميعا ! وعليه ، فمن مهمة المؤرخ الحافظ للأمانات والأسرار إن يعلن ما لديه من معلومات ضد أي إنسان في حياته وقبل مماته . . من أجل إعطائه الفرصة كي يدافع عن نفسه! خصوصاً وأنها ليست تهمة واحدة فقط ، بل مجموعة متسلسلة من التهم والتي لازمت حياة صاحبها منذ قرابة نصف قرن! وان مجموعة « التهم » جميعها مصدرها واحد ، هو المهدي بن بركة .

وعليه فقد كان على هيكل أن يتحقق من مصداقية المعلومات والتهم أثناء حياة الملك الحسن الثاني . . انه بمجرد نشره لها بعد رحيله بأيام ، يجعل الناس في شك من أمر ما نسب من تهم للرجل . . وهو براء منها . . خصوصا اذا كانت هناك شكوك في نسبتها للمهدي بن بركة ،وأنه فعلا قد قالها لمحمد حسنين هيكل! فالمشكلة من أولها إلى آخرها عند هيكل نفسه . . فهل يمكن أن يدافع عن نفسه ؟ وهل يمكن أن يعلمنا توثيقياً وبالمزيد من الشهادات التي تؤكد أن المهدي بن بركه قد قالها له ، ذلك أحادية القول لا يمكن الاعتماد عليها في ثبت الدعاوى والتهم . . ويبدو هيكل قد تلبّسته المشكلة هو نفسه ؛ لأنه ترَصد للملك الحسن الثاني ، وحاول ما استطاع أن يسقط عليه المزيد من التهم الخطيرة . . الواحدة تلو الاخرى ، مستشهدا بأكاذيب صهيونية عن وجود أجهزة تصنت في أحد مؤتمرات القّمة العربية !!

لقاء ايفرن بين الملك الحسن الثاني وشيمون بيريز:

في نهاية شهر تموز /يوليو عام ١٩٨٦ ، كنت أزور المغرب بصفة أستاذ زائر ، وكنت في طريقي من مدينة فاس إلى الدار البيضاء مرورا بمكناس وكان الوضع طبيعيا جدا ، عندما سمع العالم أن شيمون بيريز الوزير الإسرائيلي يزور المغرب ، وقد استقبل من قبل العاهل المغربي في مصيف إيفرن الواقع في قلب جبال الأطلس . صحيح أن الإذاعات والصحف العربية أقامت الدنيا وأقعدتها ، لكنني لم ألمح في الشارع المغربي ما يدعو للقلق . . وكانت بعض الدول العربية تكيل الاتهامات للمغرب وخصوصا عندما صدر بيان ليبي - سوري مشترك يتضمن اتهامات سافرة موجهة للملك الحسن الثاني . . وقد فسّر بعض الأحزاب المغربية ، مثل : حزب الاستقلال وحزب الاتحاد الاشتراكي وحزب التقدم . . تلك

« الاتهامات » كونها موجهة إلى الشعب المغربي ، وأنها تشكك في التزاماته القومية .

هكذا ، وبعد أيام قليلة كنت اجلس أمام شاشة التلفزيون أراقب المؤتمر الصحفي الذي عقده الملك الحسن الثاني ، وحضرته القيادات السياسية والإعلامية في البلاد . . وقدمت إليه مجموعات كبيرة من صحافيين عرب وأجانب . جلس الرجل يجيب على الأسئلة المتنوعة بكل جرأة وعمق ، وهو يسخر من هذا ويمازح ذاك ، مع إطلاق كلامه على سجيته ، وترى الجميع وقد انشدّوا إليه إنشدادا كبيرا . ولأول مرة أجد الملك الحسن الثاني منطلقا ، وهو يستمع إلى أسئلة ثقيلة ، ويجيب على تعليقات قاسية بتعليقاته الأقسى ، ومن أبرز إجاباته القوية تلك التي أجاب بها سي علي يعته كما كلّمه وكان يجلس في الصفوف الامامية !

نعم ، كنت في تلك الأيام متألماً وحزينا جداً من صدمة وجود شيمون بيريز على الأرض العربية . . ولكنني وأنا أراقب أجوبة الصحافة المغربية ومقارنتها بالصحافة العربية وتعرفّت على فلسفة الحسن الثاني السياسية التي تريد القول أنك إن لم تستطع الانتصار على عدوك ، فلابد أن تحوّل لغة الحرب إلى لغة السلم ، وأن تكون واقعياً لا خيالياً في معالجة القضايا المصيرية . . . وبدا الحسن الثاني وكأنه يريد القول بأنه زعيم واقعي تجريبي لا خيالي طوباوي . . وأذكر له من حديثه : يا عباد الله العرب ، لولا النزوعات القومية المشتركة التي تجمعنا بأهلنا في المشرق العربي ، فليس هناك ما يجمع الناس بغيرهم وهم على بعد ٥٠٠٠ ميل من الأرض! ومع كل ذلك ، فلسنا إلا واسطة بين من يريد أن يسالم إسرائيل وهو يعلن عكس ما يبطن! كما أشار الى تفهّم عبد الناصر للواقع قبل وفاته . . وبرغم كل ما صدر من اتهامات قاسية ضد الرجل وأجاب عنها بقوة ، الا انها لم تصل الى قوة ما سدّده اليه هيكل . . ولكن بعد رحيله !

النقد التاريخي / المعرفي بعيدا عن السياسي / الايديولوجي:

أمامنا نحن المؤرخين العرب(نص) كتبه محمد حسنين هيكل ونشره مؤخرا يشرح فيه عهد الملك الحسن الثاني الذي حكم المغرب الأقصى على مدى زمني يقرب من أربعة عقود من القرن العشرين . . ولابد أن يعالج هذا « النص » نقدياً من وجهة منهجية علمية لا تبغي

إسدال الستار على ذلك العهد الطويل ، فنقول : كل شيء مضى إلى سبيله وليس هذا وقت الإثارة ، كما ليس من مهمتنا إسباغ صفة القداسة على الزعماء والملوك والرؤساء العرب ، وتجعلهم ملائكة لا يأتيهم الباطل من أمامهم ولا من خلفهم! كما ليس من مهمتها أن تغرق سياسياً وأيديولوجيا في التعمية على الحقائق في جانب ، أو النيل من المواقف بالتدليس وإغراق الناس بالذم والخطايا ! كما ليس من مهمتها أن تقف في زاوية محددة لتستّل ما تشاء فتهول الامر ، وتخفي عن عمد أشياء وحقائق تقلل من قيمتها أو تتجاهلها !

وعليه ، فان الذي أورده هيكل لابد أن يخضع للفحص والدراسة لا دفاعاً عن زعيم معّين كالحسن الثاني ، بل محاولة نقدية من أجل الكشف عن الحقائق التي لابد من معرفتها على مهل دون أي تسّرع ، وإن أي كشف عن معلومات ، أو أي إطلاق أحكام وتهم ، لابّد أن تتكفل به مستندات وشهود إثبات أحياء . . . فضلاً عن ضرورة أساسية نحتاجها عن العرب ، تقول : بعدم توظيف الإشاعات والأقاويل والدعايات التي يتمّرس بها ساسة ودبلوماسيون ومراقبون ومعلقون وكّتاب . . على أنها حقائق ثابتة ، اذ لابّد أن تعرف مصادرها وتقارن معلوماتها بما هو موّثق ومسجل بالطرق الرسمية ، حتى يكون باستطاعة المؤرخ اعتبارها من خلال محاولته (: لا توظيفاته) لها : مجال عمل من أجل التوّصل إلى الحقيقة التاريخية .

تفنيد الادعاءات حتى إثباتها بأدلة وقرائن:

١ . في لقاء هيكل مع الأمير الحسن(ولي عهد المغرب الاقصى) لأول مرة في خريف سنة ١٩٥٧ بالقاهرة ، كتب عنه : توصيفات لشخصيته عندما كان شاباً ، ولكن هيكل لا يفّوت الفرصة في توظيف ما نسب عن العناصر السياسية المعارضة (دون أن يذكر من هي تلك العناصر ، والمصدر الذي اعتمد عليه) في إلقاء تهمة خطف الطائرة المقلّة للزعماء الجزائريين من قبل الفرنسيين على عاتق الحسن الثاني ! فهل ثمة إثبات حقيقي لمثل هذه التهمة ؟ وهل استطعت يا هيكل أن تتأكد من هكذا اتهام ؟ ومتى كان ؟ وعلى لسان من حصل ؟

٢ . وفي اللقاء الثاني الذي يّدعي محمد حسنين هيكل حصوله بينه وبين الملك الحسن

الثاني في نيويورك(سبتمبر/ ايلول ١٩٦٠) أي قبل قرابة أربعين سنة . . . يتذّكر هيكل الآن بأن « اللافت للنظر » بلقاءات الأمير الحسن مع الجماعات اليهودية أو مع الساسة الأمريكيين المعروفين بقربهم من الدوائر اليهودية النافذة !! ولم يكتف هيكل بذلك ، بل زادها قليلاً ، فهو يدّعي(دون أي وثيقة أو شهود عيان) أنه التقى مع الامير الحسن على الغداء في فندق والدورف استوريا ، وأنه أي الامير الحسن أشار إلى لقاءاته اليهودية بسرعة . . وعن أهمية ذلك ، بحيث يعلق هيكل « وبدا الإيضاح معقولاً . . » ثم ينتقل هيكل ليحدثنا حكايات قالها الحسن عن ديغول وايزنهاور . وهنا يؤكد هيكل أنه « سجّل ما قاله الحسن » لأكثر من مرة! وكأنه يشكك هو نفسه في نفسه !!

٣ . وفي اللقاء الثالث في الدار البيضاء (بداية سنة ١٩٦١) ولم يزل الامير الحسن ولياً للعهد ، يحكي هيكل قصة حضوره رفقة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر إلى المغرب مشاركين ضمن وفد رسمي لمؤتمر الدول الإفريقية المتحررة . . « وفي الدار البيضاء ـ تلك المرة ـ عرفت الأمير الحسن عن قرب وجلست إليه طويلاً ومراراً نتحدث ونستعيد . . » (وجهات نظر ،١٠ / ٩) ـ كما يدّعي هيكل ـ ولكن لم يحدّثنا الرجل عن الذي قاله له الأمير الحسن ، وما الذي استعاده معه! بل يذهب هيكل ليصف مائدة العشاء التي أقامها الملك محمد الخامس على شرف عبد الناصر ، وصفا دقيقا !

وبعد ذلك ، يفرد هيكل فقرة لوحدها ، جاء فيها أنه في إطار الزيارة للمغرب ومؤتمر مجموعة كازبلانكا ، سمع من الأمير الحسن بعض آرائه في العلاقة مع اليهود ، فيكتب قائلا : « كان رأيه أن هناك عبقرية يهودية ، وهناك عبقرية إسلامية ، وأن بين العبقريتين صلات تاريخية قديمة ولا يجب لقيام إسرائيل أن يعترضها . ولم اختلف مع ولي عهد المغرب في أن هناك عبقرية يهودية لكنها عبقرية نشأت وأدت دورها ضمن حياتها في الأوطان التي عاش فيها اليهود خصوصاً وسط أوروبا . لكن تلك مسألة – وموضوع إسرائيل مسألة أخرى . وطرح الأمير الحسن سؤالاً : عّما يمكن أن نفعله مع إسرائيل ، وكيف يمكن النظر إليها في عزلة عن تأثير اليهود في العالم وهم القوة المؤثرة خصوصاً في الولايات المتحدة؟ وطال حوارنا » (وجهات نظر ، ٩/١٠) .

هكذا يرد النص بقلم هيكل ناقلاً ذلك عن الأمير الحسن قبل أربعين سنة ! ولا يهمنا الآن إن اعترضت يا هيكل على فكره الأمير الحسن ورأيه أم لم تعترض ! ولكن ما الذي يجعلني أصدق هيكل في الذي يرويه لي بعد مرور أربعين سنة على حدوثه ؟ وما الذي يجعلني أطمئن إلى أن لقاء فعلياً قد حدث بين الاثنين ؟ وهل ثمة شيء آخر لم يقله لنا هيكل عندما ختم النص بـ « وطال حوارنا » ؟ ولم يكتف هيكل بذلك ، بل قال في فقره أخرى :

« ودعاني الأمير الحسن إلى مقابلته بعد أن إعلان البيان الختامي للمؤتمر مظهرا إعجابه بالتكييف الجديد للصراع العربي الإسرائيلي ، ومع ذلك فقد كان رأيه أن تلك الصيغ السياسية تصلح على أصوات أفريقيا في المحافل الدولية ، وبالتالي تنفع في كسب وقت ــ لكن من ضرورات الواقع تحتاج إلى ما هو ابعد من صيغ ذكية (قالها الأمير الحسن والإعجاب يشيع في نبرات صوته ! » (وجهات نظر ، ٩/١٠) .

المسؤولية التاريخية:

مره أخرى أقول : أن المسؤولية التاريخية للنص تقع على كاهل هيكل سواء في صحة ما أورده فيه أم في كذبه . . ولكن مرة أخرى ، يحاول المؤرخ المحقق الناقد أن يسأل هيكل : كيف استطاعت ذاكرتك أن تستوعب كل هذه « النصوص » و «الأقوال » و « الأخبار » ؟؟ وما لازمها من نبرات الصوت ، وسايكلوجية القائل ، واللفتة والإيماءة واللمحة ؟؟ اهو مسجّل كل ذلك في ذاكرتك على مدى أربعين سنه ؟

أنني - بصراحة - أشك في ذلكاوأنني بصراحة أيضا - تجعلني اشكك في بقية ما أوردته ليس على لسان الحسن الثاني فقط ، بل على لسان غيره من الزعماء والمسؤولين والقادة السياسيين مصريين وعربا كانوا أم أجانب !

المهدي بن بركة: مشكلة بين السياسة والتاريخ

يذكر محمد حسنين هيكل أن لقاءه قد تجّدد مع الحسن الثاني الذي اعتلى العرش في المغرب يوم ٣ مارس /آذار ١٩٦١ ، إذ يقول : « تجدد لقاؤنا في القاهرة التي جاءها لزيارة رسمية في بداية سنة ١٩٦٤ » (وجهات نظر ٩/١٠) . . ولا اعرف إن كان الملك الحسن

الثاني قد زار القاهرة اكثر من مره عام ١٩٦٤ ، بل الذي اعرفه انه زارها لكي يمثل المغرب الأقصى في مؤتمر القمة العربي الذي انعقد في تلك السنة بالقاهرة بدعوة من الرئيس جمال عبد الناصر ، وحضره كل الملوك والرؤساء والأمراء العرب ، وقد انعقد مؤتمر القمة العربي الثاني بالإسكندرية في العام نفسه ،ولكن ـ حسب علمي ـ أن الملك الحسن الثاني لم يحضر هذا المؤتمر الثاني ، بل أرسل أخاه لكي يمثله فيه . .

في القاهرة ـ يذكر هيكل ـ أن لقاء غير عادي قد جرى بينه وبين الملك الحسن الثاني الذي عاتبه كونه قابل المهدي بن بركه الخصم العنيد له ، عدة مرات واصبح صديقا له ، ويقول هيكل بأن « المهدي بن بركة كان وقتها معارضا يرأس التجمع الوطني للقوى الشعبية في المغرب » ، ويستطرد هيكل يقول بان الملك قال له : « لا اعتراض لي على صداقتك له ولكني أريدك أن تعرف أن المهدي متآمر ،وكان وراء اكثر من محاولة لاغتيالي حتى أثناء ولايتي للعهد وأنا متأكد مما أقول » (وجهات نظر ٩/١٠) .

هذا ما يقوله هيكل على لسان الحسن الثاني . .ثم يستطرد بعد ذلك قائلا : « كانت معلومات الملك صحيحة فيما يتعلق بتعرفي على المهدي بن بركه ، وكان الملك فوق ذلك محقا ـ من وجهة نظره ـ في إحساسه بأن المهدي لن يذكره بالخير مع أحد ، وبالفعل فان بعض ما سمعته من المهدي بن بركه عن الملك الحسن كان فيــــه كثير يدعو الى القلق ! » (وجهات نظر ، ١٠/١٠) .

الخصومة السياسية تصنع ما تشاء !

اذن ، هنا يدرك هيكل بأن بين الاثنين ما صنع الحداد ، وأن أي جملة يتلفّظها أي منهما تثير عواصف لا حّد لها . . وما دام محمد حسنين هيكل قد تدخل بشأن المغرب الأقصى سياسيا بصداقته التي يدعّيها مع المهدي بن بركه ، فكان لزاما عليه أن يستمع للطرف الآخر لتسجيل آرائه في الموضوعات التي طرحها بن بركه . . علما بأنه لم يطرح أي مشاكل سياسية تتّصل بالشأن الداخــلي المغربي . . بل تناول طبيعة علاقــات الملك مع الآخرين (وبالأخص مع إسرائيل) (وجهات نظر ، ١٠/١٠) ، فضلا عن ذلك كله ، فان المعلومات التي أسرّها المهدي بن بركه لمحمد حسنين هيكل إن كان صادقا في قوله ، لم نجدها عند غيره

من العرب ولا حتى عند المغاربة . .

ولما كانت رواية يتيمة ومضى عليها قرابة أربعين سنة ، فكان على هيكل أن يتأكد من كل كلمة يكتبها لأنها تقع ضمن تاريخ يخصّ زعيم دولة عربية كبيرة ، وله ثقله السياسي في تاريخ العرب المعاصر في القرن العشرين ، فليس من السهولة تشويه تاريخه وتلطيخه بهذه الصورة . . وبدلا من أن يفعل محمد حسنين هيكل ذلك للتأكد من معلومات قديمة أسرّها له المهدي بن بركه ، فقد جاء ليقول : « وطبقا لرواية المهدي بن بركه وهي الآن ـ وبشهادة النظريات اللاحقة ـ متسقة في إجمالها بصرف النظر عن التفاصيل » (وجهات نظر ، ١٠/١٠) .

حاجة هيكل للخبرة التاريخية في الشؤون العربية:

لقد استسلم هيكل لرواية المهدي بن بركه استسلاما كاملا (أو قل نقلها عن أحدهم من الأحياء مؤخرا ، ونسبها للمهدي بن بركه) ، وهي رواية لا تخص سياسة الملك الحسن الثاني الداخلية في المغرب التي اختلف المهدي بن بركه معه ازاءها ، بل تخّص ما اتهّمت به الملك الحسن الثاني باليهود وبإسرائيل؟! ولا أدري هل يتفّق الاخوة من المؤرخين المختصين المغاربة أولا بهذا الذي أتى به هيكل عن الملك الحسن الثاني برواية المهدي بن بركه ـ كما يدعي ـ دون أي إثباتات وتوثيقات وشهود سماع واثبات ؟ ولا أدري هل يتفق الاخوة من الساسة (حتى المعارضين للملك الحسن الثاني) المغاربة ثانيا بهذا الذي اتهم به محمد حسنين هيكل ملكهم الراحل الحسن الثاني برواية المناضل الوطني المهدي بن بركه ـ كما يدّعي ـ ؟!

أيضاً : من ذا الذي سمح لمحمد حسنين هيكل أن يكتب هكذا مواضيع خطيرة ، ويجازف في توزيع اتهامات على زعماء المغرب . وهو من أبعد الناس عن معرفة تاريخ المغرب الأقصى الحديث والمعاصر . . وهذه هي عادته دوما ، فلقد كتب مثلا عن تاريخ العراق المعاصر ، وألقى باتهاماته على هذا وذاك ، وخاض في موضوعات معقدة ، وأوقع نفسه في أخطاء لا تغتفر . . دون أن تكون له معرفة حقيقية بتاريخ العراق المعاصر وشؤونه الخاصة . . ولا زلت أسمع وأقرأ بين الحين والآخر ، مثقفين عراقيين يلومون هيكل وينتقدونه على ما

نشره ضد العراق والعراقيين زعماء وحركات سياسية وأحداث تاريخية ومواطنين !

نعم ، لقد تبين للمؤرخ المختص في الشؤون العربية المعاصرة قاطبة بأن الرجل ليست له أي خبرة ودراية موسعة حتى في تاريخ بلده مصر . . فثمة أخطاء قد وقع فيها ، وتعد من أوليات تاريخ مصر الحديثة !

المغرب والعرب: تاريخ أقوى من كل التضليلات !

ليس عيبا أن تكون للملك الحسن الثاني علاقات مع الجالية اليهودية في المغرب منذ أن كان شابا ، فهي جالية مغربية وأبناؤها من المغاربة ، والمعروف أن اليهود المغاربة كانوا هم الواسطة بينه وبين إسرائيل وبين المؤسسات اليهودية* . . ولكن هذا ليس معناه أن إسرائيل وقفت وراء حماية العرش على امتداد أربعين سنة ! أو أن يصبح اليهود المغاربة مزدوجي المواطنة بين مغربيتهم وصهيونيتهم ! إذ ما زال حتى يومنا هذا إعداد كبيرة من اليهود المغاربة يقطنون أحياء متفرقة من المدن المغربية !

وهل يعقل يا هيكل أن تجري صفقة كالتي تحدثت عنها بين الأمير الحسن ولي العهد وكان منفيا مع أبيه في جزيرة مدغشقر من قبل الفرنسيين وبين الفرنسيين بواسطة طريق متعّرج كالذي اتهمت به تاريخ الملك الحسن الثاني ؟ ونحن نعرف منذ أن درسنا ذلك في مدارسنا ، ثم تأكد ذلك لدينا من خلال دراستنا في تاريخ المغرب المعاصر وإشكالياته :

نضالات شعب لا صفقة مشبوهة:

أولاً : إن رجوع الملك محمد الخامس مع عائلته من المنفى من اجل اعتلاء عرش بلاده من جديد ، كان يشّكل رضوخا فرنسيا مؤكدا استجابة لما جرى من ضغوطات دولية رسمية وشعبية جماهيرية في المغرب خاصة ، وفي عامة البلدان العربية عامة ، وخصوصا الجهود التي بذلها الساسة العرب في المحافل الدولية ، حتى شّكل ذلك بالنسبة للملك الكبير محمد الخامس أهمية بالغة وهاجسا بالعرفان لكي يزور بعض البلدان العربية بعد

* من المفيد جداً ، مراجعة مذكرات الملك الحسن الثاني التي نشرها بعنوان «التحدّي» :
Hassan II, The Challenge: *The Memoirs of King Hassan II of Morocco* (London: Macmillan, 1979).
ولقد ترجمت هذه المذكرات الى العربية بعنوان : « التحدي » ، ط٢ ، (الرباط : المطبعة الملكية ، ١٩٨٣) .

رجوعه إلى عرش بلاده ، ويقدّم لها باسم الشعب المغربي الشكر والتقدير ، وكان العراق أحد تلك البلدان التي وقفت مع المسألة المغربية منذ بدايات الخمسينيات على عهد النظام الملكي في العراق ، كما سجّل ذلك أكثر من واحد من رجالات العراق القدماء في مذكراتهم ، أمثال : توفيق السويدي وفاضل الجمالي وغيرهما . . ولقد أبى الملك محمد الخامس إلا أن يأتي إلى بغداد على عهد النظام الجمهوري فيستقبله زعيم العراق وقت ذلك عبد الكريم قاسم رسميا . . كما كان هناك استقبال شعبي عراقي منقطع النظير بالملك المناضل .

رضوخ فرنسا بعيدا عن أي دور أمريكي !

ثانياً : وكما رضخت القوى الفرنسية لمشيئة المغاربة في الداخل والعرب في الخارج . . فان لعبة الصراع بين الاستعمار الفرنسي القديم والقوى الأمريكية الجديدة لم تكن بمثل هذه القوة ، حتى يكون لليهود المغاربة دور في أن يلعبوا دورهم وقت ذاك ، وان ذلك « الدور » يشكّل رهانا مسبقا في كسب الصراع في شمال أفريقيا . . وان الأمير الحسن قد اتفق مع يهود المغرب لكي يقنعوا العناصر التي تحاول إقناع الولايات المتحدة التي ستؤثر على القرار الفرنسي . . كما ورد ذلك عند هيكل ، فهذا أمر غير معقول حدوثه أبدا من أجل إثبات أن صفقة قد تّمت بين اليهود والأمير الحسن كي يرجع الملك محمد الخامس وعائلته إلى عرش بلاده! انه التواء واضح وتحميل النص أكثر مما يجب ، وتكاد تكون خدعة لمن سيتصور أن يهود المغرب بمثل هذه القوة التي سيكون لها تأثيرها البالغ على سلسلة هذه الأطراف ؟!

تهويل الخبر: لماذا؟

ثالثاً : ويذهب هيكل بعيدا جدا من أجل أن يفسر النصوص ويطوعها ضد تاريخ الحسن الثاني ومحاولة تشويهه بطريقة لا يمكن الاقتناع بها أبدا . . والمشكلة انه ألبسها غيره ، فوضعها برأس المهدي بن بركه ، وهو يدرك بأن الأخير كان قد قتل ومات منذ عقود من الزمن !

ومما جاء ضمن بنود مما أسماه بـ « صفقة » قوله : « تجري ترتيبات وفق جدول زمني لتسهيل سفر أعداد كبيرة من يهود المغرب إلى اسرائيل ، وتتعهد كل الأطراف أن لا تثار

دعايات حول هذه العملية سواء أثناء قيامها أو انتهائها (وبالفعل فانه في عشر سنوات وصل عدد المهاجرين من يهود المغرب إلى إسرائيل ما يقارب ثلاثمائة ألف مهاجر - وقد وصلوا تباعا وفي صمت . . » (وجهات نظر ، ١٠/١٠) .

وكم تمنينا دوما على هيكل أن يوثّق أخبـــاره ، فعلى افتراض أن هذا « الخبر » قد نقله عن المهدي بن بركه ، أليس من الموضوعية والأمانة التحري العلمي عن صحة هذا « الخبر » من مصادر متعددة . . علما بأن هجرة يهودية قد حدثت من المغرب على غرار هجرات يهودية أخرى قد حدثت في العالم نحو إسرائيل ، ومن بقية البلدان العربية ، وفي مقدمتها : مصر والعراق واليمن والجزائر وتونس وغيرها . ولكن الأسباب تتعلق باليهود أنفسهم . . ومن خلال التحقق في الرقم الذي أورده لدينا هيكل ، فهناك مبالغة كبرى في هذا الجانب ذلك ان أعداد اليهود المغاربة قد تناقصت من ١٦٠ ألف يهودي إلى ٣١ ألف يهودي بفعل هجرتهم ! ويؤكد اغلب المؤرخين والعلماء المغاربة بأن وضع اليهود في المغرب يختلف عن غيره من أوضاع اليهود في المشرق مثلا ، ذلك أن اليهود المغاربة بقوا على ولائهم الوطني المغربي أقوى وأقرب منهم إلى الولاء القومي ، وذلك - وحسب - بسبب استقلال الكيان المغربي تاريخيا ، ورسوخ الشعور الوطني فيه»* .

رواية يتيمة لا شاهد عليها !

رابعا : يدّعي محمد حسنين هيكل أن لقاءه مع المهدي بن بركه قد حدث في يوم جمعة من شهر ديسمبر/ كانون الاول ١٩٦١ . وفي بيت صغير وسط ريف مصر ، وكانا معا في حديث طويل . . ولكن كل المؤشرات التاريخية حول إطلاق سراح محمد الخامس وعائلته بعد إلغاء قرار النفي . . كانت تشير إلى اتخاذ فرنسا قرارها بعيدا عن أي صفقة سياسية وأمنية (والتي لم تعلمنا بها المصادر الموثقة حتى الآن) : فالمنطقة كانت هائجة أشد الاهتياج على أساليب الاستعمار(الفرنسي بشكل خاص) . وكانت الثورة الجزائرية قد اندلعت بجوار المغرب ، وكانت هناك أيضا جملة وساطات دولية لاعادة محمد الخامس إلى

* (أنظر مقارنا : عبد الاله بلقزيز وآخرون ، الحركة الوطنية المغربية والمسألة القومية ١٩٤٧ - ١٩٨٦ : محاولة في التاريخ ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٢ ، ص ٢٥) .

عرشه ! فضلا عن أن محمد الخامس عاد إلى عرشه في المغرب بعد مفاوضات صعبة شديدة التعقيد بأكثر من نتصورا! ناهيكم عن أن فرنسا قد وجدت بأن أوراقها خاسرة في المغرب ، على غرار بقية مستعمراتها المحمية لا المحتلة ، وخصوصا في القارة الأفريقية . .

الأخلاقيات الأصيلة بعيدا عن الكراهية العمياء:

خامسا : أما ما يدّعيه محمد حسنين هيكل بشهادة المهدي بن بركه ، الذي رحل منذ عقود ، وهو يعرف حق المعرفة ، أنه خصم سياسي شديد للملك الحسن الثاني . . فلا يمكن أن تصل درجة الكراهية إلى الحد الذي يتّهم هيكل الملك الحسن الثاني انه الذي اشرف على موت أبيه . . أو بالأحرى أنه كان وراء موت أبيه !! هذا شيء لا يعقل تصوره ، فكيف تكتب يا هيكل بمثل هذه السهولة دون أن تراعي أخلاقيات العلاقة ؟ لقد كتبت يا هيكل ذلك على استحياء ، وقلت : « أن الملك محمد الخامس مات أثناء جراحة بسيطة لاستئصال اللوز ، جرت في غرفة غير معقمة في القصر الملكي ، ولم يقم بها أخصائي معروف ، ولم تكن بالقرب من الغرفة التي جرت فيها العملية استعدادات لحالة طوارئ ،ولثلاثة أيام قبلها لم يسمح لزائر حتى من الأسرة أن يرى الملك . وفي غرفة العلميات لفظ الرجل آخر أنفاسه ولم يتمكن أحد من إسعافه(**وجهات نظر** ،١٠/١٠) .

الشكوك لابد ان تمنعنا من تشويه التاريخ:

هل من المعقول كتابة مثل هذه التهم ؟ ربما أنني أتصور كل التهم وحجمها التي اتهم بها الملك الحسن الثاني لدوافع سياسية معارضة له ومخالفة لسياسته ، لكنني لا يمكنني أن أتخيل بأن الملك الحسن الثاني كان وراء موت أبيه ؟! وهذه مسألة لا تختص بموقف سياسي سواء كان المرء مع الحسن الثاني أم ضده ؟ بل انها « طعنة » يتحمل : المغرب سلطة وحكومة وصحافة ومؤرخين وجماهير وقوى وطنية وحتى الجماعات والأحزاب المعارضة اليوم مسؤولية الرد عليها ! علما بأن هيكل يردف قائلا بأنه : « وأتذكر أنني أبديت شكا في إمكانية تصديق المهدي (رحمه الله) . . (**وجهات نظر** ، ١٠/١٠) ؛ ولكنني أقول بأن مثل هذه العبارة التي جاءت في نهاية التهمة ، لا تنفي عنه انه خبأها على امتداد أربعين سنة في ذاكرته أو أوراقه بمثل هكذا تفصيلات ، وجاء بها اليوم بعد رحيل الملك الحسن الثاني

الذي كان الأولى بهيكل أن يعرضها عليه أو ينشرها ضده قبل مماته من أجل أن يدافع الرجل عن نفسه أمام التاريخ ! أما عملية نشر التهمة هذا اليوم وبعد غياب الرجل ، فإنها تشكل طعنة نجلاء ليس في تاريخه وحده ، بل في تاريخ المغرب الأقصى !

توزيع الأدوار: لعبة مصطنعة

سادساً : بعد أن ينهي محمد حسنين هيكل رواية المهدي بن بركه ـ على لسانه ـ دون أي شهود عدل ، يبدأ تعليقاته من أجل أن يطلي الآن كل الرواية بطلائه ، ويختلق حالات من عنده . . إذ يكتب بأن « الصفقة صنعت شيئا ما بين الأب محمد الخامس وابنه الأكبر الحسن . . » (**وجهات نظر** ، ١١/١٠) . ويذهب هيكل بعيدا كي يقرر هو نفسه توزيع الأدوار ، إذ يقول : « ومن المقطوع به في ذلك السياق أن المحاولة اليهودية لم تجر بالتنسيق مع يهود فرنسا أو يهود أوروبا ، وإنما جاء النجاح من أن المحاولة اليهودية نسقت مع يهود أمريكا وبالتعاون مع السياسة الأمريكية التي استند ضغطها كي تنفذ إلى الشرق الأوسط خلفا دبريطانيا في المشرق العربي ولفرنسا في مغربه » (**وجهات نظر** ،١١/١٠) .

الحبكة الفاشلة :

هكذا ، نجح هيكل في هندسة رواية كاملة يدّعي أن المهدي بن بركه قد حكاها له ، وجاء يركب عليه تصوراته ، ويكتبها للناس بشكل حقائق !! دون أن يبرز لنا الأدلة القاطعة عن صلة الصفقة ـ إن كان لها وجود ـ مع فرنسا صاحبة الشأن من خلال الجالية اليهودية المغربية ، فما هي أدلته الآن وقد حولّها إلى صفقة أمريكية ! إننا سنصدقك يا هيكل لو أتيت لنا ما يثبت كل هذا « الكلام » ، فلقد اعتدنا منذ خمسين سنة في صحفنا وكتبنا وإذاعتنا وخطاباتنا نحن العرب ، على أن نلقي بالكلام على عواهنه ، نتّهم هذا ونشكك في ذاك ، وندّعي على هؤلاء ونشتم أولئك . . وكله دون أي مستندات أو معلومات دقيقة أو شهادات ثقاة ! إن ما كتبه هيكل إذا لم يدعمه الآن بالتوثيقات ، (وانني واثق بأن ليس عند هيكل أي مستند رسمي يمكنه أن يدافع فيه عن نفسه) فسيبقى عقيما يصّب في نظرية المؤامرة التي لم يزل العقل العربي مغرما بها !

التواريخ الشخصية ودقة المؤرخين:

سابعاً : لا يتوقف هيكل في صياغة تهم للملك الحسن الثاني ، إذ يلاحقه مذ كان الرجل ولياً للعهد ، ويصفه بأنه « راح يتوسط في صفقات وامتيازات لشركات مختلفة فرنسية وأمريكية والحجة أنها جميعاً ساهمت في تمهيد طرق وفتح جسور إلى مواقع النفوذ والتأثير سواء في باريس أو في نيويورك . . » (**وجهات نظر** ، ١١/١٠) .

لا يعلمنا هيكل عن مصادر معلوماته الخاصة هذه عن الملك الحسن الثاني ، وما كتبه عن والده الملك محمد الخامس الذي أراد مساعدته للخروج من أزمته المالية . . ويتذرع هيكل بأن معلومته ـ كما يفهم من صياغة بعض عباراته ـ مأخوذة من أناس معيّنين ، فهو يضّمن كلامه عبارات ، مثل : (وبينهم الآن أحياء مازالوا) ، وعبارة : (وبينهم أحياء حتى الآن) ، وعبارة : (أطال الله عمره) (**وجهات نظر** ، ١١/١٠) .

إذا كان هيكل صادقاً مع نفسه ومع الآخرين ، فقد كان لزاما عليه أن يسند معلوماته عن حياة الأمير /الملك الحسن الثاني الشخصية لمن حدّثه إياها ، ويحدّده بالإسم لا سيما وأن المعلومات المذكورة هي شخصية تتناول ديون الأميرالحسن وموقف والده منها ، أو تتناول مسألة زواجه !! وكلها مسائل شخصية لا أعرف لماذا ركّز هيكل عليها كل هذا التركيز ؛ وثمة مسألة لا أدري إن كان هيكل يعرفها وحاول إخفاءها عمداً ، أم أنه لا يعرفها وحاول توظيفها بالضد ، إذ يقول بأن « الحسن تزّوج يوم وفاة والده » (**وجهات نظر** ،١١/١٠) ، بعد أن وصفه أنه كان يعزف عن الزواج . . . أقول : هذه ليست بمثلبة ، لأنني من خلال دراستي لتواريخ الأسرة العلوية الحاكمة في المغرب الأقصى ، وجدت إن هناك تقاليد تاريخية تحكمها في مسألة زواج ولي العهد ، وهي تقاليد مصانة تقول بأن ولي العهد لا يتزوج إلا إذا أصبح ملكاً ، وأنه يتأهل للزواج حال اعتلائه عرش البلاد ، وهذا ما حدث للملك الجديد محمد السادس أيضاً ـ كما تناقلت ذلك الأنباء ـ . . .

ثقل الكتابات التاريخية المغربية ورصانتها: مطلوب الاستفادة منها

وعليه ، لا يمكنني أن أتصّور أن يكتب أحدهم في سيرة رجل حكم طويلا أحد ابرز البلدان العربية ، ولا يرجع ذلك الكاتب الى مؤلفات ذلك البلد وتواريخه . . أتمنى من هيكل

أن يراجع المؤلفات التاريخية الرسمية التي كتبها المؤرخ المغربي الرسمي عبد الوهاب بن منصور ، وغيره من المؤرخين المغاربة الذين أرخوا تواريخ الأسرة العلوية في المغرب الأقصى ، والتي تعلمنا بما لا يقبل مجالاً للشك استناداً إلى الوثائق الملكية ، إن سلاطين المغرب قاطبة كانوا يهتمون ببيوتهم ويحافظون على تقاليدهم العريقة ، وأنهم كانوا أصحاب عوائل متماسكة على الدوام . . .

وأن مؤرخي المغرب الأقصى اليوم أهم أولى من غيرهم في التعريف والكتابة عن تاريخ سلاطينهم وملوكهم وأمرائهم استناداً إلى وثائقهم وسجلاتهم ومخطوطاتهم الثمينة التي تزدهر بها أروقة المكتبات العامرة ، وخصوصاً تلك التي تضمها القصور الملكية . . . وأشير بشكل خاص إلى كتابات المؤرخ المغربي المعروف عبد الله العروي في الرباط ، وكتابات المؤرخ المغربي أمحمد بن عبود في تطوان . . . وغيرهما من الزملاء المؤرخين .

لا مجال للتهكم على ثقافة الحسن الثاني:

وفي مكان آخر ، راح هيكل يرسم صورة أخرى لشخصية الملك الحسن الثاني ، وكأنه ليس برجل دولة ناضج ، بل برجل سهرات خاصة ، فهو في بداية مفكرته الأولى يقول : « وكان الملك الحسن مقتدراً في اللغة العربية ، وعلى صلة وافية بآدابها وأولها الشعر ، وكان يحفظ منه الكثير ، ويلقى أحياناً قصائد كاملة ، وفي أحيان أخرى كان ينشد من هذه القصائد لحناً من عنده ، فقد كان شغوفاً بالموسيقى وعارفاً بإيقاعاتها وأصواتها ، وممارساً بنفسه للعزف على بعض آلاتها . . » (**وجهات نظر ، ١٠/٤**) .

وهذا كله صائب وصحيح ، إذ كان الرجل يمتلك ثقافة عالية سواء على مستوى تراثه العربي الأصيل ، أم على مستوى الحداثة والمعاصرة اليوم . . ثم يأتينا محمد حسنين هيكل بنص من نوع بليد أساء توظيفه عن الملك الحسن الثاني ، يقول هيكل وهو يتحدث عنه ، إذ كان الحسن الثاني يقارن بين المشرق والمغرب : « وأعجبته الصورة فيما يبدو ، وألحق بها قوله وهو يبتسم ابتسامة حلوة كانت تتبدى على شفتيه بمرح حقيقي بعض اللحظات : « كان يرقص عشرة بلدي » . . وحسبت هذا الملحق من عبارة الملك لمسة من تأثيرات صداقاته الكثيرة مع فنانين وفنانات من عرب المشرق ، وكان دائماً كريماً معهم وحفّياً بهم في سهرات

قصوره خصوصاً قصر الصخيرات الذي كان يعتبره مقر احتفالاته الخاصة » (وجهات نظر ، ١٤/١٠).

ولا أدري ما العيب في ذلك ؟ فقد كان الرجل نفسه فناناً مرهف الحس عاشقاً للكلمة الجميلة ، مشجعاً للآداب والفنون . . . وإن كل صداقاته الفعلية مع الفنانين العرب الكبار من المشرق العربي كانت بريئة ، وكلهم يلج بذكره كونه الزعيم العربي الذي كان يستضيفهم بنفسه ، ويهتم بإنتاجهم الموسيقي والغنائي ويسبغ عليهم صداقته وتشجيعه . . ويكفي ما قاله في حقه كل من محمد عبد الوهاب وأم كلثوم وفريد الأطرش وعبد الحليم حافظ ووديع الصافي وغيرهم . . ومن جانب آخر ، كانت له مجالسه الرمضانية الشهيرة التي دعيت بالدروس الحسنية ، والتي يجلس بنفسه ليستمع الى علماء وفقهاء من العالم الاسلامي .

مجافاة الحقائق:

سوف لن ألتفت كثيراً لبقية ما سجله هيكل عن الملك الحسن الثاني ، إلا قليلاً ، وهذا « القليل » أعتقد أنه ينفع كثيراً في كيفية غلق هذا « الملف » الذي هاجم فيه صاحبه ملك المغرب هجوماً كاسحاً بعد وفاته ، واتّهمه تهماً شتى لم يثبت أي واحد منها صدقه . . كما كان قد فعل هيكل أيضاً ضد تاريخ الملك حسين والمس بشخصيته والتعّرض لسيرته . لقد أثبت هيكل بذلك ، أنه لم يكن شجاعاً لمواجهة الزعيمين في حياتهما . . كما أنه أعطى الفرصة للآخرين في التشكيك ببقية أعماله الأخرى . . . وبدا أنه غير حيادي أبداً في معالجته للأمور ، وقد غلبه ما يكمن في أعماق صدره من كراهية ضد الذين كتب ضدهم **فجافى الحقائق التاريخية** ، **وبقيت النزوعات السياسية تتلاعب بعواطفه وأهوائه** ، وبدا هيكل في بداياته أكثر رصانة وتخصّصاً واحتراماً لقلمه من نهايات أيام عمره ـ مع الأسف ـ .

إن كثرة ترداده في الصفحات الأخيرة من مقالته ضد الملك الحسن الثاني من : «الموساد كان هناك» ، وكذلك تدخل هيكل في الشؤون المغربية الخاصة بكتاباته الأقرب إلى النهج الصحفي منها إلى التاريخي ، وقد مضى على أحداث ووقائع تلك « الشؤون » أكثر من ثلاثين سنة ، أفقده الكثير من مصداقيته إزاء الزعماء العرب . . . ولم يكتف بعهود من كتب

عنهم ، بل طال لسانه أسرهم وسلالاتهم وتقاليدهم الملكية ، فضلاً عن حياتهم الشخصية وأعرافهم المتوارثة ! ولعل المضحك في الأمر ، الادعاء من قبل هيكل بالكشف عن معلومات وأخبار وحوارات وآراء قديمة لم تسعفه ذاكرته في الإفصاح عنها وكتابتها ونشرها ، إلا الآن بعد وفاة أصحابها !

تاريخنا لا يسجّل في فنادق أوروبا الراقية !

إن الأغرب من كل هذا وذاك ، الأسلوب الذي أراد به أن يضحك الناس ، وكأنه وهو يكتب اليوم في التسعينيات ، يخاطب أولئك الناس الذين عاشوا قبل أربعين أو خمسين سنة ، عندما كان من الممكن الضحك على عقولهم تحت مسمّيات وشعارات شتّى . . وكما هي طبيعة خطاب الرجل نفسه في معظم كتبه التي نشرها ، معتمداً فيها على أقوال الآخرين ، الأموات منهم والأحياء ونحن لا نعرف مدى صحة ما ينسب إليهم ، فالأموات قد طواهم الثرى ولم يعد بمقدورهم الإدلاء بالحقيقة . . . والأحياء منهم من شاخ وكبر ، ومنهم من نسي أو تناسى ، ومنهم من لم يتابع ما يكتبه هذا أو ذاك عن لسانه وألسن الآخرين كونه أجنبياً أو مهملاً . . . إلخ .

وأخيراً يقول هيكل وقد اقترب من النهاية : « طوال الأيام الخمسة الأولى من مايو ١٩٩٩ أصبحت شؤون المغرب وأمراض ملكه ، شاغلي في باريس ، وقابلت وسمعت كثيرين من الخبراء الدارسين لأمور المغرب ، ومن أصدقاء الملك ، ومن الذين يعرفون دخائل السياسات الغربية(الفرنسية والأمريكية) بالذات . . . » (**وجهات نظر** ، ٦١/١٠) .

لكن هيكل لم يعلمنا بأسماء الكثيرين من الخبراء الدارسين ؟ ولم يخبرنا من هم أولئك أصدقاء الملك ؟ ويستطرد قائلاً : « وفي هذا الجزء من الحديث فأنا لا أنسب قولاً لقائل ، وإنما أعرض صوراً عامة وخلاصات لأحاديث ممتدة بعضها في مكاتب رسمية ، وبعضها في فنادق شهيرة ، كما أن بعضها جرى أثناء المشي ـ ساعات ـ في حدائق التويري (وهي قريبة من فندق ريتز) ، وكان البعض يفضلونها مكاناً لحديث حر في الهواء الطلق اتقاء لأبواب عليها عيون ، وجدران لها آذان! » (**وجهات نظر** ، ١٦/٠١) .

أهكذا كتبت معلوماتك من ألسنة وأفواه مثل هؤلاء الناس ؟؟ أهكذا كنت تستمع

لإشاعات ودعايات (يفبركها) عدد من الدبلوماسيين والمسؤولين عن قصد وعمد ، ويبثونها من أروقة الفنادق الشهيرة . . . وقد آلى هيكل إلاّ أن يذكر فندق ريتز حيث يقيم فيه بباريس وهناك يسمع عن الحسن الثاني ! أو أنه يذكر فندق كلاريدج حيث يقيم فيه بلندن وهناك يسمع عن الملك الحسين! وهو « لا ينسب قولاً لقائل » !

صدفة عجيبة: هل تخدم المزاعم والأوهام؟

ثمة أمور لا بدّ من ملاحظتها ، وهي تفصح عن جوهر خللها دون أي تعليق مني ومنكم أيها القراء الكرام :

- دعونا نقرأ معاً ما كتبه هيكل في النص التالي : « في يوم من أيام شهر مارس سنة ١٩٨٥ كنت في قصر خوان كارلوس ملك اسبانيا (قصر زرزويلا في ضواحي مدريد) جالساً معه في مكتبه ودق جرس التليفون ، وكان معنى ذلك أن مكالمة هامة جاءت للملك ، فليس من العادة أن يدق جرس تليفونه وأمامه أحد الزوار ، وعرضت على الملك أن أخرج ، ولكنه أشار بيده بما يعني أن أبقى . وبدا حديثه مع طالبه على الناحية الأخرى ، وفهمت من مجرى الحديث أنه الملك الحسن ، ونهضت من مقعدي ومشيت عدة خطوات إلى رفوف الكتب المحيطة بجدران مكتب الملك مزيجاً يضيف إلى الكتب تحفاً رمزية بينها نماذج ذهبية وفضية للسفينة سانتا ماريا التي ركبها كرستوفر كولومبوس في رحلته لاكتشاف أمريكا . ومضت دقائق والحديث بين ملك اسبانيا وملك المغرب متصل وأنا أجول بعيني على عناوين الكتب وتفاصيل نماذج السفن من الذهب والفضة ، ثم وضع الملك خوان كارلوس سماعة تليفونه ، وعدت إلى مقعدي أمامه ، وكانت الحيرة بادية عليه ، وهز رأسه مبدياً عجبه وقال لي : « حسن يعاتبني لأنني أرسلت إليه برقية عزاء في وفاة قائد جيشه الدليمي في حادث سيارة . . . » (**وجهات نظر** ، ١٥/١٠) .

كل هذا الإطناب من أجل أن يثبت أن أسباباً كانت وراء مصرع قائد جيشه ، وإضفاء تهمة أخرى ، وزيادة (مفبركة) لا حاجة لها يا هيكل ! وعليه ، فلا حاجة لقصر خوان كارلوس ، ولا ضرورة للتليفون بين ملكين بحضورك ، ولا أهمية لأن أشار عليك الملك خوان كارلوس بيده أن لا تخرج . . وكأنها عرى صداقة بين اثنين توازت مكانتهما وأزيلت عنهما

كل التقاليد ! وأود أن أذكرك بأن كريستوفر كولومبوس استكشف أمريكا ولم يكتشفها ، كما علمونا ذلك في المدارس الابتدائية !

إسدال الستار: الكلمة النهائية للأجيال القادمة

وفي النهاية ، فقد عرف محمد حسنين هيكل الفرق بين « المثير » و « المؤثر » ، إذ يختار الأول دوماً . . وقد أنهى مقالته بعبارة ذكرناها عندما بدأنا نقد موضوعه ، إذ قال : « وفي النهاية فإن هذه المسافة بين ما هو مثير وما هو مؤثر هي بالضبط المساحة المتروكة كي يقيم فيها التاريخ قضاءه وينطق بأحكامه ، أو ربما يظهر أن الكلام عن التاريخ في العالم العربي تهويل لا تتحمله الأحوال الراهنة فيه » (وجهات نظر ، ١٧/١٠) . لقد عشق هيكل كل ما هو مثير . . وعرف بأن أحكام التاريخ لا نفع فيها ، إذ ما نجح في التهويل !

وأخيراً : لقد نشر محمد حسنين هيكل مقالته ضد تاريخ الملك الحسن الثاني ولم يعرف فيها لا الموضوعية ولا الدقة ولا التوثيق . . . وقد غالى كثيراً على حساب الحقيقة التاريخية ، وقد غفل عن جملة من شروط الكتابة وأخلاقياتها بحجة المساحة المتروكة له بيت الإثارة والتأثير! كان مهوّلاً للأمور ، وقد أخطأ في جوانب عدة ، وانتهج أسلوباً هجومياً عن عمد وسبق إصرار ليس ضد زعيم المغرب الراحل ، بل حتى ضد شعبه الأصيل وضد تاريخه العريق . . . ونال من خصوصياته وعاداته وتقاليده ، ولم يحترم الموتى في قبورهم ، إذ ذكر جملة من الاتهامات والمعلومات الخطيرة على لسانهم وقوّلهم الأقاويل التي كانت مختبئة عنده إذا كان صادقاً في الذي قالوه إليه . . . لكي ينشره اليوم بعد رحيل الحسن الثاني . . . فضلاً عن اتخاذه من الدعايات الصهيونية وأساليب إسرائيل في زراعة الأخبار الكاذبة وتلفيق المعلومات المغرضة . . وسيلة للتركيب عليها جملة من الاتهامات الخطيرة . . . والعرب لا يحتاجون كل ذلك ، فكل شيء معروف ومنكشف ، إذ لم يكن الملك الحسن الثاني يرتاع في إخفاء أية أسرار ، اذ أزعم أنه كان واضحا جداً في علاقاته مع الآخرين سواء مع إسرائيل أم مع غير إسرائيل . . . ولكن برغم كل ذلك ، فقد أبى أن يؤسس أية علاقات رسمية ودبلوماسية على مستوى الاعتراف والسفارة ، إذ بقي يستخدم الجاليات اليهودية المغربية في عمليات الاتصال .

وكم كنّا نتمنى على محمد حسنين هيكل أن نقرأ له في مقالته شيئاً ولو مبسطاً عن جملة التطورات التي لحقت بالمغرب على امتداد نصف قرن من حياتها العمرانية والاقتصادية والثقافية . . . وخصوصاً على عهد الملك الحسن الثاني الذي منح المسؤولية لتولي الحكومة إلى أحد أبرز معارضيه السابقين ، فضلاً عما يشهده المغرب الاقصى من حركة ثقافية وفكرية لا تضاهى ويمثلها بعض أبرز الرموز النقدية والفكرية في وطننا العربي الكبير . . . كما كنت أتمنى على هيكل أن يتأمل فتح صفحة جديدة للمغرب الأقصى إزاء مستقبله على يد زعيمه الجديد الذي بدأت مرحلته في قيادة جيل مغربي متحفّز جديد نحو المستقبل ، والاستفادة من تجارب البلاد بعد الاستقلال في تحديث المرافق الاقتصادية والتجارية ، وتطوير الآليات الديمقراطية والسياسية ، ورفع المستويات الاجتماعية والمعاشية . . فضلا عن العمل لما فيه مصلحة الأماني العربية وخدمة المصالح العربية العليا عند الأجيال القادمة في القرن الحادي والعشرين* .

كلمتي الأخيرة حول هذا الموضوع:

لا بدّ لي أن أقول بأن ما كتبته في أعلاه الى حد الان لم يكن دفاعا عن أحد بذاته او سياسته ، بل هو دفاع من أجل أسلوب عربي في البحث عن الحقيقة ، ونقد لأساليب وجدتها عند هيكل متباعدة عن المنهج التاريخي والرؤية المعرفية والتفكير العلمي . . فضلا عن الاشارة الى أن الكتابة هي أسلوب أخلاقي في التعامل مع الاخرين ومع الاحداث والمواقف والشخوص والأبطال . . وأزعم ان ملاحظاتي النقدية ما هي إلا محاولة من أجل إعادة التفكير عندنا نحن العرب في كيفية التعامل مع الشؤون الخطيرة التي تخصّنا أسبابها ومضامينها ونتائجها . . نحن لوحدنا ، وتخص الاجيال العربية القادمة من بعدنا التي سوف لن يتحددّ مصيرها إلا من خلال طبيعة فهمها وتفسيرها ومعالجتها للأمور والمشاكل مهما كان نوعها . . بعيدا عن التجارب الصعبة والقاسية التي عانينا منها نحن

* من المفيد مراجعة : الملك الحسن الثاني (ملك المغرب) ، انبعاث أمة ، (٤٠ مجلداً) ، (الرباط : مطبوعات القصر الملكي ، ١٩٩٣) .

في القرن العشرين ، مع ما رافقها ولم تزل صدة من الأساليب الخاطئة في التهويم واليوتوبيا والتهويل وزراعة الأحقاد واستخدام الكراهية والتنطع بأقوال الأعداء .. وتشويه التواريخ والسير والتقاليد ، واستخدام الدعايات والشعارات واعتبارها حقائق ومعلومات ، والتأسيس على ذلك كله .. لاطلاق التهم والأحكام الجائرة . فمتى يختلف المرء عندنا نحن العرب مع غيره سياسيا ، ولكن يدافع عنه تاريخيا متى توّفرت له الفرصة ؟؟

الفصل الرابع

قصة مصر أرض الكنانة :

هيكل : التغيير والتجسير

« ان نزعات العدوان لا تستطيع إلا ان تدمّر نفسها، وتبقى ارادة الحياة دائماً اقوى من كل اعدائها » .

– جمال عبد الناصر –

« كل جيل يحاول ان يعيد ترجمة مواريثه الى لغة الواقع » .

– محمد حسنين هيكل –

أولاً: مصر: التاريخ والتغيير

هيكل ليس مؤرخاً:

كثيراً ما كتب محمد حسنين هيكل عن «التاريخ»، وذكره في ثنايا كتاباته، ولكنه في بعض الأحيان تراه ينسحب من الميدان كي يصف علاقته بـ «الموضوع» صفة المتباعد عن علم التاريخ كي يرجع إلى ميدانه الحقيقي في الصحافة، أو ينكمش حتى عن هذا الميدان الأخير، فيهرب إلى صفة «السياسي» الذي لا يمكن أن يقبض على آرائه ووجهات نظره.. فالفرق بين المؤرخ والصحافي والسياسي كبير جداً، فالأول يتعامل مع المعلومات والمعرفة العلمية الدقيقة بحثاً عن الحقيقة، والثاني يتلّقط الأخبار ويراقب مجريات الامور، أو يكتب الآراء اليومية، في حين ينزل الثالث إلى اقنوم وجهات النظر المتضاربة المؤدلجة او التابعة او المنحازة التي لا يقرّ لها قرارا

في مقدمته كتابه «أكتوبر ٧٣ : السلاح والسياسة» يبدو صاحبه محمد حسنين هيكل بثوب جديد، اذ تظهر مسحة جديدة على مؤلّفه محاولا الكتابة وفق منظور مختلف بعض الشيء عما هو مألوف في مؤلفاته الأخرى، ذلك ـ كما يصرّح هو نفسه ـ لأن «المعلومات – في هذا الكتاب ـ أكثر من الآراء، وأن الوقائع أوسع من التحليل... وموجبه أنني أنتمي إلى مدرسة تعتقد أن صميم حرية الصحافة هو ضمان تدفق المعلومات. فليست هناك قيمة لرأي إلا إذا كانت قاعدته من المعلومات والأخبار والخلفيات واسعة وكاملة وصحيحة إلى أقصى حد. وفي هذه المدرسة فان المعلومات والأخبار والخلفيات هي البناء التحتي الذي يمكن أن تقوم عليه حرية الرأي من اختلاف الاجتهادات» (اكتوبر ٧٣..، ص٤١).

كيف يفسّر هيكل ذلك؟

يستطرد فيقول: « فالخطوة الأولى (ضمان تدفق المعلومات) هي الأساس، وبها تكون الحقائق محدّدة واضحة، موسومة وظاهرة للجميع وموادها كتل من الخرسانة، زلط وحديد وأسمنت تغوص في عمق التربة. والخطوة الثانية (حرية الرأي) هي البناء بعد ذلك طبقات

فوق أساس . مواقع أو مساكن تعكس رأي واختيار وذوق أصحابها في ترتيب الأشياء وانساق الأشكال . . . وحتى ألوان الورد والزهر! وإذا لم يتحقق الأساس فأن ما فوقه ـ مواقع أو مساكن ـ يصبح معلقاً في الهواء ، لا يحتاج حتى يقع إلى هزة زلزال ، وإنما هبة ريح تكفيه ليسقط .

ثم أن تدفق المعلومات ، أي المعرفة بالحقائق ، تضيف إلى حرية الرأي بعداً ثالثاً يجسم الصورة ، وهو أن يكون المتابع للحوار ، قارئاً أو سامعاً ، على علم بما يجري من حوله الحوار بحيث يكون بدوره قادراً على المشاركة ، موجوداً في الساحة ، على بيّنة تسمح له بأن يختار . . . والاختيار جوهر الحرية . . . . وإذا غابت المعلومات والأخبار والخلفيات ، فأن الكتابة أو الحوار – كائناً من كان الكاتب أو المحاور – تصبح في واقع الحال نوعاً من الإنشاء (جملاً مرصوصة) – أو نوعاً من الإنشاء (مديحاً في الطرف أو ذاك !) (اكتوبر ٧٣ ، ص ١٥) .

ماذا نفهم من النص في أعلاه ؟

لقد هرب صاحبنا هيكل من ميدان المعرفة التاريخية إلى ميدانه الإخباري الصحفي ، علما بأنه يقول دوما ـ كما عوّدنا ـ في أغلب الأماكن من كتبه أنه يكتب تاريخاً! وقد اشترط أن تكون القاعدة من المعومات والأخبار والخلفيات : واسعة وكاملة وصحيحة ، ولكنه لم يطبق هذه القاعدة في كتاباته التي رأينا أنه يجعل نفسه من خلالها في مجال يسعى دوماً للإثارة لا التأثير – كما وجدنا من قراءتنا النقدية لأعماله – ولم يكن متوسّعاً في نطاق الموضوع ، ولم يكن متكاملاً في كتابة مادة صحيحة إذ تعّج كتاباته المتنوعة بالأخطاء التي وجدناها أو التي سنقف على بعض نماذجها !

كان هيكل في كتاباته من خلال خطوتيه الاثنتين خارجاً عن نطاق الأمانة العلمية والمصداقية الأدبية التي تحتاجها المعرفة التاريخية (أو حتى الكتابة الصحفية في أخلاقياتها العالية) ، فكيف كان ضمانه في تدفق المعلومات ؟ لقد **اعتقد مخطئاً أن المعلومات حقائق ! وهذه خطيئة لا تغتفر ، فليس المعلومات حقائق** ، بل أنها إحدى أبرز السبل بعد دراستها ونقدها وتوثيقها للتوصل إلى الحقائق! وهو يصف الحقائق : أنها محددة وواضحة ومرسومة وظاهرة للجميع . . أنه يصمها بكتل من الخرسانه . . مستخدما الكلمات العامية التي لا

يعرف مرادفاتها باللغة العربية الفصحى ! هكذا بكل سهولة وبساطة ، يطلق الآراء التي يثير بعضها الاستهجان . . وهذا ما فعله في تأليف كتبه التي تعد مضامينها غير مستقيمة والكتابة المعرفية ، وبمجرد نقولاته من هنا وهناك ، وتسجيله آرائه وحواراته غير الموثّقة والتي عَدها حقائق ومسلمات بحيث اعتقدت الناس أن معلومات هيكل حقائق ثابتة ومسلّمات راسخة !

أما خطوته الثانية النى سماها بـ «حرية الرأي» واعتبرها بناء طبقات فوق أساس ، فقد افترضها من عندياته ، لكي يتصرف على هواه كأي «سياسي» يمكنه أن يقول ما يشاء ، فاسقط كثيراً من الاسقاطات السياسية والسايكلوجية على حساب المعرفة التاريخية والمنهجية العلمية! ولم يتوقف عند هذا فقط ، إذ أضاف بعداً ثالثاً لم يعرفه العلماء ولم يقّره الفلاسفة والذين يعملون في حقول البحث التاريخي ، إذ وصف البعد الثالث بتجسيم الصورة من خلال حوار ومشاركة واختيار! فكيف ستصبح كتابة التاريخ وكتابة الأخبار المركبة حسب خطواته التي اعتمدها ، انها ستصبح عنده مجسّمة ، لأنه يدخل معها محاوراً ومشاركاً يتصرف فيها على هواه ، ويختار منها ما يشاء ويرفض ما يشاء !!

هذا باختصار هو منهج محمد حسنين هيكل في تأليف كتبه ، وأسلوب تفكيره وطريقته في إنتاج كتاباته المثيرة ، كما صّرح بها هو نفسه في مقدمة كتابه « أكتوبر ٧٣ » . .

التاريخ الوثائقي : A Documentary History

أما الجانب الخطير الآخر الذي أشاعه هيكل عن نفسه وكتاباته واعتقد به الناس خطأً ، فهو جانب «التوثيق» ، الذي أدعى أنه مالك زمامه وأنه قد طبّقه في كتاباته الصعبة – كما يسمّيها – . . في حين يجد المؤرخ الناقد والمحلل والمقارن أن هيكل هو أبعد الكتاب والمؤرخين عن التوثيق ، فكاتب يشرح منهجه بالصورة التي رأيناها قبل قليل . . لا يمكنه أبداً أن يكون ذا توثيق علمي دقيق . . فالتاريخ الوثائقي Documentary History لا يكتبه المؤرخ المختص شكلاً ومضموناً بالصورة التي نشرت عليها كتب هيكل ! كما أن المعرفة الوثائقية تتطلب عدة ضوابط في التدقيق والمقارنات والاستبطان والتوظيف . . وان صاحب أي دراسة في أي موضوع ضمن حقول التاريخ الحديث والمعاصر لا يمكنه أن يستسلم لمجموعة معينة من

الاوراق الصادرة عن طرف واحد ، فينسخها نسخا ليقدم منها وجبات شهية للقراء بأسم التاريخ الوثائقي . . بل يتطلب منه لعمل على استحضار وثائق كل الأطراف المعنية لمعالجتها منهجيا باسلوب مقارن للمعلومات كافة ، وعند ذاك ، يمكنه استنباط بعض الحقائق . ولقد غاب ذلك كله عن كتابات محمد حسنين هيكل !

جانب في التطبيق:

دعونا نتوقف عند أحد نصوصه المخادعة التي جعلت الناس تتوّهم ـ دون دراية في اغلب الأحيان ـ بأن هيكل يكتب تاريخاً وثائقياً . . فهو يقول : «وربما أن ضرورات البحث عن الحقيقة . . . هي التي دعتني إلى الاهتمام بزيادة التوثيق . . إلى درجة قد تبدو لافتة للنظر . والحاصل أنني استعملت في هذا الكتاب ما يسمونه بأسلوب «التوثيق العميق» إلى درجة أن الوثائق أصبحت بذاتها نسيج نصوصه ، وصلب روايته – في حين أن الباقي كله تحوّل إلى مجرد إطار محيط ، يضم ويحدّدا » (أكتوبر ٧٣ ، ص ١٥) .

ويستطرد هيكل معترفاً (بصوابه) – كما يراه – وهو على خطأ بطبيعة الحال ، قائلاً : «وأعترف أن هناك أسبابا أخرى دعتني إلى تشديد الضغط في طلب التوثيق ، فقد شغلني ، وما زال يشغلني ما جرى للكتاب السياسي في ظروفنا الحاضرة . فجماهير القراء يشدّها الشوق إلى الحقيقة ويضنيها البحث عنها . وقد وجدها البعض – غفر الله لهم – فرصة سانحة لتعليب السراب داخل غلاف كتاب . . .» (أكتوبر ٧٣ ، ص ١٥) .

إن هيكل يعترف – هنا – بأن كتابه هو سياسي وليس تاريخياً ، ولكنه برغم ادعائه أنه شدّد الضغط في طلب التوثيق ، فقد كان ولم يزل بعيداً كل البعد عن منهجية التوثيق العلمي ، سواء بتحديده المادة الوثائقية التي وظّفها في كتابته ، أو إعلام القارئ أين تتواجد تلك «الوثائق» ! فلا يمكن أن يهب الرئيس السادات محمد حسنين هيكل مجموعة تسجيلات ووثائق وتقارير وبرقيات ومراسلات دون أن يكون لها مكاناً محدداً وأرقاماً وإحصاءات . . وأين مصير هذه التركة الوثائقية !! ثم هل أعطى السادات كل الوثائق إلى هيكل ؟ ثم يستطرد هيكل فيقول : «كانت هناك أيضاً وثائق من أنواع أخرى . بعضها وثائق كنت طرفاً في وقائعها وبعضها حصلت عليه من أصحابه . .» (أكتوبر ٧٣ ، ص ١٧) .

وهنا أسأل : هل وثائق الدولة الحربية والسرية والسياسية . . تتبعثر بهذه الطريقة بين أيدي الناس حتى وان كانوا من المسؤولين الكبار أو الصغار؟ ألا يوجد في مصر كلها مركزاً للتوثيق يأويها . . أو يوجد عدة أقسام رسمية ودوائر خاصة في كل وزارة تحترز على وثائق الدولة المصرية ؟!

وأسأل هيكل أيضاً : هل الوثائق التي ألحقتها في ملحق بكتاب «أكتوبر ٧٣» كافية لتغطية هذا «الموضوع» ، علماً بأن هناك معلومات موسعّة كتبتها في هذا «الكتاب» دون أن أجد لها أية توثيقات . . فضلاً عن أن ما يشتمله الملحق المذكور في الكتاب من وثائق لا يغطّي إلا مساحة بسيطة من المواقف السياسية . . في حين غابت الوثائق الرسمية عن الحركات العسكرية والعمليات الحربية بشكل واف !

وفي مقدمته للملحق الوثائقي الذي اتبعه بكتابه الآخر «سنوات الغليان» ، يذكر هيكل النص التالي : «ومن دواعي الحرص على عدم التكرار ، فأن الوثائق التي جرى استعمالها في النص الأصلي للكتاب لم ترد في الملحق الوثائقي ، وأما ما جاء في هذا الملحق فقد أشير إليه في موضعه مجرد إشارة رغبة في أن يكون الملحق الوثائقي جزءاً من الكتاب يقرأ في حد ذاته ، ويؤدي دوره في إلقاء أضواء أضافية على جوانب مختلفة من الصورة العامة للأحداث» (سنوات الغليان ، ص ٧٨٠) .

أن القارئ لا يهمه - يا هيكل - أن تزودّه بملحق من مصورات لوثائق ، أو ملحق وثائقي ، إذ لا يفيدنا هنا الملحق الوثائقي ، وسوف لن يفيد الباحثين والدارسين والمؤرخين . . أن الذي يفيدهم حقاً ، أن توظف وثائقك توظيفاً علميا في استخدام المعلومات بشكل كامل . . وأن تمنهج وتوّثق كل ما تذكره في المضمون سواء في هوامش أو في نهاية كل فصل وبشكل دقيق . . بحيث لا تفسح المجال لترك شاردة أو واردة دون توثيق . . مع ذكر الوثيقة ورقمها ومكان وجودها . . ولما قمت بمراجعة وتدقيق مصورات الوثائق التي يحتويها ملحق كتاب سنوات الغليان مقارنة مع ما كتبته من المضامين . . وجدت أن هناك اختلافات واسعة ونواقص لا يمكن تجاوزها أبداً ! ان عملية كتابة التاريخ ليست عملية اعتباطية ، بحيث لا عمل للمؤلف الا سلخ ونسخ مضامين مراسلات وتقارير دوبلوماسيين سلخا

ومسخا ، لكي يخرجها في كتب متوالية . . معتقدا وغارسا الاعتقاد عند الناس بأن ما نسخه هو حقائق ! وهذا ما فعله هيكل في كل كتبه التي يعتقد الناس أنه أرّخ لمرحلة تاريخية خطيرة من حياتنا العربية في القرن العشرين ، وهذا ليس بصحيح أبدا !

تصويبات تاريخية:

ثمة جوانب تاريخية متنوعة كتبها محمد حسنين هيكل في كتابة «ملفات السويس » ، اود ان اعلق على بعضها ، نظراً لاختلافي معه في تفسيرها . . ذلك لان ثمة أخطاء في المعلومات أو التفسيرات كامنة فيها ، وسأختار البعض منها على سبيل الأمثلة والنماذج لا الحصر :

١ - صحيح أن العالم العربي قد تأثر بتجربة الحرب العظمى (يقصد هيكل بها : الحرب العالمية الثانية) ، ولكن ليس اكثر من غيره من مناطق الدنيا . . متمنياً على هيكل أن يعيد قراءته للمشروعات الفكرية والقومية عند العرب في فترة ما بين الحربين العظميين . . ذلك لان الأفكار الزاحفة قد نبهّته قبل ان تنبهه الجيوش الزاحفة ، وان مشروع أمة ووحدتها كان مزروعاً في وجدانه قبل الحرب الثانية بزمن طويل ! (انظر : ملفات السويس ، ص ٢٧) .

٢ - لست مع هيكل عندما يقول بأن الرسالة المحمدية . . قد تحولت «مع الأمويين إلى إمبراطورية ليس فيها اعظم ما نسب إلى محمد . . فأصبحت مصلحة الأمة حيث تكون مصلحة الأمير وملكه وأمنه وأسرته . وسقطت إمبراطورية الأمويين لتليها إمبراطورية العباسيين . . . .» ـ على حد قوله ـ (ملفات السويس ، ص ٢٧) .

أن كلاً من الدولتين الأموية والعباسية لم تكونا تمتلكان خطوط سياسية أيديولوجية حسب ، بل كانت فيهما تيارات ثقافية وفكرية واتجاهات حضارية متنوعة . . . لم تصل كل منهما إلى ما تحقق لهما من أمجاد خالدة لولا ذلك ، وقد تطور المجتمع العربي والإسلامي على عهود هاتين الدولتين برغم مخاضاتهما الصعبة خارجياً إزاء الأعداء التاريخيين ، وداخلياً إزاء الانقسامات الصعبة ، وكلها انقسامات سياسية تعود بجذورها - كما نعرف إلى أحداث سقيفة بني مساعدة والفتنه الكبرى ومعركة الجمل وغيرها من الأوليات . . . .

٣ - يقول هيكل : «وكانت طبائع السلطة والاستبداد في العالم العربي قد تركته

مفتوحاً لظاهرة من اغرب ما عرف التاريخ ، هي الظاهرة المملوكية . شعوب تذهب إلى أسواق الرقيق لكي تشتري من هناك من تؤمرهم على مقاديرها . تقدم لهم الطاعة ، وتأخذ مقابلها الهوان . .» ـ على حد قوله ـ (ملفات السويس ، ص ٢٨) .

انني أقول : صحيح إنها ظاهرة غريبة جداً في التاريخ ، وليست غريبة في المجتمع ومفاصله ، بل غريبة في الحكم والسياسة ، ذلك لان « الشعوب» لم تذهب إلى أسواق الرقيق كي تشتري . . بل كان الحكام والسلاطين والخلفاء وأصحاب النفوذ والسلطة وأمراء الجيش . . هم الذين يمتلكون الرقيق والمماليك ! وليست الشعوب هي التي تؤمرهم على مقاديرها ، بل كانت الشعوب ترضخ للمقادير التي تؤدي بهؤلاء المماليك والرقيق كي يصعدوا إلى سدة الحكم تدريجياً بحكم خدمتهم للحكام والمسؤولين والزعماء ومن ابرز من استخدم المماليك في مصر كل من الفاطميين والأيوبيين الذين أعقبهم المماليك في حكم مصر ! .

٤ – يقول هيكل : «كان النظام العثماني – نظام الخلافة – هو آخر نظام شرعي – بالرضا والقبول – ساد المنطقة وأدار أمورها ، من القرن السادس عشر إلى بدايات القرن العشرين . وكان عجزه قد تبدى في الواقع منذ أوائل القرن التاسع عشر ، حين ترك دول أوروبا تغير على الشواطئ العربية بدعوى حماية طرق التجارة إلى الهند . وكانت ذروة المأساة في مصر التي تركت وحدها أمام جيوش نابليون مرة ، ثم تركت وحدها مرة أخرى أمام أساطيل الملكة فيكتوريا . . . . . .» (ملفات السويس ، ص ٢٩) .

أرى أن هيكل قد أصاب في الذي قاله كثيراً ، ولكن لابد أن ندرك بأن الدولة العثمانية لم تكن صاحبة نظام خلافة دينية ، بل كانت صاحبة نظام سلطنة سياسية ! وعليه ، فإن نظامها لم يكن شرعياً في عرف التقييم الإسلامي ، حتى وان كان شرعياً في عرف التقييم الاجتماعي! وكم موجود اليوم من أنظمة عربية وغير عربية تعلن عن نظامها (الإسلامي) . ولكن بينه وبين الشرعية الدينية فارق كبيرا ثم أن الدولة العثمانية قاومت بأساليبها الضعيفة غزو نابليون بونابرت لمصر ، ولم تقف مكتوفة الأيدي ، ولكن مقاومتها كانت اضعف بكثير مما يمكن تصوره ! ونحن نعرف أن محمد علي باشا نفسه كان أحد الضباط

العثمانيين (وهو من الألبان) في الحملة العثمانية ضد غزو نابليون لمصر ! .

٥ - يقول هيكل : «وعلى سبيل المثال ، فان الحكم في مصر كان يفتقد إلى الشرعية عند الأساس ، فلقد كان محمد علي مؤسس الدولة الحديثة في مصر رجل استحق شرعية ما انجز ، لكن إنجازه كان من الصعب أن ينسحب على ورثته من أفراد أسرته ، الذين اصبح لهم سلطان مصر بمقتضى معاهدة سنة ١٨٤٠ خصوصاً بعد الثورة العربية ، وحين عاد خديوي مصر إلى أريكة ملكة بنفس مدافع أسطول الجنرال سيمور التي دكت طوابي الإسكندرية ، ثم دخل هو نفسه إلى القاهرة ، ضمن موكب الجنرال ولسلي قائد الغزو البريطاني لمصر سنة ١٨٨٢ في أعقاب مرحلة التل الكبير التي شهدت انكسار الثورة الوطنية المصرية بطعنة الخيانة وتفوق السلاح ! وكانت بقية العالم العربي في ظلال شرعيات مماثلة : شرعية الاستعمار - أو شرعية السيف - أو شرعية حبل المشنقة» (ملفات السويس ، ٦٣ - ٦٤) .

أقول : ربما اتفق مع هيكل في المبدأ ، ولكنني اختلف معه في التفصيلات التي كم كنت أود أن يتعمق فيها تاريخياً ، ذلك لان مسألة الشرعية في الحكم تستند في الأعم الأغلب على مرجعيات متنوعة ، وكل منها تتخذ لها مرجعية معينة ، فثمة شرعية دينية أخرى سلالية وأخرى عربية وأخرى سياسية . . . . إذ لم تكن معاهدة سنة ١٨٤٠ التي اجبر للتوقيع عليها محمد علي باشا (والتي تدعى بـ اتفاقية لندن) هي التي قضت بنودها بشرعية وراثة الحكم لأبناء محمد علي باشا بعد موته حسب ، ذلك لان في حالة وجود هكذا اتفاقية أم لا ، فإن أولاد محمد علي بالضرورة سيتولون حكم ولاية مصر . .

والأمر كان مألوفاً في حكم ولايات أخرى في العالم العربي الحديث ، إذ توارث الحكم من قبله الباشوات المماليك في ولاية بغداد ، وباشوات آل العظم في ولاية دمشق ، والباشوات من الجليليين في ولاية الموصل ، والبايات من الحسينيين في ايالة تونس (وكانوا مزامنين له) ثم الباشوات القرمانليين في ولاية طرابلس الغرب . . وفي مناطق بعيدة عنه ، كان السادة البوسعيديين يتوارثوا حكم عمان وزنجبار ، وكان الأئمة الزيدية يتوارثون الحكم في اليمن ، وهذا ما نجده أيضاً عند السلاطين العلويين في مراكش ، والأمراء من أشراف مكة

في الحجاز . . . . . الخ وقبل الجميع كان العثمانيون أنفسهم يتوارثوا حكم دولة كبرى لهم* . . . . .

هذه « الشرعيات » منها : تاريخية ومذهبية ودينية وزعاماتية ومملوكية وعسكريتارية . . قديمة وحديثة ممتدة من أعماق التاريخ . . فليس لها علاقة بشرعية الاستعمار . . أما السيف وحبل المشنقة ، فهذا ما عرفته مختلف التواريخ ! .

٦ - يقول هيكل : « فإن خصائص العصور المملوكية ، والعصر العثماني في وسطها ، كرّست هذا الوضع لقرون طويلة ، وان كان الشعب المصري بكل قواه لم يكن فيها غير دور المتفرج في صراعات هؤلاء المماليك أو العثمانيين الأجانب ، وأدوارهم الغريبة في قيام الدول وسقوطها » (ملفات السويس ، ص ١٤١) .

نعم ! أنا معك يا شيخنا هيكل في الذي تحكيه الان ، ولكن كم أتمنى عليك مخلصاً ان تتوغل اكثر في دراسة تاريخ المجتمع المصري الذي عاش في ظل حكم كل من دولة المماليك وحكم الدولة العثمانية ، ففي ظل حكم الدولة الأولى كان الشعب المصري مشاركاً إن ليس في آليات الحكم السياسي ، فقد أنجز منجزات ثقافية وحضارية ، فمعالم المنجزات العمرانية لم تزل ماثلة للعيان في قلب القاهرة القديمة ، أما في ظل حكم الدولة العثمانية ، فقد تسلطت فئات القوى المملوكية العسكرية على شئون البلاد ضد فئة القوى العثمانية الإدارية . . . . وانقسم المجتمع المصري على نفسه ، ولم يكن ضحية لتلك الانقسامات المريرة حسب ، بل كان مضطهداً من الناحية الاقتصادية اضطهادا لا يمكن أن يوصف . . وعليه ، فإن الشعب المصري لم يكن متفرجاً بل كان مضطهداً اضطهاداً قسرياً مريراً** ،

تصويبات لأخطاء بلا أي تعليق !

إن مراجعة بسيطة لأي قارئ مطلع له ثقافته العامة ، سيقف عند عبارات واسماء كتبها

* وللتفاصيل : يمكن مراجعة ما كتبه المؤرخ المختص بشؤون مصر الحديثة : دانيال كريسيليوس في كتابه : «جذور مصر الحديثة» الذي ترجمه وعلق عليه : عبد الوهاب بكر ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٥ .

** قارن أيضا بما كتبته من تفصيلات في : سيار الجميل ، بقايا وجذور : التكوين العربي الحديث ، ط١ ، عمان / بيروت : الأهلية للنشر والتوزيع ، ١٩٩٧ ، ص ١٨٧ - ١٩٠) .

محمد حسنين هيكل في كتابه : مدافع آية الله : قصة إيران والثورة . . . . وسأحاول أن اثبت بعضها في أدناه بلا تعليق ، وبإمكان القارئ الكريم أن يتصور حجم المغالطات التاريخية والمنهجية :

١ - البالوش (سكان منطقة بالوسشتان) ! والصواب البلوش ، وهم سكان بلوجستان (مدافع اية الله ، ص ٣٧) .

٢ - يقول : « لذا تفجرت تلك الحركات الدينية المتزمتة في أطراف الإمبراطورية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر - «الوهابية» في الجزيرة العربية و «السنوسية» في ليبيا و «المهدية» في السودان . هذه الحركات التي اتسمت بنوع من القبلية أدى إلى انحسار نطاق تأثيرها - لم تستطع أن تحقق بقاءها في النهاية إلا بارتباطها ببعض العائلات القوية . فليس مصادفة أن اثنتين من هذه الحركات تحولتا إلى نظم ملكية وراثية» (مدافع اية الله ، ص ٤١ - ٤٢) .

أقول :

١ . لم تتسم كل هذه الحركات بنوع من القبلية !! .

٢ . لقد ازدوجت هذه الحركات بأسماء عوائلها القوية التي يأت ارتباطها بتلك الحركات في النهاية . . بل برزت تلك الحركات لاول مرة باسم عوائلها ! .

٣ . لقد ظهر ت السنوسية من المغرب العربي ، واستقرت في ليبيا فيما بعد ، وكان لها دورها في الصراع ضد الفرنسيين في الجزائر والإيطاليين في ليبيا .

٤ . لم تكن جميع هذه الحركات متزمتة دينياً . . . . . فإذا كانت الحركة الوهابية ذات طابع سلفي إصلاحي ، فإن السنوسية ذات طابع تعاوني اجتماعي ، وان المهدية ذات طابع سياسي نضالي ! .

٣ - يسمى هيكل الشاه القاجاري المشهور في ايران نصر الدين شاه ، إذ ورد اسمه هكذا لثلاث مرات(مدافع اية الله ، ص ٤٢ ، ٣٤ ، ٤٤) ، والصواب ان اسمه : ناصر الدين شاه! .

٤ - يقول هيكل وهو يتحدث عن مقابلة الشاب محمد رضا بهلوي ولي عهد إيران للملك فاروق في القاهرة : « وبادله ولي العهد نفس الشعور واكتشف في شخصية فاروق ما

وصفهُ لي بنفسه فيما بعد بأنه (له) «ميول اجرامية» !! (مدافع اية الله ، ص ٥٠) . وأنا أتساءل فقط : هل كان بإمكان محمد رضا بهلوي أن ينعت الملك فاروق انه صاحب ميول إجرامية ؟ وأمام صحفي مصري !! .

٥ - يقول هيكل : «وسنة ١٩١٥ وصف لي الشاه محمد رضا آخر لقاء له مع والده . .» (مدافع اية الله ، ص ٥١) ، واعتقد أن التاريخ مخطوءاً !

٦ - يقول هيكل : « . . . حلف سعد اباد ، وهي معاهدة عدم اعتداء بين تركيا وإيران والعراق وأفغانستان وقعت عام ١٩٣٧ ، لم يقدر له الحيـاة على الإطلاق وماتت آنذاك تماماً . .» (مدافع اية الله ، ص ٧٥) . . . . . والصواب : لقد قدر لميثاق سعد اباد الذي وقع بين هذه البلدان الشرق أوسطية عام ١٩٣٧ ، ان يعيش ، وان صيغته إقليمية منعت عدة مشاكل من ان تحدث بين هذه البلدان لفترة ليست بقصيرة ! .

٧ - يقول هيكل : « دارت المعركة الفاصلة في صفّين على نهر الفرات التي لا تبعد كثيراً عن حلب . . » (مدافع اية الله ، ص ١٠٦) . فهل تحديد هذا الموقع صحيح* ؟ .

٨ - « ترك علي ابنين ، الحسن والحسين ، اللذين كان يمثلان في ذلك الوقت ، كما كان أبوهما من قبل ، فكرة السلالة الحاكمة في الإسلام (أي أهل البيت) » . (مدافع اية الله ، ص ١٠٨) . السؤال : هل هذا بصحيح يا هيكل ؟ .

٩ - « وقد روى أبو ذر الغفاري وهو أحد فلاسفة الإسلام الأول . . . . . .» (مدافع اية الله ، ص ١٠٨) . فهل كان أبو ذر فيلسوفاً ؟ .

١٠ - ويذكر هيكل في موضوع اخر عندما يكتب عن الصراع العثماني - الايراني انه «عندما احتدم الصراع بين ايران الصفوية ، وبين دولة الخلافة العثمانية ، ولعبت الامبراطورية البريطانية دورها في اذكاء روح هذا الخلاف وتعميق جذوره . . .» (سنوات الغليان ، ص ٤٤٨) .

---

* يقع موضع صفين بقرب الرقة على شاطىء الفرات بين الرقة وبالس بعيداً عن حلب . انظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، تحقيق : فريد عبد العزيز الجندي ، جـ ٣ (بيروت : دار الكتب العلمية ، د . ت) .

لقد بدأ الصراع بين الطرفين منذ بدايات القرن السادس عشر ، واستمر اربعة قرون ، حتى بدايات القرن العشرين . . . . ولم اقف على هكذا معلومات تقول بأن الامبراطورية البريطانية كان لها دور في اذكاء روح ذلك بالخلاف وتعميق جذوره !؟

سنوات الغليان: تهافت المضامين

دعونا نتوقف عن واحد من أبرز كتب محمد حسنين هيكل وأهمها . . عنوانه : «سنوات الغليان» في جزئه الأول الذي يتضمن حالة العرب وأوضاعهم ، وخصوصا في المشرق العربي أبان عقدي الخمسينيات والستينيات ، وقد عالج فيه صاحبه جملة من الموضوعات الساخنة التي عايشها عندما كان هو نفسه في قلب الأحداث على عهد الرئيس جمال عبد الناصر . . وقد آليت إلا أن أقف عندما أثارتني بعض النصوص التي أوردها هيكل ، وكأنه كتب الكتاب على هواه دون أي مرجعيات ومصادر تاريخية ووثائقية . . ولقد قصدته هو بالذات عندما كتبت في بداية هذا النص جملة من الاشتراطات النقدية التي لابدّ أن يتمتع بها أي كاتب في التاريخ ، خصوصاً وأن هيكل أصدر كتابه «سنوات الغليان» في طبعته الأولى عام ١٩٨٨ . . وآثرت أن أقف وقفة مطّولة عند سنوات الغليان ، لتفحّصه عن كثب ، ونجمل آراءنا النقدية فيه :

حليمة لا تترك عادتها القديمة !

في مقدمته ، يسهب هيكل في الحديث عن نفسه ، ولم يستطع - كعادته - إلاّ أن يضفي عليه هالة من النوع الذي عرفناه في بقية كتبه . . فهو يكتب في مقدمته : « وأتذكر أن الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران دعاني يوماً إلى غداء كنا على مائدته وحدنا في مطعم ليب بـ سان جرمان ، وناولني نسخة من كتابه السنبلة وحبة القمح وهو يحوي طرفاً من مذكراته وخواطره . .» (سنوات الغليان ، ص ٨) وراح يكتب عن حوار بينه وبيني ميتران حول فلسفة الحرب والسلام ، حتى يصل إلى أن يقول : «ثم آثرت أن أغيرّ الموضوع وانتقل منه إلى غيره!» (سنوات الغليان ، ص ٩) . . نعم ، إنه لوحده على مائدة فرانسوا ميتران ، وأنه أهداه نسخة من كتابه ، وأنه حاوره في الحرب والسلم . . ولما لم يعجب هيكل بما قاله ميتران آثر أن يغيرّ الموضوع ، وينتقل منه إلى غيره !

وأسألك بالله عليك يا هيكل : ما نفع هذا الذي كتبته لنا ؟ وكم سيكون الإنسان عزيزاً بين أبناء أمته أن يتحاشى ذكر مقابلات أو دعوات غداء التي اشك في حصولها وحدوثها من قبل رؤساء دول كبرى أو صغرى . . من المحتمل أن ينخدع بعض الزعماء العرب بمقولات مختلقة وصفات تمجيدية يلقيها هيكل على نفسه ، فيدعونه إليهم . . ربما !! ولكن رجلا بحجم فرانسوا ميتران يجالس محمد حسنين هيكل لوحده على مائدة غداء . . أنني أشك في حصول ذلك ، بل وأتهّم هيكل باختلاق هكذا أخبار لا أساس لها من الصحة عن نفسه ! ؟

تهميش للتفكير السياسي العربي:

ننتقل إلى واحدة من أفكار هيكل التي يبدو فيها بعيداً جداً عن تاريخ العرب المعاصر ، بل وحتى تاريخ بلاده المعاصر . . دعونا نسمعه يقول : « إن الفكر العربي يملك تقاليد يمكن قبولها في نقد «العمل الأدبي» . . لكن تقاليده في نقد «العمل السياسي» لا تزال تبحث عن نفسها ، خصوصاً وأن عهده بإنتاج «عمل سياسي» مستقل ما زال قريباً ، وبالتحديد لم تتوافر إمكانيته إلا بعد معركة السويس سنة ١٩٥٦ - وفي أعقابها امتلك العرب فكراً وفعلاً إمكانية الحوار المستقل على مسرح العالم والعصر» (سنوات الغليان ، ص ١١) .

يبدو أن هيكل لم يطلع على جانبين أساسيين أثنين في حركة التفكير السياسي العربي الحديث منذ ولادته في تضاعيف القرن التاسع عشر وحتى مطلع الخمسينيات من القرن العشرين !

المعطيات العربية الفكرية والعملية:

الجانب الأول : المعطيات الفكرية في السياسة على مستوى الإنتاج أو التأليف أو الترجمة . . وربما كانت ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ البداية الحقيقية عند أحمد لطفي السيد في ترجماته الرائعة لبعض نتاجات الفلاسفة الإغريق ، انتقالاً إلى ما نشرته مجلة السياسة الأسبوعية في مصر والتي عدت واحدة من أبرز المجلات الناجحة . . ناهيك عن الصحافة المصرية بشكل خاص والعربية بشكل عام فضلاً عن مؤلفات في الأدب السياسي والعمل السياسي .

الجانب الثاني : المعطيات العملية في السياسة على مستوى قاعات البرلمان والتظاهرات والمدارس والمعاهد . . والشارع السياسي الذي تمتع به العرب أيام نضالاتهم المجيدة ضد الاستعمار . . . وقد تحقق الاستقلال الوطني على أيديهم . . ويكفي أن يقرأ هيكل خطب مصطفى كامل وسعد زغلول ، أو أشعار أبو القاسم الشابي ومعروف الرصافي . . أو مقالات عباس محمود العقاد ومصطفى أمين . . ناهيكم عن ازدهار الجمعيات والأحزاب والمنتديات والرابطات التي اشتغلت سياسياً على امتداد قرابة نصف قرن !!

فكيف لم تتوافر يا هيكل إمكانية العمل السياسي المستقل إلا بعد عام ١٩٥٦؟ وكيف لم يمتلك العرب هنا وهناك فكراً وفعلاً وإمكانية في الحوار المستقل على مسرح العالم والعصر ؟؟ ألا تعتقد بأنك تهضم حقوق مفكرين وساسة ونواب وحزبيين ومثقفين وزعماء وخطباء وصحافيين . . الخ في أصقاع عربية عدة ، وأنك تغبن العرب في تاريخهم ؟ أنك إن استحوذت وتملكت على الآخرين باختلاق الأحداث والقصص والأمجاد . . فليس من حقك أن تحتكر تاريخنا الفكري والسياسي أيضاً . . وتحقنه لتميته وتبعده عن الذاكرة العربية ، ولم يبق إلا فكر هيكل السياسي وعمل هيكل السياسي ودور هيكل السياسي ! ولكن الأجيال العربية القادمة ستقف مذهلة عمّا كان عليه التفكير العربي سياسيا في النصف الأول من القرن العشرين ، وما آل إليه في النصف الثاني منه !

التاريخ: بين منهج الكتابة الى فلسفة القراءة

يقول هيكل في مقدمته – أيضاً – لـ «سنوات الغليان» :

« أبعد الأشياء عن مقاصدي أن أجعل من هذا الكتاب محاولة لـ «كتابة التاريخ» ، والحقيقة أنه محاولة لـ ، «قراءته» ، وهذا معنى كررته كثيراً في وصف ما أكتبه ، وما زلت متمسكاً به . وليس من باب التواضع أن أقول إن «كتابة التـاريخ» ليست صناعتي ولا أنا مدّعيها ، وليس من باب التفاخر أن أقول إن «قراءة التاريخ» حقّي لأنها حق كل مهتم بالشئون العامة ! ولعلي لا أتزيّد إذا قلت إن «قراءة التاريخ» كانت أصعب بالنسبة لي لأني عشت وقائعه ، وكان عليّ لكي أقرأه بأمانة أن أضع للاختبار كثيراً مما كنت أظن أنني

أعمله ، وأن أطرح للمراجعة كثيراً مما كنت أتوّهم أنني أفهمه» (سنوات الغليان ، ص ١٢ - ١٣) . .

ودعوني أناقش هيكل في هذا الباب الذي طرقه ، فليس بين كتابة التاريخ وقراءته بون كبير ، وعلى الرغم من تواضعك أنك لم تكتب تاريخاً ، ومفاخرتك أنك تقرأ تاريخاً ، فقد أصبت وأخطأت في آن واحد ، فمن لم يستطع أن يمتلك الأداة والوسيلة والمنهج والتفكير في كتابة التاريخ ، فلن ولم يستطع أن يمتلك صناعته وقراءته . . فالمسألة أكثر تعقيداً مما يمكن أن تتصوره ، ذلك لأن كتابة التاريخ وقراءته ليست من حق أي واحد يهتم بالشئون العامة ! أما إن كنت قد عاصرت وعايشت بعض الأحداث والوقائع لا كلها ، فليس معنى ذلك أنك تلّم بكل خفاياها وزواياها وبرغم أن هيكل قد وضع للاختبار كثيرا من الذي كان يعلمه ـ وهذه ميزة حسنة ـ ، ولكن لا أعتقد أنه طرح للمراجعة كثيرا مما كان ولم يزل يتوّهم أنه يفهمه . . وسنجد مجموعة من الأدلة على ما نقوله !

هيكل يكشف عن نفسه !

ويزيد هيكل من أوهامه ، فيقول : «وأزعم أنه كان في استطاعتي أن أقول «أنني كنت هناك» ورأيت بعيني وسمعت بأذني ، وشاركت في حوار الحوادث ، ثم يصدقني كثيرون يعرفون أنني «كنت بالفعل هناك» ، ولكنني عدت بعد ذلك فأشفقت على نفسي – وربما على الناس – فلقد أصبح الشك هو القاعدة والتصديق صعب المنال . ولقد كان من هنا أنني ذهبت في توثيق هذا الكتاب إلى حد يتجاوز المعروف والمألوف . والواقع أنني قصدت أن أتجنب ضمير المتكلم تماماً . ولم ألجأ له إلا في ثلاثة مواقف ، أو أربعة كان مستحيلاً أن يستقيم حديثها بغيره . آثرت – عامداً – أن تكون الوثائق هي ضمير المتكلم !» (سنوات الغليان ، ص ١٤) .

لا يا أيها الشيخ الجليل . . لقد كتبت أشياء كثيرة وحوادث عديدة ، ومواقف متنوعة على امتداد سنوات الغليان وغير سنوات الغليان . . ولكنك لم تكن هناك فيها ولم تر عينك ولم تسمع أذنك . . ولم تشارك في حوار كل الحوادث . . وعليه ، فسترى كيف جاءت قراءتك لتاريخ سنوات الغليان ، وخصوصاً عن مصر والعراق والأردن وسوريا واليمن

والسعودية والمغرب . . وكذلك عن الغرب وإسرائيل والسوفييت ! لقد كانت لديك - مع الأسف -جملة من الأخطاء الفاضحة ، علما بأن الحقائق واضحة وضوح الشمس لا لبس فيها ، فأن كنت قد قرأتها وكتبتها بشكل خاطئ . . فالمسألة شك وتصديق . . كما هو الحال في اختلاف وجهات النظر . . ذلك لأن المعلومات التاريخية أما أن تكون صحيحة وإما أن تكون خاطئة !

وعليه ، فأنت تدّعي التوثيق إلى حد يتجاوز المعروف والمألوف! وهذا ليس بصحيح أبداً ، ذلك أنك لم توّثق ما كتبت توثيقاً علمياً دقيقاً فلو فعلت ذلك لما كنت في مثل هذا المأزق وقد أوقعت نفسك في أخطاء عدة . . . اولا ، ولكان رجعت بتلك «الأخطاء» إلى أصحابها الحقيقيين .

والأمر الأخير يا هيكل يضمّه تساؤلي : إذا كنت قد تجنّبت ضمير المتكلم تماماً ، ولم تلجأ له إلاّ في ثلاثة مواقف أو أربعة - بل أكثر من ذلك بكثير ، وقد آثرّت أن تكون الوثائق هي ضمير المتكلم . . فبالله عليك ماذا كان لك من أدوار تاريخية مؤثرة وفعالة في مسألة الوحدة بين مصر وسوريا ؟ ، وما هو دورك في أحداث ثورة ١٤ تموز/يوليو ١٩٥٨ الدامية في العراق ؟ وهل صادقت نوري السعيد وعبد الكريم قاسم في العراق ؟؟ وما هو دورك في مباحثات الوحدة الثلاثية ؟ وما هو دورك في قضية الانفصال ؟ ولكن أعتقد أن الذي تقصده والذي فاتك فعلاً ، فهو غياب لقاءاتك وحواراتك وصداقاتك التي إدّعيتها ، ودعوات الغداء من قبل زعماء العرب والعالم . . ونقاشاتك معهم وإفحامك لهم ، وتغييرك المواضيع التي تحاورهم فيها لأنها لا تتفق وأفكارك ! . لقد ظهر هيكل وكأنه يكشف عن حقيقته امام الناس والاجيال من بعده ، لأنه يحسّ بما في مضامين كتبه من اضطهادات للتاريخ العربي المعاصر ولزعمائه ورجاله ، مع تزوير واضح لاحداثه ووقائعه ومعلوماته !

مصادر معلومات هيكل:

يقول هيكل : « وأما عن الفضل - وهو حجم ونوع التوثيق - فقد يلحظ قارئ هذا الكتاب أن التوثيق له من مصادر أجنبية ، لا يقل اتساعا وتنوعا عن التوثيق من مصادر

عربية ، ولم تكن لي فيه ميزة أنني ، « كنت هناك» - وكان الفضل فيه لعدد من الاخوة والأصدقاء لم يدخروا جهدا ، ولا وقتا لكي يتعقبوا موضوعات اهتمامي في مكانها من مجموعات أوراق رؤساء الدول ، وملفات وزارات الخارجية ، وحتى في تقارير عديد من أجهزة المخابرات في أوروبا وأمريكا ، ولقد تحملوا في سبيل ذلك الكثير بما فيه مشاق إجراءات استعمال قانون حرية المعلومات في الولايات المتحدة . وهو ليس طريقا مفتوحة للمرور دون عوائق . .» (سنوات الغليان ، ص ١٥) .

لا . . لا ما هكذا يمكن أن يُضْحك على الناس وعلى العرب بالذات قراء وساسة ومثقفين . . زعماء كبار ومواطنين عاديين ! فالمصورات التي سمّيتها بالوثائق يا هيكل والملحقة بكتابك «سنوات الغليان» ، ليست سوى رسائل وتقارير واردة إلى أجهزة الحكومة المصرية ، ومذكرات وخطابات ومحاضر ليست سرية ـ كما تدّعي ـ وأغلبها معروف ومنشور ، لا يحتاج إلى كل هذا الطنين وتبيان المشاق في استعمال قانون حرية المعلومات . . وأين هو التوثيق ؟ سأبقى أسألك دوما ويسألك غيري على امتداد الأجيال القادمة ؟ وما علاقة قسم كبير من هذه الأوراق المصورة والتي ألحقتها بكتابك . . ما علاقة ذلك بمضمون الكتاب ؟؟ ثم أين هي مجموعات أوراق رؤساء الدول ؟

ثم أين المصادر العربية التي اعتمدت عليها ، وان التوثيق ـ كما ذكرت من مصادر ـ أجنبية لا تقل اتساعا وتنوعا عن المصادر العربية ؟ إذا كنت بالفعل قد اعتمدت على مصادر حقيقية ، فلماذا كثرت عندك الأخطاء حتى على مستوى أسماء بعض المسؤولين والقادة وعلى مستوى المعلومات ؟ وعلى مستوى الحوادث والوقائع ؟ وكنت أتمنى أن تخلق وتصطنع جملة من أحداث وتراكيب وحوارات ومواقف من خلال ما أسميته أنت بـ «كنت هناك» ولكنك تحاشيت ذلك . . لأنك تعلم أن ذلك سيغدو فضيحة بجلاجل !!

عبد الرحمن الرافعي مؤرخا:

ولعل خير دليل على ما تقدم تحليله في أعلاه «نص» كتبه محمد حسنين هيكل في هوامش أحد كتبه المهمة (التي والحق يقال أعتز بها) والموسوم بـ « ملفات السويس : حرب

الثلاثين سنة» . كتب يقول : «أكثر من أشتهر بالتاريخ في مصر في العصر الحديث هو الأستاذ عبد الرحمن الرافعي ، والحقيقة أن الأستاذ الرافعي بذل جهدا ضخما في الرصد والتسجيل ، ولكنه لم يكن مؤرخا بالمعنى الدقيق للكلمة ، فلم تكن تلك صناعته ، ولا كانت الوثائق متاحة أمامه ، ثم إنه كان منحازا لوجهة نظر معينة في السياسة المصرية بوصفه قطبا كبيرا من أقطاب الحزب الوطني ، ومع ذلك فان جهده في جمع صورة عامة لتاريخ مصر الحديث يبقى جهدا عظيما يستحق الإعجاب والاحترام . ولقد تورط آخرون ممن انتسبوا إلى التاريخ فإذا كثيرون منهم أطراف في معارك سياسية أو صحفية لا علاقة لها البتة بموضوعية التاريخ وعلميته . ثم أن آخرون درسوا التاريخ مسطحا بعيدا عن التضاريس الاجتماعية والطبيعية ، ولم يكتفوا بالتحقيق والتحليل والتوثيق ، وإنما أطلقوا أحكاما عامة ، تركت أشرعتها للرياح توجهها حيث تشاء . مع أن التعميم بالقطع خطأ فقد كان هناك ـ بعد هذا كله ـ من حاولوا بالصدق فاستحقوا ثوابه! » (ملفّات السويس ، ص ٣٤ ـ ٣٥ ، ملاحظة رقم ٢) .

ولا ادري هل نجح هيكل في تطبيق هذه «المبادئ العلمية» و «الثوابت» المنهجية في كتابة التواريخ المعاصرة ، وإذا كان الأستاذ الرافعي قد اشتهر بكتاباته التاريخية على العهد الملكي في مصر ، وبذل جهدا ضخما في الرصد والتسجيل . . وإذا كان هيكل قد انتقد الرافعي لأنه كان منحازا لوجهة نظر معينة في السياسة المصرية بوصفه قطبا كبيرا من أقطاب الحزب الوطني ، فان هيكل نفسه كان (واشدّد على كان) منحازا لوجهة نظر معينة في السياسة المصرية ليس بوصفه قطبا كبيرا من أقطاب النظام الناصري والساداتي ، بل كان واحدا من أبرز المستشارين الذين اعتمد عليهم كل من الرئيس جمال عبد الناصر والرئيس أنور السادات !!

واعتقد أن هيكل لا يقارن بالرافعي لأن هذا الأخير كان وما زال يحسب على كتبة التاريخ المعاصر الذين امتازوا بجمع وسرد المعلومات التاريخية ولكن بأمانة وصدق . . وكانت له ثقافة تاريخية واسعة ، في حين كان هيكل ولم يزل يحسب على الكتّاب الصحفيين المعاصرين . . ولم تكن له ثقافة تاريخية واسعة . وإذا كان هيكل قد انتقد غيره

من المؤرخين على سطحيتهم وابتعادهم عن التضاريس الاجتماعية والطبيعية . . وإطلاقهم أحكاما عامة ! فالكاتب هيكل نفسه غالى في كتاباته السياسية على حساب تحليل الأوضاع الاجتماعية . . كما أنه متهم خطير بإلقاء الأحكام العامة !

التهويل والأفكار المسيطرة :

ثمة أفكار نشرها محمد حسنين هيكل وكتابات بناها على معلومات تاريخية أو سياسية خاطئة . وعليه ، فقد تفاقمت في أخطائها كثيرا مقارنة بما هي عليه حقائق التاريخ والمعرفة! وسنلتقط الرجل في عدة أماكن يضيع في دوامة الأحداث ، ويخطئ في كتابة الأسماء ، فضلا عن تهويله لأمور لا تستحق التهويل . . وهو بين هذا كله وذاك لا يتخلّص من الأفكار المسيطرة عليه في تفسير بعض الظواهر وكتابة الأحداث ، إذ غلبت عليه النزوعات المؤدلجة على كتابة المعرفة !

يقول هيكل : « صحيح أن مصر بدأت تتنبه منذ عصر محمد علي الذي حاول تأسيس دولة حديثة في مصر إلا أن محمد علي لم يكن مصريا ، وكذلك كان حلمه عثمانيا (أن يصبح خليفة في استانبول أو صدرا أعظم على الأقل) ، ولعل مصر وشعبها كانا مجرد معابر يمشي عليها عائدا من حيث جاء أكثر قوة وأرفع شأنا وأعلى منزلة . وعندما انتهت أحلامه وانحصرت في ولاية مصر وحدها ملكته الحسرة فضاع عقله ومات . ولا يقلل ذلك من شأن محمد علي فهو شخصية تاريخية تستحق الاحترام ، كما أنه من الصعب الحكم على رجل تاريخي خارج ظروفه وخارج زمانه» (سنوات الغليان ، ص ٩٦) .

لا ادري إن استطاع هيكل أن يقرأ كتابا واحدا من الكتب العلمية بالعربية أو بالإنكليزية والفرنسية من التي أرخت لمحمد علي باشا وعهده المليء بالتحولات . . وما أكثرها في مصر وغربي أوروبا وأمريكا . . تلك التي كتبها مؤرخون مصريون او غربيون من ذوي الاختصاص؟ ولا أدري لماذا حذف مصطلح «باشا» عن اسم محمد علي ؟ ولماذا أعاد عبارته عن محمد علي باشا وكرّرها هذه التي سمعناها منه وقرأناها له . . وإذا لم يكن باستطاعة هيكل معرفة تاريخ بلده الحديث على عهد محمد علي باشا ، فكيف بالآخرين دون وزنه من الذين لا تهمّهم التواريخ والجغرافيات ؟

محاكمة النص وتحليله:

دعونا نحاكم هذا «النص» الذي اخترناه، مثالا ونموذجا من بين عشرات النصوص المتعبة التي كتبها هيكل دون دراية بتاريخ مصر والبلدان العربية وشؤونها في التاريخين الحديث والمعاصر . . فماذا نقول ؟

١ - هل تعتقد يا هيكل أن مشروع محمد علي باشا في تحديث مصر إبان العقود الثلاثة الأولى من القرن التاسع عشر، هو مجرد «محاولة» لتأسيس دولة حديثة، أم مشروع واسع النطاق لتأسيس دولة وتحديث مجتمع ؟

٢ -كيف عرفت بأن حلمه كان عثمانيا وليس مصريا ؟ هل لأنه لم يكن مصريا نفسه؟ وكيف تثبت لنا نحن معشر المؤرخين في تاريخ العرب الحديث بأن حلمه كان عثمانيا ؟ ومن الذي أبلغك بأن محمد على باشا كان يحلم بأن يصبح خليفة في استانبول ؟ أو صدرا أعظم على الأقل؟ هل تعتقد أن مكانته التي أسّسها زعيما لمصر كانا قليلة وتافهة ؟

٣ - من قال لك بأن استانبول كانت دار خلافة ؟ ألم تميز بين «الخلافة العربية» و «السلطنة العثمانية» ؟ أتعتقد أن مكانة الصدر الأعظم في الدولة العثمانية أكبر من مكانته كزعيم للدولة المصرية التي اخترقت البر والبحر في عهده، وامتدت جيوشه إلى أعماق الجزيرة العربية والسودان وبلاد الشام والبحر المتوسط والأناضول ؟

٤ - وهل تعتقد - بعد كل الدراسات والبحوث العلمية التي صدرت بالعربية والإنكليزية - ان محمد علي باشا أراد من مصر وشعبها أن يكونا مجرد معابر يمشي عليها عائدا من حيث جاء ؟

نعم، لقد أسس محمد علي باشا نفسه في مصر : عائلة متمكنة ودولة قوية ومجتمعا حديثا ، وان مجرد التفكير في الإنجازات والتحديثات التي قدمّها لمصر . . كافية لأن يكتب عنه هيكل بطريقة أفضل ! ولابّد أن تسأل يا هيكل بعد أن تقرأ تاريخ مصر قراءة متمّعنة مبتعدا عن هواجسك السياسية، وأفكارك العاطفية بأن محمد علي باشا لم تنته أحلامه إلا بعد أن قيّد من قبل اتفاقية لندن عام ١٨٤٠ بجملة من القيود، وقد أبت إنكلترا إلا أن

تقّيد توسعاته وتحركاته . . لأنه كان في طريقه لتأسيس دولة إقليمية كبرى في المنطقة !

ولكن حسرته لم تأت من المصريين الذين أخذ بأيديهم إلى سبل النهضة ، بل أتت من الإنكليز بشكل خاص ، والذين نكلّوا بمشروعه أسوأ تنكيلا صحيح أنه ناوأ العثمانيين إقليميا ، إلا أن علاقته بقيت رسمية مع الباب العالي . . **ولولا رسوخ الركائز القوية التي بناها محمد علي باشا لدولته المصرية ، لما بقيت سلالته تحكم مصر قرابة مائة وخمسين سنة في التاريخ الحديث والمعاصر** . . ولولا جملة التحديثات النهضوية ، وخصوصا الاقتصادية والإدارية والتعليمية التي أجراها محمد علي باشا للمجتمع المصري ، لما كان هذا « المجتمع » قد سبق غيره من المجتمعات العربية والإسلامية بعشرات السنين . . **ولابد للعرب جميعا أن يعترفوا بأن محمد علي باشا قد سبق عصره بقوة مشروعه النهضوي الحديث .**

هل كان عقل مصر حائرا مترددا؟

في مكان آخر ، يقول هيكل : «كانت هناك فجوة أخرى قائمة وهي فجوة الفكر والثقافة ، فالفكر والثقافة دائما طلائع الثورات . وكان عقل مصر منذ أواخر القرن التاسع عشر ، والى منتصف القرن العشرين يقف حائرا ومترددا أمام تيارين في الفكر والثقافة :

أولهـا : التيار الديني بأصول الراسخة المتمثلة في الأزهر العتيد .

وثانيها : هو التيار الليبرالي الذي ترجم عن أوروبا الغربية ، ونسي نفسه عاشقا متيما بما ترجم .

كان التيار الأول مأخوذا بالتراث ، وكان التيار الثاني مأخوذا بالتجديد . وكان التراث الذي أوجده أصحاب التراث هو ما أبقته الأيام بعد العصور المملوكية والعثمانية - ولم يكن هذا صالحا للعصور الجديدة المتغيرة . وبنفس المقدار فان التجديد الذي حصل عليه أصحاب التجديد لم يزد كثيرا عن جهد الترجمة - ولم يكن ذلك كافيا للواقع الاقتصادي الاجتماعي .ولم يستطع التياران إيجاد لغة مشتركة بينهما إلا من خلال الاستثناء ، وليس من خلال القاعدة . وأصبح الفكر والثقافة في مصر خطين متوازين لا يلتقيان إلا فيما ندر . . . ولقد أضيف إلى هذين التيارين - شبه تيار ثالث لم يقدر له أن يتقدم كثيرا ، وهو تيار

الفكر الماركسي الذي ظهر بعد الحــرب العالمية الثانية ، والذي حــدث أن هذا التيار كان بعيدا تماما عن القربة الوطنية والقوميــة ، وقد جاءها غريبا ، وعندما بدا أنه يتخلص من غربته ويتأقلم كانت مصادره ومنابعه نفسها تجف ، والعصور تتجـاوزه» (سنوات الغليان ، ١١١ -١١٢) .

مناقشــة النص :

أنني اسأل : لماذا تبقى واقفا تصّر على أن تحاكم عقل مصر خلال النصف الأول من القرن العشرين ؟ لماذا تدمج السياسة مع العقل على غرار ما كتب على امتداد الثورة الناصرية : السياسة ونقدكم لها أيام كانت على عهدي فؤاد الأول وفاروق الأول وما سبقها من عهود . . مع العقل ، وكأن عقل مصر واجب إدانته لأنه سبق الثورة ؟ وإذا كان هناك ثمة فساد سياسي أو إداري أو اقتصادي في مصر قبيل الثورة عام ١٩٥٢ . . فلماذا يحاكم العقل المصري والفكر والثقافة التي كانت سائدة وقت ذاك ؟ أي فجوة هذه التي تحكي عنها يا هيكل بين الفكر والثقافة ؟ والآن وبعد مرور قرابة نصف قرن على الثورة المصرية عام ١٩٥٢ ، وبرغم كل المجهودات والمتغيرات الحاصلة . . هل اختفت الأمية عن شعب مصر وبقية الشعب العربي من محيطه الى خليجه ؟؟ أم أنها زادت في مصر خصوصا بشكل مدهش !

وأسألك : كيف نثبت جدليا ومنطقيا ان عقل مصر منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين وقف حائرا ومترددا أمام تيارين اثنين : ديني وليبرالي؟

إنني أعتقد العكس يا هيكل . . وربما تشاركني نخبة من المفكرين العرب عامة والمصريين خصوصا ، إذ لم يقف عقل مصر حائرا ولا مترددا أمام تيارين ! كان عقلا متفتحا على كل مسارب الفكر وينابيع الثقافة . . وكان عقلا منظما شاعت التعددية والتنوع فيه . . وهو عقل انتج إبداعا خلاقا لا يمكن للإنسان أن ينكره على مستوى الآداب والشعر والفنون . . على مستوى الغناء والموسيقى والمسرح والسينما . . ولا يمكن لأي عربي في هذا الوجود أن ينكر انفتاح مصر على المثقفين العــرب الذين كانوا يستوطنوها ويبدعون على أرضها ! وان كل المبدعين المصريين الذين برزوا في الخمسينيات والستينيات

والسبعينيات كانوا قد تربوا وتكوّنوا تكوينا قويا في العقود الثلاثة السابقة أي تلك المنحصرة في فترة ما بين الحربين العظميين* .

مصر وإبداعات العقل والفن والأدب :

ان النصف الأول من القرن العشرين قد غبن تاريخه كثيرا في مصر ، ومن قبل إخواننا الكتاب والمؤرخين المصريين . . إذ اعتقد ، ـ وربما كنت مخطئا ـ انهم لم يفرزوا إلى حد اليوم ونحن عند نهايات القرن العشرين : كيف كان الفكر والفن والثقافة والصحافة والأدب والشعر والغناء والسينما والمسرح . . . بمصر في النصف الأول من القرن العشرين ، مقارنة بما غدا عليه وضعه في النصف الثاني منه . . ولا اعتقد أن الثقافة كانت هناك نخبوية وغدت هنا شعبية ـ كما يريد البعض أن يعلل ذلك ـ ، ذلك لأن أسماء كثيرة لمعت في مصر وفي ميادين شتى ، وكانت أصولها شعبية وفلاحية وصعيدية !!

أن هناك اليوم في مصر إعادة في التفكير لما جرى فيها على امتداد قرن كامل . ولكنه مجرد تعبير عن اللاوعي المخزون الذي يندفع باتجاه نقد ما آلت إليه الأوضاع . . ففي الوقت الذي كان لابد أن تكون مصر اليوم في ذروة عطائها ، وهي التي قدمت للعالم نخبة رائعة من المفكرين والعلماء والفنانين . . نجدها قد تأخرت عمّا كان لا بد لها أن تكون ! إن عملية نقد الواقع السياسي والاقتصادي شيء ، وعملية تقييم الفكر والثقافة وإبداعات العقل شيء آخر . . فلا يمكن لمحمد حسنين هيكل أن يغالط نفسه ، وهو الذي صنعه ورباه جيل من الأساتذة الممتازين الذين برزوا في فترة ما بين الحربين العظميين !

الليبرالية المصرية :

من جانب آخر ، أود أن أذكرك أن الأزهر العتيد لم يكن حجر عثرة أمام الفكر والثقافة . . وما كان ليتدخل في الظروف الحرجة . ولم يكن التيار الديني متبلورا بشكل يقف إزاء التجديدات والأفكار التي لا تتسق مع مضامينه ، بل كان ثمة كتاب يحسبون أنفسهم

---

* ربما اختلفت هنا – ايضاً – مع تحليلات من نوع آخر كتلك التي كتبها : حسن حنفي ، الدين والثورة في مصر ١٩٥٢ – ١٩٨١ (القاهرة : مكتبة مدبولي ، ١٩٨٩) .

على هكذا تيار ، أمثال : مصطفى صادق الرافعي ومحمد رشيد رضا والإمام حسن البنا وغيرهم . . كما لا يمكنك يا هيكل أن تقرن التيار الديني بالتيار الليبرالي في مصر إبان النصف الأول من القرن العشرين ، ذلك لأن الحياة الليبرالية المصرية كانت قد أرست بركائزها في مصر منذ ثمانينيات القرن التاسع عشر ، بتشكيل أول حزب سياسي مدني عربي في مصر . . وبداية الحياة البرلمانية ، وولادة الصحف والمجلات إذ تشبعت مصر بروح التعددية ، مما أفاد الفكر والثقافة فيها على أيدي جيل الاستنارة الفكرية . . جيل طه حسين الذي أشاع التفكير الحر والخلق والإبداع وليس كما وصَفْتَهُ بأنه : «التيار الليبرالي الذي ترجم عن أوروبا الغربية ، ونسي نفسه عاشقا متيما بما ترجم ـ على حد زعمك ـ !

أهذا كلام يقال بحق الفكر والثقافة في مصر والتي يتمثلها الليبراليون الأوائل ؟ وهل اقتصر عملهم على ترجمة ما كان في أوروبا الغربية ؟ وهل نسوا أنفسهم عشاقا متيمين بما ترجموه ؟ لقد مضى نصف قرن على زوال الحياة الليبرالية المصرية . . وأنا لست في موقع للدفاع عنها سياسيا ، فربما اختلفت مع آلياتها ومناهجها ، ولكنني في موقع للدفاع عن عقل مصر الذي يريد محمد حسنين هيكل أن يغمطه حقه في التاريخ ، باعتبار أن كل ما سبق ثورة ١٩٥٢ في مصر كان يباسا يبابا !! وهذا ليس بصحيح مطلقا . .

لقد كانت هناك إبداعات مصرية على مستوى الفكر والثقافة لا يمكن أن تضاهى ، فهل حققت مصر بعد ذلك ما يوازيها ؟ ولقد كانت الحياة الاجتماعية المصرية برغم البؤس والشقاء الذين كان يعاني منهما أبناء الريف المصري ، وخصوصا من الإقطاع وأصحاب رؤوس الأموال . . إلا أن حياة المدن ، وأساليب المجتمع والعادات والتقاليد الأسرية . . وأسباب التكافل وحماية المصالح العامة والسكن والخدمات والتنظيم . . كانت على أحسن ما يرام ، وربما ستكون الأفلام المصرية القديمة هي مصادر تاريخية حية لاستكشاف الحياة الاجتماعية المصرية التي كانت عليها أوضاعها في النصف الأول من القرن العشرين . . ناهيكم عن الصحف والمجلات والادبيات المصرية القديمة التي مضى على نشأتها اكثر من قرن كامل .

إن التجديد يا هيكل والذي حصل عليه أصحاب التجديد زاد كثيرا عن جهد

الترجمة . . ولا أدري إن كنت قد تابعت وما زلت تتابع حركة الفكر والثقافة في مصر ابان تلك الأيام أم لا ؟ ولا أظنك تغالط نفسك كعادة السياسيين والشعاراتيين والمؤدلجين . . انهم ينقمون ليس على النظام السياسي فقط ، بل يجرّدون البلاد وتاريخها ومجتمعها من كل شيء ! من اجل تعزيز أفكارهم ، وإشاعة دوافع سياستهم وهكذا ، وصل الأمر بهم في مصر وغيرها من البلدان العربية أن يطلقوا تسمية « العهد المباد » أو يستخدموا شعار « الرجعية » على كل الذي مضى زمنه قبل حدوث الثورات الوطنية او الانقلابات العسكرية .

ويا صاحبي كيف اصبح الفكر والثقافة في مصر - عندك - متوازيين لا يلتقيان إلا فيما ندر ؟ هذا ليس كلاماً معقولاً أبدا . . فثمة مشاريع فكرية وثقافية كانت مشاعة لكل الناس . وكثيرا ما التقى الفكر والثقافة معا وخصوصا في مصر التي كانت حركتهما فيها تعملان على أكثر من طرف وباتجاهات مختلفة !

جمال عبد الناصر: الواقع والمثال

يقول محمد حسنين هيكل وهو يصف الرئيس الراحل جمال عبد الناصر في أحد أبرز النصوص التي كتبها في كتابه « ملفات السويس » : «كانت أولى ميزات جمال عبد الناصر هي قدرته على تحليل المواقف الصعبة بردها إلى عواملها الأصلية ، وتحديد هذه العوامل تحديدا واضحا حتى يتبين جوانب الموضوع الذي يعالجه . وفي تلك الظروف فانه وجد نفسه وجها لوجه أمام الواقع المصري كما هو . قبل الثورة كان يتصور أن الأمور سوف تكون هيئة إذا تمّت إزاحة الملك فاروق عن عرش مصر » .

ويستطرد هيكل قائلا : « وفي الأيام والأسابيع الأولى بعد الثورة ، فانه بدا يكتشف الواقع ومشاكله المتشابكة ، ويهوله ما يراه . وفي تلك الأيام كان كثيرا ما يردد ضاحكا : يظهر ان الملك فاروق كان على حق » ، وكان بذلك يشير إلى البرقية التي بعث بها الملك فاروق من فوق ظهر اليخت الذي حمله الى منفاه ، والتي قال فيها الملك موجها حديثه إلى القيادة (في مهمتكم الصعبة) - فاروق » (ملفات السويس ، ص ١٦٢ - ١٦٣) .

هذا كلام خطير جدا ، يكشف فيه كاتبنا هيكل عن الوجه الاخر للرئيس جمال عبد

الناصر ومنذ بواكير تسلّمه مسؤولية حكم مصر ، واذا كان أي مؤرخ او أي سياسي مجرّب يدرك ذلك ليس بالنسبة لعبد الناصر وحده ، وليس بالنسبة لحكم مصر بالذات بل في أغلب البلدان العربية الصعبة ، ذلك . . انها مسألة طبيعية لا تدركها الا القلة القليلة . . فكل المثاليات والرومانسيات والشعارات السياسية يتجمد تحقيقها ولا تجد سبلا للتنفيذ امام الواقع المر ، خصوصا تلك التي تخضع معاييرها لكتل ضخمة من المتغيرات والازمات والمشكلات التي يعج بها الواقع بمختلف تموجاته وألوانه وخطوطه ! ولا يتحسس مخاطرها الا ما يعتلي سدة الحكم والمسؤولية .

ان هيكل في « النص » الذي أتانا به قد أعطى مثلا ساطعا يتمّثله الرئيس جمال عبد الناصر بعد تسلّمه مقاليد السلطة بمصر . . مع أمثلة أخرى ساقها لنا في أماكن أخرى من كتبه ومقالاته تعلمنا عن جدلية عبد الناصر بين المثال الذي كان يتطلّع لتحقيقه وبين الواقع الذي كانت عليه مصر وبقية البلدان العربية . ولست هنا ألان في معرض لتقييم تجربة عبد الناصر أو غيره من الزعماء العرب على امتداد القرن العشرين ، إلا بالقدر الذي يحدّدني أياه نقد بعض النصوص والمضامين التي أتانا بها محمد حسنين هيكل في ابرز كتبه .

وعليه ، أقول بأن المشكلة عندنا الآن ليست عند هذا أو ذاك ، بقدر ما تكمن عند هيكل نفسه الذي يأتينا بنصوص ومعلومات وأفكار حتى عن الرئيس جمال عبد الناصر ، ولا يحاول تفسيرها وتحليلها من خلال نقد المواقف ومقارنة الأوضاع والتوغل في حقيقة الأمور* . . بعيدا عن أي تعاطف مع هذا أو تهجم على ذاك ! فهل فعل هيكل ذلك ؟ انني أشك في ذلك من خلال ما كتبه إلى حد الآن !

نقد هيكل لتجربة جمال عبد الناصر :

عندما ألح المدعي الاشتراكي على محمد حسنين هيكل بالسؤال اثناء محاكمته في الجلسة الثامنة يوم الاربعاء ٢١ يوليو / تموز ١٩٧٨ (وقائع تحقيق سياسي) قائلا له : اذا كنت في اثارة بعض التجاوزات والاخطاء ـ وقد حددت بعضا منها في حديثك ـ حملة ضد

* من الاهمية بمكان ، مراجعة : جمال عبد الناصر ، خطب الرئيس جمال عبد الناصر (القاهرة : وزارة الاعلام ، الهيئة العامه للاستعلامات ، د.ت) .

الرئيس جمال عبد الناصر ، فبماذا تبرر سرد هذه التجاوزات خلال حديثك ؟ وما الاسلوب الذي تراه لتصحيح المسار عند حدوث أخطاء في التطبيق ؟

أجاب هيكل قائلا : «لقد كانت هناك بالطبع تجاوزات وأخطاء في عهد جمال عبد الناصر كما يحدث في أي تجربة ضخمة بحجم تجربته . وقد نقدت بنفسي ـ كما قلت ـ بعض هذه التجاوزات والاخطاء ، وفعلت ذلك في حياة جمال عبد الناصر . ولقد كتبت عن قضايا الديمقراطية ، ونقدت بشدة اجراءات كالحراسات والاعتقالات وغير ذلك مما صاحب التجربة ، وأريد أن أقول بوضوح ان بعض ذلك كان ضروريا ، أو فلأقل ان بعض ذلك كان محتمل الوقوع ، خصوصا في ظروف التحول الاشتراكي . . . » (انظر كتابه : وقائع تحقيق سياسي أمام المدعي الاشتراكي ، ط ٩ ، ص ٢٤٣) . ويستطرد هيكل بقوله : « . . . فانني ناديت بدعوة الى ضرورة « تحييد أمريكا» ، وجرت عليّ هذه الدعوة مشاكل لا حدود لها . ان البعض حاولوا أن يخرجوا بما دعوت اليه عن الهدف الواضح له ، وربما انهم عجزوا عن فهم الأوضاع المتغيّرة في العالم » (وقائع تحقيق سياسي ، ص ٢٤٣) .

مسألتان أساسيتان:

ان هيكل برغم تبريراته حول هاتين المسألتين :

الأولى : بنقد سياسة عبد الناصر واعترافه بالاخطاء والتجاوزات ومنها : قضايا الديمقراطية والحراسات والاعتقالات . . وهي من أهم ما تنتقد عليه تجربة عبد الناصر من قبل خصومه . . جاء هيكل لا ليعترف بها حسب ، بل ليقول انه انتقدها بشدة دون أن يبين متى وأين ؟ هل كان ذلك ضمن مقالاته المشهورة « بصراحة» والتي كشفت عن حقيقة هيكل في مواقفه من هزيمة ١٩٦٧ وتضخيمه لاسطورة الجيش الاسرائيلي وتقليله من شأن الذات العربية ؟ وهل كانت مواقفه تلك ذاتية الطابع والمحتوى أم انها كانت مخططة من قبل دوائر عليا في البلاد ؟؟ ونحن نعلم كم هو مدى ارتباط هيكل بنظام جمال عبد الناصر !

الثانية : صحيح ان الاوضاع العالمية لها متغيراتها كل حين ، وانني أفهمك حق المعرفة ، وأنت تفهم ذلك حق المعرفة . . لكن لماذا اخترت توقيتا معينا كي تدعو الى مسألة « تحييد

أمريكا» ، وجئت لتبرر ذلك باعتبار « التحييد » هو غير « الحياد » ، وأنه لابد ـ حسب نظره ـ من التحييد ما دام الانحياز الامريكي قد مال باتجاه اسرائيل . وبرأي هيكل «كان رأيي أن نضغط على الولايات المتحدة لكي نشل أكبر مساحة ممكنة من انحيازها . . وبالتأكيد فقد كان رأيي أن هناك دورا لابد أن تؤديه الولايات المتحـدة ، ويجب أن تكون لدينا قدرة على التحكم في طريقة أدائهـا لهذا الدور الضروري» (وقائع تحقيق سياسي ، ص ٢٤٤) .

هذا نص ما قاله هيكل ! ولكن ؟ ما هو الثمن الذي يمكن أن يدفعه العرب باستخدامهم آلية الضغط ؟ وهل كانت هذه هي فلسفة جمال عبد الناصر ؟ ولماذا عارضت سياسة الرئيس أنور السادات التي اتّبع سياسة تماشت مع ما تقول ؟ وعندما تدّعي بأن عبد الناصر أراد إسقاط دولة المخابرات ، وتقول بأن التعبير هو نص ما استعمله عبد الناصر ، ولكن لم يسقط الرجل دولة المخابرات كما فعل السادات في إسقاطه مراكز القوى عام ١٩٧١ ؟ وتقول بأنك كنت مع السادات في إجراءاته تلك ! ولكن إذا كنت قد تحدثت بمثل هذا المستوى الواضح أمام المدعي الاشتراكي ، وإذا كنت تّدعي بأنك قد أشرت الى ذلك أثناء حكم عبد الناصر نفسه . . فلماذا لم تكتب انتقاداتك لتجربة عبد الناصر في الديمقراطية وأفكارك عن التجاوزات والحراسات في كتبك كافة عن ذلك ؟

وما دمت قد دعوت الى التحييد مع الولايات المتحدة الأمريكية . . فأنت بالضرورة مع خطوات المسيرة السلمية بين العرب واسرائيل . . وأعتقد ان هذا «النهج» يختلف عن ذاك الذي مشى على سبيله جمال عبد الناصر . . فضلا عن أن أفكارك اليوم التي جاءت متأخرة بصدد الايمان بمتغيرات العالم ستتلاقى مع السياسات التي مشى عليها أغلب القادة والزعماء العرب بعد الحرب العالمية الثانية ، ومنها سياسة زعماء حلف بغداد الذين كانوا يرون بأن الطريق الاصوب هو : تحييد الغرب من أجل المصالح الاقليمية في المنطقة ! وقد كنت في «الاهرام» مع صاحبك أحمد سعيد في «صوت العرب» أول الذين شتموهم وهاجموهم ووصفوهم باشنع الصفات . . لأن سياسة عبد الناصر لم تقبل بعدم الانحياز للغرب ، اذ كان داعيا الى مبدأ الحياد الإيجابي !

هيكل ونقده أنور السادات:

لا أستطيع أن أضيف أي شيء في هذا الباب لأن هيكل نال من منتقديه الشيىء الكثير اثر نشره كتابه المعروف: خريف الغضب، والذي كرّسه كما هو معروف ضد أنور السادات وضد سياساته، بل وطال شخصه وخصاله وتربيته وزوجه واسرته.. ولم يبق هيكل على أي وسيلة للافتضاح والانتقاد الا واستخدمها ضد السادات بعد موته.. ونحن نعلم بأن هيكل كان من المقربين جدا للسادات بعد وفاة عبد الناصر.. ولقد نال كتابه «خريف الغضب» اهتمامات كبيرة من قبل النقاد والساسة والمختصين في داخل مصر وخارجها.. اذ تجّرد الدكتور فؤاد زكريا ليرد على هيكل بكتاب أيضا أسماه «كم عمر الغضب».. ناهيكم عن منع تداول الكتاب في مصر على مدى سنوات.

ان ما يهمني أن أذكره هنا، ان أذكّر القارئ الكريم بإجراء مقارنة ولو بصورة مبسطّة بين ما نشره هيكل بأسمه من أقوال في كتابه «وقائع تحقيق سياسي امام المدعي الاشتراكي» في حياة الرئيس السادات، وبين الذي ساقه لنا من اتهامات ومعلومات وتهجمات شخصية على الرئيس أنور السادات بعد موته. فسيعجب القارىء أي قارىء من سايكلوجية محمد حسنين هيكل بين الذي كان صّرح به هناك، وبين الذي أتى به هنا.. كيف ينتقد هناك من يطال الذات والشخصيات نفسها في نقده الذي يطالب به أن يكون موضوعيا، وبين ضربه لكل تلك المبادئ التي دعا هو بنفسه اليها قبل سنوات قليلة.. كي يأتي فينشر غسيلا لا يصح نشره على الملأ في «خريف الغضب».. وهو يعالج تاريخ عهد سياسي لمصر يعد من أخطر عهودها في القرن العشرين، اذ ان خطوات السادات التي خطاها باتجاه اسرائيل لم يتجرأ أي زعيم عربي على اتخاذ مثلها أو ما يشابهها في القرن العشرين..

ومنذ قراءتي لكتاب «خريف الغضب» الذي كتبه هيكل وهو في قمة الغضب، منذ سنوات، وأنا أتمنى على مؤلفه لو كان موضوعيا وحياديا عندما يكتب تاريخ انور السادات الذي اختلف اغلب العرب معه ووقفوا ضده ازاء خطواته التي اتخذها، أو إجراءاته التي نفذّها! صحيح أننا حتى يومنا هذا لنا موقف من السادات كونه زار اسرائيل وخطب في الكنيست الاسرائيلي وعقد معاهدة كامب ديفيد مع اسرائيل.. لكن تقييم ذلك شيء من

النواحي التاريخية والسياسية ، والطعن في شخص السادات شيء اخر . . ولا أحسب ين هيكل هنا الا صاحب «خناقات» ومهاترات حزبية وسياسية باستخدامه نفس الالفاظ والتعابير التي تنال من ذات الخصم وسمعته بعيدا عن صاحب الافكار والمنهج والموضوع الذي يمتاز بعلميته وحياديته باستخدامه النقد الموضوعي والاخلاقيات العالية .

خناقة على اللحاف : مثل مصري شائع

ان «الخناقة على اللحاف» مثل مصري شائع استخدمه محمد حسنين هيكل نفسه . . عندما قال : «الا أنني كنت حريصا طول الوقت على الا أنقل « خناقة» مصرية الى خارج مصر . وفي الحقيقة فأنه لم تكن هناك « خناقة» ، لأن أي « خناقة» يلزمها طرفان . . . على ماذا نتخانق ؟ خناقة على اللحاف ، كما يقول المثل المصري الشائع ؟ المشكلة أنه ليس هناك لحاف ! » ، هذا « نص » ما كتبه هيكل بنفسه وما سجله أمام المدعي الاشتراكي عام ١٩٧٨ (وقائع تحقيق سياسي ، ص ٩) . . وعليه ، أقول متسائلا : يا عزيزنا هيكل ، اذا لم يكن لديك خصم ؟ واذا لم يكن لديك لحاف ؟ واذا لم يكن لديك مشكلة ؟ واذا لم يكن لديك دعاوى وقضايا أمام المحاكم ؟ وباختصار : اذا لم يكن لديك أنور السادات ؟

لماذا اذن كتبت ونشرت «خريف الغضب» بالطريقة التي نلت فيه من شخص أنور السادات ؟ ونشرت غسيلا ما كان ان ينشر بهذه الطريقة !! وكأنك ليس في خناقة عادية بين خصمين متكافئين . . بل وكأنها خناقة ليست متكافئة بين مالك ومملوك ! ومن يقلّب صفحات كتاب «خريف الغضب» ويتوقف عند الصور التي اختارها هيكل للسادات ، فسيجده وقد رصد اللقطات المتوحشة والمضحكة والتي تثير الازدراء ! لماذا كل هذا ؟ أبعد هذا تقول بعدم وجود الخصم في داخلك ؟ والذي تبرزه دوما بعد ان يموت عند الناس ولكنه لا يموت عندك . . اذ يبقى يلاحقك دوما . . هكذا تتصوره أنت ! وبعد ، الم تنقل كل هذه «الخناقات» الى خارج مصر وانت تتصور ان دواخل مصر منعزلة عن الوجود . . لقد كانت مصر وستبقى رئة منفتحة لكل العرب ولكل المسلمين ولكل العالم . وان كل ما يحدث فيها يهمنا نحن العرب بالدرجة الاساس .

ثانياً: رموز الماضي الصعب:

ملفات السويس:

لعل أهم الكتب التي ألفهّا محمد حسنين هيكل وأبرزها - حسب الذي أراه - هو كتاب «ملفات السويس : حروب الثلاثين سنة» ، الذي نشر طبعته الأولى عام ١٩٨٦ ، وقد الحق - كالعادة - في نهاية الكتاب مجموعة كبيرة من صور للوثائق (هكذا يسمّيها) التي اعتمد على بعضها ولم يعتمد على بعضها الآخر . . مركزاً في هذا الكتاب بطبيعة الحال على مصر باعتبارها محوراً أساسيا تدور من حوله الأحداث والوقائع والشخوص ؛ والكتاب ممتع في أسلوبه وتسلسل مضمونه كعادة هيكل في كتابة بقية كتبه ، ولكن تبقى الإشكاليات المنهجية تلاحقه هنا وهناك في كتابة الموضوع ومشكلة توظيف الوثائق ومشاكل التوثيق في كل صفحة ، بل وفي كل فقرة من الفقرات التي كتبها . . ذلك ان الخلل الذي سيقف عنده الدارسون والنقاد في المستقبل ـ كما أعتقد ـ إنما يكمن أساسا عند هيكل في مسألتين أساسيتين ، أولهما : اسلوب التوليف الدعائي في الكتابة التي عدّها هيكل بكتابة (تاريخية) ! ، وثانيهما : الاستسلام لسرد ترجمات حرفية معينة من تقارير ورسائل وأوراق سمّاها هيكل بـ « وثائق» !

انشطار التاريخ بين قوتين: مصر والعراق

من يقرأ كتاب «ملفات السويس» بعمق كبير ، سيخرج بنتائج خطيرة جداً في ما يخص حياتنا نحن العرب خصوصا وابناء (الشرق الأوسط) عموما إبان القرن العشرين ليس لان مؤلفه هيكل ذكر ذلك ، أو كان يوّد هو نفسه أن يصل إلى هكذا نتائج ، ولكن طبيعة المادة الوثائقية التي تعامل بها بشكل ظاهري لم تسعفه أو تقوده إلى هكذا نتائج تاريخية . . خصوصاً وان الرجل كان ولم يزل يلتزم وجهة نظر واحدة يطلقها من زاوية واحدة اتخذها لنفسه دون أن يستعين حتى من باب المقارنة والموضوعية بوجهات نظر أخرى ليست أجنبية (استعمارية غربية) ، بل وجهات نظر عربية صميمية كان له وزنها وثقلها في الأحداث من

خلال ما نشره العديد من الزعماء والساسة والمسؤولين والرجال الذين شاركوا في صنع تلك الأحداث ، واخص بالذكر منهم ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ : رجالات العراق القدماء الذين تميزوا بنشر أوراقهم ومذكراتهم السياسية منذ عام ١٩٥٨ عندما وقع التغيير الجذري في العراق وحتى يومنا هذا !

لقد كتب المؤرخ المصري المعروف عبد العزيز نوار كتابا خصّصه عن مصر والعراق في تاريخهما المعاصر ، جاعلا كلا البلدين على شكل ركيزتين أساسيتين لاستراتيجية المنطقة العربية . . ومن يقرأ كتابه ، سيخرج بانطباع مؤثر لحصيلة فاعلة في سيرورة التاريخ المعاصر للمنطقة في القرن العشرين* .

ويكاد يتفوق كل من العراق ومصر ، على بلدان عربية أخرى في كثرة ما نشر حول تاريخهما المعاصر من مذكرات وأوراق خاصة ويوميات سياسية لعدد كبير من الساسة والمسؤولين في كلا البلدين . . . . ولكن إذا كانت مصر قد حظيت منذ أن حدث التغيير الجذري فيها عام ١٩٥٢ وحتى اليوم بكتّاب على شاكلة محمد حسنين هيكل اثروا الثقافة العربية بكتابات جمة عن تاريخها المعاصر وبعدد كبير من الكتب ، وكتبوا الكثير والكثير عن ابرز زعمائها ، وخصوصا : جمال عبد الناصر وأنور السادات . . . . . من خلال زاوية معينة ، فإن العراق لم يحظ من عام ١٩٥٨ وحتى اليوم بكتّاب على غرار محمد حسنين هيكل يكتبون الكتب التوليفية العديدة عن أحداث العراق المعاصر ورجالاته ، ولم يظهر من يشابهه بمثل هذا الاتساع والانتشار ! .

مصر والعراق: مرتكزان في الجيوستراتيجية العربية

صحيح أن مصر امتلكت موقعا استراتيجياً من خلال قناة السويس الذي يصل الشرق بالغرب منذ عام ١٨٦٩ ، الا أن العراق الذي وصف بصاحب النار الأزلية ، امتلك موقعا استراتيجياً باعتباره براً خصباً يطفو على بحيرة هائلة من النفط ، وهو أول بلد يكتشف فيه النفط في الشرق الأوسط عند نهايات القرن التاسع عشر . . . واذا كانت مصر بوابة العرب

* راجع : عبد العزيز نوار ، تاريخ العرب المعاصر : مصر والعراق (بيروت ، ١٩٧٣) .

نحو اوروبا فان العراق هو بوابة العرب نحو آسيا . . وصحيح أن مصر تمتلك ديمغرافية سكانية مضاعفة مقارنة بالعراق ، إلا أنها ديمغرافية منحصرة في منطقة ضيقة من الوجه البحري لدلتا مصر الخصبة ، وبرغم الديمغرافية السكانية القليلة في العراق إلا أنها منتشرة في عموم البلاد من شماله إلى جنوبه .

وإذا كان العراق قد بدأت دولته المعاصرة عام ١٩٢١ ، باسم المملكة العراقية بقرارات اتخذت في مؤتمر القاهرة برئاسة ونستون تشرشل عام ١٩٢٠ ، فإن مصر قد اعتلى عرشها الملك فؤاد عام ١٩١٧ ، باسم مملكة مصر والسودان وكانت تحت احتلال البريطانيين . . ولكن إذا كان العراق قد حصل على استقلاله الرسمي (لا الفعلي) عام ١٩٣٠ ، من خلال المعاهدة العراقية - البريطانية عام ١٩٣٠ ، التي هندسها رجل العراق القوى منذ ذلك الوقت نوري (باشا) السعيد ، وكان أول بلد عربي وأول دولة في المنطقة يدخل عضوا فاعلا في عصبة الامم ، فإن مصر قد حصلت على استقلالها الرسمي عام ١٩٣٦ ، من خلال المعاهدة المصرية - البريطانية عام ١٩٣٦ ، التي هندسها رجل مصر القوى مصطفى (باشا) النحاس !

ثورتان عسكريتان: الانقلاب والقطيعة

وعليه ، فلقد سبق العراق مصر وغيرها من البلدان العربية في دخوله عضواً في المحافل الدولية . . وإذا كان التغيير الجذري في مصر قد حصل بانقلاب النظام السياسي في الدولة من ملكي إلى جمهوري عام ١٩٥٢ بزعامة جمال عبد الناصر ، فإن التغيير الجذري في العراق بانقلاب النظام السياسي في الدولة من ملكي إلى جمهوري قد حدث عام ١٩٥٨ بزعامة عبد الكريم قاسم ! وعليه ، فقد سبقت مصر العراق في تغيير نظامها السياسي والدستوري . . وفي كلا البلدين ، نفذه ضباط عسكريون شكلوا في كلا البلدين وبشكل منفصل طبعاً خلايا للضباط الأحرار . . الذين جاؤوا الى حكم بلادهم لطرد المستعمرين وتخليص البلاد «من الطغمة الحاكمة الفاسدة» والعمل على تقدم البلاد بعد تحريرها واستقلالها . .

ونجحت كل من العمليتين في كل من هذين البلدين نجاحاً سريعاً ، ولكن الفرق بينهما ان ثورة مصر العسكرية عام ١٩٥٢ ، كانت سلمية بيضاء في انتقال العلاقة وتسفير العائلة

المالكة وإنهاء روابط النظام الملكي . . في حين كانت ثورة العراق العسكرية عام ١٩٥٨ ، دموية حمراء قاسية في عملية انتقال العلاقة وتصفية العائلة المالكة عن بكرة أبيها ، وبدء المحاكمات العسكرية لرجالات العهد القديم (التي وصفت كونها من مهازل القرن العشرين) . . ولقد اشترك النظامان الجمهوريان في كل من مصر والعراق بتسمية ذلك العهد القديم بـ «العهد المباد» الذي أراد الزعماء الجدد من الضباط الأحرار إحداث قطيعة سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية . . بينهم وبينه . ولقد أكتسب كل من النظامين الجديدين شعبية واسعة وكبرى ليس في أوساط الجماهير في كل من البلدين الاثنين ، بل في مختلف الأوساط الجماهيرية العربية التي كانت ولم تزل تعتقد ، وهذا هو حق من حقوقها ، بتحقيق العدالة الاجتماعية والتحرر السياسي والتقدم الاقتصادي .

انقسام تاريخنا: تبعية لتحولات النظام العالمي

من يقرأ كتاب «ملفات السويس : حروب الثلاثين سنة» لمحمد حسنين هيكل ، بعمق وتفكير ومقارنات ومتابعة سيناريوهات ما حدث في الشرق الأوسط على امتداد ليس ثلاثين سنة حسب ، بل ربطها بثلاثين سنة سابقة عليها وبثلاثين سنة لاحقه بها . . (أي : أنه يقرأ تاريخ ثلاثة من أجيال القرن العشرين كتلك التي حددتها بين سنة ١٩١٩ وسنة ٢٠٠٩ م) فسيرى ان تاريخنا نحن العرب خصوصا ومعنا دول وكيانات مجاورة لنا في الشرق الأوسط ، ينقسم إلى قسمين أثنين . وان هذا «التاريخ» هو تابع بالتبعية الكاملة المباشرة ، او بالضرورة التامة غير المباشرة بسيرورة التاريخ العالمي ، أي بالأحرى لخطوات وتحولات النظام الدولي العالمي في القرن العشرين . .

وان التاريخ العالمي المعاصر بطوله ينقسم إلى قسمين اثنين لا ثالث لهما . . كل قسم منهما ينتمي إلى نظام قوة عالمي . . وان ما حدث في خمسينيات القرن العشرين من أحداث كبرى ومصيرية بالذات . . ما هي الا عمليات تحّول في الانتماء والسيرورة من نظام قوة دولي «عالمي» سمي بالكولينيالية (= الاستعمار القديم) إلى نظام قوة دولي «عالمي» آخر سمي بالامبريالية (= الاستعمار الجديد) . .

وان كلا من التسميتين وردتا لأول مرة على لسان أبرز من ناوئ كلاً من هذين النظامين في العالم ، الا وهو الاتحاد السوفييتي السابق الذي أذاع مصطلح الكولينيالية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ضد كل من بريطانيا وفرنسا بالدرجة الأساس كراعيتين للنظام الدولي السابق ؛ وهو الذي أذاع مصطلح الإمبريالية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ضد الولايات المتحدة الأمريكية بالدرجة الأساس كراعية للنظام الدولي اللاحق . . ولقد تأثر العرب وغيرهم من الشعوب بكل من المفهومين واستخدام كل من المصطلحين من أجل الحصول على حقوقهم في التحرر والاستقلال والبناء الوطني . . وهنا عليّ أن أقول في ما يخصنا نحن العرب ، باستخدام كل من المصطلحين المذكورين في أدبياتنا السياسية بعد التأثر بالآخرين على الطرف الآخر سواء بعيد الحرب العالمية الأولى أو بعيد الحرب العالمية الثانية !

وبرغم انشغال العرب سياسياً بمشاكلهم الداخلية وانقساماتهم السياسية ، وربط زعماء دولهم مشاكلهم الإقليمية وأزماتهم السياسية بما كان يجري في العالم من الحرب الباردة بين الكتلتين : الشرق والغرب . . . . أو المعسكرين : الاشتراكي والرأسمالي وخصوصاً بعد الحرب العالمية الثانية . . إلا أن ذلك لم يكن يعني أي شيء إزاء الارتباطات الحقيقية بما كان ، وما توظيف الحرب الباردة والصراع الدولي إلا للتغطية على ما كان يحصل منذ الحرب العالمية الثانية وبالتحديد منذ عام ١٩٤٩ باتجاه سيرورة نظام قوة الولايات المتحدة الأمريكية وتنفيذ مصالحها في المنطقة ! فكان هناك من فهم اللعبة منذ البداية ، وبدأ تعامله معها بذكاء ومهارة من أجل مصالحه الوطنية والقومية . . وكان هناك من لم يفهم اللعبة أبدا ، وأصبح جزءا منها دون أي دراية منه بذلك ، فاصبح هو وبلاده لقمة سائغة بيد الآخرين . . وثمة زعماء عرب جاءوا للسلطة وذهبوا عنها دون أن يدركوا او يعرفوا الأيادي التي كانت تتلاعب بهم ، والمخططات التي كانت ترسم لبلادهم تحت ذرائع ودعايات و (مانشيتات) مختلفة !

البداية الحقيقية لنظام السيطرة :

عندما خرج العالم من الحرب العالمية الثانية ، وجد الحلفاء انهم المنتصرون ووجدوا – أيضاً – أن الذي وضع للحرب أوزارها يتمثل بقوة عالمية كبرى تمثلها الولايات المتحدة

الأمريكية التي بدأت منذ ذلك الوقت تتقدم إلى مناطق ومجالات حيوية في العالم لتحقيق مصالحها على المدى القريب والبعيد . . ولم تعد بريطانيا (العظمى) أو فرنسا تتملكان تلك القوة العالمية النافذة في السيطرة والامتداد لتحقيق المصالح بالهيمنة على مجالات حيوية في العالم . . فكان على هاتين الدولتين الاستعماريتين القديمتين ان تتخليا عن مناطق النفوذ وعن الدول الجديدة التي ولدت في حاضنتهما وقامت كل من الدولتين برعايتها وخصوصا في قارتي آسيا وأفريقيا !

وعليه ، فإن ثلاثين سنة من السيطرة المباشرة والنفوذ غير المباشر للاستعمار (الكولينيالي) القديم الذي كانت تمثّله بريطانيا وفرنسا بشكل خاص ، أي بين ١٩١٩ - ١٩٤٩ م ، أي بمعنى انه ينحصر بين مؤتمر الصلح بباريس وبين مشروع الرئيس الأمريكي روزفلت في مناطق عدة من العالم . . لقد كان النظام القديم من قوة الاستعمار قد أدى مهمته مؤسساً إسرائيل في قلب الأمة العربية . . ليبدأ النظام الجديد للبحث عن مصالحه التي تمثّلها الولايات المتحدة الامريكية ، ولكي تبدأ صفحة تاريخية أخرى في النصف الثاني من القرن العشرين .

من يقرأ «ملفات السويس» بعمق وسعة أفق وثقافة تاريخية رصينة . . سيكتشف أن عمليات التحضير لإحداث التغييرات الجذرية في الأنظمة السياسية التي عرفتها المنطقة بدأت ليس مع عام ١٩٤٩ ، بل اعتقد إنها بدأت - وربما كنت مخطئاً - مع عام ١٩٤٥ ، وخصوصاً مع زيارة الرئيس الأمريكي روزفلت للمنطقة في شهر شباط/ فبراير ١٩٤٥ ، فالتقى الملك فاروق يوم ٣١ منه ، والتقى الملك عبد العزيز آل السعود في ١٤ منه . . . . يقول محمد حسنين هيكل : «ويلفت النظر أن الأسرة الهاشمية في العراق توقّعت أن يكون لها دور في خطة روزفلت الجديدة ، وفي لقاءاته على مياه البحيرات المرة ، ولكن ظواهر الأمور توحي بأن الرئيس الأمريكي أحس أن الاقتراب من العراق في هذه المرحلة قد يثير لدى تشرشل شكوكاً لا يمكن تطمينها ، وهكذا فإنه بعث إلى الأمير عبد الإله ببرقية قال في إحدى فقراتها : « إنني لآسف شديد الأسف أن لا تمكنني زيارتي القصيرة غير المخططة للشرق الأوسط من مقابلتكم . . . . ثم قال : وقد فهمت انك تفكر في القيام بزيارة

للولايات المتحدة في وقت ما هذا الربيع ، وأود ان أبلغك كم أتطلع إلى مقابلتك في واشنطن أثناء زيارتك لأمريكا» (ملفات السويس ، ص ٥١) .

النسب والتناسب: الإعداد لإجراء التحولات في مصر والعراق

أن اخطر « نصّ » يمكن للقارئ أن يستشف منه الكثير في عملية إجراء التحولات هو هذا الذي كتبه محمد حسنين هيكل ، والذي يمنحنا مديات واسعة للتفكير ، قال : في معرض تعليق على ما حصل بين أمريكا والدول العربية : « كانت تلك كلها إشارات إلى نوع المحتمل لمناطق النفوذ في الصراع على الشرق الأوسط ، طبقاً لمنطق الإزاحة . مصر نفوذ أمريكي بنسبة ٥١ ٪ - مؤقتا - وحتى يتم تمهيد الأرض لما هو اكبر ، العراق : في الوقت الراهن يفضل تركه بنسبة ١٠٠٪ لبريطانيا ، مع إعادة النظر في شأنه وفق التطورات! » (ملفات السويس ، ص ٥١) .

هذا « نصّ » خطير جداً ، وفيه معاني كبيرة يعرفها محمد حسنين هيكل حق المعرفة ذلك لان من القوى الإقليمية العربية التي تحرك الشرق العربي هي : العراق ومصر ، فإذا كانت بعض مناطقه صاحبة نفوذ أمريكي كامل منذ ١٩٤٥ ، فان مصر سيتم تمهيد الأرض لما هو اكبر من ٥٠ ٪ ، أما العراق ، فقد أعيد النظر فعلاً في شأنه وفق التطورات التي حدثت في الخمسينات! وخصوصاً مع إطلاق مبدأ ايزنهاور عام ١٩٥٧ ، كي يتأخر إحداث التغيير فيه حتى منتصف عام ١٩٥٨ ، كي تدخل المنطقة دوامة مشكلات داخلية ، أي بنقل الصراع إلى داخلها بشكل مباشر . . ولكن لا يكفي أمريكا الركائز العربية الثلاث ، إذا لم تؤمن مصالحها من خلال متغيراتها في كل من تركيا وإيران . .

تركيا وإيران :

وكان لابد لكل من تركيا وإيران أن تتغيرا أيضا باتجاه أمريكا ونظام القوة العالمي الذي امتلكته ، ومهما كانت التكاليف . . كان الأمر بالنسبة لتركيا بسيطا أكثر من إيران بحكم التطورات الداخلية ، فلقد «كانت تركيا قد وطدت تاريخياً ، أبان الحرب (العالمية) الثانية ، تحالفها الخارجية مع الدول الغربية وخصوصاً مع الولايات المتحدة الأمريكية ، وكان لذلك

كله تأثير واسع الإبقاء على سياستها الخارجية . . . . .» واستطرد فأقول : «وقامت الولايات المتحدة عام ١٩٤٧ تحت واجهة ما يدعي بـ «ترومان - كنزين» بدعم تركيا عسكرياً واقتصادياً ، واستمر برنامج المساعدات الأمريكية لدعم تركيا ضمن ادعاءات تطويرها على مدى زمني طويل . . مقابل ما اصطلح عليه بـ «الضغوطات» التي تتعرّض لها تركيا من قبل الاتحاد السوفيتي»*

أما في إيران ، فإن محمد حسنين هيكل يكتب في كتابه « مدافع آية الله » عن قصة مصدق الذي اصبح رئيساً للوزراء في ١٩ أبريل/ نيسان ١٩٥١ واصدر قانون تأميم النفط في ٣- أبريل/ نيسان ، ووقعه الشاه أول مايو/ مايس ١٩٥١ إن كيرمت روزفلت صاحب كتاب «الانقلاب أعضاء» يذكر باعتباره ممثلاً لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية ، انه كان على اتصال بالعناصر أعضاء لمصدق في طهران في وقت مبكر (أو آخر الأربعينات) وحتى قبل ان يصبح مصدق رئيساً للوزراء . . . . . . (انظر : مدافع آية الله ، ص ٨٥ ، ٨٧) .

يمكننا القول بأن التغلغل الأمريكي في كل من إيران وتركيا قد بدأ بعد انتهاء الحرب الثانية ، وقد تأسس في تركيا قبل إيران . . ذلك لان إيران لم تتأسس فيها العلاقات على نحو وطيد مع أمريكا إلا بعد أن فشلت تجربة مصدق فوضع الشاه كل بيضه في السلة الأمريكية ، بل وبدأ بتوثيق علاقاته مع إسرائيل منذ عام ١٩٥٣** .

ومن يتبع تواريخ دول العالم الثالث المعاصرة ، سيجد أن ثمة تغييرات جذرية قد حدثت فيها بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وبالأخص : بعد أن انفضّ مؤتمر يالطا (فبراير / شباط ١٩٤٥) الذي جمع أقطاب الحلفاء ، وما جرى من تحولات أساسية في عالم الاستقطاب الدولي ، خصوصاً في بقية المجالات الحيوية في العالم ، وأخص منها بالذكر إضافة إلى منطقة الشرق الأوسط ، كلا من : شبه القارة الهندية والصين وجنوب شرقي آسيا . . . . إضافة إلى أقاليم شرقي أوروبا .

---

* (سيار الجميل ، العرب والاتراك : الانبعاث والتحديث : من العثمنة الى العلمنة ، ط١ بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٧ ، ص ١٨٢) .

** راجع التفصيلات في :

H. Mahdavy, "The Patterns and problems of Economic Development in Rentier States: The Case of Iran "in: M. A. Cook (ed.), *Studies in Economic History of the Middle East: From the Rise of Islam to the Present Day* (London: Oxford University Press, 1970), pp. 431 - 465.

من الصراع على الشرق الأوسط إلى الصراع في الشرق الأوسط:

لعل من ابرز الأفكار وأهمها التي أوردها هيكل في كتابه المهم «ملفات السويس» قوله : «ولعله من المفيد – مبكراً – أن تكون هناك تفرقة بين موضوعين : الصراع على الشرق الأوسط أو على العالم العربي . . والصراع في الشرق الأوسط أو في العالم العربي . . . . إن هذا الفاصل بين الموضوعين ضروري جدا ؛ لان تمثله باستمرار كفيل بأن يبقي الحدود بين القوى المتصارعة واضحة ، وان يبقى حركة كل منها تحت الملاحظة طول الوقت . . . . . » (ملفات السويس ، ٤٢– ٤٣) . وأقول : انه ضروري جدا من أجل الفهم قبل كل شيء !!

ويستطرد هيكل ليقول : « فبريطانيا التي تمكنت من إزاحة فرنسا اكتشفت بعد قليل أن الولايات المتحدة تطبق معها نفس منطق الإزاحة ، وتراجعت بريطانيا خطوات بعيدة ، خطوة بعد خطوة بمنطق الإزاحة نفسه . . . . » (ملفات السويس ، ص ٤٣ –٤٤) .

ثم يكمل هيكل في مكان آخر : « هكذا في مؤتمر يالطا أصبحت أوروبا الشرقية في دائرة نفوذ روسيا بنسبة مائة في المائة . . . . . ولم يكن تحديد النسب سهلاً في الشرق الأوسط وفي العالم العربي ، وكل ما أمكن التوصل إليه هو اعتراف كل طرف بمصالح مشروعة للطرف الآخر في هذه المناطق . ولعل الولايات المتحدة لم تكن راغبة في تحديد نسب في الشرق الأوسط والعالم العربي ، فقد كانت تدرك أن أمامها مشكلة مع بريطانيا أولا ، ثم يجيء دور المشاكل مع روسيا » (ملفات السويس ، ص ٤٤ – ٤٥) .

هذا كلام استراتيجي مختزل لمحمد حسنين هيكل ، لكن تحليلاته خطيرة جداً ، فهو يوقفنا على أن بدء حياة تحولات العالم المعاصر منذ فبراير/ شباط ١٩٤٥ ، للعمل على إزاحة النظام الكولينيالي الاستعماري الذي كانت تمثله بريطانيا العجوز (بشكل خاص) وفرنسا الهرمة إزاء التخلخل الذي أحدثته الحرب العالمية الثانية ، وقفزة الولايات المتحدة الأمريكية التي قامت بإرضاء الاتحاد السوفيتي على توزيع الغنائم والأشلاء . . للتحرك بسرعة ضمن مصالح جديدة لم تكن معروفة فيما سبق ؛ فإذا كانت أوروبا الشرقية قد دخلت برضا الأطراف ضمن حزام الاتحاد السوفيتي الذي سيتزعم في ما بعد الكتلة الاشتراكية ، ثم ينبثق عنها حلف وارسو . . فإن أوروبا الغربية وما كانت تمتلكه من ممتلكات

قد دخلت بقوة تأثير الولايات المتحدة الأمريكية ضمن حزامها والذي ستتزعمه نفسها في ما بعد باسم الكتلة الغربية .

صراع المصالح وقوى الجذب بين بريطانيا والولايات المتحدة:

وعليه ، فإن تخلخلاً قد حدث في مناطق مهمة جدا ومجالات حيوية من العالم ضمن ثنائية الاستقطاب الجديدة وخصوصاً في منطقة الشرق الأوسط والعالم العربي برمّته .. لكي تبدأ بعد ذلك سلسلة من التحولات بين المدّ والجذب لقوى النفوذ القديم والجديد ، أي بين مستعمرات وممتلكات وتحالفات بريطانيا وفرنسا من طرف وبين قوة الجذب الجديدة المتمثلة بالولايات المتحدة الأمريكية . . وستعلمنا الأحداث من جانب ، التحركات الأمريكية من جانب آخر وهي تحركات بدت سريعة للغاية ففي شهر فبراير/ شباط ١٩٤٥ ، الذي انعقد فيه مؤتمر يالطا ، بدأ الرئيس الأمريكي روزفلت جولته للتباحث مع الملك عبد العزيز آل السعود والملك فاروق وغيرهما . . . . .

لقد بدأ الصراع واضحاً على مدى أربع سنوات بين الأمريكان والإنكليز ١٩٤٥ - ١٩٤٩ ، في الاستحواذ على مناطق نفوذ حساسة . . وإنني اعتقد بأن التحضير لتأسيس كيان صهيوني وولادة دولة إسرائيل في قلب الأمة العربية هو السبب الحقيقي ، لتأجيل توزيع تلك المناطق على حساب الأمريكان بالدرجة الأولى ، بعد أن تأسس ذلك « الكيان » عام ١٩٤٨ ، بدأت مرحلة تاريخية جديدة من الصراع .

أما ما طبيعة ذلك « الصراع » ؟

إن هيكل يورد العبارة التي توضح كل الأمور والتي ساقها لنا في «ملفات السويس» والتي ضمنتها في أعلاه ، ذلك إن الصراع على الشرق الأوسط أو على العالم العربي لم يكن هناك تفرقة بينه وبين الصراع في الشرق أو في العالم العربي . . . . بل أستطيع القول إن الصراع هو نفسه ، ولكنه انتقل من « على » إلى « في » . أي بمعنى : أن الإدارة الدولية التي استحوذت عليها الولايات المتحدة الأمريكية قد نقلت في الشرق الأوسط والعالم العربي لكي تبدأ صفحة تاريخية جديدة في المنطقة تتوزع فيها الصراعات الداخلية على امتداد نصف قرن كامل ١٩٤٩ - ١٩٩٩ .

تأسيس المصالح الأمريكية في الشرق الأوسط:

دعونا نتوقف عند مذكرة رسمية وجهتها وزارة الخارجية الأمريكية إلى وزارة الخارجية البريطانية في ٣١ مايو/ مايس ١٩٤٥ ، وان ملخص أهم النقاط فيها تفصح عن نفسها بإحلال المصالح محل الغنائم - وليس العكس كما أراد أن يقول ذلك هيكل -! فما هي أهم تلك « النقاط » ؟

[« ١ - نحن نرغب في أن يتوقف التدخل السياسي البريطاني الذي يعرقل حصولنا على امتيازات بترولية في المناطق التابعة بصورة مباشرة أو غير مباشرة للسيادة البريطانية .

٢ - نحن نرغب في زيادة معدل استغلال البترول من احتياطات نصف الكرة الشرقي ، ولا سيما الشرق الأوسط ، حتى يمكن خفض نسبة الاستغلال بترول المختزن احتياطياً موفرا للمستقبل .

٣ - نحن نرغب في توصيل منابع البترول ، وبخاصة بترول السعودية والعراق ، إلى مياه الخليج الفارسي أو البحر المتوسط بواسطة خطوط للأنابيب »] (ملفات السويس ، ص ٥٤) .

وازدادت مذكرات وزارة الخارجية الأمريكية ضد بريطانيا لمحاسبتها كيف تحاول عرقلة جهود الأمريكيين للحصول على حقوق مرور في دول خاضعة للنفوذ البريطاني على نحو مباشر أو غير مباشر ، برغم موافقة الحكومات العربية على الطلبات الأمريكية ، وإذا كان اكثر وضوحاً في الاعتماد على الأمريكان منذ عام ١٤ فبراير/ شباط ١٩٤٥ ، وصلابة ذلك البعض في شأن هجرة اليهود إلى فلسطين مع تعزيز العلاقات الثنائية العربية - الامريكية ، فإن رجل الشرق الأوسط القوي « نوري السعيد رئيس وزراء العراق قال للأمريكان : انه يخشى إعطاءهم تسهيلات لان بريطانيا سوف تعترض . . . . ونفس المعنى كرره لهم شاه إيران ، حين قال لهم : إذا تأخرنا في إعطائكم ما تطلبون فأعلموا أن السبب هو الضغط البريطاني» (ملفات السويس ، ص ٤٧ - ٥٥) أما مصر ، فيقول هيكل بأن « عملية إزاحة النفوذ البريطاني من مصر والدخول الأمريكي في أعقابه تقتضي العمل بسياسة الخطوة

خطوة ، وان الخـروج والدخـول في حـاجـة لسنوات طويلة . . . . . » (ملفات السـويس ، ص ٥١) .

وعليه ، فان ليس هناك مشكلة بين الأمريكان وتركيا ، وان العلاقات الثنائية بين السعودية والولايات المتحدة بدأت قوية واستمرت هكذا . . . . . . وان إيران ستحسم الأمور فيها حركة مصدق لاحقاً . . . . وان مصر ،سيتغير نظام الحكم الملكي فيها ، وستدخل في صراع مع الإنكليز حتى تفوز بجلائهم في ١٣ يونيـو/ حزيران ١٩٥٦ ، وتؤم القناة في ٢٦ يوليو/ تموز ١٩٥٦ ، وتخرج من حرب السويس والعدوان الثلاثي عليها الذي اشتركت فيه بريطانيا وفرنسا وإسرائيل عام ١٩٥٦ ، وسيكون للولايات المتحدة دورها في حسم الموقف لصالح عبد الناصر ، ولكن كان الأردن سباقاً قبل مصر ، لكي يقوم الملك حسين بحركة اتخاذ قرار مفاجئ يطرد من خلاله الجنرال البريطاني كلوب باشا في ٢ مارس/ آذار ١٩٥٦ !

ويثبت الملك حسين ذكاءه ، ويشيد بذلك دوما الرئيس جمال عبد الناصر ، عندما يقول : «ان الملك حسين كراكب الدراجة يتحتّم عليه أن يتحرك باستمرار وإلا وقعت دراجته» . . وسيكون موقف الأمريكان من دول المنطقة واضحاً . . وسيبقى العراق لوحده يتشّبث بالإنكليز ، برغم ميثاق بغداد ودخول الأمريكان فيه بآخر المطاف ، إلا أن علاقاته الوثقى مع بريطانيا سيحسمها فجر ١٤ تموز/ يوليو عام ١٩٥٨ ، فالفرق كبير بين شركات النفط في العراق التي كان للبريطانيين نفوذ كبير فيها وبين شركة ارامكو في السعودية مثلاً التي يديرها الأمريكان ! وعليه ، فالعراق وحده هو الذي سيدفع الثمن غاليا على امتداد النصف الثاني من القرن العشرين بدءا بفجر الرابع عشر من تموز / يوليو ١٩٥٨ . وبذلك سينتهي نصف قرن من السيطرة البريطانية على المنطقة ، وتبدأ حياة السيطرة الامريكية فيها* .

وعليه ، فانه «بعد خمس سنوات من نهاية الحرب العالمية الثانية ، ومع الأيام الأولى من الخمسينات ، كان النظام العالمي قد راح يأخذ شكله وقسماته كما نعرفها حتى اليوم»

* راجع التفصيلات الوثائقية في كتاب :

W. R. Plok, *The United States and the Arab World* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1965). pp. 81 - 111.

(ملفات السويس ، ص ٩٧) وفي مكان آخر يقول : « لم تكن النظم الحاكمة في العالم العربي قادرة على فهم ما يجري في العالم من حولها ، وعلى استيعاب دلالاته . وكان خوف معظم هذه النظم من شعوبها لا يترك لها وقتاً للتفكير فيما هو ابعد من مدنها المضطربة لاسباب سياسية واقتصادية واجتماعية . . . . » (ملفات السويس ، ص ٩٩) .

ما أشبه اليوم بالبارحة !

وإنني أقول : ما أشبه اليوم بالبارحة ذلك أن اغلب النظم الحاكمة اليوم في العالم العربي ليست بقادرة على فهم ما يجري في العالم من حولها ، وعلى استيعاب دلالاته . . وقد كان ولم يزل خوف هذه النظم من شعوبها لا يترك لها وقتاً للتفكير فيما هو ابعد من مدنها المضطربة لاسباب سياسية واقتصادية واجتماعية ! .

وعليه أيضا ، فان عقد الخمسينيات الذي شهد تغيرات الذي شهد تغيرات وتخلخلات وانقلابات وثورات . . ما هو إلا مخاض صعب من تحولات جد عنيفة جرت في الشرق الأوسط في انتقال المنطقة من أيادي النظام القديم إلى أيادي النظام الجديد . . وبرغم كل الأحلاف والمواثيق مع الإنكليز (والأمريكان) وبرغم كل التعاقدات والصداقات مع السوفييت . . في إطار الصراع الذي كان متأججا بين الكتلتين : الشرق والغرب ، إلا ان رؤية المؤرخ ستوسع مجال التفكير لتقول يوما : **بأن حجم المصالح الأمريكية في النصف الثاني من القرن العشرين كانت اقوى من غيرها بكثير جداً في الشرق الأوسط** . . وكلها تعود إلى الأسس التي رسخها كل من روزفلت في الأربعينات وايزنهاور في الخمسينات . . وطورها كل من جون كينيدي وليندن جونسون في الستينيات ونيكسون وفورد في السبعينيات كي يجني ثمارها كارتر وريغان وبوش وكلينتون في الثمانينيات والتسعينات !! .

مبدأ ايزنهاور وأثره على تحولات الشرق الأوسط:

تقدّم به دوايت ايزنهاور إلى الكونغرس الأمريكي في أوائل عام ١٩٥٧ ، وكان قد جددت رئاسته الثانية للولايات المتحدة الأمريكية حتى نهاية عام١٩٦٠ ، قد شارفت على البدء . . . بدأ ايزنهاور الاجتماع الاستثنائي والموسع عارض نيّته بأن يتقدم إلى الكونغرس بمشروع قانون يمنحه سلطات استثنائية لمواجهة الأحداث الطارئة في الشرق الأوسط ، ووضح

أهمية الشرق الأوسط الاستراتيجية والحيوية في الصراع العالمي ، مؤكداً على مقولة تعني بأن السيطرة على الشرق الأوسط هي فعلا « معركة القرن » !

لعل ابرز مبدأ خطير ذكره ايزنهاور هو القائل بأن : « ما أخشى منه هو العدوان من الداخل على أي بلد عربي » ، وفسره بـ : « الانقلابات الثورات » وان « المسألة هي هل نحن قادرون على حماية أصدقائنا أم لا ؟ هل هؤلاء الأصدقاء يستطيعون الاعتماد على حمايتنا أم لا ؟ ولقد تركز مبدأ ايزنهاور على مطلبين أولهما مالي بتخصص معونة مالية له للتصّرف فيها منحة بقرار منه لأي دولة مستعمرة للتعاون مع الولايات المتحدة . وثانيهما تفويضه باستعمار كل وسائل القوة الأمريكية . . ضد أي عدوان على أي دولة معرضة للعدوان في المنطقة ! .

واضح ان مبدأ ايزنهاور قد ولد ليبشر بسياسة جديدة في المنطقة والسعي لاحتوائها أمريكيا بعد إخلائها نهائياً من النفوذ البريطاني والفرنسي ، والعمل على تحجيم حلف بغداد ودوره الإقليمي والدولي ، وإذا سمح المجال القضاء عليه تحت ذريعة «سياستنا الجديدة» التي كان يتحجج بها دوما ايزنهاور . . تلك السياسة الجديدة التي خلقت آليات للعمل لخلق بدائل لم تكن معروفة والتي تمثلها مبدأ ايزنهاور الذي أثار ردود فعل كبيرة في العالم ، وبدأ ايزنهاور بتطبيق سياسته الجديدة هو ووزير خارجيته الشهير جون فوستر دالاس . . . .

وما أن جاء صيف ١٩٥٧ ، حتى راح ايزنهاور ودالاس يعلنان بشكل غير مألوف عن تخّوفات وتحذيرات من خطر الاتحاد السوفييتي والتغلغل الشيوعي . . ليس من خلال الأساليب القديمة التي كانت متبعة سابقاً ، بل باتباع أساليب جديدة التي منها آلية «الغزو من الداخل» ! من اجل الإخلال بالتوازن Destabilization أو «الخلخلة» ، ومعناه يتعداه الوصف المحدود . ولا بد لنا أن نسأل عن التسابق الأمريكي في المنطقة أثر إقرار مبدأ ايزنهاور على حساب النفوذ البريطاني ، إذ كانت الولايات المتحدة قد أمنت على مصالحها في كل من تركيا وإيران وباكستان ومصر . . ولم يبق إلا العراق الذي كانت له علاقاته القوية بالإنكليز حتى ذلك الوقت* ! .

* J. A. DeNove, *American Interests and Policies in the Middle East* (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1963), pp. 111-116.

يقول لويس عوض في معرض نقده لكتاب «بصراحة عن عبد الناصر » : « والمعروف للخاص والعام ان الأستاذ محمد حسنين هيكل هو مفكر الناصرية الأول في مصر والعالم العربي . . . .» (لويس عوض ، أقنعة الناصرية السبعة ، ص ١٧٢) .

لقد غالى لويس عوض كثيرا في منح هذه « الصفة » لمحمد حسنين هيكل الذي لم يكن مفكر الناصرية الأول في مصر والعالم العربي! والدليل على ذلك كتاباته ولا شيء غير كتاباته التي حاولنا أن نكشف بضاعتها ، وهي كتابات خاوية من أي فكر ، اذ ان الرجل لم يكن مفكرا أو مؤرخا أو فيلسوفا في يوم من الايام ، بل تطلعنا كتاباته أنه ملتقط جيد لبعض الاخبار والتي يسردها دون أي إعمال للفكر والتحليل النقدي فيها ، كما أنه لم يكن حياديا في معالجته لبعض المفاهيم والاراء . . . لقد نسي لويس عوض أسماء أخرى أثرت الفكرة الناصرية بكتاباتها وأفكارها . . . كي تغدو شبه أيديولوجية شعبية مرحلية عند العرب على مدى عقدين كاملين من السنين . . . . فلا يمكن ان تقارن أعمال المفكر القومي عصمت سيف الدولة بكتابات محمد حسنين هيكل - على سبيل المثال لا الحصر - .

لقد حرص لويس عوض على ان ينتقد محمد حسنين هيكل نقداً عاماً ، معرّجاً في انتقاداته لسياسة جمال عبد الناصر التي انتقدها من خلال كتابات هيكل وخصوصاً عندما وقف لويس عوض ينتقد كتاب هيكل : « بصراحة عن عبد الناصر » ومن ابرز انتقادات لويس عوض :

١ - اعتماد جمال عبد الناصر على صديقه عبد الحكيم عامر سنوات طوال ، وحجة هيكل في ذلك انه كان يحبه ، فيرد عوض : « وماذا يهم الشعب المصري والشعوب العربية ان كان عبد الناصر يحب عبد الحكيم عامر أو لا يحبه » (أقنعة الناصرية السبعة ، ص ١٨١) .

٢ - ارتأى لويس عوض « لو أن عبد الناصر بنى نظامه على الاعتكاف في وطنه ولم يؤسسه على المؤسسة العسكرية لكان مفهوما أن يعد قطاع القوات المسلحة ثانوي الاهمية

يسنده لمن يشاء ويستخدمه فيما يشاء دون ان يعرض الأمن القومي للخطر ، ولكنه فيما يبدو كان شديد الاستهانة بأعدائه نظرا لعظم مكانته في التاريخ العربي » (أقنعة الناصرية السبعة ، ص ١٨٣) .

٣ - يذكر لويس عوض انه وجب على عبد الناصر « أن يحسن اختيار خبراء صناعة السلاح . وقد أقام عبد الناصر فعلاً المصانع الحربية ، وسمعنا عن صواريخ الظافر التي تفعل كذا وكذا ، ولكننا لم نلمس لها نتيجة . . . . » (اقنعة الناصرية السبعة ، ص ١٨٤) .

٤ - ويقول لويس عوض أيضاً : « ومن يقرأ كلام هيكل يجد فيه قبولاً عاماً لمبدأ التنظيم السياسي الواحد ولنظرية تحالف قوى الشعب (العامل) بل وللتنظيم الطليعي الذي أنشأه عبد الناصر لحماية نظامه واشتهر باسم « التنظيم السري » . وهو يعقد مقارنة ، أتصور أنها خاطئة ، بين الاتحاد الاشتراكي في مصر والحزب الواحد في الصين ، ثم يضفي مع تحالف قوى الشعب العاملة صفه الجبهة الوطنية ، ورغم أن التجربة منذ بدايتها قد دلت على انه مفهوم الجبهة متعارض تماما مع التنظيم السياسي الناصري الذي لا يسمح بتجمع تكتلات في داخله ، وكلما تجمعت سماها « مراكز قوى » وضربها (أقنعة الناصرية السبعة ، ص ١٨٥ - ١٨٦) .

٥ - واخيراً يقول لويس عوض : « فللأستاذ هيكل نظرية جديدة تقول أن وسائل الإعلام الحديثة يمكن أن تكون لها فاعلية الأحزاب ، وهي نظرية غريبة لان وظيفة أجهزة الإعلام في النظام الناصري ، كانت تبصير القاعدة برأي القيادة وتبرير أعمال القيادة أمام القاعدة ، ولو ان القيادات كانت متعددة لامكن تصور قيام الحوار فيما بينها ، ولكن وحدة القيادة جعلت مصر تعيش نحو عشرين عاماً فيما يشبه المونولوج » (أقنعة الناصرية السبعة ، ص ١٨٦) .

ثالثاً : هيكل وفكرة البطل في التاريخ

لقد آثرت أن أقدم ما كتب لويس عوض عن محمد حسنين هيكل من أجل التوّصل الى أن الأخير لا يؤمن مطلقا بالديمقراطية ولا بالحكم من خلال التعددية ولا بالأحزاب السياسية ولا بالتمثيل النيابي ولا بالانتخابات . . وبالرغم من بعض الأفكار التي كتبها هنا

أو هناك سواء في مقالاته الصحفية أم في كتبه الدعائية حول هذا الموضوع ، وأنا لست في معرض لإدانة تفكيره السياسي ، فهذا أمر يخصّه وحده ، ولكن أن يحاول «التنظير» في مسائل الديمقراطية وفكرة البطل في التاريخ . . وغيرها من القضايا الحيوية التي تدخله في مشاكل هو في غنى عنها ، اذ تكفيه المشكلات التي تعاني منها مضامين كتبه التي أصدرها عن تواريخ الأوضاع السياسية العربية في الخمسين سنة الأخيرة .

في مقدمته لكتاب «السلام المستحيل والديمقراطية الغائبة : رسائل إلى صديق هناك» ، يكتب هيكل عن «البطل في التاريخ» ، ويبرر منتقدا أولئك الذين يؤمنون بالصراع الطبقي ، وكأنهم وحدهم الذين وقفوا ضد فكرة عبادة الفرد أو دور البطل . . ذلك لأن معظم النظريات الاجتماعية انتقدت هذه «الفكرة» التي لاقت رواجا كبيرا في ألمانيا على عهد هتلر ، وأشاعها النازيون ثم أخذها الفاشيون عنهم في ايطاليا ايام موسليني . . ان هيكل يعترف بأنها فكرة نازية وفاشستية عاشت في النصف الأول من القرن العشرين . .

ولكنه لا يعترف بأن ثلة من الضباط العرب استعاروها ليطبقوها على شعوبهم عندما قاموا بثوراتهم الوطنية والتحررية والتي أيدتهم فيها شعوبهم على أمل أن تبدأ مرحلة تاريخية تحررية جديدة تبنى فيها المؤسسات المدنية وينغرس فيها روح القانون .·. وتمارس الأحزاب السياسية أدوارها . . ويبدأ الشعب يمارس دوره الحقيقي بكل حرية وبمختلف تعددياته ، وتبقى الكلمة الأخيرة له في الفصل بقضاياه الوطنية والقومية والمصيرية . . ولكن هذا لم يحدث ـ مع الأسف ـ على امتداد النصف الثاني من القرن العشرين . . اذ انشغل العرب بالبطل القومي وبالتصنيفات التقدمية والرجعية ، والدعايات وبالحزب الواحد والزعيم الأوحد او الواحد وحرب الإذاعات والإشاعات والانقلابات العسكرية واخبار المؤامرات والمحاكمات والاعدامات والاقتتالات . . او بالتكتلات والاحلاف واجهزة المخابرات والانقسامات . . الخ

الجماعة قبل الفرد والنخبة قبل البطل: من أجل مستقبل عربي جديد

ولا أدري هل ثمة عربي منصف لا يشاركني التوصيف ، مهما كانت ايديولوجيته ونزعته السياسية واتجاهه الفكري ؟ فلو كان هناك جماعة من العقلاء ترفض كل ما حصل في العقود الاخيرة من القرن العشرين ، ولا تركن للدفاع الا عن الحقيقة ، وتؤمن بالرأي الاخر ، وتحترم نقّادها من اصحاب التجارب الاخرى . . ولا تفضّل أي زعامة على الاخرى ،

ولو كان هناك عندنا نحن العرب سواء على مستوى زعمائنا وقادتنا أو مفكرينا وكتابنا ، او رجالنا ونسائنا من مواطنينا من لا ينفعل أو يتعّصب لجهة او حزب أو (بطل) كما يتصوره ، ولا يهادن الا بالحق ، ولا يخّون ولا يكفّر ولا يتّهم ولا يكذّب ولا يدّعي . . واذا ما سادت لدينا روح التواضع امام الامم الاخرى ، بحيث لا نتصّور أنفسنا بأننا الاحسن والافضل والمنفوخين دوما خصوصا وأن العصر قد تغيرّ اليوم وتبّدل ، وباستطاعة أي عربي أن يرى العالم كله في بيته يوميا عبر شاشة التلفزيون . .

فهل باستطاعة أي عربي له ذرة من العقل والتفكير ان يقول بعد كل الذي جرى وحصل لدينا نحن العرب اننا كنا عند موقع المسؤولية ؟ وان تجاربنا السياسية والنهضوية كانت من احسن التجارب بين الامم ؟ وهل من صفحة تاريخية جديدة بحيث يغير العرب فيها تفكيرهم اولا ، ومن ثم يتعاونوا على الحد الادنى من متطلبات المستقبل بحيث تجمعهم طاولة مستديرة واحدة مهما كانت اتجاهاتهم وأفكارهم وأيديولوجياتهم ونزوعاتهم وأديانهم ومعتقداتهم ومذاهبهم كي يقبل أحدهم الاخر من أجل مصالحهم المصيرية العليا ثانيا ، وهل باستطاعتهم الانفتاح على انفسهم وعلى الاخرين كي يكسبوا جولة واحدة في سبيل وحدتهم سواء من خلال تكتلاتهم الاقتصادية أو شراكتهم التربوية والعلمية والفكرية ثالثا ؟

وهل باستطاعتهم الغاء فكرة الاحادية للبطل او للجماعة او للايديولوجية من أجل تأسيس ثوابت وتقاليد نهضوية وحضارية جديدة تستقيم وخطط التقدم الذي يشهده العصر رابعا ؟ وهل باستطاعة الاجيال الثلاثة القادمة في هذا القرن الحادي والعشرين ان تستفيد من التجارب العربية المريرة التي عاشتها الاجيال الثلاثة التي سبقتها في القرن العشرين ، وتفهم منها العبر والمعاني ، وتستلهم عنها الايجابيات والاماني من أجل تغيير ما يمكن تغييره ، وتأسيس ما يمكن تأسيسه لما فيه مصالح الامة المصيرية على مستوى الدولة والمجتمع خامسا ؟ ناهيكم عن ضرورة وجود أي تكتل اقتصادي عربي يستوعب متغيرات العصر من أجل الاستجابة لتحديات العولمة الجديدة . . فضلا عن ضرورة تطوير الاعلام العربي بخلق (ميديا) عربية متطورة تخاطب العالم بالاسلوب الذي يفهمه . . اضافة الى رعاية المبدعين والكفوئين والتوكنوقراط العرب للحد من هجرتهم الارض العربية سادسا ؟

لا أدري هل يشاركني هيكل في الذي أقوله أم أنه سيبحث له عن مسارب أخرى للدفاع فيها عن أفكاره التي أصبحت اليوم قديمة لا تستقيم ومتغيرات العصر بعيدا عن المزايدات السياسية والوطنية والقومية ، اذ لا يمكن ـ كما توضّح الحال مؤخرا ـ أن يؤاخذ أي عربي سياسيا وأيديولوجيا على أفكاره او مبادئه . . اذ يبدو ان كل عربي يعتز من حيث لا يشعر بمقوماته وثوابته وبوطنه وعروبته . . ولكن كل له أسلوبه في التعبير عمّا يريده ، وان الذي يسكته حقا هو المناخ المسيطر والذي تنعدم فيه فرص الديمقراطية الحقيقية ! وأعتقد أن من اول المتغيرات التي يستوجب تحقيقها عربيا : توفير مناخ ديمقراطي عربي حر تضبطه القوانين المدنية ، ولا تحكمه البيانات الثورية ولا القوانين الاستثنائية ولا الاحكام العرفية ولا الاجهزة المخابراتية . . . الخ

تخريجات هيكل بحاجة الى تكملة: من تقديسنا لتجاربنا عنده الى احترامنا لها عندي !

يقول هيكل : «بالطبع ان عبادة الفرد قضية تختلف عن قضية دور الفرد في التاريخ أو دور الفرد التاريخي . .» (السلام المستحيل ، ص ٢٨) . ويستطرد قائلا : «الظاهرة موجودة ، والظاهرة متكررة عبر القرون الممتدة» (المرجع نفسه ، ص ٢٩) . . صحيح يا هيكل ، بامكاننا أن نحترم أدوار الابطال في التاريخ وخصوصا ثلة من الكاريزمات التي جاءت في عصور مختلفة عبر التاريخ . . وصحيح أيضا أن بإمكاننا أن نحترم أولئك الزعماء العرب الذين أدوا رسالتهم من خلال أدوارهم التاريخية مهما كانت طبيعة تلك الأدوار ،

ولكننا يا هيكل اختلف العصر في أيامنا هذه كثيرا عما ألفه العرب أو غير العرب في القرن العشرين ، إذ تبلور اليوم دور النخبة المبدعة ، ودور طاقم السياسة ، ودور فريق العمل ، ودور الجماعة المؤهلة ، ودور الإطارات المؤسسة ، ودور الكوادر العاملة . . الخ وذهب دور الفرد التاريخي ودور البطل الأسطوري ودور الزعيم الملهم ، ودور الحاكم المطلق . . . الخ كما ذهب مع الريح أيضا دور الطبقة البروليتارية ، ودور الطفيليات الانتهازية ، ودور الحاشية المقدسة ، ودور المجموعات العسكرية ، ودور مجالس الحكماء ، ودور أهل الحل والعقد ، ودور الحكومات الثورية والشمولية . . الخ لقد كانت لتلك الأدوار عبر التاريخ أساليب وتجارب وتطبيقات يمكن للأجيال القادمة أن تتدارس ايجابياتها

وسلبياتها . . وخصوصا أجيالنا العربية القادمة في القرن الحادي والعشرين عما كان للعرب منها في القرن العشرين .

لقد اختلف العصر كثيرا جدا عمّا ألفه الجيل الذي عشت فيه يا هيكل بعد الحرب العالمية الثانية ، كما وأختلف العصر كثيرا عمّا ألفه الجيل الذي عشت أنا فيه بعد هزيمة الخامس من حزيران / يونيو ١٩٦٧ . . بل وأختلف جملة وتفصيلا عن كل ما ألفه العرب في تواريخهم الماضية . . وعلينا أن لا نبرر وجودها اليوم عندنا او بيننا نحن العرب بدعوى تخلفنا عن الامم المتقدمة (ليست الغربية حسب ، بل الغربية وفي اقصى شرق آسيا) التي ألغت من قواميسها هذه « الفكرة » بعد ان ارتكزت الى « شرائع دستورية تتجاوز مثل هذا الدور لفرد » (المرجع نفسه ، ص ٢٩) .

ولكن يمكننا أن نضيف لما ذكرته بأن الامم المتقدمة سواء كانت في الشرق والغرب لها ذاكرتها التاريخية التي تحترمها من خلال العلم والدقة والفهم والتخصص . . فمتى نتعلم نحن العرب ومعنا شعوب العالم الاسلامي ان تكون لنا ذاكرتنا التاريخية الحية التي تمايز بين الاشياء والمعاني من خلال القطيعة المعرفية بحيث تحترم التجارب التاريخية ولا تقدسّها ؟؟ متى ؟

هيكل بين تاريخ العقم وصناعة الخصب !

وهو ينهي مقدمته بحوار بينه وبين أحد السائلين له :

« ـ ألا نتعلم من التاريخ ؟

فيجيبه محمد حسنين هيكل : قليلون يتعلمون ، ولذلك فان الذين لا يتعلمون من التاريخ محكوم عليهم بتكراره !

يسأله سائله وهو يحاوره : . . أشعر أن فرصة تاريخية ضاعت علينا ؟

فيجيبه هيكل قائلا : لكني لا أشعر أن شيئا ضاع . . لا يضيع شيء في التاريخ . . بعض سنوات التاريخ عقيمة ، ولكن السنوات العقيمة تعطي دفعا مضاعفا لسنوات الخصب والنماء » (المرجع نفسه ، ص ٣٩) .

ربما أتسّقت رؤانا ، وربما اختلفت أفكارنا . . فهو دليل صحة وليس دليل مرض ، ذلك لأن منهجينا قد اختلفا ، وان تفكير كل منا قد تباينا . . وذلك بحكم اختلاف توجهاتنا أو تباين تخصص كل منا . وعليه ، فإنني لا أريد أن يجيبني هيكل ، بل أريد أن يجيب نفسه على أسئلتي :

- ألا تعتقد يا هيكل بأن أشياء كبرى ضاعت من تاريخ العرب على امتداد عصورهم السالفة ؟ فأين هو الأندلس المفقود ؟ وأين هي بقية البلدان المفقودة والأراضي السليبة ؟ وأين هي القيم والرموز والمعاني الرائعة التي ضاعت ؟

- ثم أليس بمقدورك أن تحدّد لنا السنوات العقيمة والعجاف في حياة العرب ابان تضاعيف القرن العشرين ؟ وكيف تعطي السنوات العقيمة دفعا مضاعفا لسنوات الخصب والنماء ؟

هذا تمويه على الذات العربية وليس زرع أي تفاؤل لدى اجيالها . . فزرع الأمل واحياء التفاؤل لا يأتي بهذا الأسلوب الذي يغطي دوما على السلبيات ، بل وعلى الفواجع التي سببتها التجارب الخاطئة والتصرفات الصبيانية غير العقلانية التي نحن بأمس الحاجة لدراستها ومعرفة ما جنته بحق حاضرنا ومستقبلنا !

لقد مرت على العرب قرون عقيمة على امتداد العصر الحديث ولم تعط دفعا مضاعفا لقرون الخصب والنماء ! فما هي أدلتك على ما تقول ؟ وهل حدّدت من هم أولئك الذين تعلموا من التاريخ ، وهم قلة عند العرب ؟ لكي ندرك يا هيكل نجاح تجاربهم وسمو ممارساتهم ونزاهة تطبيقاتهم ؟

النزعة السياسية والكتابة التاريخية:

طبيعي ، لقد نشرت تواريخ متعددة في القرن العشرين سواء ما يخص الأحقاب الوسيطة أو الحديثة أو المعاصرة . ولعل اصعب تلك التواريخ هي المختصة بالعهود المعاصرة التي تندرج فيها السياسة بالمعرفة والأيديولوجية بالتدوين والنزعة الشخصية (أي كتابة المذكرات) بالتوثيق . . ونجد أمامنا في أي مكتبة جامعية عامرة بالكتب جملة هائلة من

العناوين التي لم نكن نعرفها في السابق خصوصاً وان أحداث النصف الثاني من القرن العشرين كانت متداخلة ومعقدة ومتشابكة ومثقلة بالتكوينات ، فهي استجابات للتحديات التي واجهها العرب وبقية شعوب العالم الإسلامي على امتداد عقودهم الزمنية المتأخرة . . وخصوصاً عند الجيل الذي بدا فعله مؤثراً بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وبالأخص بعد تأسيس الكيان الصهيوني في فلسطين .

لعل ابرز ظاهرة يمكن أن نلتقطها في كتابات أصحاب التاريخ المعاصر والخلل الذي يعتور كتاباتهم في الخمسين سنة المعنية هي كثرة المداخلات بين النزعات السياسية وبين الكتابات التاريخية . . ولقد تطفل على علم التاريخ أشخاص لا يمّتون للتدوين التاريخي بصلة ، وهم ينشرون أعمالا على الناس تعنى بالكتابة عن ظواهر تاريخية بأسلوب غير علمي وتفكير غير تاريخي أشبه ما يكون بالمقالة الصحفية منه بالأطروحة التاريخية .

ومن خلال مقارنتنا بين هذه المنظورات المنهجية وبين الكتابات التي بين تحت أيدينا لهيكل . . نجدها وقد غلبت على تلك الكتابات سمتان أساسيتان :

أولها : الاختراق والخلل عند هيكل بين نزعتين اثنتين : النزعة الوطنية المصرية والنزعة القومية العربية بتأثير كل جانب على الجانب آلاخر . . ولكن دائماً ما كانت تطغى النزعة الوطنية على النزعة القومية التي أخذت صفة المغالاة والتمجيد والتفاخر من ناحية والتهميش والمهاجمة والتسفيه بعيداً عن النقد والمعرفة الحقيقية .

ثانيهما : الأسلوب الصحفي الذي كان له خلله وخصوصا في ذاك الذي يعطيه للسياسة اكثر مما يمنحه للمجتمع ! وان يعطي للزعماء والحكام اكثر مما يعطي للمجموع العام وللنخب الخاصة .

وبهذا نجد أن كلاً من الأسلوبين الأول والثاني قد ابتعدا عن مجرى التخصص التاريخي والتدوين الحقيقي ، خصوصاً عندما يلتزم كاتب ذلك التاريخ نهجاً سياسياً معيناً أو أسلوب زعيم من الزعماء أو حزب من الأحزاب ، وبالتالي يفرض على الثقافة التاريخية سلطة قهرية وتفكيراً أحاديا ونزعة يتيمة دون أي معرفة بالأوضاع القائمة التي عليها أحوال الظواهر التاريخية التي تعم وتهم مجموع الأمة وتفاعلاتها وظروفها وأحوالها أمام هذا الركام

الكبير من الكتابات المؤهلة وغير المعتمدة والموثقة (والتي لا بدّ لطلبتنا في الدراسات التاريخية والأجيال الثلاثة القادمة في القرن الحادي والعشرين أن تقف عليها وقفات طويلة) أي ينبغي : **توفير مناهج نقدية عربية للاستفادة من التخصصات كاملة لرصد الخلل وتبيان الأخطاء وتحليل الأساليب والكشف عن الصواب والخطأ** ، وخصوصاً عند أولئك الكتاب الذين فرضوا كتاباتهم على الناس في غفلة من الزمن . ويتداول الناس تلك الكتابات على أنها تواريخ موثقة ورصينة . .

دراسة الظواهر التاريخية من أصعب المهام !

إذن ، المطلوب هو نقد ما كتب من كتابات في القرن العشرين جملة وتفصيلاً خصوصاً المنتج العربي في الخمسين سنة من القرن العشرين **بشكل يعالج كل من المنهج أولا والتفكير ثانياً والرؤية ثالثاً ، والأخطاء والممارسات رابعاً ، والخروج باستنتاجات مهمة تكشف الحقائق خامساً .**

ففي دراسة ظاهرة معينة من جملة عدة ظواهر تاريخية كتب فيها سواء عند العرب أو عند الأتراك أو عند الإيرانيين أو الهنود الخ ، سنجد هناك تركيزاً على ظواهر أخرى وعلينا أن نميز **الظاهرة التاريخية عن الواقعة التاريخية** لان الظاهرة فيها جملة من الوقائع والشخوص وتحتل مسافة زمنية طويلة ، وينبغي دراستها من قبل رجالات فلسفة تاريخ ومنظرّين تجاوزوا مكانتهم كمؤرخين يختصون بالأحداث والوقائع . . في حين لا يسيطر على الظاهرة ، أية ظاهرة الا فيلسوف التاريخ . . ولقد تبلورت أو استعيرت عدة ظواهر تاريخية في القرن العشرين ، كظاهرة الاستعمار وظاهرة الوحدة وظاهرة الاشتراكية وظاهرة الكمالية وظاهرة الحرب ضد إسرائيل وظاهرة السلام . . . الخ .

كلها ظواهر تاريخية كتب عنها الكثير سياسياً باسم التاريخ المعاصر فمثلاً سنجد هيكل في كتابته عن الظاهرة الأخيرة معلومات ناقصة ، وأيضا اتخاذ وجهات نظر أحادية وعدم إعطاء فرصة لإبداء ملاحظات عن المعلومات الواردة فضلاً عن عدم التدقيق بل الكتابة عن أحداث لم يشارك بها الكاتب ، وانما يجعل نفسه في وسط الأحداث دوماً كي يتحدث بالنيابة عنها ! وهذا خطأ جسيم . . ففي مجال مناقشة كتب محمد حسنين هيكل حول

المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل يقول محجوب عمر وهو يعالج نقديا ما كتبه هيكل عن هذه الظاهرة : « ثمة نقطة أخرى وهي شعوري بان هيكل يكتب عن أحداث لم يشارك فيها ، وانما يسمع عنها ، ومن دون أن يدققها فهو يعلن ويخفي ، ومن هنا السؤال الذي اطرحه : لماذا كانت العودة دائماً ومباشرة إلى البداية »* .

خطاب وأفق : بين الملقي والمتلقي:

هذا الطرح الثقافي لم يكن موجوداً في السابق في حوار على أعمال محمد حسنين هيكل ، إنما بدأت معالجته عند نهاية القرن العشرين ولابد أن يتطور هذا النهج الفكري المؤثر لإخضاع كل ما كتبه الرجل بهذا الأسلوب للنقد والشرح والتحليل من اجل تكوين فهم جديد عنه وباستطاعته أن يخضع منتجات القرن العشرين للنقد والمعرفة ذلك لان تلك الأعمال التي كتبها هيكل والتي نشرت على مدى الخمسين سنة الثانية من القرن العشرين ، قد أضرت بالتفكير وخصوصاً عندما انتشرت في أوساط الشباب وبين الناس من تليلي الخبرة بالظواهر وأدوات تلك الظواهر . . وقد نجد في الكتابات التي نشرها هيكل وخصوصاً في بعضها الذي نشر بالعربية ثم نشرها بلغة أخرى فوارق واختلافات وهذا لا يصح أبدا .

ان الحقيقة التاريخية هي واحدة وليست ذات اوجه متعددة تقرأ بالعربية بشكل معين أو تقرأ بالفرنسية أو الإنجليزية بأشكال أخرى وسواء كان المتلقي في عالم عربي أو إسلامي أو غربي أو شرقي . . فالظاهرة التاريخية هي واحدة عند هذا أو ذاك ، إلاّ لا يمكن أن يخاطب أبناء كل لغة بلغة مختلفة . وهذا جانب خطير وقد وجدناه في بعض البلدان ،

---

* (ندوة المستقبل العربي عن كتب محمد حسنين هيكل المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل ، ٣ كتب ، بيروت ، القاهرة ، دار الشروق ، ١٩٩٦ . وهي بعناوين : الكتاب الأول : الأسطورة والإمبراطورية والدولة اليهودية ، الكتاب الثاني : عواصف الحرب وعواصف السلام ، والكتاب الثالث : سلام الأوهام ، أوسلو ما قبلها وما بعدها . . انظر : مجلة المستقبل العربي التي يصدرها مركز دراسات الوحدة العربية ببيروت ، العدد ٢١٤ السنة ١٩ كانون الأول / ديسمبر ١٩٩٦ ، ص ١١١ . وراجع مداخلات : جميل مطر وطارق البشري وحسام عيسى وعبد العظيم أنيس وحسن نافعة ومحجوب عمر وصلاح الدين حافظ) .

بمصر ولبنان بشكل خاص أو نجده عند بعض الكتاب والصحفيين في بلدان المغرب العربي عندما يكتبون شيئاً بالعــربية يختلف مضمونه عندمـــا ينشرونه بالفرنسية . . ويكفي أن يقرأ المرء ما كتبه مؤخراً صلاح الدين حافظ عندما انتقد هيكل على ذلك ، وهناك غيره من النقاد .

هناك الجانب الآخر الذي ينتقد عليه هيكل ورصفائه من الكتاب السياسيين والصحفيين العرب هو ادعاؤهم الاعتماد على الوثائق . صحيح ان هناك ثمة وثائق ولكن يكمن الخلل في كيفية استخدام منهج تحليل الوثيقة ونقد الوثيقة والكشف عن المعلومات الصحيحة فيها كونهم يعتمدون السرد وإنشاء الكلمات والتعابير حتى وان كان العمل يتضّمن تحليلاً سرديا وافيا للوقائع والأحداث والاستعانة بوثائق كثيرة ، كما هي حالة هيكل . . ولكن تبقى عملية التدوين التاريخي عند هؤلاء الكتّاب خاطئة لأسباب عديدة منها المواقف المسبقّة التي يتخذونها قبل شروعهم بالكتابة ، فضلا عن منطلقات أيديولوجياتهم ، اذ يتحدد كل كاتب منهم بزاوية نظر محددة ومعينة ، كتلك التي ينطلق منها هيكل . . ومنها الآراء التي يود الرجل تحقيقها ، ومنها أيضا الرسالة غير المعرفية التي يود إيصالها للناس عمداً .

توظيف المصادر واستخدام المراجع:

لا يمكن توظيف المصادر من دون الاستعانة باستخدام المراجع من أجل فتح كوى ومسارب عدة لكسب المعلومات ، وهذه مسألة يضطلع بها المؤرخون الحقيقيون . . وهو الجانب الاخر من عملية الكتابة الحقيقية التي تتحرك على أرضية قوية . . ومن أجل هذا السيطرة على الجانب الآخر ، فلابد أن تكون للكاتب ثقافة عميقة بالكتب وبمضامينها والموسوعات ومعلوماتها وبالدراسات والمقالات وملخصاتها . . وبالرغم من الاستعانة بالوثائق ، ولكن هذه الأخيرة قد لا تغطي كل الظواهر المعنية أو الظاهرة التي يكتب عنها . . وهناك خلل من نوع آخر نجده عند هيكل وهو عدم تمييزه بين المصادر والمراجع . . أي لا يفّرق بين مصدر المعلومات ، وبين ما يمكن الرجوع له للتثبت والاحاطة والتحقيق والتخريج . . وما شابه ذلك من مستلزمات الكتابة التاريخية الحديثة .

صحيح ان مصادر المعلومات مهمة جداً ويستوجب ان تغطي كل مضمون العمل ، ولكن لابدّ من الاستعانة بالمراجع المتنوعة التي كتبت بأيدي العديد من المؤرخين العرب أو غير العرب المتخصصين ، وإلاّ لمن يكتب المتخصصون أعمالهم ؟ ولماذا يصرف أساتذة التاريخ أعمارهم وأوقاتهم في الكشف عن الحقائق التاريخية ؟ ناهيكم عن أن تلك المراجع تعين هيكل في الوقوف على نتائج معينة أو معلومات حية أو استنتاجات خطيرة ، لكي تدعم عملية الاعتماد على المصادر (ان كان بالفعل يعتمد على المصادر) وهي بدورها يجب أن لا تكون صادرة عن جهة واحدة فقط . فإذا ما كتب عن موضوع معين ، فينبغي على كاتبه أن يسيطر على كافة المصادر المتنوعة . . فمثلاً لا يمكن الاعتماد على وثائق أمريكية في الكتابة عن ظاهرة تاريخية في الشرق الأوسط دون أن يسيطر الكاتب والمؤرخ والصحفي على الوثائق العربية ذات الصلة والعلاقة العضوية بالموضوع . .

استخدام الوثائق عند هيكل والتخوف على أبنائنا من كتاباته :

الجانب الآخر الذي ينتقد عليه هذا الكاتب كما ذكر ناقده الذي باستطاعته وحده كشف بضاعته . يقول حسن نافعة في نقده لمحمد حسنين هيكل : « أما في ما يتعلق باستخدام هيكل للوثائق فأرى انه قد اعتمد اعتماداً كبيراً على الوثائق الأجنبية التي تم الإفراج عنها بحكم قدمها . . . وبالنسبة للمصادر العربية فقد اعتمد هذا الكاتب أما على المذكرات الشخصية أو المصادر الشفوية وقد تكون هذه وتلك مصادر خلافية ومن ثم يعكس التشكيك في بعض المعلومات والمقولات ومن ثم في بعض النتائج التي توصل إليها» (المرجع نفسه ، ص ١١٧) .

مثل هذا النقد مفيد وحيوي يأتي بقلم رجل متخصص لعمل نشره غير متخصص ذائع الصيت ، ولكن الأهم من هذا وذاك ليس المضامين التي كتبها هيكل بل النتائج التي صاغها ، فلابد أن يتعامل معها الجيل الجديد من المؤرخين والمثقفين العرب بحذر شديد في دراسة ظاهرة معينة أو حقبة معينة أو زعيم معين أو مؤسسات من المؤسسات أو حرب من الحروب الخ .

ومن جملة النتائج التي يخلص إليها بعض المتخصصين الذين كتبوا ناقدين بعض تلك

الأعمال هو خوفهم من تأثير هكذا كتابات على الجيل الجديد . . مولدة عنده الاحباطات ، إذ يستطرد حسن نافعة ، ويقول : « وما أخشاه في النهاية أن يكون الكتاب (أحد كتب هيكل) محبطاً ، بمعنى انه إذا كانت إدارة الصراع على مدى اكثر من نصف قرن ، ومع تجدد النخب ، ووجود ثورة ، ومشروع فوري الخ قد سادت على هذا النحو فهي تنبأ أما عن جهل أو فساد أو اختراق أجنبي ، ومن هنا خشيتي ان تكون هذه الرسالة السوداوية فيها قدراً كبيراً من الإحباط» (المرجع نفسه ، ص ١١٨) .

بين الجبرتي وهيكل:

ومثال آخر عن أحد الكتب المهمة التي نشرت في تسعينيات القرن العشرين وهي تبحث في حرب الخليج ، وهي إحدى حروب العقد الأخير من القرن العشرين ، والتي لا تقارن أبدا مع عمل تاريخي آخر قدمه أحد المؤرخين قبل مائتي سنة هو عبد الرحمن الجبرتي* فذاك قد كتب عن اختراقات نابليون بونابرت لمصر وتفصيلات الحرب التي دارت في شوارع القاهرة ضد الغزو الفرنسي وكيفية معالجة الجبرتي كمؤرخ لكل الظاهرة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وكيف استجابت هذه الجوانب جميعها لذلك التحدي التاريخي المرير مقارنة بمثل هذا الكتاب الذي أصدره هيكل عند نهاية القرن العشرين وهو يبحث في حرب الخليج ، اذ لم يعالج كاتبه كل الظاهرة ، وكل الأسباب الحقيقية . .

ولم يوثّق صاحبنا المعلومات التي أتانا بها . . ولم يحلل كل المضامين ولم يعرف طبيعة الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ا والانكى من ذلك كله ، انه وقف عند جانب معين أو زاوية محددة ضيقة التفكير في معالجة ظاهرة كبيرة . . معنى ذلك أن مؤرخاً معروفاً مثل عبد الرحمن الجبرتي في مصر عاش وكتب كتابه قبل مائتي سنة كان هو الأقدر على تجسيد الظاهرة قياسا الى حياة عصره . . من هذا الذي أتى من مصر أيضاً ، وكتب كتاباً لكنه لم يكن متخصصاً فضاعت عليه جملة من الحقائق التاريخية ، بل وان التأثير السياسي والأيديولوجي عليه جعله بعيدا عن مثل تلك الحقائق بل ويطلق الأحكام غير الصحيحة على موضوعه . .

---

* راجع : الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ، عجائب الآثار في التراجم والاخبار ، (كتاب الشعب ٢٧/ ٢٩ / ٣٣) (القاهرة ، ١٩٥٨) .

كان هذا هو عنوان الفصل الاول من كتاب محمد جلال كشك الذي خصصه في الهجوم الصارخ على محمد حسنين هيكل . . وخص الفصل الاول في نقد كتاب هيكل «ملفات السويس» في طبعتيه العربية والانكليزية ، علما بأن عنوان الطبعة الانكليزية للكتاب هو : «السويس قطع ذيل الاسد : نظرة مصرية» . واذا كان هيكل قد وصف بـ «مفكر الناصرية» عند لويس عوض ـ كما وجدنا ـ ، فان كشك يسمّيه بـ «مؤرخ الناصرية» (كشك ، ثورة يوليو . . . ، ص ٣٧) ويعد هذا الناقد من أقسى المهاجمين الذين تعرّض هيكل لهم ، فقد وصم كشك محمد حسنين هيكل بالكذب والتزوير والاستهتار والتهريج (المرجع نفسه ، ص ٣٧ - ٣٨) ، بل ووصل في هجومه عليه ليصفه بالعمالة والخيانة والمأجورية والتجسس (المرجع نفسه ، فصول الكتاب) .

وسأختار بعض الجوانب التي تعّرض لها كشك في الفصل الاول من كتابه ، وقد ثبت لي من خلال مقارنة النصوص صحة نقدات كشك في ما يخص تعامل هيكل مع قرائه العرب بعيدا عن اسلوب تعامله مع قرائه بالانكليزية . ان الطبعة العربية من كتاب « ملفات السويس » ـ يقول كشك ـ « هي التي سقطت منها وقائع وحقائق في غاية الاهمية ، وانها طالت بشقشقة اللسان والتهريج ببطولات كاذبة استحى هو أن يعرضها للقارىء الاجنبي ، أو أخطر ناشره الانجليزي الى حذفها تمسكا بشرف الكلمة ، واحتراما لهذا القارىء الاجنبي . . الذي كان عند حسن ظنهما فاستقبل هذه الطبعة ببرود لم يجابه به أي كتاب لهيكل ذاته » (ثورة يوليو . . ، ص ٣٨) .

١ . يكتب هيكل في الطبعة العربية من ملفات السويس عن مجموعة من الناشرين الانكليز والفرنسيين والامريكان والالمان واليابانيين يطالبونه بكتاب عن السويس . . وهذا ما كرره هيكل في مقدمة كتاب قصة السويس (بالعربية) ، وسنراه يكرره في مقدمة كتاب حرب الخليج (بالعربية) . . أما في الطبعة الانكليزية ، فلا نجد فيها هكذا كلام وادعاءات . . لماذا ؟ ان ذلك ببساطة هو جزء من صناعة دعائية واضحة للمؤلف هيكل بنفسه عن نفسه لترويج نفسه عربيا . . وقد نجح كثيرا في مهمته هذه ! اذ كان معظم القراء العرب وما

زالوا يصدقون ما يكتبه هيكل وما يروجه عن نفسه بنفسه .

٢ . لقد سجل الناقد على هيكل بعد مقارنته بين الطبعتين من « الكتاب » ، مسألة تشويه هيكل لوثيقة روزفلت والتي أرسلها الى الملك فاروق ، اذ حذف من الطبعة العربية جملة خطيرة جدا تقول : « وأقترح الرئيس الامريكي على ملك غير متجاوب ، اقترح روزفلت تقسيم الملكيات الكبيرة في مصر وتسليمها للفلاحين لزراعتها (وكلمة الفلاحين مكتوبة بالاحرف اللاتينية اذ ظهرت بشكل Fellahin) (السويس : قطع ذيل الاسد . . ، ص ٨) . وقارن ذلك مع الطبعة العربية التي حذفت منها الفقرة كاملة ، لا لسبب الا لأن القارىء العربي سيعلم بأن مشروع الاصلاح الزراعي هو أصلا مطلب أمريكي منذ ١٣ فبراير/ شباط ١٩٤٥ ، أي قبل ثورة يوليو المصرية بسبع سنوات !

٣ . تشويه هيكل قضية الامة العربية في صراعها الاستراتيجي ضد الصهيونية ، واعتباره له في النسخة الانكليزية « قطع ذيل الاسد » بأن اسرائيل خاضت حربا ضد بريطانيا وعملاء بريطانيا من الحكام العرب ! وان الانكليز أرادوا الدخول المصري في حرب فلسطين لحرف أنظار المصريين عن النزاع معهم ، وكان في وسع الانكليز الاعتماد على الملك فاروق الذي كان واعيا بنقص شعبيته ، وان البلاد كانت تعاني من كساد اقتصادي . . الخ (السويس : قطع ذيل الاسد ، ص ٦١) . وهذا ما لم نجده أبدا في الطبعة العربية الموسومة «ملفات السويس» . أما هذا الكلام الذي كتبه هيكل ، فما هو الا تشويه متعمد لطبيعة الصراع المبدئي بين العرب والصهاينة .

٤ . وبصدد وحدة وادي النيل ، نرى هيكل يقول في كتابه « قطع ذيل الاسد» (بالانكليزية) : « مسألة السودان أو ما يسمى بوحدة وادي النيل لعبت دورا هاما في مفاوضات ما بعد الحرب ، فقد كان مفهوما أنها قضية عزيزة على قلب الملك فاروق ، الامر الذي لا يستطيع أحد من وزرائه تجاهله . لكن عندما أختفت الملكية أصبح الطريق سالكا للسودان لكي يستقل عن كل من مصر وبريطانيا » (قطع ذيل الاسد ، هامش ص ٢٧) . لا . . ان هذا الكلام ينافي الحقيقة التاريخية ، فلقد صوّت السودانيون بأغلبية ساحقة مع وحدة وادي النيل في أول انتخابات حرة تشهدها بلادهم . وأن اول خطاب أذاعه محمد

نجيب بصوته كان موجها الى « اخواني ابناء وادي النيل » . وان البرلمان المصري على امتداد عهده شهد مشروعية وحدة وادي النيل (ثورة يوليو . . ، ص ٤٥ - ٤٦) .

٥ . ونشهد قراءة النص التالي في الطبعة الانكليزية « قطع ذيل الاسد » والمفتقد من الطبعة العربية ، اذ يقول : « كان ناصر وصحبه يتطلعون بأمل للامريكيين ، لم يكن لهم اتصال مباشر سابق مع الامريكيين » (قطع ذيل . . ، ص ٣٣) . ونسأل أيضا : لماذا لم نجد هذه «المعلومة» فعلا في الطبعة العربية «ملفات السويس» ؟ واذا لم يكن هناك ثمة اتصال مباشر سابق . . معنى ذلك ان هناك اتصال غير مباشر سابق ! علما بأن هيكل نفسه كتب قبل عشر سنوات من نشره هذا الكلام ، وبالذات في كتابه «قصة السويس» ، أي في سنة ١٩٧٦ : « لم يكن هناك اتصال بين الثورة (١٩٥٢) والولايات المتحدة قبل ليلة ٢٣ يوليو » (قصة السويس ، ص ٦٨) . في حين يغّير النص في طبعة سنة ١٩٨٦ المزيدة والمنقحة ، ليقول : لم يكن لهم اتصال مباشر مع الامريكيين (قطع ذيل الاسد ، ص ٣٣) .

٦ . عندما يتحدث انتوني ايدن وزير خارجية بريطانيا عن ذكرياته مع الملك فاروق وباشوات مصر . . فان هيكل يخفي النص كاملا في الطبعة العربية « ملفات السويس» ، في حين ينشره كاملا في الطبعة الانكليزية «قطع ذيل الاسد» ، لماذا ؟ لأن نص كلام ايدن يمتلأ بالكراهية للملك والاستصغار بمصطفى النحاس وتحذير ساسة مصر القدماء . اذ يقول انتوني ايدن بحكم معرفته بحكام مصر السابقين من طراز فاروق والنحاس ، فان الثورة لم تفاجئه ، وأنه طالما حذر السياسيين القدامى من اللعب بالنار باثارة مشاعر الجماهير بالدعاية ، وكان واضحا ان هذا تحذير موجه للجدد أيضا » (قطع ذيل . . ، ص ٦٤) .

٧ . في الطبعة العربية ، يكتب هيكل بأن الولايات المتحدة هي المتبنية لحلف بغداد ، وكانت مصّممة على ضم مصر اليه ، ولكن بسبب مقاومة مصر قررت عزلها فترة حتى «تستبعد مصر وتأثيرها عن الموضوع كله حتى يستقر رأيها على ما سوف تفعله ، وسوف تجد نفسها (أي : مصر) في النهاية مرغمة على اللحاق بالاخرين ، والا وجدت نفسها معزولة» (ملفات السويس ، ص ٣٦٠) . أما في الطبعة الانكليزية ، فلقد أقتصر هيكل على أن يقول : « أكد الامريكيون لعبد الناصر أنه لا نية لديهم في الانضمام لحلف بغداد » (قطع ذيل الاسد ، ص ٧١) .

٨ . ثمة انتقادات ومقارنات وتعليقات وملاحظات دقيقة اخرى سيجدها القارىء الكريم في الفصل الاول الموسوم : التاريخ البلاستيك وهيكل في كتاب « ثورة يوليو . . » لمحمد جلال كشك ، وجميعها صحيحة بعد مطابقة الطبعات العربية من «ملفات السويس» بالطبعة الانكليزية من « قطع ذيل الاسد» (قارن : ثورة يوليو . . ص ٣٦ - ٧٤) . اذ ان هناك ثبت بارقام الصفحات عن الاختلافات بين طبعتين أثنتين لواحد من أبرز كتب هيكل وأهمها : طبعة عربية نشرها للقراء العرب ، وطبعة انكليزية مختلفة نشرها للقراء بالانكليزية .

٩ . لابد أن أذكر ما يضحك قليلا ، فلقد جاء في كتاب « ثورة يوليو . . » الفقرة التالية : « ثم حكى - يقصد به : هيكل - قصة برج القاهرة الذي بني من المبلغ (= ٣ ملايين دولار) وقال ان حسن التهامي كان يسمّيه « وقف روزفلت » وقد كتب هذه العبارة العربية بالحروف الانجليزية ، ولكنه عندما ترجمها للانجليزية - وهو يتقن العربية ولكن بالطبع كمستشرق - ترجمها « انتصاب روزفلت » (Roosevelt s Erection) وهذا دليل انه لم يخترع العبارة ولكن أخطأ ترجمة كلمة « وقف » . . أو ترجمها له مساعد لا يعرف ما «الوقف» و «الاوقاف» (ثورة يوليو . . ، ص ١٦٧) .

١٠ . وبرغم الاسلوب السياسي الذي هاجم فيه محمد جلال كشك عدوه اللدود محمد حسنين هيكل ، واختلافي مع اللغة التي استخدمها كشك في هجومه على هيكل ، واستخدام الاسلوب السياسي ضده ، الا ان في كتاب « ثورة يوليو الامريكية . . » ادانات واضحة ومقارنات صحيحة لا حصر لها في المعلومات التي سجلها المؤلف على كتب هيكل ، وان كشك قد وثّق جملة كبيرة من مقارناته التي سيستخدمها الباحثون في نقد هيكل بكتاباتهم عنه مستقبلا . . علما بأن هيكل لم يرد حتى يومنا هذا على اتهامات كشك وغيره له ، وهذا ما يضعف من كتابات الرجل ، خصوصا وان الاتهامات لم تكن قليلة ، فلقد بلغت عدد صفحات كتاب كشك (٦٤٥) صفحة . ومن يقرأ كتاب محمد جلال كشك سيقف حائرا جدا ليس ازاء رجل اسمه محمد حسنين هيكل ، بل ازاء جملة من الاسرار التاريخية في حياة العرب ابان النصف الثاني من القرن العشرين . . والتي اعتقد ان الغازها ستحلّها الاجيال العربية القادمة في القرن الحادي والعشرين .

وعليه: ماذا نستنتج؟

نستخلص في النهاية بعض النتائج المهمة ، ومنها :

١ . لا يمكن الاعتماد على هكذا كتب ، كتبها هيكل قد تكون دعائية أو صحفية أو إعلامية غير موثقة في كتابتنا للتاريخ .

٢ . هي دعوة للجيل الجديد والأجيال الثلاثة القادمة من القرن الواحد والعشرين لدراسة المنتج التاريخي بجملته وإخضاعه للمعالجة ، ولكل ذلك الذي نشر في القرن العشرين ، وبخاصة النصف الثاني منه .

٣ . اعتقد أن أبناء القرن الجديد الحادي والعشرين سيتفوقون كثيراً على آبائهم الذي عاشوا في القرن العشرين ، لان هناك ثمة متغيرات ومستحدثات واليات ووسائل وأدوات وقبل كل هذا وذاك سيكون هناك تمكن من معرفة العالم ، ومعرفة كتابة الأمم لتواريخها وتواريخ زعمائها وقادتها ونخبها المثقفة والاجتماعية . . واعتقد أنه ربما سيتأخر الحال ، لكن في النهاية سيكون للقرن الحادي والعشرين مدرسة تدوينية تاريخية عربية تختلف عما ألفناه من كتابات فارغة ومسطحة ولكنها ممتعة ومشوقة كتلك التي غزت عقولنا في القرن العشرين .

٤ . لابد أن نعرف أن في القرن العشرين ظهرت كتابات رصينة لمتخصصين أكاديميين وأساتذة جامعيين عرب درسوا في جامعات العالم العربي تواريخهم القديمة والوسيطة الحديثة والمعاصرة وان أعمالهم تلك رغم قلتها ستكون لها فائدة مميزة ، برغم خواء بعضه .

رابعاً: التاريخ لن يسافر: هيكل بين مواربة الامس ومداهنة الحاضر

هيكل بين عبد الناصر ومبارك:

يدرك الجميع أن ليس هناك زعيم عربي يتقّدم على جمال عبد الناصر في تفكير هيكل ، خصوصا وقد شاركه آماله وآلامه في مشروعه القومي الذي تبناه من أجل تحقيق الاهداف القومية النبيلة للامة العربية . . وبقي هيكل قبل أو بعد غياب عبد الناصر يناشد الامة العربية للعمل من أجل تبنّي ذلك « المشروع » . . ومن يقرأ مقالاته المشهورة التي

جمعها في كتاب تحمل نفس أسمها : « بصراحة : الساعات الـ ٣٤ الاخيرة في حياة الزعيم الراحل جمال عبد الناصر » ، وكتابه الاخر الموسوم : «عبد الناصر والعالم» . . فضلا عن كراس سمّاه : « ما الذي جرى في سوريا » . . وغيرها من كتبه التي كرّسها عن حكم الرئيس عبد الناصر وفلسفته التي يحتويها مشروعه القومي . . سيجد ذلك القارئ ان صاحبه هيكل قد أختلف اليوم عمّا كان عليه بالأمس كثيرا ! وخصوصا في تسعينيات القرن العشرين من عهد الرئيس حسني مبارك الذي تختلف سياسته جملة وتفصيلا عن سياسة جمال عبد الناصر ، برغم ان الرئيس مبارك يحترم ذكرى عبد الناصر ومنجزاته !

وعليه ، فان موقف هيكل من المسيرة السياسية المصرية ، يختلف كثيرا عن موقف الجماعات الناصرية التي تصطف في صفوف المعارضة للنظام السياسي القائم ، وخصوصا في بقائها تنادي تحت مظلة المشروع القومي ضمن أساليب مختلفة . . فماذا نجد عند هيكل اليوم . . وبماذا افترق عن الطريق السابق له ؟ ولا أدري بماذا يفسر القوميون الناصريون التوجهات الحالية لمحمد حسنين هيكل اليوم ؟ فهل ما زال الرجل ينادي بالمشروع القومي ؟ أم بدأ ينادي اليوم بمشروع آخر يلتزمه الرئيس حسني مبارك ؟

ازدواجية هيكل بين مشروعين : قومي وحضاري :

لقد هاجم هيكل معظم الزعماء العرب ، أو بقي لا يعطي رأيه الصريح في بعضهم ، ماعدا الرئيس حسني مبارك ، اذ حاول هيكل أكثر من مرة بتصريحاته وأقواله أن يدعم السياسة التي ينتهجها الرئيس حسني مبارك . . ففي محاضرته الشهيرة التي ألقاها في معرض الكتاب الدولي بالقاهرة في شهر كانون الثاني / يناير ١٩٩٠ . . تحدّث هيكل عن تغيير العالم كله في أفكاره وقواه وموازينه . . ويقول : «كل شيىء يتغير ، فاني أظن أننا في حاجة الى من يستكشف لنا رؤية جديدة لمصر تدقق وتحلل وتستخلص ، وأظنها مهمة تنتظر الرئيس حسني مبارك . وقد كنت من زمن طويل أناشده أن يطرح على الامة مشروعه الحضاري لمستقبلها . ولعل شواغله لم تسمح بذلك في وقته ، والآن فان المسؤولية لم تعد شرف طرح مشروع حضاري ، وانما ضرورة رسم خريطة ملاحية في بحار صعبة نحن في وسطها ، ولابد من اجتيازها الى بر السلامة والا فهو الطوفان ؟»*

* (راجع : جريدة أخبار اليوم ، القاهرة بتاريخ ١٤/٤/١٩٩٠) .

كلام رائع يقوله هيكل وهو يفتتح تسعينيات القرن العشرين ، ولكنه يأتي وقد تأخر عن موعده كثيرا يا صاحبي ! فهل كان باستطاعته قوله في عقد الخمسينيات او عقد الستينيات؟ ألم يكن المشروع الحضاري لمحمد علي باشا في مصر قد سبق عصره بقرنين من الزمن كما هو تفكير هيكل اليوم ازاء مصر لوحدها فقط . . وهو التفكير الذي تغّير عما كان عليه قبل ٣٠ - ٤٠ سنة ؟ وهل حصل التغيير عند هيكل نتيجة استفادته من التجارب السياسية العربية الفاشلة أم جاء لاسباب أخرى ؟ من يقرأ « النص » الذي قاله هيكل في أعلاه ، سيجد أن الرجل لم تغيّر أفكاره عن مصر لوحدها ركام التجارب الصعبة والمريرة . . بقدر ما غيّرت أفكاره ازاء مصر : متغيرات العالم كله . وسؤال آخر يفرض نفسه على مستكشف حقيقة هيكل : **لماذا غّير هيكل أفكاره أزاء مصر فقط ، ولم يغّيرها أزاء بلدان عربية أخرى ؟**

نحن نعلم بأن أي مشروع نهضوي أو حضاري يحتوي في مضامينه الكبرى مشروعات متعددة ومتنوعة . . ولقد كانت المشروعات القومية لامم أخرى جزءا لا يتجزأ من مشروعاتها الحضارية الكبرى . . والتي لم تقتصر عمليات بنائها على مخاطبات سياسية وشعارات أيديولوجية وانقلابات عسكرية . . الخ بل اشتملت مشروعاتها النهضوية على بناء مؤسساتها الدستورية ، وتحديث بنيوياتها الاجتماعية ، وتطوير علاقاتها الاقتصادية ، وترصين ابداعاتها العلمية والفنية والثقافية . . وعليه ، فلماذا جاء خطاب هيكل متأخرا جدا ؟ **وهل كان هناك أي استخدام لمفهوم « مشروع حضاري « و « خريطة ملاحية » في النهج السابق الذي سمي بـ « حركة التحرر العربية » أو « النهج الاشتراكي » . . علما بأن أيا من النهجين أو المشروعين : القومي والحضاري ـ هكذا جرت تسميتهما من قبل هيكل نفسه ـ سوف لن يتحققا ، ونسبة الامية في المجتمع تتجاوز السبعين في المائة !!**

مشروع خريطة ملاحية .. أم ماذا؟

أقول : اذا كان هيكل قد تغّيرت أفكاره بالنسبة لمصر وقيادتها التي يمثّلها الرئيس حسني مبارك ، فلننظر فقط الى اللغة التي يستخدمها هيكل هنا ، مقارنة باللغة التي يستخدمها في حديثه عن زعماء عرب آخرين غير مصريين ؟ وكم أتمنى على الرجل مُخلصاً أن يغّير

أفكاره أيضا ازاء بقية البلدان العربية والتي هي بأمس الحاجة أيضا الى أكثر من مشروع نهضوي وحضاري من اجل مستقبل الامة كاملة . . وأعتقد أن أي مشروع حضاري عربي سيحتوي على رسم أكثر من خريطة ملاحية . . والمعلوم عن هيكل عشقه للخرائط ، فالخرائط تزّين مكتبه وغرف بيته وحتى غرفة نومه ، وحتى الممرات المؤدية الى غرف بيته ـ حسب الذي ذكره مفيد فوزي عنه ـ .

ولكن ماهي تلك الخرائط ؟

انها خرائط مصر فقط ! خرائط مصر القديمة والوسيطة والحديثة . . اذ لم يجد مفيد فوزي الذي أجرى مقابلة مع هيكل ، غيرها أبداً* .

وكم كنا نتمنى أن تكون خريطة بائسة تلصق الى جانب خرائط مصر الرائعة ! والحق كل الحق مع هيكل ان تقوم على جدرانه خرائط مصر ، فهو ابن مصر ، ولكن الوطن العربي يستحق ان تكون خريطته أمام ناظري هيكل . . كان عليه أن يعتني بخريطة واحدة للوطن العربي الذي طالما كتب عنه وتدخل في شؤون بلدانه . . والوطن العربي ليس غريبا ، فهو يعد حاضنة مصر عبر التاريخ ، وسيبقى حاضنا اياها على امتداد المستقبل . . واذا كانت مصر بحاجة الى مشروع حضاري ، فان كل بقعة عربية بحاجة ايضا الى مشروع مثله . .

لابد من مشروع حضاري عربي ينبثق من الاعتراف بالخطأ:

وكم كان هناك من مشروعات اصلاحية وتحديثية واعمارية عربية كبرى على امتداد قرنين من الزمن . . في التاسع عشر والعشرين ، ولكنها اغتيلت واجهضت باسم الأحلام الوردية التي زرعها الرومانسيون والخياليون والطوباويون والشعاراتيون . . والتي خربوها خرابا يبابا وجلسوا فوق ذلك الخراب ينادون اليوم بخليط من الأفكار الجديدة التي لا تستقيم أبدا مع « تغيير العالم » الذي حكى لنا عليه هيكل . . دون أن يسألوا سؤالا واحدا : ماذا أنجزنا نحن العرب في الخمسين سنة الماضية ؟ أين هي الإرادة العربية ؟ أين هي الاشتراكية العربية ؟ أين هي الوحدة العربية ؟ أين هي المؤسسات العربية ؟ أين هي القوة العربية ؟

* (مجلة صباح الخير بتاريخ ١/١١/١٩٩٠) .

أين هي العدالة العربية ؟ أين هي فلسطين حرة مستقلة عربية ؟ أين هي التقدمية العربية ؟ أين هي الحريات والديمقراطيات العربية ؟ أين هي قوى الشعب العربية ؟ أين هي الرجعية العربية؟ أين هي العمالة العربية للاجنبي ؟ . . الخ . من المفاهيم والمبادىء والتجارب والممارسات التي تربّى عليها جيل كامل في الاعلام والسياسة والخطاب والكتابات والصحف . .

أين غدت اليوم كل هذه الشعارات ؟ ولا أدري هل يوافقني الرجل الذي توّضح امامنا ما حصل عنده من تغيير بصدد مصر . . هل يوافقني : أن ينزع المرء كي يلبس ويخلع كل يوم مبادئه ؟ فكيف هو الحال على مستوى الامة بكاملها وقد أكلتها التمزقات من داخلها لكي تخلع وتلبس كل يوم مشروعا معيّنا ؟ واذا كانت المشاريع السابقة نزيهة ونظيفة ولها قدر عال من السمو والتجلة في عصر المبادئ . . فلماذا لا يعترف أصحابها بفشلهم في تحقيقها ، ويعالجوا الاخطاء التي وقعوا فيها ، ويبحثون في مواطن الخلل الصعبة ؟ ولماذا لا يتم الاعتراف بما توالد في مجتمعاتنا ودولنا وسياساتنا العربية من التناقضات العجيبة التي خلقتها الممارسات الخاطئة التي لم تزل قوى سياسية وفكرية كبيرة في امتنا العربية لا تعترف بها ! وهي تدرك ادراكا عميقا خطايا وجنايات ارتكبت بحق ابناء القرن العشرين . لابد ان يؤمن العرب بأن الاعتراف بالخطأ فضيلة من أجل رسم خريطة ملاحية في بحار صعبة نحن الان في وسطها . . ولنسأل أنفسنا : ماذا لو بدأنا هذا « المشروع » مذ كنا عند سواحل البحار الصعبة قبل أن نمخر عبابها ؟ فهل تعتقد اننا سنسميها بالبحار الصعبة ؟ وهل كانت الامواج المتلاطمة كالتي نصادفها اليوم ستغرق سفينتنا العربية ؟

هيكل وبطرس غالي:

ان هيكل يدرك تمام الإدراك أن من يتهمه في كتاباته بتهم حقيقية أو مختلقة ، فان صاحبها المتهم سيعتب عليه متى يراه إن كان صادقاً هيكل فيما اتهم به غيره أم كان غير صادق !! ذلك انه لما اتهم زميله بطرس بطرس غالي بعد أن زامله سبع عشرة سنة في الأهرام ، في ما سمعه من أصدقائه ، « انه رجل محكوم عليه مقدماً ودون استئناف فهو مسيحي في بلد مسلم ، وهو من عائلة اشتهرت بالخيانة في تاريخ مصر ، ثم هو متزوج من

يهودية » ! ويستطرد هيكل قائلاً : « وحين نقلت عنه هذه العبارة في سياق أحد فصول كتابي اغتيال الرئيس السادات (خريف الغضب) توقعت أن بطرس سوف يعتب على ما نشرته ، لكننا عندما التقينا لاول مرة بعد النشر ، وبادرته باني أتوقع عتابه ، وجدته يقول : إنني عاتب فعلاً ولكني ليس لما نقلت عني وانما لانك أكتفيت به . ان كل ما ذكرته عني حقائق موضوعية ، لكني انتظــرت ـ وقد عملت معــك سنوات طــويلة ـ أن تضيف إليها شيئاً من عندك كان تقــول إنني «كفء» أو أنني «ذكي» أو أي وصف آخر ينم عن رأيك أنت فيّ» .

ثم يعقب هيكل قائلاً : واعترف أن بطرس كان ودوداً ورقيقاً في ملاحظته ، وقد ردددت بان الحق معه فهو بالفعل على المستوى الإنساني رجل ذكي بعقله وقلبه معا (وجهات نظر ، ١٠/٢) .

رفع العتب بعد حين : ملاحظة تراجع هيكل عن كتاباته !

ان هيكل يثبت هنا من جديد أنه يكتب في السبعينيات عن بطرس غالي الذي زامله في الاهرام سبع عشرة سنة متهما أياه بشتى التهم في كتابه « خريف الغضب » ، ولكن يتبدل الزمن بتداول السنين ، ويصبح بطرس غالي الامين العام لهيئة الامم المتحدة ، فهل بقي هيكل عند كلامه ذاك الذي كتبه ؟ وأن هيكل يثبت هنا أيضا بان من حق الناس الذين يتهمهم ان يعتبوا عليه ، فإذا كان بطرس غالي قد عاتبه ، واعترف هيكل بذلك ، لكي يضيف على ما قاله ما كان غالي قد طلبه منه ، فجاء اليوم ليلمّع صورته التي كدّرها قبل قرابة عشرين سنة !

فالسؤال اذن ، كيف بالذين يتهمهم بأشنع الصفات ويقص عنهم اقبح الروايات ، فكيف يريدهم لا يعتبوا عليه ، ولا يتخذوا منه مواقف العداء ؟

اذا كان هيكل يتخلى عما يكتبه كل حين او عهد او زمن . . فلا يمكن بهذه الحالة الاطمئنان لما يحكيه عن هذا وذاك مطلقا ! وهذا ما يلاحظه القارئ كيف هاجم هيكل الرئيس السادات هجوما عنيفا في كتابه « خريف الغضب » . . ثم تحّمل هيكل الهجمات الكاسحة ضّده وضد كتابه المذكور ، وقد سكت !! ولكن من يلاحظ كتابات هيكل

اللاحقة ، سيجده وهو يذكر السادات محترما اياه احتراما لا يتجانس البتة مع ما كان قد قصّه علينا في « خريف الغضب » ! وبإمكان القارئ الكريم ملاحظة ذكر هيكل للسادات في كتب مثل : « ملفات السويس » و « حرب أكتوبر » وغيرها من الكتب التي ألّفها في عقدي الثمانينيات والتسعينيات !

قتل القتيل والمشي في جنازته :

إن هيكل مثل ذاك الذي يقتل القتيل ويمشي في جنازته مستهزئا وضاحكاً كونه انجز انجازاً كبيراً ليس في قتله فعلاً ، بل في الاجهاز على تاريخه وسيرته وحتى أخلاقه ، وان هيكل إذا أراد أن يتملّص من شيء قاله أو كتبه وحرره . . فما عليه إلاّ أن يؤلف قصة من عنده ويرتب سيناريو مشاهداها ويكون هو أحد أطرافها ، أما الطرف الآخر ، فيكون قد مات منذ سنوات فهو يؤدي غرضه هنا من إلقاء التهم ، ولكنه ينصب من نفسه ليس محامياً ، بل مساعداً وخبيراً وصاحب معروف ، كالذي جاء في سياق حديثه عن بطرس غالي الذي توسط له هيكل عند الرئيس جمال عبد الناصر . .

وهنا يأتي اسم جمال عبد الناصر مرة أخرى الذي ينقل هيكل رواية على لسانه ، ولكن لا نعرف مدى صدقها من عدمه ، وليس هناك أي دليل لاثبات ما يقوله هيكل الذي يكتب هذه الأيام قائلاً : « ربما أن المرة الوحيدة التي أحسست فيها أن ظروف بطرس غالي وقفت في طريقه كانت سنة ١٩٦٤ حين اقترحت اسمه على الرئيس جمال عبد الناصر ليكون واحداً من أعضاء مجلس الأمة المعينين . وأتذكر أنني قلت للرئيس جمال عبد الناصر كل الحقائق بشأنه وأهمها انه حفيد بطرس غالي باشا الذي اغتيل بسبب محاولته تجديد امتياز شركة قناة السويس لخمسين سنة إضافية ، وان معظم القوانين الاشتراكية انطبقت عليه وعلى كثيرين من أسرته ، ثم انه متزوج من سيدة يهودية تنتمي إلى أسرة «نادلر» التي تملك واحداً من اكبر مصانع الحلوى بالإسكندرية .

عبد الناصر : نحن لا نستطيع أن نأخذ الأحفاد بماضي الأجداد

ولم يتوقف الرئيس جمال عبد الناصر عند شيء مما قلته ، وحسبت اقتراحي مقبولاً منه . لكنه في اليوم التالي اتصل به مبكراً يسألني : « هل فاتحت بطرس غالي في شيء؟»

وأجبت بالنفي (فقد علمتني الظروف دائماً إلاّ استبق الحوادث إلاّ حينما تؤكد نفسها أمامي في يقين لا يداخله شك) . وقال : الحقيقة أن لي الآن رأيا مختلفا » ثم استطرد جمال عبد لناصر : « كون أنه حفيد بطرس غالي مسألة لا تؤثر في شيء ، فنحن لا نستطيع أن نأخذ الأحفاد بماضي الأجداد وكون ان القوانين الاشتراكية انطبقت عليه لا يعني إخراجه من الحياة العامة ، وهو بالفعل أستاذ في الجامعة ، وهو « معكم » في الأهرام وكون أن زوجته يهودية مسألة لا تزعجني في حد ذاتها ولا تسبب لي حرجاً . ولكن المشكلة ـ كما ظهر من تقرير جاءني ـ ، أن لها أقارب من الدرجة الثانية على الأقل يعيشون في إسرائيل ويعملون هناك » .

وقلت لجمال عبد الناصر ان « تلك مسألة لم اكن اعرفها واستطيع ان افهم تردده حيالها رغم اعتقادي أن بطرس يمكن أن يكون عضواً نافعاً في مجلس الأمة خصوصاً في أعمال اللجان ، وكان ذلك ما تصورته له بالفعل ، فقد كان صعباً أن أتصوره متكلماً أو خطيباً يهز المنبر تحت القبة لان لغته العربية لغة « خواجات » كما كان يقول بنفسه ، ثم انه واحد من الناس الذين يتجلى أداؤهم داخل قاعة مغلقة ، لكن أداءهم يتعطل إذا وقفوا على مسرح مفتوح ! » (وجهات نظر ١١/١) .

تساؤلات نقدية صارخة :

ثمة تساؤلات نقدية صارخة لابد من تسجيليها على النص أعلاه الذي كتبه هيكل مؤخرا :

١ - من الذي يؤكد لنا وللتاريخ ولبطرس بطرس غالي وللأجيال انك قلت هذا كله لعبد الناصر ، وقاله لك ؟

٢ - ما هي قدرتك يا هيكل في أن تحفظ ذاكرتك كل هذه التفصيلات بطريقة (قال وقلت) من الحواريات مع عبد الناصر منذ ٣٥ سنة ، أي منذ عام ١٩٦٤ حتى اليوم من عام ١٩٩٩؟

٣ - من ذا الذي يؤكد لنا انك قلت هذا (وليس ضده) لجمال عبد الناصر ، خصوصاً وان ما

تسجّله اليوم له موقف من شخصية مصرية دولية عما كنت تقوله عنه أو تصفه به قبل ٣٥ سنة من اليوم ؟

٤ - انك تريد القول بان لك فضلاً على بطرس غالي تريد ان تسجله اليوم عليه ، وهو فضل يعود تاريخه إلى ٣٥ سنة . . ولا أدري هل يصدقك بطرس غالي بهذه السهولة ؟

٥ - هل من المعقول ان يتصل بك عبد الناصر في اليوم التالي مبكراً لكي يعلمك انه غير موقفه نتيجة تقرير ورده بصدد بطرس غالي ، وأنت الذي أقنعته بذلك قبل ساعات ؟

٦ - لقد جاءت روايتك متأخرة جداً يا هيكل . . إذ كان عليك أن تحكيها منذ سنوات خلت ، خصوصاً وانك قد تعرضت لذكر بطرس غالي في اكثر من مكان وانه صديق قديم لك ـ كما تدعي ـ .

٧ - وما اكثر من قلت عنهم انهم أصدقاء لك . . ولكنك أدخلتهم السجون والمعتقلات ، أو تذرّعت بصداقتهم أو هكذا يحلو لك أن تسميهم ثم هاجمتهم بعد مماتهم ووصفتهم بأشنع الصفات ؟

٨ - وأنت كيف تجرح وكيف تداوي الجرح ثم ترجع لتفتح الجرح ثانية ؟ فكل ما وصفته من (الحقائق) عن بطرس بطرس غالي قبلته بعد ذلك مقترحاً اياه عضواً نافعاً في مجلس الأمة . . « ولكن لغته لغة خواجات » !! .

٩ - إن بطرس بطرس غالي حتى وان كان صاحب وساوس ، فهو ابن مصر مسلماً كان أم قبطياً . ومهما كان تاريخ عائلته موصوماً بالخيانة ، فهو لم يكن خائناً . . وهو حتى وان كانت زوجته يهودية فالإسلام لم يحرم الزواج باليهوديات والمسيحيات ! وهو ليس بمسلم ، بل من أهل الكتاب . أما ان كانت ذاكرة هيكل تحفظ نص ما قاله عبد الناصر عن قبوله بكل ذلك لآن تقريراً وصله بتلك السرعة يعلمه على حد زعمك بان لزوجته أقارب في إسرائيل يعملون هناك . فما جريرة بطرس بطرس غالي ؟

١٠- ولنكن عقلاء عندما نكتب تواريخ الرجال وسيرهم ولنكن أيضاً أمناء يا سيدي فليس من الأمانة والموضوعية أن نسلق الأخبار ونذبح الروايات ونخترع القيل والقال دون أي

توثيق يذكر يدعم سنده ما تقول . . إذ لن ينفع ذلك البتة ، فالرجل وصل إلى منصب الأمين العام للأمم المتحدة وادى دوره ، ومهما كانت طبيعة ذلك الدور لكن يكفيه انه أقسر عن ترك منصبه لانه رفض أن يكون أداة طيعة بيد غيره ولانه رفض أن يتعامل مع الأمريكان لا خفية ولا على المكشوف .

لماذا المنة والفضل بعد عشرات السنين؟

ويكتب هيكل في شأن آخر يخص بطرس بطرس غالي إذ يذكره بمنّة وفضل كان قد أسداهما إليه عندما كان هيكل رئيساً لتحرير (الأهرام) ، وقد جاءه بشارة تقلا صاحب اكبر نصيب في الشركة المالكة للأهرام ، جاءه بعد قيامه على رئاسة تحرير الأهرام بشهرين أو ثلاثة يطلب منه على استحياء أن يعطي صديقه بطرس بطرس غالي فرصة للعمل في الأهرام الاقتصادي . . وقد رد هيكل بتحمس لقبول طلبه ، وانه على استعداد لترشيحه أمام مجلس الإدارة رئيساً لتحرير الأهرام الاقتصادي وليس محرراً فقط . .

يقول هيكل مستطرداً : « وبالفعل فإنني طلبت مشورة من الإدارة القانونية في جواز الجمع بين رئاسة تحرير مجلة وبين العمل في هيئة التدريس في الجامعة . . . وهكذا اصبح بطرس غالي أستاذا في الجامعة ورئيساً لتحرير الأهرام الاقتصادي وبعد ذلك رئيسا لتحرير مجلة « السياسة الدولية » . وكان الهدف من إصدارها أن تكون مجالاً لنشر نتاج مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية الذي أسسته سنة ١٩٦٤ (واكتمل تسجيله سنة ١٩٦٨) وكذلك اصبح بطرس زميلاً وصديقاً لسبعة عشر عاماً جمعنا فيها الأهرام (وجهات نظر ١١/١) .

وليس لي بعد كل هذا الذي شرحه هيكل بإسهاب كونه صاحب منّة وفضل على بطرس غالي إلا سؤالين أثنين لا ثالث لهما :

- إذا كانت هناك معرفة زمالة وصداقة دامت بينك وبين بطرس غالي لسبعة عشر عاما ، فلماذا وسمت الرجل بأسوأ السمات في « خريف الغضب » ؟

- ما معنى كتابتك من هذا النوع عن بطرس غالي عام ١٩٩٩ ، أي بعد مرور أكثر من

ثلاثين سنة على المعروف الذي صنعته معه ؟

والجواب ـ حسب ما أظن ـ يكمن في تخلّي هيكل عما جاء به في خريف الغضب أولا ، كما ويكمن ـ أيضا ـ بأن هذا الذي غدا أمينا لهيئة الأمم المتحدة ما كان ليكون لولا فضل هيكل عليه . . وتقدّرون فتضحك الأقدار !

حول المفاوضات العربية - الإسرائيلية

لقد نشر هيكل مؤخراً عن المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل ثلاثة كتب ناقشتها جماعة من الاخوة المفكرين العرب ، وهم : جميل مطر وحسام عيسى وحسن نافعة وصلاح الدين حافظ وطارق البشري وعبد العظيم أنيس ومحجوب عمر في ندوة خاصة نشرت بعنوان : «مناقشة كتب محمد حسنين هيكل حول المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل» إذ ناقش بعض الأساتذة من هذه النخبة باختزال وبكل علمية الكتب الثلاثة الموسومة (الكتاب الأول) « **الأسطورة والإمبراطورية والدولة اليهودية** » (والكتاب الثاني) «**عواصف الحرب وعواصف السلام** » ، (والكتاب الثالث) ، « سلام الأوهام : أوسلو ما قبلها وما بعدها »* .

ولقد تراوحت ردود الفعل والأفكار المطروحة من قبل هذا الفريق بين الإعجاب الشديد وكيل المديح لمحمد حسنين هيكل وبين النقد وكتابة عدة ملاحظات منهجية أساسية ، ولقد وفّر عليّ هؤلاء الاخوة قدرا كبيرا من الملاحظات التي كنت سأكتبها ضمن مشروع هذا «النقد» على الكتابين الثاني والثالث ، اذ وجدت جملة من الملاحظات الرصينة على كتب هيكل الثلاثة . . ومن ابرز تلك الملاحظات المطروحة :

١ . يقول حسن نافعة : « فالكاتب من خلال تحليله وانتقائه للوقائع والأحداث التاريخية يخرج برؤية معينة تعبر في النهاية عن رؤيته لمسار الصراع العربي الإسرائيلي وليس من الضرورة أن نتفق جميعاً على هذه الرؤية » (**المستقبل العربي** ، ٢١٤ / ١٠٩) .

٢ . يقول طارق البشري : « وفي تصوري أن اكثر ما يلفت النظر في الكتاب هو حكمه على

---

* (مجلة المستقبل العربي ، العدد (٢١٤) كانون الأول / ديسمبر ١٩٩٦ ، ص ١٠٧ – ١٠٩) .

منظمة التحرير ، فقد صوّرها الكتاب على أنها بدأت بالتوريط ، وبدأت مسؤولة عن عمليات غير مدروسة ، وأنها انتهت بالتسليم ، ومن هذا وذاك فهي تجمع المال وتضعه في الخزائن وتجمع السلاح وتضعه في المخازن ، فالصورة التي وردت لمنظمة التحرير في الجزء الثاني والثالث من الكتاب تفقدها كل مصداقية تاريخية منذ بدايتها وحتى اليوم» (المستقبل العربي ، ٢١٤ / ١١١) .

٣ . يقول محجوب عمر : « ولعل هيكل لم يشر إلى معركة الكرامة ، ففي هذه المعركة كان الجيش الإسرائيلي يرتب دباباته . . ولعل من يقرأ الجزء الثالث من الكتاب يخلص إلى عدم فعل أي شيء من هذا القبيل ، وفي اعتقادي أن مثل هذه الخلاصة سوف تفرز جيلاً من الشباب قليل الخبرة بالصراع وأدواته» (المستقبل العربي ، ٢١٤ / ١١١-١١٢) .

٤ . يقول عبد العظيم أنيس : « بداية ، أوافق على كثير مما قيل حتى الآن ولا سيما ما ذكره د . محجوب عمر في ما يتعلق بأهمية التدقيق في بعض المعلومات » (المستقبل العربي ، ٢١٤ / ١١٢) .

٥ . يقول جميل مطر : « وقد لفت نظري في الكتاب على امتداد أجزائه الثلاثة أن القارئ لا يشعر بان هيكل يحاول أن يقول شيئاً للإسرائيليين ، هذا في حين جاء الكتاب حافلاً برسائل كثيرة إلى الفلسطينيين والعرب وأحياناً إلى الغرب . . وفي النهاية أشير إلى فكرة الوثائق والتي دأب أ . هيكل على استعمالها منذ مدة طويلة ، فقد أثارت هذه الفكرة انتقادات كثيرة ، فهناك من يقف معها أو ضدها من ناحية انتقائية هذه الوثائق ، إلاّ انه يبقى في النهاية أن هيكل قد استغل فكرة الوثائق بطريقة وببراعة لم يستخدمها أحد من قبل ، إذ انه يجعل الوثيقة تجر القارئ إلى النتيجة التي يريد الوصول إليها من دون أن يتدخل هو بكلمة أو تحليل » . (المستقبل العربي ، ٢١٤ / ١١٦) .

٦ . يقول حسن نافعة : « وفي تصوري أيضا في ما يتعلق بالجزء الثاني من الكتاب ـ برغم أهميته ـ أنه لم يضف جديداً ، واعتقادي أن ٨٠ بالمئة مما ورد فيه أما انه ورد في كتابات سابقة للأستاذ هيكل أو ورد فيه كتابات أخرى لغيره » (المستقبل العربي ، ٢١٤ / ١١٧) .

٧ . ويستطرد حسن نافعة أيضاً : « لنبدأ من الجزء الأول وهو في تقديري افضل الأجزاء من حيث العمق والجهد التحليلي واقلها مدعاة للجدل ومع ذلك فقد لفت نظري ما يلي :

اولاً : غياب قضايا على جانب كبير من الاهمية ، في تقديري ، لم يعرها المؤلف أي انتباه مما قد يثير تساؤلات أو يوحي بشكوك أو حتى بفتح الباب أمام اتهامات بالانحياز الأيديولوجي » .

ثانياً : هناك قضايا أخرى في غاية الأهمية كتب عنها الكثير ، لكن الكلمة الفصل أو الكلمة النهائية فيها لم تقل بعد . وكنا ننتظر من هيكل أن يدلي بدلوه فيها لكنه للأسف لم يفعل » .

ثالثاً : يبدو لي ان تأكيد هيكل أن العرب دخلوا حرب ١٩٤٨ لإنقاذ الأجزاء التي خصصها قرار التقسيم ينطوي على تعميم يصعب قبوله بسهولة . وكان الأحرى بالأستاذ هيكل أن يدلل على هذا الاتهام الخطير بالوثائق » (المستقبل العربي ، ٢١٤ / ١١٨) .

٨ . ويكمل حسن نافعة نقداته الرصينة بقوله : « أما بالنسبة للجزء الثاني من الكتاب ، فهو لم يقدم في تقديري أي جديد . . . ملاحظاتي على هذا الجزء ، وبسرعة شديدة ، ما يلي :

أولا : الانحياز فيه للفترة الناصرية واضح جدا . . لكن الانحياز الى المرحلة الناصرية حتى وان كان عن مبدأ واقتناع ، لا يبرر التهوين من شأن المحاولات التي تمت خلال هذه المرحلة لمد جسور الاتصال بين مصر واسرائيل . لذلك بدت لي رواية هيكل عن أحدى المحاولات عبر الملحق العسكري في باريس غير مقنعة . ولم يحاول هيكل أن يعرض لنا بشيىء من التفصيل حقيقة الموقف المصري من التسوية المحتملة مع اسرائيل خلال تلك الفترة . فعندما يتحدث عبد الناصر ، مستعينا بخريطة ، عن أي تسوية . . فمعنى ذلك أن عبد الناصر دخل في التفاصيل . وهنا كان الموقف يقتضي تحليلا لرؤية عبد الناصر المتكاملة للتسوية ، ان توافرت شروطها ، أو لادارة الصراع مع اسرائيل ان لم تتوافر هذه الشروط .

ثانيا : كتاب هيكل يحتوي على ايحاءات خطيرة ، وترك خواطر القارىء تسرح معها كما تشاء . .

ثالثا : هناك موضوعات فتحها هيكل ولم يغلق باب النقاش حولها . .

رابعا : عندما يتحدث هيكل عن . . ، يشعر القارىء برغبة في توجيه الاتهام ، وعندما يتحدث هيكل عن . . ، يشعر القارىء بأن هيكل يحاول أن يلتمس العذر . . وعندما يتحدث هيكل عن مصطفى خليل ودوره ، يشعر القارىء بأن هيكل يحاول أن يدافع . . . وفي جميع الاحوال يبدو الدافع الشخصي مؤثرا وغلابا (المستقبل العربي ، ص ١١٩) .

٩ . يقول محجوب عمر : « من هنا كنت أتمنى أن يعاد تدقيق معلومات الجزء الثالث من الكتاب ، وأن يعاد ترتيبها ، لأن هذا الجزء ، في رأيي ، يقع في اطار التأريخ وليس التاريخ» (المستقبل العربي ، ص ١٢٢) .

١٠ . وهناك وجهات نظر متعددة نقدية وتمجيدية بحق محمد حسنين هيكل وكتاباته . . وربما أشارك الفكرة التي قالها حسن نافعة بصدد عدم اعتماد أي إنسان على ذاكرته في تسجيل الأحداث ، ولكنني ربما اختلف معه عندما يقول بأن هيكل كان يسجل كل انطباعاته ! (المستقبل العربي ، ٢١٤ /١٢٦) ولكن وجدت الرجل يذكر تفصيلات مملّة عن أحداث لم يشارك بها أصلا . . فمن أين حصلها يا ترى ؟ وهو نفسه الذي يشيد بذاكرته وقوتها واعتماده عليها في تسجيل معلوماته وتأليف كتبه !

خامساً : وقفة نقدية من نوع آخر : التاريخ يسافر الى المستقبل

لا يفوتني أن اسجل هنا ما قاله المؤرخ مسعود ضاهر الذي كتب مقالة نقدية عن الكتاب الاول « الاسطورة والامبراطورية والدولة اليهودية » من ضمن الكتب الثلاثة عن موضوع المفاوضات السرية بين العرب واسرائيل ، ومن ضمن ما قاله ناقده عنه : « من المعروف جيدا أن محمد حسنين هيكل مولع باطلاق العناوين المعبرة ، والعبارات اللماحة التي تتحول الى شعارات تتردد في الكتابات العربية ، خصوصا العميقة منها . لذا فعنوان

* وأضيف على ما قاله حسن نافعة متسائلاً : هل استطاع هيكل ان يرد على كتاب نشره إلمور جاكسون ، انظر :

Elmore Jackson, *Middle East Mission: The Story of a major bid for Peace in the time of Nasser & Ben Gurion* (Londno, New York: W.W. Nortone & Co., 1983).

الكتاب الاول يختصر بدقة مضمونه في عبارة واحدة هي «التاريخ يسافر الى المستقبل»*

كنت أتمنى على الاخ مسعود ضاهر أن يتوقف مطولا عند عبارة هيكل وهو يبرر هواجسه من قراءة التاريخ والاستفادة من دروس التاريخ وعبره ، وقول هيكل : « هذه محاولة لقراءة التاريخ وليس لكتابته ، وهي رحلة سريعة مع روايات ووقائع واحداث ورجال فترة تزيد على قرن من الزمان . . » . . وحبذا لو تم فحص المنهج الذي اعتمده هيكل في قراءة تاريخ قرن مثقل بالاشياء الصعبة . . وهل كان هيكل ناجحا في توظيفه للمصادر والمراجع كالتي نعمل بها نحن المؤرخين في البحث عن الحقيقة التاريخية بغض النظر عن طبيعة مهمتنا التي لابد أن تجمع قراءة التاريخ وكتابته في آن واحد !

وعليه ، فان مسعود ضاهر يعلّق قائلا : « انطلاقا من هذه المنهجية الواضحة المعالم تسهل قراءة كتاب هيكل ، ليس كبحث تاريخي يحتاج الى معطيات مدعومة بالوثائق ، ومثقلة بالحواشي ، ومزّودة بفرضيات علمية تعقبها استنتاجات محددة ، بل كمحاولة سياسية لتفسير الاحداث التاريخية المثبتة والموثقة جيدا والتي على ضوئها يفهم الواقع الراهن وترسم آفاق المستقبل العربي بعد دخول العرب مفاوضات السلام الجارية الان مع اسرائيل »**

وبرغم المسحة التعبيرية التفخيمية والمهذبة التي منحها الاخ مسعود لقراءة هيكل التاريخية ، فقد سجّل عليه ملاحظات نقدية قوية ضد عمل محمد حسنين هيكل ، وقد صحّح له معلومات عدة ، كما أوضح له بعض التصويبات التاريخية التي يحتاجها الكتاب . . فضلا عن اشارته الى حاجة هيكل في الاطلاع على المزيد من الوثائق التاريخية التي تحتويها الارشيفات : العثماني والفرنسي والروسي والالماني***

واعتقد يا عزيزي مسعود ان ذلك من مهمة المؤرخ الجاد ، وقد ذكرت بأن هيكل لم يكن

* (المستقبل العربي ، العدد ٢١١ ، ايلول / سبتمبر ١٩٩٦ ، ص ١٦١) .

** (المستقبل العربي ، نفسه اعلاه ، ص ١٦١) .

*** (المستقبل العربي ، نفسه اعلاه ، ص ١٦٣) .

مؤرخا ، بل هو كاتب سياسي ! اذ نخرج من هذا الموضوع : ان هيكل اقحم نفسه فيه ، فكان موقفه حرجا جدا في معالجاته الناقصة !

هيكل : بعيدا عن الصورة الأخرى

وجدنا في أعلاه جملة ملاحظات نقدية علمية مختزلة على ما انتجه محمد حسنين هيكل مؤخرا حول موضوع حيوي وخطير في حياتنا التاريخية المعاصرة . . وأعتقد أن الرجل سيتقبل أية نقدات علمية برحابة صدر . . وهي تأتي عند نهاية خمسين سنة من حياته في الصحافة والكتابة ، وانها تختلف اختلافا جذريا عن تلك الانتقادات الصارخة والهجومات الكاسحة التي تعّرض لها في مصر خصوصا من قبل أعدائه وخصومه السياسيين قبل حوالي ربع قرن من الزمن بعد تركه صحيفة الاهـرام ايام أنور السادات . .

لقد انطلقت الصورة الاخرى لمحمد حسنين هيكل والتي أقدمها اليوم لا لأنني متفق معها ، بل من باب معرفة ما دار حول الرجل ولنقارن التغير الذي حصل في الصورة الاخرى لهيكل ، وأقصد بها : الصورة السياسية على امتداد ثلاث عهود سياسية ، عهد عبد الناصر وعهد السادات وعهد مبارك . . ولعل وقوع الصورة الاخرى لهيكل في قلب الجادلات السياسية والمهاترات الصحفية المشحونة كلها بالنزق والكلمات البذيئة والاتهامات والتشكيك والحملات الاعلامية . . قد نالها هيكل على عهد أنور السادات ، وقد وصلت درجة الاتهامات الى تعاونه مع الاجهزة السرية الامريكية والسوفييتية . . ودعمه المطلق للقمع والارهاب والعنف المسلح .

ان محمد حسنين هيكل فنان في خلق جدلية من نوع ما أو من أي نوع تثار من حوله ، وبقدر ما تخبو الجدلية والمعرفة والوضوح في كتاباته مقاربا باسلوبه نحو التهويم والتحليق أدبيا حول الوقائع والاحداث ويرسم المزيد من الظلال حول الشخوص . . دون أن يدخل في أعماق الموضوع ، فالرجل ناجح في خلق جداليات من نوع ما حوله ، خصوصا عبر المتناقضات التي يحملها ، والقفزات السريعة بتغيير المواقف من مكان الى آخر ومن زمان الى آخر . . فهو بالوقت الذي يصفه لويس عوض بمفكّر الناصرية الاول ومروج الافكار القومية

الناصرية ، فقد ساهم اسهاما حقيقيا بدعم السياسة الانفتاحية الساداتية التي ضربت عرض الحائط كل التجربة الناصرية . . ولما ضرب هيكل من قبل السادات باقصائه من مؤسسة الاهرام ، بدأ يتجاوز الحدود بانتقاداته للنظام وسياسته ، فقرر السادات عام ١٩٧٨ منعه من السفر خارج مصر واحالته للتحقيق بتهمة التعرض للدولة والتحريض على الاضطرابات . . وعلى مدى ثلاثة أشهر ، استمر التحقيق مع هيكل في عشر جلسات ، كل جلسة منها بواقع ثلاث ساعات . . ودارت التحقيقات حول ما كتبه وأذاعه هيكل ضد السادات ، فحل الانفصال بين الرجلين بصورة فعلية .

هيكل بين توفيق الحكيم ونجيب محفوظ :

لقد أدان محمد حسنين هيكل كل من الاديبين المصريين المشهورين توفيق الحكيم ونجيب محفوظ على مواقفهما السياسية التي تبلورت في عهد انور السادات ، فالاول ينشر «عودة الوعي» عام ١٩٧٤ ضد سياسات الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، والثاني يبارك خطوات السادات للسلام مع اسرائيل . . علما بأن ثمة مواجهة باردة الدم قد حدثت بين توفيق الحكيم ومحمد حسنين هيكل مذ عيّن الاخير وزيرا للاعلام عام ١٩٧٠ . . ثم حمي الوطيس بينهما اثر نشر هيكل كتابه «خريف الغضب» ضد السادات وبعد موت السادات ! وقد حدثت مجادلة صحفية بين الرجلين .

ولما ازدادت الحملة الاعلامية من قبل بعض المصريين ضد عبد الناصر وسياسته ، والقاء تهم عدة ضده جاء بعضها من قبل اولئك الذين كانوا يسيرون في قافلته ، انبرى هيكل لمواجهة تلك الحملة ، فكتب عدة مقالات نشرها في صحف عربية : لبنانية وكويتية وأردنية وأماراتية . موضحا أن مصر تتعرض لانتحار أخلاقي ضد عبد الناصر لم تعرف مثله في تاريخها ! وعاد فجمع تلك المقالات في كتاب نشره بعنوان « لمصر لا لعبد الناصر » ، فضلا عن تصريحات قالها في مقابلة أجرتها معه مجلة صباح الخير بالقاهرة يوم ١٤ كانون الثاني / يناير ١٩٨٢ . . كما نشر بعض آرائه في كتابه الاخر « أحاديث في العاصفة » . وهنا يظهر وفي هذه المرحلة بالذات بمثابة الرجل المدافع عن عبد الناصر لوحده لا عن الناصريين الذين تفرقّت ـ كما يبدو ـ بهم السبل الى مسارب مختلفة ، فقد بقي بعضهم على

ناصريته ، وغدا البعض الاخر غارقا في ساداتياته . . في حين آثر البعض الابتعاد عن الطرفين معا !

جدليات هيكل والتهم الموجهة اليه :

تعّرض محمد حسنين هيكل الى انتقادات كاسحة يبدو أنها لم تؤثّر عنده أبدا كونها هجومات سياسية او سلطوية او مؤدلجة أتت من داخل مصر أو من خارجها . . لم تؤّثر فيه أبدا كونها لم تأت من أناس خبراء او مختصين او رجالات من التوكنوقراط أو من اكاديميين براغماتيين . وبرغم عدم معرفة صحة ما أدعته تلك الهجومات من اتهامات ضد هيكل . . منطلقة بتوجيهات مقصودة ومرسومة من شخصيات لها انتماءاتها الى عدد من التيارات السياسية المختلفة . . اتهامات تبدأ من حيث اعتباره أحد أفراد حاشية السوء من عبد الناصر . . اذ شارك في صنع الهزيمة بكتاباته ودعمه للدكتاتورية . . وانتهاء باتهامات خطيرة تطال شرفه الوطني ، اذ عدتّه الجماعات المهاجمة أنه أحد المتعاونين مع الاجهزة السرية المخابراتية الامريكية والسوفييتية .

نعم ،لقد أتهم هيكل عدة مرات بأنه جاسوس للولايات المتحدة الامريكية ، وجاءت التهمة على لسان أكثر من شخص . . اذ عرضت التهمة ضده كونه يعمل لدى الاستخبارات المركزية الامريكية منذ انقلاب/ثورة ٢٣ تموز / يوليو ١٩٥٢ ومجيء جمال عبد الناصر الى السلطة . وكان الصحفي والدبلوماسي الامريكي مايلز كوبلاند (وهو أحد الذين يعرفهم هيكل معرفة جيدة ، ونشر قائمة بمجموعة مراسلاته في ملحق كتابه « سنوات الغليان » ، ولا ندري ان كان هيكل قد نشر هذه القائمة كاملة أم أخفى بعضها !) أبرز عميل للاستخبارات المركزية الامريكية في السفارة الامريكية بالقاهرة . . قد أكد المعلومات أعلاه في كتابه الموسوم « لعبة الامم » والصادر عام ١٩٦٩* ، ويذكر مايلز كوبلاند ان هيكل كان حلقة الوصل بين الضباط الاحرار وبين المسؤول السياسي في السفارة الامريكية بالقاهرة وليام ليكلاند (لعبة الامم ، منشورات الانترناشنال سنتر ، ص٩٦) .

---

* (ترجم الكتاب الى اللغة العربية بقلم مروان خير ، ونشر ببيروت عام١٩٧٠) .
وانظر الاصل (بالانكليزية) : Miles Copeland, op. cit., p. 106

اتهامات من نوع آخر ومن كل جانب:

تفاقمت حدة المعلومات وخطورتها ضد محمد حسنين هيكل كونه صاحب علاقة متصلة ومنظمّة مع كامل أعضاء السفارة الامريكية بالقاهرة والذين كانوا يعملون لصالح دوائر المخابرات المركزية الامريكية . . اذ قام مايلز كوبلاند بتوضيح اتهاماته الاولى تفصيليا في كتاب جديد آخر عنوانه « **بدون ساعة أو خنجر : الحقيقة حول الجاسوسية الحديثة**» والذي أصدره عام ١٩٧٤ . . محللا فيه الفضاء الخفي من العلاقات السرية والعمليات التجسسية . . قائلا : « لقد كان هيكل أحد أبرز الدائرين في ذلك الفضاء من خلال ارتباطاته باجهزة المخابرات الامريكية ، وكان من بين الصحفيين الذين ينتقدون السياسة الامريكية متى شاؤوا ، ولكنه يحتفظ بعلاقاته الوثيقة والمنتظمة مع السفارة الامريكية ، وقد استفادوا من المعلومات التي يقدمها . . »*

لم تترك الصحافة العربية ، واللبنانية خصوصا هكذا معلومات لم يعرف كذبها من صحتها ، فقامت بنشر بعضها عربيا ، ومنها : مجلة الحوادث اللبنانية التي كان يرأس تحريرها سليم اللوزي . . ويذكر حسنين كروم في كتابه مقاطع من حوار أجرته مجلة الحوادث اللبنانية مع محمد نجيب اول رئيس جمهورية لمصر اثر سقوط النظام الملكي عام ١٩٥٢ والذي أبعد عن الحكم عام ١٩٥٣ من قبل عبد الناصر أنه رفض أن يقابل محمد حسنين هيكل أربع مرات لأن معلومات زوده بها جهاز الاستخبارات المصرية تقول بأن هيكل هو عميل لدوائر المخابرات المركزية الامريكية** !!

معلومات جديدة ضد هيكل:

لقد ثارت ثائرة هيكل بطبيعة الحال ، اذ كتب عدة مقالات في جريدة الاهرام وكان لم يزل رئيسا لتحريرها ، وطالب السادات أن يوقف توزيع مجلة الحوادث في مصر . . ولقد زادت

---

* راجع :

Miles Copleand, *Without Cloak or Dagger: The Truth About The New Espionage*, (New York: Simon and Shuster, 1974, PP. 52 - 53).

** حسنين كروم ، **عبد الناصر بين هيكل ومصطفى امين** ، (القاهرة : دار المأمون ١٩٧٥) ص ٧٠ .

مجلة الحوادث من تصعيدها للموقف خصوصا وان حدة الضجة الاعلامية ضد هيكل قد أخذت لها ابعادا جديدة بعد أن نشر مايلز كوبلاند كتابه الثاني الذي قدّم أدلة جديدة . . فضلا عن أن مجلة الحوادث قامت بالكشف عن معلومات مضافة مستندة الى مصادر سوفييتية . . اذ تقول تلك « المعلومات » أن نيكيتا خروتشوف رئيس مجلس السوفييت الاعلى اتهم محمد حسنين هيكل اثناء عقد احد الاجتماعات في موسكو عام ١٩٥٧ وكان عضوا في وفد يرأسه جمال عبد الناصر بأنه عميل لاجهزة المخابرات الامريكية ، اذ كانت السفارة الامريكية تزوده بمعلومات ينتقد من خلالها الاتحاد السوفييتي ، وأنه تلقى مبالغ من الاموال بشيكات ابان زيارته للولايات المتحدة الامريكية . .

ويقول جمال الشلبي في اطروحته التي اعدها في جامعة باريس ٢ (السوربون) بفرنسا عام ١٩٩٥* ما نصه معتمدا على حوار شخصي مع هيكل أجراه معه بالاسكندرية عام ١٩٩٤» غير أن هيكل نفى هذه المعلومات وقال ان المال الذي تلقاه كان لقاء المقالات التي نشرها في نيويورك تايمز وواشنطن بوست حول حرب كوريا ، لكن خروتشوف لم يقتنع بهذه التوضيحات مما اضطر هيكل الى مغادرة الاتحاد السوفييتي في اليوم التالي »**

كما أن هيكل نفى التهمة عنه في أكثر من كتاب له مقدما حججه ضد اولئك الذين اتهموه ، وخصوصا نيكيتا خروتشوف . . ولكنه لم يرد على مايلز كوبلاند وغيره من الخصوم المصريين الذين لم يكتفوا بمقالاتهم في الصحف المصرية ضده ، بل وصل الأمر بأحدهم واسمه محمد جلال كشك أن يؤلف كتابا كاملا ضد التجربة الناصرية التي يتهمها ، مركزا على هيكل بشكل خاص وعنوان الكتاب : « **ثورة يوليو الامريكية وعلاقة عبد الناصر مع المخابرات الامريكية** » (سبق ذكره واستخدامه) . كما أن الصحف الرسمية المصرية ابان عهد السادات كانت توجه انتقاداتها واتهاماتها لهيكل . . ووصل الامر الى السادات نفسه الذي وصف هيكل دون أن يذكر أسمه علنا ، بل قال بأن : « لهذا الصحفي موقف مختلف من

---

* نشرها بالعربية مؤخرا بترجمة الست حياة الحويك عطيّة بعنوان : «محمد حسنين هيكل : استمرارية أم تحّول» ، (بيروت/ عمّان : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٩٩)

** (المرجع نفسه ، ص ٢٨٨ - ٢٨٩) .

السوفييت : فهو يطالب دائما بحوار مع الولايات المتحدة الامريكية لأنه كان عميلا ذا علاقات منتظمة معها قبل عبد الناصر . . »*

وبعد مصرع السادات ، اندفع محمد حسنين هيكل لتأليف كتابا ضده أسماه « خريف الغضب » منزلا كل غضبه عليه والاخذ بثأره منه . . فتجرد المفكر المصري القدير فؤاد زكريا كي يرد عليه في كتاب أسماه : « كم عمر الغضب ؟ » (سبق ذكره واستخدامه) واصفا انتاج هيكل بأنه عمل «يتجاوز قوة وقدرة دولة من دول العالم الثالث ، مما يدفعنا الى الاعتقاد بأنه ثمرة جهاز استخبارات قوة عظمى» (فؤاد زكريا ، ص ١٨) . كما كشف عن معلومة من نوع آخر زادت من قوة الاتهام كما يؤكد على ذلك دارسو هيكل وليس خصومه ، اذ « أصبح هذا الاتهام أقوى عندما طلب وزير الخارجية الامريكي سايروس فانس من هيكل التدخل لدى السلطات الايرانية لتحرير الرهائن الامريكيين »**

مواصفات مهمة مختزلة عن هيكل :

لعل من أبرز الاعمال المهمة التي نشرت منذ عشرين سنة عن محمد حسنين هيكل ، ما كتبه منير نصر في أطروحته التي كتبها بالانكليزية والموسومة : « **السياسات الصحفية والقوة : المصريان هيكل والاهرام** » والتي نشرتها الجامعة الحكومية في أيوا عام ١٩٧٩*** . وهناك كتاب بالفرنسية كتبه لورينت أريك عن مذكرات الملك الحسن الثاني (بالفرنسية) ونشر بباريس عام ١٩٩٣ . . وغيرهما . ونستشف من قراءتهما جملة من المواصفات المهمة التي صورها لنا كلٌ من هذين المؤلفين عن هيكل . . ذلك ان التطورات السياسية المتعاقبة في مصر قد حددت سيرورة هيكل ومسيرته ذات النقاط والابعاد المحددة ، فلقد استفاد من ملكاته ومؤهلاته في أن يلتصق بالناصرية ولكنه لا يفتقد الميل الى قليل من الليبرالية ، ثم أيد السادات ثم انقلب السادات عليه بعد ان كشف له الملك الحسن

* (الشلبي ، ص ٢٩١ ، نقلا عن الاهرام ٢١ نيسان / ابريل ١٩٧٧) .

** (راجع رسالة سايروس فانس لهيكل مترجمة الى العربية في : الشلبي ، ملحق ٤ ، ص ٣٣٥) .

*** راجع التفصيلات في :

Munir Nasser, Press *Politics and Power: Egypts Heikal and Al - Ahram* (Iowa: The State University press, 1979).

الثاني ضلوع هيكل بمؤامرة ضده ! وان اعماله قد أثارت الناس فكان هناك من اصطف الى جانبه وعشق أعماله ، وكان هناك من عارضه وسفه أعماله* .

يشير أغلب الذين أهتموا بسيرته بأن هيكل كان سياسيا وصوليا ، وفديا عندما كان الوفد في السلطة ، ملكيا عندما غدا الملك قويا مؤثرا ، ناصريا عندما وصل ناصر للسلطة ، ساداتيا عندما حل السادات في الحكم ، ووقف ضد السادات بعد أن ضرب الاخير مصالحه وأخرجه في منصبه الذي كان متعلقا به الى أبعد الحدود في الليل والنهار ، وعاد اليوم ليكون مباركيا ولكن من دون أي نفوذ سياسي . . اذ تدل انتهازيته من ناحية وتناقضاته من ناحية أخرى على امتداد مسيرته السياسية التي تحولت اليوم الى مكانة اجتماعية لا تضاهى في مصر ، كون هيكل أحد ابرز الاشتراكيين الذين روّجوا للاشتراكية العربية وقوى الشعب العامل والعمال والفلاحين الغلابة على عهد عبد الناصر ، يعد اليوم واحدا من أئمة الاشتراكيين الاكثر ثراء ، حيث قدرت ثروته عام ١٩٧٩ ما بين ٢٨ ـ ٣٨ مليون دولار ** . . فاذا كانت ثروته تقدر قبل عشرين سنة بهكذا مبلغ خيالي على واحد صحفي يشتغل من عرق جبينه ، فما بالك كم أصبحت تقدر ثروته اليوم ؟ وكم تقدر ثروة ابنه في مصر والذي يعد واحدا من أبرز أصحاب رؤوس الاموال المصريين !

وتزداد الاتهامات ضده من قبل أطراف عدة لا تقتصر على الشيوعيين والاسلاميين حسب ، بل وحتى الليبراليين . . اذ يجتمع هؤلاء كلهم في التهمة التي يوجهونها اليه ، اذ يعتبرونه عميلا للامريكيين في مصر ! ولم يتوقف الامر على المصريين وحدهم ، فهناك بعض الاطراف العربية اتهمته في علاقاته مع الاجهزة السرية كواحد من أبرز أقطاب مراكز القوى في عهد جمال عبد الناصر وأنور السادات . .

هيكل: مقاربة من أجل الحقيقة

ان كل هذا الذي قرأناه من اتهامات وادعاءات ضد محمد حسنين هيكل لا يمكنني

---

* Laurent Eric, *Hassan II: La memoir d'un roi* (Paris: Plon, 1993), pp. 160 - 4.

** راجع التفصيلات في : Munir Nasser, *op cit.*, p. 122.

الاطمئنان اليه كمؤرخ لا يتثبّت من القال والقيل الا بالمستندات الرسمية التي تؤكد ذلك، وعداه فان التقولات هي غير الثبوتيات . ولقد بدا هيكل أمامي وأنا أفكك نصوصه وأعالج أفكاره وأتتبع مواقفه في صورة رجل تهمّه نفسه جدا وقبل أي شيىء آخر . . واذا كان القدر قد أتى بغير عبد الناصر الى السلطة ، فسيكون معه أيضا ، فهو لا تهمه لا الناصرية ولا القومية ولا الليبرالية ولا الاشتراكية . . الخ ان الذي يهمّه فقط هو هيكل فقط لا غير !

وليس كما يبدو وبحكم مهنته الصحفية أنه كان ، أو قابلا لأن يكون بيدقا بين الايادي تتقاذفه حيث تشاء . . فلقد كانت له تحفظاته في ارسال الجيش المصري ليقاتل في اليمن عام ١٩٦٢ ، كما دعا بوضوح وجرأة الى اقامة علاقات طبيعية مع الولايات المتحدة الامريكية منذ عام ١٩٦٥ ، ثم أكد عليها بعد حرب عام ١٩٦٧ تحت أداة سياسية جديدة بأسم « تحييد امريكا » ! مما يدل دلالة واضحة على استقلالية تفكيره وحريته ووضوح مواقفه ، ولكن توافقاته مع كل نظام سياسي في مصر ، جعلته متلونا مع كل واحد منها ، وله القدرة على تلوين نفسه بسرعة فائقة . . وساعده في ذلك قلمه وتحريره الصحفي بصفة رئيس تحرير الاهرام . . وبالرغم من كونه مستشارا للسادات ، الا أنه أختلف مع سياسته واكثر من انتقاداته . . ولست في معرض هنا لتقديم شهادة حسن سلوك لمحمد حسنين هيكل حول الموضوع .

ولكن يهمني أن أسجل عليه كبريائه في التعامل مع النص العربي والمؤلف العربي والمؤرخ العربي والزعيم العربي والمستند العربي والتاريخ العربي والمشرق العربي والمغرب العربي . . وهذا « الكبرياء » ليس له ما يبرره حتى وان قيل بأن للرجل استقلالية من نوع ما ! وقد كان وما زال يفرض نفسه على الناس بكلمته وكتبه ومقالاته وحواراته . . ويبقى دوما يدور حول نفسه ، اذ قلما يذكر أسما واحدا يستشهد به ، وان حتى اولئك الذين يذكرهم وفي مقدمتهم جمال عبد الناصر ، فلهيكل القدرة أن يجعلهم في دائرته وفلكه ! كما نجح في جعل قرائه يدورون دوما معه ضمن دائرته بجعل نفسه قطبا من أقطاب السياسة العربية . . ولم يقتصر على ذلك ، بل يكثر من الايحاء للاخرين ، أنه قطب من أقطاب الصحافة الدولية .

استنتاجات لابد أن تذكر:

١ . لابد أن نذكر بأن محمد حسنين هيكل عندما يكتب عن مصر هو غيره عندما يكتب عن بقية البلدان العربية ، وهذا أمر طبيعي بحكم معرفة الرجل بالشؤون السياسية المصرية ، وبحكم تكوينه وثقافته وانتمائه . . وبالرغم من مجموعة التناقضات والتلونات والتغيرات التي حكمت مواقف الرجل وتفكيره على امتداد نصف قرن من عهود مصر السياسية المتنوعة ، الا أن هيكل قد سجّل - والحق يقال - خدمات مهما كان نوعها للثقافة السياسية المصرية من خلال مقالاته الصحفية أو كتبه السياسية التي تنوعت مستوياتها ومضامينها . .

٢ . كم كان حريا وجميلا ورائعا من هيكل لو وازن قليلا في كتاباته التي ضمنّها كتبه قاطبة ، تلك التي سجّل فيها - كما يدّعي - تاريخا معاصرا متخذا من مصر مركزية له دار حولها طويلا ، وقد بدا وهو يستخف بالاطراف العربية كثيرا ، وبثقلها التاريخي وبمشروعاتها السياسية والنهضوية عندما ربط كل مقومات الامة بمصر . . وبرغم الاعتزاز الذي يكنّه ابناء الاطراف للمركز الام ، الا أن كلا من المركز والاطراف لحمة نسيجية واحدة في الذاكرة القومية - كما نعرف - ، وما دام هيكل يؤمن بمبادىء القومية العربية . . فلابد ان يعتني قليلا بكل شبر من الارض العربية !

٣ . ماذا لو تواضعت قليلا يا هيكل امام قرائك وأنت تصّور نفسك امبراطورا عربيا في كتاباتك . . فالحياة العربية (والمصرية واللبنانية خصوصا) مليئة بكبار الصحافيين العرب الذين كانت لهم أنشطتهم وأدوارهم ومنتجاتهم على امتداد القرن العشرين سواء في نصفه الاول أم في نصفه الثاني . . ومن الثناء والتقدير أن يقوم هيكل باجراء مقابلات وحوارات مع زعماء ومسؤولين عرب ودوليين كبار . . لكن القاء صفة العظمة وتصوير حدوث ذلك بالعظمة . . وكتابة الانسان آيات التبجيل والثناء عن نفس ، فهو أمر غير مقبول يا سيدي العزيز ! من أمثال ما قلت : « وسبقني لورد بيفر بروك أحد أباطرة الصحافة البريطانية» (آفاق الثمانينات ، ص ٥٠) ! أو ينقل ما قاله له هنري كينسجر (برقة زائدة) : « انني من كثرة ما قرأت لك أشعر وكأننا أصدقاء من عشرين سنة » (الاهرام ، ١٣ نوفمبر ١٩٧٣ في مقالته :

بصراحة « مناقشة مع كيسنجر ») ! ويذكر منير نصر في اطروحته بان مجمل القضايا والنقاشات التي نشرها هيكل كونها مفاوضات له مع هنري كيسنجر هي من اختلاق وتصنيع هيكل ، لان كيسنجر ذكر بان لقاءه مع هيكل لم يأخذ منه سوى عشر دقائق فقط* .

٤ . لعل أبرز ما يمكن أن يهتم به الباحثون والدارسون في قابل الايام : مسألة التهمة التي وجهت الى محمد حسنين هيكل من قبل أكثر من جهة وطرف ، حول ارتباطه بالمخابرات المركزية الامريكية . . والتي لم يدافع عنها الرجل دفاعا قويا ! وبرغم عدم وجود مستندات قوية بيد خصومه ، فقد كان عليه ان يكون أقوى مما بدا عليه . . اذ وجدته ضعيفا ازاء ذلك ! فلماذا يهرب من وجه خروتشوف مثلا ؟ ولماذا لم يذكر قيمة الاجور التي تسلّمها من الصحف الامريكية لقاء نشر مقالاته فيها ؟ ولكن الامر الملفت للنظر ، أن هذه التهم التي حبكها خصومه ضده . . لا تختلف في شيىء من الاشياء عن التهم التي كان قد نسجها هو نفسه ضد كل من أساتذته في المهنة : علي أمين ومصطفى أمين . . كما ولا تختلف في شيىء من الاشياء عن التهم التي نسجها هو نفسه مؤخرا ضد كل من الملكين العربيين الحسن والحسين !

٥ . كم كان أجدى بمحمد حسنين هيكل أن يتوقف عن دوره كناطق رسمي على عهد السادات ، اذ كان عليه وهو المعروف بذكائه السياسي ان يحافظ على دوره الذي حمله الى القمة في عهد جمال عبد الناصر . . اما أن يشترك مع الرئيس السادات في ايام الحرب وايام السلم وايام اللا سلم واللا حرب . . ثم يبدأ بانتقاداته لما كان . . ثم يأتي لكتابة «خريف الغضب» فيشنّع على السادات تشنيعا ، ثم يهدأ غضبه ولم يذكر السادات الا ذكرا جميلا . . ويرضى على سيرورة نتائج السياسة التي انتهجها السادات والتي يمضي الرئيس حسني مبارك قدما فيها . . فهذا أمر سيحيّر العديد من الدارسين النقاد لمواقف هيكل وكتاباته في المستقبل . اذ لا يمكن أن يتّصور المرء حجم التناقض الواسع بين ما كتبه محمد حسنين هيكل مؤخرا في كتبه الثلاثة ـ مثلا ـ حول المفاوضات السرية بين العرب واسرائيل

* أنظر : Munir Nasser, *op. cit*, p. 166

(والتي ناقشتها ندوة المستقبل العربي التي جئنا بسياقات وافكار ونقدات بعض المشاركين فيها)* وما كتبه ضد المفاوضين العرب من فلسطينيين وأردنيين مقارنة بمناقشته هو نفسه هنري كيسنجر في الاسبوع الاول من شهر نوفمبر عام ١٩٧٣ عندما كان في ايام العسل مع انور السادات !! وكيف اعتمد السادات على هيكل في الحوار مع الامريكان حول مشكلة الشرق الاوسط ! ثم كان اعتماد الامريكان عليه في سبيل ايجاد حل لأزمة رهائن السفارة الامريكية في طهران من خلال رسالة بعثها اليه سايروس فانس ! فهل يعتمد الامريكان عليه وهو لا يتمتع بأي منصب سياسي له نفوذه ** . . هكذا دون أي حسابات او ارتباطات؟

٦ . ثمة قضايا لنا الحق نحن المؤرخين العرب المعاصرين ولابنائنا في المستقبل . . أن يحاسبوا هيكل عليها بكل ثقة وجرأة وزاد معرفة . . خصوصا عندما سمح الرجل لنفسه أن يتوغل فيها دون مستندات ووثائق والاعتماد على ارشيفات أو حتى مراجع علمية متخصصة في التدقيق والتحقيق وهو يعالج مسائلها الدقيقة . . كي يكون أكثر عمقا ، وأغزر مادة ، سواء في تواريخ مصر ام تواريخ جذور الصراع العربي - الصهيوني أم في صفحات التواريخ العربية المعاصرة في القرن العشرين . .

وهي دعوة لا أشك أن الرجل سيقف ضّدها اذا كان هدفه ساميا ونبيلا في خدمة مصر وخدمة الامة العربية في حياتها الصعبة التي عاشتها على امتداد القرنين التاسع عشر والعشرين ، وخصوصا : قضايا النصف الثاني من القرن العشرين . . كونه يعد في كتاباته الاخيرة من صنف الكتاب السياسيين او المؤرخين المعاصرين العرب ، بعيدا عن صنف المشاركين في صنع الاحداث والقرارات . ونحن ندرك بما لا يقبل مجالا للشك ، ان أي كاتب أو مؤرخ لابد أن يتحّلى بالتواضع والتبسيط والاصغاء للاخرين ، والاستماع للرأي الاخر ، والاعتراف بالخطأ امام تصويبات المعلومات . . بعيدا عن كونه مؤسسة قائمة بذاتها ،

* راجع : مجلة المستقبل العربي ، العدد (٢١٤) ، كانون الاول / ديسمبر ١٩٩٦ .

** نشر هيكل «الرسالة» في كتابه :

M. H. Heikal, *Khomeiny et sa revolution* (Paris: Jeune Afrique, 1983).

وسؤالنا : لماذا لم يقم هيكل بنشر الترجمة العربية الكاملة للرسالة ؟

او كونه امبراطورا في الصحافة العربية ، أو كونه من جنس الزعماء والقادة ، أو كونه متفردا بين القوم حاملا للدم الازرق !

٧ . ان أخطر ما جاء به هيكل في كتابه « ملفات السويس » بالعربية ونسخته بالانكليزية الموسومة « السويس : قطع ذيل الاسد » كتابته عن احلال النفوذ الامريكي في منطقتنا العربية بدل النفوذ البريطاني والفرنسي . . واذا كان قد اختلف في كتابته كتابه بالانكليزية عن ترجمته الى العربية . . فثمة اراء ومعلومات خطيرة يحتويها هذا « الكتاب» . ولقد جاء على غلاف الكتاب بطبعته الانكليزية النص التالي :

" Not simply as a disastrous epilogue to Empire, but as one stage in the process by which the United States sought to supplant the old imperialism with a new form of hegemony not as an episode that can safely be consigned to the history books, but as one act in drama that is still played "

«ليس ببساطة ان تحل كارثة نهاية امبراطورية ، ولكنها مرحلة واحدة في سلسلة عمليات حاولت الولايات المتحدة (الامريكية) ان تستبدل بها الاستعمار القديم بنوع جديد من الهيمنة ، وانها ليس مجرد حدث عابر مطوي في كتب التاريخ ، ولكنه فصل تمثيلي في دراما لم تزل تتلاعب احداثها . .» .

وأخيرا ، لابد لي أن أقول بأن كل ما قرأته عن الرجل محمد حسنين هيكل من اتهامات سياسية أو شخصية لم ألق لها أي بال ، ولم أهتم بها . . لأنني ما جئت هنا كي أكيل ضده الاتهامات الخاصة ، ولا أحسب نفسي خصما سياسيا له كوني احترم الفكرة القومية التي تجمعني وأياه ، وكوني أحترم الدور الذي كان لمصر الحبيبة على امتداد قرنين من تاريخنا العربي الحديث والمعاصر . . ولكنني كنت مناقشا له ومجادلا لمعلوماته وأفكاره . . فلست خصما للرجل ، بل خصم للنص الذي كتبه ، والخطاب الذي أنتجه . . ومع إعجابي بأسلوبه الأدبي والصحافي ، لكنني أقف ضد طريقته بتوظيفه للوقائع والمواقف ، وعملية اللف والدوران حولها . . وأقول ، ان كنت قد أصبت أو أخطأت ، فالمستقبل وحده سيكشف نوعية بضاعة محمد حسنين هيكل على امتداد حياته السياسية والفكرية في خمسين سنة من القرن العشرين .

الفصل الخامس

العراق : الأرض الطيبة

هيكل : التفسير والتحقير

« الأجيال من بعدنا .. الأمس والغد.. لنحتكم الى التاريخ »

– الملك الحسين بن طلال –

« اذا كان من الخطأ تصوير التاريخ على أنه مؤامرة، فالاشد تورّطاً في الخطأ تصويره على انه مصادفة، والواقع ان التاريخ أفكار وخطط وارادات أمم وشعوب وأفراد وصراعات مصالح وقوى تطلب التفوق والغلبة، وتسعى للمعرفة سعيها للفائدة » .

– محمد حسنين هيكل –

أولاً : هيكل وثورة العراق ١٩٥٨م

سـنوات الغليـان :

لمحمد حسنين هيكل كتابات محددة عن العراق قبل أن يصدر كتابة « حرب الخليج : أوهام القوة والنصر » . ولعل اخطر المعلومات التي كتبها عن العراق وشؤونه السياسية ، هي تلك التي تضمنها كتابه «سنوات الغليان» في الجزء الأول ، إذ خصّص الأبواب : الثالث والرابع والسادس منه لقضايا العراق التاريخية في القرن العشرين . . ولما كان «سنوات الغليان» يتألف من ستة فصول . . فان ما تضمّنه الكتاب عن العراق يشكل نصفه . . وقد سمي أبوابه الثلاثة عن العراق بتسميات يغلب علها الطابع الأدبي اكثر من التاريخي أو السياسي ، إذ اسمي الباب الثالث بـ «بوابات بغداد» ، وسمى الباب الرابع منه بـ «مدافع حروب باردة !» ، ثم سمى الباب السادس منه بـ «على سفوح البركان» . . وإذا كان كل من البابين الثالث والسادس يتألف كل واحد منهما من خمسة فصول ، فان الباب الرابع يتألف من أربعة فصول !

وعلى الرغم مما كان هيكل قد كتبه عن العراق في أماكن أخرى من كتبه ، ولكن بشكل مقتضب ومحدد لا يفي وأغراض الشأن التاريخي ، نظراً لما كان وما زال عليه حجم العراق وثقله ليس في المنطقة العربية حسب ، بل في الشرق الأوسط كله .

انفجار العاصفة: ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ العراقية

لعل من أهم الأحداث التاريخية التي كان لها تأثير كبير في مسيرة الأحداث في منطقة الشرق الأوسط عموما ، هي تلك الحركة الانقلابية المفاجئة التي هزت العالم في فجر يوم ١٤ تموز/ يوليو ١٩٥٨ التي حدثت في العراق ، عندما ثارت قطعات اللواء التاسع عشر واللواء العشرين في الجيش على نظام الحكم ، ونجحت في قلب النظام الملكي إلى نظام جمهوري بقيادة الزعيم (العميد) الركن عبد الكريم قاسم والعقيد الركن عبد السلام عارف . . ولقد صادف الحدث تأييدا كبيراً من فئات متعددة من الشعب العراقي في

الساعات الأولى ، برغم الصدمة التي كانت مفاجئة للجميع سواء في الداخل أم الخارج . .

ولم يكن يعلم بتوقيت تلك «الحركة» السريعة والمباغتة الرئيس جمال عبد الناصر ابداً ولا بأسماء قادتها . . ولكن تشير الدلائل الوثائقية المكتشفة حتى الان بأن من اكبر الاحتمالات ان دوائر المخابرات البريطانية والأمريكية قد توصلت إلى معلومات بشأنها . . وبالرغم من ردود الفعل السريعة إلى اتخذتها كل من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية ، إلا انه سرعان ما أعلن الاعتراف بالنظام الجديد من قبل بريطانيا والولايا المتحدة الأمريكية ! ولقد كان صيفاً حاراً عام ١٩٥٨ ، وكانت العاصفة الكبرى في ذلك الصيف على وشك ان تهب ، وكانت رعودها وبروقها على وشك أن ترى في سماء بغداد – على حد ذكر هيكل – (سنوات الغليان ، ص ٣٣٤) .

تشكيك هيكل بالثورة العراقية عام ١٩٥٨:

يدّعي محمد حسنين هيكل انه لاحظ «ملاحظة غريبة» على مجموعة الوثائق الأمريكية في تلك الفترة ، ذلك أن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية كانت طوال سنة ١٩٥٧ ، مهتمّة بإجراء تقديرات عن احتمالات المستقبل في بغداد . وقد كتب مديرها ألان دالاس مذكرة إلى وزارة الخارجية أشار فيها إلى الصعوبات التي أضيفت إلى أثقال الحكومة العراقية نتيجة للتواطؤ البريطاني الفرنسي مع إسرائيل في معركة السويس . وجاء في هذا التقرير ، وخصوصا في البند الثالث منه ما نصه ـ حسب نقولات هيكل ـ : « تشير معلوماتنا إلى انتشار السخط في الجيش العراقي ولا سيما بين الضباط الشبان ، وقد أشيع أن أربعين ضابطاً على الأقل قد اعتقلوا ، وقد ذكر مدير العمليات العسكرية في الجيش العراقي للملحق العسكري الأمريكي انه «إذا صدرت أوامر للجيش بحماية نظام نوري السعيد ، فانه يشك في أن الجيش سوف يقبل إطاعة هذه الأوامر» (سنوات الغليان ، ص ٣٣٤) .

ويستطرد هيكل قائلاً : « ثم جاء في البند السادس من نفس المذكرة» انه إذا لم يحدث تغيير أساسي في العراق ، فان مركز الحكومة العراقية سوف يضعف كثيراً ، وإذا أسقطت حكومة نوري السعيد فان الحكومة الجديدة سوف تجد نفسها أمام ضغوط لا تستطيع تحملها » .

ويبقي هيكل ينقل عن «تقرير» ، سماه بـ «تقرير المخابرات رقم ٢٩٢» وهو صادر عن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية . . ولا نعرف بالضبط تاريخ هذا «التقرير» الذي يدّعي الرجل انه وجده في مجموعة الوثائق الأمريكية ، ولكن من الذي كتبه ؟ وبأي مناسبة كتب؟ هل يقصد هيكل ان الذي كتبه هو مدير الوكالة آلان دالاس والذي رفعه إلى وزارة الخارجية ؟ ولماذا لم تعلمنا على الأقل بصورة الصفحة الأولى من هذا التقرير في ملحق كتابك الذي تطرقت فيه إلى هكذا موضوع خطير جداً ليس في حياة تاريخ العراق المعاصر ، بل في تاريخ العرب المعاصر كله ؟ إذ لم الحظ أبدا أي صورة من هكذا «تقرير» وثائقي مهم إن صدق ادعاؤك ضمن «الملحق » الذي احتوى في نهاية كتابك «سنوات الغليان» على صور لـ (٥٤) وثيقة ، واغلبها رسائل شخصية وخطابات للرئيس جمال عبد الناصر . فضلا عن وجود قصاصات ورق ليست ذات أهمية كهذا «التقرير» اليتيم !!

وأسألك أيضا : ما السبب الذي دعاك أن تأتي بهكذا «نصوص» للمخابرات المركزية الأمريكية عن ثورة ١٤ تموز العراقية عام ١٩٥٨ قبل وقوعها فمن يقرأ بإمعان ما تضمّنه التقرير ، سيجد بما لا يقبل مجالا للشك أن ثمة تعاون واضح بين مدير العمليات العسكرية في الجيش العراقي وبين الملحق العسكري الأمريكي !؟ وهذا وحده يكفي لالقاء تهمة خطيرة على قادة ثورة ١٤ تموز /يوليو ١٩٥٨ ، كونهم نجحوا في إخراج سيناريو أمريكي ضد السياسة البريطانية في العراق !!!

علامات استفهام كبيرة :

مع سوء الحظ ، لم أعثر على هكذا «تقرير» برغم محاولاتي البحثية ، ومتابعتي لكل من أرخ لهذه الثورة العراقية ، أو نشر بعض وثائقها الخاصة ، أو ما يتعلق بها من وثائق أجنبية !* وعليه ، فإذا صدق ما نقله محمد حسنين هيكل في الذي أتى به عن تقارير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ، فثمة علامات استفهام كبيرة ، لابد أن توضع إزاء المتغيرات الجذرية العربية التي حدثت باسم الثورات الوطنية التحررية ضد الاستعمار! ويقصد به الاستعمار

* لقد اشتغل العديد من الباحثين والمؤرخين على نشر وثائق عراقية واجنبية تخص ثورة ١٤ تموز/ يوليو ١٩٥٨ ، ومن أبرزهم : علاء نورس ومؤيد ابراهيم الونداوي .

البريطاني والفرنسي القديم . . ولكنني اشك في ذلك ، لان المشكلة ليست في الموضوع ، بل أنها في محتوى «النص» الذي كتبه هيكل ، من دون أن يسنده لنا بشكل كامل من الناحية التاريخية أو الفنية ! .

ويتحدث هيكل عن وضعية العراق قبل الثورة وانقلاب نظام الحكم فيه عام ١٩٥٨ ، وعملية التحضير لها ودعونا نتوقف عند «النص» التالي لمناقشته نقدياً ، ولا ندري هل يكتب هيكل كل ما يسمعه من هذا وذاك فيحرّر كتاباته على شكل حقائق ومعلومات مؤكدة ، أم انه يختلق معلومات ويهندس نصوص ويفصل على هواه ما شاء له قلمه أن يكتب وبما يوحي إليه خياله ! علما بأن الاستراتيجية الأمريكية التي بدأت فعالياتها منذ عام ١٩٤٩ لاحتواء المنطقة بأساليب غير مباشرة قد وصلت بمشاريعها إزاء الشرق الأوسط الى ذروة عالية من الخطط الجديدة بعيدا عن كل من الإنكليز والفرنسيين برغم تحالفاتها معهما . .

ولقد تجسّد ذلك بمبدأ ايزنهاور عام ١٩٥٧ ! ولابد لنا أن نستفهم في حالة تمتع ما جاء به هيكل من المصداقية التي أشك فيها : ما معنى معرفة كل من الولايات المتحدة الأمريكية والجمهورية العربية المتحدة بما سيجري في العراق من التغيير ؟؟ وإذا كان الأمريكان كانوا على صلة بمدير عمليات الحركات العسكرية في الجيش العراق قبل الثورة ـ حسب الذي أورده هيكل ـ ، فهل كانت هناك ثمة اتصالات بين قادة الانقلاب العسكري في العراق مع الجمهورية العربية المتحدة وبالأخص الرئيس جمال عبد الناصر ؟

الاتصالات مع الجمهورية العربية المتحدة :

يقول هيكل : «ولقد عرف جمال عبد الناصر على سبيل المثال أن هناك تنظيماً في الجيش العراقي يطلق على نفسه اسم «الضباط الأحرار» ، وكان السيد عبد الحميد السراج وزير الداخلية في الإقليم السوري لدولة الوحدة هو مصدر معلوماته فقد وصل عبد الحميد السراج إلى لقاء مع جمال عبد الناصر في أوائل شهر مايو ١٩٥٨ ؛ وقال للرئيس : «إن اثنين من الضباط العراقيين العاملين ضمن الكتائب العراقية الموجودة في الأردن قد اتصلوا به ، وسألوه عما إذا كانت الجمهورية العربية المتحدة على استعداد لمساندتهم إذا ما قاموا بثورة في العراق » .

ويستطرد هيكل مكملا حديثه قائلا : «قام عبد الحميد السراج بتسمية هذين الضابطين بأنهما العقيد الركن عبد الكريم قاسم والعقيد الركن عبد السلام عارف ، وسأله جمال عبد الناصر عما إذا كان يعرفهما من قبل ؟ ورد السراج بأنه يسمع عنهما من التقارير التي تجيئه من بغداد ، ولكنه لم يلتق بهما إلا أخيرا بناء على طلبهما ، وفي نقطة على الحدود السورية الأردنية ، وقال عبد الحميد السراج إن الضابطين العراقيين سألاه عن ظروف إجراء انقلاب في العراق ، وعن إمكانيات نجاحه ، وعن القوى العربية الدولية التي يمكن أن تساعده ، ثم طلب عبد الحميد السراج من الرئيس توجيهه فيما يمكن أن يرد به عليهما ذاكرا انه على موعد معهما في الأسبوع القادم ، وكان رد جمال عبد الناصر ، محدداً في عدة نقاط :

١ . إن الذي يريد أن يقوم بعمل وطني لا يسأل أحدا في الخارج عن الطريقة التي ينفذ بها هدفه ، فكل وطني أدرى بالظروف التي يواجهها ، وليس هناك نموذج قياسي متعارف عليه يرسم الخطوات لأحد .

٢ . انه من الخير للضابطين ولزملائهما إذا كانوا جادين أن يحتفظوا بأسرارهم لأنفسهم ، وإلا انكشف تنظيمهم وتمت تصفيته قبل أن يقدم على الخطوة الأولى في عمله .

٣ . إن موقف الجمهورية العربية المتحدة المبدئي على أي حال واضح في مساندة كل عمل يهدف إلى تحسين أوضاع أي شعب عربي سواء كان ذلك عن طريق التطور ، أو عن طريق الثورة (سنوات الغليان ، ص ٣٣٦) .

ويستطرد هيكل بكتابة معلوماته المبتسرة بقوله : «ثم كان توجيه جمال عبد الناصر أن يظل على اتصال بالضابطين دون أن يكون هذا الاتصال مكشوفاً أو ظاهراً بحيث يبقى على علم بالتطورات دون أن يستطيع أحد أن يمسك عليه انه كان متورطاً فيها على نحو أو آخر . والتقى عبد الحميد السراج بعد ذلك في الموعد المقرر بكل من عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف ونقل إليهما ما سمعه ، وراح كلاهما يروى له بعض التفاصيل عن تنظيم الضباط الأحرار في العراق مما دعا عبد الحميد السراج أن يبعث بعد ذلك برسالة إلى الرئيس جمال

عبد الناصر يقول فيها انه يبدو أن الموضوع الذي تحدث فيه معه في لقائهما الأخير جدي ، وانه يمكن أن يؤدي إلى تطورات خطيرة» . (سنوات الغليان ، ص ٣٣٦ - ٣٣٧) .

تصحيح هذه المعلومات :

اعتقد أن القراء العرب عموما وان العراقيين منهم خصوصا ليسوا من الغباء بمكان حتى يستسلموا لهذه الرواية التي سجلها هيكل بهذا الشكل ولأسباب معروفة !! فبعد أن وثّق عن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية بأن الولايات المتحدة الأمريكية كانت تعرف كل شيء عن العراق ، وان ثمة صلات كانت تجمع مدير العمليات العسكرية في الجيش العراقي بالملحق العسكري الامريكي ، **وان ثمة تجسير خفي بين الطرفين حول اقتلاع نظام نوري السعيد من جذوره !! يأتينا هيكل الآن برواية ليست جديدة** ، ولكنها تثير الفضول للدراسة والتنقيب لاستكشاف سر العلاقة بين جمال عبد الناصر والانقلابيين العراقيين الذين أسموا أنفسهم بـ «الضباط الأحرار» ، وبرغم ان هيكل لم يعلمنا عن مصدر الخبر! ومن هو الذي ذكره ؟ وان عددا من الذين لا يضطلعون بمهام إجراء حفريات تاريخية ، بل ليس لهم إلا النصوص السياسية لم يدركوا مخاطر ما كتبه هيكل ليس حول هذا «الموضوع» وحده ، بل في مواضيع أخرى لها حساسيتها وأهميتها وخطورتها . .

تساؤلات لا بد منها:

وعليه ، فان هناك من يقرأ هكذا روايات عند هيكل يسأله : إذا كنت تبغي كتابة التاريخ بهذا الشكل فاللعبة واضحة! ويضيف قائلا : إن حدثاً ثورياً بدا عسكرياً ثم غدا جماهيرياً وبشكل عاصف مهما تباينت بل وأنقسمت في تقييمه الآراء والتحليلات لا يمكن أن تعالج أخباره بهذه الطريقة ! أتعتقد أن هكذا حركة لو لم تكن على أقصى درجة من السرية والكتمان كانت ستنجح ؟ ثم كيف لك أن تكتب هكذا أخبار عن اجتماع الضابطين عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف بوزير داخلية الجمهورية العربية المتحدة عبد الحميد السراج ، وان الأخير قد تواعد معهما في الأسبوع القادم ، وانهما افرغا كل تفاصيل الحركة والتنظيم إليه ؟

ولماذا ـ إن كنت قد سمعت بهكذا فرية ـ لم تتحر عن مدى مصداقيتها من بعض الثوار

من الضباط العراقيين الأحرار الذين لهم في قلبك محبة ومودة ، وأولهم عبد السلام عارف الذي تدعّي انك التقيت به عدة مرات ، لماذا لم تسأله عن حقيقة ذلك؟ وعن تفصيلات ذلك ؟ ولماذا اكتفيت بذكر هذه المعلومة اليتيمة دون أن تعلل خطورتها ودون أن توثق مصدرها ؟ ، ورحت تتكلم باسم جمال عبد الناصر انه رد على عبد الحميد السراج محدداً كلامه بعدة نقاط ورحت تذكر ما وجه به عبد الناصر الضابطين العراقيين : عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف . . وتقديم عبد الناصر النصائح لهما ؟ لقد ذكرت أشياء خطيرة على لسان عبد الناصر . . وكشفت عن دور واضح لمصر ولعبد الناصر وللجمهورية العربية المتحدة في تحقيق ثورة ١٤ تموز / يوليو ١٩٥٨ بالعراق . . من خلال علاقات سرية مع قائديها ومفجريها قاسم وعارف معاً وبواسطة عبد الحميد السراج ؟!

وزدت في الأمر بحيث تقولت على جمال عبد الناصر انه وّجه بان يظل السراج على اتصال بالضابطين المذكورين . . بحيث يبقى على علم بالتطورات بحيث جعلت ثورة تموز / يوليو ٨٥٩١ العراقية حدثا طبخته دوائر الجمهورية العربية المتحدة ! وأنت الذي تذكر بأن الرئيس جمال عبد الناصر - كما نعرف - فوجئ بأخبار الثورة برغم هواجسه بحدوث شيء ما في العراق ، نظراً لما كان يسمعه من قبل بعض الساسة العراقيين القوميين الذين كانوا معارضين للنظام الملكي . نعم ، لقد كانت هناك ثمة اتصالات ، ولكن تجمع كل الشهادات بأن لم يحصل أي تنسيق فني أو أي إمداد بالسلاح !

النقطة الفاصلة الحرجة :

ثم يريد البعض أن يسألك : ألم تفكر وأنت تكتب هكذا أخبار بان اللقاءات التي سمعت أنها قد حدثت على الحدود السورية الأردنية بين الضابطين العراقيين قاسم وعارف من جانب وعبد الحميد السراج من جانب آخر بإمكانية حدوثها ؟! فهل فكرت وتحريت أين كان كل من الضابطين المذكورين في أوائل شهر مايو/ أيار ١٩٥٨ أي قبل الثورة بشهرين؟ هل تأكدت انهما كانا في الأردن ، أم كان أحدهما فقط في الأردن والآخر في العراق ؟ ثم كيف يمكننا أن نصدق أن ضابطين عراقيين من وزن ثقيل يذهبان ويجيئان في الأراضي الأردنية ويجتمعان على الحدود السورية الأردنية مع السراج بهذه السهولة ؟ وكل من الأردن والعراق يجتمعان في دولة اتحادية واحدة ؟ ولم تكتف بذلك ، بل رحت تقول بان اجتماعاً

ثانياً قد حدث وان التفاصيل كلها قد أصبحت أمام عبد الناصر برسالة بعثها السراج إليه !

طيب ، أين هي هذه «الرسالة» اليوم ؟ أنك لم ترفق صورة لها في ملحق ما يسمى بالملحق الوثائقي في كتابك «سنوات الغليان» . . فنحن نطالبك اليوم بان تكشف لنا عن صورتها إن كان لها وجود في الأرشيف المصري ! وعليه ، أقول بان كل ما كتبه هيكل حول هذا «الموضوع» بحاجة إلى وقفة نقدية مطولة للمعالجة نظرا لخطورته التاريخية أولا ، ونظرا لما يتطّلع لمعرفته عدد كبير من العراقيين وخصوصا ما يتعلق بشأن العلاقة الخفية التي يريد هيكل ان يربط بها أحداث ثورة ١٤ تموز / يوليو العراقية بكل من دوائر المخابرات الأمريكية من طرف وبدوائر الرئيس الراحل جمال عبد الناصر من طرف آخر !!

القصة التاريخية (العراقية والسورية والأردنية والمصرية)

لعملية الاتصالات مع عبد الناصر والقوميين :

لدينا الى حد يومنا هذا روايات متعددة عن عملية اتصال عبد الكريم قاسم بالذات مع بعض اركان الجمهورية العربية المتحدة قبل حدوث ثورة تموز / يوليو ١٩٥٨ بقرابة سنتين . . اذ يمكننا التوقف عند رواية عبد الكريم قاسم نفسه والتي سجلها صديقه عبد الكريم الجدة في كتابه عن «الزعيم المنقذ» ، وهناك رواية ضابط اشتغل تحت امرة عبد الكريم قاسم أسمه حافظ علوان ورواية عبد الله الريماوي ورواية عبد الحميد السراج ورواية ضابط ركن لواء ١٩ عبد الرزاق محمد سعيد ورواية إسماعيل العارف أحد أعضاء تكتل الضباط الأحرار ورواية جمال حماد الملحق العسكري المصري في العراق سنة ١٩٥٢ .

حقائق الموقف: الاعتماد على شهادات آخرين

وخير ما يمكننا الاعتماد عليه من كل هذه الشهادات والكتابات عن معلومات بقيت مجهولة عهداً طويلاً من السنين . . . وسأعتمد على قراءة كل هذه الشهادات للخروج بمعلومات تقرب وجه الحقيقة ، ويمكننا القول أن كتاب «اللغز المحيّر»* قد جمع عدة روايات عن «الموضوع» ، لابد من مراجعتها ومقارنة معلوماتها اولاً ، وهناك أيضا : رسالة جامعية في

* لمؤلفه خليل ابراهيم حسين .

تاريخ العراق المعاصر، عنوانها: «التطورات والاتجاهات السياسية الداخلية في العراق ١٩٥٣ - ١٩٥٨»* . . . لابد من قراءة مضمونها ومقارنتها بما كتبه حنا بطاطو عن تشكيلات الضباط الاحرار في العراق . . واتصالاتهم وعلاقاتهم بالأطراف الأخرى، وخصوصاً العربية منها** . . . وبرغم وجود كتابات وتحقيقات أخرى عن «الموضوع» لابد أن هذا «الموضوع» بحد ذاته بحاجة ماسة إلى قراءات ودراسات وثائقية تلقي الضوء على علاقة كل من عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف بالضباط والساسة السوريين فضلاً عن علاقتهم ببعض القيادات السياسية الأردنية .

لقد قاد عبد الكريم قاسم قطعاته لتعسكر في أيج ثري على طريق الأردن، ثم وصلت قصبة المفرق الاردنية التي عسكرت فيها . . . ولم يمض إلاّ بعض الوقت، حتى وقع الاعتداء الثلاثي (= الإسرائيلي + البريطاني + الفرنسي) على مصر يوم ١٩٥٦/١٠/٢٩، فكان ذلك الحدث بمثابة سبب لكي تعم المظاهرات والاحتجاجات في أرجاء العالم العربي والمطالبة بمساندة مصر . . . . كان جحفل اللواء التاسع عشر الذي يقوده الزعيم الركن عبد الكريم قاسم في الأردن، ولم تكن الأوضاع فيه مستقرة وخلايا الضباط الأحرار تنتشر في الجيش الأردني . . . وكانت حكومة الأردن يترأسها سليمان النابلسي الذي فاز حزبه الراديكالي بأغلبية المقاعد فألف وزارة قومية تتعاطف مع عبد الناصر، وكان وزير خارجيته عبد الله الريماوي له اتصالات مع الضباط الوحدويين والناصرين والبعثيين!

وكان عبد الكريم قاسم قد اتصل بعدد من الضباط ذوي الميول الثورية السوريين والأردنيين وعرض على الريماوي فكرة القيام بانقلاب عسكري في الأردن . . . كما زار رئيس الوزراء سليمان النابلسي ولمح بفكرته امامه، ولكن الأخير رد عليه بأن مهمته الإطاحة بنظام نوري السعيد في العراق بدل الإطاحة بالنظام الأردني الذي يتمتع بقدر من الديمقراطية .

* لمؤلفها: جعفر عباس حميدي الذي نشر من قبلها رسالته في الماجستير، التطورات السياسية في العراق ١٩٤١ - ١٩٥٣ (النجف، ١٩٧٦) .

** راجع تفصيلات ذلك في:

Hanna Batatu, *The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq: A Study of Iraq's Old Landed and Commercial Classes and of its Communists, Ba thists, and Free Officers.* (Princeton,, New Jersey: Princeton University Press, 1978). pp. 773 - 777.

وهناك شهادة عبد الحميد السراج تؤكد عملية الاتصال بكل من عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف بترتيب من المخابرات السورية ، وقد تم اللقاء الأول بينهما وبين السراج ورئيس الأركان والعامة للجيش السوري . . . وتم اللقاء الثاني مع رئيس أركان الجيش اللواء توفيق نظام الدين وعفيف البزري رئيس المجموعة في الأردن وعدد من الضباط ، في مكان من الصحراء في الأردن في خيمة على غرار ما تم في اللقاء الأول . . . ويتابع السراج شهادته قائلاً : « وعندما رجع عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف إلى العراق استمر الاتصال بعبد السلام ورفعت الحاج سري بطرق متعددة ، وعن طريق عبد السلام عرف التحديد الأولى لموعد ثورة ١٤ تموز / يوليوعندما وصلني رسول عبد السلام (واسمه محمد كبول وهو دبلوماسي سوري) يوم ٩ أو ١٠ تموز وكان له طلبات ذخيرة ، ومدافع ٢٥ رطلاً ، وطيارات ، وأجهزة رادار ومدافع ضد الطيارات إلى آخره في حالة نجاح الثورة . واعدت هذه الاعتدة والاسلحة في ميناء الإسكندرية وفعلا شحنت وسفرت إلى اللاذقية بعد نجاح الثورة بعلم الرئيس عبد الناصر وأمره (اللغز المحير ، ١١١ - ١١٣) .

هذه المعلومات التي حكاها عبد الحميد السراج لم أجد لها أي ذكر في المصادر العراقية المتصلة بالحدث . . وأوكد على مسألة الاعتدة والسلاح التي لا ندري متى وصلت الى العراق اذا صح كلام السراج ؟ وأنني أشك كثيرا رواية عبد الحميد السراج ، اذ لم يذكر عن عبد السلام عارف أنه كانت له اتصالاته قبيل الثورة بالسوريين . . وربما ظهرت أو استكشفت في المستقبل وثائق جديدة تنجلي من خلالها حقيقة الموقف !

ويكتب حافظ علوان شهادته عن الموضوع ، وكان ضابط ركن عبد الكريم قاسم في المفرق (القصبة الاردنية) واحد المنتمين إلى تكتل الضباط الأحرار : «في أحد الليالي قال لي الزعيم (الركن) عبد الكريم قاسم : أريدك ان تلازم خيمتي فان ضباطاً من الجيش السوري سيحضرون إلى هنا وبصورة سرية لمقابلتي ، وفعلا جلست خارج الخيمة للمراقبة ومنع أي شخص ضابطاً كان أو جندياً أن يقترب منها بناء على أمر عبد الكريم قاسم ، وبعد مدة وصل عبد السلام عارف ثم شخصان آخران يرتديان الزي العربي ودخلا الخيمة وبدأت مناقشات بينهما تتعلق بالتنظيم وحركة الضباط الأحرار ومناقشة الغاية من وجود اللواء

التاسع عشر وكيف يفوتون الفرصة على الحكم بالعراق . وفعلا فقد تم لهم ذلك ، إلاّ ان الذي جلب الانتباه فأننا وفي طريق العودة إلى ايج ثري من المفرق ونحن على الطريق التقينا مع رجل عسكري أردني وبعد التحري والتدقيق ظهر لنا بان اللواء التاسع عشر كان مطوقاً بقطعات أردنية < من > دون ان يعلم أحد وحتى عبد الكريم نفسه ولابد من ذكر بأن الضابطين اللذين وصلا بالملابس العربية الى الخيمة كانا عفيف البزري وعبد الحميد السراج . . .» (اللغز المحير ، ص ١٠٤) .

كل ذلك ربما يكون صحيحا . . ولكن لابد من التساؤل عن خبر تطويق القطعات الاردنية للواء التاسع عشر الذي كان يقوده عبد الكريم قاسم . . وهكذا مسألة جد حساسة ، لأنها لا تتعلق بقرار لا النابلسي ولا الريماوي . . انها مسألة أكبر منهما بكثير ، اذ اعتقد بأن الملك حسين أدرك خطورة هذا اللواء ، ومن المؤكد أن معلومات كانت تصله عن تحركات عبد الكريم قاسم واتصالاته . . وربما تكشف الايام عن تفصيلات أخرى عن الموضوع !

حجم المعلومات المتوفرة :

ان حجم المعلومات التي توفرت إلى حد الان هي اكبر بكثير مما عرضه محمد حسنين هيكل عن «الموضوع» . . . وعندما سئل عبد الحميد السراج عن توقيت أول اتصال جرى بحركة الضباط الأحرار في العراق ، أجاب : «تعرفت على رفعت الحاج سري في إحدى مناورات الجيش العراقي سنة ١٩٥٤ ، واخذ الاتصال يجري بيننا عن طريق أحد الدبلوماسيين في السفارة السورية . . . . .» (اللغز المحير ، ص ١١٣) .

هناك شهادات أخرى قدمها آخرون وفيها تفصيلات ومعلومات موسّعة عن «الموضوع» ، اذ يذكر ضابط حركات اللواء ١٩ عبد الرزاق محمد سعيد بان التحرك من ايج ثري نحو المفرق في الأردن جرى أثناء الاعتداء الثلاثي على مصر وعسكر في المفرق مدة تقرب من شهر . . . . وكان عبد الكريم قاسم يجري اتصالاته مع عفيف البزري والعقيد قائد المدرعات السورية حيث كانت القوات السورية ترابط في منطقة غور الأردن . . . . وكنا نشيع حسب طلب عبد الكريم قاسم أن الغاية من هذا الاجتماع هو دراسة موقف المعركة المقبلة مع اليهود في فلسطين (اللغز المحير ، ص ١١٦) .

أما عفيف البزري فيقول في شهادته : «فهيأت في أواخر شهر تشرين الثاني ١٩٥٦ ، لقاء سوريا عراقيا قرب مطار المفرق وكنت أنا في اللقاء من الجانب السوري ، ورئيس الأركان توفيق نظام ، وأمين نفوري ، وعبد الحميد السراج ، وكان من الجانب العراقي الزعيم عبد الكريم قاسم والعقيد عبد السلام عارف ، وبعد اخذ ورد طويلين أفضى إلينا الزعيم قاسم سراً خطيراً يتلخص : بأن هناك منظمة واسعة جداً من الضباط العراقيين . . . وقد شرح لنا خطة المنظمة للوصول إلى الهدف واضاف بأنه وأخونه لن يكرروا أخطاء حركة ١٩٤١ فيتركوا المجرمين يفرون إلى الخارج ليعودوا بعد ذلك على رأس قوات أجنبية . . . . ثم أننا التقينا بالضباط العراقيين بعد هذا اللقاء عدداً من المرات (اللغز المحير ، ص ١٢٠) .

ويستطرد عفيف البزري في مكان آخر من شهادته فيقول : «ولقد عرفت بعد قيام الوحدة مع مصر ان عبد الناصر كان يستخدم السراج لمعرفة تطورات الأمور في العراق ، فبلغني في أوائل تموز / يوليو ١٩٥٨ إن رئيس المخابرات المصرية كمال رفعت جمع بعض اللاجئين العرب في دمشق وقال لهم أن يكونوا على استعداد لان أحداثا خطيرة ستقع عما قريب في المفرق» . . . . والمهم جداً ما ختم به عفيف البزري شهادته قائلاً : «وفي طريق العودة إلى دمشق - من القاهرة - كنت مع السراج في طائرة واحدة ، وقد قص علي خلال السفر قصصاً كثيرة عن الثوار العراقيين وذلك بقصد التبجح وإظهار الخدمات الهائلة التي قدمها لعبد الناصر بالذات في العراق وكان في كل هذه القصص ما قام به العراقيون من اتصال بالجيش السوري قبل الوحدة وقد نجحت الصحافة المصرية بقولها أن عبد الناصر هو الذي دفع الضباط السوريين ليتصلوا بإخوانهم العراقيين في الأردن أثناء حوادث السويس عام ١٩٥٦ وكان هذا التبجح بعد أحداث الموصل الدامية وبعد توتر العلاقات بين مصر وقاسم* .

الجذور الأولى للاتصالات :

لابد أن نشير أيضاً إلى أن أول اتصال جرى بين الضباط الأحرار في العراق وعبد الناصر كان بواسطة جمال حماد الملحق العسكري المصري في العراق الذي عينته ثورة ١٩٥٢ هناك ، وهو يتحدث عن تفصيلات لقاءاته مع كل من إسماعيل العارف ورفعت الحاج سري

* (انظر : عفيف البزري (الفريق) ، الناصرية في حملة الاستعمار الحديث ، ط١ (دمشق : دار الشرق للنشر والتوزيع ، ١٩٦٢) ، ص ٣٣٥ - ٣٤٠) .

في أيلول ١٩٥٣ . . وكيفية الاتصالات التي جرت التي بقيت سرا في صدره دون أن يعرف بها أحد سوى الرئيس جمال عبد الناصر ، ولكن أهم ما ذكره جمال حماد على أن تعليمات عبد الناصر نصت بعد أن تأكد من هوية أولئك الضباط : أن يعود إليهم جمال حماد «ويتصل بهم سرا ويخبرهم بان مصر تدعمهم تماماً ولكنها لن تتدخل إطلاقا في نشاطهم وتنظيماتهم واستعدادتهم للثورة وعند إعلانها ستكون كل إمكانات مصر المستطاعة دوليا تحت تصرفهم لان في حالة الاتصالات المستمرة بين ثورة مصر وبينهم ، فلربما أدى إلى انكشاف هذه الاتصالات عن طريق مخابرات الغرب والعراق ، وفعلا أبلغت إسماعيل العارف بتعليمات الرئيس عبد الناصر ، وانقطعت من ذلك التاريخ اتصالاتي بالضباط الأحرار تنفيذا لتعليمات الرئيس جمال عبد الناصر ، كما أن الرئيس جمال عبد الناصر تعمد بعد تأكده من إخطار توجيهاته إلى الضباط الأحرار في العراق ان يعني ملحقاً خاصاً العراق وهو المقدم كمال المناوي الذي كلف بواجب الاتصال» (اللغز المحير ، ص ١٣٤) .

أما رواية إسماعيل العارف ، فقد كتب في كتابه «أسرار ثورة ١٤ تموز وتأسيس الجمهورية العراقية» عن الموضوع قائلا : «وقد توثقت الصلة بيني وبين الوفود العربية وعلى الاخص الوفد المصري . وخلال أحاديثنا سألني جمال حماد يوما ما اذا كان هناك أمل في قيام الجيش العراقي بثورة عسكرية . وهل هناك محاولة لخلق تنظيم للضباط على غرار تنظيم الضباط الاحرار ليقوم بمثل ما قام به ذاك ويسقط النظام الملكي في العراق ؟ . . . وعند عودتنا الى بغداد ناقشت الموضوع مع المقدم رفعت الحاج سري وبعض الأعضاء الآخرين ، فقررنا الاتصال به عند عودتنا الى بغداد . .»*

نستنتج من قرائتنا لشهادات هؤلاء جميعا بأن هناك ثمة تدخلات مصرية واضحة بالشؤون الداخلية العراقية ليس بعد انبثاق ميثاق أو حلف بغداد عام ١٩٥٥ ، او بعد العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ ، بل أن تاريخ ذلك يمتد الى عام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ في مصر ، أو بالأحرى عام ١٩٥٣ ، عندما سيطر جمال عبد الناصر على كامل السلطة في مصر . . وبرغم ذلك كله ، فان المصادر العراقية الموثوقة تؤكد بأن جذر تشكيل أول خلية عسكرية

* اسماعيل العارف ، أسرار ثورة ١٤ تموز وتأسيس الجمهورية العراقية ، ط١ (لندن ، ١٩٨٦) ، ص ٨٠ .

عراقية بدأت تعمل للإطاحة بنظام الحكم في العراق كانت تمتد الى حرب ١٩٤٨ في فلسطين . واذا صدق ما حكاه لنا جمال حماد واسماعيل العارف عن دور مصر المبكر وعناية جمال عبد الناصر بموضوع العراق ، فان ذلك يعتبر سبقا تاريخيا له مقارنة بما جرى لاحقا بين مصر والبلدان العربية الأخرى . . وان العراق كان على قائمة المتغيرات الإقليمية منذ مطلع عقد الخمسينيات . . واذا كان جمال حماد قد أدلى بشهادته باعتباره أول دبلوماسي مصري على عهد النظام الجديد في مصر يبدأ تحركاته داخل العراق بهذا الشكل . . فنحن لا نعرف ما الذي فعله كمال المناوي الذي جاء من بعد جمال حماد ؟

السؤال الذي يطرح نفسه الان امام تاريخ العراق والجمهورية العربية المتحدة ، وسوريا بالذات : من ذا الذي كان يتآمر على الاخر . . فلقد وقف رجالات العهد الملكي المباد في العراق امام المحكمة العسكرية العليا الخاصة التي أسموها بـ «محكمة الشعب» والتي ترأسها سيىء السمعة العقيد فاضل عباس المهداوي ، وقفوا امامه ليحاكمهم بتهمة التآمر على سوريا* . . وان عبد الكريم قاسم يعلم علم اليقين انها تهمة ملفقة ، ولكنه أراد أن ينال من أمير اللواء الركن غازي الداغستاني ؟ من كان يتآمر على الاخر بعد الذي عرفناه من شهادات واعترافات اولئك الدوبلوماسيين والساسة والعسكريين المصريين او السوريين أو الاردنيين الذين اتصلوا مع الضباط العراقيين ؟؟

موقف عبد الناصر عند سماعه بنبأ الثورة :

وبعد كل هذا لم يكتف محمد حسنين هيكل بما كتبه ، بل نقّلب عدة صفحات ليكتب لنا عن الرئيس جمال عبد الناصر وهو يتلقى الخبر من هيكل بالذات وكان يرافقه في رحلة استجمام شبه رسمية ليوغسلافيا . . يقول هيكل : «ورويت له ما حدث وكان تعليقه الأول هو أن قيام الثورة في بغداد سيقلب المنطقة رأسا على عقب . وكان تعليقه الثاني هو استعادة كل ما سمعه من عبد الحميد السراج عن الضابطين اللذين اتصلا به ،

---

* التفصيلات في :

العراق (وزارة الدفاع : اللجنة العليا للقوات المسلحة) ، محاكمات المحكمة العسكرية العليا الخاصة ، (٢٢ مجلداً) ، بغداد ١٩٥٨ – ١٩٦٢ ، المجلد الاول ، ص ٣٠ – ٦٥ .

وقد تذكر اسميهما على الفور : عبدالكريم قاسم وعبد السلام عارف (سنوات الغليان ، ص ٢٤٢) .

ماذا أقول بهذا الشأن ؟ تصويبات وإضافات

ثمة تصحيح لمعلومات خاطئة وردت عند هيكل ، اود أن اذكرها :

١ ـ لابد أن تضيف إلى الأحزاب الثلاثة التي أبلغت بموعد الانقلاب ، حزباً رابعاً هو حزب الاستقلال إلى جانب الأحزاب التي ذكرتها : الحزب الوطني الديمقراطي والحزب الشيوعي العراقي وحزب البعث العربي الاشتراكي (سنوات الغليان ، ص ٣٣٧) .

٢ ـ لابد أن تذكر اللواء التاسع عشر إلى جانب اللواء العشرين ، صحيح أن الأخير هو الذي نفذ خطة الاستيلاء على بغداد ، بقيادة العقيد الركن عبد السلام عارف الذي تولّى قيادته وكالة يوم ١٩٥٨/٣/١٢ بعد ان انفك من قيادته الفعلية الزعيم الركن ناظم الطبقجلي ملتحقا بمنصب آمر اللواء الخامس بالموصل ، في حين كان اللواء التاسع عشر بقيادة الزعيم الركن عبد الكريم قاسم الذي دخل بغداد بعد نجاح اللواء العشرين بالاستيلاء على أبرز قلاعها ، وخصوصا : دار الإذاعة العراقية وقصر الرحاب وقصر نوري السعيد . . فما كان من قائد الحركة عبد الكريم قاسم إلا أن توجّه مباشرة إلى وزارة الدفاع ليتولى قيادة البلاد من هناك ، بعد أن زار دار الإذاعة ، وكان قد سمع بخبر إعلان الثورة والجمهورية من راديو الترانسستور الذي كان يحمله بيد والرشاشة بيد أخرى . (سنوات الغليان ،ص ٣٣٧) .

ولعل هذا الموقف بحد ذاته قد شكّل بالنسبة لعبد الكريم قاسم هاجسا من اللوم وادانة للذات كونه زعيم لثورة خطط لها ، ولكن لم تكن له ضربته في منجز عمليتها وأن يكون على رأس فاتحي بغداد ، فضلا عن شعوره بالتأسي والمرارة بأن رفيقه عبد السلام عارف الذي كان يجلجل صوته في اذاعة البيان الاول للثورة قد تقدّم عليه في تسجيل الخطوة التاريخية من قبله على صفحات التاريخ !

٣ ـ ثمة تصويب آخر لما كتبه هيكل ذلك ان كلا من الملك فيصل الثاني وخاله الأمير عبد الإله ولي العهد لم يقررا أن يبيتا في تلك الليلة فقط في نفس القصر لغرض السفر

صباحاً إلى أنقرة عاصمة الجمهورية التركية ، فلقد كان الاثنان يقيمان في قصر واحد هو قصر الرحاب ، وليس لديهما غيره ! إذ كان من المعروف لدى الشعب العراقي بأن الملك فيصل الثاني وخاله الأمير عبد الإله لم ينفصلا أبدا لا في الليل ولا في النهار منذ أن كان الملك طفلا ، إذ كان خاله الأمير عبد الإله قد تكفل الوصاية عليه بعد وفاة والده الملك غازي عام ١٩٣٩ ومن ثم وفاة والدته الملكة عاليه . . ولم يبتعدا عن بعضهما الا في ايام دراسة الملك في بريطانيا . وبقي الأمير عبد الإله مع ابن أخته حتى بعد تولّي الملك فيصل الثاني مهامه الدستورية عام ١٩٥٢ اثر بلوغه السن القانونية .

ثورة ١٤ تموز / يوليو ١٩٥٨ في العراق:

لقد اقتصر هيكل على كتابة صفحة واحدة (ص ٣٣٨) في مؤلفه «سنوات الغليان» عن هذه الثورة العسكرية التي يختتم كلامه عنها بقوله : «وأهتزت عواصم كثيرة في العالم بتأثير المفاجأة وكانت الهزة إلى حد الصدمة في بعضها (سنوات الغليان ، ص ٣٣٨) .

ويذكر الرجل بان جمال عبد الناصر قال : «إن ما حدث في بغداد كان بالنسبة له أشبه ما يكون بالأحلام مستحيلة التحقيق» (سنوات الغليان ،ص ٣٧٧) وكان موقف عبد الناصر معروفاً عن الثورة ودعمها لأنها خلصته من خصومه الساسة العراقيين وعلى رأسهم نوري السعيد الذي يعد الرأس المدبر لحلف بغداد . . فضلا عن أن نوري السعيد أصبح يعتقد انه في حالة صراع مع عبد الناصر ، وان مشكلته معه مستعصية وهي مسألة حياة أو موت مع خصمه الذي أخذ بتوظيف كل القنوات والأساليب والجبهات والمواقع ضد نظام الحكم في العراق . ولكن يبدو من عبارة عبد الناصر ان الرجل لم يكن يتخيل أن الذي حدث كان حقيقياً ! صحيح أن الرجل كان يتوقع حدوث تغيير من نوع ما في العراق ، لكنه فوجئ بان التغيير قد حصل بصورة درامية وتراجيدية في الساعات الأولى من يوم الرابع عشر من تموز / يوليو عام ١٩٥٨ .

وكان جمال عبد الناصر في زيارة شبه رسمية لجيكوسلوفاكيا . . ويخبرنا محمد حسنين هيكل الذي كان يرافقه في سفرته العائلية تلك ، انه هو الذي طرق غرفة نوم الرئيس ، وأيقظه من منامه لكي يخبره وهو بالبيجاما بتفصيلات الخبر الذي طار الى العالم كله بسرعة مذهلة . . وتناقلته وكالات الانباء العالمية منذ اللحظات الاولى . وأمر الرئيس عبد الناصر

بأن يبرق إلى القاهرة إن تعلن باسم جمال عبد الناصر وباسم مصر وقوفه إلى جانب التغيير الثوري الذي حصل في العراق ، وان أي عدوان على العراق يعتبر عدواناً على الجمهورية العربية المتحدة . . ثم طار عبد الناصر خفية إلى موسكو ليجتمع فيها بالقادة السوفييت وعلى رأسهم نكيتا خروتشوف ، ثم يعود إلى دمشق عاصمة الإقليم الشمالي من الجمهورية العربية المتحدة بعد طوال نهار يوم حافل في مباحثاته مع السوفييت يوم ١٧ تموز / يوليو .

كان وفداً عراقياً قد وصل دمشق والتقى مساء يوم ١٨ تموز / يوليو بالرئيس جمال عبد الناصر وهو يتألف من عبد السلام عارف نائب القائد العام للقوات المسلحة وزير الداخلية (بالوكالة) ونائب رئيس مجلس الوزراء ، ومن ثلاثة وزراء في الحكومة الثورية الجديدة ، وثلاثتهم من اقدر المثقفين الموصليين ، وهم الاساتذة : صديق شنشل وزير الارشاد القومي (واتجاهه قومي استقلالي وحدوي) ومحمد حديد وزير المالية (واتجاهه وطني اشتراكي راديكالي) وعبد الجبار الجومرد وزير الخارجية (واتجاهه ليبرالي مستقل) . ويعد عبد السلام عارف الرجل الثاني في النظام الجديد الذي أعلن بان العراق جمهورية على أعقاب نهاية العهد الملكي الذي استمر في حكم العراق (٣٧) سنة ، أي للفترة (١٩٢١ - ١٩٥٨) . . كما أن عبد السلام عارف عين في المناصب التي ذكرتها أعلاه ولم يكن نائباً لمجلس قيادة الثورة - كما ذكر ذلك محمد حسنين هيكل - (سنوات الغليان ، ص ٣٧٦) لان النظام العسكري الجديد لم يعلن أبدا عن أي مؤسسة باسم «مجلس لقيادة الثورة» ، بل أعلن عن تشكيل مجلس للسيادة يتألف من رئيس وعضوين أثنين ، ويكون هذا المجلس بديلاً عن منصب رئيس للجمهورية ويتمتع بصلاحيات الرئيس الى حين انتخاب رئيس للجمهورية ـ كما جاء ذلك في البيانات الأولى للثورة ـ وكان قائد الثورة الزعيم الركن عبد الكريم قاسم ، الرجل الأول في النظام الجديد قد منح لنفسه منصب القائد العام للقوات المسلحة ورئيساً لمجلس الوزراء ووزيرا للدفاع (بالوكالة) .

رواية هيكل: نص ما قاله صديق شنشل للرئيس عبد الناصر خفية !

يقول محمد حسنين هيكل بان الرئيس جمال عبد الناصر كان على موعد مع صديق

شنشل بعد ان فرغ العشاء مع الوفد العراقي ، وكان شنشل صديقاً قديماً لجمال عبد الناصر بحكم انشغاله الطويل بالعمل العربي القومي ، وقد روعي أن لا يتم هذا اللقاء في قصر الضيافة حتى لا يسبب حساسية للآخرين من أعضاء الوفد وفوجئ جمال عبد الناصر بالأستاذ صديق شنشل يقول له : ـ بعد أن قال له عبد الناصر بان ما حدث في بغداد كان بالنسبة له أشبه ما يكون بالأحلام مستحيلة التحقيق ـ (قال شنشل) : «على المستوى القومي نعم يا سيادة الرئيس ، ولكنه على مستوى الوطن العراقي يمكن أن يتحول إلى كابوس ثقيل ، وبدت الدهشة على وجه جمال عبد الناصر ، فرغم كل ما سمعه من عبد الحميد السراج ، فان ما يقوله صديق شنشل الآن يبدو له أسوأ مما تصور ومضى صديق شنشل بقوله : إن على رأس الثورة العراقية الآن رجلين ، أولهما نصف مجنون ، والثاني نصف عاقل» ! .

ويستطرد محمد حسنين هيكل يفصّل القول : «كان نصف المجنون في تقدير صديق شنشل هو اللواء عبد الكريم قاسم رئيس مجلس قيادة الثورة (كذا) وكان نصف العاقل في تقديره أيضاً هو العقيد عبد السلام عارف ، وراح صديق شنشل يروي لجمال عبد الناصر تفاصيل التفاصيل عن الظروف التي قامت فيها الثورة وحتى قرب الفجر كان جمال عبد الناصر يسمع ويسمع ، وتزداد مخاوفه لحظة بعد لحظة على الثورة العراقية ، خصوصاً وقد شعر من خلال ما سمعه من الأستاذ صديق شنشل أن التوتر قائم حتى في العلاقات بين عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف نفسيهما ، وقبل أن يفترق الرجلان مع مطلع الفجر قال جمال عبد الناصر لصديق شنشل : «أنا لا أريد أن أحمل تجربة الوحدة بين مصر وسوريا بتبعات كل هذه المتناقضات القائمة في بغداد الآن . ولهذا فسوف تجدني على استعداد الآن أقوم بكل عمل من شأنه تدعيم ثورة العراق ولكني أرجوكم أن لا تطالبونني بأي خطوة وحدوية الآن» (سنوات الغليان ، ص ٣٧٧ - ٣٧٨) .

مناقشة النص:

لا أريد أن أتحدث عن شهادات وانطباعات صديق شنشل الذي نصبّته حكومة الثورة

ببغداد وزيرا للإرشاد القومي ، وخصوصا بعد قرابة ٣ ـ ٤ أيام على حدوث الثورة . . وحول هذا «الموضوع» بالذات لأنه اصبح في ذمة الله ، ولكن أمامنا «نص» كتبه بهذه الصيغة محمد حسنين هيكل ، وعلى الرغم مما فيه من الصحة ، فلابد للمؤرخ أن يستفهم عن عدة أشياء تبدو له غير معقولة أبدا ، ذلك لان غير المعقول قد ساد ، بحيث لم يتخيله الناس ، وعلى رأسهم الرئيس جمال عبد الناصر وهو الذي كان ينادي بالثورة ، وهو الذي لم يخف أبدا لا قبل ثورة العراق ولا من بعدها : دوره السياسي والإعلامي والدعائي بشكل خاص في إسقاط النظام الملكي في العراق ، ولكنه فوجئ أن يأتي بالصورة التي حدث بها فجأة ! لقد دعم الثورة مبدئياً ورسمياً وسياسياً وإعلاميا ، ولكنه أحس بهول المتناقضات التي كان عليها النظام الجمهوري الجديد ، بحيث بدأ يرجو أن لا يطالبه العراقيون بأي خطوة وحدوية الآن . . وجاء هذا بعد مرور أربعة أيام فقط على التغيير الحاسم . واعتقد بان عبد الناصر قد كشف عن طبيعة ذلك التغيير من ثلاثة انطباعات ، هي :

١ - صورة الحدث ودراميكيته على مدى أربعة أيام من حصوله .

٢ - بضاعة عبد السلام عارف ، هذا القادم الجديد الذي يرأس وفد الثورة الذي كشف عنها من اللحظات الأولى للقائه ، فضلاً عن طبيعة خطابه الذي ألقاه إلى الجماهير إلى جانب عبد الناصر ، ولكن سيصبح في ما بعد صديقاً لعبد الناصر! .

٣ - ما تحدث به صديق شنشل إلى عبد الناصر ـ إن كان قد حصل بهذه الطريقة وهذا الأسلوب ـ كالذي حكاه لنا محمد حسنين هيكل .

وكان جمال عبد الناصر قد اختلف مع ميشيل عفلق الامين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي الذي اقترح عليه لو انه حط بطائرته ببغداد بدل دمشق ليعلن انضمام العراق إلى الجمهورية العربية المتحدة ، فأجابه عبد الناصر بان ما هو مقبول من الناحية النظرية هو أشد صعوبة عند التجربة العملية ، ولا بد لنا أن نقول بان جمال عبد الناصر برغم معرفته بمشكلات العراق الداخلية وخصوصياته قبل الثورة ، إلا أن أحداث الثورة وتداعياتها قد تعلم منها أشياء كثيرة ما كان يدركها قبل ذلك ، أو انه كان يستخف بها .

وعليه ، فقد كان يرفض – دوماً – أي مشروع للوحدة مع العراق حتى يستطيع

العراق أن يحل مشكلاته ولابد أن نقول بان الرئيس جمال عبد الناصر قد زار على امتداد عهده الطويل اغلب البلدان العربية ، ولكنه لم يقم بأية زيارة للعراق أبدا لا على أيام النظام الملكي ولا على أيام العهد الجمهوري ؟! .

ماذا نستنتج من وراء ذلك كله ؟

وبناء على كل ما تقدم ، فلابد أن نسأل :

إذا صدق محمد حسنين هيكل في الذي نقله على لسان صديق شنشل الوزير العراقي في الذي حكاه للرئيس جمال عبد الناصر . . فهل من الممكن ان تفرز التناقضات بمثل هكذا حالة بعد أربعة أيام فقط عند رجالات الثورة ؟ وهل دبّ الخلاف بين قائدي الانقلاب منذ الأيام الأربعة الأولى أو الساعات الأولى للحدث؟ وهل كان التوتر قد حدث بين الاثنين بمثل هذه السرعة بعد أن كانت الثقة قد وصلت بين الاثنين إلى الدرجة التي سمحت لهما معاً للانفراد بالعمل ، والإسراع بضرب ضربتهما على حساب المجموعات الأخرى من الضباط (الأحرار) الذين كانوا يتسابقون لإنجاز مثل هذه المهمة ؟

إذا آمنا بان كل ذلك قد حصل ومن غير المستبعد أن يحدث ، ليس - كما يقال - «بأن الثورة تأكل أبناءها» ، ولكن لأن كلا من قائدي الانقلاب وقد قاما بتفجير «الثورة» لم يكونا على درجة من التوافق في المبادئ التي يحملانها ! فاذا كان عبد الكريم قاسم يطمح لان يبقى العراق بعيداً عن تأثير جمال عبد الناصر ـ كما ستوضح ذلك الأيام القادمة - ، فان عبد السلام عارف كان يريد أن يدمج العراق مع كيان الجمهورية العربية المتحدة مهما كان الثمن (ولكن سيختلف رأي عبد السلام عارف في الوحدة مع مصر لاحقا ايام حكمه للعراق) ! لقد توضح الوضع جلياً أمام جمال عبد الناصر عندما راح عبد السلام عارف يشكو من عبد الكريم قاسم ، وأن طلقة مسدس بأربع فلوس (آنه باللهجة العراقية) كافية للتخلص منه ـ حسب ما قاله عارف ـ والذي أستغرب منه عبد الناصر ، بل يقال أنه كتم اشمئزازه من هذا الكلام !

ولا ادري كيف أنصت عبد الناصر له وهو يلتقي بعبد السلام عارف لأول مرة كي يسمع منه كلاماً مستغرباً ليس ضد عراقي من ابناء وطنه فقط ، بل ضد رفيقه في القيادة

وفي الحركة وضد رئيسه في الرتبة والحكم ؟! وكيف وجد عبد الناصر الحالة وهو يسمع شكوى عارف ، وارائه التي راح يفصح بها أمام الجميع . . وجمال عبد الناصر ينصت : بان وجود قاسم قائداً يعد ترتيباً شكلياً ضمن قيادة جماعية (سنوات الغليان ، ٣٧٩) وقد ذكر في اكثر من مصدر بان عارف راح ينتقد زعيم الثورة عبد الكريم قاسم ، ويستخف به وان وجوده مرحلي ، وانه - أي عارف - قائد الثورة الحقيقي ! وكان قاسم يسمع كل ما يقال عنه .

إن مجرد حدوث ذلك كله سواء على مستوى أقوال أو تصرفات عارف أمام عبد الناصر ، يجعلنا إزاء مشكلة حقيقية عراقية داخلية سيتفاقم أمرها مع توالي الزمن! وربما يستغرب القارئ اليوم - إذا كان محايداً - لكي يسأل نفسه : كيف يسمح رئيس الوفد أو أحد أعضاء الوفد أن يعلنوا أم يصرحوا أم يسروا بمثل هكذا أوضاع ولدت على مدى أربعة أيام !!؟ وإذا كان المرء يصدق بسهولة ما جرى على لسان عبد السلام عارف ، وقد سمعه اكثر من شاهد ، فان ما ذكره هيكل عن صديق شنشل لعبد الناصر من أن «على رأس الثورة العراقية الآن رجلين ، أولهما نصف مجنون ، والثاني نصف عاقل» يؤشر لنا أزمة تعامل وطني عراقي بين رجلين لا يفقهان كيفيات التعامل مع بعضهما ، فكيف يفقهان أسلوب التعامل السياسي مع العالم !

ان مجرد انتقالهما بلمح البصر من عرضات الثكنة العسكرية الى دهاليز الغرف السياسية قد كشف بضاعتهما اولا ، فضلا عن عدم تصديقهما ان مصير بلاد استراتيجية اصبح بين أصابعهما . . ان هكذا حالة من جملة حالات عدة قد قادت إلى كوارث بحق العراق والعراقيين !! وأن من صب الزيت على النار ، جلس يتمتع بهذا المشهد المأساوي ، بعد أن كان الطموح والحلم هو الاصلاح والاستقرار والبناء والتقدم وتحقيق الامنيات الوطنية والقومية والتحررية والمصيرية . . والتي غدت شعارات جوفاء مع توالي السنين ، ويتساءل العقلاء اليوم : لماذا اذن كل تلك التظاهرات التي انطلقت ، والصراعات التي أذكيت ، والنيران التي تأججت ، والضحايا التي ذهبت ، والنفوس التي قتلت ، والمحاكمات التي أجريت ، والفوضى التي عمّت ، والاجساد التي سحلت . . ولمصلحة من كل ما جرى على الارض الطيبة من بلاد وادي الرافدين ؟؟؟ .

ثانياً: من أجل الحقيقة التاريخية العراقية

قصة وثائق حلف بغداد مرة أخرى:

عودة إلى ما كنا قد انتقدنا حصوله (في الفصل الأول من هذا الكتاب) في الذي ذكره صاحبنا محمد حسنين هيكل عن خبر الطائرة التي حملت وثائق حلف بغداد من العاصمة بغداد إلى القاهرة ، نراه يكتبها الآن في كتابه «سنوات الغليان» بطريقة اخرى ، بما يثبت الحقائق التي سجلناها عليه في الفصل الأول : كتب - هنا - يقول : «وكان في ذهن جمال عبد الناصر في تلك الساعات خاطر واحد ملح ، وهو وثائق حلف بغداد الموجودة في مقر الحلف في العاصمة العراقية ، فقد كان يدرك أن هذه الوثائق كفيلة بان تعطيه صورة دقيقة عن عقل الغرب ومخططاته ، وكلها تحمل إجابات عن أسئلة كان تواقاً إلى استكشاف خباياها لكي يستطيع رسم سياسته في المنطقة للمرحلة المقبلة ، وقد قام بتكليف العقيد عبد المجيد فريد الذي عينه يومها ملحقاً عسكرياً في بغداد بان يحاول الحصول عليها بأي وسيلة ممكنة ونجح عبد المجيد فريد في مهمته بأكثر مما كان يقدر احد ، فقد تمكن في غمار الفوضى التي كانت تسود بغداد عقب نجاح الثورة من دخول مقر الحلف ، ثم استطاع أن يملأ حمولة طائرة كاملة بهذه الوثائق ويرسلها إلى دمشق ، ثم إلى القاهرة واطل جمال عبد الناصر على عقل حلف بغداد ومخططاته من الداخل ، وغاص ساعات طوالا في سراديب وثائق حلف بغداد» - انتهى النص - (سنوات الغليان ، ص ٣٧٩) .

مرة اخرى ، كيف يمكننا تفسير هذا كله ؟ وكيف يمكننا مقارنة ما قاله هيكل هنا بما كان قد قاله هناك ؟ إذا بدا هذا «النص» بطرح أسئلة أخرى : هل حدث هذا كله بأمر من الرئيس جمال عبد الناصر ؟ وهل بإمكان عبد المجيد فريد أن يدلو بدلوه حول هذا «الموضوع» وهو لم يزل على قيد الحياة ؟ وهل بإمكانه أن يكتب تفاصيل ما حدث بأمانة وتجّرد ؟ لقد اعترف هيكل بما كان يسود بغداد أيام الثورة من غمار الفوضى ! أي بمعنى أن الذي استل (الوثائق) قد استغل حالة فقدان الأمن ببغداد ليؤدي مهمته خلسة لأخذ أهم أوراق العراق . ان هيكل يبدو وكأنه يتّهم عبد المجيد فريد بمثل هكذا عملية . . ويحكيها بشكل طبيعي ، وكأن ليس في العراق أية مؤسسات وأية أجهزة وأية حقوق . . وكأن ليس في العراق أي شعب وأي ممتلكات له ، وأية قيادة !! ولا أعتقد أبدا أن جمال عبد الناصر كان

يفكر بهذه الطريقة . . ولو ثبت أنه قد أوعز بمثل هذا «العمل» . . فان مجرد الإيعاز به . . يمّثل اعتداء صارخا على حقوق دولة وشعب وتاريخ !!

ولكن السؤال : هل يمكننا أن نتصور ماذا احتوت وامتلأت به حمولة طائرة كاملة ؟ هل يمكننا أن نتخيل وثائق بحمولة طائرة أرسلت إلى دمشق ثم إلى القاهرة ؟ أم تضمنت تلك «الحمولة» على أشياء أخرى ؟ وإذا كان الرئيس جمال عبد الناصر قد عرف ماذا كان يدور في عقل حلف بغداد من مخططات وأسرار يا هيكل : فلماذا لم يعلنها الرجل بعد ذلك ؟ والسؤال الأخير الذي يتمنى العراقيون جواباً شافياً عليه ، باعتبارهم هم أنفسهم لا غير : المالكين الحقيقيين لتلك «الوثائق» : نعم يتساءلون : بأي حق سطا عبد الناصر على وثائق العراق كما جاء في اعتراف هيكل بذلك ؟ وأين هي تلك الوثائق اليوم؟ ولماذا لم يكشف عنها من قبل الجهات المصرية العليا؟ ولماذا تبقى في مصر ؟ لقد ذكرتني هذه الحادثة عام ١٩٥٨ بما حدث عام ١٩٩٠ ، ولكن مع اختلاف المكان والزمان !

حقيقة وثائق حلف بغداد

لم ينسحب العراق من حلف بغداد اثر قيام الثورة في ١٤ تموز / يوليو ١٩٥٨ مباشرة . . صحيح أن حلف بغداد قد أسمي بحلف السانتو ، وقد أخرج العراق منه بعد مضي قرابة ثمانية أشهر على قيام الثورة ، إذ تّم إخراجه من الحلف في شهر آذار / مارس ١٩٥٩ . لقد جاء في البند السادس من التوجيه الرئاسي (الأمريكي) بتاريخ ٢٩ تموز/ يوليو ١٩٥٨ ، والذي وقع عليه المستر كارل هار المساعد الخاص للرئيس ايزنهاور ما نصه : «بالنظر لحقيقة أن الحكومة الجديدة في العراق تملك في حوزتها مجموعة كبيرة من الوثائق المتعلقة بحلف بغداد ، وبالنظر إلى أن هذه الوثائق يحتمل وقوعها في أيد معادية للولايات المتحدة (يقصد بها : الاتحاد السوفييتي) فان هناك ضرورة لمواجهة احتمال تسربها ، وكيف يمكن الرد على تأثيرات مثل هذا التسرب (كلام محذوف)» (سنوات الغليان ، ص ٣٨٣) (نقلاً عن الوثائق السرية لوزارة الخارجية الأمريكية تحت رقم ٧٩٤ ، تموز / يوليو ١٩٥٨) . ولكن ؟

تخبرنا كل من الدراسات الأكاديمية العراقية الحديثة والوثائق العراقية الرسمية ،

المعلومات التالية التي تناقض ما جاء به محمد حسنين هيكل في اثنين من كتبه : (مدافع آية الله وسنوات الغليان) ما نصه : «عقب ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ألحت السفارة البريطانية ببغداد بنقل وثائق الحلف إلى أنقرة وموافقة وزارة الخارجية العراقية على ذلك ، حيث تم السماح لعدد من الضباط والجنود الإنكليز بالذهاب إلى مقر الحلف في بغداد . . ونقل تلك الوثائق إلى المقر الجديد* ، إضافة إلى مجهودات بريطانية أخرى في عام ١٩٦٠ ، إذ ضغطت السفارة البريطانية في بغداد على الحكومة العراقية من اجل حرق وثائق الحلف الأخرى ، وتم ذلك** وعلينا أن نسأل : اذا كانت وثائق حلف بغداد قد انتابها هذا المصير ، فماذا نقل المصريون ما وزنه حمولة طائرة من العراق ابان ظروفه الصعبة تلك ؟؟ هل بالإمكان أن يعلمنا من هو مطّلع على أسرار هذا «الموضوع» ؟؟

التحولات بين نظامين: من الكولينيالية الى الإمبريالية

لقد عاش العرب ومعهم شعوب العالم الإسلامي الذي عد جزءاً مما كان يسمى بـ «العالم الثالث» أو «العالم النامي» أو «العالم المتخلف» . . عاشوا على امتداد القرن العشرين وما سبقه من سنوات القرن التاسع عشر ، تسيرهم الأنظمة الدولية ، وعرفوا جزءاً يسيراً من حقائقها ، ولكنهم ما زالوا يجهلون حتى يومنا هذا قواها الخفية ومخططاتها وما ترسمه لهم سياسات متباينة مرة باسم سياسة الاحتلال أم سياسة الحماية أم سياسة الأحلاف أم سياسة الانقلابات العسكرية أم سياسة الدكتاتوريات الفردية أم سياسة المعاهدات أم سياسة التكتلات أم سياسة الوفاق أم سياسة الاستقطاب .

إن خمسين سنة من حياة النصف الأول مرة القرن العشرين ١٨٩٩ ـ ١٩٤٩م كانت لكل من بريطانيا (وفرنسا على نحو ما) نفوذ واضح عليه من اجل المصالح العليا وتنفيذها

---

* (كتاب وزارة الخارجية العراقية إلى وزارة الدفاع / سري / الرقم ٤/٦٠٠/١٢ في ٨ آذار ١٩٦٠ ، ودراسة خليل الكبيسي ، سياسة العراق الخارجية في المنطقة العربية ١٩٥٠ – ١٩٦٨ (اطروحة دكتوراه مقدمة إلى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٤٠٨ ، ٤٦٥)

** (اعتماداً على : قرارات مجلس الوزراء العراقي لعام ١٩٥٩ ، ملف رقم ١/٣/ لعام ١٩٥٩ ، ص ١٦– ٢٦ ؛ وراجع أطروحة الكبيسي المذكورة أعلاه ، ص ٤٦٥ ؛ وراجع مقارناً أيضاً : فكرت نامق عبد الفتاح ، سياسة العراق الخارجية في المنطقة العربية ١٩٥٣ – ١٩٥٨ ، ط١ ، (بغداد ، دار الرشيد للنشر ، ١٩٨١) ، ص ٣٢٨ .

من خلال التعامل المكشوف مع جميع الحكام في العالمين العربي والإسلامي قاطبة ولم يكن هناك أية خيارات من نوع آخر للخروج عن طوق ما هو سائد حتى من قبل الزعماء الوطنيين الذين كان لا بد لهم أن يجدوا لأوطانهم مكاناً تحت الشمس ولكن الخمسين سنة الثانية من القرن العشرين ١٩٤٩ - ١٩٩٩ فلقد كانت الولايات المتحدة الأمريكية هي التي تدير لعبة الأمم ، وتهمين بشكل أو بآخر على تحريك كل الأحداث والمواقف والزعماء وحتى الشعوب ، حتى كانت تلك التحركات تتلبس بالوطنية والثورة والتحرر والانقلابية والبرامج التقدمية وقد ينساق زعماء ونخب وفئات في تنفيذ إجراءات واتخاذ قرارات وإصدار تشريعات وعقد مؤتمرات دون أن تدري بأنها ضالعة في مخططات لا تعرف مدى علاقتها بنظام دولي سائد من نوع ما !

وهذا أقسى ما يواجهه بعض الزعماء والمسؤولين العرب الذين يرون أنفسهم في حالة ويراهم الناس بأنهم من احسن خلق الله !! والبعض الآخر ممن يتصوره البعض بل ويعتقدون انه من أسوأ خلق الله !! ولكن المسألة نسبية وغاية في الغرابة ، ذلك أن الكل لابد له أن يمشي في قافلة النظام الدولي السائد في العالم ، ولابد للعرب أن يوسعوا من أفقهم التاريخي ، لكي ينظروا إلى ما جرى في القرن العشرين ، وخصوصاً في النصف الثاني منه نظرة موسعة ، وذلك من خلال ربط الأسباب والدوافع والعلل لمجريات الأحداث كاملة بالنتائج التي آلت إليها الأمور عند نهايات هذا القرن ، وخصوصاً مع حياة مشكلة عدت من اعقد مشاكل القرن ، بدءاً بولادة الكيان الصهيوني مروراً بالصراع معه وانتهاء إلى الاعتراف به ! .

سياسة ايزنهاور الجديدة :

يحدثنا محمد حسنين هيكل في كتابه «سنوات الغليان» عن معلومات مهمة جداً برغم ما يعتورها من بعض الأخطاء التي ربما نقلها أو سمعها بطريقة سيئة ، أو ربما زاد بعض ما يريده ، أو حذف بعض ما لا يريده .

يقول بأن «السفير الأمريكي في بغداد جون جالمان أفاق من صدمة وقوع الثورة (يقصد : تموز / يوليو ١٩٥٨ ببغداد) ، ثم راح يفتح مسالك مع النظام الجديد . وكان أول تقرير بعث به

إلى واشنطن تقريراً يتحدث عن أن الثورة التي نجحت كانت مصادفة الواحد في المليون - فلم يكن لها في الواقع أي فرصة للنجاح لولا مصادفات لم تكن في حسبان أحد ولعل جالمان كان بذلك يغطي على فشله في توقع الثورة ، ثم توالت تقاريره بعد ذلك على واشنطن تشير إلى انه تمكن من لقاء عبد الكريم قاسم الذي أكد له أن العراق لا يفكر في الانضمام للجمهورية العربية المتحدة . وانه يفّضل أن يحتفظ بدوره المستقل في المنطقة ثم أضاف جالمان في تقريره إن عبد الكريم قاسم قال له بلهجة ذات معنى انه «ليست علينا وصاية من أحد خارج العراق» . . ثم تكررت لقاءات جالمان لان يكتب إلى واشنطن بتاريخ أول أغسطس قائلاً بالحرف : « إنني أستطيع أن أجد في عبد الكريم قاسم منافساً لناصر اكثر مما أرى فيه صديقاً له» ، وطار روبرت مورفي إلى بغداد ليقابل عبد الكريم قاسم ، وليعلن من هناك اعتراف الحكومة الأمريكية رسمياً بالجمهورية العراقية» (سنوات الغليان ،ص ٣٨٩) .

ويستطرد هيكل قائلاً : «وبعدها وصل مورفي إلى القاهرة ، والتقى به جمال عبد الناصر في اجتماع دام أربع ساعات ، وخرج مورفي من الاجتماع ليعطي أن الولايات المتحدة تعترف بحركة القومية العربية ، وتحترم دوافعها وان هذه هي سياسة ايزنهاور الجديدة» (سنوات الغليان ، ٣٨٩) .

ماذا نستكشف؟

في النصين أعلاه عدة معانٍ لابد أن يتوغل المؤرخ في فهمها ، وهي التي اختصرتها الكلمات الثلاثة الأخيرة : «سياسة ايزنهاور الجديدة» التي اعترفت بالنظام الجمهوري الجديد في العراق بسرعة بالغة ، وكان النظام نفسه قد حصل على اعتراف بريطانيا العجوز والذي جاء بعد مرور (٤٨) ساعة فقط على الأحداث ! إن الدارس العربي والباحث المدقق عليه أن يتوغل بأفقه الواسع في ربط الأمور ومجريات الأحداث بين الذين كان قبل انفجار الحدث وبين الذي جرى بعد مروره ! إن دلالات عدة تشير بما لا يقبل مجالاً للشك أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تفاجئ بما حدث في العراق فجر الرابع عشر من تموز / يوليو ١٩٥٨ وهنا يخطئ محمد حسنين هيكل في تفسيره أقوال جون جالمان هكذا يسميه هيكل - والصحيح أن اسمه اولدمار جون غالمان الذي سيكتب بعد ذلك كتابا مهما بعنوان :

«عراق نوري السعيد» ، وكم أتمنى على هيكل قراءته ، لأن فيه الكثير من المعلومات والآراء والافكار مما يلقي الأضواء على الأدوار الأمريكية في متغيرات المنطقة السياسية إبان عقدي الخمسينيات والستينيات ! .

وحدثت المعجزة في العراق !

لقد نجح الأمريكان حتى الآن في حدوث ليس «المعجزة» كما صورها تقرير غالمان ، باعتبارها مصادفة الواحد في المليون فالذي يربط التوقعات والاحتمالات السابقة على الحدث (بما فيها من علاقات وارتباطات خارجية وليست داخلية) مع الانطباعات والتحقيقات والاعترافات التي جاءت بعد الحدث سيرى بان أمريكا كانت تقف وراء كل ما حدث في منطقتنا منذ عام ١٩٤٩ وحتى ١٩٧٩ ، لكي تأخذ الأحداث في المنطقة وتائر أخرى باتجاه المستقبل وحتى عام ٢٠٠٩م - كما أعتقد وربما كنت خاطئاً - وهنا لابدّ لي من القول حقيقة ان الذي كشف لي عن كل هذا الربط بين الاسباب والنتائج ليس ما كتبه هيكل بالذات فقط ، بل الاعتماد على وثائق ومعلومات تضمنتها مراجع اخرى* . . وبرغم ذلك كله ، فانني اعتقد ان هيكل قد توصّل الى نتائج ومعلومات خطيرة حول هذا «الموضوع» ، لكنه لم يعلنها بصراحة أبداً !

المهم ، أن ما تحقق في العراق في فجر ١٤ تموز/ يوليو ١٩٥٨ ، كان إنجازا كبيراً في تحول الحرب الباردة العربية إلى مصاف جديد ومديات أخرى تختلف عما كانت عليه الأوضاع على عهد الحرب الباردة الإقليمية وخروج بريطانيا العجوز من الحلبة ، وخصوصاً من العراق فضلاً عن تحول الصراع من (على) الشرق الأوسط إلى الصراع (في) الشرق الأوسط ! .

مشكلتنا نحن العرب :

إن مشكلتنا نحن العرب على امتداد خمسين عاماً من حياة القرن العشرين ، تتمثّل في

---

* من أبرزها :

- J. W. Spanier, *American Foreign Policy Since World War II* (New York: Frederick A. Praeger, 1969).
- Hisham Sharabi, *Nationalism and Revolution in the Arab World* (New York: D. Van Nostrand Co. Inc., 1966).
- Emil Lengyel, *The Changing Middle East* (New York: John Day and Co., 1960).

محمد حسنين هيكل (نموذجاً) ذلك لان الرؤية الظاهرية أو النزعة المؤدلجة في معالجة تاريخنا المعاصر ، وخصوصاً ربط تراكيب الأحداث ، وقراءة ما يكمن وراء الأحداث ، والتعمق في فحوى النصوص سيدلنا دلالات واضحة على أن ما ألفه تفكيرنا العربي المعاصر على امتداد القرن العشرين في معالجة علاقتنا نحن العرب (خصوصاً) بالغرب أو الشرق يتضمن المزيد من المألوفات الخاطئة التي لابد أن يزيلها تفكير جديد يعتمد على المنهج والمعرفة والوثيقة والرؤية والموضوعية والحيادية والشفافية وقبل كل شيء الجرأة والصراحة والوضوح . . ويبدو أن ايزنهاور نجح أيما نجاح في تحقيق مبدأه الذي أعلنه قبل عام واحد من ثورة العراق (أي في سنة ١٩٥٧)* .

ومرة أخرى يطلعنا نص مذكرة موجود ضمن أوراق ايزنهاور ، تلك «المذكرة» التي أملاها بنفسه بتاريخ «أغسطس/آب ١٩٥٨ عن لقائه بسفير الجمهورية العربية المتحدة الدكتور مصطفى كامل ، عندما جاء ليقدم له أوراق اعتماده سفيراً جديداً للجمهورية العربية المتحدة في واشنطن . ومن الصدف العجيبة أن هذه «المذكرة» قد تضمّنها كتاب محمد حسنين هيكل «سنوات الغليان» ، ومن ضمن ما قاله السفير المذكور في مناقشة دارت مع ايزنهاور : «إن الرئيس ايزنهاور ينظر إليه في الجمهورية العربية المتحدة لا باعتباره مجرد رئيس للولايات المتحدة بل للعالم الحر باسره ، ونحن جزء منه (وهنا يتدخل محمد حسنين هيكل ليكتب في الهامش ما نصه : «كانت هذه آراء الدكتور مصطفى كامل شخصياً ، وقد خلط بينها وبين الآراء الرسمية» (سنوات الغليان ، ٣٩٠ هامش ١٥) نتابع النص ، ويتابع السفير المصري كلامه لايزنهاور قائلاً انه «عاش في العراق عشر سنوات ، وقد تركها منذ تسع سنوات ، وهو يعرفها ظاهراً وباطناً ، وأكد أن النظام السابق على الثورة كان نظاماً قمعياً ومعادياً لآمال الناس ، وقال انه قبل أن يغادر القاهرة التقى مع سفير الولايات المتحدة فيها ، وقد تحدثا معاً بالصدفة عن العراق ولم تكن الثورة قد وقعت بعد ، وقد سأله السفير الأمريكي عما إذا كان يتوقع ثورة في العراق ، وكان رده وقتها إن الثورة يمكن أن تقع في أي وقت ، وبالتالي فانه لم

---

* أنظـــر :

Donald Neff, *Warriors at Suez: Eisenhower takes America in to the Middle East.* (New York: The Linden Press, 1981). pp. 65 - 105.

يفاجأ بما حدث في بغداد عندما سمع به لأول مرة على سطح الباخرة التي كان يستقلها عبر الأطلنطي إلى نيويورك» (سنوات الغليان ، ص ٣٩١) .

ان سفيراً مصرياً بوزن الدكتور مصطفى كامل الذي غادر العراق بعد ان عاش فيه قرابة عقد كامل ١٩٣٩ - ١٩٤٩ ، استاذاً في القانون الدستوري بكلية الحقوق العراقية ، فقد كان قد خبر العراق والعراقيين . . وان حديثه مع الرئيس الامريكي ايزنهاور بكل هذه الثقة ، يجعله مشروع بحث لتقصّي ادواره السياسية الخفية والعلنية في كل من مصر والعراق على امتداد عقدين كاملين : الاربعينيات والخمسينيات* .

التوغل لاكتشاف المعاني وما وراء السطور :

لا يمكن أبداً أن يفوت المؤرخ الحاذق هكذا «نصوص» دون التأمل في مضامينها ، وفي كتابه «سنوات الغليان» وكتب أخرى محددة ، أتانا محمد حسنين هيكل بهكذا «نصوص» ، وهو يعتقد أنها بريئة نظيفة ستخدمه ، ولكنها - في الحقيقة - خدمت القراء والدارسين الحاذقين ، وخدمت المؤرخين الذين سيتوالدون على مر الأجيال القادمة ، كون الجميع سيخضعها للدراسة والتحميص ، وبالوقت الذي عرفنا مما سبق كيف يفكر هيكل إزاء النصوص والوثائق باعتباره رجل صحافة لا تاريخ ، فقد أسدى خدمة من حيث لا يشعر إلى العرب الذين لا يمكنهم أبدا أن يبقوا متقوقعين على أفكارهم السابقة ، وخصوصاً عندما يعتقدون وما زال الكثير من العرب يعتقدون بان الصراع مع الاستعمار هو صورة لا تقبل التجزئة فضلاً عن السياقات الجديدة التي أفرزتها الأحداث المأساوية عند نهايات القرن ، مما يجعلنا نحن العرب نفكر بان صراع المصالح لدى الغربيين هو اكبر وأدهى مما نتصورا كما أن

* كان الاستاذ الدكتور مصطفى كامل أحد اساتذة القانون الدستوري والاداري المصريين المتميزين ، وكان قد تخرج من السوربون ويجيد الفرنسية والانجليزية ، وقد تخرج على يديه اعديد من رجالات القانون في العراق ومصر ، ومنهم والدي - رحمه الله - حدثني عنه الزميل الدكتور سعدون القشطيني - وكان احد طلبته هو الآخر - قائلاً : بأن مصطفى كامل قضى عشر سنوات في العراق منذ عام ١٩٣٨ ، وكان حافظاً للقوانين الدستورية في العالم ، وكان اتجاهه السياسي يميل الى الوفديين . . تزوج في العراق من احدى طالباته الحقوقيات العراقيات ، وهي رفيعة البستاني أخت خليل اسماعيل وزير المالية في العهد الملكي بالعراق ، وأخت عبد القادر اسماعيل سكرتير الحزب الشيوعي العراقي وأحد مؤسسيه . . وقد توفيت الست رفيعة البستاني بمرض السل .

من أكبر الأخطاء اعتقادهم بأن الغرب كله واحد موّحد في سياسته ومصالحه ، والصواب أن صراعا سياسيا كبيرا بين القوى الغربية نفسها إزاء العالم من أجل أن تراعي كل أمة في الغرب مصالحها القومية* .

قافلة المصالح القومية الأمريكية :

ان حدثاً تاريخياً مريراً كالذي جرى في فجر يوم ١٤ تموز / يوليو ١٩٥٨ والذي يعد في الذاكرة العراقية حدثاً وطنياً للخلاص من ربقة الاستعمار والخروج من حلف بغداد ، ومن منطقة الإسترليني وإجراء تغييرات اقتصادية بإصدار قانون الإصلاح الزراعي ، وإصدار قانون رقم (٨٠) عام ١٩٦٠ الذي حدد نفوذ شركات النفط الأجنبية (وهو القانون الذي أصدره عبد الكريم قاسم معتمداً فيه على قانون مناصفة الأرباح الذي حققه من قبله نوري السعيد عام ١٩٥٢) وكلها قرارات وطنية أنهت العلاقة مع بريطانيا بشكل شبه نهائي ، وكانت وراء ذلك ثورة ١٤ تموز / يوليو ١٩٥٨ والتي تدلنا جملة من المتابعات الدقيقة ، علاقة عدة أطراف بها ، وان الولايات المتحدة الأمريكية كانت تتوقع حدوثها مع أطراف عدة منها عربية وإقليمية ، ومنها : مصر والأردن وتركيا وإيران ولبنان (وأعتقد قبلهم كلهم كانت هناك اسرائيل) بدليل الإشارات والتنبيهات التي كان قد أثارها كل من : جمال عبد الناصر والملك حسين والشاه محمد رضا بهلوي وكميل شمعون وغيرهم . ومن سوء حظ قادة العراق في العهد الملكي أنهم لم يستمعوا لمعلومات هؤلاء ، ولم يصدقوها . . بل ولم يتخذوا أي احتياطات لها . . فأخذتهم العملية على حين غرّة !

أسرار منكشفة لم يلتفت اليها العراق !

إذا كان جمال عبد الناصر يذيع تهديداته كل يوم عبر صوت العرب وأحمد سعيد الذي كان يسمعه عبر أجهزة الترانسستور كل من كان في العراق وحتى أولئك الذين في المدن والريف والبوادي . . فان الملك حسين نبّه رئيس أركان الجيش العراقي الفريق الركن رفيق عارف وحذره بعد أن استدعاه الى الأردن يوم ١٠ تموز / يوليو ١٩٥٨ وأخبره إلى أن حركة

---

* اشير في هذا الباب الى كتاب مهم :
Lionel Gelber, *American in Britain's Place: The Leadership of the West and Anglo - American Unity* (New York: Frederick A. Praeger, 1961).

عسكرية ستطيح بالنظام الملكي بالعراق ، وانقلابا يفترض وقوعه في العراق والأردن في منتصف تموز . . فأجابه بأن في العراق مؤسسة عسكرية تقوم على تقاليد متينة لا دخل لها في السياسة ، وان جيش العراق هو أفضل جيش في الشرق الأوسط ، اذ لم يعرف المشكلات ولا التغييرات والخوف على الأردن لا على العراق ، والأحرى بنا أن نقلق على مصير الأردن ! يتابع الملك حسين في كتابه «مهنتي كملك» فيقول : «فصحت به ولكن لابد أن تفهم خطورة الموقف والتهديد الذي سيلقي بثقله على العراق أيضا* . .

وعندما كان الأمير عبد الاله يزور استانبول ، انفرد به الشاه محمد رضا بهلوي ونبهه الى ان خطة عسكرية عراقية موجهة من الخارج ستطيح بالنظام الملكي في العراق . . فلم يلتفت اليه عبد الاله مستخفا بذلك نظرا لثقته بجيش بلاده وولاء قادته للعرش . . وثمة برقية محفوظة في وزارة الخارجية العراقية تحدّث عنها الدكتور هاشم جواد وزير خارجية عبد الكريم قاسم لاحقا ، أرسلت هذه البرقية من السفارة العراقية في بيروت قبيل حدوث ثورة تموز ١٩٥٨ الى وزارة الخارجية العراقية بناء على طلب مستعجل من كميل شمعون رئيس الجمهورية اللبنانية وقبل الثورة بشهر واحد تقريبا تحذر النظام من احتمال حصول انقلاب في بغداد عند حركة الجيش الى الأردن ، وأن معلوماته مستقاة من مصادر الفاتيكان . وتكتفي الحكومة بالرد على السفارة بنفي ما جاء بالبرقية ويطلب وزير الخارجية فيها طمأنة شمعون !

السؤال الآن : كيف عرف هؤلاء الملوك والرؤساء المحيطين بالعراق بكل ما يعد للعراق من خطط ، وما سيجرى من تغييرات وبالتوقيت المضبوط ؟ وما هو قياس او تفسير عدم اكتراث نظام الحكم ببغداد بكل تلك التحذيرات ؟ هل كان هناك من وقف ليطمئنهم ؟ أم أنهم أنفسهم كانوا مطمئنين للوضع بالداخل ؟

لقد تحققت كل التوقعات والمعلومات في لحظة تاريخية حرجة فاصلة ، ذلك لان النظام الملكي في العراق كان قد أوصل نفسه إلى نهايته الحقيقية ولم يكن ينتبه على مدى

---

* الملك الحسين (ملك المملكة الاردنية الهاشمية) ، مهنتي كملك : احاديث ملكية ، نشرها بالفرنسية : فريدون صاحب لجم ، ترجمة : غازي غزيل ، مراجعة : محمد عزت نصر الله (عمّان : الاهلية للنشر والتوزيع ، ١٩٨٧) . ص ١٥٤ .

سنتين ١٩٥٦ - ١٩٥٨ إلى جملة المتغيرات السريعة التي كانت تحدث في المنطقة، بفعل المؤثرات الامريكية والتي يتحمل مسؤولية تجاهلها رجل العراق في النصف الأول من القرن العشرين: نوري السعيد الذي بقيت فكرة بريطانيا العظمى مسيطرة على تفكيره حتى آخر لحظات حياته*! واعتقد بان المستقبل سيكشف للأجيال القادمة عن رؤى جديدة في تفسير تلك «المتغيرات» التي كانت الولايات المتحدة الأمريكية تقف من ورائها ليس بدعوى مبادئ الحرية التي تقوم عليها الديمقراطية الأمريكية - كما جاء على لسان السفير المصري مصطفى كامل - ، بل سعيا لتحقيق المصالح القومية للولايات المتحدة الأمريكية أولا وأخيراً . . فليس من السهل قبول ما قاله هذا السفير لايزنهاور: «وان أماني ناصر والشعوب العربية صيغت على غرار مبادئ الحرية التي تقوم عليها الديمقراطية الأمريكية» (سنوات الغليان، ص ٣٩٠) .

العراق في مواجهة الرياح العاتية: مطلوب الحيادية في فهمه

كم كنت أتمنى أن يقرأ محمد حسنين هيكل كثيراً عن العراق ورجالاته وأوضاعه وتواريخه قبل أن يغامر بالكتابة عن ذلك، وبرغم أن الرجل لم يحاور أو يجري لقاءات مع زعماء وساسة عراقيين، إلا انه ينقل أيضاً عن بعضهم آراء وتصريحات وأوصاف وحكايات وقد أعطى هيكل اهتماماً كبيراً بالعراق في كتابه «سنوات الغليان» لانه أدرك - كما هو حال كل من عاش الأحداث على مدى خمسين عاماً الماضية - بان الغليان في اغلبه الأعم قد كان في العراق الذي ينفرد بين دول المنطقة أجمع بثقل أحداثه، وحدة تاريخه، وعنف وقائعه ليس لأنه استثناء عن القاعدة، بل لان مجاله الحيوي وجيوستراتيجيته القوية وثرواته الهائلة كانت سبباً في أن يكون دوماً في مواجهة الرياح العاتية! .

وكم نتمنى على محمد حسنين هيكل وعلى غيره من الكتاب والصحفيين العرب أن يكونوا حياديين وموضوعيين في تناول حياة العراق ودراسة أحداثه ومشكلاته وزعمائه وأوضاعه بعيداً عن العواطف والعشق والهيام من جانب أو عن الكره والدس والافتراء من

---

* راجع:
Humphrey Trevelyan, *The Middle East in Revolution* (London: Mc Millan & Co. 1970), pp. 169 - 181.

جانب آخر ، أو المتاجرة بكلماتهم وكتاباتهم ومقالاتهم وصحفهم في الوقوف دوما مع من يدفع أكثر . . كما شهدت الصحافة العربية في مواقفها من قضايا العراق سواء في الدعاية لبعض أنظمة الحكم فيه أو في الهجوم عليه وعلى كل من يمت بصلة له !! ولعل خير وسيلة عملية يمكنها أن تخدم الدارسين والكّتاب والمحللين لأوضاع العراق وتواريخه المعاصرة الصعبة سواء كانوا من العرب أم من العراقيين أنفسهم : نزع الأثواب الأيديولوجية والسياسية ، وهي الطريقة التي يمكنها أن تجعل صاحبها حيادياً في قياس الأمور والرجال والأحداث في العراق .

هيكل ورجال العراق : عبد الكريم قاسم (نموذجا) :

لقد كتب محمد حسنين هيكل عن الزعيم العراقي عبد الكريم قاسم ١٩١٤ - ١٩٦٣ والذي حكم العراق ١٩٥٨ - ١٩٦٣ بعد أن قاد الثورة العسكرية ضد النظام الملكي في ١٤ تموز / يوليو ١٩٥٨ وكم كان بودي لو ابتعد هيكل في كتابته تاريخ هذا الرجل عن عواطفه السياسية إزاءه ، وأنه كتب عنه بتجرد وموضوعية والتي لا يمكن أن تكون إلا بالتمكن من المعلومات العراقية الصحيحة بعيداً عن المعلومات الخارجية المغلوطة ! وسأحاول أن أكون موضوعياً وحيادياً ما استطعت في نقد ما كتبه هيكل عن عبد الكريم قاسم ، علماً بأنني لم اكن في يوم من الأيام لا مع قاسم في سياسته ولا مع غيره من الحكام ! فمشكلة العراق ليست في حكامه فقط ، بل تكمن المشكلة الحقيقية في حكمه وأسلوب ذلك «الحكم» وفن إدارة هذه البلاد الصعبة التي يستعصي فهمها على الآخرين ، وكان في مقدمتهم جمال عبد الناصر الذي تغيرت مواقفه ازاء العراق من كل نظام سياسي يأتي لحكمه . . وخبر مع الزمن مشكلات العراق وتعقيداته الاجتماعية والسياسية الصعبة .

ورحم الله عالم الاجتماع العراقي المعروف علي الوردي الذي فهم طبيعة المجتمع العراقي وأوضح تناقضاته والتي يصعب على الغير فهمها* ، ذلك أن أهل العراق بقدر ما يعطون ولاءهم لحاكمهم بسرعة بقدر ما يسحبون منه ذلك الولاء بسرعة أيضا !! وبقدر ما

* علي الوردي ، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي : محاولة تمهيدية لدراسة المجتمع العربي الاكبر في ضوء علم الاجتماع الحديث ، ط١ (بغداد : مطبعة العاني ، ١٩٦٥) .

يحبون ويعشقون بقدر ما يكرهون ويمقتون !! وبقدر ما يتمكن العقل والحكمة والإبداع فيهم بقدر ما يتمكن الهياج والعواطف والتحرّق في أعماقهم ، وبقدر ما ألّهوا حكامهم وملوكهم وقدسوا زعماءهم بقدر ما أهانوهم في كرامتهم ومثلوا في أجسادهم وبعثروا قبورهم !! ولم نشهد أي وزير عربي أو غير عربي يطعن في قدر زعيمه وحاكم بلده أمام الآخرين بعد أيام من الإتيان به مسؤولا ، كي يكون ذلك أمثولة للتندر من قبل كتّاب مثل محمد حسنين هيكل وغيره ، علما بأن ذلك «الوزير» كان أحد الذين روّجوا لحكم الثائرين ضد حكم المؤسسات على امتداد سنوات طوال !!

يبدأ هيكل موضوعه «قاسم وانقسام» بقوله : «كان عبد الكريم قاسم شخصية من اغرب الشخصيات التي ظهرت على مسرح السياسة العربية الحديثة ، ولعل الأستاذ صديق شنشل لم يخطئ كثيراً عندما وصفه مبكراً في دمشق بأنه نصف مجنون ولقد بدت تصرفاته منذ اللحظات الأولى مثيرة للجدل ، فقد شاع فيها نوع من الانفصام يصعب تحليله أو تعليله» (سنوات الغليان ، ص ٤١٧) . . .

وكم كنت أتمنى أن يطلع هيكل على تفصيلات تاريخية مفصلة عن حياة عبد الكريم قاسم وعن سيرته الشخصية ، وما اتصف به الرجل من النزاهة والإخلاص في اداء الواجب والمثابرة وتقديس المال العام وقراءة مبسطة من هيكل للكتاب الوثائقي التي جاء بعدة مجلدات عن عبد الكريم قاسم والذي ألفه العميد المتقاعد خليل إبراهيم حسين والذي جمع وثائق وشهادات لا تحصى بحق عبد الكريم قاسم* ، ستمنح هيكل وغيره من الناس الفرصة لمراجعة تفكيرهم بشأن هذا الرجل اللغز المحير الذي حكم العراق على مدى أربع سنوات ونصف السنة ، وسيبتعدون حتماً حتى عن إطلاق الأحكام السريعة عنه ، وسيكفون عن ترديد ما قاله صديق شنشل أو غيره بحق عبد الكريم قاسم أو غيره من زعماء العراق .

هل كان عبد الكريم قاسم مجنونا أم نصف مجنون ؟

لم يكن عبد الكريم قاسم مجنوناً أو نصف مجنون ، بل كان يتمتع بكامل قواه العقلية.

---

* وعنوان الكتاب : اللغز المحير عبد الكريم قاسم ، وأخص بالذكر الجزء السادس منه ، ط١ ، والمطبوع ببغداد عام ١٩٨٩ .

مقارنة بزميله ورفيق الثورة التي أشعلها : عبد السلام عارف الذي ما زال محمد حسنين هيكل معجباً به ، وبطبيعة الحال ، لا يمكن إجراء أي مقارنة بين الاثنين ، وكل من قارن بينهما وجد فروقات عريضة من التناقضات التي حكمتهما ! فبرغم السنوات الست التي يكبر قاسم فيها عارف ، وان الأول كان أستاذا للثاني في الكلية العسكرية ، وان الأول قد اشترك في وقائع متعددة منها عمليات له في حرب ١٩٤٨ بفلسطين التي أبلى فيها بلاء حسناً فضلاً عن ثقافته العسكرية وإمكاناته الخفية في بناء علاقات مع القادة السياسيين قبل الثورة ناهيكم عن ديماغوجيته الذكية في استخدام أعلى درجات «التقّية» بأن يعلن عكس ما يبطن أمام المسؤولين الكبار في العهد الملكي وكسب ثقة الرجل الأول نوري السعيد من خلال ولائه له وانصياعه الكامل لأوامره ، وبالوقت نفسه : استخدام ذكائه في اختراق جماعات عدة من الضباط الأحرار ، وتخطيطه السري في تنفيذ حركته عام ١٩٥٨ التي هزت العالم هزا شديدا . .

ولقد أبى - كما تدل على ذلك الدراسات التاريخية الحديثة - إلا أن يبقي مسلسل الدماء فائرا بقراره هو وعبد السلام عارف بتصفية زعماء العراق السابقين دمويا ، فقد أبقى من جاء للحكم من بعده العمل بنفس المسلسل ، اذ تمت تصفيته مع رهطه وحاشيته في دار الإذاعة العراقية . . وكما لم يجد تراب العراق مكانا يحتضن فيه جدث نوري السعيد ، لم يجد تراب العراق نفسه مكانا يضم فيه رفاة عبد الكريم قاسم . . وانني أتساءل اليوم : هل كان العراق بحاجة الى ذلك المسلسل الذي لم يخدم الا أعدائه والطامعين فيه والحاقدين عليه ؟؟

وبالرغم من أخطاء عبد الكريم قاسم السياسية الجسيمة التي بدأ بها حكمه ودفع حياته ثمناً تعيساً لها ، وبرغم إخراج العراق عن طور الاستقرار الذي كان يتمتع به والسمعة الدولية التي كان يلقاها في العالم منذ د   خوله عضواً في عصبة الامم عام ١٩٣٢ ، إلا ان قاسم قدّم بعض الخدمات الاجتماعية للعراقيين الذين يذكر المؤرخ مجيد خدوري عنهم انهم لم يمنحوا حبهم لزعيم من قبله أبدا *! ولقد آثر أن يتلقى الرصاص غير معصوب العينين بأيدي

* مجيد خدوري ، العراق الجمهوري ، (مترجم عن الانجليزية) ، بيروت ، ١٩٧٤ . انظر الأصل :
Majid Khadduri, *Republican Iraq* (New York: Oxford University Press, 1969), pp. 66 - 81.

خصومه . . وكان باستطاعته أن يضع بيده نهاية لحياته قبل أن يسلّم نفسه لهم ، وهذه كانت إحدى نقاط ضعفه ، فأعدم بعد أن افتقد كرامته وهيبته أمام جلاديه وأمام العالم كله . . لكي يأتي محمد حسنين هيكل بعد أكثر من ربع قرن على تلك النهاية لينشر صورته المهينة وقد سقط على الأرض مضرّجا بدمه ومتدليا من كرسيه التي أعدم عليها ، وبعد أن افتقد شرفه العسكري من قبل خصومه العراقيين أنفسهم ، اذ قام أحد الجنود العراقيين بعد اعدامه بامساكه من خصلة شعره ورفع رأسه وبصق في وجهه !!

وهذا العمل لا يمكن ان يجري في بلاد تحترم نفسها ! وبقدر ما أدان العراقيون أنفسهم تلك الاعمال سواء باعدام الاسرة المالكة العراقية فجر يوم ١٤ تموز / يوليو ١٩٥٨ الذي يتحمل مسؤوليته كل من عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف ، فهم يدينون أنفسهم أيضا باعدام عبد الكريم قاسم بتلك الطريقة المهينة ظهيرة يوم ٩ شباط / فبراير ١٩٦٣ . . ولكن اذا كان بعض الناس في الغرب والشرق قد أقاموا صلاة الغائب على حكام العراق الذين انتهوا نهايات بشعة ، فان المتفرجين العرب كانوا يتمتعون بهكذا مسلسل سيسجله التاريخ بمنتهى القرف ! وبقدر ما هلل احمد سعيد في اذاعة صوت العرب لسفك دم نوري السعيد ، هلل لسفك دم عبد الكريم قاسم !

ومن الغريب ، أن عبد الكريم قاسم أعدم برصاص حلفائه الجمهوريين بالأمس القريب وليس بثأر الحكام القدماء من خصومه الملكيين . وبعد كل هذا وذاك ، فهل كان الرجل مجنوناً أم نصف مجنون؟ وهل كان هو وحده المسؤول عن الانقسام السياسي في العراق ؟ واذا كان العراقيون لهم مشاكلهم السياسية الخاصة في ما بينهم يا هيكل والتي لم تستطع أن تفهمها أبدا ، فهل هناك ثمة داع للتشفّي من زعيم عراقي ومصيره كنت قد أعترفت في كتابك نفسه عن حجم الدعم والمساندة والتدخلات المصرية بشأن العراق ، وكتبت معلومات عن علاقات الضباط الاحرار العراقيين بنظام جمال عبد الناصر . . كما ذكرت بأن ثمة تنسيق قد جرى بين عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف من طرف وبين نظام الجمهورية العربية المتحدة من طرف آخر !

نهاية عبد السلام عارف:

ولم تكن نهاية عبد السلام عارف عام ١٩٦٦ ، أفضل من نهاية رفيقه قاسم ، فقد احترق عارف نهائيا بعد سقوط طائرته العمودية قرب البصرة بطريقة غامضة لم يكشف عن تفاصيلها حتى يومنا هذا عدا الاعلان الرسمي الذي عزا الحادثة بسبب هبوب عاصفة رملية اسقطت طائرة الرئيس وحدها من ضمن ثلاث طائرات عمودية حَطت كل من الاثنتين سالمة على ارض مطار البصرة . . ولكن ثمة سابقة خطيرة في تاريخ العرب والمسلمين قاطبة ، اذ دفن ما تبقى من جسد عبد السلام عارف بهيبة عسكرية ومدنية عراقية لكي توضع نسخة من القرآن الكريم معه في قبره ! ولما اجتمع المسؤولون العراقيون ليلا لانتخاب رئيس لجمهوريتهم ، وصل عبد الحكيم عامر مبعوثاً من قبل عبد الناصر على متن طائرة خاصة عبد الحكيم عامر ليدخل الاجتماع ، ويفرض أسم عبد الرحمن عارف أخا الرئيس المتوفى ، وكان رئيسا لأركان الجيش العراقي(بالوكالة كونه لا يحمل رتبة أركان حرب) ، فيغدو رئيسا للجمهورية العراقية بتحقيق رغبة جمال عبد الناصر !*

الزعيم الأوحد عبد الكريم قاسم:

يقول محمد حسنين هيكل : «وبدا عبد الكريم قاسم وكأن كل ما يعنيه هو تدعيم سلطته الشخصية بحيث ينفرد وحده بالسلطة في العراق ، وقد اختار لنفسه في ذلك الوقت لقب الزعيم الأوحد ، وأدى ذلك الوضع إلى مضاعفات سيئة على القمة العراقية» (سنوات الغليان ، ص ٤١٨) .

لكل زعيم أمة أخطاؤه وخطاياه ، ولكل زعيم ألقابه وسلطاته ولست في موضع للدفاع عن عبد الكريم قاسم الذي كان وراء جر العراق إلى مآس عديدة حاسبه عليها معاصروه ورفاقه ، وربما ستحاسبه الأجيال القادمة من أبناء العراق! فهو زعيم عراقي سجل تاريخا من نوع جديد للعراق ولابد أن يعتني بشأنه المؤرخون العراقيون قبل غيرهم مستقبلاً . . ولكن لكل فعل رد فعل يعاكسه في الاتجاه إذ أن أسئلة عديدة تقف باحثة لها عن أجوبة حقيقية

* ومن المفيد مراجعة ما كتبه حنا بطاطو في كتابه الذي ذكرناه سابقا ـ بالإنكليزية ـ ص ١٠٠٤ ـ ١٠٨٧ .

يا هيكل : من ذا الذي دفعه للانفراد وحده بالسلطة كي يغدو دكتاتوراً ؟ ثم هل كان هو الدكتاتور الوحيد على الأرض العربية ؟ ومن ذا الذي دفعه إلى أن يقبل لقب «الزعيم الأوحد» ويشيعه إعلاميا بين الناس ؟ ـ وهو اللقب الذي جاء بتسمية من الأديب العراقي واللوذعي السياسي الموصلي الشهير يونس بحري رداً على زعامة عبد الناصر ، وقد عرف العرب يونس بحري عندما كان يذيع من اذاعة «حي العرب» الموجهة من ألمانيا الهتلرية ايام الحرب العالمية الثانية ، وقد تقلبت به المقادير ليقف أمام محكمة المهداوي وليعفو عنه قاسم ويغدو أثيرا عنده ، وما أن ينتهي حكم قاسم حتى يشرع يونس بحري بنشر كتاب عنوانه : «ثورة ١٤ رمضان المباركة / ٨ شباط ١٩٦٣» ويسم قاسم بالنعوت القاسية ، بل لينشر فيه صورته للعراقيين بعد اعدامه مباشرة والتي سيأخذها من كتابه محمد حسنين هيكل - ، فينشرها في «سنوات الغليان» فيعممها على العالم أجمع !

ألم يكن ذلك رداً على مصر والسياسة المصرية التي كانت تعلن على رؤوس الأشهاد أنها تتدخل في الشؤون الداخلية العربية بسبب وازعها القومي وأيديولوجيتها الناصرية ؟! وهل هو الذي بدأ المهاترات أم رفيقه في تفجير الثورة عبد السلام عارف الذي راح بعد أربعة أيام فقط منها يكيل له شتى التهم والنعوت ويلصق به الأوصاف السيئة! وأنه لا يحتاج إلا لطلقة بأربعة فلوس . . وكل ذلك يجري أمام جمال عبد الناصر الذي لا ادري هل دهش وأستغرب ، أم أعجب ، أم استنكر ، أم استهزأ من تصرفات عارف؟ أم أنه بدأ يضحك على الاثنين معا ؟

التقارير الخاطئة الخادعة :

وعندما يروي محمد حسنين هيكل قصة الافتراق بين قاسم وعارف ، يجعل هذا الأخير إنسانا وديعاً اليفاً ، وان قاسم هو الذي أقصاه عن مناصبه عن عمد وان ما يأتي به هيكل من قصة ذلك «الإقصاء» (سنوات الغليان ، ص ٤١٨) ليست فيه المعلومات الصحيحة ابداً ، ولا ندري من أين أتى بهذه القصص ! يشير هيكل في الهامش رقم (٤) الصفحة (٤٢٠) من «سنوات الغليان» انه اعتمد في تدبيج معلوماته عن عبد الكريم قاسم على تقارير السفير المصري في بغداد السيد أمين هويدي ، وهي حافلة بالوقائع والتفاصيل -

هكذا يقول هيكل - وكذلك تقارير السيد عبد المجيد فريد الملحق العسكري في بغداد يومئذ ، والجزء الأكبر من أصول هذه التقارير موجود الآن في جهة واحدة ، وهي أرشيف هيئة المخابرات العامة (المصرية) .

ويبدو من خلال مقارنة ما تضمنته هذه التقارير مع ما نشر الى حد اليوم من وثائق عراقية صرفة . . أن معلومات تلك «التقارير» خاطئة . . وأنني أسأل : اذا كان جمال عبد الناصر نفسه قد أعتمد على تلك «التقارير» في معلوماته عن العراق ، فقد كان الرجل قد جهل الكثير من الوقائع والأحداث الحقيقية . . فضلا عن كونه قد انخدع كثيرا في معرفة حقائق ومعلومات ليس عن العراق لوحده ، بل عن بقية أقطار وطننا العربي الكبير . . وهذه مسألة خطيرة جدا في تسجيل تاريخ عبد الناصر ، وستكون هذه المسألة وغيرها من المسائل الحيوية بحاجة الى دراسات وثائقية مقارنة بصدد فهم حقيقي لطبيعة العلاقات العربية العربية التي عاشت في أسوأ حالاتها ابان النصف الثاني من القرن العشرين .

السؤال المهم: هل كانت ثورة تموز ١٩٥٨ عربة في قاطرة أمريكية؟

عودة أخرى من جديد لبعض «الأوراق» التي أعتمد عليها هيكل فأقول بأن : قصاصات ورق ليست ذات أهمية كهذا «التقرير» اليتيم !! وأسالك : ما السبب الذي دعاك أن تأتى بهكذا «نصوص» للمخابرات المركزية الأمريكية عن ثورة ١٤ تموز العراقية عام ١٩٥٨ قبل وقوعها فمن يقرأ بإمعان سيجد بما لا يقبل مجالا للشك أن ثمة تعاوناً واضحاً بين مدير العمليات العسكرية في الجيش العراقي وبين الملحق العسكري الأمريكي !؟ وهذا وحده يكفي لالقاء تهمة خطيرة على قادة ثورة ١٤ تموز / يوليو ١٩٥٨ ، كونهم نجحوا في إخراج سيناريو أمريكي ضد السياسة البريطانية في العراق . وما دام ـ حسب الذي جئت به من معلومات عن اتصالات جمال عبد الناصر بكل من عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف قبل الثورة بواسطة عبد الحميد السراج ، وهي اتصالات أكدتها شهادات وتقارير عديدة . .

معنى ذلك ، كما تريد قوله ، أن عبد الناصر ضالع في الخطة الأمريكية لتغيير النظام السياسي الملكي في العراق . . كما أن تقارير جمال حماد الملحق العسكري المصري في بغداد تفيد بأن جمال عبد الناصر بدأ منذ مجيئه للحكم عام ١٩٥٣ بالعمل على تغيير ذلك

«النظام» ، وليس عام ١٩٥٥ الذي وقّع فيه العراق ميثاق ـ حلف بغداد مع حلفائه الإقليميين ! ان هذه «المسألة» بحاجة ماسة للمزيد من البحوث التاريخية والتوثيقية التي تكشف بطبيعة الحال ليس عن هوية ثورة الرابع عشر من تموز / يوليو في العراق عام ١٩٥٨ فحسب ، بل أيضا عن خفايا ثورة الثالث والعشرين من تموز / يوليو عام ١٩٥٣ . . والكشف عما أراد قوله محمد حسنين هيكل ، وتحليل التناقضات التي وقع فيها . . وهي مسألة بمنتهى الخطورة عندنا نحن المؤرخين ، فكيف هي اذن عند الزعماء العرب اليوم الذين يتشوقون جداً لمعرفة كل ما حدث على درجة عالية من الوضوح والمعلومات المؤكدة .

إنني أخص مسألة - جاء بها هيكل - ربط مجمل التغييرات المهمة التي جرت في المنطقة العربية إبان الخمسينيات بكل من مشروعات روزفلت في نهاية الأربعينيات وايزنهاور في نهاية الخمسينيات ! وثمة معلومات صرّح بها تحسين قدري رجل البلاط المعروف عن محاولات أمريكية لتغيير النظام في العراق ، إذ كان الأمريكان قد اتصلوا بأمير اللواء الركن غازي الداغستاني قائد الفرقة الثالثة لتولي الحكم بانقلاب عسكري يبعد فيه الامير عبد الإله ونوري السعيد وتولي الأمير زيد ولاية العهد . . وكان الداغستاني برغم استيائه من الوضع السياسي ايامئذ ، لكنه تلكأ ولم يجازف بهكذا مغامرة ، وان الطبخة لم تنضج اذ سبقتها حركة انقلاب عبد الكريم قاسم !

ان مجرّد التفكير في أن تكون الولايات المتحدة الأمريكية وراء ثورة ١٤ تموز / يوليو ١٩٥٨ في العراق شيىء لا يقبل التصديق . . علما بأن الشيوعيين اتهموا ثورة ١٤ رمضان الموافق ٨ شباط /فبراير ١٩٦٣ أنها : «ناصرية أمريكية» (انظر : «سنوات الغليان» ، ص ٦٧٩) . لكنهم لا يقبلون أن توصف ثورة ١٤ تموز / يوليو ١٩٥٨ ناصرية أمريكية هي الأخرى !

ميثاق - حلف بغداد: هل كان بديلا قويا أم هشا؟

طالما ذكره هيكل في كتبه ، وكتب اسمه ، وردود الفعل حوله ، ولكنه لم يحلل لنا ولو لمرة واحدة طبيعة هذا «الميثاق/ الحلف» ،وتاريخه . . ذلك أن هذا «الميثاق» الذي أعلن في نهاية عام ١٩٥٤ ، كان في البداية اتفاقاً ثنائياً بين العراق وتركيا على توقيع ميثاق للمساعدة

المتبادلة بين الطرفين . . ولعل أول رد فعل جاء من جمال عبد الناصر الذي أعلن معارضته صراحة لأي تحالف بين أية دولة عضو في ميثاق الضمان الجماعي العربي وبين أية دولة أجنبية . . وقد أوضحت مصر أنها تعارض ارتباط الدول العربية باتفاقيات ثنائية أو جماعية مع دول عربية إسلامية كانت أو غير إسلامية . . وعلى أثر صدور البيان المشترك في ١٩٥٥/١/١٣ ببغداد بين العراق وتركيا ، بدأت مصر بشأن حملة سياسية وإعلامية صارخة ، إذ وجه رئيس الوزارة المصرية في ١٩٥٥/١/١٦ ، دعوته إلى رؤساء الحكومات العربية الاجتماع في القاهرة بتاريخ ١٩٥٥/١/٢٢ ، وقد استهدفت مصر : عزل العراق سياسياً عن البلاد العربية ، واقناع الدول العربية بعدم الانضمام إلى هكذا اتفاق . .

وبدأ الصدام الحقيقي بين السياستين العراقية والمصرية وقد أعلنت مصر أن ميثاق الضمان الجماعي يعتبر منتهياً ، وان البديل يتمثل بعقد اتفاقيات ثنائية بينها . . وعلى الرغم من الحاح الحكومة المصرية على لوم العراق كونه وقع ميثاقاً مع تركيا ، معتبرة إياه خرقاً لميثاق جامعة الدول العربية ؛ وعلى الرغم من طلب مصر من المجتمعين العرب أن يعلنوا «بأن ذلك يعتبر مناقضاً لميثاق الجامعة العربية ، وان التحالف مع تركيا يعني التحالف مع إسرائيل» . . . . . .

ألا ان المؤتمرين لم يتوصلوا إلى أي اتفاق ، ولم يصدر أي قرار ، برغم مشاطرة الدول العربية لمصر معارضتها للميثاق العراقي ـ التركي . ولكن العراق وحكومته لم يلتفت إلى الهيجان المصري ، بل تم التصميم على ان يوقع على الميثاق يوم ٢٤ شباط/ فبراير ١٩٥٥ ، فبدأت الإذاعات المصرية تشن حملات قاسية جداً ضد العراق . . وبدأ المذيع أحمد سعيد منذ ذلك الوقت يستخدم لغة دعائية مهينة باللغة العربية ضد العراق ـ وسيستخدمها ضد الأردن والسعودية وسوريا وتونس وغيرها ـ ، والتي سيتندر عليها أحفادنا في المستقبل ، بل سيكتشفوا جميعا أن أساليب الحرب الباردة العربية من خلال الإذاعات ساهمت الى حد كبير في التمزقات العربية والنتائج التي آلت إليها الأوضاع العربية عند نهايات القرن العشرين .

موقف عبد الناصر من حلف بغداد :

وكان للرئيس جمال عبد الناصر أسبابه في معارضة حلف بغداد ، اذ يكتب رضا

احمد شحاته في اطروحته المتميزة ، قائلاً : «فماذا كانت الدوافع التي تحفز عبد الناصر لمعارضة هذا الحلف وتكمن وراء هجومه ؟ يمكن في ضوء استقراء السلوك السياسي المصري آنئذ إيجاز هذه الدوافع في مجموعة من الاسباب أولها : ان عبد الناصر في المقام الاول كان معارضاً لسياسة التحالف بين القوى الكبرى والدول الصغرى لانه كان يعني عدم التكافؤ ويتيح مجالا للسيطرة والهيمنة وفرض النفوذ ، ومن ثم كان هذا الحلف في نظره ضربة للتضامن العربي خاصة وان الحلف يسيطر عليه الغرب بعدما تأكد بانضمام بريطانيا له في ابريل / نيسان ١٩٥٥ ، مما زاد في معارضة عبد الناصر له» .

ويستطرد رضا شحاته قوله : «ومن الاسباب الاخرى الكامنة وراء معارضة عبد الناصر للملف حرصه على قيادة مصر للعالم العربي حيث كان الدعم الامريكي البريطاني لنوري السعيد يتيح له معونة عسكرية ومالية ويقوي مركز العراق في مواجهة القوى العربية الاخرى كما كان عبد الناصر يدرك ان حلف بغداد يؤثر في زعامته للعالم العربي . . .»*

إجابات الساسة العراقيين عن موضوع « الميثاق / الحلف »:

ويكتب العديد من الساسة العراقيين في مذكراتهم عن هذا « الموضوع» الذي قادت ردود الفعل ضده إلى عدة انقسامات ونتائج في المحيط العربي . . إذ تتضمن كتاباتهم عدة إجابات على أسئلة طرحها ومازال يطرحها الكثيرون عن أسباب إصرار نوري السعيد على تلك «السياسة» التي اتبعها سواء ما قبل أو ما بعد معارضتها من قبل مصر . . إذ تؤكد اغلب الإجابات والشهادات التي كتبها رجالات العراق القدامى الذين عاصروا نوري السعيد وأشتغلوا معه ، أمثال : توفيق السويدي وعلي جودت الأيوبي وفاضل الجمالي وأحمد مختار بابان وخليل كنّه** وغيرهم على ان نوري السعيد كان يؤمن بسلامة سياسته ، كما كان

* راجع : رضا أحمد شحاته ، تطور واتجاهات السياسة الخارجية الامريكية نحو مصر منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥ حتى انتهاء حرب السويس ١٩٥٦ (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٥) : ص ٣١٠ - ٣١١ (والحق يقال ان اطروحة رضا شحاته من الكتب المتميزة في تاريخنا العربي المعاصر باعتمادها على الوثائق اعتماداً اساسيا) .

** راجع الكتب التالية :

- توفيق السويدي ، مذكراتي : نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية ، ط١ (بيروت : دار الكاتب العربي ، ١٩٦٩) . ==

يؤمن بأنه هو المسؤول عن سلامة بلاده خارجياً ، وعن أمن بلادة داخلياً ، وان ليس من حق أحد كائناً من كان أن يتدخل في شؤون بلاده ويوجهه وجهة لا يرضاها . .

كما دلت مناقشاته في مصر مع جمال عبد الناصر اثناء زيارته لمصر ، أو تلك التي جرت في مصيف سرسنك بالعراق مع صلاح سالم مبعوث جمال عبد الناصر إلى ان العراق هو غير مصر ، وان دولتين إسلاميتين كبيرتين تجاورانه في الشمال ومن الشرق ، هما تركيا وإيران . . وفي شمال بلاده ينتشر مواطنيه العراقيين من الأكراد والتركمان والآثوريين والاقليات الأخرى الذين لابد أن يبقى ولاؤهم للدولة العراقية ويرتبط مصيرهم بها إلى الأبد . .

وعليه ، فإن وضع العراق جيوبوليتيكياً يتطلب منه ان يؤسس حزاماً إقليميا من السلم والأمن لكسب الداخل اولاً ، ولكسب الجيران ثانياً . . وان لا اتفاق إقليمي أو ميثاق ثنائي أو ثلاثي في هكذا منطقة يمكن أن يضمن نجاحه وتفعيل بنوده بدءاً بالجانب السياسي والعسكري وانتقالا إلى الجوانب الأخرى . . . إلا أن يكون برعاية النظام الدولي . . وكان نوري السعيد يؤمن متوهما بأن أفضل من يمثّل ذلك هم الإنكليز الذين انضموا إلى عضوية الحلف . . دون أن يدرك بأن ثمة تحولات جذرية قد أصابت النظام الدولي بعد الحرب العالمية الثانية ، ورجحت الكفة لصالح قوة الولايات المتحدة الأمريكية . . وعبثا حاولت معه مدرسة فاضل الجمالي التي كانت مؤيدة للعمل السياسي الخارجي في إطار التوجهات الأمريكية !

حلف بغداد: إقليمي وليس دولياً

وعليه ، فإن ميثاق بغداد الذي وجد بين العراق وتركيا اولاً ، التحقت به كل من إيران والباكستان وبريطانيا وبعد مرور أكثر من ثلاث سنوات انضمت إليه أمريكا . . ولقد تذرّع

== - علي جودت الايوبي ، ذكريات ١٩٠٠ - ١٩٥٨ (بيروت ، ١٩٦٥)
- محمد فاضل الجمالي ، العراق الحديث (بيروت ، ١٩٦٩) .
- أحمد مختار بابان ، مذكرات (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٩٩) . قدمها وعلق عليها : كمال مظهر أحمد .
- خليل كنه ، العراق : أمسه وغده (بيروت ، ١٩٦٤) .

هذا الميثاق الذي غدا حلفاً دولياً استعمارياً - كما وصف منذ ذلك اليوم وحتى الان - بحجة تأسيس حزام آمني من هذه الدول ، لكي يحول دون تغلغل الشيوعية وانتشارها في المنطقة العربية وعموم الشرق الأوسط . . ولم يأت انضمام الولايات المتحدة إلى عضوية الملف إلا متأخراً ، إذ يقول سفيرها في بغداد ولدمار غولمان : «كان نوري يلح على اشتراكنا فيه (أي : الحلف) . . وقال نوري (باشا) بأن دخول الولايات المتحدة في الميثاق سيظهر لموسكو بوضوح شعور الولايات المتحدة تجاه جهودها لأحداث الفوضى في الشرق الأوسط ، كما سيرفع من قوة الأعضاء الذين سبق لهم إن اشتركوا فيه وقد يكون لها تأثير حاسم أيضاً على البلدان المترددة كالأردن ولبنان . . . .»*

تياران خفيان متنازعان في العراق :

لقد بقي العراق يتنازعه تياران سياسيان قويّان خفيان في سياسته أبان الأيام الأخيرة في الحكم الملكي ، وهما :

١ - تيار نوري السعيد الذي بقي يعتقد أن تأثير بريطانيا لم يزل قوياً في النظام الدولي والإقليمي ، ولابد الاستفادة منه في ترتيب علاقات المنطقة ، ويشكل هذا التيار مدرسة بريطانية قديمة ، بقي نوري السعيد يصر على مدى الاستفادة منها حتى آخر لحظات حياته . .

٢ - تيار فاضل الجمالي وصالح جبر الذي جاء بخيارات جديدة ، اذ كان يعتقد بأن تأثير الولايات المتحدة غدا هو الأقوى في السيطرة على النظام الدولي والإقليمي . ولابدّ - حسب وجهة نظره - للعرب (والعراق في مقدمتهم) أن يستفيدوا من هذا القادم الجديد على المسرح الدولي !! ويشكل هذا التيار مدرسة أمريكية جديدة ، بدا الجمالي واتباعه من جيل الساسة العراقيين الشباب يعمل على ترويج الدعاية له . .

تدل أغلب الدراسات التي نشرت في العشرين سنة الأخيرة ، الى أن الصراع السياسي بلغ أشده بين المدرستين اعلاه ، ولكن لا يعرف بالضبط ما هي الخطوط الدقيقة التي أتفق

---

* أنظر النص في كتابه :

Waldemar J. Gallman, *Iraq Under General Nuri,* (Baltimore, 1964), pp. 58 - 9.

عليها الامريكان مع الانكليز من أجل الحفاظ على مصالح الغرب الاقتصادية والسياسية والعسكرية سواء تلك التي تخص بريطانيا ام التي تخص امريكا !!

وهل كانت هناك خطط أمريكية تعمل في الخفاء وبمعزل عن الانكليز ؟ فضلا عن التيارين العراقيين المذكورين في أعلاه ، فقد كان هناك خلاف حاد بين كل من الامير عبد الاله ولي العهد ونوري السعيد ، اذ كان عبد الاله قد أتخذ موقفا وسطا ، وكان يردد دوما : لو علمنا نحن العائلة المالكة بأن ثلاثين في المائة من الشعب العراقي ترفضنا ، فسنحمل حقائبنا ونغادر هذه البلاد .*

ثالثاً : نشأة العلاقات العراقية - الأمريكية وتطورها ١٩٤٢ - ١٩٦٨ م

يعد هذا الموضوع الحيوي من أهم الموضوعات الأساسية وأبرزها في تاريخ تطور العلاقات الإقليمية والدولية ، ثمة أساسيات تاريخية نعالجها هنا باختزال ودقة وهي محاولة تفيد في إنتاج بعض ما يمكن تحليله ومعرفته بين دولة غربية كبرى هي أمريكا وبين دولة استراتيجية عربية هي العراق! ولما كان «الموضوع» على مستوى من الأهمية ، ومن أجل فهم درجة العلاقة بين الطرفين تاريخيا . . مستفيدين من هذه التجربة النقدية التي تدارسناها في الذي كتبه محمد حسنين هيكل . . فلابد أن نتوقف قليلا عند تاريخ تلك «العلاقات» بشيء من الاختزال والمعرفة :

فماهي جذور العلاقات بين الطرفين؟

كان العراق ثاني دولة عربية بعد مصر ، يقيم له علاقات دبلوماسية مع الولايات المتحدة الأمريكية وذلك منذ سنة ١٩٤٢ ، أي في غضون الحرب العالمية الثانية** . . ولابدّ من

---

* للتفصيلات وللمراجعة التاريخية : أرجو من القراء الافاضل الرجوع الى الدراسات التاريخية الرصينة التي نشرها دارسون وساسة ومؤرخون مختصون عراقيون في مجلة «آفاق عربية» التي تصدرها وزارة الثقافة والأعلام العراقية وفي مختلف الاعداد التي صدرت على امتداد عقدي السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين .

** لمعرفة أوسع ، تراجع ذكريات علي جودت الايوبي (سبق ذكرها) ، إذ كان قد نصب اول وزير مفوض عراقي في واشنطن . وللاستزادة عن العلاقات الثنائية لاحقاً ، انظر :
احمد حسن مصطفى ، مذكراتي السياسية في واشنطن ، ط١ (بغداد ، ١٩٩٠) .

إيضاح نقطتين أساسيتين في هذا المجال ، هما :

١ - إن السياسة الأمريكية قبل الحرب العالمية الثانية لم تكن كسياستها الجديدة بعد انتهاء تلك الحرب إزاء العالم الخارجي ، وخصوصاً إزاء المصالح المصيرية للامة العربية . فإذا كان العرب والعالم يعرفانها بوجه واحد ، فلقد غدت لها وجوها مختلفة ومتنوعة من أجل تأدية مصالحها القومية في المجالات الحيوية من العالم .

٢ - هيمن الإنكليز والفرنسيون على مقدرات العالم قبل الحرب العالمية الثانية سعياً من الطرفين لاستحواذ الهيمنة على المنطقة وعدم إقامة علاقات مع العالم الجديد ا إذ يقول علي جودت الأيوبي في مذكراته (وكان أحد رؤساء الوزراء العراقيين القدماء) : «ولعل الدول الاستعمارية كانت تسعى بكل الطرق المتوفرة لديها من سياسية واقتصادية واجتماعية لصرف البلاد العربية عن التفكير في إرسال ممثلين لها إلى أقطار العالم الجديد»*

قررت الحكومة العراقية فتح مفوضية لها في العاصمة الأمريكية واشنطن ، . وعين علي جودت الأيوبي أول وزير للعراق فيها أثناء الحرب العالمية الثانية والذي قدم أوراق اعتماده إلى الرئيس الأمريكي روزفلت في ٤ مايس/ آيار ١٩٤٢ .

ولعل ابرز ما طرحه العراق وقت ذاك : قضية فلسطين وحل معضلاتها ثم قضية الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان . وكان النفوذ الصهيوني وقت ذلك أيضاً يتحوّل شيئاً فشيئاً في تأثيراته من الحكومات البريطانية إلى إشراك الحكومة الأمريكية في (برنامج) للسيطرة على الشرق الأوسط . . . كيف ؟

التأثيرات الأمريكية:

تخبرنا سجلات التقارير التي كتبت من (المفوضية) العراقية بواشنطن إلى وزارة الخارجية ببغداد** عن الدور الأمريكي المتحالف مع البريطانيين من أجل تأسيس الكيان

---

* أنظر: علي جودت ، ذكريات ١٩٠٠ ـ ١٩٥٨ ، (سبق ذكره) ، ص ١٢٣ .

** محفوظة في مكاتب وزارة الخارجية العراقية ببغداد في ملفات خاصة . . لكنها قليلة لا تقارن بسجلات تقارير اخرى كتلك التي ارسلت من لندن ، او انقره ، او جدّه ، أو طهران .

الصهيوني في فلسطين للأعوام ١٩٤٦، ١٩٤٧، ١٩٤٨، وكانت العلاقات الأمريكية - العراقية في كل من عقدي الأربعينيات والخمسينيات هي بمثابة إقامة توازن إزاء تأثيرات الأمريكان المتصاعدة على حساب الإنكليز مع كل من الأطراف الإقليمية التالية :

١ - (بشكل خاص) مع تركيا : الجارة الشمالية للعراق - السعودية : الجارة الجنوبية للعراق - إيران الجارة الشرقية للعراق .

٢ - (بشكل عام) مع مصر - لبنان - الأردن .

السؤال الآن : ماذا أثر بقوة على علاقات الطرفين وتوّج ذلك بالتحالفات ؟

قضيتان مركزيتان أثرتا بقوة في علاقات الطرفين العراقي - الأمريكي :

أولهما : قضية فلسطين العربية بتفاقم المخاطر الإقليمية أثر ولادة الكيان الصهيوني في قلب الأمة العربية .

وثانيهما : مسألة الأمن الإقليمي في الشرق الأوسط إزاء تفاقم المصالح الأمريكية . . والتغلغل السوفييتي

ولقد بقي العراق منذ تأسيس الكيان الصهيوني حتى يومنا هذا لم يتهاون بالتفريط في الحقوق العربية ، فكان ذلك دوماً يغضب السياسة الأمريكية ، ولقد تفاعل بشكل جذري ومعّقد لكي تتشكّل علامة فارقة بين الطرفين في المستقبل . ولقد كانت حركة انقلاب/ ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ، إحدى نتائج القضية المركزية الثانية . كيف ؟

مشاريع جون فوستر دالاس:

قرابة أواسط عقد الخمسينيات أعلن جون فوستر دالاس وزير الخارجية الأمريكي على عهد الرئيس ايزنهاور عن مشاريعه للحد من نفوذ الاتحاد السوفييتي وامتداداته ، وكان دالاس يفكر في تصميم (حلف) يعد جزءا من سلسلة دفاعية كانت تتبناها الولايات المتحدة الأمريكية للدفاع عن الشرق الأوسط ضد السوفييت* . وأخذت الولايات المتحدة تعمل

* راجع التفصيلات في :

Elizabeth Monroe, "John Foster Dulles and the Middle East: Appraisal of the Late Secretary of State's Accomplishments", *Western World, II.* (August 1959), pp. 41 - 44.

لترشيح علاقاتها مع كل من العراق ولبنان منتهية إلى توقيع اتفاقية تعاون عسكري في عام ١٩٥٤ ، مع برنامج لتقديم مساعدات للعراق ، وتسارعت الأحداث السياسية بقوة شديدة ، فوقع العراق اتفاقية (= سميت بالميثاق) مع تركيا في شباط / فبراير ١٩٥٥ ، ووقع على اتفاق آخر مع البريطانيين بعد شهرين ، فواجه كل ذلك معارضة وطنية شديدة وبتأثير من معارضة قومية صارخة .

وعلى الرغم من جولة جون فوستر دالاس في الشرق الأوسط عام ١٩٥٣ ، وانه - كما يقال - قد صمم تأسيس حلف إقليمي دولي ، الا أن نوري السعيد كان أسبق منه في تطوير الميثاق الذي عقده مع الأتراك وعلى رأسهم رئيس الوزراء التركي عدنان مندريس ، ثم يتسّمى بـ (حلف بغداد) وكان العراق كان صاحب الرأي الأول والأخير في مثل طبخ «المشروع» ومعرفة تلك الأمور . . . . ثم دخلت الباكستان حلف بغداد في تموز/ يوليو ١٩٥٥ وكانت بريطانيا قد دخلت الحلف في ٤ نيسان/ أبريل ١٩٥٥ ، كما انضمت إيران إليه ، فأصبح عدد أعضائه خمسة فقط ، ولم تشأ أمريكا الانضمام إلى الحلف ، لكنها رغبت في تأسيس لجنة ارتباط سياسية وعسكرية دائمة لها معه ، وفي عام ١٩٥٧ ، انضمت إلى لجنة الحلف العسكرية .

(والواقع أن حلف بغداد كان أداة من أدوات الحرب الباردة بين الكتلتين الغربية والشرقية ، وكان الغرض منه تغطية الضعف العسكري في الجناح الشرقي للحلف الأطلسي وسد الثغرة الآسيوية بينه وبين حلف جنوبي شرقي اسيا ، وقد كانت دول حلف بغداد الشرقية عدا تركيا تعتقد في الحصول على الأسلحة الأمريكية المتطورة اكثر من اعتقادها بالحلف كمشروع للأمن القومي) .

العراق وزعامة التحالف الإقليمي الشرق أوسطي:

كان ساسة العراق حينئذ وعلى رأسهم نوري السعيد يؤمنون إيمانا راسخاً بأن الأمن القومي للشرق الأوسط لا يمكن ضبطه وتعزيزه إلا بالتحالف الإقليمي الشرق أوسطي مع الغرب . وعليه ، فقد استطاع نوري السعيد ان يستغني عن فكرة (الحزام الشمالي) لصاحبها جون فوستر دالاس إلى فكرة عرف الجميع بأنه صاحبها (فكرة : حلف بغداد) بحجة حماية

الشرق الأوسط من الخطر الشيوعي ، فراح العراق يركز المشروع في عاصمته ويؤثر نقمه الأمة العربية عليه ا*

لقد بدأت الولايات المتحدة الأمريكية تعمل لترسيخ علاقاتها مع العراق ولبنان بدءاً باتفاقية التعاون العسكري ١٩٥٤ ، مع برنامج لتقديم المساعدات للعراق ، فوقع العراق اتفاقية مع تركيا في شباط/ فبراير ١٩٥٥ ، واتفاق آخر مع البريطانيين بعد شهرين ، فواجه ذلك كله ، معارضة وطنية شديدة فضلاً عن معارضة قومية صارخة كان يؤججها الرئيس جمال عبد الناصر . . . في حين أخذت العلاقات الرسمية الثنائية تترّسخ بين الطرفين . إذ بدأت بسلسلة زيارات وفود عسكرية - لغرض التنسيق والتوحيد بين القوات المسلحة للطرفين ، وقد أخذت بريطانيا تعرقل مشروع إرسال الوفود العسكرية العراقية إلى الولايات المتحدة الأمريكية ثم اقترحت بريطانيا أن تجعل المساعدات العسكرية - الأمريكية للعراق من خلال شراء الأمريكان لأسلحة بريطانية وإرسالها إلى العراق . وكانت الوفود العسكرية العراقية تقابل من قبل الأمريكان بالترحاب الكبير من قبل هيئة البنتاغون Puntigon (المقر العام لقيادة القوات المسلحة الأمريكية) مع إجراء مراسيم خاصة ، وقد بلغ عدد الوفود العسكرية - العراقية ستة وفود للفترة بين أب/ أغسطس ١٩٥٦ - مايس/ أيار ١٩٥٧ فضلاً عن زيادة وفد رئيس أركان الجيش العراقي إلى أمريكا في حزيران/ يونيو - تموز/ يوليو ١٩٥٤** .

زيارة القادة العراقيين للولايات المتحدة الأمريكية:

هكذا توثقت العلاقات العراقية - الأمريكية كثيراً بصيغة (تحالف جديد) ، وفي مطلع عام ١٩٥٧ ، قام الأمير عبد الإله ولي عهد العراق والوفد المرافق له وبمعيته رئيس الوزراء نوري السعيد بزيارة رسمية إلى الولايات المتحدة الأمريكية . ولقد اكتشف الأمريكان عن قرب من هو نوري السعيد الذي كرّس نفوذه في المنطقة على مدى يقترب من ثلاثين سنة ،

* انظر التفصيلات في :

M. Perlamnn, "Egypt Versus the Baghdad Pact.", *Middle Eastern Affairs*, vol. vII, (March 1956). pp. 95 - 101.

** راجع :

Majid Khadduri, *Independent Iraq 1932 - 1958: A Study in Iraqi Politics* (London, 1960). pp. 102 - 112.

فقد تولّى أول رئاسة لوزراء العراق عام ١٩٣٠ ، وان مكانته لم تعد محلية ولا إقليمية . . بل كانت دولية ، بحيث كانت هناك عدة دول تحسب له حسابا* . . كما وأدركت الولايات المتحدة الأمريكية بأن هذا العجوز الهرم هو المتبّقي من التركة البريطانية القديمة ! ولعل ابرز المسائل الحساسة والمعقدة التي حددت مسيرة العراق في تحالف الغرب ، وأمريكا بوجه خاص هي : مسألة (الكويت) في مفاوضات لم تنته ابداً !

السؤال الآن: لماذا تأخرت الولايات المتحدة في الانضمام إلى حلف بغداد؟

لقد سئل جون فوستر دالاس عن سبب انتفاع أميركا من دخول الحلف ، فقال : بأن الحكومة الأمريكية راغبة كل الرغبة في دخول الميثاق (= الحلف) كعضو منذ مدة طويلة - غير أن ذلك يستلزم موافقة الكونغرس الذي فيه عدد من الأعضاء الذين يشترطون ثمناً لقاء الانضمام للحلف يتمثل بإصدار بيان أو وضع تعهد صريح تلتزم بموجبة الحكومة الأمريكية بضمان (دولة إسرائيل) في وضعها وحدودها ، والحكومة غير مستعدة لهذا التعهد ، لذلك استمرت أمريكا على سياستها مع مساعدة الحلف بكل الإمكانات دون الاشتراك في عضويته الشكلية .

لقد كانت الصهيونية العالمية قد وصلت إلى أوج تأثيرها الإعلامي على الرأي العام الأمريكي ، ناهيكم عن أن كثيرا من الصحف الأمريكية في واشنطن ونيويورك وغيرهما من المدن الأمريكية تديرها شركات صهيونية ويهودية ، إضافة إلى إدارتهم لشركات تجارية كبرى ذات نفوذ رأسمالي واسع في طول البلاد وعرضها . . . . وتعلمنا أغلب المصادر أن الأمريكان كانوا يجهلون البلاد الأخرى ومشاكلها الدولية والإقليمية . هذا من الناحيتين الإعلامية والاقتصادية . . في حين بقيت إسرائيل تعّول في تسلّحها على كل من بريطانيا وفرنسا بشكل خاص ، ولم يبدأ التسلّح الأمريكي لإسرائيل وبشكل مكثّف إلا بعد هزيمة العرب أمام إسرائيل عام ١٩٦٧ !

---

* أنظر :

Waldemar J. Gallman. *Iraq Under General Nuri* .. op. cit. pp. 91 - 118.

مخاض الخمسينيات:

أمريكا بين ظاهرتين في الشرق الاوسط (الاقليمية . . القومية)

تكشف السياسة الدولية منذ بعيد الحرب العالمية الثانية وحتى نهاية عقد الخمسينات (بالأخص ١٩٥٨) ، في الشرق الأوسط على أن العراق كان يتمتع باستراتيجية إقليمية فرضت نفسها على الساحة الدولية ، وكان لابد أن تستغلها السياسة الدولية التي غدت الولايات المتحدة الأمريكية على رأس القوى الغربية المتغلغلة في ابرز المجالات الحيوية في العالم . . والتي بدأت تتحرك باتجاه جمع مفاتيح الشرق الأوسط عند عقد الخمسينيات . . ولما كانت القوى الاقليمية المجاورة الثلاث : تركيا وإيران والعراق قد قدّمت مبرراتها للتحالف الإقليمي والتي برز إزاءها في الساحة الزعيم جمال عبد الناصر الذي مثل حينذاك : ظاهرة قومية ضد التحالفات الإقليمية مع الغرب وعلى رأس تلك الدول بريطانيا بشكل خاص وليس الولايات المتحدة الأمريكية ، التي ستأتي المواقف السالبة من سياساتها لاحقا .

لقد تزامنت ، بشكل مناسب ، استراتيجية جمال عبد الناصر الجديدة المستندة إلى مبادئ القومية العربية ضد استراتيجية نوري السعيد الجديدة المستندة إلى التحالفات الإقليمية في الخمسينات ، فكان هناك ثمة صراع قوي ساخن بين الاستراتيجيتين : القومية والإقليمية ، علما بأن نوري السعيد كان يؤمن بمبادىء الثورة العربية التي اشترك في قيادة اركان عملياتها للفترة ١٩١٦ ـ ١٩١٨ ، كما أنه قد قدم أكثر من مشروع ، أشهرها ذاك الذي تضمّنه «الكتاب الأزرق» من أجل وحدة الهلال الخصيب (= بلاد الشام والعراق) . . وقد نجح جمال عبد الناصر مع قمة حركة عدم الانحياز التي جسدها مؤتمر باندونغ في شهر نيسان/ أبريل ١٩٥٥ ، حيث وجد عبد الناصر نفسه مقبولاً جداً كشريك متكافئ مع شوان لاي وجواهر لال نهرو وأحمد سوكارنو وجوزيف بروز تيتو . . .

وللانصاف التاريخي ، يستوجب القول ان العراق لم يدّخر وسعاً ابان عقد الخمسينيات من الوقوف مع قضايا تحرر بلدان المغرب العربي . فثمة وثائق ومعلومات مؤكدة وشهادات حية كتبها الدكتور فاضل الجمالي وغيره تؤكد وقوف العراق الصارم مع قضايا التحرر في كل من تونس والجزائر والمغرب الاقصى ، وخصوصاً في أروقة الامم المتحدة التي كانت تبحث

قضايا تلك البلدان فضلا عن دعم العراق لتلك القضايا سياسياً وعسكرياً واقتصادياً . كما تشير المعلومات الوثائقية العراقية والانكليزية بان نوري السعيد كان وراء جلاء القوات البريطانية من مصر .

وخلال تلك اللحظة التاريخية الصعبة ، انطلقت فيها السياسة الجديدة المناهضة للغرب . . وبدا ان كفة جمال عبد الناصر وفلسفة الحياد الإيجابي والقومية العربية ترجح على كفة نوري السعيد وفلسفة التحالف الغربي والإقليمية الشرق أوسطية . . ومن هنا بدأ عبد الناصر في موقع يلعب منه لعبة القوة الصغرى في موازنة كتل القوى الكبرى الجديدة بعضها مع البعض الآخر بأقل مخاطرة وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية . . . في حين بقي نوري السعيد في موقع يلعب منه لعبة القوة الكبرى في الرهان على كتلة القوى الكبرى القديمة المتمثلة بالبريطانيين بأكبر مخاطرة . . وعندما هبت العواصف الجديدة لم تبق ولم تذر على كل ما هو قديم . . وقد خرج من مهب عواصف الخمسينيات من كانت له القدرة على التغيير والتجديد باتجاه القوى الكبرى الجديدة ، وفي مقدمتها : السعودية وتركيا وإيران والأردن . . وبطبيعة الحال مصر على عهد جمال عبد الناصر . وكانت الثمار المهمة التي جناها العرب وعبد الناصر لسياسته وشعاراته وأفكاره المناهضة للعراق وفيرة جداً ، ولن يبدو أكثرها وأهمها خطورة ما حدث في فجر يوم ١٤ تموز/ يوليو ١٩٥٨ عندما قضى الجيش العراقي على النظام الملكي واركانه وانهى كل حلقاته وتحالفاته ومواثيقه .

قطف الثمار المرّة :

لقد انفجرت أحداث ١٤ - ١٥ تموز/ يوليو ١٩٥٨ ، وحاول النظام العسكري الجديد إرسال (قوة) إلى السفارة الأمريكية ببغداد للمحافظة عليها من غضب الجماهير ، ومنع لجوء نوري السعيد إليها ، كما أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية عن محاولاتها للتدخل وانزال قوات في كل من الأردن ولبنان ، ولكن الاتحاد السوفيتي وقف ضد المحاولات الأمريكية . . . ومع الإنزال الأمريكي عام ١٩٥٨ ، في لبنان إلا أن سحب القوات بسرعة ، كانت إشارة واضحة إلى ان الولايات المتحدة الأمريكية قد تخلت عن حلمها بتنظيم الأجزاء العربية من الشرق الأوسط ، وحل الالتزام المحدود العملي ، محل الإفراط المضلل بالالتزام .

جاءت أحداث يوم ١٤ تموز/ يوليو ١٩٥٨ ، لتعلن في البيان الأول : الحياد بين الشرق والغرب في الشؤون الخارجية ، وكان موقف العراق ودياً بالشكل إزاء بريطانيا وأمريكا ، إلا انه تنوع في المضمون ما بين الشك العميق والبرود البعيد . ولما انفرد عبد الكريم قاسم بالسلطة ، ازداد نفوذ الشيوعيين العراقيين ، فبدأ الصراع السياسي المرير بين القوى الوطنية العراقية المتنوعة وخصوصا بين فصائل الشيوعيين وتشكيلات القوميين . وبقيت العلاقات العراقية - الأمريكية باردة سياسياً إذ لم تحقق السفارة الأمريكية أي تقدم لبناء أو إعادة بناء مصالح سياسية وعسكرية مع العراق الجمهوري . . . وفي أي من القضايا الساخنة أو العادية مع حكومة العراق .

ولكن اللافت للنظر : ازدهار عمليات التجارة العراقية مع الولايات المتحدة الأمريكية مع تقلص استيرادات العراق المصنوعات أمريكية من ١٥,٢٪ عام ١٩٥٧ إلى ١١,٥٪ عام ١٩٦٢ ، وازدياد التعامل التجاري للعراق مع دول المنظومة الاشتراكية . . . فضلاً عن زيادة نسبة الصادرات إلى الولايات المتحدة الأمريكية بين ١٩٥٨ - ١٩٦٢ من ٥٪ إلى ١٠٪ مع اتجاه نحو التصاعد .

عراق تموز ١٩٥٨ : امريكا والمسألة الكويتية

بقي نظام حلف بغداد (الذي اسمي بحلف السانتو) ، وقد اخرج العراق منه في شهر اذار/ مارس ١٩٥٩ ، وألغيت اتفاقية المساعدات العسكرية الثنائية بعد شهرين ، وتقلصت العلاقات بين الطرفين إثر اعتراف الولايات المتحدة الأمريكية بالكويت عام ١٩٦١ . وكانت بريطانيا قد وعدت نوري السعيد (رئيس وزراء الاتحاد الهاشمي الذي يضم العراق والأردن) في مطلع شهر تموز/ يوليو ١٩٥٨ . (وكان أمير الكويت الشيخ عبد الله السالم الصباح قد زار العراق زيارة رسمية في نهاية شهر حزيران/ يونيو ، ١٩٥٨ أي قبل أيام من انقلاب تموز / يوليو ١٩٥٨) وعدته ان تدخل الكويت ضمن دولة الاتحاد الهاشمي في حالة اجراء هندسة جديدة ، وهذا لم يحصل نتيجة إطاحة أحداث ١٤ تموز (يوليو) ١٩٥٨ بدولة ذلك (الاتحاد) .

وعليه ، فان مسألة الكويت لها دورها في صنع ذلك الحدث ، علما بأن تلك «المسألة» حساسة جدا جدا جدا بالنسبة للأمريكان ، وهذا ما كان يدركه الرئيس جمال عبد الناصر

بل ويعرفه حق المعرفة ، عندما خاطب وفدا عراقيا برئاسة علي صالح السعدي نائب رئيس الوزراء العراقي عام ١٩٦٣ ابان مداولات الوحدة الثلاثية بين مصر وسوريا والعراق ، بأن لا يقتربوا من هذه «المسألة» أبدا ، بعد أن اقترب منها عبد الكريم قاسم!! (انظر : سنوات الغليان لهيكل) وكان عبد الناصر نفسه قد وقف ضد عبد الكريم قاسم عندما دعا هذا الأخير إلى ضم الكويت إلى العراق ، بل قام بإرسال قطعات عسكرية مصرية لحماية الكويت من أي عدوان عراقي محتمل .

التغييرات الداخلية : انهيار خطط مجلس الاعمار

بعد نجاح انقلاب أو ثورة ١٤ تموز/ يوليو ١٩٥٨ ، تألفت لجنة برئاسة رئيس الوزراء عبد الكريم قاسم وعضوية وزراء الأعمار والمالية والزراعة والشؤون الاجتماعية وأنيطت بها جميع صلاحيات مجلس الأعمار الذي وصف من قبل قوى المعارضة والراديكاليين الشيوعيين والقوميين الناصريين والبعثيين والحركيين بكونه أداة للتبعية الاقتصادية مما جعله موضع كراهية من قبل العراقيين ، وتغلب العاطفة على العقل في قرارات لجنة التوجيه الاقتصادي التي قامت في جو مشحون بالانفعالات مغلبة الرأي السياسي المنساق وراء دعايات الراديكاليين العراقيين التي روجت لكل ما هو روسي صحيح وجميل دون أية خبرات عملية وقد قدمت تلك (اللجنة) تقريرها في ٥ آب/ أغسطس ١٩٥٨ ، إلى اللجنة التي خولت صلاحيات مجلس الإعمار ، مقترحة إيقاف كافة المشاريع الاستراتيجية العملاقة التي لم تكن في مرحلة التنفيذ والدراسات . ويكتب بيتر مانسفيلد مؤخرا في واحد من أهم كتبه عن «العرب» بأن الفرصة كانت مواتية لمجلس الاعمار في العراق لو بقي على قيد الحياة منذ الخمسينيات أن ينقل العراق إلى مصاف الدول المتقدمة عند نهايات القرن العشرين لأن الدولة العراقية رصدت له عند تأسيسه ٧٠ في المائة من موارد العراق البترولية* . . ولكن هذا لم يحدث مع الأسف !

يكتب السفير الأمريكي ولدمار غولمان في كتابه (عراق نوري السعيد) ان قيام ثورة ١٤

---

* راجع :

Peter Mansfeild, *The Arabs* (London, 1980), p. 181.

تموز / يوليو ١٩٥٨ ، تعد فشلاً ذريعاً للسياسة الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط . . . وللعلم فإن السفير نفسه كتب إلى حكومته قبل أيام من قيام الثورة يطمئنها فيها على استقرار الحالة السياسية في العراق وانه لا خوف من قيام الجيش بالثورة !

وبعد أن هدأت العواطف الساخنة وسمح عبد الكريم قاسم للصحف العراقية بالتعبير عن آرائها في أمور معينة ، بدأت بعض الصحف (كجريدة الأهالي لسان حال الحزب الوطني الديمقراطي) في ٢١ تموز/ يوليو ١٩٦٠ ، تنتقد بشدة إلغاء المشاريع الكبرى من خطة مجلس الاعمار لإدخالها في الاتفاقية الاقتصادية المعقودة مع الاتحاد السوفييتي . . . واردفت منتقدة بأن هذا سيؤدي إلى تأخير تنفيذها لمدة طويلة ، فخبرات السوفييت لا يمكن أن تقارن ابداً مع خبرات شركات أمريكية وبريطانية لبناء المعامل الثقيلة! ومد سكك الحديد والمحطات والسدود . . . الخ .

كما وانتقدت جريدة الحرية (حزيران/يونيو - تموز/يوليو ١٩٦٠) ، السياسة العراقية وما تضمنته إجراءاتها مذكرة بصحة ارتباط «مجلس الإعمار» بالشركات البريطانية والأمريكية وبقاء العراق تابعاً للإنكليز والأمريكان بعيداً عن حركة التحرر العربي . ولكن العراق بدأ خطة تصنيع طموحه سنة ١٩٥٥ - ١٩٥٦ ، لكي ينافس مصر الناصرية في خططها الاقتصادية . . . وصحيح أن خطط المجلس ومشاريعه أثارت مخاوف العراقيين وهواجسهم وعرضتها للحملات العاطفية التي قادتها المعارضة العراقية ضد نظام الحكم الملكي ونوري السعيد . . وانتقاد تلك المشروعات العملاقة ، اذ طالبوا بإنشاء مشروعات صغرى لتحسين الظروف الاقتصادية والمعيشية بسرعة . . في حين توّضح خطابات نوري السعيد في البرلمان بأن الرهان كله على عامل الزمن ، ذلك أن مشروعات العراق العملاقة في بناء السدود والمصانع وتخطيطات المدن وبزل الأراضي وتطوير الخدمات البلدية والقروية بحاجة إلى أكثر من خطة خمسية لكي تؤتي أكلها . . ومن الجدير بالذكر أن العراق قد سبق تركيا بزمن طويل في التخطيط لبناء السدود من خلال خطط مجلس الاعمار* . . ولما انغمر العراق بمشاكله السياسية الداخلية والقومية ، فقد سبقته تركيا في هذا الجانب الحيوي . وثمة

* انظر المعلومات والتحليلات التي كتبها في القسم الثاني من كتابه :
زكي صالح ، مقدمة في دراسة العراق المعاصر ، ط١ (بغداد : مطبعة الرابطة ، ١٩٥٣) .

رأي آخر - لابد من ذكره هنا - إذ وصف خلدون ساطع المصري اعمال مجلس الاعمار بـ «خرافات مشاريع مجلس الاعمار» ، إذ كتب يقول : «لقد شرحنا فيما تقدم حقيقة العهد البائد : خياناته الوطنية والقومية ، انانيته ، ورجعيته وفساده . لهذه الاسباب ، منفردة ومجتمعة ، أبدنا العهد البائد . ونحن فخورون بما قمنا به ، ولسنا نادمين عليه*» .

صفحة جديدة من العلاقات الخفية :

لقد انطوت صفحة العلاقات العراقية - الأمريكية التي بدت متميزة مع أحداث ثورة ١٤ تموز/ يوليو ١٩٥٨ ، وإجراءاتها فلقد كان العراق يمثل قبل الانقلاب الثوري مركز ثقل استراتيجي كبير للبريطانيين في منطقة الشرق الأوسط ، وغدا بعده ليس إلى صفوف الأعداء كما يتصوّر البعض خطأ ، بل لأن البريطانيين بدأوا يتخلون عن حلفائهم القدماء إذ تحول مركز الثقل إقليميا الى مصر ، ودوليا الى الولايات المتحدة الأمريكية . . في حين طّورت كل من تركيا وايران علاقتهما بالأمريكان . . ذلك أن إيران استمرت عضويتها في حلف (السانتو) لتغدو شوكة في الخاصرة العربية ، في حين أخذت تطور تركيا روابطها القديمة بحلف (الأطلسي) ، لتغدو واحدة من أوثق دول المنطقة بعلاقاتها مع الولايات المتحدة الأمريكية !

تزايدت حدة التباعدات العلنية بين العراق والولايات المتحدة نتيجة للتحالف الأمريكي - الإيراني ، إذ اندفعت أمريكا بكل ثقلها لتسليح إيران على نحو كبير لإشباع متطلبات الشاه ، وقد بررت الولايات المتحدة ذلك نظير اندفاع السوفييت نحو المنطقة ! ومع تنامي حجم ما أسمي بقوى «الثورة العربية التحررية» في المنطقة ، بدت مطامع الشاه واضحة باتجاه جنوب العراق والخليج العربي . . بحيث بدأ الغرب يتعاظم اعتماده على البترول العربي ، فأزيح النفوذ البريطاني ليحل بدله في المنطقة النفوذ الأمريكي . وكان لهذا الاخير أساليبه السرية والعلنية في التغلغل وتأدية المصالح الامريكية على خير وجه .

بدا موقف العراق في عقد الستينيات (عهد عبد الكريم قاسم وعهد الأخوين : عبد

* خلدون ساطع الحصري ، ثورة ١٤ تموز وحقيقة الشيوعيين في العراق ، ط١ (بيروت : دار الطليعة للطباعة والنشر ، ١٩٦٠) ، ص ٩٢ ، ٩٤ .

السلام وعبد الرحمن عارف) بارداً إزاء التحركات الأمريكية ، مع بقاء بعض الروابط ، فلقد وقعت اتفاقية ثنائية بين الطرفين : العراقي والأمريكي في شهر كانون الثاني/ يناير ١٩٦١ ، ثم بدا ترتيب مشروع الأغذية عام ١٩٦٣ ، وقرض بنك الاستيراد والتصدير الأمريكي المدفوع إلى العراق عام ١٩٦٥ ، ثم بدأت مفاوضات لعقد اتفاقية السلع الزراعية في شهر كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦٦ ، ولقد جرت محاولات لتجديد الروابط الاقتصادية والتجارية في عهدي العارفيين ، وخصوصاً أبان وزارة الدكتور عبد الرحمن البزاز ١٩٦٦ - ١٩٦٧ ، الذي زار بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية زيارة رسمية لتوثيق علاقات العراق بالغرب .

وكان عدوان الخامس من حزيران/ يونيو ١٩٦٧ ، من قبل اسرائيل على الأمة العربية ، والذي أدى إلى قطع العراق لعلاقاته الدبلوماسية مع الولايات المتحدة الأمريكية ، ثم هدد باستخدام النفط سلاحاً ضدها لمواقفها المعادية من مصالح الأمة العربية والمتحالفة مع إسرائيل . ومنعت البضائع الأمريكية ، ورفض استقبال الطائرات الأمريكية . . . لكي تبدأ صفحة تاريخية جديدة في طبيعة العلاقات بين العراق والولايات المتحدة الأمريكية ، تلك التي ستشهدها مراحل عهدين لاحقين ، مع مرور ثلاثة عقود من الزمن ، فلقد شهد عقد السبعينيات مخاضا صعبا ، ويزداد المخاض من تعقيداته ابان عقد الثمانينيات باندلاع حرب الخليج الاولى ، ويزداد المخاض من تشابكاته المعقدة ابان عقد التسعينيات بنشوب حرب الخليج الثانية بكل تفاعلاتها ونتائجها المريرة وتداعياتها السوداء !

ماذا تستنتج من وراء ذلك كله ؟

١ - سياسياً : لعل ابرز عقدين في تطورات العالم المعاصر أبان القرن العشرين هما : الخمسينيات والستينيات ، اختلف أحدهما عن الآخر في طبيعة علاقات العراق مع الولايات المتحدة الأمريكية ، فإذا كانت علنية وإيجابية ومتطورة على افضل ما تكون العلاقات في الخمسينيات من خلال ابرز تحالف إقليمي ودولي وباسم (حلف بغداد) الذي ولد في خضم اشد ما وصلت إليه الحرب الباردة بين المعسكرين الغربي والاشتراكي ، فقد غدت العلاقات خفية ومتذبذبة أو غير عادية في عقد الستينيات ، الذي أعتبره فترة انتقالية من طبيعة الحكم في العراق . . ولكن الجانب السياسي لا يمكن فصله عن الجانب الاقتصادي . . .

فما هي استنتاجاتنا حول هذا (الأخير) ؟

٢ - اقتصادياً : ان توزيع مناطق استثمار نفط الشرق الأوسط قد تغيرت بين الحرب العالمية الثانية وحرب (٥ حزيران/يونيو ١٩٦٧) بين العرب . لقد كانت بريطانيا تسيطر على ٧٢٪ من احتياطي البترول المكتشف مقابل ٩,٨٪ فقط للولايات المتحدة الأمريكية . وقد تغيرت الصورة تماماً عام ١٩٦٧ ، فهبطت حصة بريطانيا من مخزون البترول إلى ٢٩,٢٪ بينما ارتفعت حصة الولايات المتحدة إلى ٥٨,٦٪ . ولقد ارتفعت النسبة بالنسبة للولايات المتحدة الى رقم كبير غير ثابت عند نهايات القرن العشرين* .

٣ - استراتيجياً : وصلت السياسة الأمريكية في عقد الستينيات إلى ذروتها بالانفراد في العمل من اجل تحقيق الأمن من خلال التحالفات ضد الاتحاد السوفييتي (وحركات التحرر) الذي كان قد وصل إلى درجة من القوة فبدأت الولايات المتحدة الأمريكية مشروع السياسات البديلة والمسماة بـ (تعدد الخيارات) على عهد كل من الرؤساء الأمريكيين : جون كيندي وجونسون ثم نيكسون . . .

٤ - إقليمياً : ازدياد المشكلات والمؤتمرات في عقد الستينيات بفعل التحديات الإمبريالية في المنطقة ، ومنذ ١٩٦١ ، ١٩٦٣ ، ١٩٦٨ ، وبعد ذلك بدأت كل من إيران وإسرائيل بمؤتمرات أمريكية لإشعال المشكلات في شمال العراق . . . . وازدياد تحالف الولايات المتحدة الامريكية مع كل اقاليم المنطقة ودولها بصورة أو بأكثر ، في مجال أو أكبر !

رابعاً : : من اجل تاريخ حيادي للزعيم العراقي عبد الكريم قاسم

عبد الكريم قاسم : صورة لم تكتمل

كم كنت أتمنى على محمد حسنين هيكل أن يكمل الصورة التي رسمها لزعيم العراق ومؤسس نظامه الجمهوري ، عبد الكريم قاسم الذي لم يكتب تاريخه من قبل مؤرخين وعلماء مختصين بعد بشكل محايد وعلمي وموسع حتى يومنا هذا . . . وهو الذي كسب في

---

* أنظـــر :
Dengamin Shwadran, *The Middle East Oil and the Great Powers* (New York, 1973), pp. 71 - 9.

مرحلة معينة من القرن العشرين هالة أسطورية في العراق وفي بعض البلدان العربية ، ولكن كان أسمه منذ فجر يوم ١٤ تموز/ يوليو ١٩٥٨ ، وحتى يومنا هذا يعيش بين متناقضين اثنين ، وتتبدى صورته على واجهتين اثنتين . . .

فهناك من جعله رجلاً أسطوريا يلبسه كل هالات المحبة وآيات الثناء والإعجاب (التي وصل بعضها في يوم من الأيام عند بعض العراقيين إلى حد التقديس) ، وهناك من جعله مجنوناً أو معتوهاً ونصف مجنون . . . وقد ألقى عليه مختلف النعوت السيئة والشتائم المقذعة التي وصل بعضها في يوم من الأيام عند بعض العراقيين والعرب إلى حد الاهتراء ،(وكان في مقدمتهم المذيع المصري الشهير أحمد سعيد في إذاعة صوت العرب أيام حكم قاسم ، وكان هذا المذيع قد صبّ شتائمه وسبابه على نوري السعيد قبل عبد الكريم قاسم) !

ولقد كان هيكل في الذي كتبه عن عبد الكريم قاسم ، يتمثّل بأوصاف معينة لا تضفي على الرجل أي تقدير ، بل وتنتقص منه . . . . وتسّجل ضده مجموعة من السلبيات والمثالب ، وان الذي كتبه هيكل لا يتعدى أن يكون كتابة سياسية مع هذا ، أو ضد ذاك كالعادة! وعليه ، فقد افتقدت كتابته الجانب المحايد الذي لابد أن يتوفر في الكتابة عن زعماء عرب شكلت حالاتهم تناقضات وخفايا وردود فعل واسعة ! ومنهم عبد الكريم قاسم الذي حكم العراق قرابة أربع سنوات ونصف السنة ! ١٩٥٨ - ١٩٦٣ ، والذي اسماه الرئيس جمال عبد الناصر بـ «قاسم العراق» ، وقد جاءنا محمد حسنين هيكل بمجموعة من الوقائع والأحداث والروايات منقولة عن عبد الكريم قاسم ، معتمداً فيها على ذكرياته ، وفي قسم آخر منها على تقارير السفير المصري في بغداد السيد أمين هويدي ، وكذلك تقارير السيد عبد المجيد فريد الملحق العسكري في بغداد يومئذ . . . . ويقول هيكل بأن « الجزء الأكبر من أصول هذه التقارير موجود في جهة واحدة ، وهي أرشيف المخابرات العامة» بالقاهرة (سنوات الغليان ، ص ٤٢٠ ، هاش رقم ٤) .

تصويب بعض أخطاء هيكل:

ويبدو لنا من خلال مقارنة ما أتى به من معلومات - هنا - عن عبد الكريم قاسم ، ومقارنتها بالمعلومات التاريخية التي وثقها عدد من المؤرخين (العراقيين خصوصاً) أن هناك

ثمة اختلافات كبيرة ، وان أشياء غير صحيحة أبدا قد ضمنّها هيكل كتابه وهو يتناول عبد الكريم قاسم ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر :

١ - في قضية خلاف عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف ، يورد هيكل حادثة يصفها أنها «تثير الدهشة» عما حدث بين الاثنين في مجلس الوزراء حول إذاعة نبأ تنحية عبد السلام عارف عن مناصبه (سنوات الغليان ،ص ٤١٨) ! .

٢ - معلومة أخرى بشأن «مغادرة عارف للعراق إلى أوروبا بعض الوقت ويسافر عارف ثم عاد بعد أسبوع ، فإذا هو في مطار بغداد ، ويوضع في السجن» (سنوات الغليان ، ص ٤١٨) والصواب : تعيين عبد السلام عارف سفيراً للعراق في النمسا ، وقد التحق بمنصبه ، ولكنه عاد بعد أيام خفية إلى بغداد ، فنزل في المطار واخذ سيارة تاكسي حيث وزارة الدفاع التي فيها مكتب عبد الكريم قاسم ، وعند لقاء الاثنين معا ، اتهم قاسم رفيقه عارف انه سحب عليه مسدساً ، مشرعا في محاولة لقتله ، في حين برر عارف تصرفه انه سحب الاقسام في مسدسه ينوي الانتحار بعد المجادلة الحادة بين الاثنين . . مما دعا قاسم إلى القاء القبض عليه بتهمة الشروع بقتله ، وقدمه الى محكمة المهداوي ، وقد حوكم وجاهيا بتهم متعددة وصدر القرار بإعدامه رميا بالرصاص ، ولكن عبد الكريم قاسم لم يصادق على قرار الحكم ، ولم ينفذ فيه حكم الاعدام .

٣ ـ وهذا ما حدث ضد رشيد عالي الكيلاني الذي كرمه قاسم ثم انقلب عليه بتهمة تدبير انقلاب يدعمه عبد الناصر . لقد أورد محمد حسنين هيكل ولعدة مرات اسم رشيد عالي الكيلاني زعيم ثورة ١٩٤١ في العراق واحد ابرز وجوه النظام الملكي العراقي ، أورده بشكل خاطئ باسم رشيد علي الكيلاني . . . . (انظر : مثلا : سنوات الغليان ، ص ٤١٩ - ٤٢٠) .

٤ ـ يقول هيكل : « وكان كل ما استطاعت دسائس الغرب وسفراؤه في بغداد تحقيقه في العراق هو دفع عبد الكريم قاسم إلى أحضان الأحزاب الشيوعية . . .» (سنوات الغليان ،ص ٤٢٢) . والصحيح أن عبد الكريم قاسم لم يكن شيوعيا أبدا . . . ولكن أحاط نفسه ببعض الشيوعيين ، إضافة إلى القوى والأحزاب القومية التي انفضت من حوله ،

فلم يجد أحدا يعتمد عليه غير الشيوعيين العراقيين ، الذين كان لهم نفوذهم في عدد من المرافق والأجهزة والمؤسسات العراقية المدنية والعسكرية . . وبالرغم من اختلافه معهم وأدانهم في بعض خطبه ، إلا أن نفوذهم كان كبيرا ، وكانوا وما زالوا يعتبرون عبد الكريم قاسم مثلا وطنيا أعلى لهم دون منازع !

أين الخلل؟ الخلل في الأسباب والنتائج

لقد انقسم المجتمع السياسي العراقي بعد فجر ١٤ تموز/ يوليو ١٩٥٨ ، إلى قسمين أثنين متصارعين دمويا ، وخصوصاً بعد وضع نهاية حقيقية (وليست رسمية) للأحزاب العراقية الليبرالية القديمة . . . فكان هناك : الشيوعيون من جانب عبد الكريم قاسم فوق الجميع ولكنه منح الفرصة للشيوعيين كي يأخذوا مواقع نفوذ كبيرة لهم ، مما أدمى الصراع السياسي في العراق على امتداد سنوات حكمه ، حتى بعد تهديده بضرب الشيوعيين في نهايات أيامه! وكان هناك : القوميون بفئاتهم من البعثيين والناصريين والحركيين وغيرهم ممن اصطفوا الى جانب عبد السلام عارف والذي وصل الى سدة الحكم بعد زوال قاسم بواسطتهم ، وهو الآخر لم يكن بعثيا ولا ناصريا ولا حركيا . .

وعليه ، فقد حكم كل من الاثنين العراق ، ولم يكن لكليهما أي مشروع سياسي أو أيديولوجي له خصوصيته . . ولم يعرفا في حياتهما الا الثكنة العسكرية ، ولم يتمتعا بأي حنكة سياسية ولا بأي مقدرة ذات مستوى عال في حكم بلاد لها استراتيجيتها القوية في الشرق الأوسط ، كما أنهما لم يشرعا بتأسيس مؤسسات دستورية مدنية وحياة ديمقراطية فعلية ، خصوصا وان للعراق تجاربه السياسية والانتخابية والحزبية والدستورية على امتداد خمسين سنة كاملة ، أي منذ جذوره العثمانية عام ١٩٠٨م وحتى الإعلان عن النظام الجمهوري عام ١٩٥٨م .

عبد الكريم قاسم: اقتراباً منه لمعرفته !

هذا الزعيم العراقي الذي سعى بكل حذاقة وذكاء وتقية وميكافيلية لأن يسجل اسمه في التاريخ ، والذي تنقسم حوله الآراء والتقييمات والأحكام منذ مجيئه لحكم

العراق حتى اليوم . . . والذي نقل محمد حسنين هيكل عن أحد وزرائه الذين كان يثق بهم عبد الكريم قاسم ، وصفا بأنه «نصف مجنون» . . . لابد من التوقف قريباً منه لمعرفته ، ومن ثم سيجري التاريخ حسابه له ، وسيضعه في المكان المناسب له :

تشير اغلب الكتابات والدراسات والأبحاث التي نشرت عنه حتى يومنا هذا ، انه ولد ببغداد سنة ١٩١٤ ، ويقال أن اصله القديم من اليمن ، إذ كان جده السادس عبد الله قد نزح من هناك ، كما ويقال أن عمه المسمى علي أفندي محمد قد استشهد سنة ١٩١٧ في الحرب العالمية الأولى دفاعاً عن بغداد ، وهو من آسرة فقيرة . . . . وأكمل الابتدائية ثم الثانوية عام ١٩٣١ ، واشتغل معلما بإحدى المدارس الابتدائية لمدة سنة ، ثم قبل بعدها بالكلية العسكرية ، وتخرج فيها في ١٩٣٤ ، أي على عهد الملك غازي الأول ١٩٣٣ ـ ١٩٣٩ .

ارتقى في السلم العسكري وكان تحت إمرة عدد من القادة العراقيين الممتازين ، ومنهم : كامل شبيب الذي رعاه ووجهه . . وهذا الأخير ، كان من بين العقداء الأربعة التي ثاروا رفقة رشيد عالي الكيلاني عام ١٩٤١ على الانكليز ، ودخلوا الحرب العراقية البريطانية ، وقد أعدم مع رفاقه بتهمة الخيانة العظمى من قبل نظام عبد الاله ونوري السعيد . وكان عبد الكريم قاسم في مطلع شبابه برتبة ملازم عندما حدث انقلاب بكر صدقي عام ١٩٣٦ في عهد الملك غازي ، فلمع اسم محمد علي جواد الذي كان طيارا ، وهو ابن عمة عبد الكريم قاسم ، فتولى جواد قيادة القوة العراقية ، وكان من مؤيدي الفريق بكر صدقي قائد الحركة الانقلابية المذكورة ، والذي قتل معه ، إذ لاقي الاثنان مصرعهما في مطار الموصل سنة ١٩٣٧ ، وكان لذلك «الحدث» تأثيره البالغ في نفسية عبد الكريم قاسم ، اذ غرس مصرع ابن عمته محمد علي جواد جرحا في كيانه . . وكان يتحين الفرصة للأخذ بثأره وبأسلوب غير مباشر من خلال تجارب عبد الكريم قاسم بعد أن تدرّج في المراتب العليا .

وتدلنا اغلب شهادات الذين زاملوه في الجيش أو الذين اشتغلوا تحت إمرته عن كفاءته وحسن تدبيره واخلاصه في العمل وتقديسه المال العالم ونزاهته وحسن قيافته وهندامه . . . وحب الواجب وتقديس ساعات العمل مع الضبط والربط وعدم التسيّب . . لكنه كما كتب عنه مدعماً بالمستندات الرسمية ، كان لا يهمه ماله الخاص ، اذ كان يصرف كل راتبه في

الأيام الأولى من الشهر ، فيبدأ يستدين على الدوام ولكن من جهات رسمية وليس من قبل أصدقاء أو أقرباء ، وكان يفرق بين التصرفات الشخصية والواجبات الوطنية . . . الى حد غير معقول !

ولقد حصل على الدرجة (أ) في كلية الأركان العراقية ، وحصل جائزة من وزارة الدفاع في اجتياز الامتحان باللغة الإنكليزية . . . اشترك في حياته العسكرية بحركات برزان في شمال العراق عام ١٩٤٥ ، وسطع نجمه في فلسطين عام ١٩٤٨ ، وكان برتبة المقدم الركن ، إذ تولى قيادة الفوج الثاني للواء الأول ، وكانت له - كما كتب عنه - بطولاته ، ولكن بعض المؤرخين لا يثقون بذلك ، لان الذي كتب عن ذلك جرى على أيام عهده في ما بعد* !

أول خلية للضباط الأحرار العراقيين:

وبدأ قاسم ينضم إلى بعض الخلايا لما أسمى بـ «حركة الضباط الوطنيين» ، أو «حركة الضباط الأحرار» - في ما بعد - والتي وقف يحركها لاول مره النقيب رفعت الحاج سري الذي كان يسمى بـ «الشيخ» لتقواه وورعه . . . ولقد كان التكتل الذي يسمى بـ «تكتل الضباط الوطنيين» يتألف من :

١ - العقيد الركن نجيب الربيعي أمر جحفل اللواء الأول .

٢ - المقدم الركن عبد الكريم قاسم أمر الفوج الأول اللواء الأول .

٣ - الرائد الركن طارق سعيد فهمي أمر كتيبة المدرعات .

٤ - الرائد الركن عبد الوهاب الأمين ضابط ركن القيادة .

٥ - الرائد الركن داود الجنابي ضابط ركن القيادة .

٦ - الرائد طاهر يحيى أمر سرية مدرعات .

٧ - النقيب محسن الرفيعي ضابط استخبارات فوج (ل) .

---

* يراجع عنه في :

Uriel Dann, *Iraq under Qassem: A political History, 1958 - 1963* (New York. 1969)

وانظر ايضاً :

H. Batato, *op. cit.* , pp. 778 - 9.

٨ - الملازم الأول خليل إبراهيم معادلة أمر سرية الهندسية الثالثة .

وكان ذلك ايام حرب ١٩٤٨ ، يقول عنه هذا الاخير الذي كتب تاريخا توثيقياً عنه : «انه - عبد الكريم قاسم - امتنع عن تناول أي كحول مدة بقائه في فلسطين رغم انه كان في حياته العسكرية يجامل جلاسه بالشرب في بعض الأحاديين . كان عبد الكريم قاسم كريماً للغاية ولكنه كان يتحدث عما وهب واعطى ، وعلماء النفس يقولون ان ظهور الإنسان بمظهر الكرم علنا وراءه حب الذات وإشباع غريزة حب الظهور وان الكرم الحقيقي هو من لا تعرف اليد اليسرى بما أعطت اليد اليمنى . كان عبد الكريم قاسم يوزع بعض راتبه على من يستحق المساعدة ، وحتى كان يدفع قيم طعام ضيوفه من الضباط في مطعم الضباط على غير ما تعارف عليه الجيش ، ولكنه كان يعلن عن ذلك كله ، فيفسر كرمه تفسيراً يؤيد الجانب الذي يقول ان وراء ذلك كله حب الظهور فقط .

ولكن رغم كل ما وجه إليه من نقد وتجريح على أعماله وتصرفاته ، فقد تمكن في كسب رضا قادة الجيش وعلى رأسهم نوري السعيد بحيث صعب على رجال العهد الملكي تصديق أي خبر أو وشاية تقدح بعبد الكريم وبالتالي تعذر عليهم اتخاذ أي إجراء هذه كما سنرى مستقبلاً» (اللغز المحير ، ٧٤/٦) .

كتل الضباط الأحرار في العراق:

عرفنا أن حركة الضباط الأحرار العراقيين قد ولدت في ارض فلسطين سنة ١٩٤٨ على يد رفعت الحاج سري ، وأنضم إليها عبد الكريم قاسم ونجيب الربيعي . . ولكن ازدادت تكتلات الضباط الأحرار في العراق اثر الاعتداء الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ ، ومن أبرز تلك التكتلات :

١ . الكتلة ألام التي أسسها رفعت الحاج سري في فلسطين ، ودارت في فلكها بقية الكتل الاخرى ، باعتبارها الكتلة التأسيسية .

٢ . كتلة ضباط الموصل المرتبطة بالكتلة ألام بواسطة الرائد الركن محمود عزيز الذي كانت له صلة قوية برفعت الحاج سري . . وكان الاخير كثير التردد على مدينة الموصل بحكم علاقة والده فيها .

٣ . كتلة الديوانية التي أسسها العميد اسماعيل علي اثر استقلاله عن التنظيم الام ، ولكن اكتشف أمره وأحيل على التقاعد .

٤ . كتلة ضباط الركن الاعوان (التي أسميت بعد ١٤ تموز / يوليو ١٩٥٨ بالحلقة الوسطية) ، والتي ألفها بعض ضباط الركن الذين تجمعوا في كتلة خاصة بهم ووحدهم اتجاههم الوحدوي ، وكانت قبل ذلك لهم علاقة بالتنظيم الام .

٥ . كتلة الملازمين الذين يتزعمهم الرائد طه الدوري ، وكان لهم علاقتهم ببعض المدنيين وبعبد السلام عارف واحمد حسن البكر . . وأيضا بنجم السهروردي الذي كان ينقل أخبارها الى رشيد عالي الكيلاني في منفاه ويبشره باليوم الذي يعود فيه الى العراق ، ولكن بصفة رئيس للجمهورية العراقية !

٦ . كتلة أبو غريب (أو : كتلة الدروع) ومن أعضائها : حسن مصطفى النقيب وغيره من ضباط الدروع . . وهي كتلة تعلن عن مساعدتها لأية كتلة تعلن الثورة . . ويذكر بأن بعض أعضائها تحولا الى جلادين في عهد قاسم ضد القوميين !

٧ . الكتلة الماركسية التي معظم ضباطها من الماركسيين والتي تشكلت اثر انسحاب مؤسسها ابراهيم حسين الجبوري من التنظيم الام وبعد بروز عبد الناصر قوميا . . ولم يكشف عن كل الاسماء في عضويتها .

٨ . كتلة المنصورية برئاسة عبد الكريم قاسم والتي انضمت اليها كتلة جلولاء التي كان يمثلها طاهر يحيى وناظم الطبقجلي وعبد السلام عارف وغيرهم . . وكانت كتلة المنصورية من أنشط الكتل نظرا لعلاقات عبد الكريم قاسم الواسعة مع ضباط بغداد وعلاقته بضباط بقية الكتل الاخرى . . ولقد ترأسها منذ عام ١٩٥٥ واعتمد في التنظيم على ضم أكبر عدد من صغار الضباط المرتبطين به بطريقة غير مباشرة .

٩ . كتلة جلولاء التي انضمت الى كتلة المنصورية . . واشتغلت معها برئاسة عبد الكريم قاسم كونه من أقدم القادة في تنظيم الضباط الاحرار .

١٠ .كتلة الضباط القادة التي تألفت في أوائل سنة ١٩٥٧ اثر الاعتداء الثلاثي على مصر ، وكل أعضائها من القادة ذوي الرتب الكبيرة نسبيا ، وبعضهم كان منظما في التنظيم

الام . أنضم اليها عبد الكريم قاسم الى هذه الكتلة واصبح رئيسا لها بحكم قدمه العسكري في شهر آب / أغسطس ١٩٥٧ . ضمّت هذه الكتلة : محي الدين عبد الحميد وناجي طالب ورجب عبد المجيد ومحسن حسين الحبيب وعبد الوهاب الامين وعبد الكريم فرحان ووصفي طاهر وصبيح علي غالب ومحمد سبع وعبد الرحمن عارف وعبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف وطاهر يحيى .

ويعلق صاحب «اللغز المحير» بأن قاسم لم يكن في الحقيقة « جادا لا في الانضمام إليهم ولا في قبول رئاسة تكتلهم وانما كانت الغاية من الانضمام لمعرفة النوايا والاتجاهات ومبلغ قوة هذا التجمع والوحدات التي اتصلوا بها وامكانياتهم على القيام بالثورة ، ترأس عبد الكريم قاسم هذا التكتل في عدد من الاجتماعات لا تتجاوز العشرة وكان يضم ضباطا اختلفت رتبهم ودوافعهم واتجاهاتهم وانعدم الانسجام الفكري والثقافي والعقائدي فيما بينهم . .» (اللغز المحير ، ص ٢٨٩) . وعليه ، فقد استمرت الخلافات بين الاعضاء ، مما سبب انسحاب بعضهم . . لصالح عبد الكريم قاسم الذي كان قد اتفق مع عبد السلام عارف ان يعلنا الانقلاب العسكري على الوضع القائم دون أن يخبرا احدا من اعضاء كتلة القادة عدا نفر قليل جدا ، وبذلك فوت قاسم الفرصة على الاخرين ، بعد أن دبر مقلبه بحيطة وذكاء ضدهم وضد النظام الحاكم معا . . وقد فوجىء الجميع من المنتمين للتكتلات بخبر الانقلاب من الاذاعة العراقية فجر يوم ٤١ تموز / يوليو ١٩٥٨* .

حركة الشواف في الموصل (نموذجاً)

كان لابد على محمد حسنين هيكل أن يمر على ذكر هذا الحدث التاريخي المرير الذي يعد جزءاً من عهد عبد الكريم قاسم أولا ، وجزءاً من العلاقة بين النظام الحاكم في بغداد والنظام الحاكم في كل من مصر وسوريا . . . وعلينا الآن أن نرصد محتوى الفقرات التي كتبها محمد حسنين هيكل بصدد الحركة الانقلابية العسكرية التي تزعمها آمر اللواء الخامس العقيد الركن عبد الوهاب الشواف في الموصل التي تهيأت قواها القومية من

* من أجل تفصيلات وثائقية وشهادات حية ، انظر : كتاب الذاكرة التاريخية لثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ، وكتب : اسماعيل العارف وعبد الكريم فرحان ومحي الدين عبد الحميد وغيرهم .

ناصريين وبعثيين وحركيين للثورة ضد حكم عبد الكريم قاسم ، وما قادت إليه من تداعيات مريرة واعمال قاسية بحق أبناء الموصل ، وكم ذهب في المدينة من ضحايا ابرياء ، وكم تعرضت المدينة الصامدة لظروف صعبة للغاية جرت فيها اعمال السلب والقتل والنهب . . وبالتالي : زيادة نزعة الانقسام السياسي أولا وتشويه السمعة العراقية على امتداد التاريخ ثانياً . . .

يقول هيكل : «وفي يوم ٨ مارس ١٩٥٩ تمردت الفرقة الثانية العراقية في الموصل بقيادة العقيد عبد الوهاب الشواف ، ودار قتال شديد بينها ، وبين قوات يسيطر عليها الشيوعيون ، واستطاع بمرض ينتمي إلى الحزب الشيوعي ان يطلق الرصاص على العقيد عبد الوهاب الشواف ويقتله . وبعدها استبيحت محافظة الموصل كلها لعملية من الإرهاب لم يسبق لها مثيل وصلت إلى قتل الناس بالمئات في الشوارع ، والى إرغام بعض الذين أيدوا تمرد الشواف من المدنيين على حفر قبورهم قبل إطلاق الرصاص عليهم ، والقاء جثثهم في القبور التي حفروها ، كما ان عشرات جرى شنقهم في أعمدة النور في الشوارع . ووقف جمال عبد الناصر يوم ١١ مارس في ساحة الجلاء في دمشق ليتحدث عن الإرهاب الشيوعي في بغداد ضد القوميين العرب ، ووصف الشيوعيين لاول مره بأنهم عملاء للاجنبي ، ولا يتحركون الا بتعليمات . وكان الإرهاب في الموصل على قدم وساق ، وتدفق عشرات الألوف من أهالي الموصل إلى محافظات سوريا العربية منهم لاجئين من المجازر الإرهابية . وأعلنت إذاعة بغداد انه جرى إعدام أربعة وخمسين عسكرياً ومدنياً في الموصل بدون محاكمة لان جرائمهم كانت واضحة ، ولا تحتاج إلى تحقيقات أو محاكم» (سنوات الغليان ، ٤٣٥) .

مناقشة النص وتوضيح الحقائق:

اذا كانت المعلومات التي اعتمدها الرئيس جمال عبد الناصر عن العراق من قبل طاقمه الدبلوماسي ببغداد على هذا الشكل ، فقد كان عبد الناصر مخدوعاً جداً بذلك «الطاقم» الذي كان يرسل بمعلومات غير دقيقة ! وإذا كان محمد حسنين هيكل قد اعتمد على تلك المعلومات التي وجدها في أرشيف هيئة المخابرات المصرية العامة ، بهذه الصيغة ، فكان الواجب عليه ان يتحقق منها عن المصادر العراقية الموثوقة . . . . فإذا كانت معلومات الوثائق

المصرية بهذا الشكل ، فلابد ان توضع علامات استفهام عديدة عليها . . . . وإذا كان هيكل نفسه قد بالغ أو غير أو بدل في نصوصها ، فهذه مشكلة مؤلفنا والذي أثرنا عنه هذه الاشكاليات التي من اجلها ألف هذا الكتاب في تفكيكه ونقده ! ولا ندري بأي صفة منحت هيئة المخابرات العامة ارشيفها لمحمد حسنين هيكل وأطلعته عليه ، إلا أن يكون هو نفسه أحد الذين تعاملوا مع تلك الهيئة منذ سنوات طوال . . . ولا ضير في ذلك ، ما دام قد استخدم ذلك «الأرشيف» في تأليف كتبه ، ولكن المشكلة تكمن في شقين اثنين :

اولهما : هل تعتبر معلومات هذا الأرشيف وتقاريره دقيقة ؟

ثانيهما : أم هل كان هيكل نفسه وراء إجراء تحريفات أو إضفاء مبالغات؟

ان لم يكشف عن ذلك في كله أو بعضه محمد حسنين هيكل نفسه . . . . واشك في حدوث ذلك كثيراً ، فإن المستقبل كفيل بالكشف عن ذلك كله !

ان «النص » الذي سجلناه في أعلاه عن هيكل حرفياً فيه الكثير من الأخطاء التي لا يمكن تجاهلها ، فضلاً عن اختصاره للموضوع بهكذا فقرة أو فقرتين . . . . دون تعليل أسبابه ومسبباته ، ودون تحليل إبعاده وتداعياته ودون الخروج منه بعدد من نتائجه واستنتاجاته ، علما بأنه يطنب ويسهب في مسائل وقضايا أقل منه شأنا . . فضلا عن كل هذا وذاك ، أن الحدث التاريخي نفسه ليس عراقيا خالصا ، فلقد كان للجمهورية العربية المتحدة وسياستها في المنطقة الأدوار المعلنة والخفية فيه :

مناقشة النص ونقده:

١ - التاريخ الصحيح هو ٨ آذار/ مارس ١٩٥٩ ، ولكنه استمر على مدى عدة ايام .

٢ - الفرقة الثانية العراقية لم تتمرد كلها على حكم عبد الكريم قاسم ، إذ تمرد اللواء الخامس الذي كان يتمركز في الموصل بقيادة العقيد الركن عبد الوهاب الشواف . . . . . في حيث كانت الفرقة الثانية تتمركز قيادتها في مدينة كركوك ، وكانت بقيادة الزعيم الركن ناظم الطبقجلي ، فالتمرد بدا مع الشواف في الموصل .

٣ - الشيوعيون لم يسيطروا على القوات ، ذلك ان تمرد الجيش بقيادة الشواف ساعد على

صدام سياسي اهلي بين فئات القوميين من طرف وبين الشيوعيين من طرف اخرا .

٤ - والصواب في مصرع الشواف ، انه اصيب بشظايا قنابل القتها طائرات ارسلها عبد الكريم قاسم من بغداد ، وكان السرب يقوده قائد القوة الجوية العراقية زعيم الجو جلال الاوقاتي . . . . وقد جرح قائد التمرد عبد الوهاب الشواف في مركز قيادته بمعسكر الغزلاني بالموصل ، مما استدعى نقله إلى المستشفى العسكري ، وهناك اجهز عليه أحد العاملين الشيوعيون . . . . وجرى سحل جثته في شوارع المدينة مع هتافات ضد الخونة والعملاء وضد جمال عبد الناصر والقومية العربية !

٥ - وبمقتله ، افتقد الأمن وضاع النظام في المدينة . . . ثم امتد الى بعض الاقضية والنواحي في لواء الموصل . وليس صحيحاً قول هيكل ان محافظة الموصل قد استبيحت كلها! ذلك لان قانون المحافظات لم يكن قد صدر بعد ، إذ كان اقليم الموصل يسمى بـ لواء الموصل . . . وقد وقعت الاحداث داخل المدينة وضواحيها فقط ، إذ لم يستبح كل اللواء الذي كان كبيراً تصل حدوده إلى تركيا وايران . . ثم امتدت الاحداث القاسية الى بعض الاقضية والنواحي ، ومنها : دهوك وسنجار وتلعفر وعين سفني وتكليف . .

٦ - ماذا يقصد هيكل بأن الموصل استبيحت كلها لعملية من الارهاب ؟

نعم ، لقد شهدت المدينة اعمالاً ارهابية وفوضى عارمة . . . إذ قتل في بداية الامر عدد من السياسيين الشيوعيين ومنهم كامل قزانجي ، وبعد مصرع الشواف وانهيار الوضع ، بدأ قتل القوميين من ناصريين وبعثيين ، ثم طال القتل عددا من المستقلين والمحسوبين على النظام الملكي القديم ، وأيضا بعض وجهاء المدينة وعلمائها ورجالاتها . . . وسحلت جثثهم في الشوارع ، ونهبت بعض القصور والدور كما احرق بعضها ، إذ قام باعمال النهب والسلب كل اولئك الذين كانوا يسكنون في الضواحي . . . فضلاً عن غلبة الكوميونات الشيوعية على القوى القومية التي يؤلفها ناصريون وبعثيون وحركيون وقوميون . . . ، فالف الشيوعيون محاكم حزبية اقتيد لها الكثير من ابناء تلك القوى والعديد من الناس المعروفين وعلماء الدين المسلمين ، وصدرت عدة أحكام باعدامهم بأساليب مختلفة ! ولقد سحل البعض حيا حتى مات بعد أن مثّل بالأجساد التي حرم

الله قتلها والتمثيل بها ، وعلقت الجثث على أعمدة الكهرباء ، وقد وصل الأمر الى قتل أحد أعيان المدينة مع ابنته الشابة وعلقت جثتيهما بوحشية شديدة أمام الناس !

٧ - يغالي محمد حسنين هيكل عندما يقول : «وصلت إلى قتل الناس بالمئات في الشوارع . . .» (سنوات الغليان ، ٤٣٥) . . . لا لم يصل العدد إلى المئات ، بل وصل العشرات !

٨ - وليس هناك عشرات جرى شنقهم في أعمدة النور في الشوارع - كما يقول هيكل - ذلك لان شناعة الحدث وقساوته ، ليست في المئات أو العشرات من الناس الذين ذهبوا ضحية فيه . . . بل تكمن المأساة في الذي جرى على امتداد أيام من فشل حركة التمرد التي قام بها الشواف في مدينة الموصل . . . وهي المدينة التي كانت متحفزة سياسيا لاي تمرد أو ثورة بفعل قواها القومية التي تألف فيها كل من الناصريين والبعثيين والحركيين وحتى الاسلاميين السلفيين ضد عقد مؤتمر يعقده أنصار السلام من الشيوعيين العراقيين الذين وصلت قطاراتهم من بغداد إلى الموصل بأسم قطارات السلام لعقد مؤتمرهم فيها ، وإصرار عبد الكريم قاسم على ذلك ، وعلى عقده في الموصل ، برغم اعتراض الشواف عليه !

حقيقة المأساة: من المسؤول عنها؟

تعلمنا الوثائق التي نشرت حتى يومنا هذا ، فضلا عن محاضر جلسات محكمة المهداوي (التي كانت قد نشرت في عدة مجلدات على عهد عبد الكريم قاسم نفسه) ، بأن التهاب الوضع السياسي في العراق بعد عدة أشهر من قيام ١٤ تموز / يوليو ١٩٥٨ ، جاء نتيجة للاصطدام السياسي وتفجر الموقف بين عبد الكريم قاسم وحلفائه الشيوعيين وبين جمال عبد الناصر ومؤيديه من القوميين ، وأحدثت محاكمة عبد السلام عارف انقساما بين الضباط الاحرار أنفسهم ، مما دعا الى ان يتحالف رفعت الحاج سري وناظم الطبقجلي وعبد الوهاب الشواف ومعهم كتلة من الضباط القوميين للقيام بحركة انقلابية ضد قاسم . . واتفقوا على ساعة الصفر بتشجيع من عبد الناصر .

لقد وجد الشواف في الموصل فرصة ثمينة في اعلان حركته ضد قاسم في بغداد ،

ولكن لم يشاركه في التمرد كل من الطبقجلي في كركوك ورفعت الحاج سري ببغداد . . وكان الوضع السياسي في الموصل متقرّحا جدا وعلى قاب قوسين أو أدنى من الانفجار . . وجاء عقد مؤتمر أنصار السلام فيها بمثابة اشعال لفتيل النار ، فانفجر الوضع بإعلان العقيد الركن عبد الوهاب الشواف وبمعيته عدد من الضباط القوميين البيان رقم (١) من إذاعة صغيرة كانت قد وصلت من سوريا بعد اتصالات جرت مع الرئيس جمال عبد الناصر ، ولكن حكومة بغداد ارسلت طائراتها لقصف امرية موقع الموصل . . .

فخرج الشواف بسيارته وكان جرحه بسيطا ينزف دما ، ونقل إلى المستشفى لكي يقتل هناك على يد أحد المضمدين الشيوعيين ، وتسحل جثته في شوارع المدينة من قبل الشيوعيين ، ولقد تمردت القطعات على امريها ، وخرجت المظاهرات في الشوارع واختلط الحابل بالنابل ، وبدأت المواجهة غير المتوازنة بين الشيوعيين والقوميين ، بقتل وسحل عدد من القوميين وانتهى النظام والامن في المدينة بهروب الشرطة من مراكزها ، وافتقدت الدوائر من موظفيها ، والمدارس من تلاميذها ، فهجمت الفئات المتنوعة من رعاع وغوغاء كانوا يحيطون بخارج المدينة إلى داخلها لكي تشارك في القتل والسلب ونهب القصور والبيوت العامرة . . . .

وعلى مدى خمسة ايام كاملة عاشت مدينة الموصل أحلك فترات حياتها ! وكانت حكومة بغداد وعلى رأسها عبد الكريم قاسم على علم بما كان يجرى في الموصل ، صحيح ان عدداً كبيراً من الناس قد قتل بأساليب شتى ، إلاّ ان معلومة هيكل مختصرة جدا عن شنق العشرات في اعمدة النور في الشوارع . . . وعلقت بعض الجثث بعد قتلها على تلك الاعمدة . . . . وهي نفس الطريقة التي جرى فيها تعليق جثة الامير عبد الاله ولي العهد العراق بعد قتله صبيحة يوم الرابع عشر من تموز/ يوليو ١٩٥٨ !!! وثمة معلومات نادرة لم يكشف عنها بعد عما جرى في انحاء لواء الموصل وخصوصا في مناطق قضاء دهوك الكردية ، ومناطق قضاء سنجار الغربية ، ومناطق قضاء تلعفر التركمانية ضد القبائل العربية ومضاربها في بادية الجزيرة . . ومنها عشائر البو محمد من شمر الجربا وعلى رأسها شيخ مشايخها احمد عجيل الياور ، وآل المطلك ، وآل الفيصل* .

* راجع التفصيلات التاريخية في :

Hanna Batato, *op. cit.*, pp. 866 - 889.

تصويبات تاريخية أخرى:

ثمة نصٌ اخر يذكره هيكل وفيه تهويل كبير عن الحدث المأساوي نفسه ، يقول : «وكان الارهاب في الموصل على قدم وساق وتدفق عشرات الالوف من اهالي الموصل إلى محافظات سوريا الغربية منهم لاجئين من المجاوز الارهابية . . . .» (سنوات الغليان ، ص ٤٣٥) .

ان الذين تدفقوا على سوريا من اهالي الموصل ليسوا بعشرات الالوف ، بل أفراد قلائل لا يتجاوز عددهم المائة ، ومنهم عدد من الضباط العسكريين والسياسيين المدنيين والتجار وشيوخ من قبيلة ألبو محمد شمر الجربا . . . وغيرهم . ولم يذكر هيكل أي معلومات عما حدث في مدينة كركوك بعد أشهر على مجازر الموصل ، فلقد حدثت مجزرة أخرى شبيهة بتلك التي حدثت في الموصل ، راح ضحيتها العشرات من الناس ولأسباب سياسية انقسامية تافهة بعيدا عن أية نزعة وطنية كانت تراعي ظروف البلاد الصعبة التي دخلت فيها !!

وهناك «نصٌ» آخر لم اجد أي توثيق واي مستند له . . . إذ يقول هيكل : «وكانت طاحونة الإرهاب ما زالت تدور في بغداد ، ووصل الامر إلى حد قيام بعض الشيوعيين بالدخول على عبد السلام عارف في سجنه حيث كان مقيداً بالسلاسل ، وضربوه بالخناجر حتى اثخنوا جسمه بالجراح» (سنوات الغليان ، ٤٣٦) ، ولا ندري من أين أتى هيكل بهذه «القصة» التي لا أساس لها من الصحة . . . ولما لم يكن هناك أي سبب للدفاع عن الشيوعيين العراقيين ، فلا يمكن لمحمد حسنين هيكل ان يختلق من عنده قصة لكي يلّمع بها صورة عبد السلام عارف !

ونص اخر كتبه هيكل جاء فيه : «وبدا الأمر وكأنه يقوم بحملة مركزه لتأييد الشيوعيين العرب وتحريضهم ، ولم يكن هؤلاء في حاجة إلى مزيد من التحريض ، فقد اصبح صوتهم في بغداد اعلى من الأصوات ، وبدأت المحاكمات الاستثنائية تصدر أحكام اعدام بالجملة على مئات من القادة الوطنيين ، وطالت حبال المشانق حتى التفّت حول أعناق مئات من المدنيين ، كما أصبحت طوابير الإعدام رميا بالرصاص يتربص كل يوم بمئات من العسكريين» (سنوات الغليان ، ص ٤٣٤) . لابدّ من القول بأن الفترة التي أعقبت ثورة

الموصل قد شهدت حركة اغتيالات واسعة للشيوعيين في عهد عبد الكريم قاسم ، وخصوصاً في مدينة الموصل ومدن عراقية اخرى مما سبب نزوح عدد كبير من عوائل الشيوعيين عنها الى العاصمة بغداد .

من أجل فهم عميق للعراق والعراقيين:

ولكن متى بدأ هذا «المسلسل» الدامي في العراق يا هيكل ؟ ومن الذي شارك في صنعه سياسيا ودعائيا ؟ لقد حدث أكثر وأكثر من الذي تحدّث عنه مذ حلت الانقسامات السياسية في حياة العراق ، وهو البلد الذي برغم كل تعقيداته الداخلية وتعددياته الاجتماعية وتنوعاته التاريخية بقي يعيش على امتداد تاريخه ارثا حضاريا وتماسكا اجتماعيا وتعايشا دينيا ومذهبيا وطائفيا قل نظيره لولا توظيف النزعات السياسية والايديولوجية والحزبية والعرقية والطائفية التي خلقت انقسامات ونزاعات وصراعات لا عهد له بها . . وبرغم ذلك كله ، لم يتعرض العراق يوما لأية انقسامات اجتماعية او جهوية محلية ، اذ حافظ على وحدته التاريخية وعلى موروثه الوطني عالي المستوى . . بحيث يتعّجب اليوم الناس من حفاظ يهود العراق بعد خمسين سنة على خروجهم منه على الروح العراقية الشديدة لديهم وتشبث حتى اولادهم الذين لم يعرفوا العراق على فولكلورياتهم وتقاليدهم وعاداتهم العراقية القديمة !

كان حريٌ بمحمد حسنين هيكل أن يستوعب كل هذا وذاك بعد مرور سنوات طوال على ما حدث في عقد الخمسينيات الصعب وهو يكتب عن العراق وأحداثه يومئذ . . وكان عليه أن يقف موقف المؤرخ الأمين المعتدل أمام تدبيج سلسلة المأساة ، من دون أن يلتزم طرف على حساب الطرف الاخر ، خصوصا وأنه عربي يعتز بمصريته وهو يكتب عن تاريخ العرب المعاصر فصلا مأساويا من حياة العراق والعراقيين الذين حدث ما حدث بينهم ، وغدت صورتهم ضمن أسباب سياسية عربية ودولية ذات مشاهد مؤلمة . . وان الجميع كانوا من المسؤولين عليها . . صورة مؤلمة لا يمكن لأي أحد ممن يمتلك حسّا عربيا وإنسانيا أن يتمتع بها ، أو يتشفّى لمناظرها السوداء !

وسيكتب التاريخ يوما أن العراق كان دوما ضحية أشقائه العرب بسبب عوامله الداخلية الصعبة التي يصعب على الآخرين فهمها واستيعابها ! ولا ندري اذا كانت الاوضاع السياسية في الخمسينيات والستينيات قد فرضت على بعض القادة أن يكونوا في حرب اعلامية ودعائية من أجل ايديولوجياتهم عهدئذ ، فماذا جنى العرب منها في الحدود الدنيا من تحقيق الفرص المشتركة ؟ لماذا يبقى العديد من الكتاب والمفكرين العرب حتى يومنا هذا أسرى ذلك الماضي الذي لا أطالبهم الا باعادة فهمه من جديد ، واحداث قطيعة معرفية معه بعيدا عن أي من أيديولوجياته . . وسواء كان ماضيا مجيدا زاهرا أم عقيما مستلبا . . فان عملية التفكير والبحث فيه من جديد على ضوء النقد التاريخي ، هو الاسلوب الامثل للتعلم منه والاستفادة من تجاربه . . ولنسأل هيكل : وماذا بعد كل هذه التجارب من خصومات مصر والعراق على امتداد النصف الثاني من القرن العشرين ؟

حرب الإذاعات العربية :

ينتقد هيكل ظاهرة الهجوم الدعائي ضد الجمهورية العربية المتحدة من قبل الإذاعة العراقية . . . . ويقول : «ففي أواخر سنة ١٩٥٩ كانت جماعة «مصر الحرة» قد نقلت نشاطها إلى بغداد ، وتقدم تقارير الاستماع الى اذاعة بغداد نماذج مريبة لخطوط الهجوم على الجمهورية العربية المتحدة من مواقع متعددة . . .» (**سنوات الغليان** ، ٥٤١) . ومن ضمن التعليقات التي كتبها هيكل في كتابه : ما يتعلق بارتكاب الجرائم ، وان الصنم الأكبر يحملق بعينيه صوب العراق المتحرر . . . والفراعنة الأقزام ، ومهزلة تخفيض رواتب الجيش السوري ، والحكام الفاشيست الخونة . . . . والعار يا جمال . . . الخ من العبارات التي ألفها المستمع العربي . . . ليس في هذا العام لوحده بل دام ذلك على امتداد النصف الثاني من القرن العشرين ! .

نريد ان نسأل هيكل : لماذا لم تكن حيادياً وموضوعياً حتى في هذه ؟ ولماذا لم تقل من هو الذي اذكى حرب الإذاعات بالعربية ؟ ولماذا لم تذكر ماذا كانت مهمة إذاعة صوت العرب ، وخصوصاً صوت ذلك المذيع الذي كرهته الجماهير بعد أن كانت تنصت إليه بكل جوارحها ! لماذا لم تذكر التعليقات التي كان يذيعها أحمد سعيد من صوت العرب باتجاهات

مختلفة يميناً وشمالاً ؟ لماذا لم تأت بنماذج من تعليقاته البذيئة التي كان يسم بها الزعماء العرب على مختلف الجبهات ملوكا ورؤساء وامراء وشيوخا ورجالات . . . ويسم بها قادة بعض الأحزاب العربية . . . . ويسم بها بعض الجماعات والاحزاب السياسية وحتى بعض النخب الفكرية والاجتماعية ؟ فالشعب العراقي لم ينس ما كان يطلق من تهجمات على نوري السعيد والتي أعقبها بتهجمات على عبد الكريم قاسم وعلى الشيوعيين ثم على البعثيين وغيرهم ! ناهيكم عن شتائمه للأردن والسعودية وتونس والمغرب ولبنان وسوريا وليبيا ومشيخات الخليج وإيران وتركيا . . . . . ويجعلها جميعا بصف اسرائيل . . . الخ .

ولم يزل العراقيون الذين اصبحوا شيوخاً كبار السن اليوم ، يتذكرون قوة الهجمة الدعائية الشرسة التي تعرض لها العراق في عقدي الخمسينات والستينات من الإذاعات المصرية وخصوصاً من اذاعة صوت العرب التي كانت تتدخل تدخلاً سياسيا سافراً بالشؤون الداخلية للبلدان العربية وللعراق بشكل خاص . . . وبطريقة تثير الاشمئزاز !! فلو عاد أحمد سعيد وعادت صوت العرب من جديد اليوم . . . واتبعاً الأسلوب نفسه لا سمح الله ، فسوف تتقطع العلاقات وما تبقى من أواصر بين الدول العربية !

لقد كانت الإذاعات العربية مثيرة للفتنة والشغب والاستفزاز والمطاعن والسباب والشتائم التي لم يعهد العرب بمثلها من قبل مطلقة على الهواء ، وتسمعها الملايين من الناس !! ولنا أن نتصور حجم تأثيراتها على جيل الأمس والذي كانت التطلعات مشدودة اليه لتحقيق الوحدة العربية ، وهو هدف نبيل ، أساءت حرب الدعايات والإذاعات إليه كثيرا بعيدا عن روح التضامن الحقيقي وتفهم المشكلات والمعضلات المعقدة لخصوصيات كل قطر عربي . . لقد أساءوا كثيرا لجيل القومية العربية الذي تربى على مبادئ سامية من أجل المستقبل ، ولكن خانته السياسات الفارغة والتطبيقات الخاطئة والشعارات الجوفاء .

على سفوح البركان: شلال يتدفق على الصخور

العنوان الأول في أعلاه من عند محمد حسنين هيكل سمّى به الفصل السادس من كتابه (سنوات الغليان) . . . اما العنوان الثاني فقد سمّى به الفصل الأول من ذاك الباب ، ولقد أخترت هذا «الفصل» من هذا «الباب» لمناقشته ونقده ، خصوصاً أنني وجدت كأي

قارئ مهتم بأن هيكل قد اخطأ كثيراً في معلوماته ، وحرّف كثيراً في معانيه ، وتعمد أي ينال من عبد الكريم قاسم الزعيم العراقي الذي قدمنا عنه صورة تاريخية مختزلة أزعم أنها واضحة جداً . . . وكان المطلوب من هيكل أن يكون حيادياً في تسجيله للأحداث ودقيقاً في نقله وكتابته للمعلومات . . . لان كل كلمة يكتبها الإنسان ، فهو محاسب عليها ، ولا بد أن يعترف بخطئه! فكيف نطمئن لاعمال أخرى كتبها هيكل إذا كان يكتب بمثل هذا المستوى ، والمصيبة ان هناك من يعتمد على كتبه ، إذ يتداولها الناس الذين كسب ثقتهم دون ان يدركوا خطورة ما يكتبه وينشره بالعربية !؟ وأنا لا أهتم كثيرا بما يترجم له طاقمه من الكتب فينشرها بالإنكليزية ، بالرغم من وجود خلل كبير وفوارق كثيرة بين بعض ما نشره باللغتين العربية والإنكليزية . . اذ وقفت على أمثلة عديدة ليس هذا مجال نقدها !

يكتب هذا عن نهاية عبد الكريم قاسم الذي يصفه بأبشع الصفات ، وبالرغم من أنني ما كنت في يوم من الأيام أتعاطف مع هذا أو ذاك من حكام العراق ، وبالرغم مما تلّقيته من تأثير اضطهادات الوضع الذي كنا عليه في العراق وأنا ابن (٧) سنوات عام ١٩٥٩ ، وما كان من حجم المعاناة الذي تعرضت له عائلتنا في الموصل بالعراق من جراء المأزق السياسي عندئذ ، إلاّ أنني كواحد من أبناء العراق ومواطنيه لا يقبل أبدا أن يقوم محمد حسنين هيكل بتشويه تاريخ العراق أولا ، وهو جزء من تاريخ العرب المعاصر . . والانكى من ذلك ثانياً ان ينشر على الناس في الصفحة (٦٧٦) من كتابه (سنوات الغليان) صورة عبد الكريم قاسم الذي حكم العراق وهو ساقط من فوق كرسي الإعدام على الأرض مضرجاً بدمائه . . .

فإذا كان العراقيون قد صفّوا بهذه الطريقة حساباتهم السياسية مع زعيمهم ونشروا صورته بهذا الشكل المهين ، فلا يمكن لك يا هيكل ان تصفق لهذه «الصورة» بنشرك إياها خصوصاً وانه كان برتبة أمير لواء في الجيش العراقي ، والذي يعتبر أقدم جيش في المنطقة ! واذا كان الحدث الذي وصفته وأنت في منتهى الفرح بـ «شلال يتدفق على الصخور» ، فهل تقبل على نفسك أن يقوم أي كاتب أو صحفي أو مؤرخ عراقي بنشر صورة مهينة لاحد الزعماء المصريين مهما كانت درجة الخلاف معه بهذه الكيفية !؟ ولماذا تروّج يا هيكل

مشروعاً للقتل عند العراقيين ؟ ومن سمح لك أن تتدخل في شؤونهم ؟ ألا يكفي ما حصدوه من تأثير الدعايات؟ ومن تأثير التدخلات السافرة على امتداد خمسين عاماً من حياتهم في القرن العشرين ؟ ولعلمك يا هيكل ان التعليق الذي كتبته تحت الصورة كان خاطئاً ، فصحيح أن «عبد الكريم قاسم كان مضرجاً بدمائه ، ولكن ليس في مركز او مكتب قيادته في وزارة الدفاع» بل في مبنى الإذاعة والتلفزيون ، حيث تمّ إعدامه في أحد استوديوهاته رميا بالرصاص ، وقبل أن يوّجه الرصاص اليه والى رفاقه الثلاثة بغزارة ومن موقع قريب ، لم يكن منهارا ، بل كان مصفرا شاحب الوجه لأنه عاش أكثر من ثلاثين ساعة يقاتل على أعصابه في الليل والنهار والتي تعد بطبيعة الحال أصعب ساعات حياته وأحلكها ، ولم يدخل في جوفه أى شيىء . .

ولما أدخلوه أسيرا على مجلس قيادة الثورة بشكل مهين وقد اقتلعت عن كتفيه رتبته العسكرية ، طلب محاكمة عادلة . . لكن واجهه خصومه وعلى رأسهم علي صالح السعدي وعبد السلام عارف وأحمد حسن البكر وعبد الغني الراوي وغيرهم بهجوم من الاسئلة والشماتة ونشوة المنتصر . . وعلى الرغم من الرواية الرسمية التي أذيعت عن محاكمته الصورية من أنه بقي صامتا لم ينبس ببنت شفتيه ، الا أن رواية أخرى تتحدث عن ان القرار قد اتخذ باعدامه سلفاً ، ويذكر المؤرخ مجيد خدوري بأنه من المحتم قد دافع عن نفسه دفاعاً شجاعاً ، وأنه يتحمل المسؤولية الكاملة* . . كما تقول رواية من شهد بنفسه تلك اللحظات أنه ردّ على اهانة علي صالح السعدي له باهانة تشابهها ! ويبقى الافضل له لو مات في ميدان المعركة في قلعته بوزارة الدفاع بدل أن يموت تلك الميتة التي لم يحسب حسابها عندما دخل بغداد دخول الفاتحين صباح يوم الرابع عشر من تموز / يوليو ١٩٥٨ .

عبد الكريم قاسم: وقفة من نوع آخر!

لعل افضل مصدر لمعلومات شخصية عن عبد الكريم قاسم هو الذي تضمنته الصفحات الأولى من الجزء السادس من كتاب : «اللغز المحير عبد الكريم قاسم» وقد كتب مؤلفه نبذه

* راجع : Majid Khadduri, *Republican Iraq*.., P. 81

تعريفية موثقة عن هذا الرجل الذي حكم العراق قرابة اربع سنوات ونصف السنة ١٩٥٨ - ١٩٦٣ ووصف من قبل خصومه بالجنون والغادر والسفاح وعدو الشعب وقاسم العراق والشعوبي والاقليمي . . . . ودعوني اعتمد على هذا «المصدر» الذي طبع في العراق عام ١٩٨٩ ، لتوضيح الصورة الشخصية لعبد الكريم قاسم الذي كان وما زال وسيبقى اسما يثير جدلاً وتناقضاً في تقييم الساسة والمراقبين والمؤرخين وحتى اقرب المقربين إليه . . . وفعلا كان الرجل لغزاً محيراً جمع عدة تناقضات في نفسية رجل واحد منذ ولادته وحتى إعدامه قبل أن يتم الخمسين من العمر . . . وقد علق المؤرخ الأمريكي (عراقي الأصل وموصلي التكوين) مجيد خدوري في كتابه «العراق الجمهوري» بأن عبد الكريم قاسم لو انهى حياته في ساعاته الاخيرة وسقط وهو يدافع عن نفسه في ساحة المعركة لكان له ان يكون جنديا بطلاً ، ولكنه آثر ان تكون حياته بأيدي جلاديه ، فاعدم ومات بعد ان فقد كرامته وشرفه العسكري أمام التاريخ* ! .

من هو عبد الكريم قاسم؟

ولد عبد الكريم قاسم سنة ١٩١٤ في محلة المهدية ببغداد من آب سني ينتمي إلى عشيرة زبيد وأم شيعية تنتمي إلى عشيرة تميم (فخذ السواكن) . . اشتغل أبوه نجارا ، وقد دعته الظروف ليعيش مع عائلته في قصبة الصويرة جنوبي بغداد ردحا من الزمن . . وكان لعبد الكريم قاسم أخوان هما السيد حامد الذي كان يشتغل بتجارة الحبوب ، وعبد اللطيف الذي كان نائب ضابط ، وقد استمر هذا الأخير بالخدمة في الجيش وبنفس رتبته العسكرية حتى ١٤ رمضان ٨ شباط / فبراير ١٩٦٣ ، كما أن له أختين ، هما : السيدة أمينة زوجة محمد صالح القيسي الذي كان يشغل رئيس كتاب محكمة الكاظمية ، والثانية هي السيدة نجيبة زوجة ابن عمته اللواء عبد الجبار جواد ، (أخو محمد علي جواد) .

وكان لعبد الكريم عم ضابط عثماني هو النقيب على أفندي محمد البكر الذي استشهد

---

* راجع : *Loc. cit.,*
ومن الاهمية ايضاً ، مراجعة ما كتبه كل من : يونس بحري في كتابه ثورة ١٤ رمضان ، وهاني الفكيكي في كتابه : اوكار الهزيمة ؛ وجاسم العزاوي في كتابه عن ثورة تموز ؛ وطالب شبيب في مذكراته . . وغيرهم .

سنة ١٩١٧ في الحرب العالمية الأولى دفاعا عن بغداد ضد الانكليز ، وكان عبد الكريم قد تأثر جداً بشخصية ابن عمته الطيار محمد علي جواد الذي تولى قيادة القوة الجوية العراقية عام ١٩٣٦ ، إذ كان من مؤيدي انقلاب بكر صدقي ، وقد لاقى حتفه مع الفريق بكر صدقي اثر مصرعهما سنة ١٩٣٧ في مطار الموصل بطلقات اغتيل كل منهما على أثرها . . . فاثر ذلك في نفسية عبد الكريم قاسم وهو ضابط برتبة ملازم أول ، إذ كان قد تخرج في كلية العسكرية برتبة ملازم في ١٥ نيسان/ أبريل ١٩٣٤ .

ومنذ عام ١٩٤٨ عندما أشترك في الحرب بفلسطين وهو برتبة مقدم ركن ، بدأ يعمل سرا مع من كان يثق بهم لتجمع من الضباط يكون باستطاعتهم تغيير نظام الحكم ، وقد نجح في أن يكون حاملا لشخصيتين أثنتين ، اذ كان يعد من المقربين لنظام الحكم الملكي ومن نوري السعيد بالتحديد . . في حين كان ينتقل من تأسيس تنظيم للضباط الاحرار الى تنظيم آخر . . ويذكر أنه خطط لأكثر من محاولة انقلاب منذ عام ١٩٥٢ ، ولكن كان يتراجع عن تنفيذها في اللحظات الاخيرة سواء بتأثيره أم تأثير غيره أم لتغير الظروف . . وله أكثر من محاولة يخطط فيها لقلب نظام الحكم من خلال قراره بتصفية العائلة المالكة ونوري السعيد . . ولم يكن يريد مطلقا ان ينفذ عملية الانقلاب غيره .

وعليه ، فقد كان ذكيا في مخادعة كل من نظام الحكم وعلى رأسه نوري السعيد وقادة الجيش من جانب . . وفي مخادعة الهيئة العليا للضباط الأحرار من جانب آخر ، كي ينفّذ بالاشتراك مع عبد السلام عارف انقلابه العسكري صبيحة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ ، ويتولى حكم العراق . وتبقى سنوات حكمه معروفة عند الناس بقضّها وقضيضها ، وبكل ما حملته من التناقضات والصراعات من ناحية والمكتسبات والانجازات من ناحية أخرى .

وقفة عند تركة عبد الكريم قاسم:

وكان عبد الكريم قاسم يعتمد في حياته على راتبه الشخصي كضابط في الجيش العراقي . . . . وعلى امتداد حياته . كان من طبيعته أن لا يضبط ميزانية راتبه بحيث كان يتجاوزه مما يضطره مرارا وتكرارا الى الاستدانة سواء عندما كان ضابطاً في الجيش العراقي أم عندما غدا حاكماً للعراق! ولقد مات عبد الكريم قاسم ولم يتزوج ، ولم يترك أي تركة من

مال أو ملك أو عقار . . ولم يكن في جيبه الا دريهمات ، بل أنه مات وثمة دين في ذمته لاحقه ذلك الدين وبقي مشكول الذمة حتى عام ١٩٧٨ . وليسمح لي القارئ الكريم ان اغتنم هذه «المناسبة» لاسجل في أدناه معلومات جد مهمة وهي صادقة وموثقة جاءت في كتاب «اللغز المحير» إذ تقول تلك المعلومات ما نصه :

«كان في الدار المؤجرة من قبل عبد الكريم قاسم من مديرية الأموال المحجوزة في السعدون تلفون شخصي باسمه رقمه (٨٢٢٦٤) ، وعندما تولى الحكم بعد ١٤ تموز أبقاه على حسابه الخاص ولم يحوله إلى تلفون رسمي . . . وكالعادة نسيانا أو إهمالا لم تدفع أجور التلفون للسنتين الأخيرتين قبل وفاته . وفي ١٩٦٦/١٠/١٤ طلبت مديرية التلفونات المركزية بكتابها المرقم ١٤٦٦ من الحسابات العسكرية (وزارة الدفاع) استقطاع مبلغ ١٣,٦٣١ دينار من رواتب الإجازات التي يستحقها الفريق الركن المتوفى عبد الكريم قاسم وإرساله إلى المديرية المذكورة ليتسنى لها غلق حساباتها المتأخرة إلاّ أن وزارة الدفاع لم تبت في الموضوع وطلبت ان تكون المطالبة بدفع المبلغ من رئاسة مجلس الوزراء حيث كان يتولى عبد الكريم قاسم رئاسة الوزارة إلاّ انه لم يكن يتقاضى راتب رئيس الوزراء البالغ ٤٠٠ دينار شهريا ، وانما كان يتقاضى راتب ضابط برتبته العسكرية التي توصل إليها بدون مخصصات منصب بالإضافة إلى ذلك انه حتى هذا التاريخ لم ينشأ لورثة عبد الكريم قاسم أي حق تقاعدي من مورثهم !

قرار مجلس قيادة الثورة :

وفي ١٩٦٧/٦/٦ ، عادت مديرية التلفونات المركزية بكتابها المرقم ١٨١٤٥ لتؤكد كتابها السابق وتطالب بدفع المبلغ من رواتب الإجازات الاعتيادية لعبد الكريم قاسم ، عندئذ تدخلت مديرية الأموال المحجوزة بكتابها ٢٤٣ والمؤرخ ١٩٦٧/٦/١٠ المعنون إلى أمانة الحسابات للأموال المحجوزة (باعتبار ان الدار المؤجرة تعود إليها) طالبة تصفية حسابات التلفون المذكور من رصيد عبد الكريم قاسم في المديرية ولم تحل مشكلة الدين هذا الذي بذمة عبد الكريم قاسم إلاّ بعد ان صدر قرار مجلس قيادة الثورة الرقم ٦٧ في ١٩٧٨/٥/١٧ القاضي بما يلي :

١ - يلغى قرار مصادرة الأموال المنقولة وغير المنقولة العائدة إلى المتوفى عبد الكريم قاسم ولا يشمل ذلك الهدايا التي سلمت إلى المؤسسة العامة للآثار .

٢ - يمنح عيال المتوفى المذكور الحقوق التقاعدية التي يستحقونها عنه كضابط في الجيش العراقي برتبة لواء ، يتولى وزير المالية تنفيذ هذا القانون .

احمد حسن البكر

رئيس مجلس قيادة الثورة

تنفيذ القرار والقسام الشرعي لعبد الكريم قاسم:

وبعد هذا القرار كتبت مديرية الدائرة القانونية إلى مديرية إدارة الضباط بكتابها المرقم ٣٣٨٤٧ في ١٩٧٨/٦/٢٤ إن قرار مجلس قيادة الثورة المشار إليه أعلاه قد انشأ لعيال المتوفى عبد الكريم قاسم محمد حقوقاً تقاعدية برتبة لواء ، وعليه فإن هذا القرار قد رتب للمتوفى المذكور خدمة تقاعدية وبالتالي يصبح مستحقاً للتقاعد وعندئذ تصرف رواتب الإجازات الاعتيادية التي هي ليست من الحقوق التقاعدية إلى ورثته تطبيقاً لحكم الفقرة ٤ من المادة ٣١ من قانون خدمة الضباط المرقم ٨٩ لسنة ١٩٥٩ ، وكان الراتب الشهري الذي كان يتقاضاه عبد الكريم قاسم هو كالآتي :

فلس	دينار	
-	١٣٥	دينار الراتب الاسمي .
-	-	راتب المنصب (لا يوجد برفضه تقاضيه) .
-	٨	مخصصات الخادم .
٢٥٠	٢٠	مخصصات السكن .
-	٢٤	مخصصات عائلية .
٢٥٠	١٩٢	مجموع ما كان يتقاضاه شهرياً (مضروباً في ستة اشهر (مجموع إجازاته) التي تصرف رواتبها طبقاً للقانون) .

مع ملاحظة ان سماحه القانوني غير الخاضع لضريبة الدخل هو ٤٥٠ ديناراً وضريبة الدخل المستحقة عليه هي ٣٠ دينارا استقطعت من هذا المبلغ ، أي ان المبلغ الصافي من مجموع رواتبه بلغ ٩١٠,٤٢٥ دينارا وزعت حسب القسام الشرعي . . . وهكذا حلت ديون قاسم . لم تعد الدار التي خصصت إليه من مشروع إسكان الضباط (ويقال أن دائرة اسكان الضباط لم تسمح له قانونيا بتملك الدار باعتباره غير متزوج ، ورفض أن يصدر قانونا خاصا به) الذي تأسس بعد ثورة ١٤ تمـــوز ، كما خفضت رتبته من فريق إلى لواء» . . (انتهى النص) .

ويعلق صاحب كتاب (اللغز المحير) بقوله : «اصدر عبد الكريم قاسم قانونا بمصادرة أموال نوري السعيد وظهر ان كليهما لا يملك الأموال» (اللغز المحير ، ص ٩ - ١١) ولم يتزوج عبد الكريم قاسم ، وعليه فلم يخلف له ذرية ، وجاء في القسام الشرعي بأن ارثه الشرعي انحصر بكل من أشقائه الكبار حامد وعبد اللطيف وشقيقاته الكبريات امينة ونجية (حسب القسام الشرعي الصادر عن محكمة شرعية الكرادة ببغداد العدد ١٩٧٨/٤٥٨ وبتاريخ ١٩٧٨/٩/٥ وتسلسل القسام ٤٣٤ وتوقيع القاضي محمد حسن كشكول) .

ثورة / انقلاب ١٤ رمضان-٨ شباط / فبراير ١٩٦٣ :

بعد كلام أدبي إنشائي وبأسلوب محبب للقارئ الذي يعجبه دوماً أن تدغدغ عواطفه . . . . يقول محمد حسنين هيكل : «وفي ساعة الصفر المقررة للانقضاض (= صباح يوم ٨ شباط / فبراير ١٩٦٣) على عبد الكريم قاسم بدأ سلاح الطيران الذي كان يقوده اللواء عارف عبد الرزاق بضرب وزارة الدفاع مقر قيادة قاسم مسكنه بالصواريخ . . . . كان عبد الكريم قاسم معتاداً على ان يسهر الليل كله ، وينام النهار متحسباً من حدوث انقلاب في الليل أو عند الفجر ، وحين بدأت التحركات ضد نظامه في الساعة التاسعة والنصف صباحاً لم يكن قد نام بعد . . . .» (سنوات الغليان ، ص ٦٧٥ - ٦٧٦) إلى ان يقول هيكل : «ثم ما لبثت الأنباء أن تسربت بأن عبد الكريم قاسم قد قتل رمياً بالرصاص داخل ستوديو خاص أقيم في وزارة الدفاع لكي يسجل منه بياناته للإذاعة والتلفزيون ، وحين داهمته القوات المهاجمة واقتحمت عليه معقله ـ فقد كان في داخل هذا الأستوديو يحاول أن يسجل

للتلفزيون بياناً يدعو فيه إلى مقاومة الثورة عليه . ولم تمض ثوان حتى كان عبد الكريم قاسم قد سقط قتيلاً ، ومعه عدد من معاونيه بينهم ابن خالته العقيد فاضل عباس المهداوي ومدير مكتبة الخاص العقيد وصفي طاهر . . . وفي الساعة العاشرة إلاّ ثلثا كانت إذاعة بغداد تذيع البيانات الأول للثورة . . . .» (سنوات الغليان ، ص ٦٧٧) .

تشويه الحقائق عند هيكل: من أجل تصويب التاريخ !

هذا تشويه متعمد للحدث التاريخي المشهور ، كما يدركه كل العارفين بمجرياته سواء من العرب أم العراقيين . . عندما اندلعت التمردات العسكرية بمشاركة الثوار البعثيين صباح يوم ١٤ رمضان الموافق ٨ شباط/ فبراير ١٩٦٣ ضد حكم عبد الكريم قاسم الذي قاوم لأكثر من أربع وعشرين ساعة ، فكل ما سجله محمد حسنين هيكل كان خاطئا لا يقبله حتى الناس العاديين الذين يمتلكون قدرا بسيطا من المعرفة والمتابعة للأحداث التي جرت في الستينيات . . . . وسألخص ما جرى في حقيقته التاريخية ، وليقارن القارئ الكريم بين الذي ها هنا اكتبه وبين الذي كتبه هيكل في كتابه «سنوات الغليان» .

ان عبد الكريم قاسم كان في بيته صباحاً عندما قصف جناحه الخاص في وزارة الدفاع من قبل الطيارين الثوار بسرب من طائراتهم ، وقد علم منذ اللحظة الأولى انها حركة انقلابية ، ولكنه استخف بها ، وبدلا من ذهابه إلى مقر لوائه التاسع عشر في معسكر الرشيد وهو اللواء الذي كان له منزلة خاصة في قلبه وان يقوم من هناك بتجميع قطعات الجيش في واحد أو أكثر من معسكرات بغداد ، ذهب بسيارته إلى وزارة الدفاع وكانت تلك خطيئة منه . . . . وحاول من هناك قيادة معركة خاسرة لا محالة فأجهزة الهاتف معطلة ، والقصف يتوالى ، ويكتب اغلب الذين أرخوا الحدث ، أمثال : مجيد خدوري وحنا بطاطو وغيرهما ، انه كان بمقدوره ان يحوّلها إلى حرب شوارع في بغداد بتوزيعه الأسلحة على الموالين له ، وأغلبهم بطبيعة الحال من الشيوعيين ، ولكنه كما قال : «لا أريدها حرباً أهلية . . . . أريد أن تحقن الدماء» . . . .

وزاد القصف عليه مع تطويق الوزارة بالمدرعات واشتعال القتال بين المهاجمين

العسكريين وبين الجنود المدافعين الموالين له داخل الوزارة . . . . وقد بقي معه ثلة من أعوانه الذين اخلصوا له حتى النهاية . . . . واستمر القتال على امتداد نهار الجمعة وليلة السبت في حين كانت قيادات من الشيوعيين الموالين له قد قضي عليها ، وقتل العشرات (ويقال : المئات) من المدافعين عن نظامه ، كما قتل العديد من الثوار البعثيين الذين كانوا يشتبكون في أطراف من بغداد مع حالات قتال فردية أو فلول تظاهرات جماعية . . . مضى الليل بطوله والقتال على اشده . . . .

كانت هناك قاعة ملاصقة لوزارة الدفاع اسمها «قاعة الشعب» نزل إليها عبد الكريم قاسم مع أربعة من أعوانه بعد أن فلت زمام الأمر من يده وانقطعت اتصالاته بالعالم اجمع ، مع إلحاح قيادة الثورة المسلحة بتسليم نفسه ، وقد أبى في بداية الامر ، لكنه قبل الاستسلام عبر مبعوث وسيط وهو صحفي معروف له علاقة بالطرفين مشترطاً الحفاظ على كرامته وتسفيره إلى خارج العراق . . . وكان ذلك في اليوم الثاني على الانقلاب ، عندما قبل بتسليم نفسه ويقال بأنه كان صائماً لم يذق حتى الماء ولكنه بقي في بزته العسكرية وبكامل قيافته ، ولم يتوان أبدا عن القيام بحلاقة ذقنه صباحاً . . .

اقتيد بعد أن جرد من مسدسه مع رفاقه لكي تنقله إحدى المصفحات إلى دار الإذاعة والتلفزيون ، وتنقل مصفحة أخرى رفاقه الأربعة . . . وكانت قيادة الثورة قد اتخذت من مبنى الإذاعة والتلفزيون في الكرخ على الجانب الأيمن من نهر دجلة مقراً لها . . . .وفي إحدى قاعات محطة الإذاعة واجه عبد الكريم قاسم خصومه من الثوار المنتصرين عليه ، وكان في موقف لا يحسد عليه . . . وبالرغم من ان القيادة الجديدة التي نصبت على رأسها عبد السلام عارف شريكه الأقدم في ثورة تموز/ يوليو والذي غدا خصماً له ، نصبته رئيساً للجمهورية دون أي انتخاب دستوري ، فقد صرحت بالراديو أنها شكلت محكمة لمحاكمة عبد الكريم قاسم . . وأن المحكمة أصدرت حكمها عليه بالإعدام رمياً بالرصاص ، وأيضا على أعوانه الثلاثة من دون الرابع الذي انقذ رأسه . ولقد تمّ تنفيذ الحكم فورا في إحدى استوديوهات محطة الإذاعة والتلفزيون . . بينما كان هناك قتال في عدد من شوارع بغداد .

ويذكر اولئك الذين شهدوا ذلك الموقف التاريخي ، بأن عبد الكريم قاسم كان شجاعاً

حتى آخر لحظة في حياته ، دافع عن نفسه دفاعاً قوياً مذكّرا بأنه قائد ثورة ١٤ تموز ضد الاستعمار ، وأنه قد خدم العراق وشعب العراق لكن خصومه لم يرحموه وذكروه بأنه لم يرحم أولئك الضباط القوميين الذين اعدمهم ، كما وحملوه مسؤولية أحداث مدينتي الموصل وكركوك عام ١٩٥٩ ، وأنه كان وراء عزل العراق عن تحقيق الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة . . . . ذهبوا ليلاً بجثته ودفنوها في مكان بعيد عن بغداد ، ولكن اكتشف موقع قبره ، فخاف البعض ان يصبح قبره مزاراً ، فرفعوا جثته من قبره وجاءوا بها ليرموها في قاع نهر دجله ، ولم يبق لعبد الكريم قاسم شبر من أرض العراق يضم قبره ، وما أشبه اليوم بالبارحة ، اذ لم يبق لنوري السعيد أي شبر يضم ما تبقى من أشلائه !

لقد انتهى عهد عبد الكريم قاسم ليدخل العراق عهداً من نوع آخر ، فيجلس جمال عبد الناصر مع شخصية عراقية غريبة الأطوار أثارت ضحك المصريين كثيرا ، ولم يسلم علي صالح السعدي بطبيعة الحال من تعليقات محمد حسنين هيكل . . وجلس عبد الناصر يتأمل الأفلام والسيناريوهات السياسية المؤلمة التي جرى إخراجها في العراق إزاء مصر في عهود سياسية ثلاثة كان له دوره في مخاضاتها الصعبة : نوري السعيد وعبد الكريم قاسم وعلي صالح السعدي . . ولكنه لم ينس عبد السلام عارف في ركب القافلة والذي بشّر بمشروع للقتل . . في حين كان العراقيون في بيوتهم يرّددون بينهم وبين أنفسهم قولا مأثورا يعتبرونه من الحديث النبوي الشريف يتألف من ثلاث كلمات تقول : «بشّر القاتل بالقتل» .

انطباعات جمال عبد الناصر وموقف مصر:

ينقل محمد حسنين هيكل صورة من خطاب كتبه جمال عبد الناصر وارسله إلى عبد الحكيم عامر الذي كان موجوداً وقت ذاك في اليمن بتاريخ ٩ شباط/ فبراير ١٩٦٣ ، أي غداة يوم أحداث ١٤ رمضان في العراق ، فقد كتب بعض الأمور التي أود التوقف عندها لتحديد موقف عبد الناصر منها ، يقول :

١ - لقد اتصل بنا القوميون العرب منذ عدة اسابيع ، حوالي أربعة أسابيع ، وابلغونا ان الفئات القومية اتفقت : البعثيون ، القوميون العرب ، والناصريون وشكلوا مجلس ثورة ووزارة . . وسألونا عن موقفنا وكان ردي أننا نؤيد أي ثورة عربية . . . . . (حسب قول عبد الناصر) .

٢ - وفي يوم الجمعة بدأت الثورة في بغداد . . . وقد ساندناها منذ الدقائق الأولى مساندة واضحة ، وفي المساء اعلنت الحكومة ، وظهر من الإعلان أن بها النصف من البعثيين ، وقد ظهر ان عبد السلام عارف لا يمثل القوى الحقيقية ، إذ ان البعثيين لهم قيادة ويمثلون حزب سياسي ، أما الباقي فكل وحده ولا حزب يجمعهم ، وفي هذا يظهر أن حزب البعث (جناح عفلق) يسيطر على الثورة لحد كبير . . . . (حسب قول عبد الناصر) .

٣ - أرى اتباع سياسة التروي ، فقد كان البعثيون في العراق على سياسة طيبة معنا ، ولكن ماذا سيكون تأثير «ميشيل» ؟ (يقصد : ميشيل عفلق) ؟ وفي رأيي أيضاً أن الفئات القومية الأخرى لن تقبل بسهولة انفراد البعث ، وان عارف لن يقبل بسهولة أن يكون صورة !

٤ - واليوم أعلن عفلق ان الحوراني (= اكرم) انتهازي منحرف لا مكان له في حزب البعث . . . . ولا بد من حصول معارك صامته داخل مجلس الثورة !

٥ - معلوماتي ان السوفييت أصيبوا بذهول لما حصل في العراق لقاسم ، ولما حدث للشيوعيين الموالين له ، ولاحظت ان صحافة الشيوعيين في بيروت تقول أن الثورة أمريكية ناصرية ، وهذا شيء غريب ـ على حد تعبير عبد الناصر نفسه ـ (سنوات الغليان ، ص ٦٧٨ - ٦٧٩) .

وفي رسالة أخرى كتبها جمال عبد الناصر إلى عبد الحكيم عامر الذي ما زال في اليمن . . . نلتقط الجوانب التالية ، وعلى ذمة محمد حسنين هيكل الذي نقل هذا كله على لسان جمال عبد الناصر (وبامكان القارئ ان يرجع الى صورة الرسالة بخط عبد الناصر في ملحق وثائق سنوات الغليان) :

١ - يذكر بأن «الموقف في العالم العربي تغير بشكل كاسح بعد ثورة العراق ، ومع ذلك فأنا ما زلت اشعر القلق ، فقد أرسل لي عبد السلام عارف عدة جوابات قبل وصول وفد مجلس قيادة الثورة الذي حضر لاحتفالات الوحدة ، وفي هذه الجوابات فهمت أن عبد السلام عارف متخوف من البعثيين» . . . . .

٢ - وقد وصل وفد العراق أول أمس ، ويعطي عبد الناصر انطباعاته عن السعدي (هكذا يسميه واسمه الكامل : علي صالح السعدي) أمين عام حزب البعث وصفه عبد الناصر

كونه مغروراً مندفعاً تجاهل في خطابه اسم عبد السلام عارف وتجاهله في المباحثات .... ولكن انطباعي بالنسبة له انه وطني مخلص .

٣ - الرسالة تسمى صالح مهدي عماش باسم الفريق علي صالح عماشه وهو ليس خطأ مطبعي ، ذلك لأن الخطأ يتكرر عدة مرات (في الصفحتين ٦٨٠ - ٦٨١ من الكتاب) . واذا كان عبد الناصر قد أخطأ في كتابة أسم صالح مهدي عماش ليسميه «عماشه» ، فكان من مهمة محمد حسنين هيكل أن يصلح الخطأ بنفسه ، ولا أدري كيف يفوت ذلك على هيكل وهو الذي عاصر الاحداث وعرف القادة العرب واحدا واحدا !!

٤ - والاهم من كل ذلك كله ما يكتبه عبد الناصر : «وقال عماشه (يعني به : صالح مهدي عماش وزير الدفاع) انهم اعتقلوا ٨٠٠ ضابط شيوعي منهم ١٥٠ طياراً لدرجة ان الأسراب الان بدون طيارين ، وقد دمروا سرب ميك ١٩ موالٍ لقاسم ، واعتقلوا أربعة آلاف شيوعي ، وقتلوا عدداً كبيراً منهم بدون محاكمة في أول يوم ! (ولا أريد أن أعلق على ذلك الا بسؤال : ماذا كان رد فعل عبد الناصر وهو يسمع هذا كله ؟ وبماذا أجاب هذا الذي يسمّيه عماشه ؟) . ولكن دعونا نكمل ما كتبه عبد الناصر كما جاء به محمد حسنين هيكل نصا وروحا :

عموما الموقف أيضاً في الجيش وبين الفئات القومية لا يدعو إلى الارتياح ، مجلس الثورة اغلبه من البعثيين ، وعارف عبد الرزاق ليس من ضمن المجلس . والثورة قام بما يقرب من ٩٠٪ منها القوميون في الجيش - غير البعثيين - و ١٠٪ بعثيون ، وقد اعتمد البعثيون على الحرس القومي ١٠٠٪ بعثيون ، وفي رأيي أن الكل متربص بالاخر ، البعث يريد السيطرة الكاملة ، والكل متخوف من البعث - على حد ذكر جمال عبد الناصر - (سنوات الغليان ، ص ٦٨٠ - ٦٩١)* .

كلمة للتاريخ لابد منها:

سواء كان العراقيون على خطأ أم صواب في الذي أقدموا عليه ، وأنتصروا أم أخفقوا فيه .. فان مضمون ما جاء في رسالتي جمال عبد الناصر الى عبد الحكيم عامر ، فضلا عن

* هناك اخطاء مطبعية ونحوية لا تعد ولا تحصى في نقولات هيكل ونصوصه بكتابه سنوات الغليان .

التدقيق مليا في الذي جرى من مباحثات مصرية سورية عراقية من أجل الوحدة ـ على ذمة نقولات محمد حسنين هيكل ـ تمنحنا فرصة للتأمل في النتـــائج التي وقف عليها جمال عبد الناصر بعد كل الذي فعله من منازلات ضد أنظمة الحكم السابقة (وخصوصا في العراق) . وعليه ، فان ثمة نتائج يمكننا الوقوف عندها :

١ . لم يكن جمال عبد الناصر مرتاحا البتة مما حدث في العراق ، لأن النقلة الدموية التي حدثت فيه قد حولّت العراق من أيدي الشيوعيين الى أيدي البعثيين ، وهو أكثر سماحة مع بعثيي العراق مقارنة ببعثيي سوريا ، ولكن خصومته مع ميشيل عفلق الذي جاء جناحه الى السلطة بعد عبد الكريم قاسم جعله يتخذ هذا الموقف ، وقد وجد بأن الناصريين العراقيين لا حول لهم ولا قوة . . وخصوصا عندما يذكر عارف عبد الرزاق بالاسم ، فضلا عن الاحباط الذي مني به عندما علم بالموقع الهش الذي نصّب فيه عبد السلام عارف !

٢ . لقد كان عبد الناصر يتمنى زوال خصمه في العراق عبد الكريم قاسم ، ولكن ليس على أيدي القوميين البعثيين ، بل كان يتمنى ذلك على أيدي القوميين الناصريين . . ولقد توضّحت مواقفه الحقيقية في اجتماعات الوحدة الثلاثية بين قيادات مصر وسوريا والعراق . . (انظر : محاضر محادثات الوحدة الثلاثية ، مارس ـ ابريل ١٩٦٣ بالقاهرة في كتاب هيكل : سنوات الغليان ، ص ٦٨٩ ـ ٦٩٩) فضلا عن انتقاداته اللاذعة لبعض تصرفات واقوال وتصريحات كل من القادة السوريين والعراقيين . . وكل من الاثنين كانوا من البعثيين ! فضلا عن الدروس التي ألقاها على أسماع القادة العراقيين بدءا بعلي صالح السعدي واحمد حسن البكر وصالح مهدي عماش . . وتحذيره أياهم من مغبة بعض التصرفات التي قد يقدمون عليها ، وخصوصا مع الكويت .

٣ . نعم ، لقد بقي جمال عبد الناصر يحلم بوصول أي فئة قومية ناصرية الى حكم سوريا والعراق ، واذا كان قد غسل يديه من السوريين ، كما تجلّى ذلك في مداخلاته اللاذعة مع قياداتهم في مفاوضات الوحدة ، فقد كان الرجل يراهن على العراق ، بعد تجربة الانفصال المريرة مع سوريا . . وها قد جاء الى كل من سوريا والعراق حكم البعث . . ولقد زحف اليه الاثنان بطلب الوحدة الفورية ، والاستماتة من قبل السوريين اليها ثانية ! لكننا وجدناه يرد

عليهم بأسم المبادىء والظروف . . وجعلهم أمام مسألة تعجيزية . . ليس لأنه لا يؤمن بحلمها ، بل لأنه لا يريدها معهم فعلا ! وانني اعتقد وربما كنت مخطئا بأن التجربة قد علمت عبد الناصر الكثير سياسيا ، وخصوصا ما يتعلق بقدرة وحدة حزب البعث العربي الاشتراكي في كل من سوريا والعراق ، ولكنه لم يكن يدرك الواقع الفعلي والعملي الذي عليه الأمور في كل من سوريا والعراق من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والاثنية والقومية . .

٤ . والدليل على ذلك ، أن عبد السلام عارف الذي أطاح بعد قرابة تسعة أشهر بالبعثيين من حكم العراق وذلك يوم ١٨ تشرين الاول ١٩٦٣ ، وغدا هو السيد الناهي فيه لم يحقق أي نجاح قومي يذكر مع صديقه جمال عبد الناصر على مستوى تحقيق المبادىء . . بالعكس ، فقد جرت أكثر من محاولة انقلاب ناصرية فاشلة ضد حكم عبد السلام عارف ، ومنها ، تلك التي قام بها عارف عبد الرزاق المحسوب على عبد الناصر ، وكان يتمتع بمنصب رئيس وزراء العراق مستغلا حضور عبد السلام عارف في مؤتمر القمة بالمغرب ! ويقال ان الرئيس العراقي عبد السلام عارف تلقى خبر المحاولة الانقلابية اثناء انعقاد احدى الجلسات ، وكان في حالة عصبية شديدة . . وقبل ان يغادر قاعة المؤتمر كي يرجع مسرعاً الى بغداد ، التفت اليه الرئيس جمال عبد الناصر سائلاً اياه مبتسماً : ما الاخبار ؟ فأجابه : مجرد انقلاب فاشل قام به ناصريون (. . . . . .) !

استنتاجات معرفية:

يعد هذا «الفصل» من أخطر فصول هذا «الكتاب» ليس لأنه يضمّ مادة نقدية بصدد رؤية هيكل لتاريخ العراق المعاصر ، بل لأنه يحتوي ـ كما أزعم ـ على بعض الأفكار الجديدة التي تسمع لأول مرة ، وخصوصا بصدد المتغيرات التي حدثت في كل من العراق ومصر بعد عام ١٩٤٩ ، وتوغل المصالح السياسية الامريكية في المنطقة والتي بدأت مع تأسيس الكيان الصهيوني في فلسطين وامتدت على طوال النصف الثاني من القرن العشرين . . بعد أن انتهى الدور البريطاني القديم ضمن النظام الدولي الذي جاء بعد الحرب العالمية الاولى وصاغ خريطة الشرق الاوسط . . في حين انتج النظام الدولي الذي جاء بعد الحرب العالمية الثانية المتغيرات الصعبة التي عاشتها المنطقة في خمسينيات القرن العشرين !

لقد توضّح لنا بشكل جلي ذلك الدور الجيوستراتيجي الذي كان للعراق سواء على العهد الملكي فيه أو على العهد الجمهوري . . وأوضح هيكل في واحد من أشهر كتبه والموسوم «سنوات الغليان» تلك القيمة السياسية التي أستحوذ العراق عليها ، ولكن حكامه القدماء وعلى رأسهم نوري السعيد لم يعوا جملة المتغيرات التي أصابت المنطقة اولا والعالم ثانيا . . في حين لعب الرئيس جمال عبد الناصر دور الخصم اللدود لنوري السعيد ، وكان لكل منهما مشروعا مضادا للآخر ، فالمشروع القومي الوحدوي العربي الذي مثّله عبد الناصر والذي لم يتخل عن نزعته الإقليمية المصرية كان المشروع المضاد للمشروع الإقليمي الشرق أوسطي الذي مثّله نوري السعيد والذي لم يتخل بدوره عن نزعته القومية !

وبقيت الخصومة مستعرة الجوانب بين طرفين أثنين : الرجعية العربية وحركة التحرر العربية ـ هكذا أسميتا ـ ، ولم يبق الانقسام بينهما ، بل كانت الرجعية العربية منقسمة هي الاخرى على نفسها . . في حين حدثت انشقاقات مريرة ودموية لدى اطراف وجماعات وأحزاب حركة التحرر العربية . . حتى اذا ما قارب القرن العشرين على نهاياته ، وجدنا كل شيىء قد انتهى وفات أوانه ، اذ استجدت انقسامات من نوع آخر ، وخصوصا بعد عام ١٩٧٩ واندلاع الثورة الاسلامية في ايران التي كان لتداعياتها أكبر الاثر على الاوضاع العربية وأوضاع العالم الاسلامي . . اذ تاه الجميع بسقوط الكتلة الاشتراكية عند مطلع التسعينيات !

وأعلمنا هذا «الفصل» عن بعض الاخطاء التي كان هيكل قد وقع بها ، وهي غيض من فيض خصوصا ما يتعلّق بشأن اوضاع العراق . . ويتعجب المرء كيف تغيب عن هيكل بعض الاسماء والحوادث والمعلومات في تاريخ العراق المعاصر ، وهو الذي عاصرها والتقى بعدد كبير من رجال العراق وخصوصا على العهد الجمهوري . . وعليه ، فان جملة الشروحات والتفصيلات التي أتينا بها ليس من أجل تصويب ما وقع به هيكل من الاخطاء ، بقدر ما هو محاولة لاثراء المعرفة التاريخية العربية المعاصرة . .

ثم أن جملة الأخطاء التي وقع بها هيكل وهو يكتب عن العراق إنما تعطي مثلا ساطعا وأكثر عن المواقف المسبقة لهيكل ضد العراق والعراقيين . . خصوصا عندما يصورّهم على ألسنة العراقيين أو من خلال عدسات كاميراتهم وبأسلوب غير مباشر أنهم يوشون بزعمائهم

ويصفونهم بالجنون ، وانهم يفضلون الغرباء على بني جلدتهم . . وانهم يتعصّبون لاتفه الاسباب . . وهذا زعيمهم وصانع ثورتهم التي يعتزون بها وقد قتلوه شر قتلة وشنعّوا بصورته وهو يتضرج بدمه . . هكذا يريد هيكل أن يقول ؛ وكان من قبله أحد أبرز زعماء العرب من العراقيين في النصف الأول من القرن العشرين . . وهو الآخر قتله العراقيون وشنّعوا بجثته وقد حصدوا معه الأسرة المالكة العراقية ، والتي لم يكتب هيكل عنها إلا القليل !

ولعل من الامور التي سيتوقف عندها أبناء الاجيال العربية القادمة وخصوصا في مصر والعراق ما كتبه هيكل عن الدور الذي مارسته مصر على عهد جمال عبد الناصر في التدخل السافر بالشؤون الداخلية العراقية سواء في العهدين الملكي والجمهوري ، تحت واجهة الدعوة الى التحرر والوحدة . . دون أن يعطينا هيكل ويعطي الاجيال القادمة فهما معمقا لما كانت عليه أوضاع العراق الاجتماعية ازاء المكانة السياسية التي وصل اليها العراق . . فضلا عن ركون هيكل للتلميح دوما بأن ثمة مشاريع أمريكية كانت تعمل في الخفاء من أجل اختراق المنطقة وتنفيذ المصالح القومية الامريكية العليا !

كما وان أكثر من درس علمنا أياه هذا الفصل الخاص بالشأن العراقي ، اذ قادتنا المقارنات والتصويبات الى أن نتوقف وقفات مطولة عند عبد الكريم قاسم ، الشخصية الغامضة والتي جمعت جملة من التناقضات وكشف بعض الحقائق عن هذا الرجل الذي بدأ يعمل على الاطاحة بنظام الحكم الملكي منذ عام ١٩٤٩ ، حتى نجح في ١٤ تموز ١٩٥٨ . . وان هذه الوقفات هي بمثابة نداءات من أجل كتابة دراسات تاريخية معمقّة عن عبد الكريم قاسم الذي امتاز بقدرات كبيرة في كسب ثقة نوري السعيد لكي يضربه الضربة القاضية ، كما وكسب ثقة جمال عبد الناصر ، لكي يهمله ومشروعه . . فيعتمد على الفئات السياسية المناوئة لعبد الناصر . . كما وأستغل هوس واندفاعات عبد السلام عارف كي يتقدم هذا الاخير الى العاصمة بغداد ، ويعلن الثورة فيها ويمهد الطريق كي يدخل عبد الكريم قاسم بغداد دخول الفاتحين . . وكان قاسم يدرك من هو عارف . . والذي بدأ يشّهر بمنجزاته ضد قاسم ، بل ويهمل ذكر زعيمه . . فما كان من قاسم الا ضرب عارف . .

وبرغم كل هذا وذاك ، إلا أن هيكل لم يعلمنا عن مواقف عبد الناصر الحقيقية من العراق وسياسييه ، فثمة انطباعات متفرقة هنا وهناك . . وفي نهاية المطاف يخرج القارئ بأن

عبد الناصر الذي كان يدعو صبح مساء للوحدة العربية ، كان من أبعد الناس عن تنفيذ هذا «المشروع» مع العراق . . وخصوصا ما بدا منه مع عبد السلام عارف ومع القادة البعثيين من قبله . . مما يقودنا إلى نتيجة قوية مفادها ان عبد الناصر قد فهم العراق فهما عميقا دون أن يصرح بذلك . . ولكن جاء فهمه للعراق متأخرا جدا جدا !!

وبعد ، فماذا سيقول المستقبل عن العرب الذين عاشوا بيادق لعبة الامم ضمن المتغيرات التي عاشها العالم في النصف الثاني من القرن العشرين ؟ وماذا ستقول الاجيال القادمة عن اولئك العرب الذين نقلوا صراع التكتل الدولي بين الشرق والغرب الى دولهم وأقطارهم . . فلاقوا من انقساماته ما لاقوا ؟ وماذا يقول واقعنا اليوم عن واقع الامس القريب عندما تسمح الدول والحكومات لنفسها ان تتدخل بشؤون الاخرين تدخلا سافرا ؟

كان المطلوب من هيكل ان يكون امينا وحياديا من ناحية ، وصاحب تحليل نقدي لخطايا الامس من ناحية اخرى . . تلك الخطايا التي انغمس بها جمع من ساسة الامس القريب الذين حلموا احلاما جميلة ، وعاشوا على الهتافات والشعارات وكانوا من ابعد الناس من فهم واقعهم وادراك خطورة العصر وهم في خضم المأساة دون أن يجتمعوا على كلمة سواء . . وتلك التناحرات التي قادت الى المزيد من الكوارث والنكبات عند نهايات القرن العشرين ! وربما يتمتع هيكل اليوم بالمشهد المأساوي الذي حلّ اليوم بالعراق والحصار المفروض عليه . . بعد أن صفق كثيرا لانهياره وضعفه . . ولما غاب دوره تناساه ولم يعد يذكره أبدا ، فلقد انتهى الدور الذي نجح على امتداد خمسين سنة عند قفلة القرن العشرين عام ١٩٩٩ ، بعد ان كان قد بدأ عام ١٩٤٩ !! « واللبيب بالإشارة يفهم » !

وأخيرا ، أقول بأننا نحن العرب وقد اجتزنا عتبة القرن الحادي والعشرين . . لابد لنا وأن نتحرر من قبضات القرن العشرين التي كبلتنا طويلا ، مع كل ما حققه العرب خلال عقوده من الانجازات الوطنية والقومية . . وما جنوه بحق أنفسهم من السلبيات والاخطاء ، فلابد أن يكتب تاريخنا بعيدا عن أي نزعة ايديولوجية تقف مع هذا او تقف ضد ذاك . . كما علينا ونحن نقرأ ونكتب تاريخنا وسير زعمائنا العرب أن نكون مجردين من عواطفنا وهوانا ومواقفنا المسبقة . . والاهم من كل هذا وذاك أن نفهم تاريخنا العربي المعاصر بشكل صحيح ، وان لا نميّز بين قطر وآخر على حساب الحقيقة الجغرافية والتاريخية . . اذ أن كل ذلك يولّد الانقسام وينتج المزيد من صروف التخلف والتراجعيات .

الفصل السادس

الخليج العربي : الكنز العجيب

هيكل وعقد التسعينيات

« لا اريد تقسيم هذه البلاد الى مقاطعات تخضع لنفوذ عدة دول، واننا معاشر العرب ذُقنا طعم الاستبداد مدة طويلة ... قلوبنا دامية ... نريد أيها السادة ان نكون بعد اليوم احراراً، وأن نعيش في بلادنا آمنين مطمئنين من كيد كل مستبد غاشم، فنحن لذلك لا نرضى بتقسيم البلاد وتجزئتها بل نريدها موحدة، حرة، مستقلة » .

– الملك فيصل الأول –

« وأرضية السياسة - في ظني - هي الجغرافيا ، وخلفيتها - فيما أتصور - هي التاريخ ، وهكذا توضع الاحداث في زمانها ومكانها »

محمد حسنين هيكل

أولاً: هيكل وحرب الخليج

اوهام القوة والنصر

على الرغم من كل الملاحظات النقدية التي سجلتها على كتابات هيكل حتى الآن، إلاّ ان كتاباته عن مصر وخصوصاً في صراعها العربي - الإسرائيلي هي الأفضل كونه تعمق في مظانها، وعرف كيفية مداراتها وسيرورتها على امتداد خمسين سنة.. وقد بدا لنا هيكل إزاء هذا «الموضوع» كالسمكة والماء، إذ حالما أخرجناه من هذا «الموضوع» فانه يتيه فعلاً في معرفة أو كتابة مواضيع أخرى عربية بعيداً عن مصر في الخمسين سنة الأخيرة، والخمسين سنة وحدها لأنه لم يسيطر حتى تاريخ مصر الحديث، فالرجل يعد التاريخ في عمله على هامش كل شيء على عكس ما يدعيه.. وهو لم يقرأ التاريخ ابداً كما توضح لنا ذلك بكل جلاء!

وعليه، فقد أوقع هيكل نفسه في أخطاء جسيمة في كتابه الذي نشره باسم (حرب الخليج: أوهام القوة والنصر، ط١، القاهرة، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٩٢). كما أنها أخطاء مكررة عن نسخة الكتاب الذي طبع بالإنكليزية.. برغم الفوارق الكبيرة بين النصّين المنشورين بالإنكليزية والعربية.

دعونا نناقش سوية بعض ما كتبه هيكل في كتابه هذا والذي لا يختلف في أسلوبه ومنهج كتابته ورؤيته ونتائجه عن بقية كتبه الأخرى.

يتأمل الكاتب في عرض القصة - كما يقول - «واعادة بناء الوقائع في أزمة وحرب الخليج أن يكون موقفي موقف المستقل، وليس المحايد.. والحقيقة أنني لا أستطيع أن ازعم لنفسي موقف المتجرد، وظني أن وهم التجرد غير انساني، بل هو مستحيل. فكل إنسان له في النهاية رؤيته، وهي محكومة بموقعه، محكومة أيضاً بمنظوره الفكري والثقافي (حرب الخليج، ص ١٦).

وعليه، فهو - يأمل أن يكون مستقلاً لا حيادياً ولكن لا يخفي بأنه سوف لن يكون

متجرداً . . وأني افهمه لا كمؤرخ يكتب تاريخاً معيناً بالذات وقد اصبح الحدث نفسه في عداد التاريخ ، بل لأنه يكتب في واقع سياسي معين يصعب التجرد في ذلك؟ وكم كان من المناسب لو حاول الرجل أن يكون قد سيطر على «الموضوع» الذي يكتب في شأنه ، إذ بدا للمختصين انه لم يسيطر على مصادر معلوماته ، فأوقع نفسه في مزالق سأوضحها في أدناه !

ويستطرد هيكل قائلاً : «ولقد كان اكثر ما أثار انزعاجي أثناء أزمة الخليج أن الأمة انقسمت مرة أخرى بعد قرابة أربعة عشر قرنا من الزمان إلى «أصحاب معاوية» أو «شيعة لعلي» ، وكأن محنة الفتنة الكبرى ، وتعاقب القرون بعدها لم يجعل هذه المنطقة الممتدة من الخليج إلى المحيط تتعلم شيئاً أو تنسى شيئاً ! (حرب الخليج ، ص ١٦) .

لقد صدقت يا هيكل في توصيف الأمة التي انقسمت بعد قرابة أربعة عشر قرناً ، ولكن كم مرة طالها الانقسام ؟ فهي امة منقسمة ، ولكنها دوماً ما تلتئم جروحها وتعود إلى الحياة من جديد ! ولكن هذه الأمة إذا كانت قد انقسمت عند نهايات القرن العشرين ، فعليك أن تذكر أن ذلك نتيجة لحصيلة ما عاشته هذه الأمة في القرن العشرين من التمزقات الباردة التي افترقت عند نهاياته بمثل هكذا انقسام تاريخي خطير والذي اعتقد أن الأجيال القادمة ستتجاوزه إذا طوت صفحة الماضي العقيم ونظرت إلى مستقبلها بعقلانية وانفتاح وشفافية واعتراف بأخطاء الماضي .

الخلل يلاحقنا في كل كتاب:

إذا كان محمد حسنين هيكل قد الحق في بعض من كتبه المهمة الأخرى التي تدارسناها ، أمثال : «ملفات السويس» و «الانفجار ٦٧» و «سنوات الغليان» وغيرها من الكتب التي نشرها مؤخرا بعض الملاحق التي ضمت بعض ما اسماه بـ «الوثائق» . . وللحقيقة أقول أن ذلك البعض القليل منها خطير ، لابد من اعادة قراءته من جديد . . اذ خان هيكل توظيف المؤرخ الجاد لها ، إلاّ انه في كتابه هذا (= حرب الخليج) لم يلحق به أي ملحق وثائقي ، وهو كتاب يفرض موضوعه الحساس والخطير عليه جملة من ركام الوثائق التي اعتقد انه لم يحترز حتى على واحدة منها لا من داخل نطاقات الأزمة ، ولا من خارج دول المنطقة عربيا وإقليميا ودوليا ، وان كل ما اعتمد عليه في تسجيلاته : مجموعات من

الأقوال والتصريحات والحكايات الخاصة . . التي تلقفها من ألسنة بعض الصحفيين والدوبلوماسيين الذين تنوعت آراؤهم ، وتعددت أهواؤهم ، وتباينت مشاربهم . .

دعونا نقرأ له قوله : «إنني في سبيل إعداد هذا الكتاب التقيت وتناقشت واستمعت إلى كثيرين من رؤساء الدول والقادة السياسيين والعسكريين في العالم العربي ، كذلك التقيت وتناقشت واستمعت إلى كثيرين من المشاركين في صنع القرار في الولايات المتحدة وفي أوروبا ، ولقد سمح في بعض الكرام بينهم أن اطلع على أوراق وتقارير رسمية ، وسجلات معلومات كانت في حوزتهم بحكم المنصب والمسؤولية» (حرب الخليج . . ، ص ١٦ - ١٧) .

وإنني بدوري كواحد من المختصين المهتمين بالحدث التاريخي وبمصادره بدءا بأسبابه وتطوراته وصولا إلى نتائجه وتداعياته . . دعني أسألك يا سيدي : أين هي هذه الأوراق والتقارير الرسمية التي أشرت إليها ؟ ولماذا لم تعلن عنها وعن أماكن وجودها ؟ وأين هي تلك سجلات المعلومات التي ذكرتها ؟ وبحوزة من كانت وباحترازات من غدت ؟ ومن هو ذلك البعض من الناس الذي أطلعك على تلك الأوراق والسجلات؟ ولماذا لم تذكر لنا أسماءهم في مقدمة كتابك ؟ وهل كانوا من طرفي الصراع أم لا ؟ اعتقد أن هذا خلل منهجي آخر ، لا يمكن قبوله من قبل القارئ العربي الذي يعي طبيعة التدوين مهما كانت صفته : تاريخياً أو سياسياً أو شيء آخر . . ومن خلاله ، يمكن للناقد أن يقول بأن هيكلاً كان جدياً أم كان مستقلاً أم كان مجرداً أو بعكسه ـ كما يتضح من مقدمة الكتاب ـ سيقول القارئ العادي بأن ثمة خلل فاضح لا يمكن غفرانه لمحمد حسنين هيكل .

فقدان الأمانة بين طبعتين للكتاب في لغتين مختلفتين:

أما بالنسبة للخلل المنهجي الآخر الذي يتضح بفقدان للامانة بين طبعتين مختلفتين للكتاب بلغتين انكليزية وعربية ، فهو واضح جدا باختلافات مضمون الطبعة الإنكليزية للكتاب عن مضمون الطبعة العربية له ، فان العذر الذي قدمه هيكل للقارئ العربي غير مقبول أبدا ، إذ يتهم هيكل هنا بعدم الأمانة ، إذ ليس من باب الموضوعية في شيء أن يقدم هيكل نصاً إنكليزيا للمتلقي الغربي ، ثم يأتي ليقدم نصاً عربياً للمتلقي العربي ، ومن خلال

عملية فحص بسيطة ، يتراءى للمرء حجم الاختلافات الواسعة في مضمون الكتاب بلغتين اثنتين !

فهل هذا أمر مسموح به في تاريخ المعرفة التاريخية ، أو حتى في إطار تسويقها في مكانين مختلفين من قبل مؤلف عربي معروف ؟ وهل يعتقد هيكل أن كتابه هذا بنشرته الإنكليزية سوف لن يقرأها المثقفون والمؤرخون والمختصون العرب ؟ إنها المشكلة نفسها التي أشار إليها صلاح الدين حافظ في معرض حديثه عن كتاب آخر لهيكل نشره عام ١٩٩٦ حول «المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل» * ، ولكن هل يمكننا قبول مبررات هيكل الذي يقول : «وفضلاً عن ذلك فانه بين الانتهاء من النص الإنجليزي والانتهاء من النص العربي ثلاثة شهور ظهرت واستجدت فيها معلومات وأفكار وجدت مناسباً إضافتها ما دامت الصفحات مفتوحة ، ومحركات المطابع لم تدر بعد ! (حرب الخليج ، ص ١٧٤) . وانها - أيضاً - المشكلة نفسها التي هاجمه من خلالها محمد جلال كشك عندما لاحظ اختلافات كبيرة في كتاب «ملفات السويس» عن ترجمته بالانكليزية** .

ورب قائل يقول : هل بإمكان هيكل أن يخاطب العقل الغربي في كتبه (وخصوصاً مثل هذا الكتاب) ، إذا ما ترجم النسخة العربية إلى اللغة الإنكليزية ؟ وهل باستطاعة المتلقي الغربي أن يدرك ويعجب بالأسلوب الذي يكتب هيكل به بالعربية ؟ هل بإمكان القارئ الغربي مهما كانت ثقافته أن يتّقبل بشكل طبيعي هذا الذي يكتبه هيكل من الأفكار العربية . . وهذا الحشد من الكلمات الإنشائية الخصبة التي تدغدغ المشاعر ، وتحرك الوجدان ، وتثير الحوافز ؟

وعليه ، فمن المحتم على هيكل أن يخاطب الغربيين بلغة من نوع آخر ! ولكن المشكلة ليست في اللغة وحدها ، بقدر ما تكمن في المعلومات ، وإتقان صنع الحكايات الموجهة لهذا العربي بشكل ومضمون معينين ، أو لذلك الغربي بشكل ومضمون معينين ، ولكن من نوع آخرا وهذه «مشكلة» ربما لم ينتبه إليها قراء هيكل ، ولكنني اعتقد ان المستقبل سيكشف

---

* مناقشة كتب محمد حسنين هيكل ، المستقبل العربي ، العدد (٢١٤) ، كانون الأول / ديسمبر ١٩٩٦ ، ص ١١٤ .

** محمد جلال كشك ، ثورة يوليو الامريكية . . . (سبق ذكره) ، الفصل الاول ، ص ٣٧ - ٧٥ .

عن تفصيلاتها . . وكان من البساطة بمكان على هيكل ان ينشر كتابه بالإنكليزية ثم ينشر كتاباً آخر بالعربية ما دام الاختلاف هو تحصيل حاصل بين النسختين لكتاب واحد! إذ مهما حاول مترجمو كتبه أن يمارسوا الدقة والضبط في ترجمة النص ، الا أنهم ملزمون بكتابة أية مادة ضمن أفق وخطاب معين يستوعبهما القراء الغربيون بشكل خاص .

هل من رؤية مقارنة معينة ؟

وفي باب المقارنة فقط ، أتمنى على القارئ العربي الكريم أن يستكشف معنى هذه العبارة التالية -على سبيل المثال لا الحصر- في كل من النسختين العربية والإنكليزية من الكتاب . يقول محمد حسنين هيكل : «وعلى عهدة تلك الأساطير فان أمواج البحر تلقى على شطآنه بقماقم تغري بشيء في داخلها ، ثم تكون المفاجأة أن كل قمقم منها مختوم على مارد من نار . . » (حرب الخليج ، ص ٦) أو في قوله : «كل أزمة لها أجواؤها ولها أصواتها ولها ألوانها ، بل ولها رائحتها ومذاقها الذي يبقى في الحواس ويستعيدها حية من مخزونات الذاكرة مهما تباعدت السنون» (حرب الخليج ، ص ٢١) ويعيدها ويكررها (نفسه ، ص ٢٢) .

هذا الكلام الذي كنا نجيد إنشاءه في مدارسنا الإعدادية والثانوية قبل ثلاثين أو أربعين سنة ، ما يزال من دواعي سرور القراء العرب أن يتقبلوه كونه يثير عندهم المشاعر الوقادة والإثارة الحية ، ولكنه كلام لا يمكن تسويقه في سوق الكتابة لدى الأمم الأخرى ، وخصوصاً في فضاءات الغرب سواء بالإنكليزية أو بالفرنسية أو بالألمانية . . فمن مهمة هيكل في هذه الحالة أن يخاطب الغربيين بخطاب من نوع آخر ، ولكن هل باستطاعة هيكل نفسه أن يتخلص من طريقته وأسلوبه ومنهجه بالعربية أم أن هناك كاتب حاذق بالإنكليزية يقع تحت مظلة محمد حسنين هيكل أو يعمل في مؤسسته للكتابة والتأليف ؟

ما هكذا يكتب موضوع «حرب الخليج» !

ربما يتعجب المرء وخصوصاً إذا كان يحتل مرتبة من الفهم والمعرفة من هذا الذي كتبه هيكل في كتابه عن «حرب الخليج» ، فلقد جمع الرجل شتات من الحكايات والغرائب

والأقاويل والإشاعات والمبالغات والأكاذيب والتلفيقات والتصريحات السريعة التي لم تصمد أمام ما استجد من أحداث ووقائع تبعتها في العشر سنوات الاخيرة! وجاء ليحشرها جميعها في صفحات كتابه الذي يخلو تماماً من النقد (= نقد النصوص) والاستبطان وتمحيص الأخبار ، والتوثيق وهو ينتقل من مكان إلى آخر ليلتقط كل ما يقوله هذا ، وما يلفقه ذاك . . أو ما يزيد عليه ويخترعه أولئك . . وكلها عند هيكل مادة تصلح لتأليف كتاب ، وعنده أن تأليف كتاب عن موضوع تاريخي خطير جدا هو سيان عنده مع كتابة أخبار صحفية يومية ! وهذا ما لم نجده ـ مثلا ـ في كتاب آخر له كالذي عالجناه نقديا ، وأسمه «ملفات السويس» الذي يعتبر من انضج كتبه على الإطلاق ! ولكن ؟

لماذا اتبع هيكل هذا «النهج» الذي لا يستقيم ومكانته في الكتابة الصحفية أو السياسية العربية ؟ ولماذا كان فرحاً جداً وهو يعتقد خاطئاً بان «كل الأسرار مفتوحة ، وكل الأوراق مكشوفة»ـ حسبما يقول ـ ؟ لا يا صاحبي فالأسرار لم تفتح حتى الآن والأوراق لم يكشف عنها حتى الآن! وسيمضي زمن ليس بالقصير ، حتى يقف المؤرخون والكتاب عندنا من تلك النخبة العربية القادمة بعد ٣٠ - ٥٠ سنة ، كما تقف على أسرار وقد فتحت وأوراق وقد كشفت !

لم يكن هيكل محايداً ولا مستقلاً ولا متجرداً أبدا عندما أضفى صفات تقلل من شان البعض في حين أضفى صفات من نوع آخر تعظم من شان البعض الآخر ، فإزاء هكذا حدث خطير ، تقول : «ووصلت حالة الفوضى في الفكر إلى تقديرات غريبة للمواقف ومن ذلك أن العقيد معمر القذافي راودته في بعض الساعات» (حرب الخليج ، ص ٤٠) في حين تقول في صفحة تالية : «وكان الرئيس مبارك يتصرف في الأزمة بحسابات عملية وواقعية مؤداها» (حرب الخليج ، ص ٤١) ! وهذا مثل واحد من عشرات الأمثلة التي يمكن التوقف عندها والتأمل فيها ، مقارنة بما يلقيه من صفات تصويرية ترفع من شان هذا ، وتحطّ من شأن ذاك ! .

هيكل والسياسة العراقية:

من اصعب الأمور أن يدفع الإنسان بالحالة إلى أمام ويصف أسبابها ، ويقدّم بلورة من

نوع ما باتجاه الاندفاع وهو يؤيد تلك الحالة ، وفجأة يتوقف ليدينها بأبسط الكلمات . . علماً بأنها حالة معقدة لا يمكن أبدا لهيكل ولا لغيره أن يستخدم هكذا كلمات ، مستسهلاً سياسة قائمة بذاتها وهي التي قادت الحدث التاريخي بعد تفاقم أسبابه ! لقد تحدث هيكل بأكثر من لغة وهو يقدم أسباب الأزمة :

«كان العالم العربي في مباراة مع نفسه في لعبة أخطاء الحسابات ، كان كثيرون بين العرب يقرون للعراق بأسباب مشروعة لبعض مطالبه» (حرب الخليج ، ص ٤٧) ويبدأ هيكل يحلل سوء حظ العراق في جغرافيته السياسية وكأننا نجده وقد اقر للعراق أسبابه المشروعة في صنع الحدث الذي لم تفت هيكل أن يسميه بـ «لعبة أخطاء الحسابات» . . ولكن سرعان ما ينقلب هيكل ضد السياسة العراقية قائلاً بعد أن يدينها : «كان هناك إذن خطأ في حسابات القوة (وهو يتحدث عن العراق) ، ولحق بذلك أن الحجج التي قدّمت لتفسير الغزو وتبريره كانت خطأ بحساب المنطق» (حرب الخليج ، ص ٤٩) .

وعليه ، فهو يعترف أن هناك غزواً عراقياً للكويت ! ولكن أخطر ما يوجّهه هيكل للسياسة العراقية وهو ينتقدها على استحياء قوله : «لكن المشكلة في الغزو العراقي للكويت انه بدا أصلا ، ثم أنه مضى إلى النهاية ، دون أن يراجع نفسه في منتصف الطريق ، وبغير أن يحذره أحد ، رغم أن شواهده كانت بادية ، خصوصاً في الثماني والأربعين ساعة السابقة عليه ، ولعل الأطراف التي كان في مقدورها أن ترى شكل ما هو قادم كانت تريده أن يمضي إلى النهاية حتى يتجاوز نقطة اللاعودة . وكان خطأ حسابات القوة العراقي انه مضى فعلاً إلى النهاية فاحتل الكويت بكاملها وكانت تلك صدمة ، ثم تلت ذلك أخطاء حسابات المنطق . ففي ظرف أيام غير العراق حججه للغزو بذريعة مختلفة كل يوم ، في اليوم الأول كانت الذريعة هي التصدي لمؤامرة أمريكية ترتب ضده على الأرض الكويتية ، وفي اليوم الثاني كانت الذريعة هي مساعدة عناصر ثورية قادت انقلاباً على أسرة «الصباح» وطلبت معونة العراق . وفي اليوم الثالث كانت الذريعة هي الحق التاريخي وعودة الجزء (الكويت) إلى الكل (العراق) . واخيراً جاءت ذريعة الربط بين كل القضايا المعلقة في المنطقة ، وربط الانسحاب من الكويت مع كل مشاكل الأراضي المحتلة من فلسطين ، ولبنان ، وسوريا إلى

آخره ، . . . . . (حرب الخليج ، ص ٥٠) .

هكذا أدان هيكل سياسة العراق ، باعتبارها قد ارتكبت خطأً في حسابات القوة ، ثم تلت ذلك أخطاء حسابات المنطق . . وهو لم يحلل لماذا غيّر العراق حججه وذرائعه المختلفة كل يوم ؟ وما دام محمد حسنين هيكل يصرّ على تسمية الاجتياح العراقي بـ «الغزو» ، فهو يطلق على العراقيين وبأسلوب غير مباشر تسمية «الغزاة» وهي التي سادت في الخطاب السياسي العربي المعاصر ولكن ليس على الإطلاق ، وهو «الخطاب» الذي يدين العراق على ما قام به جملة وتفصيلاً في حين اتخذ محمد حسنين هيكل موقف المتذبذب ، فهو يقدّم في البداية أعذار للعراق من جهة ، ويقدم نقده للغزو من جهة أخرى فأين هو موقفه السياسي بالضبط إذا كانت السياسة العراقية قد أخطأت في نظره ؟!

تصويبات تاريخية :

١ - يقول هيكل : «وعندما بدا الغرب المسيحي (القرن الخامس عشر) يلتف حول القلب العربي الاسلامي ، كان الخليج بعيداً يواجه مصيره دون أن يلتفت إليه بالقدر الكافي أحد» (حرب الخليج ، ص ٦٢) والصواب أن الغرب المسيحي بدأ يلتفت حول القلب العربي الإسلامي في القرن السادس عشر ، بنزول البرتغاليين في سواحل متعددة عربية ، اثر دخولهم البحار العربية ، وخصوصا في كل من : خليج عمان والخليج العربي . ولم يكن الخليج العربي بعيداً يواجه مصيره دون أن يلفت إليه بالقدر الكافي أحد إذ كان للعثمانيين دورهم المؤثر في حماية كل من البحر الأحمر والخليج العربي إبان القرن السادس عشر وخصوصاً على عهد السلطان سليمان القانوني ١٥٢٠ - ١٥٦٦* .

٢ - يقول هيكل : «إن المبارزة البحرية بين نابليون ونلسون بدأت أولا أمام الكويت ، ثم تفاقمت أمام الاسكندرية ، ثم جرى حسمها قرب الشاطئ الأسباني على رمي حجر

---

* ومن المهم لتوضيح الحقائق التاريخية ، مراجعة ما كتبه المؤرخ التركي صالح أوزبران في دراسته الرصينة (بالإنكليزية) التي ترجمها الزميل عبد الجبار ناجي ، وأصدرها في كتاب عنوانه «الاتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي ١٥٣٤ - ١٥٨١ ، جامعة البصرة ، ١٩٧٩ .

من أوروبا» (حرب الخليج ، ص ٦٦) .

هذا خطا كبير يا هيكل ؟ فمتى تقابل الاسطولان البريطاني والفرنسي قرب الكويت أو أمام الكويت ؟ ومن أين آتيت بهكذا معلومة خاطئة ؟ ولماذا تصر على أن تدخل مصر دوماً في موضوع تاريخ الخليج العربي ، والكويت خصوصا ؟

٣ - يقول هيكل : «وعلى الناحية العربية فان المصائر اتحدت ، فقد كان والي بغداد سليمان (باشا) هو الذي تولى في هذه الفترة جمع نصف مليون جنيه من الذهب لتمويل الحملة العثمانية التي كانت تريد إخراج نابليون من مصر» (حرب الخليج ، ص ٦٦) .

من أين أتيت بهذه المعلومة ؟ فنحن جماعة من المؤرخين المختصين العرب بشؤون التاريخ الحديث ، لم نسمع بها من قبل ولم تقرأ في كتاب .

٤ - يقول هيكل : «ومما يلفت النظر أن أول إنذار تلقاه محمد علي (باشا) والي مصر الكبير من القوى الأجنبية التي أقلقتها سياسته - هو الإنذار الذي وجهته إليه بريطانيا سنة ١٨٣٨ بان يسحب الجيش المصري من الكويت وكان هذا الجيش قد وصل إلى الكويت . . . وقد أدرك محمد علي بحسه الاستراتيجي أن هناك صلة وثيقة بين ما يجري هناك في مياهه أمام الكويت ، وما يجري هنا في البحر الأبيض أمام الإسكندرية (حرب الخليج ، ص ٦٦) .

هذا خطا تاريخي بل وتزوير للتاريخ ، وحشر مصر في تاريخ الكويت حشرا لا يستند إلى أية حقائق !! فلماذا تقحم محمد علي باشا بموضوع الكويت اقحاما ، وتسمّي مياه الكويت مياهه ؟؟ صحيح أن جيشه المصري الكبير الذي كان يقوده خورشيد باشا قد انتصر على خصومه واستيلائه على إقليم الاحساء ، لكنه لم يصل إلى الكويت شمالاً أبدا ! بل حاول السيطرة على جزيرة البحرين لمتابعة خصومه ، مما قاد إلى تدخلات بريطانية والتي بدأت بالضغط على محمد علي باشا لاخراج جيشه من شبه الجزيرة العربية قاطبة ، فليس كما يذكر هيكل بان محمد علي باشا حكم الكويت أربع سنوات ؟ وليس كما تذكر يا هيكل ان مياه الكويت غدت مياهه هو ؟

إن حسه الاستراتيجي كان يشتغل باتجاه بلاد الشام أولا والأناضول ثانياً وقد ترك الأطراف العربية خصوصا . . بعيداً عن هيمنته خصوصاً كل من العراق والجزائر ! أتريد القول أن لمصر حق تاريخي في أراضي الكويت ومياهها ؟ ولا بد أن تعلم بأن معلوماتك الخاطئة تاريخيا لم نجدها في أي مصدر أو مرجع في تاريخ العرب الحديث ، وسوف أبتعد عن ذكر أي من المؤرخين أصحاب العلاقة سواء كانوا من العراقيين او من الكويتيين ، بل يمكنك مراجعة ما كتبه عدد من المؤرخين المصريين المتميزين الذين عرفوا بأعمالهم الرصينة عن محمد علي باشا والخليج العربي ، أمثال : محمد شفيق غربال وفؤاد شكري وأحمد عزت عبد الكريم وجمال زكريا قاسم وعبد العزيز نوار وعفاف لطفي السيد وغيرهم .

٥ - يقول هيكل : « إلى هذه الدرجة كان تداخل الصراعات على مشارف القرن التاسع عشر ، وحتى نهايته وقرب هذه النهاية طرأ عنصران :

العنصر الأول : بوادر احتمالات لظهور البترول في الخليج .

العنصر الثاني : الانهيار الكامل لدولة الخلافة ، وقيام كيانات عربية كبيرة تستعيد أنفاسها من جديد بعد انقضاء عصر الخلافة» (حرب الخليج ، ص ٦٦) .

وهذه وجهة نظر سياسية وفكرية خاطئة كونها مركبة على معلومتين تاريخيتين خاطئتين ، ذلك أن تداخل الصراعات على امتداد القرن التاسع عشر لم يكن قد ولدته احتمالات ظهور البترول في الخليج العربي ، اذ نعلم أن اختراقات الغرب لم تكن في يوم من الأيام تسير وفق نظرته الاحتمالات . . كما ان ذلك «التداخل» لم يأت ضمن سيرورة الانهيار الكامل لدولة الخلافة فالدولة العثمانية لم تكن دولة خلافة إسلامية على الإطلاق حتى أعلن السلطان عبد الحميد الثاني نفسه «خليفة» ، مما سبب ردود فعل واسعة في العالم الإسلامي (والعربي خصوصا) ومنها مواقف عبد الرحمن الكواكبي في أن تكون الخلافة عربية ، مقدما أفكاره في كتابيه : «طبائع الاستبداد» و «أم القرى» . . ثم أن ضعف الدولة العثمانية وانهيارها جاء بعد غرقها بالديون على غرار مصر وتونس وإيران ، ثم أن قيام كيانات عربية كبيرة لم تكن بشأن جديد ، فسلطنة عمان وسلطنة مراكش كانتا دولتين عربيتين قويتين قبل تبلور مصر على عهد محمد علي باشا الذي أبقى صلته الرسمية شرعية في إطار

دولة السلطنة العثمانية .

إدانة على استحياء :

سأل الصحفي المصري مفيد فوزي محاوره محمد حسنين هيكل قائلا : أكثر من شاب سألني : نعم أدان الأستاذ هيكل غزو العراق لجارتها الكويت . . ولم يكن هذا واضحا بشحنة كافية فألقيتهم على شاطئ الحيرة . . أعدت عليه السؤال . . .! وكان ردّه : أنا قلت بوضوح شديد ثلاث نقط :

١ . قلت أن الغزو (خطأ لا يغتفر) أليس هذا كافيا . . ؟ أليس هذه جملة مفيدة بلغة عربية صحيحة . . ؟

٢ . قلت أنه أدى (إلى انقسام الأمة العربية) وهذا حقيقي .

٣ . وقلت أنه (لازم يخرج . . لابد أن يخرج) ماذا بعد . . ؟

هذا كلام محمد حسنين هيكل في بداية الأزمة . . ويستطيع قارئ كتابه «حرب الخليج : أوهام القوة والنصر » أن يستكشف سر التناقض الذي حكمه بين موقفه هنا ومواقفه هناك ؟ فضلاً عن اكتشاف تناقضات لا حصر لها !

سأله مفيد فوزي أيضا : ما هو موقف الملك حسين ؟

يجيب هيكل سائله بكلام لا يمكن أن ينطبق على ما قاله لاحقا في عام ١٩٩٩ ضد الملك حسين ، والتي يجدها القارئ الكريم في المضامين النقدية التي جاء بها الفصل الثاني من هذا الكتاب !

يجيب هيكل ودعونا نتأمل كلامه هنا رجاء :

يقول : «الحقيقة الماثلة أمامي التي أراها أن هناك حملة ظالمة على الملك حسين . هذه رؤية مراقب مهتم بما يجري ولكنه ليس طرفا . (أنا معنديش جورنال ولا عندي عمود يومي . أنا راجل أقول رأيي حيث أستطيع أن أقوله وحيث يتاح لي أن أقوله) . لكنني بمنتهى الأمانة ـ في هذه الأزمة ـ لا أستطيع أن أخطئ الملك حسين ، بالعكس أنا أراه متسقا منسجما مع نفسه ومع موقفه . أي إنسان عاقل يقرأ خطبته في مؤتمر بغداد الذي تكلم فيه

أحوال الأردن الاقتصادية يدرك مدى عتابه الشديد جدا على ملاك البترول .

الملك حسين لديه قضية وعنده فكرة ، عنده تجربة في منتهى الصعوبة ووراءه (٣٨) سنة خبرة في الحكم . تأمل معي أن الملك حسين يقف خارج خط السياسة الأمريكية ، فلابد أن تدرك أن لديه من الأسباب القهرية ما يجعله يقف هذا الموقف . . انه يرى أمامه إسرائيل ، ويرى أمامه الأوضاع في العالم العربي ، وهو يحاول جهده ويدرك ما معنى أن تطور الأمور إلى القتال ، فإذا اندلعت النار قرب البترول فأنت مقبل على مشاكل كبيرة جدا . .»* . وهذا مثل مقارن آخر واضح جدا تمام الوضوح على تغيير هيكل مواقفه وأفكاره !

هيكل وبريماكوف:

لقد استوقفتني قليلا إجابة هيكل على سائله مفيد فوزي عندما سأله : هل تعرف بريماكوف ؟ هل قابلته من قبل ؟

يكتب مفيد فوزي إجابة هيكل بالنص : «ضحك الأستاذ ـ هيكل ـ وقال : بريماكوف ـ لمعلوماتك وليس بالضرورة أن تكتبها ـ جلس عشرات المرات على الكرسي الذي تجلس عليه الآن كان مراسلا للبرافدا في القاهرة ثم ذهب إلى موسكو وشق طريقه السياسي . .»*

ونحن بدورنا نسأل ليس من باب الفضول ، بل من باب التعرّف :

١ - لماذا طلب هيكل من مفيد فوزي أن تكون الإجابة لمعلوماته فقط ، وليس بالضرورة كتابتها خصوصا وليس هناك أية خطورة إذا ما عرف الناس مثل هكذا معلومة ليست سرا من الأسرار ؟

٢ - وهل فعلاً جلس يفغيني بريماكوف عشرات المرات أمام محمد حسنين هيكل؟

فكل المعلومات تشير عدم حصول ذلك ، إذ لم نقرأ لهيكل أية معلومات صحفية قديمة أو جديدة نقلها هيكل عن بريماكوف ! فهل ثمة إثبات يؤكد ذلك؟؟

---

* أنظر : نص المقابلة التي أجراها مفيد فوزي مع محمد حسنين هيكل في مجلة صباح الخير بتاريخ ١٩٩٠/١١/١)

** (مجلة صباح الخير ، ١٩٩٠/١١/١) .

لغة هيكل بين أربع من الصحف والمجلات :

من يتابع مقارناً حوارات محمد حسنين هيكل التي أجراها معه بعض الصحفيين والكتاب المصريين غداة حرب الخليج ، يجد أن الرجل وبرغم موضوع الساعة الذي سيطر على مشاعر الجميع وأفكارهم إتخذ له عدة ألوان في تلك الأيام بحيث لم يكن هو نفسه يدري ماذا يفعل وماذا يقول ! إن القارئ المتعّمن سيلحظ بان هيكل يعطي لكل حوار أجري معه لونه حسب اتجاه هذه الصحيفة أو تيار المجلة تلك . . فما تحدث به أمام مفيد فوزي (مجلة صباح الخير) في طعمه هو غير النكهة التي أضفاها في حواره مع صلاح منتصر (مجلة أكتوبر) . وحوار هذا الأخير مع هيكل يختلف في إطاره ومناخه عن المحاضرة التي ألقاها محمد حسنين هيكل نفسه محللاً للازمة في معرض القاهرة للكتاب الدولي والتي نشرت في (جريدة الأهالي المصرية) . . وهكذا ، بالنسبة لحواره المهم مع مصطفى بكري رئيس تحرير (جريدة مصر الفتاة) والمذاع من محطة راديو مونت كارلو . . ويعتبر هذا الحوار هو من أطول الحوارات الأخرى . واخيراً ، هناك الحوار الذي أجراه بعد عام على حرب الخليج مع فيليب جلاب رئيس تحرير (جريدة الأهالي) بتاريخ ١٩٩٢/١/٢٨ .

محاسبة الكل لا الجزء

يفيض محمد حسنين هيكل في نقد أوضاع العرب بسبب انقسام العرب إلى أثرياء إلى حد التخمة وفقراء إلى حد الانسحاق ، ويأتينا بمعلومات وأرقام وأخبار عن هذا الطرف أو ذاك ، وكلها يعزوها إلى مجمل الدخل وفوارقه والذي سبّبها ذلك الكنز العجيب الكائن في أعماق الخليج العربي ! ويقول : «ولقد كان مثيراً للأسى أن (حلم التنمية المشتركة) لم يتحقق في حين زاد على الصورة وهم آخر هو (وهم الأمن المفقود) » (حرب الخليج ، ص ٩٨) . ويستطرد قائلاً : «فالخريطة الجغرافية تظهر أن دول الخليج الصغيرة محاطة بثلاث دول مجاورة ليست أقوى منها فحسب ، وانما هي إلى جانب قوتها لها مطالبها القديمة أو الجديدة ، وهي مطالب هاجعة كسيف في غمده يمكن إشهاره في لحظة . .» . (حرب الخليج ، ص ٩٨) .

ثم يقول : «وهناك في الأعماق خلافات اسر ، وتصادم شيع ، وثارات قبائل ، ومنافسات

تمتد من قصور الأمراء إلى إسطبلات الخيل ! وهناك وراء خط الأفق أساطيل لقوى عظمى وقواعد وإمدادات جرارة . .» (حرب الخليج ، ص ٩٩) .

يكتب هيكل كل ذلك ، وكأنه يكتب صفحة جديدة منفصلة عن ذاك الذي كتبه في كتبه الأخرى ، وخصوصاً : «ملفات السويس» ، و «سنوات الغليان» و «الانفجار ٦٧» ! يكتب هيكل كل هذا ، وكان العرب وجدوا أنفسهم فجأة منقسمين على أنفسهم ، وقد انشطروا انشطارات لم تكن معروفة في ما سبق . . متجاهلاً ما كان عندهم من انشقاقات على امتداد نصف قرن من الزمن الصعب ! ومتناسياً أن الخلافات العربية باردة كانت أم ساخنة ، قد ولدت قبل عصر النفط ، وعصر الانقسام بين الأثرياء والمسحوقين !

يبدو كاتبنا وقد تغافل عن ذلك الدور الأمريكي الذي بدأ مشروع اختراقه للمنطقة بعيد الحرب العالمية الثانية ! وغير ملتفت إلى أن المشروع الأمريكي قد نجح في إشعال الحروب العربية الباردة في عقدي الخمسينيات والستينيات وحتى عام ١٩٧٩ عندما بدا يحّول صراعات الدواخل العربية إلى مادة دسمة قابلة للاستلاب ، فنجح في إشعال الحروب الساخنة العربية والإقليمية على امتداد عقدي الثمانينات والتسعينيات من القرن العشرين !

فمن ذا الذي يمكن محاسبته - هنا - يا هيكل ؟ فأنت لا يمكنك محاسبة الجزء على ما جناه الكل في تلك الدواخل . . بسبب أن الجميع قد ساهموا في إشعال الجسد الواحد .

متى لم يكن الوهم سيد الموقف عند العرب ؟

ربما اتفق مع هيكل في الذي جاء ليقول به اليوم ، ولكن اختلف معه فيه إذا ما كان يكتبه وهو نفسه ما زال يعيش على الوهم الذي تصورناه حقيقة ، وعشنا وعاشت الأمة كاملة ، وهي تدخل مخاضاتها المؤلمة والصعبة من اجل كونه حقيقة لكي يكتشف هذا الإنسان العربي المعاصر - وخصوصاً - من أبناء النخب ، انه كان على سراب وانه لم يزل يصطدم كل يوم بالأوهام ! .

يقول هيكل : «نتيجة لهذه الأحوال (التي يتجاهل هيكل جذورها التاريخية الصعبة التي ولدت على مر عقود القرن العشرين) كلها نشأت في المنطقة نخبة سلطة لا ينبغي

لاحد أن يمل من الحديث عنها والإشارة لها : مجموعات من الأجانب والعرب تربطهم أوثق الصلات بدوائر البترول ، والمخابرات ، وتجارة السلاح ، وكانت هذه الدوائر الثلاث قريبة بالطبع من دائرة صنع القرار ، وهكذا حدث اختلاط خطير في الأمور وفي العلاقات وفي التصرفات ، واقتراب تأثير هذا الخطر على مجال التوجهات السياسية والقرارات ، ونشأت شبكة ثانية من علاقات السلطة في الظل . كانت السلطة في العالم العربي قد انتقلت بحكم ظروف كثيرة إلى القمة ، ولكن القمم لم تكن مع بعضها طوال الوقت ، وهكذا نشأ تحتها خط موازٍ من الاتصالات تداخلت فيه الألوان والظلال ، وبقع الظلال الداكنة كلها مع بعضها ، وشهد العالم العربي كله نوعاً من الاختراق اخطر ما عرف من قبل .

كان العالم العربي في تاريخه الحديث يعاني من ظاهرة الاختراق الخارجي ، ولكن المدى الذي وصلت إليه هذه الظاهرة في تلك الحقبة البترولية لم تكن له مثيل ، وكان للاختراق جانب اخر ، فإذا كان الاختراق يسمح للخارج بان ينفذ إلى الداخل ، فان مواضع النفاذ نفسها تصبح ثغرات ينضح منه ويخر ما يحتويه الوعاء المخروق . ولم يكن في الوعاء ، بما آلت إليه الأمور ، إلاّ مال كثير وأوهام قوة اكبر» (حرب الخليج ، ص ١٠١) .

لا ادري لو كان هيكل لم يعايش تاريخنا العربي المعاصر على امتداد خمسين سنة كاملة لقلت أن الرجل قليل التجربة وهو يتكلم ! ولا ادري ! لو كان هيكل لم يكتب بنفسه وبقلمه عن صراعات الدول والأقاليم والأنظمة في إطار سطوة الاستعمار وتحولاته إبان القرن العشرين ، لقلت بان الرجل قد تحول من كاتب كبير إلى كاتب صغير ! ولا ادري ! لو أن الرجل لم يتابع بنفسه مجريات الأحوال العربية بجملتها ، وهي تشهد سياسات الحرب الباردة بين المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي أيام تأججها . . أو عند سياسات الوفاق الدولي بين الكتلتين المذكورتين أيام توازنها . . أو من خلال سياسات الاستقطاب الدولي التي تحركها الولايات المتحدة الأمريكية هذه الأيام . . لقلت بان الرجل قد غدا من أصحاب الكهف ! .

وقبل كل هذا وذاك : ماذا تريد أن تقول ؟ كنت أتمنى أن تختصر كل الذي ذهبت به وجئت إليه بعبارة واضحة واحدة ، بان أحوال العرب ومشاكلهم يتحملها فلان وعلان ، أو

هذه الدولة العربية بالذات ! ولكن لم تقل ذلك بعد أن انتقدت إحدى اكبر الدول النفطية في المنطقة انتقادات حادة لاذعة . . .

الاختراق أكبر مما يمكن تصوّره !

إن المشكلة التي صورها لنا هيكل وكأن الاختراق الذي جرى اليوم للامة العربية حدث داخلي وصل إلى دائرة صنع القرار من خلال دوائر ثلاث ، هي : البترول ، المخابرات ، السلاح!! إن المشكلة اكبر من ذلك بكثير ، بل واعمق وأخطر من ذلك بكثير ، ذلك إن العرب كانوا منذ اكثر من خمسين سنة وقد اخترقوا من الداخل ، بعد أن تركهم الاستعمار - الكولينيالي الخارجي ، وكأنهم أحرار مستقلون في أوطانهم السعيدة .

ان من يتجذّر متعمقا في تواريخ المنطقة بالكامل ، ويسيطر على وثائق جزئياتها (التي بدأ بالكشف عنها مؤخرا) سيجد أن تحولات الاختراق من الخارجي إلى الداخلي . . جاءت بألبسة متنوعة وألوان متباينة وأشكال مختلفة ، وليس من المهم أن يخترق صانع القرار علانية ، ذلك لان أصحاب القرارات ربما لا تدري أنها مخترقة ، وخصوصاً عندنا نحن العرب !! وربما يصدق ظني بعد تاريخ طويل أو قريب ، فان زعماء لهم تاريخهم المجيد سيكتشف التاريخ والمستقبل عنهم انهم كانوا أنفسهم مخترقين من الداخل . . . . !

إن مفهوم الاختراق قد أوضحه اكثر من مفكر ومجرّب وحكيم بدءاً بماكس فيبر (الذي أتمنى على هيكل أن يطّلع على أفكاره ان استطاع فهمها نظرا لتعقيداتها) ووصولاً إلى زعماء عرب مجربين رحلوا عن حياتنا . . فهو - أي الاختراق - لا ينحصر بالبترول والمخابرات والسلاح فقط ، فلقد كانت **«السياسة» في القرن العشرين بكل خفاياها وأسرارها واختلافاتها وتنوعاتها : مرتعاً حقيقياً لكل الاختراقات الداخلية** ، بعد أن كانت «السيطرة» بكل أصنافها في أنظمة الاحتلالات والحماية والانتدابات مجالاً خصبا تحتكر فيه كل الاختراقات الخارجية ! وهكذا ، فان مجرد الانتقال والتحول اليوم نحو قرن جديد ولم تزل عيون الأقوياء مسمّرة على ذاك الكنز العجيب ، وعلى دائرة مجاله الحيوي ، فسوف تتداخل القوى الاقتصادية في مسالة الاختراقات الداخلية في المستقبل المنظور ! .

إن الصراع الداخلي ، هو رد فعل قد يكون عنيفاً في اغلب الأحوال لدى جميع

الأطراف التي لم تستطع أن تستمع لبعضها البعض برغم كل ما يجمعها من قيم ومبادئ ومقومات وجذور مشتركة ، ولدى كل الأنظمة السياسية التي عرفها العرب في القرن العشرين ، ذلك لان التاريخ المعاصر للعرب بأكمله ، يعلمنا بان الاختراق قد حصل منذ زمن بعيد ، ولا يمكن للداخل أن يقف إزاء الخارج بمنعه من النفاذ إلى الداخل ، وإلا يتحطم كما حصل في تجارب تاريخية عدة على أرضنا العربية وبرغم كل النتائج المريرة فما زال الوهم يسيطر على العرب ليس فقط عند أصحاب صنع القرار حسب ، بل عند النخب السياسية والفكرية معا ! .

خصائص نخب القوة: ماذا يريد هيكل ان يقول؟

في صفحات أخرى ، نقرأ لمحمد حسنين هيكل مجموعة أخرى من الأفكار الغريبة التي قد يصل البعض منها ان لا معنى لها ، فتغدو عند القارئ العربي مجموعة طلاسم تحتاج إلى من يحل عقدها! وربما يعرف القراء الأذكياء مقاصد هيكل منها ولكن رأفة بالآلاف المؤلفة من القراء العرب الذين خدعتهم الكلمات والتعابير والشعارات والأمثال والخطب عشرات السنين كونها حلقت بهم بعيداً عن ارض الواقع ، فغدوا لا يطيقون الوعي به ، ولا التعامل معه علماً بان العرب من أحوج الأمم اليوم للوضوح ونقد الذات والاستقلال التاريخي والوعي بكل الكلمات والأشياء خصوصاً عندما يتصل الأمر بمعاصرتهم التي سيطرت عليها السياسة من جميع الجوانب فهم لا يحتاجون إلى أن يتفلسف المفكرون عليهم ، وتتنطع النخب والسلطات فوق رؤوسهم .

يقول هيكل : «ولقد ظهرت وسط نخبة القوة العربية الجديدة نجوم بعضها شارد بلا مسار ، وبعضها مضيء ، وبعضها معتم . إن النجوم في نخبة القوة العربية مجموعة من الرجال والنساء يصعب أن يوجد لها نظير في أفلاك دولية اخرى ، وبمقدار ما أن السلطة في العالم العربي ذات طابع خاص ، فان نخبة القوة المحيطة بها لها هي الأخرى طابعها الخاص ، ويمكن أن يقال بصفة عامة أن نخبة القوة العربية تحمل خصائص تميزها عن غيرها من نخب القوة في مجتمعات أخرى !

١ - كلها بالطبع قريبة من القمة - من دون أن تكون لها في معظم الأحيان مسؤوليات

رسمية تضع أصحابها في دائرة اختصاص عام يقاس به اداؤها ، وبالتالي فان نفوذها موجود ، وفي الغالب ومتفاوت بين رجل واخرى ، وبين فترة وأخرى بالنسبة لنفس الرجل .

٢ - ومعظم مجموعة نخبة القوة في أي بلد عربي على اتصال بمثيلاتها في بقية العالم العربي ، وبحكم فردية السلطة ، وشخصيتها في بعض الأحيان ، فان علاقات قمم السلطة فيه تجري وتتم بغير طريق أجهزة الدولة الرسمية ، وبالتالي فان خطوط الاتصال تتم عن طريق رسل ووسطاء مباشرين يظهرون وسط العواصم على الطرق إلى القصور ، ثم يختفون بنفس السرعة التي يظهرون بها .

٣ - وفي الغالب الأعم فان مجموعات نخبة القوة العربية قريبة من أهم المواقع التي تكمن فيها مواضع صنع الثروة العربية . واولاها البترول ، والثانية تجارة السلاح ، والثالثة بضرورات الأشياء دوائر المعلومات بما فيها دائرة المخابرات ودائرة الإعلام ، وهكذا فان حجم التداخل بين العلاقات السياسية والمالية والاجتماعية والإنسانية نافذ إلى أعماق يصعب قياسها ، أو رسم جدول بياني لشبكاتها ومساحاتها .

٤ - وبسبب هذا التشابك بين القوة وعناصر الثروة ودوائر المعلومات فان الأسلاك بين ما هو محلي ، وبين ما هو إقليمي وبين ما هو دولي - تتشابك وتتعقد وتخلق أحيانا أوضاعا يصعب التحكم فيها وضبط حركتها ، أو حتى متابعتها» (حرب الخليج ، ص ١٠٢ - ١٠٣) .

استراتيجية دوايت ايزنهاور:

ويستطرد هيكل بإيراده لاحد مقولات دوايت ايزنهاور وهو ينبه ويحذر من مجموعة قوة في الولايات المتحدة الأمريكية تتداخل فيه المصالح لكي ينتهي هيكل بالقول : «وربما يحتاج العالم العربي إلى صوت ينبهه إلى تزايد دور «مجمع القوة العربي» ، الذي ظهر في السبعينيات ، ونما في الثمانينات ، ويوشك نفوذه ، أن يستشري في التسعينيات» (حرب الخليج ، ص ١٠٣) .

هذا كلام خطير جداً يكتبه هيكل ، لابد من الوعي به حتى وان لم يكن صحيحاً ..

وهذا كلام لا بد أن يعرفه الجميع من أبناء السلطة والنخب والفئات وحتى الجماهير . وهذا كلام مهم لابد أن يكون واضحاً في سلاسة أسلوبه ومعرفة معانيه وخصوصاً عند أولئك الذين ما زالوا يعللون أنفسهم بالأمجاد والمفاخرات ، أو ما زالوا يعيشون على كرامتهم . ويأكلون من عرق جباههم ويلتزمون بمبادئهم وقيمهم العالية ويصادفون اللظى في حياتهم ، وهم يسعون إلى المستقبل الذي ربما يجدون فيه مكاناً لأولادهم وأحفادهم كي يقتطفوا ثمار الكبرياء! وإذا حل الوعي بكل ذلك في تفكيرهم ، فربما يجدون في تبريرات الإعلام المشوه وتسويغات الدعايات المظللة مظلة يقفون تحتها والحياة العربية تنتقل من سيئ إلى أسوأ ! ؟

ولقد سررت جداً لان شيخنا محمد حسنين هيكل قد التقط هذه «الأفكار» وساقها لنا في هذا المخاض من كتابه «حرب الخليج» بكل صعوبة واستحياء وكتبها بكل إبهام وإيهام وما زال على نفس طريقته يلف ويدور دون أن يفصح عما يريد قوله مباشرة من دون هذه الأوصاف بين المحسوس وغير المقنن والمرن والمتفاوت والأعماق الخ من تعبيراته المألوفة .

ولكن ؟

أسئلة وأجوبة:

اعتقد أن هيكل لم يكتب كل هذا المسّر للنفس العربية والمبهج لها حقاً كونه يكشف عن العورات المستورة . . وأنه لم يكتب كل ذلك عن كل ما حصل وسط نخبة القوة العربية ، بل أرادها مجسمة في رجل واحد . . وأراد بذلك دولة معينة بذاتها وكم كنت أتمنى عليه أن يجيبنا على أسئلة يفرضها عليه أي مواطن عربي يحس بعمق الانسحاق الذي وصلت إليه الأمة كاملة :

- هل ينحصر الأمر يا هيكل بسلطة معينة واحدة من السلطات العربية بل يمتد ليشمل غيرها وخصوصاً في استحواذ العديد من نخب القوى العربية الجديدة ؟
- هل يمكنك يا هيكل أن تدين الآن – إذا ما تأكد عندك استشراء هذا الداء لدى أغلبية نخب القوى العربية الجديدة – تلك النخب القديمة من صاحبات القوى العربية والتي عاشت قبل خمسين سنة واكثر ؟
- وهل تنحصر الظاهرة الطفيلية في استحواذ المال والسلطة والأعلام والمعلومات والسلاح وكل شيء في دول النفط يا هيكل ؟

- وإذا كنت قد ذكرت نموذجاً من النجوم الجديدة في الآفاق العربية (حرب الخليج ، ص ١٠٣) وانه قريب من صنع القرار في دولة معينة فكم يا ترى تجد من أمثاله في دول أخرى ، وخصوصاً من أولئك المستثمرين الطفيليين الذين كانوا قبل ثلاثين سنة يتبجحون بالمبادئ الاشتراكية وغدوا مع أبنائهم اليوم قريبي الصلة من أصحاب القرار ؟ بل وهم في مقدمة صنّاعه !

- وهل عادت أزمة العرب القاسية تنحصر في بلاد الكنز العجيب في الخليج العربي ، أم حتى في بلاد الموز في الصومال ؟

- وهل انحسرت مثل هذه الظواهر التي تقض مضاجع الملايين من العرب في البلدان العربية ذات النظم الملكية القديمة ، أم استشرت بشكل لا يصدق حتى في البلدان العربية ذات النظم الجمهورية الجديدة التي تنطعّت بالتقدمية ؟

كل كلامك يا هيكل صحيح هذه المرة ، ولكن لم يكن عادلاً في نقد الجميع ! وكل توصيفك للحياة العربية بكل انقساماتها صائب . . ولكنك آثرت أن تكون متناقضاً بين الذي تعرفه حق المعرفة ، وبين الذين ما زلت تلوكه للقراء العرب! وكأن القارئ العربي لم يعد يدرك طبيعة الأشياء ذلك لان الوعي بدا عنده على ارض الواقع ، ولم يعد بحاجة إلى كتاب دعائي أو بيان سياسي أو منشور أيديولوجي !!

ولعل من اثمن الأشياء التي أدركها الوعي العربي اليوم في تسعينات القرن العشرين وعند بدايات القرن الحادي والعشرين اكتشافه لمجموعة هائلة من الحقائق التي كانت مخفية عنه والوعي بها . . ولكن ممن ؟

من أولئك الذين مشوا به إلى ساحات الظلام ! من الاولين والآخرين وهم يتقدمون به إليها بشعارات براقة لم يحققوها هم أنفسهم على أنفسهم ؟

رحم الله مجاميع تلك النخب العربية القديمة !

وسيذكر التاريخ رجالاً عرباً عاشوا وماتوا كالنساك الزاهدين

في عقود زمنية محددة من القرن العشرين .

تصويبات تاريخية ثانية :

يقول هيكل : « كانت هناك مرحلة البحث عن شرعية واحدة لامة واحدة ، فقد كانت أخر شرعية واحدة معترف بها هي شرعية الخلافة العثمانية ، وبانهيار الإمبراطورية العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى وجدت شعوب الأمة العربية نفسها دون أرضية واحدة وبغير سقف مشترك ، ولقد جرت محاولات لإحياء الخلافة الإسلامية مرة أخرى في إطار عربي ، لكن المحاولة تعثرت مع المنافسة الشديدة على كرسي الخليفة وطيلسانه وعمامته بين ثلاث اسر حاكمة . . . . ووصلت المنافسة إلى الطريق المسدود» (حرب الخليج ، ص ١١) .

للإجابة على هذا «الكلام» التاريخي الخاطئ ، لابد له من تصحيح ، ولابد لهيكل أن يقرأ تاريخنا العربي الحديث والمعاصر قراءة متمعنة ، بالاعتماد على مصادره ، ومراجعة كتب ودراسات من اهتم به من المؤرخين العرب ، ومن المستشرقين المعاصرين ، قبل أن يلقي بمثل هذا «الكلام» جزافاً . . وقد كرر هيكل مثل هذه الافكار الخاطئة في أكثر من كتاب له ، وللرد عليه أقول :

١ - ان البحث التاريخي عن شرعية واحدة لامة واحدة لم تبدأ إلاّ مع بداية الثوره العربية ضد الأتراك الاتحاديين في أواخر حياة الدولة العثمانية ، والذين تسلموا حكمها بعد إطاحتهم بالسلطان عبد الحميد الثاني ١٨٧٦ ـ ١٩٠٩ م الذي نادى بنفسه خليفة عثمانياً ، وليس خليفة على كل المسلمين ! إذ لم تكن الدولة العثمانية على امتداد تاريخها الطويل الذي عمّر اكثر من ستة قرون ، دولة خلافة إسلامية أو عثمانية ، إنما كانت دولة سلطنة ، وقد عاصرتها عدة دول إسلامية متنوعة .

٢ - لم تكن شعوب الأمة العربية نفسها - كما وصفها هيكل - لها أرضية واحدة ، ولم تكن في يوم من الأيام على امتداد التواريخ الوسيطة والحديثة تحت سقف واحد . . . فلقد كانت هناك عدة دول عربية تعاصر سلطنة العثمانيين منذ قرون ، ومنها : دولة السلاطين السعديين والعلويين في المغرب الأقصى ، ودولة السلاطين اليعاربة والبوسعيديين في عُمان ، ودولة الأئمة الزيدية في اليمن ، ودولة الكثيريين في حضرموت ودولة السعوديين الاولى في نجد . . ناهيكم عن إمارات ودويلات ومشيخات

عربيـة أخرى عـاشت في لبنان والسـودان والخليج العربي ، ولم تكـن جـمـيـعـهـا تحت السـقف العـثـماني وكـانت قد تحققت لها شرعياتها المتنوعة : دينية كـانت أم قبلية أم عصبية أم مذهبية . . . الخ .

٣ - ومن قال لك يا هيكل أن زعماء الاسر العربية الحاكمة كانوا جميعاً في منافسة شديدة على كرسي الخلافة . . إذا كانت هناك ثمة محاولة لدى الملك فؤاد في مصر الذي تولى العرش عـام ١٩١٧ ، وخصوصاً بعد إنهاء مصطفى كـمـال اتاتورك منصب الخلافة في تركيا العثمانية عام ١٩٣٥ بعد إلغائه السلطنة عام ١٩٢٣ ، فلم نقف على أية محاولة من هذا النوع عند الملك فـيصل الأول في العراق الذي أسس حكماً مدنياً فيه عام ١٩٢١ ، ولا عند غيره من الحكام المؤسسين .

٤ - وأشير على كتابنا ومفكرينا وصحافيينا العرب الذين كتبوا وما زالوا يكتبون في مسائل تاريخية لا يعرفون أولياتها ، أن يحجموا عن إطلاق أحكام أو يرددوا أقاويل شائعة خطأ دون أي سند أو معرفة تستند إلى تفصيلات تاريخية دقيقة هم ابعد الناس عن معرفتها ، وبادخالهم المسائل التاريخية ، فان كل كتاباتهم وأعمالهم ومقالاتهم وكتبهم ستتعرض للاهتزاز عاجلاً أم آجلاً خصوصاً إذا ما ركبت جملة من الآراء السياسية والمفاهيم الأيديولوجية على معلومات تاريخية خاطئة .

وعليه انصح محمد حسنين هيكل بالرجوع إلى مراجع متخصصةعربية وغير عربية ، لكي يتأكد مما أقوله .*

من كان وراء كتاب «حرب الخليج» لهيكل؟

يعترف هيكل بالفضل لأصحابه ، متوجهاً بالعرفان لصديقيه - كما يقول - كلاهما

* واشير عليه بالذي كتبه المؤرخ عبد العزيز الدوري (في كتابه : «التكوين التاريخي للامة العربية : دراسة في الهوية والوعي ، ط١ ، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٤ . وقارن أيضاً : سيار الجميل ، العثمانيون وتكوين العرب الحديث : من اجل بحث رؤيوي معاصر ، ط١ ، بيروت : مؤسسة الأبحاث العربية ، ١٩٨٩ . وراجع أيضاً : ألبرت حوراني ، الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨ - ١٩٣٩ ، ترجمة : كريم عزقول ، ط٣ ، بيروت : دار النهار ، ١٩٧٧) .

ألحا «عليه بفكرة هذا الكتاب . أولهما : اندرو نايت الذي يلقي عليه صفات العظمة كونه رئيس مجلس إدارة مجلس إدارة نيوز انترناشيونال التي تملك مئات الصحف في أوروبا وأمريكا وعشرات محطات الإذاعة والتلفزيون - كما يقول - واندرو نايت «ناقش وحضر معي مناقشات طويلة أثناء زيارة عمل قمت بها الى لندن في سبتمبر ١٩٩٠» ، ثم يتابع هيكل قوله : «وكان الصديق الثاني هو بيير سالينجر المتحدث باسم الرئيس الأمريكي الأسبق جون كنيدي ومستشاره المقرّب ، وهو الآن رئيس مكاتب شبكة A. B. C في أوروبا وكنا نقضي الساعات الطويلة في مكتبه بشبكة .A.B.C أو في فندق كلاريدج الذي أقيم فيه - نستعرض بعض فصول كتابه ، ونناقش جوانب الأزمة وبعد تردد طال - نزلت عند رأي الصديقين واقتربت من الفكرة» (حرب الخليج ، ص ١٥) .

كم تمنيت وأنا اقرأ له مثل هذه الأمور ، لو تواضع هيكل قليلاً أمام أمته ومجتمعه وأصدقائه من العرب والمسلمين . وكم تمنيت عليه ان يتنازل عن مثل هذه الصورة التي يرسمها لنفسه دوما في الأعالي ؟ وكم تمنيت عليه يوماً أن يذكرنا بحياة المواطنين العرب العاديين وهو يجالسهم ويصادقهم في إحدى مقاهي حواري باب الشعرية أو الحسين بالقاهرة الحبيبة ! بدل أن يدعي لنفسه تلبية دعوة عشاء أو غداء على مائدة أحد الملوك أو رؤساء الدول الكبرى ! ويجهل العديد من العرب مهما كانت درجة علاقته بهم طبيعة الرابطة المبهمة التي يدّعيها مع اندرو نايت الذي يتفاخر به هيكل أمام المواطنين العرب ، أو تلك العلاقة التي تربطه برجل اسمه بيير سالينجر الذي اشترك مع اريك لوران في إصدار كتابهما : «حرب الخليج : الملف السري» ، والذي طالعناه بالفرنسية حالما نشر بشكله المختزل*

ان الذي نعرفه من الأصول الجارية في نشر الكتب ، قيام المؤلف في نهاية مقدمته بذكر واجب الشكر والعرفان لكل من قدم له مساعدة أو مشورة أو أتعاب أو اقتراحات ونصائح . . أما ان يخصص هيكل صفحة كاملة ، يفصل فيها عن صديقين حميمين له - كما يقول - وانهما الحّا عليه ان يكتب كتاب «حرب الخليج» فهذا أمر غير مستساغ إبداً ، إذ كنا نأمل

---

* Pierre Salinger and Eirc Laurent, *Gurerre de Golfe: Le Dossier Secret* (Paris: Olivier Orban, 1991).

أن تكتب كتابك تلبية لرغبة المواطنين العرب كلهم من خليج الأمة إلى محيطها ، وان تلبي حاجة صديقين عربيين لا غربيين ، إلاّ إذا اعتبرت من تعرفه من الشخصيات العربية على غير المستوى الذي يتمتع به هيكل وجماعته من الصحفيين الغربيين!؟

وأريد أن أسال : إذا كنت قد قضيت الساعات الطوال مع بيير سالينجر في مكتبه أو في فندق كلاريدج بلندن - الذي تذكرنا دوماً بذلك فيه - فلماذا لم يذكرك بيير سالينجر ولو لمرة واحدة لا في كتابه الذي ذكرته في أعلاه بالفرنسية (وقد ترجم إلى العربية - كما سمعت -) ولا في أي مقالة من مقالاته ولم يسمك بسمات التفخيم والتعظيم ؟

وعليه ، لا ادري ما الذي يجعلك تعبر عن هكذا أمور وما فائدتها ؟ وما مبعثها ؟ اهو شعور بالنقص إزاء الآخرين من الرجالات الغربيين أم هو شعور بالتعالي إزاء العرب والمسلمين ؟ أم انه كبت داخلي عميق يعبر عن نفسه بمثل هكذا كلمات ؟ علماً بأن آخرين قد عاشوا وما زالوا يعيشون في الغرب سواء في أوروبا وأمريكا من الكتّاب والأساتذة والمفكرين العرب ولم يسلكوا هذا السلوك ، وما زالوا يحتفظون بأصدقائهم العرب ، ويتصلون عضويا بأهلهم وأوطانهم وترابهم . . ولم يستخف منهم بالعرب والعروبة والمسلمين إلا القليلون ؟ حتى وان كان مثل هؤلاء ليست لهم أية علاقة بالعرب والمسلمين .

ونحن نعرف وقد عشنا في الغرب سنوات طوال بان لا صداقات حميمة أو عاطفية تجمع بين الغربيين جميعاً وبين العرب والمسلمين إلاّ إذا كانت هناك ثمة علاقات مصالح مشتركة ، أو ارتباطات عشق بين رجال شرقيين ونسوة غربيات وعداها ، فان اللقاءات العابرة أو المجالسات الرسمية بين عرب وغير عرب لا تعتبر صداقات البتة حتى وان اقترح أحدهم على الآخر تأليف كتاب ، لكن لم تصل المسألة إلى درجة الإلحاح عليه ! وصدق من قال : رحم الله من عرف قدر نفسه! ولنتأمل ما قاله هيكل في عبارته الأخيرة ، ذلك انه كان مترددا طويلاً ، ولكن نزل عند رأي صديقيه اندرو نايت وبيير سالينجر ! أما الآلاف المؤلفة من القراء العرب فليس لهم أي حق عليك!

منهج كتاب «حرب الخليج»:

يقدم لنا محمد حسنين هيكل عدة نقاط كتبها على وجه السرعة في مقدمته لكتاب

«حرب الخليج» ، إذ أمل منه ، وهو يعالج قضية أمة بكاملها كانت ولم تزل حاضرة في ذاكرتها ، وكان لها أسبابها ووقائعها المريرة ونتائجها القاسية ان يكتب لنا بروية وهدوء عن منهجه الذي اتبعه في كتابته ومعالجته وبحثه هذا «الموضوع» الذي يعد من أخطر الأحداث العالمية عند نهايات القرن العشرين خصوصاً وان هذه المسألة لم تصبح تاريخية بعد بل تتشابك فيها عوامل جد معقدة محلية وعربية وإقليمية ودولية ، وهو نفسه يدرك مدى خطورتها على حاضر الأمة ومستقبلها ليس في تسعينيات القرن العشرين بل على امتداد جيل كامل في الثلاثين سنة الأولى من القرن الحادي والعشرين .

فماذا قال ؟

قال : «ولقد يكون مناسباً هنا ان أتوقف قليلاً لإشارة سريعة إلى المنهج الذي اقتربت من الفكرة على هديه :

(أ) إن قصة أي حدث سياسي يصعب فهمها ما لم توضع داخل إطارها ، فإذا سلخت منه أصبحت روايتها بالسكين وليس بالقلم .

(ب) إنني في ما أحاوله من رواية قصة «الحرب في الخليج» لا اصدر أحكاماً ، وإنما أحاول بناء وقائع وكان رأيي دوما - ولا يزال - أن أي كاتب سياسي مطالب بالدرجة الأولى بأكبر قدر من الحقائق وبأقصى ما هو متاح له ، وبأكبر قدر من الاجتهادات - وعلى أوسع دائرة ممكنة . .

(جـ) إنني في اقترابي من قصة «الحرب في الخليج» ، كما هو الحال مع أي أزمة كبيرة ، اذكر نفسي دائماً بحقائق القوة ، ذلك ان عنصر القانون في أي أزمة ليس هو ضابط إيقاعها ، وإنما ضابط الإيقاع حقائق القوة .

(د) ان أملي في عرض القصة ، وإعادة بناء الوقائع في أزمة وحرب الخليج ان يكون موقفي المستقل ، وليس موقف المحايد فموقف الاستقلال بحث في كل حتى وان كان ملغوماً ، والحياد من تحرز وتجنب للمحاذير من أي نوع . والحقيقة إنني لا أستطيع ان ازعم لنفسي موقف المتجرد ، وظني ان وهم التجرد غير إنساني ، بل هو مستحيل . .» (حرب الخليج ، ص ١٥ - ١٦) .

لا يمكن أن نعد مثل هذه «الانطباعات» منهج عمل في تأليف كتاب خطير . . ولا يمكن لأي كاتب بوزن هيكل ان ينشر كتاباً عن «حرب الخليج» ، وهو يقدم إشارة سريعة إلى المنهج بهذه الطريقة . ولا ندري كيف يقول هيكل انه قد وضع قصة هذا «الحدث» التاريخي الذي وصفه بـ «السياسي» فقط ، وضعها في داخل إطارها ، وقد غابت عنه الأرضية الجغرافية في فهمها الصحيح ، وافتقدت منه الخلفية التاريخية في معرفتها الصائبة !

ولا ندري نحن جماعة المؤرخين كيف ينفي هيكل عن نفسه إصدار الأحكام ، ويدّعي انه حاول بناء وقائع . . فالكاتب لا يبني الوقائع ، انه يصف الوقائع لان بناء الوقائع من اختصاص أصحاب البحث العلمي في كتابة التاريخ ، وأن المؤرخ الحقيقي هو الذي يحاول البحث عن حقائق التاريخ ودراسة وقائعه من خلال بنائه العلمي والنقدي والتحليلي والمقارن لها .

محاولة من أجل البحث عن الحقيقة:

والمنهج ليس مجموعة آراء . . فكيف كان رأيك دائماً ولم يزل بأن أي كاتب سياسي مطالب بالدرجة الأولى بأكبر قدر من الحقائق ، وبأكبر قدر من الاجتهادات ؟ لا أبداً لا يمكنك أن تقّدم كل ما تسمعه وتقرأه بأنه حقائق ، بل محاولات من اجل البحث عن الحقائق . أما اكبر قدر من الاجتهادات ، فانك ستصبح في هذه الحالة موزعاً للأحكام ، وقد نفيت في النقطة الأولى انك قد وزعت الأحكام وهذا ليس بصحيح أبداً ، فقد وزعت الأحكام كما توزع الحلوى على الأطفال ! .

أما النقطة الثالثة التي جعلتها من ثوابتك المنهجية ، فهي التي يمثلها ذلك العنصر الذي أسميته بـ «حقائق القوة» ، ونحن لم نسمع بمثل هكذا مصطلح ، إذ يقال في العلوم السياسية «منطق القوة» ، ويقال في الفلسفة «حقائق الأشياء» ، ويقال في العلوم التاريخية «حقائق التاريخ» . . الخ . أما «حقائق القوة» فهذا مصطلح اخترعه محمد حسنين هيكل لكي يقول بأن الذي يقابله هو «عنصر القانون» ، كمصطلح جديد اخترعه هيكل أيضاً ، إذ يقول رجال القانون بـ «لوائح القانون» ! ـ يريد أن يقول وباختصار ـ بأنه قد كتب كتابه ضمن سياقات التعاطف مع حقائق القوة لا مع لوائح القانون وسأترك تفسير ذلك للقارئ الكريم .

أما في النقطة الرابعة ، وبرغم ادعائه انه صاحب موقف مستقل متجرد في كتابته لـ «حرب الخليج» ولم يكن صاحب موقف محايد . . فهذا هروب واضح من أن يكون هيكل هنا أو هناك ! وسنرى بان هكذا منهجية ادعاها لم تصمد أبداً وهو يكتب كتابه «حرب الخليج» إذ سنجده لا بمتعاطف مع أحد الطرفين علناً ، ولا بمحايد موضوعي بين الطرفين أبداً ، ولا بمستقل بعيد عن مجمل حوادث الأزمة ثالثاً ، فمن هو هيكل إذن والذي أصر على أن يذيع ذلك حتى في مقابلاته الصحفية عند نشوب الأزمة وتداعياتها في الشهور الأولى؟؟ وإذا لم يكن الرجل واحداً من هؤلاء الثلاثة : المتعاطف مع . . أو المحايد بين . . أو المستقل عن . .

فمن سيكون ؟

تناقضات صارخة:

لقد بدا هيكل في منهجه ومضمونه ذلك الكاتب الذي تزدحم عنده التناقضات إلى درجة كبيرة . . فهو من ناحية يدين «الغزو العراقي للكويت» ، إدانة شديدة ، ولكنه يبرر ذلك ضمناً ! وهو من ناحية أخرى يتعاطف مع فكرة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر في الحؤول دون ضمّ الكويت الى العراق من قبل العراقيين ، ولكنه يكتب عن حق العراقيين في إيجاد منفذ بحري لهم على الخليج العربي ! وعليه ، فقد صدق إذ لم يكن محايداً أبداً ، ولكنه بنفس الوقت ، لم يكن مستقلاً أبداً بدليل عدم معرفتنا لمصادر معلوماته كاملة ، - كما سنحاول إيضاح ذلك بعد قليل - .

ولا بد أن يفكّر المرء في أزمة هيكل ، فهو من طرف لا يريد إحراج نفسه في التنصل عن مبدأ الرئيس الراحل جمال عبد الناصر الذي وقف من خلاله ضد كل من نوري السعيد وعبد الكريم قاسم في محاولتهما ضم الكويت إلى العراق ، الأول بوسائل سلمية ، والثاني بوسائل عسكرية . . وما وضّحه محمد حسنين هيكل في أكثر من مكان من تنبيه عبد الناصر لعلي صالح السعدي عام ١٩٦٣ عندما قال : «أياك والاقتراب من مسألة الكويت» ! فضلا عن موقف عبد الناصر القوي ضد استحواذ العراق على الكويت وضمها اليه . .

وهو ـ أي : محمد حسنين هيكل ـ من طرف آخر ، يريد الأخذ بأسباب العراقيين في

إيجاد منفذ بحري لهم على فوهة الخليج العربي ضمن جغرافية المكان التي تحدّث عنها !!

وعليه ، فهو لم يكن ـ كما أدعى ـ مستقل الرأي في هذا الخصوص ، فلقد أدان العراق بما فعله يوم ٢ آب / أغسطس ١٩٩٠ ، وسمّى ذلك بـ «الغزو العراقي للكويت» ، وكال للسياسة العراقية نقده لها كونها أخطأت في حسابات المنطق ! مستلهما فكرة جمال عبد الناصر ومبدأه في الموضوع . . ولكنه من طرف آخر أوضح أسباب العراق في الذي اسماه بـ «الإطار العام» للعملية كلها ، وشرح نزعات الخليجيين وسوء تصرفات الكويتيين فخسر جانب الكويت !

فعلاً لم يكن هيكل محايداً - كما وصف نفسه - ولم يكن متعاطفاً مع أي من الجانبين المتنازعين ، ولم يكن مستقلاً في تحليل الأبعاد كافة بل كان متناقضاً مع نفسه ومع تفكيره وعبر عن ذلك كله في كتابه «حرب الخليج : أوهام القوة والنصر» ! ومن يتأمل طويلا في الذي كتبه هيكل في هذا «الكتاب» ، سيقف مسجلا عليه عدة ملاحظات نقدية ، وربما سيسجل عشرات الملاحظات الصارخة التي لا يمكن قبول ما جاء به هيكل بهذه السهولة ، الا أنني سأقتصر على بعضها :

١ . ان الرجل كان متسرعا جدا في جمع الروايات والحكايات والشائعات والتصريحات المضادة . . كي يحررها بسرعة ملبيا رغبة صديقيه اللذين ذكرهما في مقدمة كتابه ، دون أن يتمهّل قليلا في نقد ما سمعه وتحليله ، خصوصا وأنه يعالج أخطر حدث عربي معاصر .

٢ . ان هيكل لم يستفد من فهمه لأوضاع المرحلة التاريخية التي يمر بها العرب ، خصوصا وأن الازمة سياسية بالدرجة الاولى ولها عواملها الدولية والاقليمية . . علما بأنه كتب عن مراحل سياسية سابقة عاشها العرب وكانت لهم خلالها جملة من الازمات ولكنها هذه المرة تختلف جدا عّما ألفه العرب في منازعاتهم السياسية الداخلية ، اذ اتخذت هذه المرة بعدا دوليا خطيرا .

٣ . يبدو موقف هيكل مضطربا جدا حيال هذه الازمة الصعبة والمعقّدة من الايام الاولى لانفجارها . . ليس كما توّضح في كتابه « حرب الخليج . . » ، بل بدت تناقضاته في

تصريحاته التي أجراها معه أكثر من محاور وصحفي ومراقب . . كتلك التي توضّحت لنا في بعض الصحف والمجلات المصرية .

مصادر معلومات هيكل:

يقول هيكل وهو يتحدث عن أهم خطوة منهجية كان لابد له ان يطيل النظر والشرح والتحليل فيها ، إلاّ وهي مصادر معلوماته المضطربة عن «حرب الخليج» إذ كتب يقول بكل خفة واختصار عن هذه «المسألة» التي نعتبرها نحن المؤرخين خطيرة جداً ، خصوصاً عن تاليف كتاب بهذا الحجم ، وهو يعالج اخطر ما مر على العرب في القرن العشرين :

قال : «إنني في سبيل إعداد هذا الكتاب التقيت وتناقشت واستمعت إلى كثيرين من رؤساء الدول والقادة السياسيين والعسكريين في العالم العربي ، كذلك التقيت وتناقشت واستمعت إلى كثيرين من المشاركين في صنع القرار في الولايات المتحدة وفي أوروبا . ولقد سمح لي بعض الكرام بينهم أن أطلع على أوراق وتقارير رسمية ، وسجلات معلومات كانت في حوزتهم بحكم المنصب والمسؤولية ، وإذا اعترف بالفضل لأصحابه ممتناً وعارفاً ، فإني أجد من الضروري أن أقول إن ما استخلصته مما سمعت منهم أو قرأت بإذنهم - تظل مسئووليته عليّ وحدي ، وليست على أحد منهم» (حرب الخليج ، ص ١٦ -١٧) .

وأود ان أسأل عدة أسئلة :

١ - من الأمانة العلمية والضرورات البحثية أن يذكر الكاتب والمؤرخ والصحفي مصدر معلوماته ، ويحدّده بالاسم والهوية والرقم والتاريخ ، فما هي المستندات التي تعاملت معها ؟ وما هي الوثائق التي اعتمدت عليها ؟ وما هي الأوراق والتقارير الرسمية وسجلات المعلومات التي استفدت منها بالاسم والتاريخ والرقم والصفحة والفقرة ؟

٢ - من هم أولئك الكثيرون من رؤساء الدول والقادة السياسيين والعسكريين في العالم العربي الذين التقيت بهم وتناقشت معهم واستمعت إليهم ؟ من الأمانة أن تذكر أسماءهم هنا واحداً واحداً . . ومتى أجريت المقابلات معهم ؟ وفي أي مكان كانت تلك اللقاءات ؟ نحن نعرف انك قد التقيت بالملك حسين قبل أن تبدأ تأليف «حرب

الخليج»* . . ولكن من الذي التقيت به من رؤساء وملوك الدول العربية ؟ وكانت قد توفرت الفرصة أمامك لزيارة العراق والالتقاء بالمسؤولين فيه عندما كنت نازلا في فندق ريجنسي في عمّان بالأردن ، ولكنك لم تغادر إلى العاصمة العراقية بغداد براً . . بعد أن رحّب هيكل باللقاء ، لكنه ألغى خطة الزيارة معللا ذلك بسبب ظروف مصر السياسية ؟!

٣ - وعليه ، فكل القراء العرب تطالبك يا هيكل أن تفصح عن أسماء أولئك القادة والمسؤولين الغربيين ؟ فضلاً عن أسماء أولئك القادة السياسيين والعسكريين العرب الذين تدّعي انك التقيت بهم من اجل تأليف هذا الكتاب ، وكان عليه أن يسمع ما أمكن من المرويات الكاملة ، إلا انه ـ كما يروى عنه ـ كان يستخف ببعض الشخصيات ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر ، عندما كان في بيت جمال الشاعر في العاصمة الاردنية مع عبد الكريم الارياني وزير خارجية اليمن الذي كان مستعدا لاعطاء هيكل أية معلومات عن دور اليمن ، لكن هيكل تجاهل تلك الرغبة ، ولم يسأل أي سؤال ! علما بأن من واجب الباحث المحقق السعي للاستماع إلى كل الأطراف .

٤ - ثم قل لي : من هم الكثيرون من المشاركين في صنع القرار في الولايات المتحدة وفي أوروبا ، الذين التقيت بهم وتناقشت معهم واستمعت إليهم؟ نحن نريد ان تذكرهم لنا اسماً اسماً ، فربما كان شوارسكوف من ضمنهم ونحن لا ندري كما نحن نطالبك بأسانيد ذلك إن كانت صحيحة كيلا نسمع أسماء ما انزل الله بها من سلطان .

٥ - ولا ادري لماذا تمنيت ان تستمع فقط إلى رجل واحد كما ذكرت وتناقشه في الأحداث والتطورات ذلكم هو صديقه الراحل أحمد بهاء الدين ، والذي كان المرض قد غيّبه ! ومع تقديرنا لأمنيتك وترحّمنا على الرجل ـ الذي لا أريد أن أكتب ما حكاه لي في لندن عام ١٩٨٥ ـ ، ولكن بماذا كان الرجل سينفعك ؟ ذلك أن حرب الخليج لا يستطيع أن يمتلك معلوماتها كاملة ، وحقيقتها واضحة رجل واحد وربما كان لاحمد بهاء

---

* لا أدري كيف تغافل هيكل عن استخدام ما كتبه الملك حسين حول «الموضوع» في ! المملكة الاردنية الهاشمية ، الكتاب الابيض : الاردن وأزمة الخليج آب ١٩٩٠ - آذار ١٩٩١ (عمّان ، ١٩٩١) .

الدين موقف ووجهة نظر تختلف عن هذا الذي كتبه هيكل . .

٦ ـ وأخيرا ، فان في كتاب «حرب الخليج» أكثر من مشكلة تتصل بتوثيق الحدث ، وهي مشكلة هيكل بحد ذاتها ، فضلا عن النواقص في مصادر المعلومات ، والتشوهات ، والأخطاء اكثر من أن تحصى أو تستقصى . . وكل ذلك نتيجة واضحة للخلل الذي حصل في مصادر معلومات هيكل عندما ألف كتابه «حرب الخليج» ! ويقيني أن هيكل لو استمع إلى أبرز صنّاع الحدث ، وتحقّق من الروايات ، ووقف على معلومات متنوعة . . لخرج الكتاب بغير الصيغ والمضامين والأحكام التي خرج بها .

أمنيـة رائعـة لـن تتحقق :

عند نهاية مقدمته التي كتبها لكتابه «حرب الخليج» ، يقول محمد حسنين هيكل متمنيـاً : « بقي أن كل ما أتمناه هو أن يفرغ أي قارئ من صفحات هذا الكتاب ، ثم يطويه ويضعه جانباً ، ثم يعطي نفسه وقتاً طويلاً للتأمل . ويظل يقيني إننا في هذه المرحلة من حياتنا أمة تحتاج إلى أن تفكر ، وان تفكر ، وان تفكر ! ثم تخطو من بين أطلال حاضرها وأنقاضه إلى أفق مفتوح ومستقبل جديد ، وذلك في مقدورها إذا استعادت في يدها حرية وحق الاختيار (حرب الخليج ، ص ١٨) .

أجل . . لابد أن تفكر امتنا كثيراً ، ولكن بعد أن تقرأ كثيراً ، إذ كان لابد ان تضيف لما تحتاجه امتنا لكي تفكر ، مساحة أو هامش من حرية الرأي ، والاستماع لجميع الأصوات ! نعم عليها أن تفكر بعد أن تقرأ كتابك نقداً لا إعجاباً . . وعليها أن لا تطويه وتضعه جانبا ، فالزمن هو الكفيل بان يطويه في نهاية المطاف ، وان تفكر في حاضرها ومستقبلها معاً ، لكي تقترح المعالجات لهذا الحاضر من اجل بناء المستقبل ، والأفق المفتوح والمستقبل الجديد عند العرب بحاجة ماسة قبل كل شيء إلى التفكير الجماعي والواعي من خلال الإدراك المتبادل والعقليات العلمية ، والأمانة التاريخية من اجل تصويب الأخطاء وان استعادة حرية وحق الاختيار تكفلها القوانين والأعراف ، ولا يتم ذلك كله إلاّ باعتراف العرب بأخطائهم ، ذلك لأن الاعتراف بالخطأ فضيلة ، ثم القيام بتنقية الأجواء وصفاء الأنفس ، لأن أي زراعة للأحقاد سوف يجني أحفادنا مرارتها في المستقبل . . وان الحاجة ماسة اليوم إلى أن يكتب

تاريخنا ، وتصنع سياستنا العربية بكل انفتاح على الذات ، وحوار العرب مع أنفسهم كي تكون لهم كلمتهم في صناعة التاريخ .

انفجار ردود الفعل السياسية لا الفوضى العربية !

يقول هيكل : «كانت الساحة العربية بحكم كونها بؤرة الأزمة نفسها ، في وضع اغرب بكثير مما كانت عليه الساحة العالمية ، وكانت بعض المشاهد الحية على الأرض العربية اشد مدعاة للانقباض والكآبة من أي مشهد خطر على خيال (كافكا) الكاتب التشيكي الذي اشتهرت مشاهد رواياته في الأدب العالمي بصور الكوابيس المفزعة ! ولم يكن في مقدور كثيرين ـ جماعات أو أفرادا ـ اتخاذ موقف قطعي تجاه التطورات ، فقد أدى تداخل الغزو العراقي مع بوادر ومقدمات التدخل الأمريكي إلى نوع من التمزق العميق ، كان الغزو العراقي للكويت مرفوضاً ، وكان التدخل الأمريكي العسكري في الأزمة مرفوضاً بنفس المقدار ، وإزاء الرفض المزدوج تبدى عجز الأمة حتى عن التفكير فضلاً عن الفعل ، وعمّت العالم العربي حالة من الفوضى الشاملة» (حرب الخليج ، ص ٣٦ – ٣٧) .

ربما اتفق مع هيكل بقدر ما اختلف فهو يصور الحالة العربية ليس من باطنها ، بل وكأنه خارج عنها ، ذلك أن الساحة العربية ليس كلها بؤرة الأزمة نفسها ، بل كان الخليج العربي الذي اسماه هيكل بالكنز . . أما المشاهد الحية التي تدعو للانقباض والكآبة فليست جميعها تغطي الأرض العربية فهناك أراض عربية وإقليمية على امتداد العالم الإسلامي مشبعة بالآلام والتقهقر والأحزان . . أما الكوابيس المفزعة فلم تعرفها إلاّ الشعوب التي عانت كثيراً من الحروب المفجعة التي دامت سنوات طوال ، أهلية كانت أم إقليمية . . وعداها فلم تكن بحروب حقيقية تنتج الآلام الطويلة والكوابيس المرعبة التي تقشعر منها الأبدان !

أما الرفض المزدوج ، فلم يكن قد حصل فعلاً ، ذلك لأن الأمة العربية قد انقسمت على نفسها إلى قسمين : قسم اصطف إلى جانب العراق ، وقسم ثان اصطف إلى جانب الكويت . . وعليه ، فالأمة لم تكن لحظتئذ مزدوجة الرفض ، كما هو حال هيكل نفسه ، وعجز الأمة لم يولد في تلك اللحظات المريرة ، فعجزها اقدم من ذلك بكثير ليس عن الفعل

فقط ، بل حتى عن التفكير !

ولنسأل لو كان الرئيس جمال عبد الناصر حيًا في هذه الأيام الصعبة ، فمع من سيكون اصطفافه ؟ ألا تعتقد أنه كان سيسعى إلى إيجاد حل عربي ولم يكن هناك أي فوضى شاملة بالمعنى الذي تقصده ، بل انفجار ردود فعل سياسية في شوارع المدن العربية ، ولكنها لم تصل إلى حد الفوضى المتعارف عليه !

أقاويل ودعايات ليست في محلها:

يقول هيكل : «كانت شعوب ودول العالم العربي تنظر لنفسها دوماً على أنها منتمية لامة واحدة . وفجأة هذه الأمة لم تصبح منقسمة على نفسها فحسب ، وإنما وجدت نفسها في حالة حرب بعضها مع بعض ، وكانت الجيوش العربية - إلى جانب القربى - مقيدة بميثاق واحد للدفاع المشترك ، وفجأة وجدت هذه الجيوش نفسها وقد أصبحت في جبهات متقابلة وبينها خطوط نار وقتال ، وكان من المفارقات أن عدداً من كبار العسكريين العرب وجدوا أنفسهم في وضع من يقدم النصح والمعلومات إلى نظرائهم الأمريكيين . . ومن الأمور الواردة أن رجلاً مثل اللواء محمد علي بلال عاش أزمة مشاعر متناقضة ذلك أنه قبل شهور قليلة من انفجار الأزمة كان معاراً كمستشار لرئاسة هيئة أركان حرب القوات العراقية المسلحة ، وخلال معركة (الفاو) كان اللواء بلال واحداً من الذين قاموا بدور في التخطيط لتحريرها من القوات الإيرانية ، وفجأة بانفجار الأزمة وجد اللواء بلال نفسه في موقع قائد القوات المصرية في حفر الباطن في السعودية . ولعل أزمته لم تكن مستعصية حين كانت مهمة القوات المصرية مقصورة على الدفاع عن السعودية ، ولكنه حين تحول هدف المعركة إلى حرب هجومية ضد الجيش العراقي ، فان الرجل اغلب الظن لم يستطع ملاءمة نفسه مع المهمة المستجدة» (حرب الخليج ، ص ٣٧) .

هذا ما كتبه هيكل في كتابه «حرب الخليج» ، والى حد الآن ليس لي تفسير مقنع لاختلاقه مثل هذه الأقاويل التي لا أساس لها من الصحة على الإطلاق ! ولكن ربما أراد القول بعد أن نسج هذه الصورة الوهمية أن مصر كانت وراء انتصار العراق في تحريره للفاو ، وهذا محض افتراء . . ، ولما قمت محققا في هذا الأمر من أجل كشف الحقيقة كاملة ،

ودحض هذا الافتراء ، وجدت بأن لم يكن هناك أي مستشار برتبة لواء من الشقيقة مصر واسمه محمد علي بلال! لم يكن هناك أي مستشار لرئاسة هيئة أركان حرب القوات العراقية المسلحة ! ولم يكتف هيكل بهذه التلفيقات ، بل أراد أن يقول بان محمد علي بلال هو الذي حرر شبه جزيرة الفاو !

ولا ادري كيف لا يتأنى بعض الكّتاب من تدوين أكاذيب عن أحداث مصيرية لم يمض عليها إلاّ سنوات قلائل ، ولا بد أن أقولها للتاريخ ، بان ليس هناك أي رجل مخطط برتبة لواء قام بدور في التخطيط لتحرير الفاو من القوات الإيرانية فان عملية تحرير الفاو هي عملية عراقية صرفة خطط لها القادة العسكريون العراقيون الميدانيون وقاموا بتنفيذها لاستعادة الفاو بأنفسهم دون أية استشارات من هذا أو ذاك! ثم كيف يغدو اللواء محمد علي بلال قائد القوات المصرية في حفر الباطن مستشاراً ومخططاً في تحرير الفاو! ؟ هذه كذبة صريحة ما كنت أظن ان هيكل يصدقها بمثل هذه السرعة بل ويبني عليها مواقف في أبعاد المسؤولية عن الجيش المصري الذي اشترك في معركة عاصفة الصحراء ، وسواء كانت مهمة القوات المصرية قد اقتصرت على الدفاع عن هذا أو مهاجمة ذاك ، فان التاريخ سيقول بان القوات المصرية قد اشتركت في عاصفة الصحراء !

ولا ينفع أي تبرير يقدمه لا هيكل ولا غيره ، وسواء تلاءم اللواء محمد علي بلال مع نفسه لأداء المهمة المستجدة أم لم يتلاءم فالمشكلة ليست عند محمد علي بلال المسكين أو غيره . . المشكلة يا هيكل اكبر من العراق وأكبر من الكويت وأكبر من كل العرب بكثير وأنت تعرفها جيداً منذ زمن طويل !! وما الضحية على امتداد عقدين من الزمن الصعب إلا شعب العراق الذي دفع كل شيء من دمه وشبابه وثرواته وماله وراحته وحاضره ومستقبله . . في عشر سنوات عجاف مؤلمة من تراجيديا الحصار . . ومن قبلها ثماني سنوات عجاف قاسية من الحرب والدمار مع ايران ، والحبل على الجرار .

كذلك اختلف معك عندما تقول بانتماء الشعوب والدول العربية لامة واحدة وفجأة وجدت نفسها في حالة حرب بعضها مع البعض الأخر! لا يا هيكل ، هناك واقع وهناك خيال ، وهناك من يتوهم انقسام الأمة على نفسها ، وكأنها لم تنقسم على نفسها أبداً على امتداد التاريخ وهناك من يرى الأمة واضحة أمامه على ارض الواقع ، وان كل ما حدث فيها

هو نتيجة لكل حالات التمزق والصراعات والاخفاقات والهزائم التي عاشتها ومنيت بها في القرن العشرين .

الجيش العراقي : القدرات والاستلابات

ان كلام هيكل كله حول محمد علي بلال يمهد لما سيقوله في الفقرات التالية ذلك انه قد استهان بقدرات الجيش العراقي وخصوصاً قوات الحرس الجمهوري وبقدرة سلاح الجو العراقي وكفاءة الطيارين العراقيين (حرب الخليج ، ص ٣٧ - ٣٨) ، وكأن ليس لهذا «الجيش» تاريخ وتجارب منذ تأسيسه عام ١٩٢٠ ، وكأن ليس لهذا الجيش خبرات قتالية ومشاركات فعالة في حروب العرب ضد إسرائيل ، ويعرف الجميع ان الصهاينة كانوا وما زالوا يخشون جيشاً وحيداً في المنطقة ، هو الجيش العراقي ، فضلاً عن ان هذا الجيش ، هو الجيش الوحيد في العالم الذي خاض حرباً تقشعر من هولها الأبدان على امتداد ثماني سنوات ١٩٨٠ - ١٩٨٨ ضد إيران . . فماذا سيكون وضعه ؟ وماذا ستكون سايكولوجياته بعد ان وضعت تلك الحرب القاسية أوزارها ؟

أما قول هيكل بان «الجيش العراقي واجه الحرب وهو جيش بلا أسرار (حرب الخليج ، ص ٣٧) فهذا أمر طبيعي ، ذلك ان هناك فارقاً كبيراً بين الذي كان عليه الجيش العراقي قبل عام ١٩٩٠ ، وما آل إليه بعد هذا التاريخ ! ولا اعرف مدى صحة المقولة التي ساقها لنا محمد حسنين هيكل على لسان الرئيس المصري حسني مبارك الذي شكك فيها بقدرة الطيران العراقي وكفاءة الطيارين العراقيين إذ نقل على لسانه قوله : «انه كقائد سابق لسلاح الطيران المصري يعرف قدرة الطيران العراقي وكفاءة الطيارين العراقيين ، وما يعرفه لا يدعوه ولا يجب ان يدعو غيره إلى القلق» (حرب الخليج ، ص ٣٨) .

ربما يختلف النظامان السياسيان في كل من مصر والعراق ، ودائماً هناك بينهما ما هو مختلف على امتداد القرن العشرين ، ولكن لا يمكن أن يقلل أحد من موضوع كفاءة الطيارين العراقيين على امتداد القرن العشرين ، منذ بدا تأسيس سلاح الجو العراقي في نهاية العشرينيات وحتى نهاية الثمانينات من القرن العشرين ويكفي ما ابلاه أولئك الرجال في حروب عدة ، وأهمها وأعتاها : حرب الخليج الأولى وبرغم اختلافنا في عوامل نشوبها

وفصولها المأساوية ، إلاّ أن الجيش العراقي في قواته البرية والبحرية والجوية لم تساعده أية جيوش أخرى لا عربية ولا إقليمية على امتداد ثماني سنوات من التاريخ الصعب !

كما ان الجيش العراقي قد اثبت انه صاحب نفس طويل جداً في أيام الحرب القاسية ، إذ لم ينهزم في أيام أو ساعات أو حتى شهور ، بل استمر يقاتل سواء كان على صواب أم خطأ ثماني سنوات عجاف ، ولم ينحصر ذلك بقوات معينة دون أخرى ، أو عهد سياسي معين ، فكل الوثائق التاريخية تشير إلى أدائه المتمكن في الحروب العربية - الإسرائيلية ، سواء في عمليات جنين بفلسطين عام ١٩٤٨ ، أو قتاله إلى جانب الجيش الأردني عام ١٩٦٧ ، أو في قتاله إلى جانب الجيش السوري عام ١٩٧٣ ، وهناك إشادة مصرية من نوع خاص يعتز بها العراقيون لمشاركة سلاح الجو العراقي على الجبهة المصرية عام ١٩٧٣ ، والتي ذكرها الرئيس الراحل أنور السادات اكثر من مرةّ .

ولقد كانت للجيش العراقي شراسته وغلظته وقسوته في اغلب العمليات التي نفذها سواء في داخل البلاد او خارجها وخصوصاً عندما قمع تمردات العشائر في الجنوب والشمال ابان الثلاثينيات او في حربه ضد الانكليز وفي فلسطين في الاربعينيات . . ثم عندما قلب نظام الحكم الملكي وتمرد الموصل وكركوك في الخمسينيات ، او عند تمردات البارزاني في الشمال ابان الستينيات ، او دوره في حرب رمضان/اكتوبر في السبعينيات ، او دوره في حرب الخليج الاولى ضد ايران في الثمانينات ، او في اجتياحه الكويت ودوره في حرب الخليج الثانية ابان التسعينيات . لقد مرّت على الجيش ظروف وتحديات ومآس وآلام لم تمر بأي جيش عربي او غير عربي في المنطقة كاملة . . فضلاً عن الصرامة والمصاعب التي يتصف بها هو نفسه في تركيبته وتشكيلاته وأوامره وخططه . . اضافة الى انتماءات افراده المتنوعة . ولعل أسوأ حالاته التي تسجّل عليه : تدخلاته السافرة في السياسة ، ودوره في الانقلابات العسكرية (كونه صاحب اول انقلاب عسكري عربي) ، ودوره في فرض الاحكام العرفية ، او دوره في اجراء المحاكمات العسكرية . .

نموذج من الادعاءات :

« وأرضية السياسة في ظني - هي الجغرافيا ، وخلفيتها - فيما أتصوّر - هي التاريخ ،

وهكذا توضع الاحداث في زمانها ومكانها » . هذا نص ما قاله هيكل في مقدمته لكتاب «حرب الخليج» .

قال أحد نقاد هيكل في كتاب اسمه «زيارة لبيت العنكبوت» : «واللعب على الحبلين مهنة أجادها هيكل منذ زمن ، يقوم بعملية خداع مزدوج فيقدم للقارئ مجموعة هائلة من الروايات المزيفة المزورة يبني بها بيتاً واهياً من تصورات ليس لها ظل من الحقيقة ، ثم يلفت إلى القارئ الغربي فيقدم له شيئاً أخر قد يتناقض مع ما قاله في نسخته العربية ، ولكن ليس هذا هو المهم ، إنما المهم ان ترتفع إعداد النسخ المطبوعة وتروج البضاعة»* .

لقد كتب محمد حسنين هيكل كتابه عن حرب الخليج ، ونشره بالإنكليزية أولاً تحت عنوانه (Illusion of Triumph: An Arab View of the Gulf War) وعاد لكي يصدره بالعربية تحت اسم «حرب الخليج : أوهام القوة والنصر» ، وقد انتقد مؤلفه مع ما ذكره في الأول ، وما قام به من حذوفات في الثاني ، كما أن ثمة تكذيبات رسمية نشرت من قبل الحكومة المصرية عن بعض الروايات التي ساقها هيكل في كتابه دون أي توثيقات أو مستندات رسمية ، فمثلاً أورد الرجل في ص ١٨ من كتابه عن حرب الخليج (بالانكليزية) مقابل ص ٣٨ من كتابه (بالعربية) عن وصول قوات من جمهورية أفريقيا الوسطى إلى مصر في طريقها إلى السعودية . . ولما اطلع المسؤولون هناك على ذلك ، وجدوا ان مؤلف الكتاب يعرض بهم وبشعبهم ، فتقدمت هذه الدولة بشكوى رسمية إلى السلطات المصرية المختصة ، فقامت وزارة الخارجية المصرية بإصدار تصريح رسمي تكذب ذلك بعد ان تأكدت منه ، واختتم المتحدث باسم الخارجية المصرية تصريحه بان تضمين الكتاب المذكور (محمد حسنين هيكل) هذه الواقعة ، هو أمر مؤسف يسيء إلى حرية النشر التي تسعى مصر إلى ترسيخها وتثبيتها» ، وقد نشر هذا التكذيب في صدر الصفحة الأولى من جريدة الأهرام** .

ولقد علق سمير رجب رئيس مجلس إدارة دار التحرير للطبع والنشر والتي تصدر عنها جريدة الجمهورية اليومية قائلاً : «فالمفروض في مثل هذه الكتب (يقصد : كتاب هيكل) أن

* عبد الله محارب ، زيارة بيت العنكبوت ، ص ١٦ .
** جريدة الأهرام ، العدد الصادر يوم ١٩٩٢/٧/١٥

تكون موادها موثقة ، أي ان مؤلفها يضع يده على الوثائق والمستندات التي تؤكد صدق الأحداث والوقائع أو حتى الروايات ! في نفس الوقت ، يحزّ في النفس . . ان يتعرض كاتب كبير - طالما بهرتنا مقالاته خلال فترة العصر الشمولي - لهذا الموقف المخجل خصوصاً بعد تلك السنين الطويلة من العمر والصحافة والسياسة !!

إنني أتصور ان هيكل قد اعتمد في نشر الواقعة على السمع ، بمعنى انه لم يبحث ، أو يدقق ، أو يتصل بالمصادر وتلك كلها بديهيات مسلم بها ، ويعرفها الصحفي المبتدئ ! وأضاف : أن معظم المعلومات التي يوردها في كتبه أو يضمنها أحاديثه التي يدلي بها بين الحين والآخر للصحف الآن ، أما غير دقيقة ، أو مختلقة من أساسها . . وهذا شيء محزن بكل المقاييس ، أقول «شيء محزن» ، لان الأستاذ هيكل جاء عليه يوم كان فيه الصحفي الأوحد والكاتب الأوحد والمصدر الوثيق الصلة بالحكم ، ورئيس التحرير الذي لا يدانيه سواه . . فتوافرت لديه تلقائياً «البيانات» التي دأب على ان يحجب منها ما يشاء ويفرج عما يريد ، ويبدل ويغير ويطوع . . وفقاً لما يحلو له ويتمشى مع رغبة الحاكم ، وميوله ، وأهوائه* !

ربما غالى سمير رجب في انتقاد هيكل ، اذ حوّلها الى نقد مرحلة سياسية بأكملها . . في حين ان مشكلة هيكل هي التي ولدت وتبلورت بعد تلك المرحلة . . وان أغلب كتبه الكبيرة التي نشرها كانت بعد رحيل تلك المرحلة السياسية التي كان لها مناخها وظروفها وعناصرها وآلياتها . . ورجالاتها . علما بأن هيكل نفسه قد غادر تلك المرحلة بينه وبين نفسه على مستوى حياته وتصرفاته وأسلوبه . . في حين ما يزال يعزف على أوتارها في كتاباته بأسم الثوابت مرة والمبادىء ثانيا . . وبأسم الرجل الذي أطلق أسمه في الافاق ثالثا !

طلاسم مطلوب فك ألغازها:

١ - اعتقد ان هيكل كتب عدة فقرات ونصوص وأشياء كثيرة دون معرفته بها ، أو حتى من دون ان يكلف نفسه عناء السؤال عنها من قبل أولئك الذين حدثوه إياها . وعليه ، فان هناك جملة كبيرة من الفقرات والنصوص والعبارات . . يجهل القارئ العربي مغزاها ومعانيها ، فكيف بالقارئ الغربي الذي سيقرأ مثل هذه الطلاسم ، وعلى سبيل المثال لا

* جريدة الجمهورية ، القاهرة ، العدد ١٤٨٠ ، الخميس ، ١٦/٧/١٩٩٢ .

الحصر ، فمطلوب من هيكل ان يفسر لنا ماذا قصد بالعبارة التالية التي كتبها ، قال : «وفي يوم من الأيام كان دفن أي شيعي قرب هذه العتبات المقدسة يقتضي رسماً يوازي مبلغ ١٧٥ دولاراً ، والآن كان الرصاص يصرخ والقنابل تعوي وسط هذه الرحاب التي يعتبرها ملايين من المؤمنين طاهراً وملاذاً أمنا» (حرب الخليج ، ص ٤٥) .

ربما اعرف ماذا قصد «النص» ولكنني متيقن من أن كاتبه لا يدرك تفصيلات ما يكتب‌ا لأنه بالفعل ، كان يسجل ما يسمع دون التحري عن المعاني . . أو أنه كان يعتمد أساسا على من كان ينقل ويسجل له هذه العبارات والنصوص .

الخلط بين الدولي والعالمي:

٢ - يدخل المؤلف هيكل نفسه في مسائل تاريخية دولية معقدة ، وخصوصاً في تفسيره للنظام الدولي الجديد ، فهو لا يفّرق بين مصطلحي «الدولي» International وبين العالمي World Order باستعمالاته لهما في صفحتين من كتابه «حرب الخليج» ا إذ يقول : «ولقد شاعت مقولة النظام الدولي الجديد . .» (حرب الخليج ، ص ٥٠) ، ثم يستطرد في صفحة تالية قائلاً : «إن فكرة وجود نظام عالمي جديد تفترض . .» (حرب الخليج ، ص ٥١) .

ولقد اختلق من عنده مسميات جديدة ليس لها أي أساس من الصحة ، عندما يذكر قائلاً : «ولعل مقولة ظهور نظام دولي جديد كانت تستحق إعادة النظر والتدقيق ، وربما لزم التمييز بين أربعة أشياء مختلفة :

١ - عصر عالمي جديد .

٢ - نظام عالمي جديد .

٣ - ترتيبات عالمية جديدة .

٤ - ظواهر عالمية جديدة (حرب الخليج ، ص ٥٠) .

ان هذه التقسيمات والتي سماها هيكل أشياء مختلفة ، قد اختلقها الرجل من عنده وربطها بالنظام الدولي الجديد خطأ . . فالظواهر العالمية هي جزء من عصر تاريخي معين ، والترتيبات العالمية هي جزء من نظام عالمي ، ولكن النظام العالمي هو الأكبر من النظام

الدولي ، وهذا «الأخير» له أعرافه وأساليبه التي يحكمها قانون واحد هو الذي يسمونه بـ «القانون الدولي» International Law . أما النظام العالمي ، فهو الأوسع جداً ، إذ يطال كل ما يتصل بمعطيات العالم واتصالاته واقتصادياته ومجتمعاته وثقافاته . . وقد انتقل المصطلح اليوم من العالمية الأرضية الى العولمة الكونية* .

من أجل فهم للنظام العالمي الجديد

٣ - يقول هيكل : «ان فكرة وجود نظام عالمي جديد تفترض وجود قوة اقتصادية وعسكرية غالبة تملكها دولة واحدة أو تحالف دول ، في عصر بعينه ، تستطيع ان تجعل إرادتها فاعلة أو مؤثرة أو على الأقل غير قابلة للتجاهل ، في كل قضية وكل بقعة من بقع العالم الداخلة في تفاعلاته ، وقد تحقق هذا الوضع أول ما تحقق في التاريخ بعد الحروب النابليونية ، ومؤتمر فيينا الذي أعقبها سنة ١٨١٤ وقام بموجبه الحلف المقدس» (حرب الخليج ، ص ٥١) .

من أجل أن نجيب المؤلف هيكل على ما كتبه . . دعونا نعلّق قليلا على النص في أعلاه :

١ / لابد أن نصحح أولاً كلمة (البقع) إلى (بقاع) فهي الأصوب لغوياً وهناك أخطاء كثيرة لابد ان تصوّب لغوياً عند هيكل . . ولابد أيضاً ان نصحح عام ١٨١٤م إلى عام ١٨١٥ م التي عقد فيها مؤتمر فيينا ، عاصمة الهابسبورك النمساوية !

٢ / وهنا خلط المؤلف هيكل بين النظام الدولي والنظام العالمي مرة أخرى ، فلقد ولد بعد مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ نظاماً جديداً في أوروبا . . كان لمترنيخ دوره الأساسي فيه في تطبيق مبدأ «إرجاع القديم إلى قدمه» وهذا ليس بنظام عالمي جديد .

٣ / اما النظام العالمي ، فهو ظاهرة كبرى تشتمل على قارات العالم كله ، إذ صنف

---

* ومن اجل توضيح كل التفصيلات عن هذه المفاهيم والمصطلحات التي كنت قد أوضحتها مع الامثلة والتطبيقات التاريخية والسياسية . . ان كان ممكننا مراجعة كتاب : سيار الجميل ، **العولمة الجديدة والمجال الحيوي للشرق الأوسط : مفاهيم عصر قادم** ، ط١ ، بيروت : مركز الدراسات الاستراتيجية للبحوث والدراسات ، ١٩٩٧ ، ص ٤٠ - ١٤٩ .

المؤرخون وعلى رأسهم المؤرخ البريطاني المعروف أرنولد توينبي ذلك ضمن سيرورة نظرية التحدي والاستجابة في تبلور التاريخ العالمي . وشهد التاريخ الحديث تطور الفكرة العالمية أثر مواريث العصور الوسطى ، إذ يمكننا اعتبار بعض الظواهر العالمية على امتداد هذا التاريخ : الاستكشافات الجغرافية في القرن السادس عشر ، وظاهرة الماركنتالية (= التجارة العالمية) في القرن السابع عشر ، وظاهرة التنوير والثورة الفكرية الدستورية في القرن الثامن عشر ، وظاهرة الثورة الصناعية والاستعمار القديم (= الكولينيالية) في القرن التاسع عشر ، وظاهرة الاستعمار الجديد (= الإمبريالية) والثورة التكنولوجية في القرن العشرين : كلها أنظمة عالمية كبرى ، وتنمو اليوم الكابيتالية الرأسمالية الجديدة وثورة المعلومات والاتصالات في القرن الحادي والعشرين نظاماً كونياً باسم «العولمة الجديدة»* .

النظام العالمي البريطاني :

ويبقى المؤلف هيكل يخلط «العالمي» بـ «الدولي» ، و «السياسي» مع «الحضاري» و «الاستعمار القديم» ، بـ «الاستعمار الجديد» و «التاريخي» بـ «الجغرافي» . . الخ من الخلط المبهم لديه ، كون الرجل لم يقرأ التاريخ العالمي ، ولم يدرك معاني المصطلحات التاريخية ، والمفاهيم الدقيقة ، وكيفية استخداماتها في مواضعها الحقيقية . . ونحن نقرأ له ما كتبه في صفحات ٥٢ - ٥٦ من كتابه (حرب الخليج) . ويمكننا أن نصحح له بعض أخطائه التي يحسبها الآلاف المؤلفة من قرائه معلومات صائبة وصحيحة ، فتنتشر الأخطاء والاغلاط في الثقافة العامة للمجتمع العربي وتكون سداً منيعاً أمام الكتابات التخصصية الصائبة ، والمفاهيم الصحيحة ، إذ تصطدم بها فتقوى عليها .

لم يكن هناك نظام عالمي يسمى بـ «النظام العالمي البريطاني» ، بل كان هناك - كما هو معروف - النظام الاستعماري البريطاني الذي وصل إلى أوج قوته في العهد الفيكتوري على امتداد خمسين عاماً ، وكان نظاماً استعمارياً قديماً ، بدأ يتحول من سياسات الاحتلال إلى

* من أجل تفصيلات اكثر ، راجع : سيار الجميل ، العولمة الجديده (سبق ذكره) ، ص ٣٠ - ٣٦ .
وراجع تعقيبي على ورقة السيد يسن في ندوة «العرب والعولمة» التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية ببيروت عام ١٩٩٥ ، ونشرت اعمالها في كتاب : العرب والعولمة ، ط١ (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٩) .

سياسات الانتداب في فترة ما بين الحربين العالميتين العظميين ، ثم إلى سياسة الأحلاف والمواثيق ، ولم يقف لوحده أمام دول المحور ، بل اشترك مع حلفائه ضده ، وقد اضمحل دوره بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية إزاء صعود قوتين كبيرتين في العالم ، هما : الولايات المتحدة الأمريكية وجمهوريات الاتحاد السوفيتي . .

وعليه ، فليس هناك أية تسمية لـ «نظام عالمي بريطاني» ! ويستطرد المؤلف هيكل قائلاً : «وكان إعلان سقوطه الرسمي هو معركة السويس سنة ١٩٥٦» . . لا ما هكذا تورد الإبل . . صحيح ، علينا ان نفتخر بانتصاراتنا العربية ، ولكن بريطانيا لم تعلن سقوطا رسمياً لما أسميته بنظامها العالمي البريطاني ! وكما يعلم الجميع ، ان بريطانيا العجوز أرجعت إلى سيادتها جزر الفوكلاند التي حاولت الارجنتين الاستحواذ عليها في بدايات الثمانينات وكانت ولم تزل تحتفظ إلى حد يومنا هذا ببعض مستعمراتها ، كما ترتبط بعض مستعمراتها المتحررة والدول التي استقلت عنها بدائرة الكومنولث البريطاني ! وإذا كانت النظم العالمية - كما أسميتها - لا تقوم «بإعلان أو بحدث أو باحتفال» (حرب الخليج ، ص ٥٥) ، فهي بالضرورة إذن لا تعلن عن سقوطها الرسمي بإعلان أو بحدث أو باحتفال !

هل كان للصراع في التاريخ عنصر واحد؟

يقول هيكل : «ليس هناك صراع في التاريخ يمكن نسبته بالكامل إلى عنصر واحد ، إلاّ إذا جرى النظر إليه بطريقة مسطحة ، والحاصل ان عوامل الصراع في العادة تتراكم ، وعند لحظة حرجة يحدث الفوران . ولقد كان البترول عنصراً دائماً في كل أزمة كبرى وقعت في العالم العربي منذ بدأت رياح الاستقلال تهب عليه في أعقاب الحرب العالمية الثانية . وكان البترول يطرح نفسه على الأزمات ، أو كانت الأزمات تطرح نفسها على البترول وفق متغيرات الظروف . ولقد كان عبد الرحمن عزام (باشا) صاحب فكرة الجامعة العربية وابرز مؤسيسها وأول أمين عام لها هو الذي خطرت له منذ البداية فكرة ان بترول العرب يستطيع ان يخدم أهدافهم السياسية بنفس القدر الذي يخدم فيه مطالب غيرهم الاقتصادية» (حرب الخليج ، ص ٥٨) .

دعونا نناقش المؤلف في الذي قاله أعلاه :

١- صحيح ان عوامل الصراع في العادة تتراكم ، ولكن ما معنى قول هيكل : يحدث الفوران عند لحظة حرجة ؟ اهو الفوران أم الانفجار؟

٢ - إذا كنت قد وصفت من ينسب الصراع في التاريخ ، أي صراع إلى عنصر واحد (والصواب ان تقول : عامل واحد) فكيف تقبل ان يجري النظر إليه بطريقة مسطحة ؟ مع انك جعلت البترول عنصراً دائماً في كل أزمة كبرى وقعت في العالم العربي .

٣ - ومن قال لك ان البترول كان هو العنصر (أو : العامل) الوحيد والدائم في كل أزمة كبرى ، وقعت في العالم منذ أعقاب الحرب العالمية الثانية ، انك بذلك تنفي وجود عوامل (أو : عناصر) أخرى لها استراتيجيتها .

جامعة الدول العربية:

٤ - لم يكن عبد الرحمن عزام صاحب فكرة تأسيس الجامعة العربية ، بل ساهم في تأسيسها وقد نصب أول أمين عام لها ، إذ ان هناك تفصيلات تاريخية موسعة ، وكتب عن هذا «الموضوع» اكثر من رسالة ماجستير وأطروحة دكتوراه وكان صاحب فكرة الجامعة هو نوري السعيد رئيس وزراء العراق بمشاوراته مع مصطفى النحاس رئيس وزراء مصر . . وما تمخض من مشاورات رداً على المقترحات البريطانية . . وكانت الفكرة الأولى تتضمن تأسيس «اتحاد عربي» ، فلقد أدرك نوري السعيد ان بريطانيا بتصريح انتوني ايدن الثاني قد عقدت العزم على تسليم مصر زعامة ذلك الاتحاد ، ولذلك بادر نوري السعيد بإرسال خطاب إلى مصطفى النحاس في ١٩٤٣/٣/١٧ ، طرح فيه أفكاره وتصوراته لفكرة الوحدة العربية ، وأكد له انه لا ينوي العمل من وراء ظهر الحكومة المصرية* .

وكان هناك شبه سباق بين مصر والعراق من اجل مراحل العمل . . وخصوصاً من قبل رجلين سياسيين عربيين قويين : مصطفى النحاس في مصر ونوري السعيد في العراق ، تقول

* انظر : سلوى لبيب ، «جامعة الدول العربية ، ١٩٤٥ - ١٩٦٤» ، أطروحة دكتوراه ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسة ، جامعة القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ٢٤ .

وثائق وزارة الخارجية المصرية (الجامعة العربية) محفظة ٢٣٣ ملف ١ ، المشاروات مع العراق من ١٩٤٣/٧/٣١ إلى ١٩٤٣/٨/٦ ، بان النحاس توّقع ما يريده نوري السعيد الذي استبعد فكرة الحكومة المركزية ، وعرض شكلين للتعاون : الأول تكوين اتحاد له جمعية عامة تمثل فيه الدول الأعضاء بنسبة سكانها وميزانيتها وتكون قراراته ملزمة . . والثاني تكوين اتحاد قراراته ملزمة لمن يقبل بها من الأعضاء الذين يشتركون فيه على قدم المساواة ، وقد اتفق الطرفان على ان يقتصر التعاون بمظهرين السياسي والاقتصادي على الدول العربية المستقلة فقط»* ،

وكانت هناك مشاورات عربية حثيثة انتهت باعمال اللجنة التحضيرية في الإسكندرية خلال شهري تموز / يوليو وأغسطس / آب عام ١٩٤٤ ، والتي بدأت أعمالها في ١٩٤٤/٩/٢٥ بحضور حكومة مصر والعراق وسوريا ولبنان وشرق الأردن ثم السعودية ، وبالوقت الذي أراد العراق ان تكون صيغة هذه الجمعية (= الاتحاد) للتعاون والتكامل بين البلدان العربية ، أكدت مصر على ان فكرة الاتحاد الفدرالي بين الدول العربية بعيدة عن تفكير المصريين ، وقد اعترض العراق على سبب استخدام مصطلح «الجامعة» بدلاً من «الاتحاد» وإزاء إصرار مصر ، رضخ الأعضاء أمام التسمية الجديدة** .

وفي الجلسة الثامنة في ١٩٤٤/١٠/٧ ، تم التوقيع على بروتوكول الإسكندرية الذي تكون من خمسة أقسام*** . وتم التوقيع على ميثاق الجامعة في ١٩٤٥/٣/٢٢ وبدا العمل به في ١٩٤٥/٥/٥٣٩٩ ، بعد ان أودعت كل من مصر والعراق والسعودية وشرق الأردن وثائق تصديقها .****

---

* راجع : الوثائق المذكورة في النص أعلاه .

** انظر : جامعة الدول العربية ، محاضر اللجنة التحضيرية للمؤتمر العربي العام ، ج٢ ، تاريخ ١٩٤٤/٦/٢٨ ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ص ٢٥ .

*** وثائق وزارة الخارجية المصرية ، الجامعة العربية ، محفظة ٢١٩ ، ملف ٥ ، ج١ ،

**** راجع التفصيلات في : علي محافظة ، النشأة التاريخية للجامعة العربية ، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٢ ، ص ٥٥ وما بعدها . وبصدد العراق ، انظر : ممدوح الروسان ، العراق وقضايا المشرق العربي (بيروت ، ١٩٨٠) .

تصويبات وتعليقات تاريخية:

. جاء في كتاب «حرب الخليج» النص التالي : «ووقف السيد عدنان الباجه جي وهو واحد من خيرة الدبلوماسيين العراقيين والشبان القوميين في العراق وقتها ، كما أنه ابن لأحد رؤساء وزاراتها البارزين وهو السيد حمدي الباجه جي يشرح وجهة نظر الحكومة العراقية في مجلس الامن بادئا بطلب رفض شكوى حكومة الكويت من التهديدات العراقية ، وقائلا (في جلسة مجلس الامن بتاريخ ٢ يوليو ١٩٦١) (حرب الخليج ، ص ٢٧٣) .

الصواب : أن الدكتور عدنان الباجه جي هو ابن مزاحم الباجه جي وليس ابن حمدي الباجه جي ، وكل من حمدي ومزاحم كانا من رؤساء وزراء العراق في العهد الملكي* .

. جاء في كتاب «حرب الخليج» بعض المعلومات ووجهات النظر التاريخية التي أجد بأن لا علاقة لها أي علاقة بالموضوع الذي كّرس المؤلف له جهده . . اذ تحدّث عن الدبلوماسية السرية في العصر العباسي الثاني والولاة الاتراك الذين حكموا بغداد . . وايضا في العصور المملوكية . . والصراع على السلطة ، ثم أيضا في العصور العثمانية . . وظهور رجال غامضين . . (حرب الخليج ، ص ٤٤٦ ـ ٤٤٧) .

وأسأل بدوري : ما علاقة كل ما كتبه المؤلف من تواريخ قديمة بما جرى بين العراق والكويت في عامي ١٩٩٠ و ١٩٩١ ؟

٤ . وساترك جملة من الاخطاء التاريخية ، لكي أقف عند النص التالي : «وفي تلك الفترة ـ العصر العثماني ـ مرت على ساحات الشرق ظلال رجال غامضين ، تجارا ، ورحالة ، ومبشرين ، ومستكشفين ـ وكان معظمهم رسلا الى سلاطين وأمراء وشيوخ في المنطقة ، فقد كانت كل القوى تسعى الى صلات وعلاقات مع العناصر المحلية في غيبة من السلطنة العثمانية وبابها العالي» (حرب الخليج ، ص ٤٤٧) .

---

* ولقد قام الدكتور عدنان الباجة جي بنشر مذكرات والده قبل عدة سنوات في لندن ، انظر : مزاحم الباجه جي ، مذكرات سيرة سياسية ، تقديم : عدنان الباجه جي ، (لندن : منشورات مركز الوثائق والدراسات التاريخية ، ١٩٨٩) .

وأقول ، بأن هذا الكلام غير علمي أبدا . . اذ لم يكن معظم أولئك الرحالة والتجار والمبشرين . . من الرجال الغامضين رسلا الى سلاطين وأمراء وشيوخ المنطقة ، اذ كان أكثرهم يأتون لدراسة المنطقة من جوانبها جميعا . . ولقد وجدت من خلال دراستي لهذه الظاهرة التي بدأت مع القرن السادس عشر ، ثم نشأت في السابع عشر ، ثم ازدادت في القرن الثامن عشر ، وتطورت كثيرا في القرن التاسع عشر ـ اذ توضّح ذلك لي في دراستي وترجمتي لرحلة جوستن بيركنس ورحالة آخرين الى الشرق الاوسط ابان القرن التاسع عشر ـ وجدت ان عددا كبيرا من اولئك الرجال الغامضين ما كانوا يختلطون بالناس ، بل يراقبون كل شيء . . وليس كما قال هيكل انهم كانوا يعملون في غيبة السلطنة العثمانية وبابها العالي ، بل العكس هو الصحيح ، ذلك لأنهم كانوا يتمتعون بقانون الامتيازات الاجنبية الذي منحت بنوده اوروبا حقوقا كبيرة وسمحت ليدها الطولى ان تمتد في ممتلكات الدولة العثمانية مستندة في الاساس على معاهدة السلطان العثماني سليمان القانوني وملك فرنسا فرانسوا الاول التي وقعاها عام ١٥٣٩* .

هيكل في دور المايسترو لمؤسسته :

لقد توضح لعدد كبير من الدارسين العرب والغربيين ان محمد حسنين هيكل في اغلب كتبه لم يكن له إلاّ ويمّثل دور المايسترو في قيادة إنتاج عمل يشتغل عليه هو نفسه ، وبمساعدة من غيره في مؤسسته ! فثمة من يجمع له من هنا وهناك ويقدمه إليه لكي يرتبه هيكل دون أي تصويبات أو تدقيقات ـ كما يبدو ـ ، يرتبه في كتاب يدفعه للنشر ، ولقد اخذ هيكل على عاتقه ان ينشر بالإنكليزية أولا ، ثم يبدأ بنشر ذلك في العربية ، ولكن إلى أي حد يكون هيكل نفسه مسؤولاً عن الذي ينشره بالإنكليزية أولا؟ والى أي حد يكون هيكل نفسه مسؤولاً عن الذي ينشر تحت اسمه بالعربية ثانياً ؟ والأخطر من ذلك ، انه في كلتا الحالتين لم يذكر من قام بالترجمة كجزء من الحقوق الأساسية المتعارف عليها . لقد توضّحت هذه المشكلة بشكل جلي في الكتب التي أصدرها الرجل في عقد التسعينيات ،

* راجع : سيّار الجميل ، «رحلة جوستن بيركنس عبر الارض الكلاسيكية عام ١٨٤٨» مجلة المورد . المجلد (١٨) ، العدد (٤) ، بغداد ١٩٨٩ .

بدءا بكتاب «حرب الخليج» وصولا الى كتابه «المفاوضات السرية» !

يقول هيكل : «وكنت أقول لنفسي وللسائلين : انه يصعب علي ان اكتب الكتاب مرتين ، مرة باللغة الإنجليزية للنشر الدولي ومرة باللغة العربية ، خصوصاً وقد وجدت إنني أتعرض لترجمة أعمالي إلى العربية لا اكتفي بالترجمة وإنما تدفعني اهتمامات القارئ العربي إلى الأبعد بالزيادة ، والى الأوسع بالتفصيل ، وذلك يجعل الكتاب الواحد بالفعل كتابين (هيكل ، مقدمة الجزء الأول من المفاوضات السرية الأسطورة والإمبراطورية ، ص ٧) .

اعتراف هيكل بالمفارقات :

كتب هيكل كل هذا معترفاً بالمفارقات الكبيرة بين الذي ينشر تحت اسمه بالإنكليزية عن ذاك نفسه الذي يترجم أو ينشر له بالعربية ، وخصوصاً المفاوضات الواسعة التي ظهرت في كتابه عن «حرب الخليج : أوهام القوة والنصر» ، في نشرته بالإنكليزية والعربية ، وهنا يعترف هيكل لأول مرة بفضل من يقوم له بترجمة أعماله ، إذ كتب يقول : «علي ترك مهمة الترجمة إلى العربية لغيري ، ان مترجمين مقتدرين تفضلوا أعطوا لأعمالي من جهدهم ما يكفيها واكثر ، وعلى سبيل المثال فقد قام الأستاذ محمد حقي ، زميلي في «الأهرام» وقتها ، على ترجمة كتاب «وثائق القاهرة» ، كما قام الصحفي اللبناني الكفء الأستاذ سمير عطا الله على ترجمة كتاب «الطريق إلى رمضان» ، ثم قام الصديق العالم الدكتور عبد الوهاب المسيري على ترجمة كتاب «مدافع أية الله» ، وهكذا وكانت تلك أفضالاً ومكرمات سعدت بها وعرفت لها قدرها» (المفاوضات السرية ، ٧/١) .

وانا أود ان أسال المؤلف : أليس من باب الأمانة العلمية والتعامل الأخلاقي ان تكون أسماء هؤلاء المترجمين الثلاثة على أغلفة كتبه من اجل المعرفة والتاريخ والتوثيق ، ولماذا تخلى هؤلاء الثلاثة وغيرهم عن ذكر أسمائهم ، ولو لم تكن تصرح بذلك لما عرفنا بأسماء مترجمين أعماله في كتابه «المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل» ، لم تجد في الجزء الأول منه أي ملحق بالوثائق ، أما في الجزء الثاني ، فهناك ملحق بالوثائق أغلبيته عدا وثيقة واحدة أو وثيقتين مأخوذ من الأرشيف المصري ، فماذا يكتب هيكل في مقدمة كتابه هذا ،

الجزء الأول ؟ انه يكتب النص التالي في مقدمته : «هناك كذلك شكر من نوع خاص أوجهه إلى أصدقاء وزملاء في واشنطن أتاحوا لي مرة أخرى فرصة استخدام قانون حرية المعلومات في الولايات المتحدة ، وفي هذه المرة فقد أمكن الحصول على وثائق كثيرة عربية وإسرائيلية ، فضلاً عن الوثائق الأمريكية ، وكان بعضها من وثائق وكالة المخابرات المركزية ، والذين يعرفون درجة السرية التي تتعامل بها الوكالة مع وثائقها يدركون حجم الجهة كان لازماً للوصول إلى المخابر والمكامن (المفاوضات السرية ، ج١ ، ص ١٤) .

أين المعلومات السرية التي أخذها المؤلف من مخابئ ومكامن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ، فكل ما أتيت به مأخوذ من الأرشيف المصري ، وأغلب ما جئت به في الجزء الأول بالذات معروف لدينا ! وثمة اتهامات وتقولات لزعامات من نسوة ورجالات .

البعد عن فهم تاريخ المسألة الشرقية :

يقول هيكل : «فالعالمان العربي والإسلامي تأخرا في رفع ألوية الثورة ضد العثمانيين بسبب المكانة الخاصة لفكرة الخلافة والولاء لها ، ولهذا كانت الممتلكات الأوروبية للعثمانيين (كاليونان وبلغاريا وغيرها) سبقت إلى الثورة وسبقت إلى الاستقلال لان مواجهتها صريحة مع إمبراطورية إسلامية ، لم تلتبس بالفكر أو بالفعل مع أي اعتبار ديني أو معنوي في تبين الولاء للخلافة (المفاوضات السرية ٨٤/١) .

وهنا يخطئ هيكل مرة أخرى ، ذلك لأن العالمين العربي والإسلامي قد تأخرا في رفع ألوية الثورة ضد العثمانيين ليس بسبب المكانة الخاصة لفكرة الخلافة والولاء لها ! هذا كلام غير صحيح يأتي من هيكل الذي لم يدرس التواريخ الأوروبية المعقدة في القرن التاسع عشر ، وما دعي بـ «المسالة الشرقية» ، في اختراق الشرق الأدنى (= شرق أوروبا) ويمكنني ان انقل له من قلته بهذا الصدد :

قلت : ثم غدا الشرق الأدنى هو الشغل الشاغل للأوروبيين الغربيين (الإنكليز والفرنسيين خصوصاً) بدءاً بحرب القرم (١٨٥٤ - ١٨٥٦) عندما غدت الدولة العثمانية (أو : الرجل المريض - كما أطلقوا عليها -) هي الشغل الشاغل للأوروبيين وباباً جغرافياً لهم

من اجل اختراقه عوالم الإقليمية في شرق أوروبا ، وبعد تفاقم المصالح الاستعمارية بعد ذلك بإشعال اخطر قضية تاريخية دعيت بـ «المسالة الشرقية» ، بعد توقيع معاهدة توجك كينارجه سنة ١٧٧٤ ، ثم غدا الشرق الأوسط هو الشغل الشاغل للأوروبيين (الإنكليز والفرنسيين خصوصاً) بدءاً بالحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) ، عندما صارت المنطقة العربية بكامل جغرافيتها مخترقة أوروبا في القرن العشرين»* .

الكتابات عن حرب الخليج:

يمكنني القول ان ثلاثة كتب اثارتني بالعربية كثيراً ، وهي تؤرخ وتكتب عن حرب الخليج ، وهي : كتاب هيكل «حرب الخليج : أوهام القوة والنصر» وكتاب سعد البزاز «حرب تلد اخرى : التاريخ السري لحرب الخليج» (كان صدور الاخير قبل صدور الاول بعدة شهور) ، وكتاب جان بول كروازيه وتيبيروايتس .**

ولقد صدرت العديد من الكتب باللغات الحية عن هذا «الموضوع» ، وخصوصا بالانكليزية والفرنسية والتي تفاوتت آراء النقاد في مستوياتها ، وبرغم اصطفافها مع هذا المعسكر أم ذاك ، فلا يمكن اغفالها أبدا . .

وعدا هذه الكتب الثلاثة المذكورة في اعلاه ، والتي عالجت الوقائع ، فان ما نشر بالعربية من مداخلات وكتابات عربية لا تخرج عن اطار وجهات النظر لا المعلومات ، والتنظير المؤدلج لا المعرفة والبحث عن الحقيقة . ويمكننا التوقف عند خمسة كتب ، كل واحد منها يمثل وجهة نظر اصحابه من الذين اشتركوا في تأليفه عن احداث الخليج . ويمكنني ان اتوقف قليلاً عندها ، علماً بان كل كتاب منها يجمع بين دفتيه اراء وافكار ووجهات نظر عدد من المفكرين والكتاب العرب ، ولكنني سابدأ بكتاب يمثل وجهات نظر عدد من الكتاب والمفكرين الاسرائيليين في حرب الخليج - ولابد من اخضاعه للنقد من قبل المفكرين

* سيار الجميل «المجال الحيوي للشرق الأوسط : من مثلث الأزمات إلى مربع الأزمات» المستقبل العربي ، العدد (١٨٤) ، السنة (١٧) ، حزيران / يوليو ١٩٩٤ . ونشر ثانية في كتاب : مجموعة من الباحثين ، العرب وتحديات النظام العالمي ، ط١ (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ٢٠٠٠) .

** «الخليج : الحرب الخفية : التكنولوجيا العسكرية : الخطط الحربية : المعارك الجوية والبرية» ، ط١ ، قبرص ، شركة الأرض ودار قرطبة للنشر والتوثيق والأبحاث ، ١٩٩١) .

العرب الذين يبحثون في الاستراتيجية - ، إذ نجد تفصيلات جد خطيرة فيه «وعنوانه : «حرب الخليج : ابعاد على إسرائيل» *

أما الكتب الاربعة الاخرى التي صدرت بالعربية ، فهي : تتضمن آراء وافكار ووجهات نظر عدد من المفكرين والكتاب العرب الذين ساهموا بها في عدة ندوات وملتقيات ومؤتمرات ومقالات .**

الملاحظات الجغرافية: هيكل والبزاز بين الانفتاح والانحباس

كان حرياً بكتاب «حرب الخليج» ان يقدّم لنا في بداياته بعض الملاحظات الجغرافية التي يؤمن بها صاحبه ، كونها صاحبة بصمات اساسية في الأزمة وتفجرها فضلاً عن كونها احد ابرز العوامل التي ساهمت في قضم استراتيجية العراق ازاء الخليج العربي ، ولقد كانت الجغرافيا ظالمة . . على رأي الكاتب سعد البزاز «عندما تكون البلاد قارية شبه معزولة . . ،

---

* (وهو تقرير طاقم مركز الابحاث الاستراتيجية الاسرائيلي في يافا) ، ترجمة : بدر عقيلي ، وصدرت الطبعة الاولى منه في عمان عن دار الجليل للنشر عام ١٩٩٣) .

** ١ - كتاب لمجموعة من الباحثين بعنوان : «ازمة الخليج قبل الحرب وبعدها : ازمة الخليج ، ابعادها ومخاطرها ، حرب الخليج ووعي التغيير الحضاري ، ط١ (الرباط : منشورات المجلس القومي للثقافة العربية ، ١٩٩١) .

٢ - كتاب لمجموعة من المفكرين بعنوان : ازمة الخليج وتداعياتها على الوطن العربي ، ط١ ، (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩١) ، وهي اعمال الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية ببيروت .

٣ - الكتاب الذي حرره علي اومليل بعنوان : الغزو العراقي للكويت : الخبرات المستخلصة والخروج من الأزمة (سلسلة الحوارات العربية لاوراق عمل اشتراك فيها مجموعة من المفكرين العرب) ، عمان : منتدى الفكر العربي ، ١٩٩٦) .

٤ - الكتاب الذي جمع مادته من لسان وتصريحات واقوال ومقالات بعض الكتاب المصريين (ومنهم محمد حسنين هيكل) والذي حرره محمد الشافعي بعنوان ، **الفخ الامريكي** (القاهرة : دار الشباب العربي ، ١٩٩٢) .

فضلاً عن كتب عدة عن حرب الخليج ، كتلك التي اصدرها : سمير الخليل وعلي نحلة واحمد رائف وعبد السلام الطويلة ومحمد مرسي وسعاد منسي وعادل الهواري ومصطفى الدباغ واسامة عكان ومدحت ايوب (اعداد) ، وحليم بركات ومصطفى طلاس وغازي القصيبي . . يضاف لها جميعا ما صدر في كل من العراق والكويت من أعمال تمثل كل منها وجهات نظر ومعلومات طرفي الصراع .

فرغم ان العراق يمتد على اطراف دلتا غنية بين نهرين كبيرين هما دجلة والفرات وما تفرع عنهما أو صبّ فيهما من انهر صغيرة ، إلاّ ان العراق يعد بلداً قارياً محروماً من حافة رحبة على البحر ، ويترك هذا الوضع الجغرافي بصماته على التكون النفسي ، فالشعور بالعزلة ، والانغلاق وسط جيران منافسين واعداء على البر يولد احساساً بالضيق تحت ثقل طوق بري تتفاوت فيه درجتا الانحباس والانفتاح»* .

وبقدر ما يرى البزاز ان العراق بلداً محبوساً ، فان هيكل يراها بلداً مفتوحاً . . دعونا نقارن . . اذ يقول هيكل : «لقد كان العراق معبرا محفوفا بالبحار ، ما بين الخليج وبحر قزوين والبحر الابيض ، وفي وسطها جميعا يكاد العراق أن يكون بوابة برية وحيـــدة . . . مفتوحة» (حرب الخليج ، ص ١٤٤) .

أنني أقول بأن العراق لم يكن محبوسا في الماضي . . بحكم خواصه الجغرافية التي أوضحها هيكل ، ولكنه غدا يشعر بالانحباس اثر ولادته ككيان سياسي وتطوره في النصف الاول من القرن العشرين . . ثم حدوث النمو الهائل في ثرواته البترولية ابان النصف الثاني من القرن العشرين . ان هناك بلداناً برية محبوسة كالنمسا وسويسرا ، وليست لها اطلالات بحرية ، ولكنها لم تكن معزولة في يوم من الأيام فجغرافيتها حضارية مع الأوروبيين ، في حين جاء انعزال العراق بسبب جغرافيته السياسية مع العرب وكل من الأتراك والإيرانيين ، ليس بسبب ذلك حسب ، بل لان في العراق ثروات نفطية هائلة لم تمتلكها لا النمسا ولا سويسرا . .

التأثيرات الجغرافية: هواجس العراقيين وصناعة القوة

وربما اختلفت مع هيكل والبزاز في ان الموقع الجغرافي للعراق ليست له اطلالات مباشرة على البحار التي ذكرها هيكل . . كما ان هذا الوضع الجغرافي لم يترك بصماته على التكون النفسي ، ولم يولد الشعور بالعزلة التي ذكرها البزاز ، ذلك ان العراق عرف منذ الازل كونه رقعة اتصال استراتيجية برية ونهرية وبحرية بين الغرب والشرق . وعليه ، فان العراقيين

---

* سعد البزاز ، حرب تلد أخرى : التاريخ السري لحرب الخليج ، ط٢ (عمّان : الاهلية للنشر والتوزيع ، ١٩٩٢) ، ص ١٤ .

ليس من طبيعتهم صناعة الاعداء أو خلق اعداء أو زراعة خصوم لهم ومن حولهم ، بقدر ما تربوا منذ ان ولدت وتكونت دولتهم المعاصرة عام ١٩٢١ على الاحتراز من الاخرين ومن التوجس من الجيران والمنافسين ، بسبب العمق التاريخي للصراعات الدامية التي جرت على الأرض الطيبة من بلاد وادي الرافدين فكانوا اول من ادخل ابناءه في الكليات العسكرية العثمانية في القرن التاسع عشر . . فتشكلت من العراقيين أكبر نخبة من الضباط العرب عند مطلع القرن العشرين . . ساهمت في عمليات الحرب العالمية الاولى . .

وكان العراقيون اول من أسس جيشاً قوياً لهم ، واول من أسس قوة جوية لهم ، واول من بدا تسليح الاهالي والمدنيين والشباب باسم «الفتوة» ، واول من طبق التجنيد الاجباري ، وكان العراقيون وما زالوا يتطيرون من الاعداء والخصوم والمنافسين ، بل عاشوا منذ وزارة ياسين الهاشمي وعهد الملك غازي ١٩٣٣ - ١٩٣٩ وحتى الآن على فكرة المؤامرة على العراق ، والهجمة على العراق . . ناهيكم عن ولادة أول انقلاب عسكري عربي في العراق عام ١٩٣٦ ، وكان العراق كدولة ومجتمع هو الوحيد من بين دول المنطقة يدخل حربا ضد بريطانيا عام ١٩٤١ ، وتعد جزءا من عمليات الحرب العالمية الثانية . . الخ .

ماذا نستنتج؟

نعم ، هناك ثمة هواجس وتخوفات لا محل لها من الاعراب عند اولئك الذين حكموا العراق في تضاعيف القرن العشرين من شيىء مجهول ، او هو ساكن معلوم ، يتحدثون عنه بأسم التحديات التي تواجه العراق وباسم المؤامرات التي تحاك ضده . . علماً بان بلداناً اخرى هي اثقل من العراق اقتصادياً ولها استراتيجياتها القوية ولها تحدياتها وتمارس ضغوطات كبيرة عليها ، إلاّ انها لم تمتلك مثل هذه الهواجس النفسية المدمرة على مدار كل الساعات واللحظات التي تمر !

ثانياً: نقد الأفكار

توظيف الاسطورة العراقية : السندباد البحري وقماقم عند الشطآن

ونقرأ في نص اخر جاء في «حرب الخليج» : «وواقع الحال ان الخليج تحول منذ حقب

ممتدة ، بامتداد عصر النفط إلى منطقة براكين مكتومة لا يوحي ظاهرها بما هو محبوس في باطنها ، وتلك صورة تستعيد اساطير قديمة تحكيها قصص ألف ليلة وليلة ، وتزعم انها جرت في يوم من الأيام في سالف العصر والاوان على سواحل الخليج ذاتها» (حرب الخليج ، ص ٦)

متى كانت المرحلة التاريخية المعاصرة بين استكشاف النفط وبيننا ، وعلى مدى يزيد قليلاً عن خمسين عام ، تمثل عصراً تاريخياً طويلاً ، ومصطلح «العصر» يحتسب عندنا ثلاثمائة سنة كاملة ، خصوصاً وان ذلك «العصر» وصفه «حرب الخليج» كونه صاحب حقب ممتدة !؟

أما الصورة التي تستعيد فيها اساطير قديمة تحكيها قصص ألف ليلة وليلة فهو تشبيه رائع ولكنه غير مكتمل ، فتلك القصص لا توحي بالبراكين المكتومة التي لا يوحي ظاهرها بما هو محبوس في باطنها .

يكمل هيكل كلامه في مقدمته لـ «حرب الخليج» قائلاً : «وعلى عهده تلك الاساطير فان امواج البحر تلقي على شطانه بقماقم تغري بشيء في داخلها ، ثم تكون المفاجأة ان كل قمقم منها مختوم على مارد من نار ، وما ان ينكسر الختم عن القمقم حتى يندفع خارجاً منه عفريت من الجن يسد فضاء الافق هولا وشراً مستطيراً . ولكنه – وعلى عهدة الاساطير أيضاً – فان مردة الجن يتحولون إلى خير وبركة وقصور من ذهب – إذا صادقوا من يعرف فضله من علم النبي سليمان الذي دانت وخضعت له مردة الجن» (حرب الخليج ، ص ٧) .

كنت اتمنى على هيكل ان يفسر لنا هذه الاساطير التي ساقها لنا في مقدمة كتابه ، وماذا يقصد بالقماقم؟ وماذا يقصد بمارد من نار ؟ وعفريت من الجن يفعل الافاعيل الشريرة والاهوال المستطيرة ! . لقد كان سعد البزاز اكثر وضوحاً وامتن اسلوباً في توظيفه النص الاسطوري في مقدمة «حرب تلد اخرى» وخصوصاً عندما كتب عن ظلم الجغرافيا ويقظة التاريخ» اذ كتب يقول : «وكثيراً ما شغلت اسطورة السندباد البحري العراقيين ، حتى آلت قصصه لتصبح ارثاً وطنياً ، فالسندباد البحري ، هو العراقي المحروم من عباب البحر الذي جعلته روح المغامرة يخوض عباب البحر منطلقاً من البصرة جنوب العراق ليخوض عباب

البحر ويصنع معجزاته ومغامراته في كل جزيرة حل بها وشاطئ رسا عليه حتى وصل إلى اقصى اطراف العالم من جهة الشرق ، حتى واذ عاد كان محملاً كل مرة بحكايا الشجاعة والمغامرة التي يمكن للعراقي ان يصنعها لو انفتح البحر امامه ، والاعمق من ذلك اعتقاد العراقيين ان كان لهم بحر من قبل ولم يعد لهم البحر اليوم» .*

وربما اختلفت – هنا – أيضا مع كل من هيكل والبزاز في توظيف اساطير ألف ليلة وليلة في التقديم لكتابين يعدان من اهم ما صدر بالعربية عن حرب الخليج الثانية ، فالمسألة تاريخياً اعمق من ذلك بكثير ، والمسألة سياسياً لم تكن حاصلة حتى في اللاوعي السياسي ، والمسألة اجتماعياً ليست محسومة بهذا القدر من تربية المجتمع العراقي على الاسطورة . . اننا بعد هذه السنوات العجاف قد تعلمنا نحن العراقيين بالذات الكثير من المعاني والاشياء من حياة هذا العصر الصعب بكل تشابكاته وتعقيداته التي لم تعد تتماشى واياه قصص ألف ليلة وليلة . . علما بأننا فعلا تربينا عليها ، وان في مضامينها مجاميع من سجلات لاحداث وهمية رائعة ، ولكنها تزخر بالمعاني الخصبة .

الخصوصية والدمار:

للكتابة عن العراق في تاريخه ومجتمعه ، في ماضيه وحاضره طعم من نوع خاص لا يحس بها إلاّ من كان ابن ارضه الطيبة ، وكثيرون هم الذين كتبوا عن العراق ، بل الاكثر منهم اولئك الذين كتبوا عن حرب الخليج بكل دقائقها وفصولها ، وبرغم كل التفاصيل إلاّ ان هناك اشياء ناقصة تبقى أو أخطاء تقع في الروايات أو المعلومات ، واذا كان جل ما كتب عن الاوضاع السياسية أو العمليات العسكرية ، فندرة من الناس ، ومن اولئك الذين سبروا غور المجتمع والاحوال الاجتماعية العراقية ، كيف كانت وكيف غدت خصوصاً بين تلك الاحوال التي عاشها العراقيون قبل الحرب ، ومآلها بعد الحرب . .

ولعل اجمل وصف كتبه عن العراق في مأساته التي انتجتها الحرب سواء تلك التي تمثلتها عاصفة الصحراء أو دمار الحصار هو الذي سطره سعد البزاز إذ كتب يقول : «اذن ، المرارة ليست هي الدرس ، وليس لمن يؤرخ إلاّ ان يتحدث عن الفواجع والمحن واللحظات

* البزاز ، حرب تلد اخرى ، ص ١٤ – ١٥ .

الصعبة وسيكتشف بعدئذ ان للمحنة رحما هو الذي يلد اولاد الضحايا واحفادهم ، على ان الكتابة في العراق ، وعن العراق ، هي اصعب واعقد مما تكون في أي مكان اخر وعن أي موضوع سواه ، إذ ليس في المسافة بين الابيض والاسود فسحة رمادية كبيرة للاجتهاد ونقض الاجتهاد ، وهنا في هذه البلاد يقفل الناس على اسرارهم ، حتى الصغيرة منها ، ولا يخبرونك حتى بالذي تعرفه عنهم ، فالمهم في العراق هو النيات ، برغم ان موطنها هو قاع النفوس لا حافة الالسن ، إلاّ ان الناس تنقب عن نيات الاخرين لانها تبحث عن الاطمئنان وتحتاط من الغد الغامض وتستعد دائماً للالتفات إلى الخلف لملاقاة طعنة تأتي في الظهر ، إذ ثمة شك دائم وهو الذي يسبق اليقين ، وهذا الشك هو ناتج ستة الاف سنة من حروب خارجية واهلية وكوارث ومجاعات* .

هل من استيعاب لدرس من التاريخ القريب؟

عندما حدثت ثورة ١٤ تموز / يوليو ١٩٥٨ ـ يحكي لنا هيكل ـ وذاع نبأها ، اكفهر فيه المناخ الدولي فجأة . ووجد جمال عبد الناصر من خلال مسؤوليته القومية عن العمل العربي أيامها أن يستوثق من موقف الاتحاد السوفييتي حيال التطورات . . وألح عليه خروتشوف بأن يفعل كل ما في وسعه لتهدئة الامور في الشرق الاوسط . . «فالثورة في العراق وهو منتج رئيسي للبترول ، استفزاز كاف ، واذا لم يتدارك العرب آثاره بطمأنة الغرب على مصالحه البترولية ، فان العواقب قد تكون خطيرة» . وكان ذلك هو نفس رأي جمال عبد الناصر . . وقد وصل خروتشوف في حديثه الصريح الى حد أن قال لجمال عبد الناصر : «اننا لن نستطيع عمل أي شيء لمساندتكم اذا تأزمت الامور بينكم وبين الولايات المتحدة الامريكية ، فأي تدّخل من جانبنا قد يؤدي الى حرب نووية لسنا على استعداد لمواجهة نتائجها» . (حرب الخليج ، ص ٦١) .

بطبيعة الحال ، من يقرأ هكذا كلام خطير ، سنده وعهدته على هيكل نفسه ، لأنه لم يوثّقه لنا لا من قريب ولا من بعيد ، سيقول مع نفسه : كم هو اذن وزن العراق واستراتيجيته في العالم ؟ ومنذ أكثر من أربعين سنة حتى خشي الجميع أن تقوم حرب نووية ! وحبذا لو

* البزاز ،حرب تلد أخرى ، ص ٨ .

تعلم العرب ذلك وعرفوا مقدار التطور الحاصل في استراتيجية البترول العالمية في العشرين سنة الاخيرة أولا ، كما لو عرفوا كيف يوازنون على امتداد النصف الثاني من القرن العشرين بين المصالح الوطنية والقومية والاقليمية والدولية بحيث يحافظون على استقلالهم المكتسب والتعامل مع العالم . . فاذا كان خروتشوف بنفسه قد تخوّف من اشتعال حرب ضد الغرب عام ١٩٥٨ ، فكيف الحال في يومنا هذا وقد غاب كل من خروتشوف والاتحاد السوفييتي معا عن الساحة الدولية ؟؟

من أجل فهم لمشاكل الحدود السياسية !

أما التاريخ السياسي للخليج العربي ، فثمة معلومات تاريخية أساسية ، كان لابد أن يتضمنها كتاب «حرب الخليج» ، اذ نقف مناقشين النص التالي :

«كان هذا العنصر الملتهب (= البترول) هو الذي راح يؤدي الى توترات حادة ليس فقط بين القبائل التقليدية في الخليج ، وبين الدول الجديدة الناشئة حوله ، وانما أيضا بين الشيوخ أنفسهم . فقد دبّت الفرقة بينهم على تعيين حدودهم بعضهم مع بعض ، وفي مرات كثيرة جرى تخطيط الحدود بين المشيخات المختلفة على أساس روايات صيادين عن المواقع التي كانوا ينشرون فوقها شباك الصيد لتجف ، أو المواقع التي مشت فوقها قافلة جمال ، أو صدّت عندها غارة بدو على مضرب خيام . . . لم تكن المنطقة تعرف الحدود ، ولم تكن فكرة الحدود من الاساس موجودة تفصل كيانا سياسيا عن كيان سياسي آخر ، وكان الفصل في المنازعات بين شيوخ القبائل من اختصاص حكومة الهند ومفوضّها المقيم في الخليج» (حرب الخليج ، ص ٦٧) .

ثمة ملاحظات معرفية ونقدية أود تسجيلها في أدناه :

١ . لابد ونحن نكتب عن أوضاع الحدود والتخوم لدول الخليج العربي ، أن نتفحص قليلا ما جاء في «دليل الخليج» التي كتبه لوريمر بمجلديه الجغرافي والتاريخي* ، فضلا عن ذاك

* لا بّد من مراجعة هذا المصدر الاساسي :

John Gordon Lorimer, *Gazetteer of the Persian Gulf, Gulf, Oman and Central Arabia*, Completed and edited by R.L. Birdwood (Calcutta: Superintendent Govt. Printing, 1908 - 1915. 6 vols.

الذي كتبه ونشره العديد من المؤرخين العرب قبل غيرهم من الغربيين في هذا الموضوع ، ذلك لأن مثل هذا «الموضوع» له تعقيداته وتشابكاته أكثر من غيره من مشاكل الحدود في بقية الاقاليم العربية .

٢ . لابد لنا ونحن نكتب عن قضايا الحدود سواء للاقاليم القديمة أو الدول العربية التي انبثقت حديثا ، أن نلّم بمعنى التخوم الاقليمية (= بطائح / أجمة) Marshs ، ومعنى الحدود السياسية التي نعرفها اليوم Boundaries ، فالفرق كبير جدا بين المصطلحين في كل من الجغرافيتين : التاريخية أولا والسياسية ثانيا . . ليس في تاريخ العرب السياسي الحديث وحده ، بل في التاريخ السياسي الحديث لكل دول العالم .

٣ . ان الفرقة والاختلاف لم يدبا بين دول منطقة الخليج أنفسهم حول تعيين حدود دولهم المعاصرة . . اذ أن الفرقة والاختلافات كانت ولم تزل موجودة في كل الدول العربية ، وحتى الاساسية منها . . واذا كانت دول أوروبا قد حسمتها بعد الحرب العالمية الثانية . فهناك دول كثيرة في العالم لم تحسم هذه المسألة حتى يومنا هذا ، نتيجة التداخلات بين الذي كانت عليه تخومها الاقليمية في الماضي ، وما جرى تحديده من حدود سياسية في نهايات عصر الاستعمار !

٤ . ليس عيبا أن يعتمد في تخطيط الحدود بين الدول الخليجية المختلفة على أساس روايات صيادين عن المواقع التي كانوا ينشرون فوقها شباك الصيد لتجف ، أو المواقع التي مشت فوقها قافلة جمال ، أو صدّت عندها غارة بدو على مضرب خيام ! فعند تخطيط الحدود في بقية الدول العربية (والاساسية منها) جرى هذا العرف والتقليد ، اذ اعتمدت لجنة تخطيط الحدود بين العراق وايران ـ مثلا ـ بعد تأسيس المملكتين فيهما على أقوال وشهادات أبناء القرى المنتشرة في التخوم بين الاقاليم ، اذ لا تكفي المستندات التاريخية الرسمية القديمة !

٥ . ليس كل ما جرى عند تخطيط حدود دول الخليج المعاصرة . . كان آنيا وأبن مرحلته ، ذلك لأن الدول الخليجية كانت موجودة تاريخيا قبل عصر الاستعمار . . علما بأن هناك سلطنة تترامى بعيدا يحكمها ألبوسعيديون . .

خصّ كتاب «حرب الخليج» هذا الموضوع عددا من صفحاته ، وتضّمن معلومات خاصة عن بعض زعماء الخليج العربي ، اذ يكتب هيكل مستطردا : «ولم تكن المجتمعات العربية جاهزة للتعامل مع هذا النـوع من المال الذي حل فجأة . .» (حرب الخليج ، ص ٩٢) . ثم هناك تفصيلات عن فتح أسواق بيع السلاح . . وعن مغاني أوروبا . . ونقد ظاهرة تحويلات العاملين في الخارج الى أوطانهم . . مما سبب اختلال القيم والتماسك الاجتماعي في المواقع المؤثرة في حركة العالم العربي تقليديا مثل القاهرة ودمشق وبيروت وغيرها (حرب الخليج ، ص ٩٤) .

ثم يأتينا هيكل بزيادة «وهم النفوذ» عند الاثرياء الجدد مع أمثلة لظهور مسرحية في لندن في أواخر السبعينات ، استمر عرضها بلا انقطاع قرابة عشر سنوات ، وكان أسمها : «أغلقي عينيك وفكري في انجلترا» اذ كتب مختصرا عن فصولها ، ومختتما مسألة وهم النفوذ أنه زاد لكي يصبح «وهم أبهة» . . «وكانت الحقيقة الاصلّية قد وجدت لنفسها عشرات الاقنعة» (حرب الخليج ، ص ٩٦) .

لعل خير من ناقش هذا «الموضوع» بمعرفة رصينة وتّمكن في التاريخ والجغرافية والاجتماع هو عالم الاجتماع خلدون النقيب في دراسته المتميزة ، والتي سبّبت له بعض المشاكل ، وفيها خبر الرجل البيئة عبر تطور تواريخها الاجتماعية التي كانت «التضامنيات» عمودها الفقري . . كما أنه تتبّع التطورات الاقتصادية للمنطقة عبر أزمانها الحديثة والمعاصرة ، استنادا الى مرجعيات تاريخية أصيلة ، وساعده في ذلك : تحليلاته العلمية التي خرج بها باستنتاجات غاية في الجدة . . وكم تمنيت لو كان هيكل قد قرأها ، واستوعب مضامينها المعقدة بين الحاكم والمحكوم ، وبين الداخل والساحل ، وبين العربي والاجنبي . . الخ .

الانهيار : مسؤولية كل العرب :

فالمشكلة قبل أن تكون اقتصادية ، وتدّفق ثروات وتحويلات أموال ومغاني أوروبا . . انها مشكلة سياسية قبل كل شيىء . واذا كان خلدون النقيب قد اختص بمنطقة الخليج والجزيرة

العربيـة ، فـالامـر لا يتـعلّق بالخليجيين أنفسهم ، بقـدر مـا يتـعلّق بأزمـة العـلاقـة العـربيـة - العـربيـة . . وأزمـة سـوء أو حـسـن التـعـامل بين العـرب أنفسـهم ، ناهيكم عن السـيـاسـات الاقتصادية السيئة التي مارستها كل الدول العربية على امتداد خمسين عاماً من حياتها في القرن العشرين .

وعلينا أن نسأل عن الاخفـاقـات التي حصلت في اقتصادات دول عربيـة عـديدة . . نتيجة تطبيق قرارات سريعة ومباغتة كبّلت الحياة الاقتصادية في مجتمعاتها ، وخنقت فـرص العـمل والازدهار لابنائهـا ، ووأدت مـشـاريع الاعـمـار الاقـتـصـادي . . مع بقـاء الفـوارق الطبقية . . مع امتيازات نخب وفئات معينة قريبة للسلطة على حساب الجماهير . . وهناك دول عربية أحرقت مشروعات زراعية كبرى اورثها أياها الاستعمار ، بأسم التصنيع الثقيل . . وكم بعثرت اموال عربية كبرى على الدعاية السياسية والاعلاميات المضادة ؟ وعلى شراء الذمم والاصـوات ، وعلى البـذخ ، وعلى أبناء السلطة ، وعلى المكاسب السـيـاسـيـة الهـزيلة . . وعلى الحـروب الجـانبـيـة والداخلية والاهليـة . . وعلى الصـفـقـات السرية ، وعلى المنظمـات والجماعات الاجيرة !

ولنسأل : هل كان وهم الابهة الفارغة عند حكام عرب معينين دون آخرين ؟! وهل نجح العرب كلهم في خلق استثمارات نظيفة واقتصادات نافعة تخدم السوق الداخلية اولا والسوق الخارجية الثانية ؟ هل نال كل مواطن عربي حقوقه كانسان اولاً في وطنه ؟ وهل تمتع بكامل حرياته ؟ وهل نجح العرب في مجموعهم كلهم دون استثناء في خلق أي كتلة اقتصادية عربية داخلية مهمـا كان حَدها الادنى من النفع العام ؟ وهل نجحوا في انشاء صندوق للمشـروعـات المشتركـة ؟ وهل وقـفـوا فعـلا ضـد تبلور أي طبـقـات طفـيلية في المجتمع؟ وغـير ذلك من الاسئلة التي يجب أن توّجه نقداتهـا الى الحـالة الكليـة ، وشـمـول الجمـيع بالمسؤولية . . دون أن نخصص دولا معينة كي توجه اليهـا الاتهـامات والنقدات ، وكأنها هي المسؤولة عن اخفاقات الامة العربية في مشروعاتها النهضوية !

وكلها أسئلة بحاجة الى اجابات حقيقية يشترك الجميع فيها بتحّمل مسؤولياتهم كاملة ازاء المصير الذي لحق بالامة العربية ، ونتيجة لسياسات متعاكسة ومتضاربة ومتناقضة . . بل

ومتنازعة ومتصارعة على امتداد النصف الثاني من القرن العشرين . ولقد قلت وسأبقى أردد وأقول : ماذا لو نجح العرب في انشاء شبكة سكك حديدية عربية تمتد بين مراكش وبغداد . . بدل البقاء في دوامة سياسات مشاريع الوحدة واختلافات القيادات ؟؟

هل الكويت بحاجة الى لورنسو العظيم؟

اذا كان كتاب «حرب الخليج» لا يجيب عن هكذا أسئلة مطلقا ، بل يكتفي بالقاء التهم على منطقة دون أخرى ، أو على دولة دون اخرى ،أو على زعيم دون آخر . . فكيف بمقدور مؤلفه هيكل أن يكتب النص التالي ، وكأنه يجرح ويداوي الجرح الذي شقّه بيده ! دعونا نسمعه يقول : «والحاصل ان الكويت على وجه التحديد أعطت نفسها في تلك الفترة ما هو أكثر من شرعية الامر الواقع ، فبحكم نشأتها كمدينة تجارية ظهرت فيها طبقة متوسطة عريضة ومستنيرة . . . ثم ساعد على تأكيد هذا الحال أن الكويت أعطت نفسها جامعة كبيرة ، ومجلسا نيابيا نشيطا ، وصحافة متنوعة الاتجاهات . واتسق هذا كله مع مؤسسة تقليدية عاشت دواما في الكويت ، وهي «الديوانيات» التي يلتقي فيها الجميع كل ليلة ويتناقشون في ما يعن لهم من أمور بلا خوف من سيف أو سوط ! وربما كانت مشكلة الكويت في مرحلة لاحقة ان ما حولها طغى عليها ، وجار في بعض الاوقات على خصوصياتها . كانت الكويت مدينة تجارية قابلة للازدهار مثلما ازدهرت المدن التجارية في ايطاليا اثناء عصر النهضة ، كفلورنسا مثلا . ومن سوء الحظ ان الكويت لم تجد مثيلا لـ «لورنسو العظيم» يحي دورها ويعزّزه» (حرب الخليج ، ص ٩٦ - ٧) .

بعد كل هذا الذي يكتبه هيكل عن الكويت ، الا أنه يختتم «النص» بأن من سوء حظها انها لم تحم دورها وتعزّزه كونها لم تجد مثيلا لـ «لورنسو العظيم» ! ولا أدري كيف سمح الرجل لنفسه أن يقيم هكذا تشبيهات عن واقعين سياسيين مختلفين ، وعن بيئتين جغرافيتين متنوعتين ، وعن بنيتين تاريخيتين متضاربتين . . وعن محيطين اجتماعيين متباعدين . . ولا يتشابهان ابدا . . اذ لا يمكننا أبدا أن نعزو حرب الخليج بكل حلقاتها وأصولها وفصولها الى هكذا سبب داخلي ، وعن مدينة تجارية مزدهرة لا سيف فيها ولا سوط . . ينتقل هيكل الى الاوهام مرة اخرى ؛ ويبقى يكتب أشياء بعيدة كل البعد عن حقائق

الامور لأنه من أبعد الناس عن فهم الواقع في منطقة الخليج* . .

مجتمعات ليست بحاجة الى صدقات !

صحيح بأن الفوارق كبيرة وهائلة بين الذي أسماه هيكل بـ «دول اليسر» و «دول العسر» ، وصحيح كما قال بأنه «لم يكن كافيا أيضا أن تدفع دول اليسر شيئا من المعونة في السر لدول العسر» (حرب الخليج ، ص ٩٨) ؛ وصحيح أيضا بأن الامر يحتاج الى خيال واسع «فقد كان من الصعب أن يكون متوسط الدخل في الامارات العربية المتحدة ٢١٠٠٠ دولار للفرد في السنة ، بينما متوسطه في مصر ٥٠٠ دولار للفرد في السنة !» (حرب الخليج ، ص ٩٨) .

ولكن ؟

يعقّب هيكل والحق معه هذه المرة قائلا : «ولقد كان مثيرا للأسى ان حلم التنمية المشتركة لم يتحقق في حين زاد على الصورة ، وهم اخر هو وهم الامن المنفرد (حرب الخليج ، ص ٩٨) . اذ كانت قصة «وهم الامن» قصة اخرى حافلة بالمفارقات .

ولكن أيضا ؟

هذه حالة نجدها عند العرب أجمعين ، ولم يتصف بها البعض من الآخرين! وبقدر ما ينّصب اللوم على طرف ، لابد أن ينصّب اللوم على كل الاطراف . . لأن ذلك «الكل» هو الذي دفع بـ «الجزء » لصنع خياراته . . فمن ذا الذي لم ينجح في تأسيس تاريخ عربي موحد ؟ ومن ذا الذي لم ينجح في انشاء أي تكتل عربي موحد ؟ ولماذا لم تبحث هكذا أسباب قبل حرب الخليج لكي تغدو من نتائجه ؟ ومن يعطي لمن ؟ وقد انهار حلم التنمية المنشودة . . وهل كان هناك طرف محدد بذاته وراء انهيار ذلك «الحلم» ؟

انني اعتقد بأن الامر طبيعي جدا في أن لا يوزّع ابناء الخليج العربي ثرواتهم على أخوتهم العرب هبات وعطايا وصدقات . . بل كان بالامكان مساهماتهم في حلم التنمية

---

* ومرة اخرى ، عليه بمراجعة كتاب : خلدون النقيب ، المجتمع والدولة في الخليج والجزيرة العربية (من منظور مختلف) ، ط٢ ، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٩ .

العربية الشاملة التي لم يحققها من طبّل وزّمر لها عهدا طويلا ؟! وعليه ، فاننا ان قلبنا الآية ، ونتصّور أننا غيّرنا مواطن وجود الثروات من مكان الى مكان آخر ! وجعلنا الامارات محل مصر ومصر محل الامارات ، أو سوريا محل قطر وقطر محل سوريا . . فهل يعتقد الناس ان المنطق القومي سيكون في حالة افضل . . وان مصر ستوزع الصدقات على اخوانها العرب ؟! ان الامر أكبر بكثير من هكذا مقارنة بلهاء لابد أن تفرض على العقل العربي ! كي يفكر العرب قليلا في انفسهم . . قبل أن ينتقدوا الاخرين .

هل صحيح ذاك الذي ادّعاه أبو الحسن بني صدر؟

ان الكثيرين من العرب يتساءلون أيضا ممن ليس لهم أي حس قومي أو وازع عروبي : لماذا كانت مصر تبيع أسلحتها الى العراق ايام حربه ضد ايران ؟ أليس من الواجب القومي الذي كانت تسبح مصر بحمده صباح مساء ايام الراحل عبد الناصر . . أن تمنحه اياها دون مقابل . . ما دام العراق قد استوعب الملايين من الاخوة المصريين العاملين على أرضه . . والذين كانت تحويلاتهم كاملة بالعملة الصعبة الى بلدهم بحيث شكّل ذلك دخلا متميزا لمصر ! ولكن الاخطر من ذلك كله ما سمعه العالم قبل أيام من قبل أبي الحسن بني صدر أول رئيس للجمهورية الاسلامية في ايران ، والذي قال بأن ايران كانت قد اشترت سرا بموجب اتفاقية قديمة اسلحة من مصر اثناء حربها ضد العراق* ؟

وبطبيعة الحال ، فان هذا أمر لا يمكن أن يصدقه عقل . . وأتمنى أن تكون هذه المعلومة فرية ضد العرب ، ولو صحّ ما قاله بني صدر وأتمنى أن لا يكون صحيحا . . فاعتقد بأن العرب كلهم في عالم من الاوهام ، وأن وضعهم في التاريخ الحديث في مأزق حقيقي ، وان مائتي سنة من عمر النهضة العربية ، لم تكن الا أضغاث أحلام ! وأقول ، بأن الزمن كفيل باظهار حقائق غائبة عن ذاكرة هذا الجيل الذي تحّمل مآس لا دخل له في صناعتها . . كما سيكشف التاريخ يوما كم جنى العرب على انفسهم من خلال انقساماتهم ومهارتهم في صنع الانقسامات . . وعدم الاتفاق على كلمة سواء في الحفاظ على مقوماتهم ومصالحهم المشتركة ، وتطويرها من اجل المستقبل .

---

* اثناء مقابلة أجريت معه من قبل قناة الجزيرة الفضائية مساء يوم ٢٠٠٠/١/١٧

عندما نكتب عن حرب الخليج في التسعينيات ، ينبغي ألّا نطوي صفحة الثمانينيات لنقفز بعيدا الى السبعينيات . . لقد تبلورت عوامل عدة في ارتفاع سعر برميل النفط في السبعينيات ، اذ كانت هناك حاجة دولية كبرى الى تخزينه اولا أو استخدامه ثانيا . . كما كانت هناك أسباب اقليمية وعربية دفعت باتجاه زيادة ذلك الارتفاع ، من أهمها : حرب رمضان (= اكتوبر) عام ١٩٧٣ ، ولكن دعونا نتأمل قليلا في النص التالي الذي تضمنه كتاب «حرب الخليج» :

«وفي منتصف السبعينات كان قلب العالم العربي قد بدأ يتململ . وقبل أن تجيء الثمانينات ، كان التململ قد تحول الى نوع من الشعور بخيبة الامل . كانت الجماهير العربية في القلب العربي تشعر انها على نحو او آخر اعطت دماء ابناءها في حرب اكتوبر التي أدت ضمن ما أدّت الى رفع أسعار البترول ، وبالتالي فان الثروة التي فاضت ثم دفع ثمنها مقدما بالدماء التي سالت ، وبدأ الاحساس يشتد بتفاوت الحظوظ في العالم العربي . وبمقدار ما كانت أوهام عصر البترول تتبّدد ، كان البحث عن اليقين يشتد ، وفي هذا المناخ علا صوت الثورة الاسلامية في ايران وامتد أثره» (حرب الخليج ، ص ١٠٩) .

السؤال: ماذا يقصد هيكل بالقلب العربي ؟

لقد قصد به هيكل مصر ، ولكنه لم يسّمها بالاسم ! وان من يتأمل في الذي كتبه في اعلاه بعيد جدا عن التحلي بأي نزعة قومية ! وما كان يفكر هيكل مثل هذا التفكير لو كانت نزعته القومية العربية راسخة الجذور . . ان الدماء التي تريقها الاوطان لا تقابل بأي أثمان مطلقاً في سبيل حقوقها ! ولو جاء مثل هذا الكلام على لسان او قلم غيره لعذرته ، ولكن لا يمكن أن يعذر أبدا ذاك الذي يقيس نتائجه على الاحتمالات ! ومن المؤسف ان احتمالات هيكل تأتي بأثر رجعي ، لا أن يقولها بأثر قادم ، فربما أصاب وربما أخطأ ! واذا كان العرب أجمعين يتعاملون ضمن هذا «المنظور» أو «السياق» ، لقام كل واحد منهم باشهار سلاحه ضد الاخر ، باعتباره قد حمّل أخيه منّة أو جميلا !

وعليه ، ماذا يقول ذلك المجتمع الذي فقد كل بيت من بيوته شابا أو أثنين في حرب

قاسية امتدت ثماني سنوات في الثمانينيات صفّق لها كل العرب ؟! واذا كان القلب العربي قد أعطى دماء ابنائه ثمنا لتفيض الثروات على غيره . . فماذا تقول تلك الملايين من الناس وهي محاصرة ظلما وعدوانا . . مرضا وجوعا وموتا زؤاما . . وغيرهم ينعم بثرواتهم من خلال ما يسّمى بـ «التعويضات» عن حرب لم تكن لهم كلمتهم فيها !! لقد صدق الشيخ الجليل الذي مات حزناً وكمداً عندما قال : «لقد كان وطني الحبيب وسيبقى مأكولاً مذموماً» !

ومما يزيد في مأساته ان تحل الكراهية ضد شعبه وتاريخه ورموزه ، فمن يتصفّح - مثلاً - الكتاب الذي كتبه عبد العظيم رمضان ، سيجده وقد كال التهم للعراق وتاريخه في القرن العشرين وشخصياته ورموزه ومعانيه وأدواره العربية والقومية . . دون اي وثائق او مستندات او حتى براهين ؛ اذ تجاوز عبد العظيم رمضان حدّه في وصم العراق على العهدين الملكي والجمهوري ، وشكك بمقدرات العراقيين ومبادئهم ، ومتهماً كل زعمائهم . . مبتعداً عن موضوعه الاصلي في الكتابة عن حرب الخليج ، مما يدل ويعبر عن كراهية مغروسة لدى البعض من العرب ضد العراق والعراقيين* .

زخم الثورات العربية: سجل تاريخ متميز

لقد بدا لنا من النص السابق ، ان دماء القلب العربي - بتسمية كتاب حرب الخليج - كان لها دورها في صناعة الثروة الخليجية ! ولم يكتف هيكل بذلك ، بل مّن على الايرانيين بأن دماء القلب العربي كان لها دورها في صناعة صوت الثورة الاسلامية في ايران ! من يعرف ؟ ويبدأ هيكل حديثه عن تلك «الثورة» التي كان لها أصداؤها في العالم العربي «بفعل عوامل كانت كامنة ، موجودة ومفقودة في نفس الوقت داخل الذات العربية» (حرب الخليج ، ص ١٠٩) . . بل وكان لها أصداؤها في كل بلدان العالم الاسلامي الكبير .

ثمة وقفات عندي وملاحظات لي على ما كتبه هيكل في هذا الباب :

قال : «كانت فكرة الجهاد قديمة في الاسلام ، ثم ساعدت معارك العرب الحديثة من سنة ١٩٤٨ الى سنة ١٩٥٦ ، الى سنة ١٩٦٧ ، الى معركة الاستنزاف ، الى معركة اكتوبر

* عبد العظيم رمضان ، حرب الخليج في الميزان التاريخي ، ط١ (القاهرة : الزهراء للاعلام العربي ، ١٩٩١) .

على بروز الاستعداد لممارسة العنف في المجتمعات العربية» (حرب الخليج ، ص ١٠٩) .

لماذا هذه السنوات المحددة ؟ ولماذا حصر الجهاد في مكان عربي واحد ؟ لقد قصد هيكل مصر لا غيرها ! أيعتقد البعض في مصر بأن العرب أجمعين لا يفخرون بمنجزاتها ومكاسبها وتاريخها ورجالها . . ؟؟ أيعتقد المؤلف وهو واحد من ذلك البعض : ان لا تاريخ ولا معارك ولا جهاد ولا حرب عصابات ولا نزيف دم ولا شهداء . . في بقاع اخرى من ارض العرب ؟ والمشكلة أنه يؤمن بالقومية العربية !

طيب ، وأين جهاد مصر والمصريين قبل عام ١٩٤٨ ؟ أين ثورة ١٩١٩ ؟ وأين انتفاضات شوارع القاهرة قبل عام ١٩٤٨ ؟

أليس من باب الامانة والاعتراف بحق العرب ان تذكر : ثورة العشرين في العراق ضد الانكليز ، وثورة جبل العرب ضد الفرنسيين في سوريا ، وثورة الريف في المغرب الاقصى ، ومعارك عمر المختار في ليبيا وثورة عزالدين القسام في فلسطين ، وثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق ، وحرب التحرير في الجزائر . . وصولا الى معركة الكرامة في الاردن ؟؟؟

الثورة الاسلامية في ايران:

ونحن نسأل هيكل : ما علاقة دماء القلب العربي بالثورة الاسلامية في ايران ؟ لقد كان سجل تاريخ الثورات العربية الحقيقية التي حدثت في القرن العشرين حاضرا جميعه في عقل أي ثوري في العالم الاسلامي . . وأسأل أيضا : ما علاقة المواضيع التي تضمّنها كتاب «حرب الخليج» عن ايران والثورة الاسلامية (حرب الخليج ، ص ١١٠) ، والمؤسسات الدينية في العالم العربي (نفسه ، ص ١١١) ، ومشاكل الحجاج الايرانيين في مكة عام ١٩٨٧ (نفسه ، ص ١١٢ - ١١٤) ، ومشكلة سلمان رشدي وكتابه «آيات شيطانية» وتفصيلات عن افكاره (نفسه ، ص ١٢٤ - ١٢٦) . . وأيضا : علاقات مصر بمسألة سلمان رشدي (نفسه ، ص ١١٦) ، وعلاقة الشيخ محمود شلتوت والمؤسسات الدينية التي تلبس عباءة الاسلام - بتوصيف هيكل - (نفسه ، ص ١١٧) ، وأوضاع سكان القاهرة اثر الانفجار السكاني فيها (نفسه ، ص ١١٨) . . الخ الخ ، علما بأن هيكل لم يعالج مفهوم «تصدير

الثورة» وتداعياته وآثاره وخموله . . ولا أدري هل كانت مبادىء الثورات مشاريع للتصدير في يوم من الايام . . أم كانت مجموعة مبادئ وقيم تستلهمها الشعوب الحية ؟؟

لنسأل ونبقى نسأل : ما علاقة كل هذه التفصيلات الخارجة عن الموضوع الاساسي للكتاب ؟

البترول والاسلام:

لماذا كل هذه الكراهية للبترول ؟ ولماذا اصبح البترول احد ابرز عوامل انقسام الامة ؟ ولماذا غدا العرب يريدون حرق كل من يملك البترول ؟ ولماذا يستغرب هيكل لأن الاسلام - بدا - على غير طبيعته مقترناً اليوم بالغنى والثراء (حرب الخليج ، ص ١١٨) ، واذا كانت بعض مجتمعاتنا العربية قد اصابها الثراء بفعل البترول . . فهل معنى ذلك ان الحياة العربية قد اهترأت بفعل البترول ؟

ولماذا لا ؟ وتلك الايام ندولها بين الناس . . ثمة مجتمعات ودول يقترن الاسلام فيها بالفقر والمسغبة ، كما هو الحال في دول ومجتمعات عدة في التاريخ . . وهي دويلات صغرى لا تكاد يذكرها أحد بسبب تعاستها . . مقارنة بدول ومجتمعات يكون الاسلام قد اقترن فيها بالثراء والغنى والعز . . كما كان في الدول الاسلامية التي عرفها تاريخنا . . وهي سنة التاريخ والجغرافية . ان الافق الواسع لا الضيق لابد أن يسود في عقولنا نحن العرب . . فثمة دول اسلامية فقيرة قبل ثلاثين سنة تقع في جنوب شرق آسيا ، وغدت اليوم من الدول الغنية من خلال منتجاتها ودورها في التجارة الدولية !؟

دوامة تناقضات:

وأسأل أيضا : ما دخل الشيخ محمد عبده والشيخ حسن البنا . . بموضوع حرب الخليج الثانية ؟ (حرب الخليج ، ص ١١٨) . وما دخل ما تقوله عن «نظام الرئيس حافظ الاسد في استخدامه للدبابات في اقتحام مدينة حماه . . وكانت النتيجة أن راح في المعركة ما بين عشرة الاف وعشرين الفا من سكان حما» (حرب الخليج ، ص ١١٩) . وما دخل سراديب الحرم والعتيبي والدهاليز . . بموضوعنا (نفسه ، ص ١١٩) . وما علاقة حادثة المنصة ومقتل الرئيس المؤمن السادات ـ حسب تعبير المؤلف ـ (نفسه ، ص ١١٩) .

وهنا يكيل هيكل في كتابه هذا المدح للسادات ، ولا ندري مدى صحة ذلك من عدمه عندما يقول : «ولم يكن الرئيس السادات ـ يرحمه الله ـ يخفي مقاصده ، فقد كان رأيه ان الحرب الباردة على وشك ان تنتهي ، وان الولايات المتحدة هي الفائزة فيها . وكان تقديره في جزء منه صحيحا ، ولكن المحظور كان في الوسائل التي اتبعها . .» (نفسه ، ص ١١٩) .

ويبقى كتاب «حرب الخليج» ضمن هذه الدوامة التي أخذت القارىء الى موضوع بعيد (أو : بالاحرى) موضوعات من نوع آخر ، لا نجدها عند الاخرين من الذين كتبوا فعلا عن حرب الخليج . . اذ وصل الامر الى خروج مصر عن الصف العربي عام ١٩٧٩ ، واستهزاء السادات بالوفد الذي ذهب اليه من بغداد ليعيده الى جادة الصواب ، وسخريته من خمسة بلايين دولار عرضت عليه معونة لا ترد . . قائلا لسائله : هل تظن انها مسألة مال ؟ . . انا لست حريصا على البقاء في صفوفكم . . مع المتخلفين ، وانما مكاني هناك مع المتقدمين ! (نفسه ، ص ١٢٠) .

وهكذا ، وبعد كل هذه القفزات وسط دوامة من المتناقضات هنا وهناك . . راح هيكل ينهي الفصل الرابع (آفاق من الفراغ) من كتابه «حرب الخليج» قائلا هذه الكلمات : «وكان هذا هو مناخ أزمة الخليج ، فقد حاول البعض ملء الفراغ والخواء : اما بكلمات مرصوصة يضيع فيها المعنى ، واما بتصرفات خطيرة يختلط فيها الحساب» (نفسه ، ص ١٢٠) .

وملخص كل ذلك كله ، كان لابد أن يحسمه المؤلف ببضع كلمات يقول فيها : «ان العالم العربي في ذلك الوقت كان يواجه فراغا في القيادة ، فقد اختفت جاذبية القيادة السياسية كما مثلها جمال عبد الناصر ، واختفت هيبة القيادة التقليدية كما مثلها الملك فيصل» (نفسه ، ص ١١٠) . ونحن نسأل : اذا كان الرئيس الراحل جمال عبد الناصر قد توفي عام ١٩٧٠ ، وكان الملك الراحل فيصل آل السعود قد توفي عام ١٩٧٥ . . واذا كان هناك فراغ قيادي حقيقي في الامة قد حصل على مستوى الكاريزما ـ حسب رأي هيكل ـ ، فهل ترك الناس من العرب في كل مكان من الارض العربية بملايينهم نزوعاتهم الاصلاحية والليبرالية والقومية والتقدمية والاشتراكية والوطنية . . وحتى العقدية لكي تجد في الامام

الخميني قائدا كاريزميا يملأ الفراغ الذي تحدث هيكل عنه ؟؟ أي بمعنى : ان العرب الذين عاشوا تجاربهم الاصلاحية والوطنية والقومية والراديكالية . . سيتخلون بسرعة مباغتة عن كل المواريث التي حكمتهم نزوعاتها القوية في القرن العشرين . . ؟؟

مجالس التعاون العربية :

تقوم فلسفة هذه «المجالس» كاشكال من صيغ التكتل ، وكانواع من صيغ التضامن . . وبعيدا عن الهواجس والتخوفات العربية ـ العربية نتيجة فقدان الثقة بين الدول العربية ، فطالما انتقدت تلك الخطوات التي عادة ما تأتي بافكار وتنظيرات وشعارات ومبادىء . . لكن سرعان ما تخفق في تطبيقاتها ، ليس لأنها بعيدة عن الواقع ، بل لأن هناك من يقف بوجه أي عملية تكتل اقتصادية او تضامن سياسي ليس عند التطبيقات ، بل حتى ضد الاهداف والتطلعات التي طالما تنتظر جماهير الامة تحقيق الحد الادنى منها لمواجهة تحديات العصر .

يقول هيكل منتقدا مشروعات مجالس التعاون العربية التي علا شأنها وبدأ العمل بها في ثمانينيات القرن العشرين : «كان ذلك هو الاطار الفكري والسياسي الذي جرى على خطوطه طرح مشروع مجلس التعاون العربي ، ومن نظرة واحدة على هذا الاطار فانه يتبدى في حقيقة أمره باعتباره مجمعا للمشاكل أكثر منه مجلسا للتعاون . وفي المحصلة النهائية ، فان المجالس الثلاثة للتعاون الاقليمي بدت وكأنها ثلاث قفزات في المجهول ، كل منها في ناحية مختلفة .

١ . مجلس التعاون الخليجي : وقد بدأ تجمع اغنياء يشغلهم أمن ثرواتهم وأمن أشخاصهم وتلك طبيعة الغنى .

٢ . ومجلس التعاون العربي : وقد بدا تجمع محتاجين تضغط عليهم المشاكل والضرورات ، وتملي عليهم أحكامها ـ وتلك طبيعة الاحتياج .

٣ . ومجلس الوحدة المغاربية (والاصح : اتحاد الدول المغاربية) : «وقد بدا تجمعا يؤقلم فيه البر الافريقي نفسه مع البر الاوربي ، ودون الاثنين بحر لا أحد يستطيع أن يعبره سباحة!» (حرب الخليج ، ص ١٧٧) .

هذا توصيف أزعم أنه صائب في رؤيته قصيرة المدى والنظر ، ولكنه خاطىء اذا ما انطلق لرؤية بعيدة المدى والاهداف المصيرية النبيلة . وبرغم ما للمجالس العربية من نواقص وسلبيات لم تكن بالضرورة عوامل انهاء لها ، الا ان بالامكان نقد تطبيقاتها نقدا موضوعيا ، لا الهجوم على مبادئها . . ان قناعتي بالتعاون الاقليمي والعربي كبيرة ، كونه أحد مفاتيح مستقبل الاجيال القادمة . . وهو أحد أساليب النجاح مهما حدث فيها من أخطاء ، ومهما اقترف بحقها من خطايا ! نعم . . قد لا تكون هناك انسجامات جيو سياسية او اقتصادية او استراتيجية بالمحصلة . ولكن كان لابد لها أن تكون خطوات قابلة للمعالجة ووضعها في مسارها الصحيح من خلال تفكير استراتيجي عربي ، وليس ضمن سياق مرحلي قصير النظر !

واذا كان مجلس التعاون الخليجي الذي وصفه هيكل بـ «تجمع أغنياء» ما زال يحيا حتى يومنا هذا ، فان الشراكة السياسية دليل لنجاحه برغم كل المعوقات والمشكلات التي تعترضه . . واذا كانت الافكار التي تضمنتها ورقة عمل اعداد مجلس التعاون العربي والتي ينتقد هيكل طبخها في منتدى الفكر العربي بعمّان . . فمن الممكن اعتبارها عملية من اجل مقاربة للحلم ومعالجة الاوضاع والتعاون الاقليمي فعليا ، بعيدا عن كونه بؤرة تآمر على هذا وذاك ـ كما وصف ـ . وبرغم تباعد أعضائه سياسيا وجغرافيا واقتصاديا وايديولوجيا بين الاردن ومصر والعراق واليمن . . الا أنه وبرغم المفارقات وحوار الطرشان الا انه خطوة كان لابد أن تكون خطة مستقبلية . صحيح أنه لم يحظ بأي حماسة شعبية ، أو أي ردود فعل سياسية مؤيدة لأسباب مرحلية ، وذلك بسبب شعاراته السياسية والخطابية بدل فعالياته الاقتصادية ، وممارساته العملية .

وتبقى حرب الخليج قضية معقدة !

ان المتصفح لما كتبه هيكل في كتابه «حرب الخليج : أوهام القوة والنصر» سيجد جملة أحداث ناقصة ، وسيقف على معلومات غير مكتملة . . وان الكتابة في موضوع حرب الخليج لا يمكن ان يعتمد صاحبها على روايات منقوصة ، او دعايات وشعارات مبهمة يحكيها هذا دون ذاك . . فضلا عن حاجة أي باحث أو مؤرخ للحيادية والموضوعية والمعرفة

وبعد النظر . . وانا واثق كل الثقة بأن ما نشر حتى يومنا هذا حول حرب الخليج ، ناقص اذ لم تكتمل صورته حتى اليوم ، وستبقى جملة من الامور المبهمة تحف بقضيتها المعقدة في ولادتها وسيرورة احداثها ووقائعها ، وتداعياتها ونتائجها على المنطقة اولا وعلى العرب ثانية . وستقف الاجيال القادمة كي تتدارسها على مهل بعد حين ، وخصوصا بعد ان تمتلك الرؤية الواسعة للتاريخ ، وتقف على وثائقها كاملة ، وتبتعد عن العواطف والوجدانيات . . كما وتبتعد عن سياسات هذا العصر لتدقق في مسار المصالح الوطنية والقومية والاقليمية ، فضلا عن نقد مواقف العرب ازاء انفسهم وازاء الاخرين . . فضلا عن ربطهم هذه القضية بالقضايا التاريخية الاخرى التي عاشها العرب في القرن العشرين .

ثالثاً: المفاوضات السرية

ملاحظات نقدية

لقد تبّدى لنا واضحا أن هيكل يهوى كل ما هو مثير مهما كانت درجته من الضعف ، والمثير ـ عنده ـ مجموعة سلبيات ومطاعن وتشويهات يتصف بها اغلب الذين شاركوا في صناعة تاريخنا العربي الحديث من زعماء ومسؤولين وحكام عرب ، اذ نادرا ما نجده يكتب عن منجزاتهم ومكاسبهم وما حصلوا عليه ! وان أخطر ما يسود تفكيره انهم جميعا مجموعة عملاء للاجنبي . . وان ليس لديهم أعداء وخصوم من الاستعمار ، فاذا كانت الاوضاع قد فرضت عليهم التفاوض مع اعدائهم من المستعمرين وخرجوا بما حصلوا عليه مكتسبات . . وسواء كانوا على صواب أم خطأ فهم في عداد التاريخ ، والتاريخ هو الذي سيحاسبهم لا السياسات ! واذا كان أحد القادة او حتى احد الساسة العرب قد فاوض الانكليز ام الفرنسيين ، افلم يدخل هيكل نفسه في مفاوضات مع كيسنجر ؟ واذا كان الاوائل قد فاوضوا المستعمرين على حقوقهم عند بدايات القرن العشرين ولم يمتلكوا الوسائل والادوات والاعلاميات . . ، فالسؤال الذي يفرض نفسه اليوم : ألم يدخل العرب في مفاوضات مع أعدائهم (التاريخيين) من الصهاينة المحتلين عند نهايات القرن العشرين ؟

عزيز المصري ونوري السعيد:

إذا كان هيكل قد أورد في حديثه عن عزيز علي المصري نص وثيقة موسومة بـ «حديث

بين الكولونيل عزيز المصري والمستر ر . أ . م راسل» إذ جرت المقابلة بمكتب المستشار الشرقي لدار المعتمد البريطاني في مصر بتاريخ ١٦ أغسطس / آب ١٩١٤ ، وأضفى هيكل على عزيز علي المصري صفة شخصية فريدة ، جاعلا إياه الأب الروحي لحركة الضباط الأحرار التي قادت ثورة ٢٣ يوليو / تموز ١٩٥٢ ، وان عزيز المصري اقترح على الإنكليز تعاونه والضباط القوميين العرب مع الإنكليز ضد الأتراك .

كما واقترح عليهم اسم نوري السعيد ، فان عزيز المصري هنا يعد في عمليته هذه هو الأسبق ، باتصاله مع الإنكليز والتعاون معهم ، وانه من خلال الوثيقة التي يعرض ترجمتها هيكل في كتابه «المفاوضات السرية» : قد كشف عن كل أسرار جمعية العهد والجمعيات العربية الأخرى السرية ، خصوصاً وانه وافق على تلقي العرب مساعدات بريطانية بالسلاح والذخيرة وأية مساعدات أخرى ، وان عزيز بك كان صريحاً إلى ابعد الحدود ، وان رأيه بأن «العرب يستطيعون تكوين قوة عسكرية لا بأس بها . وان نواة هذه القوة يمكن توفيرها من الجنود العرب في الجيش التركي ، وبالذات الجيش التركي في العراق ، ففي أوساط هذا الجيش تسري أفكار الثورة العربية» . (المفاوضات السرية ، ٨٦/١ - ٩١) .

١ - كنا نود ان يحلل هيكل هذه «الوثيقة» تحليلاً عميقاً ، بحيث يكشف من خلال ذلك دور الضباط العراقيين - بشكل خاص - من العاملين في الجيش التركي ، ومنهم : نوري السعيد الذي تضفي عليه الوثيقة السمات العملية في تنفيذ مشروع عربي قومي جديد من اجل تأسيس كيان عربي مستقل في المشرق العربي .

٢ - كنا نود من هيكل ان يلحق بكتابه نسخة مصوّرة عن اصل الوثيقة (بالإنكليزية) كما وجدها ، ويضعها في ملحق بكتابه ، من اجل مقارنة ما تضمنته في الأصل وما تضمنتّه ترجمتها إلى العربية .

٣ - كان على هيكل ان يستنتج بان الإنكليز قد فتحوا منذ البداية قناة اتصالات مع العرب ، وفي مقدمتهم عزيز علي المصري الذي يبدو انه سبق غيره في التعاون مع الإنكليز !

٤ - كان على هيكل ان يوضح الأسلوبين الاستعماريين اللذين اتبعتهما بريطانيا في

السيطرة على مقاليد الشرق الأوسط ، وهما : أسلوب المدرسة الهندية وأسلوب المدرسة المصرية .

سايكس - بيكو:

يرتبط أسم مارك سايكس بمعاهدة سايكس بيكو التي قسمت المشرق العربي الى عدة اقسام ، وكان هذا الاسم هو العقل المخطط لذلك كله . . وبرغم كاثوليكيته ، الا أنه كان يمالىء المشروع الصهيوني في بدايات القرن العشرين . ان ثمة ملاحظات وأسئلة تاريخية بحثه حول ذاك الذي كتبه محمد حسنين هيكل عن «مارك سايكس» . . يمكنني طرحه واثارة التساؤلات من حوله :

١ - ما هي المصادر التاريخية (والوثائقية بالدرجة الأساس) التي اعتمد عليها هيكل في كتابته لهذا الموضوع ؟ إذ لم يشر إلى أي مستند يمكن الرجوع إليه ! وخصوصاً عندما كتب عن مارك سايكس (المفاوضات السرية ، ١/٩٢ - ٩٩) .

٢ - ما هي إثباتاته حول اتصال القوميين العرب من أنصار الاتجاه الإسلامي في مصر ، وعلى رأسهم الشيخ محمد رشيد رضا (محرر مجلة «المنار» الشهيرة) كونهم راحوا يتصلون بمكتب القاهرة البريطاني التابع لكل من وزارتي الخارجية والمستعمرات البريطانيتين؟ ومتى حدث ذلك ؟ (المفاوضات السرية ، ١/٩٤) .

٣ - كتب يقول بان الشغل الشاغل لأنصار الاتجاه الإسلامي هو المحافظة على الخلافة ونقلها عن الخلفاء الأتراك إلى خلفاء من المسلمين ؟ فهل الأتراك ما كانوا بمسلمين ؟ أم كان يريد القول بنقل الخلافة إلى العرب ؟ علماً بان علاقة الشيخ محمد رشيد رضا كانت سيئة مع الهاشميين ، ولكنها كانت قوية وشيجة مع السعوديين .

٤ - ذكرت بان الشريف الحسين بن علي كان والي مكة ! وهذا غير صحيح مطلقاً ، فالشريف الحسين بن علي لم يكن والياً عثمانياً (المفاوضات السرية ،١/٩٥) إذ كان مركز الولاية جده والتي يقيم فيها الوالي العثماني . وكان ذلك الوالي تركيا على طول التاريخ ، في حين كان الحسين بن علي أميرا على مكة بمقتضى منصبه الشرافي الذي يعين فيه بموجب فرمان سلطاني .

٥ - لم يكن الشريف حسين بن علي صاحب تجارب قبلية فقط ـ كما وصفته ـ بقولك : «أو ربما ان وعيه بأمور السياسة الدولية كان ما زال مأخوذا بتجاربه القبلية السهلة والبسيطة» (المفاوضات السرية ، ٩٨/١) . . في حين ان الرجل لم يكن زعيماً قبلياً ، بل كان أميرا مدنياً يستقر في مكة ، وهو سليل إشراف مكة الذين لم يكونوا قبليين بأي حال من الأحوال .

الاتصالات مع الإنكليز وشخصيات عربية:

١ - بادئ ذي بدء ، كان على محمد حسنين هيكل ان يفصل بين حالتين اثنتين وخير نموذجين يمثلانها : الشريف / الملك الحسين بن علي وعزيز علي المصري ، فإذا كان هيكل قد أتانا بوثيقة تعلمنا عن اتصالات الإنكليز بعزيز علي المصري سراً ، وما جرى بينهما من أسرار يمكن ان تصلح مادتها لكتاب «المفاوضات السرية» ، فان الشريف / الحسين بن علي كانت اتصالاته بالإنكليز علنية على رؤوس الإشهاد . وعليه ، فإنها لا تصلح مادة لكتابه المذكور !

٢ - يعلمنا هيكل انه قد تعامل مع الوثيقة رقم (٢٧٦٨/٧٨٣ - ٣٧٩) والتي تحمل تعليمات موجهة إلى السير هنري مكماهون المعتمد البريطاني في مصر ، والى البريجادير جلبرت كلايتون رئيس مكتب القاهرة ، وهذه هي المرة الأولى التي يعلمنا هيكل عن رقم وثيقة تاريخية حقيقي ، فإذا كان الرجل قد وجدها لأول مرة ، فان غيره من المؤرخين العرب الذين سبقوه إلى كشفها قد تعاملوا معها ، ومع مئات غيرها في دراساتهم الأكاديمية .

٣ - ينقل هيكل مرة من هذه الوثيقة النص التالي على لسان الإنكليز : «لقد ناقشنا أفكار عزيز المصري الجديدة كما عرضها عليكم . وكذلك ناقشنا أفكار غيره مثل نوري السعيد والسيد الفاروقي وحسن خالد والدكتور شهبندر ، وكذلك الشيخ رشيد رضا» (المفاوضات السرية ،١٠٢/١) .

إذا كان القارئ العربي يعرف من هو عزيز علي المصري ونوري السعيد والدكتور عبد الرحمن الشهبندر ، وكذلك الشيخ محمد رشيد رضا . . ، أليس من باب الأمانة والبحث والاستقصاء ان يعّرف الباحث بشخصية ورد ذكرها : فمن هو السيد الفاروقي - مثلاو ؟ وانا واثق جداً بأن هيكل لا يعرف عنه أي شيء ؟

٤ - وعليه أقول بان السيد الفاروقي هو : محمد شريف بن محمد الفاروقي (سليل الأسرة العمرية في الموصل) . ولد فيها سنة ١٨٩١ ، وتخرج ضابطاً عثمانياً ، ونصب في عدة مناصب ، منها : وكيل والي سوريا الشهير جمال باشا السفاح ، واصبح العضو الأول بجمعية العهد العسكرية ثم التحق بجمعية العربية الفتاة ، وزامل يا سين باشا الهاشمي رئيس أركان حرب الفيلق الثاني عشر ، وعمل مع الرجال السوريين والعراقيين القوميين ، ثم اعتمده الشريف / الحسين بن علي ، واعتمد على آرائه في مكة أبان الثورة العربية الكبرى ، وانتدبه كمعتمد له في القاهرة ، وكانت له مهام جسيمة فيها كونه نظم الشؤون السياسية والدبلوماسية للثورة ، وكان بدرجة (وزير) ثم رجع إلى العراق وتوفي فيه ولم يبلغ الثلاثين من العمر ا* .

٥ - لماذا لم يكمل هيكل نص الوثيقة فيما يتعلق بموقف خليل بك (والأصح : باشا) قائد القوات التركية في العراق ، والذي استبسل استبسالاً قل نظيره عن العراق أمام الهجمات البريطانية عامي ١٩١٦ - ١٩١٧ ، وحاصر جيشه القوات البريطانية في مدينة الكوت لمدة ستة اشهر ، حتى فكّت الحصار قوات أتت من الهند . . يقول النص : لا بد من ملاحظة انه في هذه المنطقة فان مواقف معينة يمكن شراؤها بالمال بدلاً من إضاعة الوقت والجهد في عمليات عسكرية قد لا تكون ضرورية . وعلى سبيل المثال فإننا عرضنا مليون جنيه إسترليني على خليل بك قائد القوات التركية في العراق حتى يرفع الحصار عن القوة البريطانية المعزولة في الكوت تحت قيادة الجنرال تاونسند . وهذا نموذج يمكن تطبيقه في مواقع أخرى» (المفاوضات السرية ، ١/١٠٣) .

لماذا لم يتحر هيكل عن الحقيقة التاريخية كاملة ؟ ولماذا ادخل نفسه في مخاض تاريخ العراق السياسي الصعب ؟ ولماذا قضم الوثيقة من اجل تشويه الحدث التاريخي الجيد

* (للتفاصيل التاريخية عنه ، انظر : محمد طاهر العمري ، تاريخ مقدرات العراق السياسية ، ج ١ ، بغداد ١٩٢٤ ، ص ٢١٩ - ٢٢٠ ، وانظر أيضاً : «مذكرات جعفر العسكري ، تحقيق وتقديم : نجدة فتحي صفوة ، لندن : دار اللام ، ١٩٨٨ ، ص ١٠٣ ، م٦ ، وانظر : سيار الجميل ، زعماء وافندية : الباشوات العثمانيون والنهضويون العرب ، ط١ ، بيروت / عمان : الأهلية للنشر والتوزيع ، ١٩٩٩ ، ص ٢٤١ - ٢٤٣) .

الذي لم يكتب أي كتاب عن الحرب العالمية الأولى في أي مكان من الدنيا ، إلاّ ويذكر حدث عراقي مجيد بمحاصرة الجيش العثماني في العراق للقوات البريطانية ستة اشهر كاملة في مدينة الكوت عام ١٩١٦ ؟ وهل يعقل ان تمنح بريطانيا مليون باون إسترليني في ذلك الوقت لوالي بغداد ذلك المجاهد الشهير خليل باشا الذي بقي يدافع عن ارض العراق دفاعاً مستميتاً مع جيشه الذي كان اغلب ضباطه وجنوده من العراقيين ؟

٦ - وان تحليلك يا هيكل لمثل هكذا وثيقة كان عقيماً لانك تهرب من «النص» وتعقيداته وتفصيلاته التي تحتاج لمعرفة تاريخية . . لا إلى كلام إنشائي سياسي لا يتصل بمناخ الوثيقة ولا بالبيئة ولا بحياة المرحلة فضلاً عن تفريقك بين كل من عزيز علي المصري ونوري السعيد ، فكلاهما تحاور مع الإنكليز منذ البدايات الأولى ، ولكنك آثرت ان تقول بان عزيز المصري كان متشددا ، وأن نوري السعيد كان معتدلاً (المفاوضات السرية ،١/١٠٣) وكل منهما لم يكن بعد في موقع صنع القرار !

٧ - ويبقى هيكل موغلاً في الأخطاء التاريخية ، وعن سبق قصد وترصد ، فهو يقول مناقضاً كل الحقائق التاريخية التي أظهرها عدد كبير من المؤرخين العرب بشكل خاص : وعندما بدأت الثورة العربية تقترب من مرحلة العمل الفعلي ، كانت العناصر الجديدة في العالم العربي في ميادين القتال في الحجاز ، وفي مواقع عديدة في الشام والعراق بعيدة إلى حد كبير عن المراسلات التي تدور بين الشريف حسين وبين السير هنري مكماهون» (المفاوضات السرية ، ١/١٠٤) .

تساؤلات تبحث لها عن إجابة:

١ / ما المقصود بالعالم العربي كمصطلح نعرفه اليوم ، لكنه لم يكن موجوداً على الأقل إلاّ في الذاكرة القومية الأولى ؟

٢ / كيف لم تعرف أو تدرك العناصر الجديدة في ميادين القتال في الحجاز ، أو في بلاد الشام والعراق عن المراسلات المذكورة ؟ متمنيا على هيكل قراءة التاريخ التفصيلي جيداً ، ومن أبرز الذين كتبوا ذلك : أعمال : محمد امين العمري الذي نشر كتابه «تاريخ المقدرات» بأسم أخيه محمد طاهر ، وجورج انطونيوس ومحب الدين الخطيب

وساطع الحصري ، وتوفيق علي برو ومحمد عزة دروزة وأمين سعيد وسليمان الموسى ويوسف الحكيم ، ومن المحدثين : خيرية قاسمية وزين نور الدين زين وسهيلة الريماوي وغيرهم . (مع التأكيد على كتاب المراسلات التاريخية الذي يتضمن معلومات موسعّة)* .

٣ / هل اطلعت على مأثورات القوميين من الشباب العرب سوريين كانوا أم عراقيين من الذين انتظموا في جمعيات علنية وسرية ، كلها قومية الهدف ، وسياسية المحتوى ، وكانوا على اطلاع كامل بما يجري بين الشريف / الملك حسين بن علي وبين الإنكليز ، ومنهم : عبد الحميد الزهراوي ، وعبد الغني العريسي ، وعبد الكريم الخليل وغيرهم (الذين أعدمهم جمال باشا على دفعتين ، اولاها في عام ١٩١٥ ، وثانيها في عام ١٩١٦) .

٤ / وعندما تعلق بعد ذلك يا هيكل على الأمير عبد الله بن الحسين تذكر بأنه كان «أكثرهم قرباً» من دائرة الاتصالات بين والده وبين القوى العربية المشاركة في الثورة» (المفاوضات السرية ، ١٠٤/١) ، وهذا غير صحيح ، لان الاميرعبد الله كان منشغلاً بالاتصالات مع مصر ، في حين كان الأمير فيصل هو المعول عليه في الاتصالات مع القوى العربية المشاركة في الثورة . وعليه ، فلقد نصب الأخير قائداً عاماً لقوات الثورة التي زحفت من مكة إلى دمشق ، فالأمير فيصل بن الحسين هو الذي دخل دمشق فاتحاً .

٥ / بعد ذلك ، يختصر هيكل عمليات الثورة العربية الكبرى التي دامت قرابة سنتين كاملتين ١٩١٦ - ١٩١٨ في سطر واحد قائلاً : «وكان لورانس يغري فيصل بان يتقدم بما لديه من قوات وبأسرع ما يمكن إلى العقبة ، ومنها إلى دمشق ، وبعدها إلى الإسكندرونة (المفاوضات السرية ، ١٠٤/١) .

٦ / لقد كتبت في «تكوين العرب الحديث» : «لقد تبلورت أسباب تاريخية عدة لاعلان الثورة العربية الكبرى على الاتراك لاسيما بعد أن تم عقد اتصالات واسعة النطاق في دمشق

* سليمان الموسى (محقق) ، المراسلات التاريخية ، المجلد الاول ، عمّان ، ١٩٧٣ .

بيم جمعيتي العربية الفتاة والعهد ، وتم التوقيع على (ميثاق دمشق) سنة ١٩١٥ مثل فيصل بن الحسين والده الشريف حسين بن علي الذي رشحه القوميون العرب زعيما للمستقبل العربي وولادة الثورة المسلحة لما تمتع به من ميزات تاريخية وسياسية وارثية وقومية . .» *

فيصل الاول: مرة أخرى

اختصر هيكل كلامه عن الملك فيصل الاول في أقل من أربع صفحات من كتابه «المفاوضات السرية» . . ووقف عند جزئية تاريخية لم تعد سرية أبدا من حياة فيصل الاول وهو الذي كان له أدواره التاريخية في كل من سوريا والعراق . . وكانت للرجل مفاوضات سرية وعلنية على امتداد حكمه للعراق ١٩٢١ ـ ١٩٣٣ ، فلماذا لم نجدها عند هيكل الذي وقف فقط عند اتفاقية فيصل ـ وايزمن التي يعرفها الجميع ، والتي كتب فيصل بندا ثامنا عليها بخط يده ، اذ قال : «اذا نالت العرب استقلالها كما طلبناه بتقريرنا المؤرخ ٤ كانون الثاني ١٩١٩ المقدم لنظارة خارجية بريطانيا العظمى فأنني موافق على ما ذكر بباطن هذا من المواد . وان حصل أدنى تغيير أو تبديل فلا أكون ملزوما ومربوطا بأي كلمة كانت ، بل تعد هذه هذه المقاولة كلا شيىء ولا حكم لها ولا اعتبار ولا اطالب بأي صورة كانت»** . وكانت مطالبات فيصل المشروطة : تأسيس مملكة عربية مستقلة . .

* سيار الجميل ، تكوين العرب الحديث ، ط٢ (عمّان : دار الشروق للطباعة والنشر ، ١٩٩٧) ، ص ٥٢٣ .
ومن أجل توثيق كلامي ، راجع :
- سليمان الموسى ، الحركة العربية (بيروت : دار النهار ، ١٩٧٧) ، ص ١٢٩ .
- علي سلطان ، تاريخ سورية : حكم فيصل بن الحسين (١٩١٨ - ١٩٢٠) ، (دمشق : دار طلاس ، ١٩٨٧) ، ص ٢٨٠ .
اعتماداً على :
- امين سعيد ، اسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين (بيروت : دار الكتاب العربي ، د .ت .) ، ص ٥٧ .
- فايز الغصين ، مذكراتي عن الثورة العربية ، دمشق ، ١٩٣٩ ، ص ٢٠٥ .
- احمد قدري ، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى (دمشق : مطبعة ابن زيدون ، ١٩٥٦) ، ص٤٦ .

** مجموعة من الباحثين ، تجربة فيصل بن الحسين في سوريا والعراق (سبق ذكره) .

وتمنيت ان يكون كلام هيكل منصفا خصوصا وان تاريخ فيصل الاول والذي لم يكتب حتى يومنا هذا بشكل موضوعي وموثّق وحيادي ونقدي حتى يومنا هذا . . واعتقد أن الاجيال العربية القادمة ستقف عند تاريخ فيصل وقفات مطولة لتقارن بين الذي كتب عربيا عنه عند نهايات القرن العشرين من قبل صحفي معروف هو محمد حسنين هيكل وبين مؤرخ جاد هو خالد زياده (الذي أصدر مؤخرا كتابه الرائع الموسوم : **حكاية فيصل**) * !

لقد كتب هيكل فقرة عندما فكّر في الامر مليا حسب ما يبدو ، فكتب يقول في بداية كلامه عن فيصل ، وبعد أن وجد العرب ان كلا من الانكليز والفرنسيين قد صعقوهم باصدارهم كل من اتفاقية سايكس بيكو عام ١٩١٦ ووعد بلفور عام ١٩١٧ . . يقول : «وكان أول رد فعل للامة هو انها راحت تتلفت بمشاعر يختلط فيها القلق والامل صوب الامراء الهاشميين ، تنتظر ردّهم على الصدمة وتتوقع منهم حلولا لمفاجآت الامور وعواقبها» . ثم يستطرد قائلا : «ومن الحق ان ذلك كان فيه تحميل للامور أكثر مما تحتمل ، ذلك أن المخططات الدولية كانت أقوى من علم ومن طاقة الامراء ، ثم ان الامراء كانوا بشرا يعتريهم ما يعتري البشر من أسباب للضعف والقصور» (**المفاوضات السرية** ، ١ / ١١٨) .

ويورد هيكل نص اتفاقية فيصل - وايزمن التي وقّعت في لندن تمهيدا لمؤتمر الصلح في فرساي في الاسبوع الاول من شهر كانون الثاني / يناير ١٩١٩ ، نقلا عن جورج انطونيوس صاحب كتاب «**يقظة العرب**» The Arab Awakening . لقد اختير الامير فيصل ممثلا عن أبيه في مؤتمر الصلح بباريس عام ١٩١٩ ، بسبب الشرعية السياسية لا الدينية او التاريخية التي اكتسبها اثر دخوله دمشق فاتحا عام ١٩١٨ . . وكان فيصل قد طار صيته في اوروبا . وكان أبوه الشريف حسين قد ارسل اليه ببرقية ضمنها الصلاحيات التي يمنحها له كي يتقيّد بها في مباحثاته اثناء اشتراكه في مؤتمر الصلح** . .

---

* خالد زيادة ، **حكاية فيصل** ، بيروت ، ١٩٩٩ .

** راجع : المراسلات التاريخية (سبق ذكره) ، المجلد (٢) ، عمان ، ١٩٧٥ ، الصفحات : ٤٠ - ٤٧ .
ولمقارنة المعلومات التاريخية ، اشير الى مراجعة الوثائق البريطانية :
British Documents. IIV, Tl. of 10 July 1919 from Faisal to Curzon, see also, *British Documents*, XIII, Tel. dated 27 April 1920 and Letter dated 13 May 1920, pp. 252, 258.

مؤتمر الصلح بباريس ١٩١٩:

جاء في «نصّ» كتبه هيكل : «وقد تمّ خلع فيصل من عرش سوريا بعد مشهد مزعج آخر بدا وكأنه نوع من استجواب متهم في مخفر بوليس . والحقيقة أن المشهد جرى في وزارة الخارجية الفرنسية ـ الـ «كي دورسيه» ـ وقد ذهب اليه الامير فيصل ليشكو من أنه منع من المثول امام مؤتمر الصلح في فرساي لابداء وجهة نظره . وكان الذي التقاه في وزارة الخارجية هو المسيو جان جوت مساعد مدير شئون آسيا في الوزارة . وجرى الحديث بينهما ـ طبقا لمذكرة بخط لورنس قدمت الى وزير الخارجية البريطاني . .» (المفاوضات السرية ، ١٢٥/١) .

متى حدث ذلك ؟ لماذا لم يذكر لنا تاريخ المذكرة بالضبط ؟ وبأي تاريخ ذهب فيصل للـ «كي دورسيه» ؟ هذا تزوير واضح وتشويه للحقائق ، فلقد اشترك فيصل في مؤتمر الصلح وألقى خطابا فيه ممثلا عن أبيه* . . ويكفي هيكل ان لم يصّدق المصادر العربية والبريطانية ، ان يراجع الصحف الفرنسية التي كانت تصدر على امتداد ايام المؤتمر والمحفوظة في جناح الصحف القديمة بالمكتبة الوطنية بباريس . . وكيف كتبت تلك «الصحف» برغم كراهيتها للعرب وهجومها على فيصل وصفا رائعا للامير العربي الذي دخل قاعة فرساي لأول مرة مثيرا الانتباه بزيه العربي المثير خصوصا بعباءته المخملية السوداء وعقاله ذو العقد الكبيرة** . .

أتكذب كل هذه «الحقائق» التاريخية المعروفة عندنا نحن المؤرخين ، ونصّدق بعض الاقوال المنسوبة لمذكرة كتبها لورنس ؟ نتمنى ان ينقل كامل النص الذي كتبه لورنس بالانكليزية ، ويطّلع عليه الناس من خلال صورة عن الاصل ، ثم تعرض الى جانبه ترجمة

---

* راجع : علي سلطان ، «الملك فيصل الاول في سورية : القومية واطماع الغرب» في اعمال ندوة : بناء الدولة العربية الحديثة : تجربة فيصل بن الحسين في سورية والعراق (سبق ذكرها) ، ص ٢٨٣ - ٣٣٩ ، اعتماداً على :

وثائق وزارة الخارجية الفرنسية :

D. F. Aff. Etr, Levant, No. 21, pp. 40 - 1.
D. F. Aff. Etr, Levant, No. 18, pp. 89 - 90.

** من الاهمية مراجعة صحيفة Le Figaro - على سبيل المثال لا الحصر -

له بالعربية . . كي يطّلع القراء على حقيقة النص وتاريخه . . ثم تحليله من خلال البحث عن علاقة لورنس بالحوار الذي جرى بوزارة الخارجية الفرنسية . .

شكّل فيصل وفده ، وعين أخاه الامير زيد نائبا له ، واختار ألمع أعضاء الجمعيات العربية لمرافقته ، وهم : نوري السعيد (عراقي) ورستم حيدر (لبناني) ، وأحمد قدري (سوري) ، وفائز الغصين (من سوريا الجنوبية) ، وانضم عوني عبد الهادي (فلسطيني) الى الوفد بباريس . . وكلهم كانوا من أقدر المستشارين العرب الذين يمثّلون جمعيتي «العهد» العسكرية ، و «العربية الفتاة» المدنية . ولقد دخل فيصل قاعة المؤتمر وكان الى جانبه سكرتيره وكاتم اسراره رستم حيدر . . وكم تمنيت على هيكل أن يقرأ كتاب «**المراسلات التاريخية**»* كي يقف على مستندات وثائقية لكل ما دار من حقائق عند الطرف العربي ، بعيدا عن ذاك الذي سطّره لورنس في كتاباته . . وكيفية اتخاذ فيصل بن الحسين قراراته استنادا الى مستشارين عرب اكفاء كالذين ذكرت اسماءهم في اعلاه** .

الطعن في شرف الأسرة المصرية المالكة:

يعلمنا التاريخ المعاصر في معظم صفحات الامم الحالية الحديثة ، ان مبدأ المواطنة يكتسب بعد مضي سنوات قلائل من بقاء أي انسان على ارض بلاد بعينها ، فيكتسب تلك المواطنة ، متجنسا بجنسيتها ويصبح ممتثلا لقوانينها وتصبح له حقوقه وواجباته فيها . . فكيف اذا ما ولد الانسان في بلاد كان اجداده القدماء قد نزحوا اليها من بيئات بعيدة أو بلدان قريبة ، فهو مواطن بالمولد . . ولا غبار على مواطنته لا من الناحية القانونية ولا من الناحية الاجتماعية ، فهو ابن ذلك الوطن والمحترز على هويته والانتماء اليه .

ويعلمنا التاريخ المصري الحديث ان هجرات واسعة النطاق قد جرت على امتداداته

* حققه ونشره سليمان الموسى بمجلديه الاول والثاني ، عمّان ، ١٩٧٥ .

** ومن الاهمية بمكان مراجعة ما نشر مؤخرا عن اعمال ندوة بناء الدولة العربية الحديثة : تجربة فيصل ابن الحسين في سوريا والعراق (١٣٣٧هـ / ١٩١٨ م - ١٣٥١ هـ / ١٩٣٣م) الذي نظمتها ونشرتها جامعة آل البيت بالاردن ، ١٩٩٩ . وخصوصاً بحث سليمان الموسى : « فيصل بن الحسين : ممثل العرب في مؤتمر السلام ١٩١٨ - ١٩٢٠» ص ١١٩ - ١٤٤ وبحث ممدوح الروسان : «الملك فيصل والوحدة العربية -١٩٣ - ١٩٣٣» ، ص ٤٦٧ - ٥٠٠ .

الزمنية من مصر واليها . . وخصوصا اولئك الذين نزحوا واستوطنوا مصر من بلاد الشام والمغرب والعراق وتركيا واليونان والسودان . . وعاشوا في الكنف الاجتماعي المصري ، وغدوا مع توالي الايام من ابناء مصر الحقيقيين . ولا غرابة في ذلك ، وخصوصا في مصر التي كانت على امتداد التاريخ تستقطب مجموعات وجاليات برا وبحرا ونهرا ، بل وكان اغلب اولئك المهاجرين من القوى الفاعلة . . دافعوا عن مصر ، وارتقوا بثقافة مصر وصحافتها وتجارتها واقتصادها ومجتمعها !

لقد حكمت اسرة محمد علي باشا مصر قرابة ١٥٠ سنة ، أي بين ١٨٠٤ وحتى ١٩٥٢م ، وشهدت مصر ابان حكم هذه الاسرة جملة هائلة من التطورات التاريخية والنهضوية . . فضلا عن مجابهة التحديات الخارجية . . ولكن لم تخل مصر من سلبيات بعض خديواتها . وكثيرا ما أشار هيكل في كتبه بأن هذه الاسرة لم تكن مصرية في حقيقة الامر ، بل كانت غريبة عن المجتمع المصري ! ويأتي هيكل في كتابه «المفاوضات السرية» وهو يكتب عن الملك فاروق بمعلومات لا علاقة لها بموضوع الكتاب ابدا . . وان المعلومات لها مشكلتها ايضا ، فهي تستند في توثيقها على مصدر اجنبي يتيم ، يبدو أنه بحث طويلا كي يكتشف تهما خطيرة بحق شرف الملك فؤاد وولده الملك فاروق . . وبالاخص لكل من الملكة نازلي ام فاروق والملكة فريدة زوجة فاروق ! وان مذكرات اللورد كيلرن ، وهو السير مايلز لامبسون قد ذكرت ذلك !

يبدو ان هيكل قد اكتشف شيئا خطيرا ، اذ يقول : «لقد ترددت كثيرا قبل أن أضع هذه القصة في سياق هذا الكتاب ، لكن مأساة الملك فاروق لا تتضح في كامل أبعادها بدون فجيعته في والدته وزوجته . .» (المفاوضات السرية ، ١ / ص ١٤٩ ، هامش ١) . سؤالي لهيكل : ما نفع هذا والعرب وفي مقدمتهم ابناء مصر يؤمنون «بأن الله أمر بالستر» ؟؟ وسواء كانت المعلومات صحيحة أم مزيفة ، فما فائدتها التاريخية الحقيقية كي تثار مثل هذه المطاعن ضد ملك وأبيه حكما مصر في النصف الاول من القرن العشرين ؟ لقد حكم الرجل ، ولم يوّفق في حكمه وأضاع ملك آبائه اجداده ، وسواء كان الرجل فاسدا أم صالحا . . فلقد ذهب راحلا واصبح في دار الحق . . فلماذا لم يكف البعض عن تجذير المطاعن ، وضد شرفه وأسرته هذه المرة ؟؟

ماذا يمكنني قوله ؟

انني كمؤرخ عربي متواضع اسعى الى الحقيقة ، ولكنني اسعى اليها في بيئتها ، لكي أجدها في وطني . . منقبا عنها من لدن ابناء جلدتي . . ومتعمقا فيها من خلال وثائق بلادي . . اما أن اقتنص ما قاله هذا المندوب السامي أو هذا السفير او هذا الاجير او هذا القنصل وانا اعرف من هو وماذا كان يفعل في بلادي . . وكم كان يختلق من التهم والقصص والاشاعات ضد الزعماء العرب والمسلمين مهما كانت درجة وطنيتهم وكفاءتهم . كي يرضخوا ولكي ينهاروا ولكي يبتزوا . . فهذا ما لا يمكن قبوله في كتاب عنوانه «المفاوضات السرية» !!

هل من الصائب اتهام الملكة نازلي بالخيانة الزوجية والعلاقات غير الشرعية والارتداد عن الاسلام . . واتهام ابنتيها دون مستندات حقيقية ؟؟ وهل بالامكان التعويل على شهادة غير عربي وغير مسلم في هكذا امر خطير يتصل ليس بشرف اسرة حاكمة ، بل بشرف أي اسرة عادية وانسان عادي ؟؟ هل من الانصاف اتهام الملكة فريدة بعلاقات غير شرعية ؟؟ ومن المؤسف ان ليس هناك ادلة عند هيكل عدا رواية يتيمه كتبها واحد من الانكليز في مذكراته ؟

هل يقبل ابناء مصر مهما كانت درجة مقاربته لتاريخ اسرة محمد علي في قبوله لها ام رفضه لها أن تكتب هكذا اتهامات دون أي مستندات رسمية أو شهود شرعيين ؟؟ صحيح ، كان لفاروق فساد وسوء تصرف في نهايات حكمه . . ولكن ليس بالضرورة ان تكون كل من امه وزوجته على هذه الصيغة ؟ وقد انتهى كل شيىء اليوم بعد ان مضى قرابة خمسين سنة على رحيلهم عن ارض مصر ! واعتقد ان الامير احمد فؤاد ابن فاروق والذي يقيم اليوم بباريس ، وقد وجدته من المثقفين الممتازين الممتلئين حبا لمصر والمصريين . . سيجرحه مثل هذا الكلام جرحا عميقا !

ان سؤالين لابد أن أسألهما حول هذا الموضوع ، اولهما لهيكل : اذا كنت مولعا بنشر غسيل الزعماء العرب رجالا ونساء ، فلابد ان تكون عادلا في توزيع التهم وتقوم بنشر غسيل من كان يقف على قيادة اكبر جيش عربي ليلة الخامس من حزيران / يونيو ١٩٦٧

وكشف المزيد من اخبار الليالي الحمراء ، مع ذكر المستندات والوثائق ! وثانيهما لاولئك الزملاء الذين ناقشوا كتاب «المفاوضات السرية» أسألهم : هل تمّت على ايديكم قراءة كل ما كتبه هيكل في مجلداته الثلاثة من هذا الكتاب ؟

نهايات القرن.. هي غير بداياته:

عندما يكتب هيكل في نهايات القرن العشرين عن بدايات القرن العشرين ، وكأن الزمن هو نفس الزمن ، والمناخ الفكري هو ذاته ، والإمكانات وقوى الحياة هي قائمة كما هي ، انه يسقط دون أي وعي أو أدراك بمستويات الماضي ، كل مداركه المعاصرة أو انه يعتمد الإسقاط من اجل تشويه الحقائق التاريخية والتي له القدرة والبراعة في التشويه . ودعوني أناقشه في «نص» بليد كتبه أما بدراية ممعنة في التشويه ، أو كتبه عن جهل فاضح يقول : «عن هذا المنعطف الخطير من التاريخ العربي الحديث لم يكن العرب (أيام الحرب العالمية الأولى) يتفاوضون أو يتحاورون مع العالم باعتبارهم قوة لها رأي ولها دور في مستقبل المنطقة التي يعيشون فيها ، ولقد كان مؤسفاً في تلك اللحظة ان العناصر القومية التي كان يمكن ان تتوفر لديها المعرفة وبعد النظر الكافيان للمشاركة في صنع المستقبل بعدت وغابت» (المفاوضات السرية ، ١/١٠٧) .

من يقرأ هذا «النص» يعتقد بان العرب كانت لهم قدراتهم ووسائلهم وأدواتهم وحتى وعيهم وإرادتهم بعد قرون من الانغلاق والعزلة ، انه منعطف خطير حقاً ، وكان من مقدرات العرب السياسية ان وجدت نخبة سياسية ونهضوية في ان واحد استطاعت بإمكاناتها الهزيلة ، وقدراتها الرثة ، ومباعداتها الواسعة ان تتفاوض وان تتحاور ليس مع العالم كما ذكر هيكل بل مع الإنكليز فقط ، إذ ليست هناك أية حوارات مع الفرنسيين مثلاً ، ومن أين للعرب قوتهم في ذلك الوقت ؟

فمصر التي تسبق كل المناطق العربية برصيدها السياسي وقوتها المثقفة ، وبنيتها التحتية والفوقية لم يكن لابنائها ان يحددوا مقدرتهم ودورهم في مستقبلهم . . ولا يمكننا ان نفرق بين سعد زغلول وفيصل بن الحسين على أساس حسابات ثورية تعلمها هيكل مؤخراً في النصف الثاني من القرن العشرين ، واذا كان لكل منهما دوره التاريخي ، إذ لا يمكننا ان

نفاضل بين زعماء الامس من العرب على أساس ايديولوجي سياسي . .

ولكن يمكننا المقارنة بينهما على أساس معرفي تاريخي ، فوطنية سعد زغلول لا تضاهي بعروبة فيصل بن الحسين والعكس صحيح وكل منهما قد خدم التاريخ من موقعه . . أما ان نقول بان العناصر القومية قد بعدت وغابت للمشاركة في صنع المستقبل فهذا تحريف وتزييف لتاريخنا نحن ابناء العراق وبلاد الشام ، فكل العناصر القومية سواء كانوا من المدنيين أو العسكريين ، بقيت على المسرح تعمل وقد ساهم الجميع في بناء الكيانات الوطنية الجديدة بعد عام ١٩١٩ أما إذا كان عزيز المصري قد ابتعد وغاب فهذه مشكلته في مصر وحدها . . ولا أدري لماذا لم يحدثنا هيكل عن أسباب ذلك الغياب والابتعاد لرجال مصريين من ساسة وعلماء وفنانين ومثقفين كبار . . كان لهم أكبر الاثر في حياتنا التاريخية العربية في القرن العشرين ، أمثال : عزيز المصري وعبد الرزاق السنهوري (الذي أرسى ثوابت القوانين المدنية المستخدمة حتى يومنا هذا في أبرز الدول العربية ابان القرن العشرين) وغيرهما .

ديمغرافية اليهود في فلسطين:

يعد هذا «الموضوع» من أهم المواضيع التي لابد أن يعتني بها المؤرخون العرب ، وخصوصا ما جرى في فلسطين على امتداد القرنين التاسع عشر والعشرين . اذ اننا ما زلنا قليلي المعلومات في هذا الجانب الخطير والذي أولاه المؤرخون الصهاينة اهتمامهم واعمالهم على حساب الحقائق التاريخية العربية .

يقول هيكل : لان اليهود في فلسطين ذلك الوقت (نهاية القرن الثامن عشر) لم يزد عددهم عن الفين ، وبالتحديد وطبقاً لتقرير مرفوع إلى نابليون نفسه من مجموعة ضباط استكشاف سبقت جيشه إلى فلسطين ، هو ١٨٠٠ (منهم ١٣٥ في مدينة القدس) (المفاوضات السرية ، ١/٣٣) هذا كلام خاطئ وكان على هيكل ان يطلعنا ويطلع قرائه على تقرير نابليون ان كان قد اطلع عليه ، فضلاً عن مراجعة كتب متخصصة عن هذا الموضوع*

---

* وخصوصاً ما كتبه :

A.L. Tibawi: *The Islamic Points Foundations in Jerusalem: Origins, History and Usurpation by Israel* (London: The Islamic cultural Center, 1978), pp. 17-22.

وعدد اليهود في فلسطين عند هيكل عام ١٨٤٠ كان (٣٢٠٠) نسمة (المفاوضات السرية ، ٤٦/١) وهذا ليس بصحيح أبدا ، ويكفي معرفة أرقام عدة عن ديمغرافية اليهود في المدن الفلسطينية في كل من المرجعين المذكورين في أعلاه !*

ملاحظات أخرى:

كنت أتأمل أن يسعفني الوقت لأقدم بعض الملاحظات النقدية التي سجلتها على كل من المجلدين الاخرين لكتاب «المفاوضات السرية بين العرب واسرائيل» ، اذ ان هناك اشياء كثيرة لابد من مناقشتها ومتابعتها بعد رصدها وتفكيكها . . وهي ليست خافية عن الزملاء من العلماء والمؤرخين والمختصين العرب في شؤون التاريخ المعاصر . . اذ انني سأكتفي هنا بالذي أوردته في اعلاه من بعض المحطات التاريخية التي اراها مهمة كنماذج وأمثلة أجدها كابحة لجماح المنهج الذي اتبعه هيكل في كتاباته . . كما أؤكد على المؤلف أن يدعم ما جاء به حول هذه القضايا التي طرحناها عليه ، بنسخ مصورة من الوثائق الكاملة . . اذ ما معنى أن ينسخ ويترجم وثائق معينة ، ويتغافل عن وثائق أخرى يدّعي انها تتضمن معلومات خطيرة!؟

وليس لي الا أن أقول بأن الرجل لو اقتصر في كتابته لهذا «الموضوع» الخطير على ما له علاقة أساسية بموضوعه ، وكتبه ضمن خطة منهجية تقوم على أساس التصنيف التاريخي كما هو متعارف عليه عندنا نحن المؤرخين ، بدل ان يكتبه ضمن سياقات الوقوف عند شخصيات فقط ، لكان ذلك افضل بكثير ، كما كان من الافضل الكشف فعلا عن الاسرار التي خبأها التاريخ ، او ما يسمّى بـ «التاريخ السري» بدل الافاضة بما هو معروف ومكشوف من المعلومات ! كما أن المكاشفات للاسرار التي لا يعرفها العرب عن الاخر من الصهاينة هي أجدى لنا من اطلاق التهم والنعوت والمطاعن الشخصية عن الزعماء العرب . . وكلهم اليوم في ذمة الله .

وأخيرا ، اقول بأنني اختلف مع رؤية محمد حسنين هيكل الافقية والمسطحة عن أوضاع

* وثمة معلومات جديدة مستندة إلى وثائق عثمانية ، تدارسناها في : سيار الجميل ، الديمغرافية التاريخية لمدينة القدس وجوارها» ، مجلة الاجتهاد ، العدد (٤٤) ، السنة (١١) بيروت في خريف ١٩٩٩ ، ص ١٤٧- ١٥٠ .

مصر بالذات لما قبل عام ١٩٥٢ ، اذ أن المشروع النهضوي الذي بدأ في مصر مع بدايات القرن التاسع عشر قد أتى أكله عند بدايات القرن العشرين . . واذا كانت كل من السلطة والحكومة المصرية متخلفة او فاسدة في النصف الاول من القرن العشرين . . فان المجتمع المصري عاش أقوى فترات حياته بتبلور قواه الفاعلة ونهضة مصر الادبية والفنية والصحفية . . فضلا عن ولادة مؤسسات اقتصادية رصينة ، ونضوج تقاليد وعادات اجتماعية وثقافية كان لها تأثيرات مباشرة على المحيط العربي . . ناهيكم عن بروز عمالقة في مصر لا يمكن نكران جهودهم ، امثال : احمد شوقي وطه حسين وسعد زغلول ومصطفى النحاس وعبد الرزاق السنهوري وام كلثوم ومحمد علي مشرفه ومحمد شفيق غربال وطلعت حرب واسماعيل مظهر وعباس محمود العقاد . . وعشرات غيرهم من الذين كانت وستبقى اعمالهم علامات بارزة في تاريخ النهضة العربية الحديثة .

الخـــاتمة

الكلمات الأخيرة: استنتاجات نقدية

أهمية الاستنتاجات:

كانت فرصة ثمينة جداً في ان اخضع اعمال الاستاذ محمد حسنين هيكل للنقد والمعالجة من خلال تفكيك النصوص ومراقبة المنهج، ومتابعة التوثيقات والمعلومات، ومن ثم مناقشة بعض ابرز الافكار والمسردات والآراء التي جاء بها الرجل في ابرز كتبه التي نشرها على مدى اكثر من خمس وعشرين سنة تشكل مادتها الخصبة مساهمة مؤثرة في التدوين التاريخي والسياسي المعاصر عند العرب، وخصوصاً في العقدين الاخيرين من القرن العشرين، وبرغم كثرة من كتب نقداً وقدحا أو مفاخرة وتمجيداً للرجل ولاعماله ومواقفه وارائه، إلاّ انها جميعاً مع احترامي لجهود كل من ساهم في كتابتها ونشرها، لا تخرج عن إطارها السياسي الذي كتبت في مخاضه ومناخه أو سعياً وراء تحقيق هدف سياسي معين في جانب واحد أو اثنين فقط من الجوانب الهائلة التي تطرق هيكل للكتابة فيها.

وعليه، فانني أخرج من «تفكيك هيكل»، باستنتاجات ازعم انها مهمة عبر هذه «الرحلة» النقدية التي استفادت من اعمال اخرى كانت معه أو ضده، بقدر ما استفادت اساساً من كتبه واعماله وحتى مقالاته التي عاد ونشرها في اكثر من كتاب له. هكذا، تبدو المحاولة في القراءة النقدية المعمّقة لخطاب محمد حسنين هيكل جد مهمة، كونها أثارت قضايا عديدة، وناقشت نصوصاً متنوعة، وقارنت بين وقائع كثيرة، ولاحقت معلومات مضطربة، وتعمقّت في مواقف متناقضة.. وكشفت عن اتهامات ومزاعم ومطاعن واحكام.. لا حصر لها.

طبيعة الاستنتاجات:

وثمة استنتاجات ازعم انها مهمة يمكننا ان نخرج بها من « **تفكيك هيكل**»، وبعد هذه

الجولة المتعبة والممتعة معاً والتي بقدر ما كنت فيها قاسياً على الرجل ليس على مواقفه السياسية التي لا تعنيني في شيء من الأشياء ، بل على «النص» الذي كتبه ، وقياس مدى صحته أو خطئه فضلاً عن نقد حجم تأثيره في المجتمع العربي المعاصر خصوصاً . . ودعوني اسجل في نهاية المطاف المسائل التالية :

مؤثرات هيكل في الحاضر لا المستقبل:

لا غبار ان محمد حسنين هيكل كان ولم يزل احد ابرز الصحافيين العرب الكبار الذين كان لهم نشاطهم المؤثر على امتداد النصف الثاني من القرن العشرين ، بل ويعده البعض من افضل الكتاب الصحفيين العرب على امتداد القرن العشرين ، نظراً لغزارة انتاجه وعشقه للكلمة ، وتأثيره في اوساط المثقفين العرب . ويكاد يكون هذا الرجل هو الصحافي العربي الوحيد الذي رفد كل من المكتبة والثقافة العربية بهذا الكم الهائل من الكتابات والمدونات والمؤلفات والمقالات وقد وجدنا بان حياته في الكتابة تنقسم إلى قسمين اساسيين : اولهما انتاجه الصحفي المؤثر على امتداد خمس وعشرين سنة (١٩٥٠ - ١٩٧٥) وثانيهما انتاجه في التأليف الواسع على امتداد خمس وعشرين سنة تالية (١٩٧٥ - ٢٠٠٠) .

ولكن ؟ ما كان الرجل ليشتهر مؤلفاً لولا مكانته الصحفية التي بناها في المرحلة الاولى وهي المرحلة الاعلامية المؤثرة ، وخصوصاً على عهد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، إذ خدمه ذلك «العهد» خدمة كبرى ليس في باب الشهرة التي اكتسبها ، بل في حفظ مدونات واوراق ووثائق وتسجيلات ومحاضر على الورق . . وقد حاول انتاجها في المرحلة الثانية من حياته الكتابية كتبا وتأليفا فضلاً عن ذاكرته التاريخية ، ومحاولة توظيفها في المرحلة الثانية بعد ان كان قد بناها في المرحلة الاولى .

وعليه ، فاننا نخرج من «**تفكيك هيكل**» لكي نؤشر فيه جملة من النقدات والاعتراضات والاخطاء والملاحظات والتقويمات والاحكام على الرجل في كتبه وكتاباته التي تعتبر حصيلة المرحلتين الاثنتين المهنية اولاً والتأليفية ثانياً ، ثم مناقشته في كثير من افكاره وآرائه واحكامه التي خرج بها هو نفسه بعد تأليفه تلك الاعمال .

واستطيع القول ، أن تأثير كتب محمد حسنين هيكل كان كبيرا في حاضر التفكير

السياسي العربي المعاصر، ليس في الشارع السياسي وحده، بل حتى عند القادة والزعماء العرب في النصف الثاني من القرن العشرين .. ولكنني أعتقد بأن تأثير هيكل في كتبه على الجيل القادم زعماء ومثقفين وساسة ومواطنين عاديين سيخفت كثيرا، وخصوصا بعد عام ٢٠٠٩، نظرا للمتغيرات الفكرية والسياسية التي سيشهدها العرب، ناهيكم عن تناول العقل العربي القادم لنتاج النصف الثاني القرن العشرين بالنقد والتشريح والتفكيك .. فضلا عن ان الرجل سيترك الساحة لغيره من الذين ستكون لهم آليات ووسائل وأساليب من نوع آخر، حتى وأن اشتركوا في التطلعات نفسها .

طبيعة الكتابة عن الزعماء العرب:

لم اكن سياسيا ولم امتهن السياسة في يوم من الايام، ولم أكن مدافعاً عن احد من الملوك والرؤساء العرب، والذين اتهمهم محمد حسنين هيكل بشتى التهم والصق بهم شتى الصفات والنعوت بقدر ما حاولت البحث عن الحقيقة، والرد على الرجل مناقشاً اياه، ومصوباً بعض اخطائه ! كما تعلمنا ذلك من المنهج التاريخي، بكل ما تقتضيه متطلباته من الحياد والامانة والتدقيق .. ولعل ابرز عقدة تتشابك عندها الاراء وتتصادم فيها الافكار انما تتمحور في جانبين اثنين، أولهما في : كيفية كتابة هيكل لما يحصله من معلومات! وثانيهما في كيفية نسف هيكل لخصومه السياسيين ! خصوصا وقد جاءت توظيفاته المقصودة لها بتعبيرات الكراهية، مع الغموض في الغايات، وسوء الاستخدام الايديولوجي .. وكل ذلك لابد أن ينتفي في الكتابة العلمية ذات الغايات المعرفية البحتة .

لقد وجدنا الرجل وقد استخدم واتبع ايضا الوسائل والاساليب نفسها في اتهام خصومه سواء كانوا من الزعماء أم من الساسة والمسؤولين والكتاب والصحفيين والمفكرين العرب، فعندما وظف اتهاماته من خلال نصوصه ضد كل من الاخوين مصطفى وعلي امين، كان غيره على الطرف المقابل وقد شهروا سيوفهم ضده، فاتهموه هو الاخر بالتهمة نفسها التي رمى بها خصومه واضداده، وعاد بعض الزعماء العرب يتهمونه بتهم شتى فما مضى كل زعيم إلى حتفه حتى شن عليه هيكل حملة ضارية متهماً كل واحد منهم بتهمة اشنع من الاخرى بدءاً بالرئيس السادات وانتهاءً بالملك الحسن الثاني ..

وكان هيكل قد تعرض لزعماء عرب وغير عرب عديدين طاعنا اياهم بشتى التهم وبالقدر الذي كان تأثيره من خلال كتاباته هذه كبيراً وسريعاً في الشارع السياسي العربي كالذي أحدثه كتابه «خريف الغضب» ، من ردود فعل واسعة النطاق ، إلاّ ان لمعانه وبريقه قد خفا كثيراً عند نهايات القرن العشرين !! وهذا ما نلحظه اليوم في مفكراته التي نشرها مؤخراً ضد كل من الملكين العربيين الراحليين : الحسن والحسين . . مقارنة بما كان لكتاباته في الثمانينيات من أصداء واسعة .

العرب وزعماؤهم المحدثين:

لعل أسوأ ما يتصف به العرب عن غيرهم من الامم والشعوب في القرن العشرين زعماء ومواطنين ، ساسة ومستقلين ، مثقفين وعاديين . . ان ليس هناك أي رابطة ثقة (أو كما يسمى : تجسير) بين الحاكم وشعبه الا ما ندر ، مما أنتج فقداناً للاحترام المتبادل . . وكل ذلك مع الاسف بسبب عدم وجود مؤسسات مدنية حقيقية عربية في كل البلدان العربية . . وبعيدا عما نشاهده من تصفيق الجماهير لزعمائهم ، أو استخدام الزعماء مبدأ «الاخوة» و «الاعتزاز» ، الا أن الرابطة الحقيقية مفتقدة ، فان لم يشتم الزعيم في حياته ، فسيشتم بعد مماته . . فالجماهير العربية يتصوّروا بأن الزعامة السياسية مقدسة . . ولما يصّدق بعض الزعماء العرب هذه الاكذوبة ، حتى يبدأوا بالانفصال عن شعوبهم !

ولقد كان الزعماء العرب انفسهم ، السبب في كل العلاقات المتوترة والصاخبة والمضادة وغير المتكافئة . . خصوصا وانهم لم يحترموا بعضهم بعضا في لقاءاتهم او في خطبهم او في مواقفهم . . وقد استخدم بعضهم كلمات نابية وجارحة في خطبهم ازاء البعض الاخر ، مما جعلها مادة دسمة للانقسامات السياسية العربية من جانب ، وشيوع القول الذي ذهب مثلا عند الناس : «اتفق العرب على أن لا يتفقوا» من جانب آخر ! ولقد وجدت هيكل أحد ابرز كـتّاب الانقسامات العربية السياسيين . . وكل شيىء يمكن للانسان أن يتحمّله ويحتمله الا التعّرض للحياة الشخصية . . والتي برع هيكل في تصويرها وباسلوب جذاب !

ويمكنني القول أن هيكل هو أبرز كاتب عربي تعّرض للزعماء العرب بالنقد الجارح والقاء الاتهامات والاحكام السريعة . . التي أجده يتراجع عنها بعد حين ، دون أن يعلن ذلك على

الملأ ! اضافة الى أنه تكلّم كثيرا باسم الزعماء العرب (والبعض من غير العرب) وخصوصا بعد أن يرحلوا الى رحاب الله . . وهم كثر بدءا بجمال عبد الناصر وأنور السادات وصولا الى الملكين الحسن والحسين . . انني اقول ، بأن الكتابات عن الزعامات العربية لابد أن تكون عند مستوى المسؤولية من الناحية السياسية ، واذا ما رحلت أية زعامة عربية ، فستغدو جزءا من تاريخ أمة بكل ايجابياته وسلبياته . وليس من حق أي كاتب عربي ان يتدخّل أو يتطفّل في شؤون أي بلاد عربية أخرى لا يعرف الحد الادنى من المعلومات عنها ، فضلا عن جهله في مشاكلها وأوضاعها وتعقيداتها . .

هيكل: كاتبا مثيرا للجدل

يعد محمد حسنين هيكل كاتباً حاذقا وذكيا ومثيراً للجدل العربي . . فبرغم ما ترجم من بعض كتبه إلى الإنكليزية ، إلاّ ان الجدل حوله ينحسر عربياً ومصرياً فقط ؛ وهو جدلي ليس في جملته الكلية ، بل حتى في جزئياته الصغرى ، ذلك لان حتى عناوين كتبه أو عناوين فصولها وتفريعاتها لها ما يثير العقل والوجدان والتفكير ! وهو جدلي في أسلوبه ، فاسلوب هيكل ليس من النوع السهل ، أو السهل الممتنع ، بل انه أسلوب متميز بتعابيره ومرادفاته وتفننه التي لا يجيد العمل بمثلها إلاّ هو نفسه . وهو الذي يتقن عملية كتابة «الأسلوب الموارب» غير المباشر مع قدرته في أماكن اخرى على الكتابة بالاسلوب الواضح المباشر ، وبمراقبة ذلك في كتب الرجل ، فسيخرج القارئ بان ثمة شيء وراءه ، وليس هناك أي أشياء! فقط لانه أراد ان يثير جدلاً في التفكير ، وجدلا في الواقع ، وجدلا في أروقة السياسة ، وجدلا بين الزعماء ، وجدلاً في الشارع والمقهي ، وجدلاً في الكواليس وجدلاً عند العام وجدلاً عند الخاص ، وجدلاً في الجغرافية ، وجدلاً في التاريخ .

لقد وجدت من خلال تجربتي النقدية المتواضعة في «تفكيك هيكل» ان هناك جماعات ونخب ومثقفين وشرائح متنوعة في المجتمع العربي . . كما أن هناك زعامات وقيادات وشخصيات عليا ومسؤولين في دول عربية . . تتابع ما يكتبه وينشره محمد حسنين هيكل منذ زمن طويل . . وأنني أتساءل عن سر اهمال اولئك في المجتمع وهؤلاء في السلطة لكل كتاباته في مقالاته وكتبه خصوصا وانه قد نال كثيراً من انظمة وزعامات وتواريخ

ومجتمعات وتقاليد ؟ وان ثمة اشياء كثيرة تختص ببلدان عربية معينة ومكانتها في الحاضر والمستقبل .

هيكل بين نزعتين اثنتين: مصرية وقومية

لقد طغت الفكرة السياسية عند محمد حسنين هيكل على نزعتين أثنتين وخطيرتين على تفكيره الذي عبر عنها في كتاباته السياسية التي عالجنا مضامينها ، او حواراته التي اجراها ، او نصوصه التي كتبها ، او احكامه التي أطلقها . . فهو يؤمن بالفكرة السياسية المسيطرة عليه قبل ايمانه بمصر تاريخا وفكرا ومجتمعا وديمقراطية . . وهو من جانب آخر ، يؤمن بمصر مرحلة وسياسة وزعامة قبل ايمانه بالامة العربية والقومية العربية والمصالح المصيرية العربية جغرافية ومستقبلا ومصيرا . . اذ توّضح كل ذلك من خلال التحقيق النقدي المقارن في كل الذي كتبه وانتجه على امتداد خمسين سنة من حياته في الصحافة والتأليف . .

فليس من الموضوعية والاستقلالية والامانة التاريخية ان يكون الكاتب انتقائيا ، كي يوظف مسردات واخبار تضم ابرز التشوهات والطعونات عن اسر حاكمة ومالكة . . وعن زعماء مصريين وعرب ، ويتم من خلالها توزيع الاتهامات ورسم صور من الاحقاد والكراهية على حساب رسم صورة متكاملة الخطوط والالوان والظلال ، واعطاء كل ذي حق حقه ! وليس من الامانة ان نشيع المطاعن - مثلا - الى شرف ملكتين مصريتين معتمدين فيها على كتابات جواسيس انكليز ، ونتغاضى عن ذكر الليالي الحمراء لأحد المسؤولين العرب عن هزيمة الخامس من حزيران / يونيو ١٩٦٧ ؟؟

الأسلوب هو الرجل:

وثمة ملاحظة أو اكثر يمكن لاي قارئ متابع وناقد متفحص ان يجدها في نصوص كتب هيكل ، فهو الذي لم تسلم كتابته ابداً من بعض الاخطاء اللغوية والنحوية والاملائية ، وهو المعجب جداً بـ «وقتها» ، و «يومها» ، و «ساعتها» الخ ، بدل ان يقول «وقت ذاك» و «يوم ذاك» ، و «ساعتئذ» الخ . ناهيكم عن ان اسلوبه هو اسلوب مرحلته التاريخية ، إذ ان جماليته قد تنوعت فيها الانفاس القديمة التي كانت لدى الكتاب العمالقة في مصر

ابان ما بين الحربين العظيمين إذ نشأ وتكون الرجل في خضم مؤثر كهذا ، ثم انه دمج بعد ذلك جملة من المصطلحات الجديدة وكان ماهراً جداً في استخدامها فبدا اسلوبه مطعماً بالالفة اللغوية لاصحاب القلم الادبي الرشيق مع التعشيق لجملة واسعة من التجديد في العبارة .

ولقد لاحظت وانا اخرج من «تفكيك هيكل» ، ان ثمة اختلافات في الاسلوب بين كتاب واخر ، فمثلاً لا يمكننا ان نجد ثمة تشابه بين اسلوب هيكل في «سنوات الغليان» مقارنة لما هو عليه في «ملفات السويس» ، مقارنة كما انتهى إليه في «المفاوضات السرية» ، أو «العروش والجيوش» . . فلا ادري هل هو المناخ السياسي المؤثر على هيكل ، أم هي الحالة النفسية التي يمر بها الرجل في تأليف أي كتاب من كتبه ، أم انها كتابات مؤسسة مطعمة لا تحريرات مؤلف محترف ؟

فضلاً عما وجدناه من اختلافات في اسلوب هيكل بين الذي يحرره عربياً ، وينشره على الملأ وخصوصاً ذاك الذي يضم تعبيرات خصبة من المشاعر والاوصاف والانشاء وكلها اجدها تكاد تكون مفتقدة في بعض كتبه التي نشرت باللغة الانكليزية وكان الله في عون اولئك المترجمين الذين ذكر بعضهم في مقدمة كتابه «المفاوضات السرية» ، لان بعض عباراته بالعربية لا يمكن ترجمتها حرفياً إلى الانكليزية إذ لا يمكن لها ان تنتج بعد ذلك شيئاً !

الإرث الكتابي لهيكل:

برغم جدلية هذا الرجل ، وبرغم ميزاته وصفات كتاباته الصحفية والسياسية ، فلقد تنوع الارث الكتابي لمحمد حسنين هيكل كثيراً ، ولكن غلبت عليه الادبيات السياسية عندما كان صحافياً ، ولكن ما ان تحول إلى التأليف التاريخي - برغم تواضعه عدة مرات باعلان نفسه صحفياً وليس مؤرخاً - ، ولكنه قدم كتابات تاريخية كثيرة مثيرة ، يمكنها ان تحسب له هو شخصيا على مأثور تاريخ العرب المعاصر ، ذلك لأنه لم يكن كاتبا أو مفكرا موسوعيا ـ اذا جاز لي توصيف كتاباته التي أخضعتها للنقد والتفكيك ـ . ولقد كنا نخرج من أي فصل من فصول «تفكيك هيكل» باستنتاجات واضحة عن مضامين لم تصل إلى

مصاف الكتابات العلمية في كتابه التاريخ المعاصر .

وعليه ، فان تأثيراتها سلباً اكثر بكثير من ايجابياتها المعرفية حصرا ! علما بأنني أخضعت كل ارث هيكل الكتاب للنقد والمعالجة ، وخصوصا كتبه التي أجدها مؤثرة جدا على الذاكرة التاريخية للامة . . وان هذه الحصيلة النقدية التي ناقشت فيها محمد حسنين هيكل ، اعدها محاولة او بداية اولى لمعرفة نقدية أوسع يقوم بها غيري في المستقبل . . واذا كنت قد اقتصرت على جوانب معينة وأساسية في النقد والنقاش ، فان هناك ركاما اخر من المعلومات والاراء والافكار والمسردات التي تنتظر المكاشفة والنقد والمعالجة النقدية كيف ؟

استنتاجات نقدية محددة:

لم يتوقف امر هذا العامل على تاريخ العرب المعاصر وحده . . فثمة ملاحظات واستنتاجات من نوع اخر ، يمكننا تسجيلها هنا :

١ / كثيراً ما ادخل الرجل نفسه في قضايا تاريخية وجغرافية معقدة لا علاقة لها ابداً بعمله ، ولا بمواضيعه التي يكتب فيها ! وعليه ، وما دام لم يسيطر على ما يكتبه من تواريخ قديمة ووسيطة وحديثة ، ومن معلومات جغرافية محددة . . فان اخطاءه تزداد بطبيعة الحال .

٢ / ان ابرز مشكلة تعاني منها كتاباته التي انتجها للحاضر والتاريخ هي : التوثيق ، إذ ان الرجل لا يعرف كيف يوثق كتاباته ، إذ تراه يكتب معلومات لا ندري مدى صحتها من خطئها ، وهي دون توثيق في مصادر حيوية تتصل بالحدث المباشر نفسه . وبرغم ملاحق وثائقه في البعض من كتبه ، الا أن عملية «التوثيق» مهمة صعبة ودقيقة لم ينجح هيكل في أدائها .

٣ / لم يلتفت الرجل - كما عرفنا - إلى مجهودات غيره من العلماء والمؤرخين والمفكرين العرب ، كما وأنه لم يستفد من نصوصهم واقوالهم واعمالهم في تأليف كتبه ، أو استشارة ما يمكنه الوقوف عليه . . وعندما ينقل مروياته لا يسندها بسند ، ولا يدعمها بتوثيق ولم يدقق صوابها من خطئها ! .

٤ / ومرة أخرى : كثيراً ما افرد ملاحق متنوعة في نهايات كتبه المشهورة باعتبار ان هذه

الملاحق تضم نسخاً مصورة من الوثائق التي اعتمد عليها ، والان نستنتج ان الوثائق المهمة التي الحقها في نهايات بعض كتبه قليلة ، وقليلة جداً إذ ان اغلب من يدعيه من وثائق كان قد أخذها أو ما زال يأخذها من هيئة المخابرات المصرية ! .

٥ / يقف الرجل في اغلب الاحيان عند زاوية محددة ومعينة . . وخصوصا في تناوله بعض الزعماء والقادة العرب . . كي يوّسع تلك «الزاوية» على حساب تاريخ أي واحد منهم بجملته كاملا . وان هكذا كتابة قد أضرت بتاريخنا العربي المعاصر ، ذلك ان الرؤية التاريخية لا تقتصر على محددات معينة لاطلاق الاحكام القاسية ، اذ لابد من استحضار الكليات من خلال السيطرة على كل الجزئيات .

٦ / لقد كانت طبيعة المرويات عند الرجل متفاوتة بين ما توثيقي مجتزىء ، وبين ما هو نقولات غير مؤكدة . . عن مساحة زمنية لم تدخل بعد في حزمة التاريخ . فليس من الامانة اذن تقديم ركام من الاتهامات والادانات ، والا تغدو الكتابة سياسية محضة . . وكان على الرجل أن يتأكد من الروايات من خلال المقارنات والمقابلات والتوثيقات كونها معلومات لا حقائق ، ثم يكتبها للاجيال القادمة كي تقول كلمتها فيها .

٧ / لقد كان الرجل حريصا جدا على ان يسجل اخبار مقابلاته وحواراته مع العديد من الزعماء العرب والاجانب . . وهم كثرة كما وجدناهم في «تفكيك هيكل» وهناك غيرهم . ولكن ثمة تناقضات قد حكمت المعلومات التي استشهد بها ، او في حبكة كتاباته لها ، وبعضها كثير جدا جاءت بعد وفاة اصحابها ، ولم تكن في حياتهم . . مما يثير ذلك جملة كبيرة من التساؤلات النقدية .

٨ / ثمة استنتاج خطير ومهم في ذات الوقت خصوصا ذاك الذي يتعلق باعتماد الرجل على مقولات وكتابات ومذكرات : كتاب وصحافيين وساسة غربيين ، والقاء صفة الاسطورية والمكانة الكبيرة لهم . . وأخذ بعض ما كتبوه ونشروه على محمل الجد والصدق والامانة ، بعيدا عن المصادر العربية التي هي اقرب الى الحدث والواقعة والمناخ العام .

٩ / ان أبرز اشكالية عند هيكل . . لابد أن يلتفت اليها النقاد والمحللون العرب في المستقبل ، أنه يفكّر سلبا في كل ما هو عربي انتجه العرب في التاريخ ، وخصوصا في

تاريخهم الحديث ، وهو لا يطمئن الى أي سياسة او قرار او حوار او مفاوضات او حركة او خطاب او نتاج . . الخ مهما كانت طبيعته التاريخية والفكرية والسياسية ، اذ يقلل من شأنها جدا حتى تلك التي تأتي من قبل تقدميين وقوميين عرب ! وليفحص القراء الكرام ذلك مقارنة باعجابه الشديد لكل ما يأتي به الغربيون : زعماء وقادة وساسة وصحافيين (اسطوريين) ومنهم صهاينة وجواسيس وسفراء ومتآمرين !

١٠/ انني لا أشك ابدا بولاء ومحبة وعلاقة هيكل بالرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، وقد مضى على وفاة عبد الناصر قرابة ثلاثين عاماً . . لم يزل أسمه وخطابه ومواقفه محفورة في الوجدان العربي والذاكرة السياسية العربية حتى يومنا هذا . . ولكن الزمن اختلف كثيرا عما كان عليه العرب والشأن القومي العربي باختلاف الشأن الاقليمي والاسلامي والدولي . .

واقول بصراحة وانا انهي هذا العمل بأنني لست مع الذين اختلفوا مع محمد حسنين هيكل سياسيا ، واتهموه بشتى النعوت والاتهامات ، اذ لست الا ناقد لمؤلفات الرجل !

واخيرا أقول ، بأن هذه التجربة النقدية التي أسميتها بـ «تفكيك هيكل» لم تنقص من قدر الاستاذ محمد حسنين هيكل ، ولا من مكانته العالية ، ولا من شخصيته المتميزة في حياتنا الفكرية العربية المعاصرة . . ولم تكن الا مناقشة في النصوص التي كتبها ، وما هذا «الكتاب» الا رؤية نقدية مختلفة في المواقف التي اتخذها ، وتصويب لبعض المعلومات التي أخطأ فيها . . وأقول لكل القراء الكرام بأن ليس هناك أي مسألة شخصية بيني وبين الرجل ، ولم أكن الا ذلك المتابع لمقالاته والمعجب بكتبه منذ أكثر من ثلاثين سنة . . وان اختلافي اليوم مع افكاره ونصوصه او منهجه وكتاباته . . دليل صحة على ان هناك مهتم بها سطرا سطرا ، وناقداً لها فقرة بعد اخرى . . وأعود وأقول بأن هذه التجربة النقدية المتواضعة التي ناقشت بها اشكاليات محمد حسنين هيكل ، ما هي الا محاولة معرفية صرفة . . لكنها لا تخلو من أفكار وآراء ومقارنات سياسية بحكم دراستي للتواريخ السياسية المعاصرة .

المصادر والمراجع

١. الوثائق العربية المستخدمة (المنشورة وغير المنشورة):

- وثيقة اشتراطات الامير فيصل بن الحسين بخط يده على محضر اجتماع فيصل ـ وايزمن في لندن، وثائق وزارة الخارجية البريطانية / لندن.

F.O. 371/4182 / p.421.

- ملفات البلاط الملكي العراقي (الديوان) ـ الوثائق المحفوظة في دار الكتب والوثائق ببغداد، رقم الملف ٤٤٩٣ (موضوع: ميثاق الحزب العربي القومي).
- ملفات البلاط الملكي العراقي (الديوان) ـ الوثائق المحفوظة في المركز الوطني للوثائق ببغداد، رقم الملف ة / ٧/٦ (موضوع: مشروع سوريا الكبرى).
- ملفات البلاط الملكي العراقي (الديوان) ـ الوثائق المحفوظة في المركز الوطني للوثائق ببغداد، رقم الملف ة /١/٦/٢/١ (تقارير المفوضية العراقية في جدة).
- كتاب وزارة الخارجية العراقية الى وزارة الدفاع/سري/الرقم ٤/١٢/٦٠٠ بتاريخ ٨ آذار ١٩٦٠.
- قرارات مجلس الوزراء العراقي لعام ١٩٥٩، ملف رقم ٣/١ لعام ١٩٥٩.
- مديرية الدعاية العامة، فيصل بن الحسين في خطبه وأقواله: ومضات من سيرة الملك الزعيم مؤسس مملكة العراق ومنشئ الجامعة العربية (بغداد: مطبعة الحكومة، ١٩٤٥).
- الحكومة العراقية، دليل المملكة العراقية لسنة ١٩٣٥ - ١٩٣٦، بغداد ١٩٣٥ (القسم المخصص لسير وتراجم الشخصيات العراقية).
- وزارة الدفاع / العراق (مديرية التطوير القتالي)، تاريخ القوات المسلحة العراقية، ج١، ط١، بغداد، ١٩٨٦.
- جامعة الدول العربية، محاضر اللجنة التحضيرية للمؤتمر العربي العام، ج ٢، القاهرة، ١٩٦٩.
- وثائق وزارة الخارجية المصرية، الجامعة العربية، محفظة ٢١٩، ملف ٥، ج ١.
- المراسلات التاريخية، جمعها ونشرها: سليمان موسى، المجلد (١)، عمّان / الأردن ١٩٧٣.
- الوثائق الهاشمية: الجامعة العربية، المجلد الرابع، بإشراف: محمد عدنان البخيت

(عمّان : منشورات جامعة آل البيت ، ١٩٩٤) .
- **الوثائق الهاشمية : فلسطين (١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م)** ، **المجلد الخامس / القسم الاول** ، باشراف : محمد عدنان البخيت (عمّان : منشورات جامعة آل البيت ، ١٩٩٥) .
- **الوثائق الهاشمية : الإدارة الأردنية في فلسطين ١٩٤٨ ـ ١٩٥١م** ، **المجلد السادس** ، بإشراف : محمد عدنان البخيت ، (عمّان : منشورات جامعة آل البيت ، ١٩٩٥) .
- **الوثائق الهاشمية : وحدة الضفتين ١٣٦٥ ـ ١٣٧٠ هـ / ١٩٤٧ـ ١٩٥٠م** ، **المجلد الحادي عشر** ، بإشراف : محمد عدنان البخيت ،(عّمان : منشورات جامعة آل البيت ، ١٩٩٨) .
- **الوثائق الهاشمية : جريدة العاصمة (جريدة الحكومة الرسمية)** التي أصدرتها الحكومة العربية بدمشق وصدر عددها الأول في ١٩١٩/١٢/١٧ مع ثبت بالأعداد المعتمدة منها ، والمنشورة أعدادها كاملة بمجلدين كبيرين ضمن سلسلة الوثائق الهاشمية بإشراف : محمد عدنان البخيت ، جمع واعداد : هند أبو الشعر وآخرون (المطبعة الهاشمية ، جامعة آل البيت / الاردن ، ١٩٨٨) .
- **المحاضر الرسمية لمفاوضات النحاس وصلاح الدين مع المارشال سليم (الكتاب الأبيض المصري)** (القاهرة : وزارة الخارجية المصرية ، ١٩٥٤) .
- **خطب الرئيس جمال عبد الناصر** ، (القاهرة : وزارة الإعلام : الهيئة العامة للاستعلامات ، د . ت .) .
- العراق (وزارة الدفاع : اللجنة العليا للقوات المسلحة) ، **محاكمات المحكمة العسكرية العليا الخاصة (٢٢ مجلدا)** ، بغداد ١٩٥٨ – ١٩٦٢ .
- مركز الأهرام ، **محاضر محادثات الوحدة** ، القاهرة ، ١٩٦٣ .
- وزارة التخطيط ، **تقييم النمو الاقتصادي في العراق ١٩٥٠ ـ ١٩٧٠** ، مجلدان ، حرره : هاشم جواد وآخرون ، بغداد ، د . ت .
- المملكة الأردنية الهاشمية ، **الكتاب الأبيض : الأردن وأزمة الخليج آب ١٩٩٠ – آذار ١٩٩١** (عمّان ، ١٩٩١) .
- **تقرير طاقم مركز الأبحاث الاستراتيجية الإسرائيلي في يافا** ، ترجمة : بدر عقيلي ، عمّان ، ١٩٩٣ .

١. الوثائق الاجنبية المستخدمة (المنشورة وغير المنشورة):

- British Documents.IIV, TI. Of 10 July 1919 from Faisal to Curzon. -
British Documents. XIII, Tel. Dated 27 April 1920 and dated 13 May 1920.
The Arab League: British Documentary Sources 1943 - 1963, Ed. by Anita L. P. Burdett, **Vol. 3 Preliminary talks 1943 - 1944**, vol. 4 Inauguration 1944 - 1946, vol 5 1946 - 1947, vol 6 1948 - 1950, Archive Editions 1995.
- **Records of Jordan 1919 - 1965,** vol. 6: 1948 - 1950, Ed. by Jane Priestland, Archive Editions 1996.
- **Israel: Boundary Disputey with Arab Neighbours 1946 - 1964,** Ed. by Patricia Toye and Angela Seay, Vol. 2: 1948 - 1950, Archive Editions 1995.
- **Ruling Families of Arabia : Saudi Arabia: The Royal Family of Al - Saud,** vols. 1-2, Ed. by A de L. Rush, Archive Editions 1991.
- **Ruling Families of Arabia : Jordan: The Royal Family of Al - Hashim,** vol. 1, Ed. by A. de Rush, Archive Editions 1991.
- (The National Archives of the United States), Washington, D.C., Records of the Department of State Relating to Internal Affairs of Asia, 1910 - 1929, Record Group R. G. no. 58-9, **Syria.**
- **Rrcords of Hashimite Dynasites** (RHD) vol. 2, The Reign of King Faysal I of Iraq, Ed. by Alan de Rush, Archieve Edition, 1995.
- Royal Institute of International Affairs, **The Baghdad Pact: Origins and Political Setting** (London: author, 1956).

٣. الجرائد والمجلات المعتمدة:

جريدة العاصمة ، دمشق ، العدد (٦٩) ، ٢٣ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١٩ .
جريدة الدفاع ، دمشق ، العدد (٣٤) ، ٩ شباط/فبراير ١٩٢٠ .
جريدة الأهرام ، القاهرة ١٨ اكتوبر ١٩٦٨ (مقالة هيكل عن المجتمع المفتوح) .
جريدة الأهرام ، القاهرة ١٩٧٢/١١/٢٤ (مقالة هيكل : الانزلاق على الجليد الذائب) .
جريدة الأهرام ، القاهرة ١٩٧٣/١١/٤ (مقالة هيكل :الدور الأمريكي : قيمته وقدرته) .
جريدة أخبار اليوم ، القاهرة ١٩٩٠/٤/١٤ .
جريدة الأهرام ، القاهرة ١٩٦٦/١٢/٢٣ (حول خطة القيادة العربية الموحدة) .
جريدة الأهرام ، القاهرة ١٣ نوفمبر ١٩٧٣ (مقالة هيكل : سؤال) .

جريدة الأهرام ، القاهرة ٢١ ابريل ١٩٧٧ .
جريدة االأهرام ، القاهرة ١٩٩٢/٧/١٥ .
جريدة الجمهورية ، القاهرة ١٩٩٢/٧/١٦ .
مجلة صباح الخير ، القاهرة ١٩٩٠/١١/١ .
مجلة آفاق عربية ، بغداد (أعداد أغسطس ١٩٧٨ ، أكتوبر ١٩٧٨ ، ديسمبر ١٩٧٨) .
المجلة التاريخية المغربية (الأعداد الكاملة ، تونس - مركز سيرمدي ومؤسسة فترسي) .
المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية (الأعداد الكاملة ، تونس - مركز سيرمدي ومؤسسة فترسي) .
مجلة المستقبل العربي ، بيروت العدد (٢١٤) ، كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٦ .
مجلة الحوادث اللبنانية (أعداد مختلفة) .
٤. كتب المذكرات السياسية:
الاورفلي ، جميل **لمحات من ذكريات وزير عراقي سابق** (بيروت : منشورات دار الحياة ، ١٩٧١) .
ايدن ، انتوني **مذكرات انتوني ايدن** ، القسم الأول ، ترجمة : خيري حماد ، (بيروت : دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر ، ١٩٦٠) .
بابان ، أحمد مختار **مذكرات . .** ، اعداد وتقديم : كمال مظهر (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٩٩) .
الباجه جي ، مزاحم **مذكرات سيرة سياسية** ، تقديم : عدنان الباجه جي (لندن : منشورات مركز الوثائق والدراسات التاريخية ، ١٩٨٩) .
الجمالي ، محمد فاضل **العراق الحديث** ،(بيروت/ ١٩٦٩) .
جميل ، حسين **العراق : شهادة سياسية ١٩٠٨ - ١٩٣٠** (لندن : اللام ، ١٩٨٧) .
جودت ، علي **ذكريات ١٩٠٠ - ١٩٥٨** ، ط ١ (بيروت ، ١٩٦٥) .
الحسن الثاني (الملك) **انبعاث أمة** (٤٠ مجلدا) ، (الرباط : مطبوعات القصر الملكي ، ١٩٩٣) .

—— التحدّي ، ط٢ (مترجم عن الفرنسية) (الرباط : المطبعة الملكية ، ١٩٨٣) .

(الملك) الحسين (ملك المملكة الاردنية الهاشمية) ، مهنتي كملك : أحاديث ملكية ، نشرها بالفرنسية : فريدون صاحب لجم ، ترجمة : غازي غزيل ، مراجعة : محمد عزت نصر الله (عمّان : الاهلية للنشر والتوزيع ، ١٩٨٧) .

حيدر ، رستم مذكرات رستم حيدر ، حققها وكتب مقدمتها : نجدة فتحي صفوت (بيروت : الدار العربية للموسوعات ، ١٩٨٨) .

السادات ، أنور قصة الثورة كاملة(القاهرة : دار الهلال ، ١٩٦١) .

—— البحث عن الذات ، القاهرة ، ١٩٧٥ . (انظر أيضا : المراجع المساعدة بالإنكليزية والفرنسية) .

السويدي ، توفيق مذكراتي : نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية ، ط١ ، (بيروت : دار الكاتب العربي ، ١٩٦٩) .

السهروردي ، نجم الدين التاريخ لم يبدأ غدا ، ط ٢ ، بغداد ، ١٩٨٩ .

الراوي ، ابراهيم ذكريات : من الثورة العربية الكبرى الى العراق الحديث ، بيروت ، ١٩٦٩ .

عبد الناصر ، جمال فلسفة الثورة ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

العسكري ، جعفر مذكرات جعفر العسكري ، تحقيق وتقديم : نجدة فتحي صفوت (لندن : دار اللام ، ١٩٨٨) .

الغصين ، فايز مذكراتي عن الثورة العربية ، دمشق ، ١٩٣٩ .

قدري ، أحمد مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى (دمشق : مطبعة أبن زيدون ، ١٩٥٦) .

كّنه ، خليل العراق : أمسه وغده ، بيروت ، ١٩٦٤ .

نجيب ، محمد كلمتي للتاريخ (القاهرة : دار الكتاب النموذجي ، ١٩٧٥١) .

—— كنت رئيسا لمصر (القاهرة : المكتب المصري الحديث ، ١٩٨٤) .

٥. مؤلفات محمد حسنين هيكل (بالعربية) :

هيكل ، محمد حسنين ، **إيران فوق بركان** ، القاهرة ، ١٩٥١ .

ـــــ ، **العقد النفسية التي تحكم الشرق الاوسط** (القاهرة : الشركة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٥٨) .

ـــــ ، **أزمة المثقفين** (طبعة اولى ووحيدة نشرت ببيروت من دون ذكر أي ناشر عام ١٩٦١) .

ـــــ ، **ما الذي جرى في سوريا** ، ط ١ (القاهرة : الدار القومية للطباعة ، ١٩٦٣) .

ـــــ ، **نحن وأمريكا** (القاهرة : دار العصر الحديث ، ١٩٦٧) .

ـــــ ، **خبايا السويس** (القاهرة : دار العصر الحديث ، ١٩٦٧) .

ـــــ ، **بصراحة : الساعات الـ ٤٣ الأخيرة في حياة الزعيم الراحل جمال عبد الناصر** (القاهرة : الأهرام ،١٩٧٠) .

ـــــ ، **أعمال المؤتمر الصهيوني السابع والعشرين ١٩٦٨** ،جزءان ، (بيروت : مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ١٩٧١) .

ـــــ ، **عبد الناصر والعالم** (بيروت : دار النهار ، ١٩٧٢) .

ـــــ ، **عند مفترق الطرق : حرب أكتوبر : ماذا حدث فيها . . وماذا حدث بعدها** ، ط١ (بيروت : شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ،١٩٨٣) .

ـــــ ، **وقائع تحقيق سياسي أمام المدعي العام الاشتراكي** ، ط ٣ (بيروت : شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، ١٩٨٣) .

ـــــ ، **بين الصحافة والسياسة : قصة (ووثائق) معركة غريبة في الحرب الخفية** ، ط ٣ (بيروت : شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، ١٩٨٤ .

ـــــ ، **أحاديث في آسيا** ، بيروت ، د . ت .

ـــــ ، **قصة السويس : آخر المعارك في عصر العمالقة** ، ط ٧ (بيروت : شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، ١٩٨٦) .

ـــــــ ، زيارة جديدة للتاريخ ، ط ٦ (بيروت : شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، ١٩٨٧) .

ـــــــ ، حديث المبادرة ، ط ٩ (بيروت : شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، ١٩٨٧) .

ـــــــ ، لمصر لا لعبد الناصر ، (ط ١ في مصر) (القاهرة : مركز الاهرام للترجمة والنشر ، ١٩٨٧) .

ـــــــ ، أحاديث في العاصفة (بيروت / القاهرة : دار الشروق للنشر والتوزيع ، ١٩٨٧) .

ـــــــ ، السلام المستحيل والديمقراطية الغائبة : رسائل الى صديق هناك ، ط ٦ (بيروت : شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، ١٩٨٨) .

ـــــــ ، مدافع آية الله : قصة ايران والثورة ، ط ٤ (القاهرة : دار الشروق ، ١٩٨٨) .

ـــــــ ، خريف الغضب ، (ط١ في مصر) (القاهرة : مركز الاهرام للترجمة والنشر ، ١٩٨٨) .

ـــــــ ، الحل والحرب ا ، ط ٨ (بيروت : شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، ١٩٨٨) .

ـــــــ ، ملفات السويس : حرب الثلاثين سنة ، ط ١ (القاهرة : مركز الاهرام للترجمة والنشر ، ١٩٨٦) .

ـــــــ ، سنوات الغليان (الجزء الأول) ، ط ١ (القاهرة : مركز الاهرام للترجمة والنشر ، ١٩٨٨) .

ـــــــ ، الانفجار ١٩٦٧ : حرب الثلاثين سنة ، ط ١ (القاهرة : مركز الاهرام للترجمة والنشر ، ١٩٩٠) .

ـــــــ ، أكتوبر ٧٣ : السلاح والسياسة ، ط ١ (القاهرة : مركز الاهرام للترجمة والنشر ، ١٩٩٣) .

ــــــــ ، مصر والقرن الواحد والعشرون : ورقة في حوار ، ط ١ (القاهرة : دار الشروق ، ١٩٩٤) .

ــــــــ ، ١٩٩٥ : باب مصر الى القرن الواحد والعشرين ، ط ١ (القاهرة : دار الشروق ، ١٩٩٥) .

ــــــــ ، العروش والجيــوش : كذلك أنفجـر الصراع في فلسطين : قراءة في يوميات الحرب ، ط ٥ (القاهرة : دار الشروق ، ١٩٩٦) .

ــــــــ ، المفاوضـات السرية بــين العرب وأســـــرائيل (الكتـاب الاول : الاسطورة والامــبــراطورية والدولة اليــهــودية) ، (القــاهرة : دار الشروق ، ١٩٩٦) .

ــــــــ ، المفاوضـات الســـرية بين العـرب وإسرائيل (الكتـاب الثـــاني : عـواصف الحـرب وعـواصف الســلام) (القـاهرة : دار الشــروق ، ١٩٩٦) .

ــــــــ ، المفاوضات السرية بـين العرب وإسرائيل (الكتاب الثالث : سلام الاوهام : أوسلو - ما قبلها وما بعدها) (القـاهرة : دار الشـروق ، ١٩٩٦) .

ــــــــ ، أزمة العرب ومستقبلهم ، ط ٣ (القاهرة : دار الشروق ، ١٩٩٧) .

ــــــــ ، الخليج العـــربي . . مكشوف : تداعيات تفجيرية نووية في شبه القارة الهندية ، ط ١ (القاهرة : دار الشروق ، ١٩٩٨) .

٦. مؤلفات محمد حسنين هيكل (بالإنكليزية والفرنسية) :

Heikal, M.H., **Khomeiny et sa revolution** (Paris: June Afrique, 1983).

--------------, **The Cairo Documents: The Inside Story of Nasser and his Relationships with World Leaders, Rebels and Statemen** (New York: Garden City, Doubleday and Company, Ltd, 1973).

------------, **les Documents du Cairo,** , (Paris: Flammarion, 1972).

-------------, **lass Conflict in Egypt, 1945 - 1970,** (Translated frome French by Michel and Susan Chirman (New York: Monthly Review Press, 1973).

--------------, **le Sphinx et le commissaire: heures et malheurs des Sovietiques au Proche - Orient,** (Paris: Jeune Afrique, 1978).

--------------, **I'Automne de la colere: I'assassinat de Sadat** (Paris: Ramsay , 1983).

--------------, **Autum of Fury: The Assassination of Sadat** (London: Andre Deutsch, 1983).

--------------, **I'Affaire de Suez: un regard egyptien** (Paris: Ramsay , 1987).

--------------, **I' Ilusion du Triomphe** (Paris: Ramsay, 1993).

--------------, **The Road to Ramadan** (New York: Ballentine, 1975).

--------------, **The Road to Ramadan** (London: Fontana, Collins, 1975).

--------------, "Nous et le communisme", **I'Encyclopedie de I' Orient,** no. 193, Paris, 1964.

--------------, "le Monde arabe: le retour de I'Egypte" **Politique, internationale,** no. 32, Paris, 1986.

٧. مقالات محمد حسنين هيكل في مجلة « وجهات نظر »:

- « بطرس غالي بين الوساوس والحظوظ » ، **مجلة وجهات نظر** ، العدد الثاني ، السنة الاولى ، مارس ١٩٩٩ .
- « شخصية الملك حسين : ضرورات الفهم . . قبل الحكم ولكن الى أي مدى ؟! » ، **مجلة وجهات نظر** ، العدد الثالث ، السنة الاولى ، أبريل ١٩٩٩ .
- « حوارات مع القذافي عن الافكار والازمات والناس والزمن » ، **مجلة وجهات نظر** ، العدد الرابع ، السنة الاولى ، مايو ١٩٩٩ .
- « خواطر مسافر » ، **مجلة وجهات نظر** ، العدد الخامس ، السنة الاولى ، يونيه ١٩٩٩ .
- « يوجوسلافيا : من البوسنة الى كوسوفو ومن الاساطير الى الصواريخ » ، **مجلة وجهات نظر** ، العدد السادس ، السنة الاولى ، يوليه ١٩٩٩ .
- « ضوء الشمس : ملاحظة » ، **مجلة وجهات نظر** ، العدد الثامن ، السنة الاولى ، سبتمبر ١٩٩٩ .
- « مفكرات في ملفات ملكية : ١ المعلوم والمكتوم في دور الملك الحسن وسياساته » ، **مجلة وجهات نظر** ، العدد التاسع ، السنة الاولى ، اكتوبر ١٩٩٩ .

- « مفكرات في ملفات ملكية : ٢ الحسن الثاني : قرأ ماكيافيللي أميرا وطبّق آراؤه ملكا ! » مجلة وجهات نظر ، العدد العاشر ، السنة الاولى ، نوفمبر ١٩٩٩ .
- « خريطة العالم العربي / اليوم ١ يناير سنة ٢٠٠٠ » ، مجلة وجهات نظر ، العدد الثاني عشر ، السنة الأولى ، يناير ٢٠٠٠ .

٨. حوارات ومقابلات ومناقشات:

أنيس ، عبد العظيم (ادارة حوار) : ندوة المستقبل العربي « مناقشة كتب محمد حسنين هيكل » حول المفاوضات السرية بين العرب واسرائيل ، المستقبل العربي ، العدد (٢١٤) ، السنة (١٩) ، كانون الاول / ديسمبر ١٩٩٦ .

بكري ، مصطفى مقابلة مع هيكل في جريدة مصر الفتاة بتاريخ ١٩٩١/٨/٦٢ .

جلاب ، فيليب مقابلة مع هيكل في جريدة الأهالي المصرية بتاريخ ١٩٩٢/١/٢٨ .

حموده ، عادل عادل حموده يحاور محمد حسنين هيكل حول لعبة السلطة في مصر ، ط ٢ ، (القاهرة : دار الشروق ، ١٩٩٥) .

خوري ، جيزيل مقابلة تلفزيونية مع هيكل في برنامج «حوار العمر» على قناة LBC اللبنانية الفضائية يوم الأحد ٢٩ تموز / يوليو ١٩٩٩ .

فوزي ، مفيد مقابلة في مجلة صباح الخير المصرية بتاريخ ١٩٩٠/١١/١١ .

عيسى ، صلاح ، مثقفون وعسكر : مراجعات وتجارب وشهادات عن حالة المثقفين في ظل حكم عبد الناصر والسادات ، ط ١ (القاهرة : مكتبة مدبولي ، ١٩٨٦) .

اللوزي ، سليم « حديث محمد نجيب رئيس الجمهورية (المصرية) الاسبق ، مجلة الحوادث اللبنانية ، ١٩٧٣/٨/٣ .

المرغني ، محمود « وجها لوجه : هيكل والمرغني » ، مجلة العربي ، العدد ٣٢٠ ، الكويت ، يناير / كانون الثاني ١٩٨٦ .

مطر ، فؤاد بصراحة عن عبد الناصر : عشرون ساعة حوار مع هيكل (بغداد: دار الشؤون الثقافية ، ١٩٨٩) .

منتصر ، صلاح	مقابلة مع هيكل في مجلة أكتوبر المصرية بتاريخ ١٩٩٠/١١/١٠ .

منصور ، أحمد	حوار تلفزيوني مع حسين الشافعي (برنامج : شاهد على العصر) ، قناة الجزيرة الفضائية بتاريخ ١٩٩٩/١٢/٢٧ .

ـــــ	حوار تلفزيوني مع د . مصطفى خليل (برنامج : شاهد على العصر) ، قناة الجزيرة الفضائية بتاريخ ٢٠٠٠/٢/٢٧ .

قناة الجزيرة الفضائية	حوار مع رئيس الجمهورية الإيرانية الأسبق أبو الحسن بني صدر مساء يوم ٢٠٠٠/١/١٧ (برنامج : زيارة خاصة) .

٩. كتب وأعمال ومقالات عن هيكل:

جاسم ، عزيز السيد	سقوط مدرسة هيكل وأزمة العقل السياسي المصري ، ط١ (بغداد : مكتبة النهضة ، ١٩٨٧) .

درويش ، سائد	محمد حسنين هيكل : رجل كل العصور في أزمة الخليج وحرب الخليج ، ط ١ (عمّان : دانه للعلاقات العامة والنشر والترجمة ، ١٩٩٢) .

الشلبي ، جمال	محمد حسنين هيكل : استمرارية أم تحّول ؟ ترجمة : حياة الحويّك عطيه ، ط ١ (عمّان / بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٩٩) .

زكريا ، فؤاد	كم عمر الغضب : هيكل وأزمة العقل العربي ، ط ١ (الكويت : شركة كاظمة للنشر والتوزيع ، ١٩٨٣) .

ضاهر ، مسعود	« محمد حسنين هيكل : المفاوضات السرية بين العرب واسرائيل (الكتاب الاول : الاسطورة والامبراطورية والدولة اليهودية » ، مجلة المستقبل العربي ، العدد (٢١١) ، السنة (١٩) ، ايلول/ سبتمبر ١٩٩٦ .

عوض ، لويس	أقنعة الناصرية السبعة : مناقشة توفيق الحكيم ومحمد حسنين هيكل ، ط ١ (بيروت : دار الرقي ، ١٩٨٧) .

كروم ، حسين **عبد الناصر بين هيكل ومصطفى أمين** ، ط ١ (القاهرة : دار مأمون للطباعة ، ١٩٧٥) .

محارب ، عبدالله حمد **زيارة لبيت العنكبوت : نقض لبنيان كتاب هيكل : حرب الخليج : أوهام القوة والنصر** ، ط ١ (الكويت : مركز البحوث والدراسات الكويتية ، ١٩٩٥) .

المحلاوي ، حنفي **السادات بين هيكل وموسى صبري** ، ط١ (القاهرة : مكتبة دار العربية للكتاب ، ١٩٩٤) .

همام ، طلعت **هيكل : الرجل اللغز : القصة الكاملة لعلاقة عبد الناصر وهيكل** ، ط ١ (الكرك : دار نصار للنشر والتوزيع ، ١٩٨٤) .

١٠. مراجع مساعدة:

أولا : (بالعربية) :

الاصفهاني ، أبو الفرج **مقاتل الطالبيين** (بيروت : مطبعة دار الكتب ، د . ت .) .

الانصاري ، محمد جابر **تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي ١٩٣٠ - ١٩٧٠** (الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب ، ١٩٨٠-سلسلة عالم المعرفة رقم ٣٥) .

ابراهيم ، سعد الدين **تجسير الفجوة بين المثقفين وصانعي القرارات** (عمّان : منتدى الفكر العربي ، ١٩٨٦) .

أبن خلدون ، عبدالرحمن **المقدمة** ، (بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٦٧) . وانظر : ط ٤ (بيروت : دار احياء التراث العربي ، ١٩٦٧) .

أبو الشعر ، هند **أربد وجوارها (ناحية بني عبيد) ١٨٥٠ - ١٩٢٨** ، ط ١ (عمّان : سلسلة منشورات بنك الاعمال ، ١٩٩٥) .

انطونيوس ، جورج **يقظة العرب : تاريخ حركة العرب القومية** ، ترجمة : ناصر الدين الاسد واحسان عباس ، تقديم : نبيه أمين فارس (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٧٨) .

أوزبران ، صالح الأتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي ١٥٣٤ - ١٥٨١ ، ترجمة : عبد الجبار ناجي (البصرة : منشورات جامعة البصرة ، ١٩٧٩) .

أوزن جارجلي ، اسماعيل حقي امراء مكة المكرمة في العهد العثماني ، ترجمه عن التركية : خليل علي مراد (منشورات جامعة البصرة ، ١٩٨٥) .

أومليل ، علي (تحرير) الغزو العراقي للكويت : الخبرات المستخلصة والخروج من الازمة (عمّان : منتدى الفكر العربي ، ١٩٩٦) .

اوين ، روجر الشرق الاوسط في الاقتصاد العالمي ١٨٠٠ - ١٩١٤ ، ترجمة : سامي الرزاز (بيروت : مؤسسة الابحاث العربية ، ١٩٩٠) .

ايونيدس ، ميشل فرق تخسر : ثورة العرب ١٩٥٥- ١٩٥٨ ،ط١ ، ترجمة حماد خيري حماد (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦١) .

بحري ، يونس أسرار ٢ مايس ١٤٩١ أو الحرب العراقية البريطانية (بغداد : دار الحرية ، ١٩٦٨) .

ـــــ ثورة ١٤ رمضان المباركة / ٨ شباط (فبراير) ، بيروت ، ١٩٦٣ .

بريماكوف ، ي .م تشريح نزاع الشرق الأوسط ، ترجمة : سعيد أحمد ، (دمشق ، مطبعة وزارة الثقافة ١٩٧٩) .

البزاز ، سعد حرب تلد أخرى : التاريخ السري لحرب الخليج ، ط ١ (عمّان : الاهلية للنشر والتوزيع ، ١٩٩٢ - ١٩٩٣) .

البزاز ، عبد الرحمن العراق من الاحتلال الى الاستقلال ، ط ٣ ، بغداد ١٩٦٧ .

البزري ، عفيف الناصرية في حملة الاستعمار الحديث ، ط ١ (دمشق : دار الشرق للنشر والتوزيع ، ١٩٦٢) .

بطاطو ، حنا العراق : الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية ،(الكتاب الاول) ، ترجمة : عفيف الرزاز ، ط١(بيروت : مؤسسة الأبحاث العربية ، ١٩٩٠) .

ـــــ العراق : الحــــزب الشيوعي (الكتاب الشـــاني) ، ترجمة : عفيف الرزاز ، ط١ (بيروت : مؤسسة الابحاث العربية ، ١٩٩٢) .

بلقزيز ، عبد الاله (وآخرون)
الحركة الوطنية المغربية والمسألة القومية ١٩٤٧ - ١٩٨٦ : محاولة في التاريخ ، ط ١ ، بيروت ، ١٩٩٢) .

تشايلدرز ، ارسكين الحقيقة عن العالم العربي ، ترجمة : خيري حماد ، ط١ ، (بيروت ، ١٩٦٠) .

الجالودي ، عليان قضاء عجلون ١٨٦٤ ـ ١٩١٨ ، ط١ (عَمّـان : منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام : الجامعة الاردنية وجامعة اليرموك ، ١٩٩٤) .

جب ، السير هاملتون علم التاريخ ، ترجمة إبراهيم خورشيد ويونس عبد الحميد (بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨٣) .

الجبرتي ، الشيخ عبد الرحمن
عجائب الآثار في التراجم والأخبار (كتاب الشعب ٢٧/٢٩/٣٣) ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

الجمل ، مايسه النخبة السياسية في مصر : دراســـة حالة للنخبة الوزارية ، ط ١ (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٣) .

الجميل ، سيار العثمانيون وتكـــوين العرب الحـــديث : من أجــل بحث رؤيوي معاصر ، ط ١ (بيروت : مؤسسة الأبحاث العربية ، ١٩٨٩) .

ـــــ تكوين العرب الحديث ١٥١٦ - ١٩١٦ ، ط ٢ (عمّان : دار الشروق للطباعة والنشر ، ١٩٩٧) .

ـــــ بقايا وجذور : التكوين العربي الحـديث ، ط١ (عمّان / بيروت : الأهلية للنشر والتوزيع ، ١٩٧٩) .

ـــــ العرب والأتراك : الانبعـاث والتحديث من العثمنة إلى العلمنة ، ط ١ (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٧) .

- **التحــولات العــربية : إشــكاليات الــوعي وتحــليل التناقضات** وخطاب المستقبل ، ط ١ (بيروت / عمّان : الأهلية للنشر والتوزيع ، ١٩٩٧) .
- **النسر الاحمر : صلاح الدين الأيوبي (التجربة والتكوين)** ، ط ١ (بيروت / عمّان : الأهلية للنشر والتوزيع ، ١٩٩٧) .
- **العولمة الجديدة والمجال الحيوي للشرق الاوسط : مفاهيم عصر قادم** ، ط ١ (بيروت : مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق ، ١٩٩٧) .
- **المجايلة التاريخية : فلســفة التكــوين التاريخي (نظرية رؤيوية في المعرفة العربية الإسلامية)** ، ط ١ (بيروت / عمّان : الأهلية للنشر والتوزيع ، ١٩٩٩) .
- **زعماء وأفنديه : الباشوات العثمانيون والنهضويون العرب** ، ط ١ (بيروت / عّمان : الاهلية للنشر والتوزيع ، ١٩٩٩) .
- **الرؤية المختلفة : قراءة نقدية في منهج محمد عابد الجابري (أجوبة الخطاب عن أسئلة التاريخ)** ، ط ١ (بيروت / عمّان : الأهلية للنشر والتوزيع ، ١٩٩٩) .
- **العــولمة والمستقبل : أستراتيجية تفكير ! (العــرب والمسلمون في القرن الحادي والعشرين)** ، ط ١ (بيروت/ عّمان : الأهلية للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٠) .
- « نقد ايبستمولوجية الخطاب العــربي المعاصر » ، مجلة المستقبل العربي ، العدد (١٠٥) ، السنة (١٠) ، نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٨٧ .
- « الخطاب التاريخي العربي في فترة ما بين الحربين العظميين : محاولة ايبستمولوجية في إثارة بعض الإشكاليات » ، مجلة المستقبل العربي ، العدد (١٢٣) ، مايو / أيار ١٩٨٩ .

ـــ « رحلة جوستن بيركنس عبر شمال العراق والأرض الكلاسيكية عام ١٨٤٨ » ، مجلة المورد ، المجلد (١٨) ، العدد (٤) ، بغداد ١٩٨٩ .

ـــ « المجال الحيوي للشرق الأوسط » ، **المستقبل العربي** ، العدد (١٨٤) ، السنة (١٧) ، حزيران/ يونيو ، ١٩٩٤ .

ـــ « انتلجينسيا العـــراق : التكوين . . الاستنارة . . السلطة » ، **المستقبل العربي** ، العدد (١٣٩) ، السنة (١٣) ، ايلول/ سبتمبر ١٩٩٠ ؛ ونشر فصلا في كتاب : **الثقافة والمثقفون في الوطن العربي** (تأليف نخبة من المؤلفين) (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٣) .

ـــ « نقد تاريخانية التفكير العربي المعاصر : تفكيك مفاهيم» ، **المستقبل العربي** ، العدد (١٦٠) ، السنة (١٥) ، حزيران / يونيو ١٩٩٢ .

ـــ « نشأة العلاقات العراقية ـ الأمريكية وتطـــورها ١٩٤٢ ـ ١٩٦٨ » ، الندوة ، جمعية الشؤون الدولية ، عمّان ، المجلد ٧ ، العدد الاول ، شباط / فبراير ١٩٩٦ .

ـــ « الخلافات الحدودية والإقليمية بين العرب والإيرانيين » – الورقة العربية الثانية – في : عبد العزيز الدوري وآخرون ، **العلاقات العربية الإيرانية : الاتجاهات الراهنة وآفاق المستقبل** ، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمّها مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون مع جامعة قطر ، ط ١ (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٦) .

ـــ « العراق والتكوين الاقليمي للخليج العربي خلال العهد العثماني » ، **المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية** ، العدد (١٧ – ١٨) ، فترسي / تونس ، سبتمبر / ايلول ١٩٩٨ .

ـــ « عقيب على ورقة السيد يسين » في النـــدوة الفكرية عـــن العرب والعولمة في كتاب : **العرب والعولمة** ، ط١ (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٩) .

———— « مفهوم الدولة وركائزها : تجـربة الحكومة العربية في دمشق : مشروع الملك فيصل في بناء دولة عربية اتحادية (الولايات العربية المتحدة) في كتاب : بناء الدولة العربية الحديثة : تجربة فيصل بن الحسين في سورية والعراق ، اعداد وتحرير : هند أبو الشعر (عمّان : منشورات جامعة آل البيت ، ١٩٩٩) .

———— « الديمغرافيـة التاريخية لمدينة القدس وجوارهـا في القرن السادس عشر» ، مجلة الاجتهاد ، بيروت ، العدد (٤٤) ، السنة (١١) ، خريف العام ٩٩٩١ .

———— « الصورة الاخـرى : قراءة تحليلية وحفريات معرفية في الصيرورة التاريخية للسيد جمال الدين الافغاني » في : جمال الدين الافغاني : عطاؤه الفكري ومنهجه الاصلاحي (اعمال وقائع الحلقة الدراسية التي عقدت بعمّان / الاردن بتاريخ ١٩ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٩٨ والتي نظّمها : المعهد العالمي للفكر الاسلامي مع المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة ، تحرير : ابراهيم غرايبه ، ط ١ ، عمّان ، ١٩٩٩ .

جونستون ، السير تشارلز الاردن على الحافة ، ترجمة وتعريب : فهمي شما ، ط ٢ (عمّان : وزارة الثقافة ، ١٩٩٦) .

الحباشنة ، سمير « تواريخ مشوّشة حان زمن تصحيحها واستنتاجات جائرة ينبغي العودة عنها » ، جريدة الزمان اللندنية ، العدد (٣١٤) ، ٢٨ - ١٩٩٩/٨/٢٩ .

الحبيب ، محسن حسين حقائق عن ثورة ١٤ تموز في العراق (بيروت : دار الاندلس ، ١٩٨١) .

حسن ، محمد سلمان دراسات في الاقتصاد العراقي (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦٦) .

الحسني ، عبد الرزاق تاريخ الوزارات العراقية ، الاجزاء ١ - ٦ ، ط ٤ (بيروت : مطبعة دار الكتب ، ١٩٧٦) .

ـــــــ تاريخ العراق السياسي الحديث ، ج ١ ، ط٦ ، (بيروت : مطبعة دار الكتب ، ١٩٧٤) .

حسين ، خليل ابراهيم اللغز المحيّر : عبد الكريم قاسم ، ج ٦ (بغداد : دار الحرية للطباعة ، ١٩٨٩) .

حسين ، فاضل ، (وآخرون) ، تاريخ العراق المعاصر ، (بغداد : مطبعة جامعة بغداد ، ١٩٨٠) .

حسين ، طه مستقبل الثقافة في مصر ، (القاهـــرة : مطبعة المعارف ومكتبتها ، ١٩٣٨) (بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨٢) .

حسين ، محمد أحمد الوثائق التاريخية ، القاهرة ، ١٩٥٤ .

الحصري ، خلدون ساطع ثورة ١٤ تموز وحقيقة الشيوعيين في العراق ، ط ١ (بيروت : دار الطليعة للطباعة والنشر ، ١٩٦٠) .

حمروش ، أحمد ثورة يوليو والفكر المصري (القاهرة : مكتبة مدبولي ١٩٨٥) .

الحمود ، نوفان رجا عُمان وجوارها خلال الفترة ١٢٨١هـ /١٨٦٤م - ١٣٤٠هـ / ١٩٢١م ، ط ١ (عمّان : منشورات بنك الاعمال ، ١٩٩٦) .

الحموي ، ياقوت معجم البـلدان ، تحقيق : فريد عبد العزيز الجندي ، ج ٣ (بيروت : دار الكتب العلمية ، د . ت .) .

حميدي ، جعفر عباس التطورات السياسية في العراق ١٩٤١ - ١٩٥٣ ، (النجف ، ١٩٧٦) .

حنفي ، حسن الدين والثـــورة في مصر ١٩٥٢ - ١٩٨١ (٤ الديـــن والتنمية القومية) ، (القاهرة : مكتبة مدبولي ، ١٩٨٩) .

حوراني ، البرت الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨ - ١٩٣٩ ، ترجمـــة : كريم عزقول ، ط ٣ (بيروت : دار النهار ، ١٩٧٧) .

خالد ، غانم وحيد أثر المثقفين العرب في تطور العراق المعاصر ١٩٢١ - ١٩٤١ (أطروحة دكتوراه غير منشورة) باشراف : أ . د . سيّار الجميل (جامعة الموصل ، العراق ، ١٩٩٥) .

خدوري ، مجيد عرب معاصرون : أدوار القـادة في السياسة (بيروت : الدار العربية المتحدة للنشر ، ١٩٧٣) .

ـــ العراق الجمهوري (مترجم عن الإنكليزية) ، بيروت ، ١٩٧٤ .

الدرة ، محمود الحرب العراقية البريطانية ١٩٤١ (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦٩) .

الدوري ، عبدالعزيز بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب (بيروت : الكاثوليكية ، ١٩٦٠) .

ـــ التكوين التاريخي للامة العربية : دراسة في الهوية والوعي ، ط ١ (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٤) .

رستم ، أسد مصطلح التاريخ ، (بيروت : الكاثوليكية ، ١٩٣٩) .

رمضان ، عبدالعظيم حرب الخليج في الميزان التاريخي ، ط١ (القاهرة : الزهراء للاعلام العربي ، ١٩٩١) .

الروسان ، ممدوح العراق والسياسة العربية ١٩٢١ ـ ١٩٤١ (رسالة ماجستير غير منشورة) جامعة القاهرة ١٩٧٢ .

ـــ « الملك فيصل والوحـدة العربية ١٩٣٠ – ١٩٣٣» في كتاب : بناء الدولة العربية الحديثة : تجربة فيصل بن الحسين في سورية والعراق ، تحرير : هند أبو الشعر (عَمان : منشورات جامعة آل البيت ، ١٩٩٩) .

رياض ، محمود البحث عن السلام والصراع في الشرق الأوسط ١٩٤٨ – ١٩٧٨ (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨١) .

الريماوي ، سهيلة جمعية العربية الفتاة السرية : دراسة وثائقية ١٩٠٩ ـ ١٩١٨ ، ط١ (عَمان : دار مجدلاوي للنشر والتوزيع ، ١٩٨٨) .

زريق ، قسطنطين نحن والتاريخ ، بيروت ، ١٩٧٤ .

زيادة ، خالد حكاية فيصل ، بيروت ، ١٩٩٩ .

زين ، زين نور الدين الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان ، ط٢ ، (بيروت : دار النهار ، ١٩٧٧) .

سعيد ، أمين أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين (بيروت : دار الكتاب العربي ، د . ت .) .

سلامه ، غسان المجتمع والدولة في المشرق العربي ، ط ١ (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٧) .

سلطان ، علي تاريخ سورية : حكم فيصل بن الحسين (١٩١٨ - ١٩٢٠) (دمشق : دار طلاس ، ١٩٨٧) .

سوسه ، أحمد العرب واليهود في التاريخ (بغداد : وزارة الثقافة والاعلام ، ١٩٧٢) .

السويدي ، جمال سند (اعـداد) ايران والخليج : البحث عن الاستقرار ، ط ١ (أبو ظبي : مركز الامارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية ، ١٩٩٦) .

السيد ، عفاف لطفي تجربة مصر الليبرالية ، ١٩٢٢ - ١٩٣٦ (القاهرة : المركز العربي للبحث والنشر ، ١٩٨١) .

الشافعي ، محمد (تحرير) الفخ الأمريكي (القاهرة : دار الشباب العربي ، ١٩٩٢) .

الشامي ، رشاد إشكالية الهـوية في إسـرائيل ، ط ١ (الكويت : عالم المعرفة رقم ٢٢٤ - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، ١٩٩٧) .

شحاته ، رضا أحمد تطور واتجاهات السياسة الخارجية الأمريكية نحو مصر منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥ حتى انتهاء حرب السويس ١٩٥٦ (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٥) .

شرابي ، نظام السياسـة الأمريكية في الوطن العربي ، ط ١ (بيروت : رياض الريس للكتب والنشر ، ١٩٩٥) .

شرابي ، هشام النظام الأبوي وإشكالية تخلف المجتمع العـربي ، ط٢ (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٣) .

شكري ، غالي النهضة والسـقوط في الفكـر المصري الحديث (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٧٨) .

صالح ، زكي مقدمة في دراسة العراق المعاصر ، ط ١ (بغداد : مطبعة الرابطة ، ١٩٥٣) .

ضريف ، محمد النسق السياسي المغربي المعاصر : مقاربة سوسيو ـ سياسية (الرباط : منشورات المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي ، ١٩٩٣) .

الطالباني ، جلال كردستان والحركة القومية الكردية ، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٧١ .

الطراونة ، محمد سالم تاريخ منطقة البلقاء ومعان والكرك ١٨٦٤ ـ ١٩١٨ ، ط ١ (عمّان : وزارة الثقافة ، ١٩٩٢) .

طريف ، جورج فريد السلط وجوارها ١٨٦٤ ـ ١٩٢١ ، ط ١ (عمّان : سلسلة منشورات بنك الاعمال ، ١٩٩٤) .

العارف ، أسماعيل أسرار ثورة ١٤ تموز وتأسيس الجمهورية العراقية (لندن ، ١٩٨٦) .

عبد الفتاح ، فكرت نامق سياسة العراق الخارجية في المنطقة العربية ١٩٥٣ - ١٩٥٨ ، (بغداد : دار الحرية للطباعة ، ١٩٧٨) .

العروي ، عبد الله العرب والفكر التاريخي ، بيروت / الدار البيضاء ، ١٩٨٣ .

ـــــ مفهوم التاريخ : الالفاظ والمذاهب ، ج ١ ، ط ٢ (بيروت / الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي ، ١٩٩٢) .

ـــــ مجمل تاريخ المغرب ، ط ١ (بيروت / الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي ، ١٩٩٤) .

العظمة ، عزيز الكتابة التاريخية والمعرفة التاريخية ، (بيروت : دار الطليعة للطباعة والنشر ، ١٩٨٣) .

العمري ، خيري حكايات سياسية في تاريخ العراق الحديث ، القاهرة ، ١٩٦٩ .

ـــــ الخلاف بين البلاط الملكي ونوري السعيد ، ط١ ، (بغداد : مطبعة المعارف ، ١٩٧٩) .

العمري ، محمد طاهر المصيب

تاريخ مقدرات العراق السياسية ، ٣ أجزاء ، بغداد ١٩٢٥(ألفه أمين العمري ونشره بأسم أخيه محمد طاهر لأسباب سياسية) .

عيسى ، صلاح — الكارثة التي تهدّدنا : مرافعات ضد أهلية البرجوازية المصرية لقيادة الحاضر وصنع المستقبل ، ط ١ (القاهرة : مكتبة مدبولي ، ١٩٨٧) .

غالب ، صبيح علي — قصة ثورة الرابع عشر من تموز والضباط الاحرار ، بيروت ، ١٩٦٨ .

الفكيكي ، هاني — أوكار الهزيمة : تجربتي في حزب البعث العراقي ، ط ١ (بيروت : رياض الريس للكتب والنشر ، ١٩٩٥) .

فوزي ، فاروق عمر — المدخل الى تاريخ آل البيت منذ فجر الاسلام وحتى مطلع العصر الحديث ، ط ١ ، (عمّان : جامعة آل البيت ، ١٩٩٨) .

ـــــ « آل البيت » ، مجلة الزهراء ، العدد (٩) ، جامعة آل البيت بالاردن ، ايلول / سبتمبر ١٩٩٥ .

ـــــ « مقالة آل البيت» ، موسوعة الحضارة الاسلامية ، مؤسسة آل البيت / عمّان ، ١٩٩٩ .

قاسمية ، خيرية — الولايات المتحدة والوطن العربي في الفترة ما بين الحربين - السياسة الامريكية والعرب - (سلسلة كتب المستقبل العربي رقم٢) ط ٢ (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٥) .

قرقوط ، ذوقان — تطور الفكرة العربية في مصر ١٨٠٥ - ١٩٣٦ ، بيروت ، ١٩٧٢ .

قرم ، جورج — التنمية المفقودة : دراسات في الازمة الحضارية والتنموية العربية (بيروت : دار الطليعة للطباعة والنشر ، ١٩٨١) .

القيسي ، سامي — « اوراق عراقية في الوثائق البريطانية » ، مجلة آفاق عربية ، ايلول / سبتمبر ١٩٨٥ .

كامل ، مصطفى — شرح القانون الأساسي العراقي ، بغداد ، ١٩٤٧ .

الكبيسي ، خليل — سياسة العراق الخارجية في المنطقة العربية ١٩٥٠ـ ١٩٦٨ (أطروحة دكتوراه مقدمة الى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٦ .

كروازيه ، جان بول وتيير وايتس
الخليج : الحرب الخفية : التكنولوجيا العسكرية : الخطط الحربية : المعارك الجوية والبرية ، ط١ (قبرص : شركة الارض ودار قرطبة للنشر والتوثيق والأبحاث ، ١٩٩١) .

كروم ، حسنين عبد الناصر المفترى عليه (القاهرة : مكتبة مدبولي ، ١٩٩٥) .

كريسيليوس ، دانيال جذور مصر الحديثة ، ترجمه وعلق عليه : عبد الوهاب بكر ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٥ .

كشك ، محمد جلال ثورة يوليو الامريكية : علاقة عبد الناصر بالمخابرات الامريكية ، ط ٢ (؟ : الزهراء للاعلان العربي ، ١٩٨٨) .

كوبلاند ، مايلز لعبة الامم اللاخلاقية في سياسة القوة الامريكية ، تعريب : مروان خير ، ط١ (بيروت : الانترناشنال سنتر ، مكتبة الزيتونة ، ١٩٧٠) .

لبيب ، سلوى جامعة الدول العربية ١٩٤٥ - ١٩٦٤ (أطروحة دكتوراه ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة ، ١٩٧١) .

لنشوفسكي ، جورج الشرق الأوسط في الشؤون العالمية ، ج٢ ترجمة : جعفر خياط ، (بغداد ، ١٩٦٥) .

لورنس ، توماس ادوارد لورنس العرب : أعمدة الحكمة السبعة ، ترجمة : محمد نجار (عمان / بيروت : الاهلية للنشر والتوزيع ، ١٩٩٨) .

مجموعة من الباحثين الذاكرة التاريخية لثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ (بغداد : وزارة الثقافة والاعلام ، ١٩٨٨) .

مجموعة من الباحثين أزمة الخليج قبل الحرب وبعدها : أزمة الخليج أبعادها ومخاطرها ، حرب الخليج ووعي التغيير الحضاري ، ط ١ (الرباط : منشورات المجلس القومي للثقافة العربية ، ١٩٩١) .

مجموعة من الباحثين العرب وتحديات النظام العالمي ، ط١ (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ٢٠٠٠) .

مجموعة من المفكرين أزمة الخليج وتداعياتها على الوطن العربي ، ط ١ (بيروت :مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩١) .

محافظه ، علي تاريخ الاردن المعاصر : عهد الامارة ١٩٢١ ـ ١٩٤٦ ، ط١ (عمّان : الجامعة الأردنية ، ١٩٧٣) ، ط٢(عمّان : مركز الكتب الأردني ، ١٩٨٩) .

ـــــ النشأة التاريخية للجامعة العربية (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٢) .

مصطفى ، أحمد حسن مذكراتي السياسية في واشنطن ، ط١ ، (بغداد/ ١٩٩٠) .

مقدسي ، أنطون حرب الخليج : اختراق الجسد العربي ، ط ١ (بيروت : رياض الريس للكتب والنشر ، ١٩٩٥) .

الموسى ، سليمان الحركة العربية (بيروت : دار النهار ، ١٩٧٧) .

ـــــ « فيصل بن الحسين ممثل العرب في مؤتمر السلام » في كتاب : بناء الدولة العربية الحديثة : تجربة فيصل بن الحسين في سورية والعراق ، تحرير : هند أبو الشعر ، (منشورات جامعة آل البيت ، ١٩٩٩) .

ناتنج ، انتوني ناصر ، ترجمة : شاكر إبراهيم سعيد ، ط ٢ (القاهرة : مكتبة مدبولي ، ١٩٩٣) .

نصر ، مارلين « القومية والدين في فكر عبد الناصر » ، مجلة المستقبل العربي ، بيروت ، السنة (٣) ، العدد (٤٢) ، شباط / فبراير ١٩٨١ .

النقيب ، خلدون المجتمع والدولة في الخليج العربي والجزيرة العربية (من منظور مختلف) ، ط ٢ (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٩) .

ـــــ الدولة التسلطية في المشرق العربي المعاصر : دراسة بنائية مقارنة ، ط ٢ (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٦) .

نوار ، عبد العزيز تاريخ العرب المعاصر : مصر والعراق (بيروت : دار النهضة العربية ، ١٩٧٣) .

نورس ، علاء « الملك فيصل الاول وازمـــة الحكم في العراق » ، في كتاب : بناء الدولة العربيـة الحديثة : تجربة فيـصل بن الحسين في سورية والعراق ، تحرير : هند أبو الشعر ، (منشورات جامعة آل البيت ، ١٩٩٩) .

الوردي ، علي دراسة في طبيعة المجتمع العراقي : محاولة تمهيدية لدراسة المجتمع العربي الاكبر في ضوء علم الاجتماع الحديث ، ط١ (بغداد : مطبعة العاني ، ١٩٦٥) .

وولف ، جان يقظة العالم العربي ، نقله إلى العربية : لجنة من الاساتذة الجامعيين ، ط١ ، (بيروت : مطابع دار الكشاف ، ١٩٦٠) .

ويليه ، فرنان الأسس التاريخية لمشكلات الشرق الأوسط ، ترجمة : نجدة هاجر وطارق شهاب ، ط١ (بيروت ، ١٩٦٠) .

ثانيا : (بالإنكليزية والفرنسية) :

Abu Jaber, Kamel, **The Jordanians and the People of Jordan**, Amman, 1980.

Abujaber, Raouf Sa'ad, **Pioneers Over Jordan: The Frontier of Settlement in Transjordan, 1850 - 1917** (London: I.B. Tauris & Co. Ltd., 1989).

Agwani, Mohammed Shafi, **The United States and the Arab World, 1945 - 1952** (Aligarah: Institute of Islamic Studies, Muslim University, 1955).

Akarli, Engin, **Jordan Ottoman for the chice and Administrative center in the light of Documents on Horan** (1909 - 1910), (Amman: Publication of Jordan University, 1989).

-----------------, "Establishment of Ma'an - Karak Motassarrifiyya, 1891 - 1894" **Dirasat**, vol 13, Jordanian University, 1986.

Antonius, George, **The Arab Awaking: The Story of the Arab Movement**, London, 1938.

Badeau, J.S., **The American Approach to the Arab World** (New York: Harper and Row, 1968).

Batatu, Hanna, **The Old Social Classes and the Revo - tutionaty Movements of Iraq: A Study of Iraqs Old Landed and Commercial Classes and of its Communists, Ba'thists and Free Officers,** (Princeton N. J.: Princeton University Press, 1978).

Ben Baraka, Mehdi, **Option revolutionnaire au Maroc** (Paris: Maspero, 1966).

Bernard, Stephane, **The Franco - Moroccan Conflict, 1943 - 1956**. (New Haven: Yale University Press, 1968).

Berque, J., **Ulemas, fondateurs et insurges du Maghreb XVII siecle,** (Paris: Sindbad, 1982).

Bidwell, Robin L., **Morocco under Colonial Rule: French Administration of Tribal Areas, 1912 - 1956** (London: Cass, 1973).

Bosworth, C. E., **The Islamic Dynasties: A Chroelgical and Genealogical Handbook,** (Edinburgh: Edinburgh University Press, 1980).

Cagne, J, "Nation et nationalisme au Maroc "in **Bulletin de Ia societe d' Histoire du Maroc,** no. 1, 1968.

Chouraqui, Andre N., **Between East and West: A History of the Jews of North Africa** (New York: Atheneum, 1973).

Copleand, Miles, **The Game of Nations** (London: Weidenfeld & Nicolson, 1969).

-----------------, **Without Cloak or Dagger: the Truth About The New Espionage,** (New York: Simon and Shuster, 1974).

Cremeans, Charles, **The Arabs and the World: The Elements of Foreign Policy,** (London: Mc Millan Press Ltd 1976).

Dann, Uriel, **Iraq under Qassem: A Political History, 1958 - 1963** (New York, 1969).

DeNova, J. A., **American Interests and Policies in the Middle East** (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1963).

Dutt, R. P., **Problems of Contemporary History**,.London, 1963.

Eric. Laurent, **Hassan II: La memoir d'un roi** (Paris: Plon, 1993).

Gallman, Waldemar J., **Iraq Under General Nuri,** (Baltimore, 1964).

Gelbert, Lionel, **American in Britain's Place: The Leadership of the West and Anglo - American Unity** (New York: Frederick A. Praeger. 1961).

Ghorbal, Shafik, **The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Mehemet Ali,** London, 1928.

Glubb, Sir John Bagot, **Britain and the Arabs: A Study of 50 Years, 1908 - 1958** (London: Hodder and Stoughton, 1959).

Hassan II, **The Challenge: The Memoirs of King Hassan II of Morocco** (London: MacMillan, 1979).

Hirst, David and Irene Beeson, **Sadat** (London: Faber and Faber Ltd., 1981).

Hourani, Albert, Philip S. Khoury and Mary C. Wilson (eds.), **The Modern Middle East** (London. New York: I.B. Tauris & Co Ltd Publishers, 1993).

Jackson, Elmore, **Middle East Mission: The Story of a major bid for Peace in the time of Nasser & Ben Gurion** (London, New York: W. W. Nortone & Co., 1983).

Jamous, R., **Honneur et Baraka: les structures sociales traditionnelles dans le Rif** (Paris, 1981).

Kazziha, Walid, **The Social History of Southern Syria (Trans Jordan) in the 19th and Early 20th Century** (Beirut: Beirut Arab University, 1972).

Kerr, Malcolm H. , **The Arab Cold War** (Oxford: Oxford University Press, 1971).

Khadduri, Majid **Independent Iraq 1932 - 1958: A Study in Iraqi Politics,** (London, 1960).

------------------- **Republican Iraq** (New York: Oxford University Press, 1969).

------------------- **Political Trensds in the Arab World,** (Baltimore: John Hopkins University, 1970).

Lacouture, Jean, "Les Hommes: Mohammed Hassanein Heykal", **Maghreb - Mashrek,** Paris, Maijuin, 1974.

Laroui, Abdallah, **la Crise des intekkectuels arabes** (Paris: Seuil, 1972).

---------------------, **The History of the Maghrib: An Interpretive Essay** (Princeton: Princeton University Press, 1977).

Lawrence, Th. E., **The Seven Pillars of Wisdom: A Triumph, Harmondsworth** (London: Penguin, 1969).

Lengyel, Emil, **The Changing Middle East** (New York: John Day and Co., 1960).

Lewis, Bernard, **Jews of Islam** (Princeton: Princeton University Press, 1984).

Lewis, Norman, **Nomads and Setters in Syria and Jordan 1800 - 1980** (Cambridge: Cambridge University Press, 1987).

Lorimer, John Gordon, **Gazetter of the Persian Gulf, Gulf, Oman and Central Arabia,** Completed and edited by R.L. Birdwood, 6 vols. (Calcutta: Superintendent Govt. Printing, 1908 - 1915).

Lunt, James, **Hussein of Jordan: A Political Biography** (London: MacMillaan, 1989).

Lyons, M. C. and David E. P. Jackson, **Saladin: The Politics of the Holy War** (Cambridge: Cambridge University Press, 1982).

Mahdavy, H., "The Patterns and Problems of Economic Development in Rentier States: The Case of Iran ", in : M. A. Cook (ed.), **Studies in Economic History of the Middle East: From the Rise of Islam to the Present Day** (London: Oxford University Press, 1970).

Mansfeild, Peter, **The Arabs**, (London, 1980).

Meyers, Allan R., "Patronage and Protection: The Status of Jews in Precolonial Morocco" in Walter P.Zenner and Shlomo Dashen (eds.), **Jewish Societies in the Middle East** (Lanham, Maryland: University Press of America, 1982).

Miquel, Andre, **La Geographie humaine de monde Muslman ju squ milieu de 11 siecle** (Paris· Mouton, 1973).

Monroe, Elizabeth, "John Foster Dulles and the Middle East: Appraisal of the Late Secretary of State's Accomplishments", **Western World**, II. (August 1959).

Nasser, Munir, **Press, Politics and Power: Egypts Heikal and Al-Ahram** (lowa:

The State University Press, 1979).

Neff, Donald, **Warriors at Suez: Eisenhower takes America in to the Middle East** (New York. The Linden Press, 1981).

Nelson, Harold D., **Morocco: A Country Study: Foreign Area Studies** (Washington, D.C.: Library of Congress Cataloging-in- Publication Data, 1986).

Patterson, Thomas, **American Foreign Policy: A History Since 1900** (2nd ed.), (London: D.C. Heath & Co. Lexington 1983).

--------------, **(ed.), Major Problems in American Foreign Policy, Documents & Essays**, vol II. 2nd ed. (London: D.C. Heath & Co. Lexing ton, 1984).

Perlamnn, M., "Egypt Versus the Baghdad Pact", **Middle Eastern Affairs**, vol. VII. (March 1959).

Plok, W.R., **The United States and the Arab World** (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1965).

Prior, Michael, **Zionism and the State of Israel: A Moral Inguiry** (New York: Routledge, 1999).

Richard, J., **The Latin Kingdom**, tran. By Janet Shirly, 2 vols., Amsterdam, 1979.

Rosenthal, Franz, **Knowladge Triumphant: the Concept of Knowladge Medieval Islam** (E.J. Brill & Lieden, 1970).

Runciman, S., **A History of the Crusades**, 5 vols., London, 1978.

Sadat, Anwar, **In Search of Identity** (London: Collins, 1978).

Salinger, Pierre and Eric Laurent, **Gurerre de Golfe: Le Dossier Secret** (Paris: Olivier Orban, 1991).

Sehimi, M, **Citations de S. M. Hassan II**, ler edition. 1981.

Sharabi, Hisham B. **Governments and Politics of the Middle East in the Twentieth Century**, (London, 1962).

--------------------, **Nationalism and Revolution in the Arab World** (New York: D. Van Nostrand Co. Inc., 1966).

Shwadran, Dengamin, **The Middle East Oil and the Great Powers**, (New, York,

1973).

Snow, Peter, **Hussein** (London: Barrie & Jenkins, 1972).

Spanier, J. W., **American Foreign Policy Since World War II** (New York: Frederick A. Praeger, 1969).

Sparrow, Gerald, **Hussein of Jordan** (London: Harrap, 1960).

St. John, Robert, **The Boss: The Story of Gamal Abdel Nasser** (New York: McGraw Hill Book Co., 1960).

Sterling, Clarire, " How The United States Saved Nasser", **The Reporte**, XC, No. 12 (December 13, 1956).

Stillman, Norman A. " The Moroccan Jewish Experience: A Revisionist View, " **Jerusalem Quarterly**, 9, Fall 1978.

The Encyclopedia Britannica, vol. 10, "Morocco".

Tibawi, A. L., **The Islamic Points Foundations in Jerusalem: Origins, History and Usurpation by Israel** (London: The Islamic Culture Center, 1978).

Trevelyan, Humphrey, **The Middle East in Revolution** (London: Mc Millan & Co. 1970).

Vance, Vick et Pierre Lauer, **Hussein de Jordanie: Ma " Guerre" A Vec Israel** (Paris: Editions Albin Michel, 1968).

Vatikiotis, Panayiotis J., **The History of Egypt: From Muhammad Ali to Sadat**, 2nd ed. (London: Weidenfeld and Nicolson, Baltimore, Mad.: John Hopkins University Press, 1980).

المؤرخ العربي
الدكتور سيّار الجميل

- ولد في الموصل/العراق ١٩٥٢.
- اكمل دراساته في الجامعات البريطانية ونال الدكتوراه في جامعة سانت اندروس الاسكتلندية ١٩٨٢.
- عمل والقى محاضراته في جامعات عدة منها: وهران بالجزائر/تونس الاولى/الموصل بالعراق/اليرموك وال البيت في الأردن.
- أستاذ زائر في جامعة كيل/ألمانيا الغربية.
- حاصل على جائزة شومان الدولية للعلوم الإنسانية منفرداً عام ١٩٩١م وعلى براءة تقدير عام ١٩٩٢... وحامل قلادة الإبداع للعلماء المتميزين ١٩٩٥ ورشح أحد أعماله مؤخراً لنيل جائزة دولية.
- له حضوره في المؤتمرات الدولية واسهاماته في تطوير البحث العلمي العربي، ومشاركاته في موسوعات علمية عالمية... فضلاً عن كونه عضواً مشاركاً ومؤازراً في هيئات وجمعيات علمية عربية ودولية.
- عضو هيئة تحرير وهيئة استشارات في عدد من الحوليات والدوريات والموسوعات العلمية.
- أشرف على عدد كبير من اطروحات الماجستير والدكتوراه في التاريخ العثماني وتاريخ العرب الحديث والمعاصر.
- وله عشرات الأبحاث والدراسات المنشورة - في مجلات وحوليات محكمة بالعربية والإنكليزية فضلاً عن أعماله في مؤلفات مشتركة عدة.

من مؤلفات الأستاذ
الدكتور سيّار الجميل

* التحقيق النقدي لحوليات الدر المكنون ٣ مجلدات، ادنبرة ١٩٨٣
* العثمانيون وتكوين العرب الحديث من أجل بحث رؤيوي معاصر، بيروت، ١٩٨٩
* حصار الموصل : الصراع الإقليمي الموصل، ١٩٩٠.
* تكوين العرب الحديث، ط٢، عمّان، ١٩٩٧
* الدليل التاريخي، بغداد، ١٩٩٣
* التحولات العربية : اشكاليات الوعي وتحليل التناقضات وخطاب المستقبل، عمّان/بيروت، ١٩٩٧.
* بقايا وجذور: التكوين العربي الحديث، عمان/ بيروت ١٩٩٧.
* النسر الأحمر : صلاح الدين الأيوبي ، عمّان/ بيروت، ١٩٩٧.
* العرب والأتراك : الإنبعاث والتحديث من العثمنة إلى العلمنة - بيروت ، ١٩٩٧.
* العولمة الجديدة والمجال الحيوي للشرق الأوسط (بيروت : ١٩٩٧).
* المجايلة التاريخية : فلسفة التكوين التاريخي (نظرية رؤيوية في المعرفة العربية الإسلامية) (عمّان/بيروت ، ١٩٩٩).
* زعماء وأفندية : الباشوات العثمانيون والنهضويون العرب(عمّان/بيروت ، ١٩٩٩).
* الرؤية المختلفة: قراءة نقدية في نهج محمد عابد الجابري (عمّان / بيروت، ١٩٩٩)
* العولمة والمستقبل: استراتيجية تفكير ! (العرب والمسلمون في القرن الحادي والعشرين) (عمّان/ بيروت، ٢٠٠٠).

Deconstructing Heikal

A Critical Encounters of Muhammad Hasanain Heikal's Stemmae

by

Sayyar K. Al-Jamil

Professor of Modern History and Contemporary Thought

University of Al al-Bait, Jordan

2000



تفكيك هيكل

يأتي مشروع « تفكيك هيكل » ، على يد المؤرخ العربي « سيّار الجميل » ليجيب على أسئلة لا تعدّ ولا تحصى ، من خلال مكاشفاته النقدية في إشكاليات محمّد حسنين هيكل.

سيّار الجميل واحد من أبرز أساتذة التاريخ الحديث والمعاصر في الوطن العربيّ ، وقد أمضى ثلاثة عقود في معالجة الوقائع ومماحكة الأدلة والمرويات والأحداث والشهود ، منطلقاً من مبدأ الدفاع عن العقل العربيّ الذي يمكن أن تقع عليه ظلال كثيرة .

وهو واحد من المثقفين العرب المعدودين ، الذين يشتغلون على مشروع إعادة قراءة التاريخ وتصنيف وقائعه والتثبت من مروياته وأحداثه ؛ وقد قدّم نظريّته في عدّة كتب قرأ فيها سفر تكوين العرب الحديث ومحطات النهضة العربية الحديثة وكبواتها ؛ وكان آخرها كتابه (المجايلة التاريخيّة : فلسفة التكوين التاريخيّ) ، الذي صدر قبل بضعة أشهر عن الدار الأهليّة .

وحياديّة الدكتور سيّار الجميل لم تأت من موضوعيّته ومنهجه العلميّ الصارم فقط ، بل من استقلاليته السياسيّة التي جعلته غير محسوب على أيّ تيار أو منهج سياسيّ لأيّ حزب أو دولة ، فهو محاضر في التاريخ الحديث والفكر المعاصر في جامعات عربيّة وغير عربيّة توزعت ما بين تركيّة وألمانية وتونس والجزائر والمغرب وبريطانية والأردنّ والعراق ولبنان ، ووطنه ليس في الجغرافية بل في التاريخ الذي نذر نفسه للبحث فيه والإضاءة على عتماته القصيّة .

قد يبدو الكتاب لاذعاً في بعض طروحاته مثلما يبدو ليّناً في بعضها الآخر . لكنّ تحليلاته لا تنبني على موقف شخصيّ ، بل على استقراء عميق لما قدّمه الأستاذ محمّد حسنين هيكل في كتاباته المختلفة ، من رؤى ووقائع ومقولات يرى المؤلّف أنّها « من شمع ما لبث أن ذاب حين لسعته شمس الحقيقة » !!

الناشر